

النَهْضَةُ الْإِسْلَامِيَّةُ

فِي سِيرِ أَعْلَامِهَا الْمُعَاصِرِينَ

تَأَلَّفَ

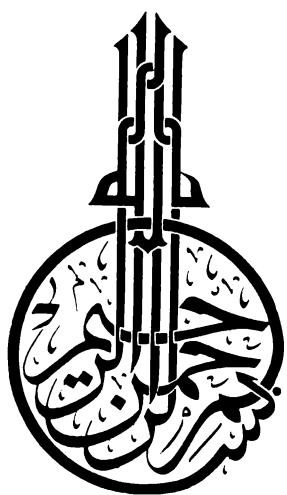
الدُّكْتُورُ مُحَمَّدُ جَبْرِ الْبُسُوفِي

عَمِيكَةُ اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ بِالضُّوْقِ

الْجُزْءُ الثَّالِثُ

الدَّارُ السَّامِيَّةُ
بِירוَت

دارُ القلم
دمشق



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة (الجزء الثالث)

وما تشاؤون إلا أن يشاء الله!

كان من المفروض أن يصدر هذا الكتاب في جزئه السابقين فحسب، ولذلك وضعت الخاتمة في آخر الجزء الثاني.

ولكنني فوجئت بما لم أتوقع، فقد ازدحم عليّ سيل من الخطابات عقب صدور الكتاب بمجلديه تطالب بالحديث عن شخصيات تحددها بالاسم، ومنها هؤلاء الأعلام؛ طاهر الجزائري، وأبو الكلام آزاد، وعلاّ الفاسي، ومصطفى صبري، وعلي الطنطاوي، ومحمد الغزالي، وحسن عبد الوهاب، وأبو الحسن الندوي، وعجاج نويهض، ومصطفى السباعي، وسعيد النورسي، وجاد الحق علي، وحمد الجاسر، وإسعاف النشاشيبي، وخير الدين الزركلي، وعبد الرزاق السنهوري، ومحمود خطاب السبكي، وعبد الله كنون، وأحمد زكي شيخ العروبة - وغيرهم ممن يطالع القارئ الكريم شذوراً من جهادهم في امتداد هذه الصفحات.

وبمراجعة هذه الأسماء وجدت أنّها ذات جهاد حافل، وأن الحديث عنها مُتَعَيْن في كتاب هادف يتحدث عن النهضة الإسلامية في سِيرِ أعلامها المعاصرين.

كما أنني لاحظت أن من المطلوب أن أتحدث عن بعض الأحياء ممن لا يزالون يعطون خيرهم المثمر الجزيل؛ وقد فكّرت كثيراً. ثم رأيت أن حياتهم المباركة

الحافلة بالخير لا تمنع الحديث عن جهودهم الراهنة، فقد يكونون قدوة حيّة، يرجع إليها عملياً من يبحث عن الاهتداء . . فيفيدون بذواتهم الكريمة، كما أفادوا بمؤلفاتهم الذائعة. لذلك أجبت الداعي عن صدرٍ منشرح، وأشكر القائمين على نشر هذا الكتاب، إذ أسدوا خيراً كثيراً بما أقدموا عليه من نفع أكيد.

د. محمد رجب البيومي

العلامة إبراهيم الجبالي (العالم المفسر الخطيب)

أقول إنه العلامة، وما في ذلك مبالغة، لأنه درس العلوم الشرعية واللسانية دراسة المتخصص الفاحص، بحيث صار المرجع فيها، على اختلاف موادها، وبحيث يسأله السائل عن إحدى مسائل علم الأصول، أو علم الكلام على دقتها البالغة فيجيب لتوّه إجابةً من يُظنّ به أنه سُئل عن هذه المسألة من قبل، واستوعبها بحثاً ودراسة لكثرة ما حصّل من دقائق العلوم، والعهدُ فيمن يتعمّقون دراسات الجزئيات العويصة في هذه العلوم الجافة أنهم يقرّرون ما يعرفونه في أسلوبٍ جاف خشن، ولكنّ الأستاذ الجبالي رُزق موهبةً البيان المستنير، إذ ورث عن أستاذه الإمام محمد عبده هذا الشغف البالغ بنصاعة الأسلوب، ووضوح البيان؛ فكان ذلك إحدى ميزاته فيما يكتب ويُحاضر، وصُحفه الباقية في تفسير آيات الكتاب، تشهد بمقدرته الأسلوبية بحيث لا يطالع القارئ غير ما يبهجه فكراً وتعبيراً، وتلك ميزة لا تجد.

إن من أعجب العجب أن يكتب قارئٌ إلى الأستاذ أحمد بهجت خطاباً يرجو فيه أن يهتمّ أولو الأمر بإحياء ذكرى مطرب؛ فيطلق اسمه على شارع كتب عليه اسم (الشيخ إبراهيم الجبالي) لأن الشيخ مجهولٌ في نظره، ولا يستحسن أن يُطلق اسمه على شارع ما، وقد سارع الأستاذ أحمد بهجت بنشر هذا الخطاب فيما يكتبه تحت عنوان (صندوق الدنيا) فأزعج كثيراً من القراء، وتوالى عليه الرسائل مستنكرة أن يكون الشيخ الجبالي مجهولاً غير مشتهر، وقد كان من ألمع أعضاء هيئة كبار العلماء بالأزهر، كما كان عضواً بارزاً من أعضاء مجلس الشيوخ المصري، وعميداً لكلية اللغة العربية التي أطلقت اسمه الكريم على أحد مُدرجاتها الكبيرة اعترافاً بفضله، وتنوياً بأثره الميمون في مجالاتٍ متشعبة لا في مجال واحد! ثم يجيء من يطلب

محو اسمه ليثبت اسماً يتضاءل صاحبه وينكمش إذا قُرُن به! ولكنّها عجائب الدنيا التي لا تنفد!

ولعل لهذا المتعجل المقترح عذره فيما صنع، فقد نشأ في عصر تنكّر فيه اللاّحقُ للسّابق، وبخاصّة إذا كان السابق من أهل العلم المترفع عن الزلفى والمحابة! وقد ظلم الشيخ الجبالي نفسه حين لم يجمع آثاره القلمية في كتب منشورة، وقد كانت ملء السمع والبصر على مدى ثلاثين عاماً فأكثر؛ تسيلُ بها أنهارُ الصحف والمجلات فياضة متدفقة، وكذلك كان زملاؤه الكبار من أعلام الأزهر مثل: الشيخ محمد شاكر، ومحمود أبو العيون، وعلي سرور الزنكلوني، وعبد الباقي سرور نعيم، ومصطفى القاياتي، ومحمد محمد سليمان؛ يُرسلون مقالاتهم الدنيّة والسياسية والاجتماعية متتابعة في صدور الصحف اليومية فتلاقي أعظم القبول من القراء، ثم يمضي الزمن فلا تُجمع في أجزاء خاصة، بل تعصف بها ريحُ النسيان، ويحيي الجيل التّالي جاهلاً تراث أساتذته وآبائه! ولولا أنّ مجموعات مجلة الأزهر في السنوات العشر الأولى قد حفظت بعض آثار الشيخ الجبالي في أعداد متوالية تشملُ شجوناً من ألوان التفسير والحديث والسيرة والفتوى والاجتماع وأصول الفقه وشؤون الأسرة.. لولا هذه المجموعات الخالدة من مجلدات مجلة الأزهر ما استطاع كاتبٌ مثلي أن يرجع إلى بعض آثار الشيخ؛ إذ كيف لي بمراجعة صحف المقطم والأهرام وكوكب الشرق والبلاغ، مما غاب مكانه، وتعذّر الاهتداء إليه بعد مرور نصف قرن أو يزيد!

نشأ الأستاذ الجبالي في أسرة ماجدة من أسر محافظة البحيرة؛ إذ كان والده من كبار الوجهاء بالمدينة. وكان جدّه عالماً يُشار إليه في محيطه، وذا نسبٍ شريف يرتفع به مؤيِّداً بمكارمه وعلمه واتساع منزله الرّحب للوافدين، وقد التحق بالأزهر، فأظهر نبوغاً واقتداراً حتى نال العالمية سنة ١٩٠٤ من الدرجة الأولى، وكان الأستاذ الأكبر محمد مصطفى المراغي زميله في الامتحان والتخرج؛ فتعيّنا معاً بالأزهر مدرسين، ولم تمض فترة حتى سافر الشيخ المراغي إلى السودان، وانتقل الجبالي إلى التدريس بالمعهد الإسكندري، وقد أنشئ حديثاً لإعداد طالب كفاء يلتزم بالنظم الحديثة في التكوين العلمي والخلقي، وقد اهتمّ ذوو الأمر به، إذ رُصدت له جوائز مالية يقوم رئيس الوزراء تارةً، ومندوب الخديوي تارةً أخرى بتوزيعها على

النابعين من الطلاب بحيث صار المعهد الإسكندري إذ ذاك نموذجاً يُحتذى، تقتفيه المعاهد الأخرى بطنطا والقاهرة ودمياط ودسوق؛ وكان شيخُ العلماء محمد شاكر، يُراقبُ الدروس مراقبةً فاحصة، فوفق لاختيار الشيخ الجبالي مراقباً للمعهد، وهي الوظيفة التي تلي المشيخة حينئذ، قبل أن ينحدر مستواها فيما بعد؛ فبذل من الاهتمام البالغ بالطلاب ما جعلهم طليعة الناشئة الأزهرية حينئذ، وكان الشيخ الجبالي يخطب الجمعة أسبوعياً في مسجد المعهد، فيأتي بضربٍ من الوعظ لم يُعهَد في عصره؛ إذ كان يتحدث عن العلل المعاصرة حديث الطبيب المعالج، وحين قامت الحرب العالمية الأولى فوجيء الشيخ بمن يأمره بالامتناع عن الخطبة الأسبوعية لأنه يذكر الإنجليز بالعدوان، ويُعلن أن هواه مع الأتراك، وقد امتنع الشيخ مكرهاً. حتى إذا انتهت الحرب عاد إلى نشاطه، ليكون مؤيداً للثورة المصرية بزعامة سعد زغلول، وقد سبقه شيخ المعهد الإسكندري إذ ذاك فضيلة الأستاذ عبد المجيد اللبّان إلى تعبئة عامة لأبناء الثغر بأمرائه وغلमानه ووجوهه كي يقفوا صفّاً واحداً أمام المستعمر الغاصب، وأقيم احتفالٌ كبير خطب فيه اللبّان والجبالي والشيخ إبراهيم سليمان شاعر الأزهر في هذه الحقبة، وترأسه الأمير عمر طوسون! وذلك تاريخٌ مشهودٌ، ولكن الذين يكتبون تاريخ الثورة المصرية يبحثون عن كلّ صاحب جهد!! إلا أن يكون من طراز اللبّان، والجبالي وإبراهيم سليمان! فهؤلاء يجب أن يُطمس عنهم كلّ حديث، لأنهم حملة هداية، وعلماء دين!! مع أن الجامع الأزهر بالقاهرة كان مهّد الثورة المشتعلة؛ وتلك حقيقةٌ سجّلها شوقي في قوله:

المعهدُ القدسيّ كان نديّه قطباً لدائرة البلاد ومحوراً
وُلدتْ قضيتها على محرابه وحَبَّتْ به طفلاً وشبّتْ معصراً

وفي خضمّ الأحداث انتقل الشيخ إلى القاهرة لرياسة التفتيش بالأزهر والمعاهد الدينية، مع القيام بدروس تربوية لطلبة القسم العالي بالأزهر، وفي هذه الدروس اهتمّ الشيخ بتكوين رجال الوعظ قبل أن يُنشأ هذا القسم رسمياً سنة ١٩٢٨، إذ جعل من همّه في التدريس أن يختار آيات الآداب الخلقية، لتكون مادةً للإرشاد، فكان يُلمّ إماماً موجزاً بما تتطلبه الصنعة النحويّة والبيانية، ليعكف على توضيح اللبّاب الخالص من مقاصد الذكر الحكيم مُقتدياً في ذلك بدروس الإمام محمد عبده في الرواق العباسي حيث كان من طلابها النابهين، وقد قال الأستاذ محمود الشرقاوي

في حديثه عن هذه الدّروس: إن نصيب الأدب منها لا يقلُّ عن نصيب العلم، وإنّ الطلاب كانوا يُسجّلونها في شوقٍ وإعجاب..

تنقّل الأستاذ في مناصب كثيرة منها مشيخة المعاهد الدينيّة في الزقازيق وطنطا وأسيوط، ومنها التدريسُ بالقسم العالي بالأزهر، وفي مرحلة التخصص للطلاب الكبار، ومنها التفتيش بالمدارس الثانوية بوزارة المعارف؛ إذ رأى القائمون على هذه الوزارة أن ينتفعوا بآراء الشيخ في إعداد المناهج الدينية بالأقسام المختلفة، فعين مفتشاً بالوزارة ليلمس أوجه القصور في عمله الميداني، وقد انتهازها فرصة لإذكاء الروح الدينيّة، وإشباع الجو العام للمدرسة بالشّعور الإسلامي، إذ كان يحرصُ على الاجتماع بهيئة التدريس في مختلف المواد، مع الإداريّين من النظار والوكلاء والمراقبين، ثم يؤمّمهم للصلاة بمسجد المدرسة ظهراً أو عصراً وفق زمن الزيارة؛ إذ كان اليوم الدراسي كاملاً، والمدرسة أسرة ذات آباء وأبناء، فإذا انتهت الصلاة ألقى موعظةً هادفة، وتعزّف إلى المجتمعين مُلاطفاً محيياً، ثم ودّع بمثل ما استقبل به من الاحتفاء، وحين عُيّن عضواً بمجلس الشيوخ زامل صديقه الشيخ حسين والي في الدعوة إلى إرساء القواعد الإسلامية، ووجوب حفظ القرآن الكريم أو نصفه على الأقل بالمدارس الثانوية وما في مستواها، وبمدارس المعلمين والمعلمات بنوع خاص، ولا زالت مضابط المجلس تشهدُ بما أبدياه من وجوه الإصلاح التعليمي، وإذا لم يستجب المجلس لبعض ما ارتأياه، فقد قاما بالتنبيه والإيقاظ، ولهما جزاؤهما المشكور عند الله.

وقد ذكر الأستاذ الدكتور أحمد إبراهيم الشعراوي، أن الأستاذ الجبالي في أثناء مشيخته للمعهد الثانوي بطنطا كان يطوفُ على المدرسين بالحجر التعليمية في شتى المواد من فقهٍ وحديث ونحو وصرف وبلاغة وتوحيد، وقد لاحظ قصوراً واضحاً في دروس النصوص الأدبيّة من شعرٍ ونثر لدى بعض المدرسين، ففكّر في معالجة هذا القصور بطريقة لا تغضب الضعيف، وتُبهِج القويّ، ورأى أن يقوم بعد صلاة العصر من يوم الإثنين أسبوعياً، بشرح كتاب الأمالي لأبي علي القالي في ندوةٍ يحضرها أساتذة المعهد، وكتابُ الأمالي يعتمد في أكثره على الغريب، لأنّ أبا علي رجلٌ لغّةٍ أولاً، فكان الشيخ يختار نصّاً شعرياً من الأمالي ليقراه، ثم يشرّحه موجّهاً إلى ما يلزمه من دقائق البيان ونكت النحو، فإذا فرغ من هذا التبسيط أخذ يقرأ ما سطره

أبو علي قراءة المتخصّص الهاضم، وقد ساعد هذا على تكوين جوٍّ أدبيّ يعترف بدروس النصوص لتأخذ مكانها جوار مسائل العلوم المختلفة دون إجحاف!

وقد سعدتُ بلفائه في كلية اللغة العربية حين كان شيخاً لها، وكنتُ بين طلابها الكثيرين، فكنا نراه لا يملّ من زيارتنا في الحجرات المختلفة ليستمع ما يقال في كل مادةٍ تفاجئه، وكان وجهه يشرق بالنور حين يستمع إلى أستاذٍ مجيد، على حين ينقبض ويغيم حين يجدّ الدّرس دون المستوى المنشود، ولي معه طرفةٌ ذكرتها في حديثي عنه بمجلتي المنهل والهلal، وموجزها أنّ الشيخ الكبير كان لا يسمح للطلاب بالتخلف عن الدراسة إلا بعذر يقدم إليه شخصياً، ويراه أهلاً للقبول، ومن عادته أن يسأل الطالب المتقدّم إليه سؤالاً علمياً، بمحضر من الأساتذة الذين يوجدون في مكتبه، وقلمًا يخلو من زائر، فإذا أجاب الطالب سارع بقبول اعتذاره، وقد تقدّمتُ إليه ذات صباح راجياً السماح بيوم واحد كي أقابل والذي عند حضوره بباب الحديد، فأمرني بالجلوس، وقال لي: أريدُ أن تفكّر في إعراب قول الشاعر:

وكلُّ رفيقي كل رَحِلٍ وإن هما تعاطى القنا قوماً هما أخوان

وكنْتُ على ذكرٍ من البيت وما قيل فيه، فقلتُ له: سأجيبُ يا سيدي عن الإعراب، ولكنّ عليك أن تتفضل بالإجابة عن قائله ومناسبته، ومن أخطأ في إعرابه من كبار النّحاة! فأتلق وجه الشيخ بالنور، وقال: أتعرفُ أن أحد النحويّين الكبار قد أخطأ في إعرابه؟ قلتُ: هو ابن هشام في المغني، فضحك وقال: إذن سهّل عليك الجواب؟ ولكنك تسألني عن القائل والمناسبة، وأنا لا أدري من أمرهما شيئاً! لقد جئت بآبدة! لقد جئت بآبدة، انطلق يا بنيّ لتقابل أباك مشكوراً، فأنا أحتجز المتعلمين لا العلماء!.

ولقد لاحظتُ أن الشيخ الجبالي يبدأ مقالاته كثيراً بآيةٍ من كتاب الله تكون مجالاً لتشعب الحديث، سواء كانت المقالة دينيّة أو اجتماعية أو تربويّة، وهو اتجاّه يدل على سيطرة الذكر الحكيم على منافذ شعوره، ومواضع تفكيره، وهو لا يتكلّف في الربط والتمهيد، بل يجيء بالأسلوب سلساً مطرداً، كما يترقرق الماء في الغدير العذب، وقد ذكرني ذلك بموقفٍ ذائع له تناولته بعضُ الصحف بالنقد، على حين تناوله المنصفون بالتأييد! فقد اختير الأستاذ الجبالي لتمثيل الأزهر في حفلةٍ تأبينيةٍ كبرى ببغداد أقيمت في ذكرى الأربعين للملك غازي سنة ١٩٣٩، وقد جمعتُ أعلام

الأمة العربية من وزراء وسياسيين وعلماء وشعراء، حيث يمثل كل قائل جهةً رسمية أو فِدَتَهُ ليتحدّث بلسانها، وقد وقع اختيارُ الأزهر عليه، فافتتح الشيخ الكبير كلمته بقول الله عز وجل ﴿وَمَا هَذِهِ الْحَيَوةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِىَ الْحَيَوانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ [العنكبوت: ٦٤] وشرع يتحدث عن أطوار الحياة الأربعة في الرّحم والدنيا والقبر والبعث، لينتهي إلى أنّ عمل الإنسان في الطور الثاني هو مجال تقييمه في الطورين الثالث والرابع «وأنّ على كل سياسيّ يتقلّد زمام الأمر في موطنه أن يتذكّر هذين الطورين، بحيث لا يغفل عنهما طرفة عين، وأنه يرجو أن يكون الراحل الكريم ممّن عرفوا ما وراء الحياة الدنيا من ثواب وجزاء». وأفاض في هذا المنحى إفاضةً مشبعة، ثم ختم كلمته داعياً للفقيد بحسن المثوبة والجزاء.

وقد قال الأستاذ علي الطنطاوي في تعليقه على الكلمة: إنّها أشبهُ ببحثٍ علمي، لا برثاءٍ تأبينيّ، فأجاب الأستاذ بأنّ سابقه من المتكلمين قد كَثُرُوا أنفسهم، بحيث أصبح الحديث مدعاة السأم، فرأى أن ينتهز الفرصة ليلقي عظةً نافعة، وقد اضطرّ إلى ذلك مفاجأة حين استمع إلى من سبقه، فرأى أنّه تكلمَ بمثل ما يودّ أن يقول، وكان على اللجنة القائمة على الاحتفال أن تُحدّد نقطةً مُعينة لكلّ قائل بحيث يختصّ شريحةً من حياة الفقيد بالتحليل، لا تتفقّ مع شريحة قائل آخر! ومن هنا اتجه الشيخ بالحديث وجهةً عامة تأتي بالجديد.

هذا وقد يؤخّذُ على الشيخ الاستطراد الطويل في بعض ما يعالجُ من مباحث التفسير، إذ أنّ قارئ ما كتبه في تفسير سورة النور يجده قد تحدّث عن هموم العصر الاجتماعية حديثاً متشعباً، إذ أفاضَ في مسائل الأسرة، وما يتعلّق بالطلاق والزواج والحجاب والاستئذان، وحقوق الزوج مقارنةً بحقوق الزوجة إفاضةً تصلح أن تكون موضع بحث مستقل! وكأنّ الأستاذ الجبالي قد اقتدى بالسيد محمد رشيد رضا صاحب المنار في هذا الصدد، حيث جعل من تفسيره موسوعةً اجتماعية تعالج أدواء المجتمع بما يتّجه إليه المصلح الغيور من أنصار الذكر الحكيم، وقد أحسنَ صاحب المنار باستطراده المسهب، فجعل يقول في هوامش التفسير حين يتعرض لمثل هذه السبحات «يُستحسن أن تُقرأ هذه الفصول منفردةً عن التفسير العام».

والحق أن الأوباء الاجتماعية التي تراجعت في عهد صاحب المنار، وفي عهد الأستاذ الجبالي كانت تُحتمُّ على شارح كتاب الله أن يتّخذ من تفسيره تكَاةً لمعالجة

هذه الأوصاف، وأنا شخصياً أهّن لهذه الاستطرادات وأقرؤها في شوق لأنّ الفائدة العلمية محقّقة منها دون نزاع، ولكنّ غيري قد يعدها تضخُّماً لا مبرّر له، إذ يرى من منهجيّة التفسير أن يلتزم صاحبه بالنص القرآني، يعيش في جوه الطلق، دون أن يتعدّاه إلى غيره من الأجواء، مهما مسّت الرغبة في الدعوة إلى الصّلاح والإصلاح.

تسجل مجلّدات مجلة الأزهر في عقدها الأول ما كتبه الأستاذ الجبالي في تفسير كتاب الله، حيث نشر بها تفسير سور النور والحجرات والرعد ولقمان مع تفسير آيات متفرقة اختارها الشيخ لمناسباتٍ دعّت إلى تفسيرها، ومن يقرأ ما كتبه الجبالي على مدّ السنوات العشر، يجدّه خاضعاً لرأيٍ خاص في التفسير؛ إذ يرى السورة الواحدة عقداً ذا حيّاتٍ متناسقة ترجعُ إلى معاني متّحدة متماسكة، ولا يتّضح المضمون الدقيق للآية الكريمة دون مراجعةٍ لآيات السورة في نسقها المطّرد، هذا من ناحية الآيات المتوالية في السورة الواحدة، أمّا من ناحية ترتيب السور فإنّها - في رأيه - تخضعُ إلى ارتباطٍ قويّ يجبُ أن تُبذل القوَى الفكرية للبحث عنه، بحيث يُذلي كلّ مفكر بما يتراءى له، والله نورٌ يقذفُ به في العقول لتُشرق في أحيانٍ كثيرة بالصواب السديد مهما تعددت الوجوه واختلفت الأنظار.

يقولُ الأستاذ الجبالي في مقدمة تفسير سورة النور وقد جمعه في كتاب خاصّ تحت عنوان «شفاء الصدور في تفسير سورة النور» ما نصّه^(١):

«ورد إلى مجلّة الأزهر سؤالٌ عن تفسير قول الله عز وجل ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ إلخ الآية الكريمة، فعهد إليّ بالإجابة عنه، فنظرتُ وإذا الآية في سورة النور معقبةً لآياتٍ تتعلق بتنظيم الحياة المنزلية، فتصون روابط الأسرة، وتحفظ أواصر القرابة، وتبيّن الحقوق والواجبات في المعاشرة، والاختلاط بين الجنسين، الرجال والنساء؛ وذلك كلّهُ دواءٌ شافٍ، وعلاجٌ ناجع لما أصابنا في هذه الآونة من أمراض في هيئتنا الاجتماعية حلّت روابطنا، وفكّكتْ عرانا، فحذا بي ذلك إلى الشروع في تفسير السورة بتمامها مما يصلُّ بي إلى تفسير الآية الكريمة المسؤول عنها».

ويقول الأستاذ في مقدمة تفسيره سورة الرعد:

(١) شفاء الصدور، ص١؛ مجلة الأزهر، المجلد السادس، ص٧٩، سنة ١٣٥٤هـ.

«وُجِّهَتْ إِلَيَّ مِنْ عَزِيزٍ عَظِيمٍ رَغْبَةً فِي التَّعَرُّضِ لَتَفْسِيرِ قَوْلِهِ جَلَّ شَأْنُهُ ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾ إِذْ كَانَ فِيهَا تَنْبِيهٌُ لِلْمُسْلِمِينَ عَلَى مَا كَانُوا فِيهِ . وَمَا آلَوْا إِلَيْهِ ، مِمَّا يُرْجَى أَنْ يَكُونَ مَعَهُ ذِكْرٌ نَافِعَةٌ لَهُمْ ، وَالذِّكْرُ تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ ، بَلْ لِأَنَّهَا تَحْوِي مِنَ النُّوَامِيسِ الْاجْتِمَاعِيَةِ مَا يَفِيدُ كُلَّ أُمَّةٍ تَرْزُهَا بِمَقْدَارِهَا ، وَتَسْتَضِيءُ بِنُورِهَا ، فَهِيَ عَلَى وَجَازَتِهَا كَوْكَبٌ سَاطِعٌ يَشْعُ بِالنُّورِ . . وَلَمَّا كَانَتْ الْآيَةُ الْكَرِيمَةُ فِي أَوَائِلِ سُورَةِ الرَّعْدِ ، وَقَدْ جُمِعَتْ هَذِهِ السُّورَةُ مِنْ دَلَائِلِ عَظَمَةِ الْخَالِقِ جَلَّ وَعَلَا مَا يَمَلَأُ الْقُلُوبَ نُورًا وَإِيمَانًا ، وَيُثَلِّجُ الصُّدُورَ بِبَرْدِ الْيَقِينِ ، رَأَيْتُ أَنْ أُعْرَضَ لَتَفْسِيرِ السُّورَةِ مِنْ أَوَّلِهَا ، مُسْتَمَدًّا مِنَ اللَّهِ الْمَعُونَةِ وَالتَّوْفِيقِ .»

لَا أَقُولُ إِنْ كَلَامَ الْأُسْتَاذِ يُفْهَمُ مِنْهُ صَرِيحًا مَجَارَاةَ الْقَائِلِينَ بِالتَّمَاسُكِ الْعَضْوِيِّ بَيْنَ الْآيَاتِ ، وَلَكِنْ أَقُولُ إِنْ تَمَسَّكَهُ بِتَفْسِيرِ السُّورَةِ جَمِيعِهَا لِسُؤَالٍ يُرِيدُ تَفْسِيرَ آيَةٍ مِنْهَا يَدُلُّ عَلَى رَأْيِهِ الْخَاصِّ فِي ارْتِبَاطِ الْمَعَانِي عَلَى نَحْوٍ مِنَ الْأَنْحَاءِ فِي السُّورَةِ الْوَاحِدَةِ ، وَلِلْأُسْتَاذِ سَابِقُونَ مِنَ الْمَفْسِّرِينَ يَرْتَضُونَ هَذَا الْإِتِّجَاهَ ، وَمِنْهُمْ مَنْ سَلَّطَ عَلَيْهِ الضُّوءَ النَّافِذَ كَالْبَقَاعِيِّ فِي تَفْسِيرِهِ الْخَاصِّ بِمُنَاسَبَاتِ الْآيَاتِ وَالسُّورِ؛ أَمَّا صَلَةُ السُّورَةِ الْكَرِيمَةِ بِمَا قَبْلُهَا فَمِمَّا اعْتَقَدَهُ الْأُسْتَاذُ الْجَبَالِيُّ عَنْ اقْتِنَاعٍ ، فَهُوَ فِي مَفْتَحِ تَفْسِيرِ سُورَةِ الْحَجَرَاتِ^(١) ، يُوَكِّدُ مُنَاسَبَتَهَا لِسُورَةِ الْفَتْحِ مِنْ جِهَةٍ أَنَّ هَذِهِ السُّورَةَ تَعْرَضَتْ إِلَى صَلَاحِ الْحَدِيثِيَّةِ حِينَ اشْتَرَطَ الْمُشْرِكُونَ أَنْ تُمَسَّحَ بِالسَّمَلَةِ مِنَ الْعَهْدِ فَقَالُوا إِنَّهُمْ لَا يَعْرِفُونَ (الرَّحْمَنَ الرَّحِيمَ) كَمَا اشْتَرَطُوا أَنْ يُحْذَفَ وَصْفُ النَّبِيِّ ﷺ بِالرَّسُولِ ، وَقَالُوا: لَوْ نَعْلَمُ أَنَّكَ رَسُولُ اللَّهِ مَا قَاتَلْنَاكَ ، فَقَبِلَ ﷺ مَا اشْتَرَطَهُ الْقَوْمُ لِحُكْمَةٍ يَعْرِفُهَا ، وَتَذَمَّرَ الْمُسْلِمُونَ لَمَّا رَأَوْهُ مِنَ الْقِسْوَةِ فِي الْإِشْتِرَاطِ حَتَّى قَالَ بَعْضُهُمْ: أَلَيْسَ قَدْ وَعَدَ اللَّهُ رَسُولَهُ أَنْ نَدْخُلَ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ؟ فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: أَوْ قَالَ هَذَا الْعَامَ؟ فَجَاءَتْ السُّورَةُ التَّالِيَةُ مَفْتَتَحَةً بِقَوْلِهِ اللَّهُ ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْدُمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَأَقْبُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ وَأَيْضًا فَقَدْ خَتَمَتْ سُورَةُ الْفَتْحِ بِالتَّنْوِيهِ بِشَأْنِ الرَّسُولِ ﷺ ، وَعَلَوْ دَرَجَتَهُ ، وَالثَّنَاءَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ بِذِكْرِ مِثْلِهِمْ فِي التَّوْرَةِ ، وَمِثْلِهِمْ فِي الْإِنْجِيلِ؛ فَكَانَ جَدِيرًا أَنْ يَعْلَمَ هَؤُلَاءِ الْخَيْرَةِ الْأَبْرَارِ مَا تَجَبُّ عَلَيْهِمْ مَعَ صَفْوَةِ الرُّسُلِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ مِنَ التَّبْجِيلِ وَالْإِحْتِرَامِ .

أَمَّا مَنْحَى الْأُسْتَاذِ فِي تَفْسِيرِهِ فَهُوَ الْإِلْمَامُ بِمَا يَخْتَارُهُ مِنْ أَقْوَالِ السَّابِقِينَ ، مَعَ

(١) المجلد الخامس من مجلة الأزهر [نور الإسلام حينئذ] سنة ١٣٥٣هـ، ص ٨.

التعقيب عليه بما يراه، في نسقٍ مطرد متماسك، فهو لا يسرُّد هذه الأقوال سرداً رقمياً جافاً، بل يصوغها ببراعةٍ كاشفة، وفي تعبيرٍ مؤنق يظفر بارتياح القارئ له، وتفهمه إياه بالغاً ما بلغ من الإدراك علواً أو هبوطاً، ووضوح المعاني لا يتيسر لغير من اتضح في فكره الآراء اتّصاحاً سافراً، فهو لا يعاني مشقةً في تسجيلها، كدأب من تغيم في عقولهم بعض المعاني فيسّطرونها في غموضٍ مبهم لا تكتمل جدواه، وقد قال في تحديد منهجه^(١): إنه بذل جهد المستطاع حين لخص زبدة ما اختاره من كلام أئمة التفسير مضافاً إليه ما فتح الله به عليه أثناء تدبره للنص الشريف مما انشرح له صدره، وراق في نظره متسقاً في أسلوبٍ يناسب الذوق المعاصر، على أن اتزان الخلق وتضلّعه العلمي قد وضحا بجلاء فيما يعرضه من الآراء المتقابلة، إذ يوفي كلّ وجهة حقّها من الاستدلال والترجيح توفيةً تامة، وإن لم يمل إليها؛ إذ يرى من الأمانة العلمية أن يبسط الرأي دون كرازةٍ واقتضاب، ليترك للقارئ حرية الاختيار.

ولعلّ مما أسْتَشْهِدُ به في هذا المجال تفسيره المسهب المبسوط في قوة وإشباع وإمتاع لقول الله عز وجل: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ * أَوْ نَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٢-١٧٣] فقد تعرّض لوجهتي النظر المختلفتين بين السلف والخلف، إذ ذهب الأولون إلى حقيقة الإشهاد ووقوعه العملي، وذهب الآخرون إلى أن الآية تشير إلى ما أودعه الله في نفوس بني آدم من الدلائل الناطقة بربوبيته، حيث يجد العقل من الأدلة الساطعة ما يسوقه إلى الاعتقاد بوحدانية الخالق بما أبدع من كائناتٍ، وخلق من أجناس، وذلك هو المعنى المراد بالشهادة والإقرار، وقد اتسع المجال لتقرير الوجهتين المختلفتين في بضع عشرة صفحة من ذات القطع الكبير، ثم قال في ختام تفسيره: «إنّ الدلالة على المعنى الأول لا تنفي الإشارة إلى المعنى الثاني». وقارئ الشرح المدقّق يلمس من بعيد ارتياح الشارح لرأي الخلف، دون أن يجد انتقاصاً ما لرأي السلف، وتلك براعة في العرض تروق المنصفين.

أمّا الإبداع في عرض الصور البيانية فقد بدا في أكمل وجوهه بهذا التفسير

(١) مقدمة شفاء الصدور ص ٢.

المشرق، ونضرب المثل بما ذكره الأستاذ في تفسير قول الله عز وجل في سورة الرعد ﴿أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ يَقْدَرُهَا فَأَحْتَمَلَ السَّيْلَ زَبَدًا رَابِيًا وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِثْلُ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ﴾ [الرعد: ١٧] فقد قال الأستاذ فيما قال من شرح مطرب لا نستطيع استقصاءه في هذا المجال^(١):

«في الآية بيانٌ لحال الحق والباطل اللذين انكشف أمرهما وتبين حالهما بما قام عليهما من الأدلة الساطعة، والبراهين القاطعة، فقد أبرزهما في صورتين يراهما الناس رؤيةً متكررة، وقد اقترن في كلّ منهما أنفع شيء بأفغى شيء، وأعلى شيء بأخسّه، فمن الذي يخفى عليه ما في الماء من المنافع الجلّي، وقد احتاج إليه كل شيء واستندت إليه حياة كلّ حي؟ والزبدُ المقترنُ به يُحسبُ شيئاً وما هو بشيء، ومن الذي يخفى عليه أنّ الماء باقٍ يُحتفظ به إمّا في أوديته وأنهاره، وإمّا في مسالكه في ينابيع الأرض تنفجر به العيون في مواضع الحاجة، حيثُ نستفيد منه الفوائد؛ ومن ذا الذي يخفى عليه أنّ الزبد الذي يعلوه، ويحاول أن يجتذب العيون لا تكادُ تنتبهُ إليه النفوس، أو تتجهُ إليه الأفكار، فهو والعدم سواء؛ فهل رأيت أنّ شأنَ الباطل كشأنَ الزبد في مُحاولَة أن يطفؤ على الماء، وهو لا يستحقّ أن يكون له موطئاً، وهو يحاول مجاراة الماء وهو أحقرُّ من أن يكون له قريناً، فالحق مع الباطل كالماء مع الزبد في النفع وعدمه، وفي المسaire دون استحقاق، وفي مُحاولَة الاستعلاء وليس له بأهل، وفي الثبات والزوال، وفي تعرّضه للأنظار يستريحها، مع إعراضها عنه احتقاراً وعدم اهتمام».

ويمتد الحديث في هذه الألوان الزاهية امتداداً خالِباً زاهياً دون أن يتصلّ له بريق . .

وللأستاذ - بمجلة الأزهر أيضاً - شروحٌ متصلة للحديث النبوي الشريف، مسّت إليها الحاجة الاجتماعية، ودعت الضرورة إلى الارتواء من معينها، ومسلكه في شرح الحديث النبوي يجانس مسلكه في التفسير القرآني، لأنّ السائل من لون الإناء، ولا نظيل .

(١) مجلة الأزهر، المجلد السادس، ص ٥٩٢.

هذا وقد كتب الأستاذ كثيراً في ما لاحظته من العصبية المذهبية التي شغلت فريقاً من المسلمين، فشئت الكلمة، وأثارت الفتن، وأوقدت الأحقاد، مُبيناً أثر السياسة في نشأة هذه الفرق بالنسبة إلى علم الكلام، وأثر الضيق الفكري بالنسبة إلى علم الفقه، وقد اشتغلت الصحف الدينية لعهد بمناقشة قضايا التوسل والاستغاثة، وعُرف لكلّ منحى رجاله من الفقهاء المتحمسين، فكُتِبَ الأستاذ الجبالي في هذا المجال كتابة من يرى وجهات النظر تتسع لكلا الرأيين، وأنّ أوجه الخلاف أقلّ من أن تُثير هذه الحرب الكلامية فيصبح القتال في غير معترك حقيقي .

ثم سافر إلى الحجاز في رحلة الحج المباركة، ليجتمع مع كبار العلماء في المسجد الحرام، ويعرض عليهم وجهة نظره الداعية لرأب الصدع، وقد تعهّد بأن يتلقّى رسائل المتشددین ليُجيب عنها برسائل متماثلة، حتى يظهر وجه الحقيقة، فيلتقي الجانبان على أمرٍ سواء، مشروطاً أن تكون هذه الرسائل شخصية بحيث لا تُطبع على الملأ، كيلا يتدخل في النقاش من يترصدون الدوائر كي يشعلوا نار الفتنة لحاجات في نفوسهم، وهم بعدُ من رجال الدين، الذين تُفترض فيهم الدعوة إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة، مع المجادلة بالتي هي أحسن . . هذا ما اشترطه الأستاذ ورعاه؛ ولكنّ بعض من راسلهم في صمت، تحدّث بما قال الأستاذ في ملأ من قومه، فوجَدَ من ينشر آراء محرفة ليردّ عليها بما يثير الصخب والانفعال، فرأى الأستاذ أن يعقّب علناً على ما نُشر، ليكشف النقاب عن افتراءات تُنسب إليه تارة، ومُبالغات في الاستنباط المغرض تارة أخرى، وقد أذن الله فهدأت ريح الخلاف، وصارت المسألة تاريخية أكثر منها فقهية ! .

أما غزّة مواقف الشيخ، فهي رحلته إلى الهند رئيساً للبعثة الأزهرية في عهد الأستاذ الأكبر الشيخ محمد مصطفى المراغي، حين جاءت الأنباء إلى مشيخة الأزهر الشريف متحدثّة عن رغبة المنبوذين في الهند في اعتناق الإسلام، إذ وجدّوه دين الحرية والمساواة والإخاء، وسينقذهم من هذا السقوط الإنساني الذي جعلهم في مرتبة منحدرّة عن غيرهم من المواطنين في البلد الواحد، وطبيعيّ أن يشمر الأستاذ الأكبر للأمر بعزيمة لا تهدأ، فدرس المسألة من جميع وجوها، وأخذ يُراسل زعماء الإسلام في الهند - قبل أن تنشأ دولة باكستان بعشر سنوات - كي يعرف الحقيقة بعيداً عن مبالغات الصحف، فجاءته الردود المخلصة من أعلام

كبار، في مقدّمتهم الشاعر الإسلامي الكبير محمد إقبال، والكاتبُ المفكر الأستاذ خالد بابا، ثم جاءتْ رسائلُ أخرى من كبار الزعماء في العالم الإسلامي ومن بينها رسالة الزعيم التونسي الشهير الأستاذ عبد العزيز الثعالبي، وبعد دراسة هذه الرسائل رأى الأزهر أن يُرسلَ بعثةً للاستطلاع يرأسها الأستاذ إبراهيم الجبالي مصاحباً زميليه الكبيرين الأستاذ عبد الوهاب النجار والأستاذ محمد أحمد العدوي، وما من منهما إلا له مقامٌ جليلٌ في الدعوة الإسلامية وجهودٌ مخصصة في توضيح مآثر الإسلام؛ وقوبل نبأ البعثة الأزهرية في شتى ربوع العالم الإسلامي بالابتهاج، حيث خصّها ملكُ البلاد بالتشجيع، ورَحّب الرئيس الجليل مصطفى النحاس رئيس الوزارة بالفكرة، وقابل أعضاء البعثة قبل السفر محيّياً مباركاً، وأقيمت الاحتفالات تكريماً لها في كلّ بلد ترسّو به الباخرة المتوجهة إلى الهند، وقامت البعثة المباركة بجهود مضنية تحدثت عنها في تقرير مُسهب نُشر تباعاً بمجلة الأزهر في المجلدين الثامن والتاسع الصادرين في سنة ١٣٥٦، وسنة ١٣٥٧، وقد جاء في هذا التقرير ما نصّه:

«قد قضت البعثة في الهند حوالي مئة يوم، زارت خلالها خمسين مدرسةً وجامعة، وتحدثت في جلساتٍ خاصة مع ثلاثين من رجالات الهند الممتازين، وألقى أعضاء البعثة اثنتين وثلاثين مُحاضرةً عامة، كما أجابوا عدداً من الدعوات الخاصة والعامة منها، كانت كلها مجالاً لتبادل الرأي خلال التبسّط في الحديث؛ كما زارت البعثة عشرين مكاناً تحفلُ بالآثار الإسلامية، ولا يبرّرُ قلة هذا العدد مع كثرة الآثار الإسلامية بالهند إلا أنّ زيارة الآثار لم تكنْ داخليةً في المهمة التي أوفدت من أجلها البعثة إلى الهند؛ وقد أدّى أعضاء البعثة صلاة الجمعة في المساجد العامة اثنتي عشرة مرة في عشرة مساجد، في عشرٍ مُدُنٍ كبرى مختلفة؛ كما حضرت البعثة صلاة العيد مرتين: مرةً في بومباي، والأخرى في كلكتا».

وقد دوّن كلّ من الأستاذين الجبالي والنجار مذكراتٍ خاصة بالبعثة لم يُنح لها أن تُنشر، وتحدثنا في مناسبات كثيرة عمّن قابلاه من كبار الشخصيات الإسلامية اللامعة مثل الشاعر الكبير محمد إقبال، والقائد الأعظم محمد علي جناح زعيم باكستان فيما بعد، وكان مما قالاه حديثٌ مؤثّرٌ عن شاعر باكستان إقبال حيث لم يَعْقُهُ مرضُهُ الأخير عن لقاء البعثة، وتحدّث أكثر من ثلاث ساعات وهو مُنهك الجسم، خفيضُ الصوت، بادي الضعف عن أحوال المسلمين بالهند، وما يلاقونه من التعصب

المريـر، فـجاء مـفاجأةً للـسّامـعـين أن يـذكـر إـقـبال الزعيمـين الهنـدوكيـّين غانـدي ونهـرو في طليعة من يثيرون هذا التعصب المنكر، مع أن الصحافة العربية تجهل حقيقتهما حين تُذيع عنهما شمائل التسامح والرفق! وهذا التسامح الذي يتّسمان به خاصٌّ بأبناء طائفتهما وحدهما، وكأنّ الحرية التي تتشدّق بها أوروبا لتكون وقفاً على الدول الأوروبية فحسب! أما المستعمرات المضطّعدة فلا بدّ أن تَصْلِي نار العداء! كما أنّ الحكام من الإنجليز يُناورون المسلمين بضراوةٍ ويحرمون عليهم المناصب الرفيعة؛ إذ هم أهلُ فكرٍ وأصحابُ رسالة فلا يخشون غيرهم! وقد دعا غاندي إلى الوطنية العامة دون تفريق، فقلنا له: إننا نُرحب بالاجتماع لا بالافتراق، فقال: على أن يكون الدستور وفقاً لرغبات الأكثرية وحدها، فقال له الزعيم محمد علي جناح: كيف تُسوّي تحت قانون واحد بين من يعبد البقرة ومن يأكلها؟ وهاج كتاب الهنادكة متطاولين على المسلمين، وأقيمت المحاضرات المذكية للعداء ضدهم، وتعدّى القول إلى الفعل الجارح، فثارت الفتن، وسُفكت الدماء؛ وحكومة الإنجليز تعملُ جاهدةً على تأييد الهنادكة، إذ ترى النفور التام منها لدى المسلمين، وتعلمُ من آرائهم الدينية ما يجعلها عدوّاً لا صديقاً، وهذا ما تخشى أن يسود بين الكافة!

وعادت البعثة مرفوعة الرأس بما قامت به من جهود!

وفي ختام هذا البحث أعلن أن بعضَ دور النشر اللبنانية قد نشرت مقالات الشيخ الجبالي في السنوات الأولى من مجلة الأزهر بمجلد كبير، لا يضمّ مقالات التفسير بل يشمل ما كتبه خاصاً بالتعاليم الإسلامية، وموافقاتها للفطرة، وأنا أرجو أن أجد من يجمع مقالات الأستاذ في شتى الصحف والمجلّات، لتكون زاداً باقياً للقارىء المتطلع، وأثراً خالداً لمجهود حفيـل . . .



أبو الحسن الندوي (في سيرته الذاتية)

- ١ -

كنتُ أتطلّع إلى الحديث المستفيض عن الداعية الأمثل، والباحث الأكمل السيد أبي الحسن الندوي، ولكنّي أمتنعُ فجأةً، لأنّي أعلم أن ما بنفسي نحو الرجل لن يُنقل إلى القراء إلّا مبتوراً مبْتَسِراً لا يمثلُ حقيقة مشاعري الصادقة، إذ هي أقوى وأشدّ من أن تظهر على حقيقتها من السطور مهما حاولتُ تتبّعها الراصد؛ ثم طلب مني أخي الأعز الأستاذ الدكتور عبد القدوس أبو صالح نائب رئيس رابطة الأدب الإسلامي، أن أكتب سيرة أبي الحسن الذاتية، وأنا أعرفُ تهَيّبي الشديد من الحديث عنه، وكِدْتُ أعتذُر، ولكنّ تكليفَ الدكتور الصديق لي هو أمرٌ لا رجاء، فقلت: سأكتبُ ما أستطيع كتابته، وما عليّ إذا لم أستطع أن أقوم بغير ما أُطيق، إذ لا يكلف الله نفساً إلّا وُسْعها.

وكان أشدّ ما يلفتني في سيرة أبي الحسن أنّه أشرق في محيط العالم الإسلامي بَذْراً مكتملاً، فعهدنا بصاحب الفكرة وعاشق البحث أن يتبع سنة التطور فيبدو ناشئاً صغيراً، ثم تمرُّ به الأعوام حتى يكتمل نضوجُه كما يبدو البدر في أوّل الشهر هلالاً ثم يسير نحو الكمال، حتى يبرز إشراقُه في الليلة الرابعة عشرة، ولكنّ أبا الحسن أصدر كتابه باللغة العربية (ماذا خسر العالم بالخطايا المسلمين) في مطلع حياته الفكرية، فكان حدثاً هائلاً في دنيا الفكر، لأنّه رجّ القراء رجّاً، وكأنّه نفخ في الصّور فأحيا نفوساً، وأشعل أرواحاً، وأخذ الناس يقرؤون مبهورين، يخافون أن تنفذ صفحات الكتاب، فلا يستشعرون هذه اللذة الروحية بعد انقضاء الصفحات، وفيهم من كان يقرأ الصفحة والصفحتين ثم يطوي الكتاب دقائق معدودة، ليصعد زفرة مكتومة، أو يعلن آهة موجعة، وأشهدُ أمام الله أنّ بعض الصفحات التي كانت تصوّر

فجائع المسلمين على أيدي أعدائهم، وطغيان العتاة على بلادهم، كانت تضع فوق كاهلي وأنا أقرأ أطناناً من الحديد الصلب، فلا أستطيع أن أتحرّك إلا بعد أمد يقصر أو يطول، هذا الكتابُ الخالدُ قد رجَّ القراء رجاً، والعجيب أن أستاذنا الدكتور أحمد أمين قد كتب مقدمة الكتاب في طبعته الأولى دون أن يقرأه، وأجزمُ عامداً أنه لم يقرأه، وإلاً لما قال: إن بعض عبارات الكتاب ضعيفة لأن المؤلف يكتب بغير لغته!! والكتابُ في المنزلة العليا من الأسلوب البياني المشرق، وتعبيره السّاحر لا يبلغه باحثٌ كبير كالـدكتور أحمد أمين، لأنَّ صاحب فجر الإسلام وضّحاه وظهّره باحثٌ مؤرّخ لا يملك سِحر الأسلوب الذي يتمتع به صاحبُ (ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين) ولقد قرأتُ في بعض ما كتبه أبو الحسن أن هذه المقدمة قد أضعفت الكتاب، وأقول: إنّ هذا تخيلٌ فقط، لأنَّ القارئ النبيه قد عرف بُعدَ هذه العبارة عن الصواب، وهو مقياسُ الحكم، أما القارئ الذي لا يفرقُ بين أسلوبٍ وأسلوبٍ، فسيان أن يُصدق أو أن يكذب!

وقد توالَتْ طبعاتُ الكتاب حتى بلغت بضع عشرة طبعة. وأغفلتُ مقدمة الطبعة الأولى، حيثُ قام الأساتذة الكبار محمد يوسف موسى وسيد قطب وأحمد الشرباصي بكتابة مقدّمات صادقة شَفَتْ صدور قوم مؤمنين، وأذهبتُ غيظ قلوبهم، ولا أنكرُ فضل الدكتور أحمد أمين حين احتفل بالكتاب، وطبعه في مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر التي يرأسها، فكان صدور الطبعة الأولى عن هذه اللجنة ذات المستوى العلمي الباهر نصراً من الله، وفتحاً قريباً، اتصلتُ بعده الفتوح الممتدة، لأنَّ فكر أبي الحسن كالشجرة الطيبة ذات الثمر المستطاب، تؤتي أكلها كلّ حين بإذن ربها، ويضرب الله الأمثال للناس.

لم يُنح لأبي الحسن أن يكتب هذا السّفر الرائع في مطلع شبابه، دون أن يعتمد على موهبةٍ رائعة ممتازة، جرث من عقله مجرى الماء في فروع السّرحة الفينانة ذات الظل الوارف، ودون أن يعتمد على نشأة علمية باهرة وأغرقٍ منازل الفضل بالهند وأخصب منابت العزة والكرامة والشموخ، ودون أن يعتمد على اطلاع شامل محيط في كُتبٍ متعددة، ولُغاتٍ متنوعة، اطلاعٌ ناقدٌ يعرفُ سطور الحق فيجتنبها، ويطرد سطور الباطل إذ يحتويها، ومن وراء ذلك كلّ روحٍ إسلامية عالية، هي قبسةٌ من قبسات رجالِ الصدر الأول من تاريخ الإسلام، فقد عايش أبو الحسن هؤلاء الرجال

معايشة العاشق المولع، بكلّ ما يقرأ من أمثلة التضحية والفداء، ونماذج الإيمان والإيثار، فكانت سيرُهُ هؤلاء ومن تبعهم بإحسان ضياءً لروحه قبل أن تكون غذاءً لفكره، وقلّ ما شئت في تلميذ نابغة أساتذته الأكرمون رسولُ الله وصحابته المختارون. . مع من وليهم من أئمة السلف الصالح، خلفاً عن سلف، حتى انتهت السلسلة الرائعة إلى والده الكريم وكلّهم خيار من خيار. .

وُلد أبو الحسن بقرية (تكتية) من قُرى الهند في المحرم سنة ١٣٣٢هـ، فنشأ في أسرة عربية كريمة، ترجعُ بأصولها العريقة إلى الحسن بن علي عليه السلام، أصولها التي ظلّت تتناسلُ في أكرم بقعةٍ في الأرض، من مكة التي شَرَفها الله بالبيت العتيق، وبكونها مشرقَ الإسلام ذي الهداية الإنسانية التي أخرجت العالم من الظلمات إلى النور ثم انتقلت إلى المدينة المنورة حقبة من الدهر حتى كان مطلع القرن السابع الهجري، فرأى عميد الأسرة إذ ذاك السيد قطب الدين بن محمد المدني رؤيا منامية أَوْحَتْ له أن ينتقلَ من المدينة المنورة إلى الهند مجاهداً في سبيل الله! وقد صَدَعَ الرجل بالأمر على مشقة الهجرة، والنزول في أماكن لم يعرفها من قبل، ولكته اطمأنَّ حين وجد الاستقبال الكريم، وحين ذاعَ فضله فيما تناوَلَ من أحاديث الدعوة، وشروح الفقه، وقد تبوَّأ مكان الصدارة في مُهاجره، واشتهر أبناءه ومَنَ وليهم بالدعوة إلى سبيل الله؛ عملاً بالارتحال إلى أقصى البقاع، مذكرين بأيام الله؛ وبحثاً بالتأليف العلمي في فروع اللغة والشريعة.

ولو بحثت عن المكتبة الإسلامية بالهند، لنطقتُ بآثارِ هذه الأسرة الماجدة، حتى جاء يومٌ بزغ في سماءها نجمُ سلطان المسلمين أحمد بن عرفان، وهو عالمٌ بطل، لو تعارف المسلمون في بقاع الأرض سير رجالهم في الوطن الإسلامي الكبير، وطن الإسلام، لكان اسمُ أحمد بن عرفان الشهيد يتردّد في آفاق آسيا وأفريقيا كما يتردّد أسماء شهداء الإسلام من لَدُنِ العصر الأوّل إلى الآن؛ لقد تطلّع الشهيد المغوار إلى ما حوله، فأزعجه أن يرى ويسمع عن فظائع طائفة السيخ في البنّجاب، إذ قدموا على قتل الأبرياء من المسلمين وهذم المنازل، وهتِك الأعراس، فغضبَ لدين الله، ولإخوته في الإسلام، ورَفَعَ راية الجهاد، واستنصر الأبطال من كلّ صوب، فهرعوا إليه ملبّين، وبُويَع بالإمارة في جمادى الآخرة ١٢٤٢. ثم قاد الجيوش من نصر إلى نصر حتّى إذا أعيت أعداءه الحيلة لجؤوا إلى

الدرس حين هالهم أن يُنشئ الإمام أحمد دولةً إسلامية على الحدود الشمالية من الهند أثبتت قوة الإسلام وحميته، وبقيت أربع سنين ترفع راية الإسلام، حتى ارتاعث بريطانيا وأمّدت السيخ بالسلاح الأوروبي الحديث، ثم استعانت أيضاً برجال السوء ممن جهلوا حُبث المحتلّ، وأغراهم المنصب والذهب والجاه، فجعلوا يثيرون الفتنة؛ ولجأ الإمام إلى كشمير مُجاهداً، ولكنّ اجتماع الانجليز والسيخ والطابور الخامس من المنافقين، قد كان أكبر من أن تصمد أمامه القلّة المؤمنة، ولكنها أثرت الاستبسال على الفرار، واستشهد الإمام في معركة (بالاكوت) استشهد الحسين في كربلاء، وهي مآسٍ تتكرّر، على الزمن، دون اعتبار.

إن تاريخ ابن عرفان لم يذهب عن خواطر المسلمين جميعاً بالهند، ولكنه رسخ رسوخ الطود في أسرته الكريمة، فجعلت تتناقل آثاره وتتحدث عنه، ثم دُوّنت أخباره، وكان والد أبي الحسن أحد العلماء الأفاضل الذين كتبوا تاريخ الشهيد، وهو لم يكتب تاريخ الشهيد وحده، ولكنه سجّل تاريخ الأفاذ من المسلمين على مرّ العصور في كتابه الرائع (نزهة الخواطر) ذي الأجزاء الثمانية. وقد اشتمل على نحو خمسة آلاف ترجمة لأعيان المسلمين في الهند، وأبو الحسن وإن لم يتمتّع برعاية والده العلمية غير أمِد قصير إذ ترك والده الدنيا إلى لقاء ربّه وهو في التاسعة من عمره، فإنّه وجد في هذه الموسوعة الثمينة خير زاد لروحه، لقد قرأ عن أفاذ المصلحين قراءة جعلته يتهيأ لدور كبير يُضيف به ترجمة حافلة إلى هذه التراجم!

ولم تكن نزهة الخواطر، هي سلواه المختارة وحدها في عهد اليقاعة، بل دفعته إلى مثيلاتها في التراث الإسلامي. . وفي كتب التراجم والطبقات، وهذا البحر الزاخر من المعارف التاريخية يُحيي النفوس المتعطشة ويدفعها إلى الاحتذاء الحسن، لا سيّما إذا كان القارئ أبا الحسن ذا النفس المتوثبة الطامحة للعلاء، ونحن نرى أمثلة شتى في كتب أبي الحسن قطفها من حداثق هذه الكتب، وكم قرأها أناس من قبله ومن بعده، ولكنهم لم يحسنوا استغلالها على النحو الذي اهتدى إليه الشاب البصير، وإذا أردنا أن ننشئ شبيبة واعية، نعرف الإسلام الصحيح في سير رجاله، فعليّنا أن نكتب هذه التراجم المجيدة بلغة العصر، لنفتح الأبواب الفسيحة إلى من يريدون التنزّه في بساتين الأجداد، وهم كثيرون.

إنَّ رحمة الله عز وجل تسع كلَّ شيء، فحين حُرِّم أبو الحسن من رعاية والدِه العالم العاملِ البَحَّاثَة، لم يُحرِّم من رعاية اثنين عزيزين أثيرين؛ هُما أمُّه وأخوه؛ أمَّا أمُّه فكانت قارئَةً كاتبَةً شاعرةً، جَمَعَت هذه المزايا في عصرٍ كان أكثرُ المسلمين شرقاً وغرباً لا يلتفتن إلى تعليم، ومن تتعلَّم منهنَّ تفتُّ عند حدٍّ محدود لا يتجاوزُ معرفة القراءة والكتابة إلَّا من نشأ في أسر الفضل والفضيلة مثل والدته أبي الحسن! كانت الوالدةُ الفاضلة تحفظ القرآن الكريم، وتقرأ تفسيره في كتب التراث، كما كانت تكتب المقالة، وتُنشئ القصيدة، وفي هامش ص ٢٤ من مقدمة كتاب (ماذا خسر العالم بالخطايا المسلمين) أنَّها طَبَعَت عدةَ كتب، ومجموعاتٍ من الشعر، كلُّها مناجاة لله تعالى ودعاءً ضارحاً، كما أرسلت مدائحها في رسول الله ﷺ، وقد كنتُ أرجو أن أقرأ بعض ما كتبت ونظمت، ولكنَّ يدي لم تصلُ منهما إلى شيء، هذا بعضُ ما يقال عن الأم الكريمة .

أما الأخ الشقيق فهو الدكتور السيد عبد العلي عبد الحي، وقد جَمَعَ بين الثقافة الدينية، والثقافة العصرية، فكان إلى تعمِّقه في بحوث الدين مثقفاً عارفاً بالتيارات الفكرية المعاصرة في العالم، وكانت مكتبته ملأى بالأسفار في الاتجاهين، وهذا مِنْ حظِّ أبي الحسن الدارس الناشئ، لأنَّه وَجَدَ مَنْ وَجَّهه إلى القديم والجديد معاً، وقد ظَهَرَ أثرُ ذلك في نتاجه العلمي الحافل، لأنَّ نظرتَه الشاملة الناقدة لوجوه المفاصد في الشرق والغرب معاً لم تأت إلَّا من اطلاع شامل على مختلف التيارات المتعارضة، ونحن نجدُ لدينا قوماً ينكرون المفاصد الغربية، ولكنَّهم لم يبلغوا مبلغ أبي الحسن في هذا المجال، لأنَّهم لم يقرؤوا ما قرأ عن هذه المفاصد، وإذا قرؤوا لم يُرزقوا الفكر الثاقب، والروح العالية، والقلم الصَّوال. ونحن نجلُّ هذا الأخ ونعرفُ فضله في رعاية الأخ اليتيم .

وإذا كنَّا لم نطلع على شيء من آثار الوالدة الكريمة، فقد اطلعنا على بعض آثار الأخ الأديب العالم، ومن بين ما قرأناه في مجلة الرسالة المصرية مقال تحت عنوان (أسطورة)، والمقال يدلُّ على أنَّ الأخوين العزيزين يصدران عن منبع واحد، فحديثُ السيطرة الغربية، والتخلُّف الحضاري في الشرق، وانهماك المترفين في الملذات، دون نظرٍ إلى النفع العام؛ هو شبيهُ أحاديث أبي الحسن، وكنتُ أود أن أقبس منه سطوراً تنطق بما أعنيه، ولكنِّي لا أعجبُ بعد قراءة مقال (أسطورة) أن

يكون كاتبه هو الشقيق الذي تولى رعاية أخيه، وطبعه بطابعه الإسلامي الحار المتوهج، والشقيقان - بعدُ - أثّر من آثار الأب المجاهد والوالدة الكاتبة الشاعرة. وقديماً قال القائل الحماسي:

أرى كلَّ عرق نازعاً لأرومةٍ أبى نسبُ العيدان أن يتغيّرا

وفي الثانية عشرة من عمره بعد رحيل والده الكريم بثلاثة أعوام، وجّه الأخ الأكبر أخاه إلى تعلّم الإنجليزية والعربية معاً - فوق تعلمه للأردية - وهو توجيهٌ منتظر من أستاذٍ يعرف فائدة الاطلاع المستوعب للتيارات المتضاربة في الشرق والغرب، حتى إذا بلغ من اللغتين حدّ الإجادة على يد أساتذة من الفضلاء، دفعته نوازع الإسلاميه إلى التخلّص من الأدب العربي. وكان فضلُ الله عليه عظيماً حين لم يتّجه إلى نفرٍ من كتّاب الخلافة اللفظية في عصور الصنعة البديعية، بل اتجه إلى كتّاب أربعة هي: كليله ودمنة لابن المقفع، ونهج البلاغة للإمام علي، ودلائل الإعجاز لعبد القاهر الجرجاني، وحماسة أبي تمام. وهي كتّاب تُنشئ أديباً في مثل سنّه، لأنّ كليله ودمنة ونهج البلاغة مثلاًن للأدب الإبداعي، ودلائل الإعجاز مثلاً رائع للنقد البياني المستنير، أما حماسة أبي تمام فهي - في رأيي - من أبدع المختارات الممتازة في الشعر العربي القديم.

وبعد هذا التخلّص من التراث، التحق أبو الحسن بجامعة لكهنؤ، وهي جامعةٌ تدرس العلوم المدنيّة باللغة الإنجليزية، وفيها قسمٌ لآداب اللغة العربية اختاره أبو الحسن عن شوقٍ، ووجد من أستاذه الدكتور تقي الدين الهلالي المراكشي رائداً بصيراً يهدي للتي هي أقومٌ في استيعاب التراث الأدبي للغة العرب، ومن بعد الجامعة التحق بالندوة ليلاتي كبار العلماء في الهند من أساتذتها، وليحضر دروس الشريعة عليهم؛ ولم يرو ظمأه من ذلك كلّ، بل دفعه هيامه بالمعرفة إلى الالتحاق بدار العلوم بديوبند مدة شهور، وكأنّه رأى أنّه ألمّ سلفاً بمقرراتها، فاقصر الأمد. ثم سافر إلى (لاهور) وقرأ التفسير القرآني على كبار علمائها، وتحققت أمنيته السعيدة بلقاء شاعر الإسلام محمد إقبال، فحرص على مجالسته والإفادة من توجيهه، وهي صُحبة عادت عليه بأجلز النفع علماً وسلوكاً. وسأخصّها قريباً ببعض التفصيل.

أما بذرة الأديب المتطلّع إلى السبق فقد برزت في هذا الأمد - أمد الطّلب العلمي والتحصيل الثقافي - إذ دفعته همته الوافية إلى كتابة مقالٍ تاريخيٍّ، وهو في سنّ

الثامنة عشرة، يتحدث عن جدّه المجاهد أحمد بن عرفان شهيد الإسلام، وإمام أهل التوحيد، وقد أَلَمَعْنَا إلى بعض حديثه من قبل، وقد كتبه باقتراح من أخيه، فصادف إعجابه، وبعث به إلى مجلة (المنار) المصرية التي يقوم على إصدارها حجة الإسلام في هذا العصر السيد محمد رشيد رضا، وهي ذات صدَى مسموع في ربوع الإسلام، فوجد السيد رشيد في المقال ما يرشحه للنشر عن إعجاب. وكان أول مقال كتبه الأديب الناشئ، ولا شك أن نُشِرَ المقال في هذه المجلة الممتازة، قد بعث في نفس أبي الحسن ثقةً تمذّه بالعزم الطامح، والجدّ المثابر، إذ وجد المنار تضعه في صفوف كتّابه، وإذا كانت أعداد المنار التي تصل إلى الهند ذات قدر محدود، فقد عرض أبو الحسن على أن ينشره مستقلاً في رسالة طبعها تحت عنوان (ترجمة السيد الإمام أحمد بن عرفان الشهيد) وقد ظهرت في سنة ١٣٥٠ هـ، فأحدثت صدَى قوياً بين العلماء والباحثين، وكانت بمثابة فجر صادق يبشر ضوؤه المشعّ بقدوم صبح مبين!

اهتدى أبو الحسن بعد نشر مقاله بالمنار إلى صميم رسالته التي يجب أن يحملها إلى العالم جميعه لا إلى العالم الإسلامي وحده، هذه الرسالة هي: الدعوة إلى الله كاتباً ومتحدثاً، أما كاتباً فقد ظهرت بشائر توفيقه فيما كتب بالمنار، وفيما نشر بصحف الندوة؛ وأما متحدثاً فقد أَلَفَ - على حداثة سنّه - أن يصعد إلى المنبر خطيباً؛ وأن يُحدث المستمعين في الندوة محاضراً، فيحظى بالقبول إن لم يكن يحظى بأكثر من القبول. وذلك وحده زاد يُعين المدلجين على السرى في ظلمات الطريق...

- ٢ -

قلْتُ إن أبا الحسن أَلَفَ أن يصعد المنبر خطيباً، وذلك توفيقٌ من الله ساقه إليه على يد أحد أساتذته، فقد سافرَ إلى (دلهي) في رحلة علميّة فشأت المصادفات السّارة أن يلتقي بداعيتها المجدد الكبير الشيخ محمد إلياس، والشيخ إلياس لا يعتمد في دعوته على الكتابة الصحفية، أو التأليف العلمي؛ ولكنه يرحل إلى الجماهير في كل مكان فينتصبُ واعظاً مرشداً، يتفجّر البيان من جوانبه، كما ينبثقُ الماء من النبع الصافي... وهو رحالة لا يهدأ، تراه كل يوم في قرية أو مدينة، يُقابل بالجلّة والترحاب، وتنتظر الجموع هديه كما تترقب الأرض الجديدة نمير الماء...

وقد تتصلُّ الرحلة إلى هذه الربوع المتجاورة شهراً أو شهرين، دُونَ أن ينقطع يوماً واحداً عن ارتقاء المنبر، وترديد الإرشاد، وأبو الحسن يسمع مُعجباً مسروراً، ويرى انفعال السامعين بما يسمعون، فيعلمُ أنَّ اللقاء المباشر يفوقُ تأثيره الحماسي ما يكتب في صحيفة أو يُرصد في كتاب.

ومن ثمَّ عزَم أبو الحسن على أن يكون داعيةً في المجتمع بلسانه، كما هو كاتبٌ للقارئ في مؤلفاته، وكان أستاذه الشيخ إلياس صادق النية مخلص السريرة، أسلم وجهه إلى الله وهو مؤمن، فعظم تأثيره النَّفَّاذ، وأصبحت لكلمته التي ينطق بها أشعة من الضياء تنتقل إلى الوجوه فتملؤها نوراً، وإلى القلوب فتصقلها صقلاً يطرد عنها نوازع السوء، وهوابط الوسوس؛ وهنا كان الرجل قدوةً في خلقه كما هو قدوةٌ في وعظه، واعتزم أبو الحسن أن ينحو منحاه! وقد كان منه بمكان قريب، فالمبادئ هي المبادئ والسرائر هي السرائر، ولم يترك الشيخ حتى صمَّم على أن يدعو بلسانه كما يدعو بقلمه، ووقفه الله في إرشاده اللفظي، إذ كان يملك أسلحته الماضية، بل كان يملك أكثر مما يملك أستاذه، لأنَّ الشيخ الكبير خطيب منبر، يُحدث العامة بما يجذبهم، وليس له سبحاتُ أبي الحسن في مطاوي الأسفار، وحواشي المجلدات، فإذا دُهِشت الجموعُ إعجاباً به خطيباً داعية، فلنحمد الله أن اجتابَ هذا السبيل.

على أنَّ أستاذاً ملهماً آخر أذكى جمرة الشوق في قلب أبي الحسن، أذكى جمرة الشوق في قلبه، ثم زاد فطار بروحه إلى آفاقٍ رحبية تشرق بالنجوم ويهبُّ بها النسيم المنعش مُحمَّلاً بأطيب العبير، هذا الملهم هو الشاعر العالمي محمد إقبال، فقد كان لقاءه به في (لاهور) مصدر ارتقاء شعوري لا يسهل مرتقاه، وكلُّ المثقفين في العربية يقرؤون إقبال ويردّدون مترجماته عن الأردية والفارسية، ولكنهم لا يلمسون تأثيرها النَّفَّاذ الذي تتموج كهرباؤه في اللغة الأصلية التي نظم بها إقبال، وأذكر أنني قلتُ في قصيدتي عن الشاعر الكبير متحدثاً عن شعره^(١):

معانٍ جلّتها حكمةُ الشرق فانشئت تدلّ على أهل الحجا أيّ إدلالٍ
وتُغمض أحياناً فتبدو عويصةً كأنك منها واقفٌ بين أجيالٍ
إذا أنقص التعريبُ بعضَ بريقها فإنّ سياق النصّ يُوحى بإكمال

قلتُ ذلك قبل أن أقرأ ما حكاه أبو الحسن عن الشاعر إقبال، فقد قدّمه لقراء

(١) صدى الأيام، للدكتور محمد رجب البيومي، ص ١٤٦.

العربية خير تقديم حين أصدر مؤلفه اللطيف (شاعر الإسلام الدكتور محمد إقبال) فتحدث حديثاً رائعاً عن حياته وعن العوامل التي كونت شخصيته وآراءه في التعليم والعلوم والجيل الجديد، وحين تحدث أبو الحسن عن الإيمان، بين هذه العوامل، هذا الإيمان الذي رفع الشاعر عن الاحتفال بمغريات المادة وعن تيار الحضارة الغربية الجارف ودفعه إلى مقومات الحياة لدى الأمة الإسلامية كما تغنى بها إقبال مبيناً جناية المدنية الحديثة على الإنسانية، ثم حديثه عن القرآن الكريم، وأثره الضخم في تحديد رسالة الشاعر الكبير، وعن خبرته بالنفس الإنسانية شرقاً وغرباً؛ حين تحدث عن ذلك كله خلّت أن أبا الحسن يتحدث عن نفسه لا عن إقبال، وليس معنى ذلك أنه أضاف إلى شاعر الإسلام ما لم يقله، فقد استشهد بنماذج من شعره ليس مكانها في هذه السيرة الذاتية، ولكنّ معناه أن المصلحين العظميين التقيا على هدف واحد، وأن إقبال قد صدق التعبير عن نفس كل مؤمن صادق الإيمان، بعيد النظرة، واسع الأمل في عون الله، وكان تجاوب أبي الحسن معه، تجاوب حمائين أليفين تصدحان بالغناء في دوحه واحدة، إذا حنت الأولى رنّ صداها في نفس الثانية فهتفت بالشّجو المديد.

أما مآخذ إقبال على التعليم المعاصر، وأما آراؤه في العلوم والآداب، وأما تصويره للشباب المسلم؛ فيستطيع باحث فاضل أن يشرح كل ذلك مقارناً بما سجّله أبو الحسن من آراء تتقارب، إن لم تكن تتماثل مع هذه الآراء، ويكفي إقبالاً أن يسجل أن المسلم هو الإنسان الوحيد الذي يُعدّ خطراً على الباطل في كل زمان ومكان، وأن المسلم قد بنى العالم المستنير في الزمن البعيد وهو مهياً اليوم لإعادة البناء في العالم الحديث، وهي عناصر موجزة نجد تحليلها الشافي المبسوط في مؤلفات أبي الحسن على نحو مبهر أنيق. . لقد أحببت إقبالاً قبل أن أفهمه، أحببته عاطفياً ووجدانياً، ووقفت أمام غوامضه حائراً لا أهتدي إلى منارٍ وضئى، ثم قرأت أبا الحسن، وما كتبه عن إقبال، فأحببته وجدانياً وفكرياً، وزالت أكثر الغوامض عن نفسي، وهتفت من أعماقي: رحم الله إقبالاً، وأمدّ في حياة أبي الحسن، وبارك في عمره السعيد.

رجع أبو الحسن من دلهي، وفي نفسه قبس من روح شيخه إلياس، كما رجع من لاهور وفي نفسه جذوة من شعلة إقبال، وقد صمّم على أن يرحل كما رحل أستاذه

الداعية، ولكن إلى أين يرحل؟ لقد قصر الأستاذ الشيخ جهده على الربوع الهندية وحدها، وقد استيقظت على دعوته من سباتها الطويل، وأولّى بأبي الحسن أن يرحل لا إلى قُرى الهند ورُبوعها المترامية، بل إلى العالم الإسلامي في حواضره الزاهرة، إنّ العالم الإسلامي في حاجةٍ إلى رحالةٍ مثله يقابل علماءه، ويناقش مفكره، ويجتمع مع شبابه، ويدرك أغوار هذه النفوس الحائرة بين أمواج الفكر المضطرب شرقاً وغرباً، وتلك رسالةٌ صعبة، هي رسالةُ جمال الدين الأفغاني من قبل، ولكن جمال الدين الأفغاني كان نُوراً وناراً، وأبو الحسن نورٌ فحسب، إذ لا يميل إلى إشعال الثورات، ولكنّه يدعو إلى سبيل ربّه بالحكمة والموعظة، ويُحاول بالتّي هي أحسن كما أشار القرآن الكريم.

لقد رحل أبو الحسن إلى الحجاز مرّات وإلى مصر والمغرب، والشام وتركيا وزار أمريكا والدول الأوروبية، وطوّفَ بأكثر عواصم العالم الإسلامي، وكانت رحلاته عظيمة التأثير لأن اسمه كان يسبقُ شخصه، وكان أحباؤه وخصومه في الرأي يحرصون على لقائه؛ فالأحباء ليطفئوا غليل الشوق برؤيته، وليتمتعوا بأنفسهم بكلماته، والخصوم يريدون أن يسمعوا الجديد ممّا يبدهه كلّ يوم دون إمهال، وعسى أن يجدوا مجالاً للردّ، وموضعاً للحوار، والرجل يعرف مكانته من هؤلاء وأولئك، ويلبس لكلّ حالة لبوسها، ويؤوب مؤزراً بنصر الله.

وقد تحدّث عن رحلاته في كتب مستقلة، وفي مقالات سائرة، وعبر عن شعوره الصادق دون مجاملة للباطل، إذ رأى أنّ رحلته لا تتمّ على وجهها الصحيح إلّا إذا أفصح عن مراده دون لثام، والحقيقة لا تؤلم إذا سيّقت في أسلوب أدبي يترفع عن التعريض، وينأى عن الاستعلاء، وكم كان عجباً لأبي الحسن أن يدرك أنّ المسلمين في العالم الفسح لا يكادون يعرفون شيئاً عن مسلمي الهند، فهو يقول في مطلع مقالٍ سجّله بمجلة الأزهر^(١): «كنت في رحلتي إلى الشرق الأوسط أواجه سؤالاً يتكرر ويؤجّه في كل مجلس، وفي كل مناسبة، عن عدد المسلمين في الهند، فأجيب بأنهم أربعون مليوناً (كان ذلك سنة ١٣٨٠هـ) فيندهشُ الناس ويقول بعضهم يا سلام! ولولا ثقتهم بالضيف لсарعو بالتكذيب، لأنّهم كانوا ينتظرون أن يكون المسلمون في الهند بعدما سمعوا عن موجات الهجرة الكبيرة: مليوناً واحداً؛ لقد

(١) مجلة الأزهر: عدد رمضان، سنة ١٣٨٠هـ.

كانت هذه مفارقة لا تُفارقني أينما حللت ونزلت، مفاجأة للطرفين، مفاجأة للمسلمين عن عدد زملائهم في الهند، ومفاجأة للمجيب عن استغرابهم، وهناك كانت مفاجآت أخرى، فيما يتصل بالمسلمين في الهند، فالذين كانوا يعرفون أنّ في الهند عدداً كبيراً من المسلمين - على قلة هؤلاء - كانوا يعتقدون أنّ المسلمين لا شأن لهم في هذا القطر العظيم، ليست لهم حضارة خاصة، ولا ثقافة واسعة، ولا آداب سامية، ولا مؤسسات علمية، ولا نشاط، ولا إنتاج في علم وأدب، إنما هم أمة أفلسَتْ في كلّ مقومات الحياة، وفي كلّ ما تعتزّ به أمة من علم وأدب، ودين واجتماع، وأخلاقٍ ومروءة! بل كاد البعض يسأل: هل في الهند مساجد؟ هل فيها مدارس دينية، هل عندكم علماء؟ هل يوجد من يُحسن أن يقرأ القرآن؟ هل فيهم مَنْ يفهم العربية؟».

ومضى الكاتب الكبير يُجيب في مقاله الرائع عن هذه الأسئلة، ولكّنه عاد باللوم على تقصير علماء الهند في القيام بمهمة التعريف بهذا القطر العظيم، ومضى يفصّل ما أنتجت الأمة الهندية المسلمة من آثارٍ علمية رائعة في الحديث والفقه والأصول وعلم الكلام والسيرة النبوية، ويعدّد أسماء العلماء الكبار من مؤلفي الموسوعات والأجزاء المتتابعة، ويفيض في القول، حين يتحدث عما أضافه المسلمون إلى ثروة البلاد، وما قاموا به من إصلاحاتٍ؛ قائلاً في حديثه الرائع: «ولقد كان ما اكتسبته الهند من المسلمين أعظم وأعلى مما استفاده المسلمون منها، وكان دخولهم في هذه البلاد فتحاً جديداً في تاريخها وحياتها ومكسباً عظيماً، والبحثُ شاف واف، والرجوعُ إليه يُصحّح أو هاماً كثيرة يجب أن تزول».

على أنّ لأبي الحسن شجاعةً أدبية تكاد تكون منقطعة النظير، فهو في كلّ مكان يرحل إليه، يخطبُ في النوادي العامة ويُلقي المحاضرات الثقافية في ساحات العلم وينشرُ ما يريده في أمهات الصحف، لأنّ اسمه الكريم يسبقه كما قلتُ من قبل معلناً عن قدره العظيم؛ ومن مظاهر هذه الشجاعة الأدبية أنّه في مقالاته هذه يُرسل نقداً الجريئة لبعض ما لا يوافق عليه مما يرى ويسمع، يُرسلها في أمهات المجلات المقرّوة ليصدّع بكلمة الحق دُون محاباة، أذكرُ أنه زار مصر في سنة ١٩٥٠م وخالط كتابها ومفكرها، وعقد ندواتٍ ممتازة بجمعية الشبان المسلمين وغيرها، ثم عنّ له أن يكتب في مجلة الرسالة كلمة تحت عنوان (اسمعي يا مصر) بدأها بالإشادة بما رآه

من محاسن، ثم وجّه الأمة المصرية إلى رسالتها الحضارية في إفهام الغرب ما يجهره من مزايا العرب والإسلام، لأنّها بكتّابها وجامعاتها ومفكرها أقدر بلدٍ يقوم بهذه الرسالة، حتّى إذا انتهى من ذلك، جاهر بنقداته الجريئة في مثل قوله^(١):

«أحرصى يا مصر على رجولة أبنائك وأخلاقهم، وصُوني شبابهم وشرفهم ودينهم وصحتهم من أن يعبث بها العابثون، أو يتجر بها المتجرون، ممن يعيشون على أثمانِ الأعراض والأخلاق، ويحبّون أن تشيع الفاحشة في الذين آمنوا، لتروج بضاعتهم، وتزدهر تجارتهم، أولئك هم أصحاب الروايات الخليفة والصور العارية، والأدب المكشوف.. كافحي يا مصرُ الوباءَ الخلقي الذي يقضي على حيوية الأمة، وطاردي كلّ من يحاول أن يُزعزع العقيدة في شعبك، إنّ العالم العربي قد أحلّك من نفسه محلاً ربيعاً، ووضع ثقته فيك فلا تُصدري إليه من أدبك وموضوعاتك ما يرزأه في إيمانه وأخلاقه، إنّ هذه الروايات الخليفة والأدب الماجن أفسدُ وأضرُّ بالأمة من الحبوب المسمومة، والفواكه الموبوءة.. إنّ القارة الإفريقية لا يزالُ جزءٌ كبير منها على فطرتها، وهو حقلٌ لجهودك وتربيتك، فأرسلني إليها دعائك المبشرين لتُنقِذي نفوسَ هؤلاء وتكتسبي قلوباً تكون خيراً لك من الأمم الغربية التي تخطّبن وُدّها، وتحرصين على صداقتها، وهي لا تدوم على حال».

وأذكر أن مقال الأستاذ الكبير قوبل بالاستحسان، وفسحت له المجلّات الملتزمة مجال التحليل والتعقيب حين رأت فيه صيحةً مخلصّة يقوم بها مرشد أمين.

هذا في مصر، وكذلك في غيرها من الدول التي سعدتُ برحلة الأستاذ الكبير إليها، أذكر أنه في زيارته لعمّان عاصمة الأردن عقد ندوةً تتحدث عن (حيرة الشباب المسلم؛ أسبابها وعلاجها)^(٢) فكان الرجل صريحاً كعادته حين جعل من أسباب هذه الحيرة التناقض الصريح في التوجيه والإعلام والتربية، «لأنّ الشاب يجد في تقاليد بيته المسلم ما يسمعُ نقيضه في الصحف والمجلّات، بل قد يسمع في المدرسة ما لا يتفقُ وتعاليم الإسلام، فيقعُ في صراع فكريّ عنيف، وقد يقرأ صحيفةً يحزّرها غير مسؤول عن دينه وشرف أمته فيجدُ بها ما يدعو إلى الغرابة والإلحاد، وقد شاعتُ بدعة القديم والجديد لترمي تراثنا بكل تأخر، وتدفع إلى محاكاة أعدائنا

(١) مجلة الرسالة، سنة ١٩٥٠، ص ٢٦٦، السنة التاسعة عشرة.

(٢) من مجلة الأزهر، عدد شعبان، سنة ١٣٩٨، تلخيص لندوة عمان.

في كل ما يقترُونه، وهذا كلّ يحتاج إلى قلبِ نظامِ التعليمِ رأساً على عقب، يحتاج إلى أناسٍ لديهم الأصالةُ الفكرية فلا يعيشون متطفّلين على مائدة الغرب، كما أننا نعيشُ في عزلةٍ عن الشباب، ولدينا نحوهم كثيرٌ من سوء التفاهم وإساءة الظن، ولا بدّ أن نسعى إليهم، لننقذهم من الانحراف، وذلك يحتاج إلى مخططات دقيقة؛ مخططاتٍ علمية مدروسة تحتاجُ إلى أقلامٍ بليغة، ولست متشائماً ولا يائساً، ولكني أدعو إلى الإصلاح».

وقد يكرّر الأستاذ ما قاله في دولة زارها من قبل، لا لأنّه لا يجدُ ما يقول، بل لأنّه يجد الداءَ مشتركاً؛ والطبيبُ حين يكتبُ دواءً مُماثلاً لمرّضين يُعانيان من حالة واحدة، لا يكونُ مكرّراً للدواء، بل يضعُ الأمرَ في موضعه الصحيح، وقد كانت المملكة العربية السعودية ذات نصيب كبير من رحلات الأستاذ، لأنّها أقربُ البلاد إلى قلبه، ولأنّ الإسلام بها يجدُ متنفسه الذي لا يجده في دُول شقيقات! وقد حظي بلقاء الملك فيصل وقدّم له خطاباً يحمل مقترحات مخلصّة صادفت قبول الملك الكريم.

وهكذا كان أبو الحسن يرحلُ ليدقّ الناقوس، فهو سفيرٌ متنقل في بلاد الإسلام، ولا أنسى أن أشير إلى كتبه الثلاثة: (١) مذكرات سائح في الشرق العربي، (٢) من نهر كابل إلى نهر اليرموك، (٣) أسبوعان في المغرب الأقصى؛ ففي هذه الآثار القوية بتوجيهها وتشخيصها ونقدها الصائب ما يضعُ الرحالة الكبير في مقدمة المصلحين الكبار من أبناء هذا القرن دون نزاع، وكم يروع القارئ أن يجد في صفحات هذه الكتب الخالدة، أوصافاً دقيقة لبلادٍ عزيزة علينا جميعاً، هي أفغانستان وإيران وسورية ولبنان والعراق والأردن؛ أوصافاً لا تتجاهل ما بهذه الدول من مؤسسات ثقافية وهيئات علميّة، ومبلغ تمسّكها بالعقيدة الإسلامية أو مجافاتها في بعض اتجاهاتها، وما أحدث ذلك كلّ من آثار سلبية.

أما رحلة الداعية الكبير إلى الولايات المتحدة وكندا بدعوةٍ من الطلاب المسلمين في الدولتين فقد وصفها الكاتب في سِفْرِ خاص، وهي ذاتُ مذاقٍ مختلف عن الرّحلات الخاصة ببلاد الإسلام، لأنّ المسلمين في أمريكا وكندا محدودو النشاط، ولكنّ عليهم - في رأي الأستاذ - أن يُحافظوا على كيانهم الإسلامي في بلاد الغرب، وأن ينظروا نظرة واعية إلى الحضارة الغربيّة، فيعرفوا أوجه النفع وأوجه

الضرر، وهم بعدُ المثلُ الناطق للمسلمين في مرأى جيرانهم من ذوي الديانات المختلفة أو ممّن لا يدينون بدين مطلقاً، وإذا كانت حضارة أوروبا وأمريكا تجدُ الدّعاية الكافية ذات الإغراء الخالب، فعلينا أن نقيسها بمقياس الحضارة الإسلامية التي تستمد أصولها من شريعة الإسلام؛ وقد قُوبِل الدّاعية الكبير بأسمى مظاهر التبجيل، وأقيمت الحفلات المتعاقبة لتكريمه، وما جاء الرجل المتواضع ليتصدّر حفلات التكريم، بل قدم حاملاً مصباح الهداية لمن يفتح عينه على النور المبين.

- ٣ -

عاد الأستاذ الدّاعية من رحلاته المتتابة لا ليكتفي بانطباعه الخاص، بل ليسجل ما رأى وسمع، والتسجيلُ لديه لا يعني وصف ما شاهده فحسب، بل لابد أن يعرض الداء ثم يكتب الدواء، وإطلاعُ الأستاذ الكبير على روعة الماضي، وفداحة الحاضر؛ هذا الإطلاعُ الشاسع الممتد في آفاق التاريخ الإسلامي في شتّى ربوعه ماضياً، وهذه النظرات المتأملّة الممتدة في آفاق العالم الإسلامي حاضراً؛ حملت الكاتب على السرعة في العلاج، وعلى النظر الباهر للماضي والحاضر، ليصير علاج المريض الهامد الذي كان بالأمس عملاقاً يتوثب نافعاً مصيباً.

وللأستاذ خيال رائع يقرب به الحقيقة التي يريد أن يتحدث عنها، فليس خياله الأدبي تهويماتٍ طائرة في الفضاء كما نرى لدى بعض من يرسمون الصّور الباهتة دون أن تَلَفَتَ الأنظار إلى ما وراء الصورة من الحقيقة، وقد قال الثّقاد وأكثروا من القول بأنّ وظيفة الخيال تقريبُ الحقيقة، وتدعيمها وتأكيدُها، وليست وظيفة الخيال القطع البعيد عن الحقائق، والإغراق في تصوّراتٍ تضلّ ولا تهدي!

لقد أراد الدّاعية الكبير أن يتحدث بعد رحلاته المتتابة عن المسلمين بين الأمم واليوم، فكتب مقالاً^(١) هو من أنفس ما قيل في موضوعه، كتبه تحت عنوان (بين الصورة والحقيقة) وهو جديرٌ أن يُدرّس على الطلاب في جميع المعاهد والكلّيات نظراً لمغزاه الدقيق، فقد جعل الأستاذ الصورة البعيدة عن الحقيقة مثل الثمار المصنوعة من الخزف تتراءى للناظر كأنها تُفّاح أو رمان أو عنب أو موز أو بُرتقال في

(١) مجلة المسلمون، العدد الثامن من السنة الثالثة، ص ٤٣ وما بعدها.

لونها وشكلها، ولكن أين الصورة من الحقيقة؟ وأين طعم الثمار ورائحتها؟ إنها ليست إلا للزينة أو المثال، لأن الصورة لا تستطيع أن تسد مكان الحقيقة وتنوب عنها، ولا تمثل دورها، فإذا وقع صراعٌ بينهما انهارت الصورة إذ لا تتحمل عبء الحقيقة؛ إن صورة إسلامنا اليوم وصورة كلمتنا لا تقدران أن تغلبا على عاداتنا الحقيرة، وتقهرنا شهواتنا، إننا نلذذ بكلمة الشهادة والتوحيد، ومنا من يعرف ما يقول، ولكن الصورة شيءٌ والحقيقة شيءٌ آخر، إن أصحاب النبي ﷺ كانوا على حقيقة هذه الشهادة، فإذا قالوا: لا إله إلا الله، اعتقدوا أنه لا إله غيره ولا رب سواه ولا نافع ولا ضار إلا هو، أما نحن فنقولها ونغفل عن معناها حين نرجو الخير من الأعداء، ونتركُ إله الكون الوهاب.

إن أكبر انقلابٍ وقع في تاريخ هذه الأمة هو أن الصورة احتلت مكان الحقيقة، واستولت على حياة الأمة من عهدٍ بعيد من التاريخ، والذين كانوا يرون الصورة من بعيد يعتقدون أنها الحقيقة، ولذلك يذعرون ويشفقون من قربها؛ لقد حرسَ الإسلام المسلمين بالصورة مدةً طويلة فلم يجترئ عليهم أحدٌ، ثم تجرأ التتار عليهم في بغداد وما وليها، فانهارت الصورة، وأصبحت عاجزةً عن أن تدفع المكروه، وكلّ ما نقرأ في تاريخ الإسلام من أخبار انكسار المسلمين وهزيمتهم في ميادين القتال، هو أثر انخدال الصورة وفُضيححتها لا غير، لقد فضحتنا الصورة في كل معركة أو اصطدام، والذنب ذنبنا لأننا حملنا عبء الحقيقة على الصورة فجاء الخذلان!

هذا المقال الثَّارِي (وأرجو ألا أكونَ أخفقتُ في تلخيص نقاطه الهادفة) يرسمُ وجوه الإصلاح إذا أردنا أن نسير في الطريق الصحيح، وقد كثر الأستاذ الكبير معناه الرائع في أبواب شتى من تأليفه، لأنه يعتقد أن بدء البرء العاجل أن نعرف مكانَ الداء القاتل، وها هو ذا قد عرف موضع الداء ووصف الدواء.

ولكن كيف السبيل إلى النهوض من هذه الكبوات المتلاحقة، لقد فكّر الأستاذ في رجال اليوم وفي بعض شبابه، فوجد التربية المدرسية والإعلامية في أكثر بلاد الإسلام قد ضلّت سواء السبيل، إذ خضعت أجهزة التعليم إلى النظام الأوروبي فأحدثت فجوات هائلة بين عقيدة الطالب المسلم، وما تُوحى به المقررات المستوردة من انفصام عن مبادئ هذه العقيدة، والعلاجُ الصحيح في خطواته الأولى أن نبدأ بالنظر في أساليب التربية المتخذة دستوراً راسخاً لا تتخطاه بعض هذه

الدول، ثم ننظر في تربية النشء وفق مقرراتٍ هادفة تعرف طريقها الصحيح، بدل الكتب المترجمة، وأشباه المترجمة بما يُضللُ النشءَ عن حقيقة تاريخهم المجيد، ودينهم الرشيد.

لقد ألقى الأستاذ أبو الحسن محاضرةً هادفةً في مهرجان ندوة العلماء المنعقد بتاريخ ٢٦/١٠/١٣٩٥ هجرية تحت عنوان (أهمية نظام التربية والتعليم في الأقطار الإسلامية) وكلمةُ الأقطار الإسلامية لا يلتفتُ إليها إلا أمثالُ أبي الحسن الندوي ممن يُحسُّون أنَّ العالم الإسلامي وطنٌ واحد، فقد رأينا من أشياخ أوربا مَنْ يجزؤون الوطن الواحد إلى عدّة مناطق، مدّعين أنَّ كل منطقةٍ لها بيئتها الخاصّة التي تُحتمُّ أن يُقدّم لها مقرّرٌ خاصٌّ يختلف عن مقررات جاراتها؛ ومراعاةُ البيئة وظروفها المحليّة قد تكونُ نافعةً في علوم الزراعة والتجارة والاقتصاد! ولكن كيف يختلف المقرر في مناهج التاريخ واللغة والدين تحت شعارٍ ممّوه كاذب مفضوح؟!

لقد التفت الأستاذ إلى خطر التجزئة حين تحدّث عن أساليب التربية بالأقطار الإسلامية بعامّة، فذكر أول ما ذكر أنَّ كثيراً من التربويين في هذه البلاد يُحكّمون في مناهجهم التعليمية ومؤسساتهم التربوية نفراً من الأخصائيين والمستشارين من البلاد الأوروبية، ثم هم يرسلون البعثات من أبنائهم ليرجع الطلابُ ملزمين بما رأوه من المناهج هناك، وكأنها قرآنٌ منزل! فكانت النتيجة وجود طبقة مضطربة العقائد والسير والأخلاق، وهي في أحسن أحوالها مذبذبةٌ بين الفكرة الغربية والفكرة الإسلامية، وفي كثير من الأحيان تنسلخُ عمّا يدين به مجتمعها الإسلامي كلّ الانسلاخ. إن عملية التربية في أمة من الأمم ليست بضاعةً تصدر إلى الخارج أو تستورد إلى الداخل كالمصنوعات والمواد الخام والمخترعات التي لا تخص بلداً دون بلد، وإنما هي لباسٌ يفضّل على قامة الشعوب، وملامحها القومية، وتقاليدها الموروثة، والتربية في صميمها وسيلةٌ راقية مهذبة لدعم العقيدة التي يؤمن بها شعب أو بلد، وتغذيتها بالافتقار الفكري القائم على الثقة والاعتزاز. . وقد دارت مناقشات الندوة حول كلمة الأستاذ، ولاقت من القبول التام ما جعلها موضع التنفيذ المباشر لدى من يستمعون القول فيتبعون أحسنه.

أما رعاية النشء، فذات عبء خاص يجب أن ينهض به كلّ من يستطيع المشاركة في تحمّله، وقد بدأ الأستاذ بتأليف سلسلة كتبٍ خاصة بالأطفال ثم بمن يعلوهم من

تلاميذ المدارس متوسطة وثانوية، وتأليف الكتب للأطفال شاقٌ عسير، لأنّه يتطلب مراعاة العقول الغضة، واختيار ما يناسبها تعبيراً وتفكيراً وتوجيهاً، وقد اقتحم هذا الباب نفرٌ من مقلدِ الغزب، فكتبوا للأطفال سلاسلَ الرّعب والفرع، وملؤوا كتبهم بأساطير المَرَدّة والشياطين، وفيهم من حاول أن يقطع قصصاً من إلياذة هوميروس لتكون غذاءً للأطفال في الشرق الإسلامي، ويَعُدُّ ذلك سبقاً حضارياً لا مثيل له.. هذا الغناء المتراكم في كلّ مكان قد دفع الأستاذ أبا الحسن إلى أن يكتب للطفل كما يكتب للشباب وكما يكتب للرجل، لأنّه جندِيٌّ كان من قدره المحتوم أن يحارب في شتّى الجبهات، وقد أصدر سلسلة (قصص النبين للأطفال) في خمسة أجزاء جعلها على صغرهما في الحجم ميداناً لغرس الفضائل الخلقية، بل لغرس العقيدة الإسلامية الصحيحة بحيث تُغني عن بعض ما يُسمى بدروس التوحيد.

وقد قرأ الشهيد سيد قطب بعض أجزاء هذه السلسلة النادرة، وقال في تقديمه: «لقد قرأتُ الكثير من كتب الأطفال بما في ذلك قصص الأنبياء عليهم الصلوات والسلام، وشاركْتُ في تأليف مجموعة (القصص الديني للأطفال في مصر) مأخوذاً كذلك من القرآن الكريم، ولكن أشهدُ في غير مجاملة أن عمل السيد أبي الحسن في هذه القصة - يريد قصة موسى عليه السلام - جاء أكمل من هذا كلّه، وذلك بما احتوى من توجيهات دقيقة وإيضاحات كاشفةٍ لمرامي القصة، وحوادثها ومواقفها، ومن تعليقات داخلية في ثنايا القصة، ولكنّها تُوحى بحقائق إيمانية ذات خطر، حين تستقرّ في قلوب الصغار أو الكبار».

فإذا تركنا مرحلة الطفولة إلى مايليها من مرحلة الصبا، فإننا نجد السيد أبا الحسن لا يغفل عن توجيه الناشئة في هذه السن الغضة، فقد كتب سلسلة كتب تحت عنوان (القراءة الراشدة) من ثلاثة أجزاء، فاختار من الموضوعات ما يهدفُ إلى بناء الكيان الإسلامي الصحيح، ومن التعبيرات ما يصلحُ أن يكون زاداً للقارئ المتضلّع، يحفظه ويحرص عليه ليكونَ مدداً له في التعبير الصحيح؛ أما قواعد اللغة من نحو وصرف وبلاغة فقد كلّف بعض الأساتذة بالتأليف فيها، ورسم الخطة في التيسير، وقام بمراجعة هذه المؤلفات قبل أن يتداولها الطلاب!

لقد كان الإمام محمد عبده يرى بعد إخفاق الثورة العرابية في مصر أن تكون التربية الإسلامية وسيلةً لإعداد جيلٍ ناشئ ينهض بمكافحة المستعمر الغاصب، كما

يفهم أصول دينه على وجهها الصحيح، نادى الإمام محمد عبده بذلك، ودعا المؤلفين إلى إعداد الغذاء الروحي الكفيل بتربية الشعيبة المسلمة، وقد انتظر الأستاذ الإمام طويلاً، حتى نهض نفرٌ من المخلصين في تنفيذ خطته، وكان السيد أبو الحسن الندويّ في طليعة مَنْ قاموا بهذا البحث عن كفاءة تامة، ضربت المثل لكثير من تابعيه فجعلوا يقتفون أثره مغتبطين.

وقد كان مما يشغل الأستاذ أبا الحسن غذاء الشبيبة من الأدب العربي؛ فقد نظر إلى السائد المشتهر من هذا الغذاء في مختارات المدارس والجامعات، فوجده يقفُ عند حدود الأدب الصناعي، إذ احتلّ الميدان أمثالُ ابن العميد والصابي والصاحب والهمذاني والحريري والقاضي الفاضل، وأدبُ هؤلاء أدبُ صنعة - في أكثره - واقتصار الشباب على مطالعة هؤلاء يُعتبرُ إجحافاً بالأدب العربي في أفقه الفسيح، لذلك كانت رياسته المباركة لرابطة الأدب الإسلامي العالمي توجيهاً جديداً لمفهوم الأدب الإسلامي بعامة والأدب العربي بخاصة، وقد لاقت الرابطة في ضوء توجيهاته السديدة من الترحيب والقبول في العالم الإسلامي جميعه ما عقد عليها أكبر الآمال، فبدأت تؤتي أكلها بإذن الله.

وقد افتتح أبو الحسن كتابه (نظرات في الأدب) بكلمة ممتازة تحت عنوان (نظرةٌ جديدة إلى التراث العربي) بدأها بالإشارة إلى المحنة القاسية التي أصيب بها الأدب العربي حين تسلط عليه مَنْ سَمَّاهم بأصحاب التصنع والتكلف، الذين اتخذوا الأدب حرفةً وصناعة، لِيَصِلُوا به إلى أغراضٍ شخصية محضة، فَحَجَبَ هذا الأدبُ فيضاً من الأدب الطبيعي الذي يملأ صحفَ المكتبة العربية، وقد جاء في بحثٍ ديني أو كتابٍ علمي أو موضوع فلسفي، جاء في كتب السيرة المطهرة، وفي نصوص الحديث النبوي الشريف، وفيما تركه أمثال أبي حامد الغزالي وأبي الفرج الجوزي وأبي حيان التوحيدي وابن حزم وابن القيم، وأصحاب الرحلات الجغرافية الذين وصَفُوا الأماكن المشاهدة وصف استقصاءٍ وشمول، وأصحاب التراجم والطبقات من أمثال الخطيب البغدادي وابن عساكر وياقوت وابن خلكان، مؤكداً أن وصف الشخصية أو ترجمة الذات ليستا من السهولة بحيث يستطيعهما الجميع، ولكن العالم الدقيق، والأديب الحساس هما اللذان يقومان بهما على أحسن وجهٍ يتاح.

وقد باشر أبو الحسن فيضاً من هذه التراجم في مؤلفاته البارعة، فتحدّث عن

رجال الفكر والدعوة في الإسلام في أجزاء أربعة تُعتبر موسوعة أدبية حافلة، ومن خصائص المؤلف أنه يفتن إلى مضمون كلماتٍ قد يمر بها القارئ مراراً عابراً، ولكنها تحمل من المعاني ما يفتح الله به عليه، فيمدّ قارئه بفيضٍ من الخواطر يعجب كيف أدركه هذا الباحث الحساس!

وقد قرأتُ ترجماتٍ لبعض من خصّهم أبو الحسن بالحديث عند من كتبوا عنهم سواء، فوجدتُ الفرق ملموساً بين ترجمةٍ وترجمة، فمن التراجم ما يكون (ملفّاً في إدارة حكومة) يقدّم المعلومات وكأنّها إحصاءٌ حسابيّ يعتمدُ على التواريخ والأرقام فحسب؛ ولكنّ تراجم أبي الحسن ذاتُ نبض حيّ جذاب حتى ليصلح بعضها أن يكون شعراً منشوراً، ومرجعُ ذلك لاعتماده على إحساسه الحيّ، واختياره من يتفقون مع مشاعره الدينية، وأهوائه الإسلامية ممّن صدقوا الله فاجتباهم بفضل، وأذكرُ أن أبا الحسن جعل الصّدق أساساً للتعبير الجيد، فهو باعُ الحرارة والنشاط، كما التفت إلى مقاييس أخرى ليس من طبيعة هذا البحث أن يستقصيها. . ولكنّي أنتهي من هذه النقطة البارزة في اتجاه الباحث الكبير لأقول: إنه فتح الأبصار على كنوزٍ مطمورة تراكم عليها الصخر بثقله الضاغط، ونسيها الوارثون من أهلها، بل ربّما عدّوا كنوزها مزيّفة مزوّرة لا تصلح للتداول في أسواق الأدب والعلم، فانبرى الأستاذ الكبير ليحفظ لهذه الكنوز حرمتها، وليفسح لها الطريق كي تطمئن في مستقرها المريح!

قلتُ: إن أبا الحسن قد يفتن إلى مضمون كلمةٍ يمرّ بها القارئ مروراً عابراً فلا يهتدي إلى أبعادها الشاسعة وأغوارها العميقة، وأضربُ المثل بوقوفه عند كلمةٍ واحدة جاءت في حديث البطل (ربيعي بن عامر) حين واجه قائد الفرس رستم فسأله القائد: ما جاء بكم؟ فقال ربيعيّ على البديهة: «جئنا لنخرجَ مَنْ شاء من عبادة العباد إلى عبادة الله، ومن ضيق الدّنيا إلى سعتها»؛ فقد وقف عند كلمة «ضيق الدّنيا» وقفة ما أظنّ أحداً وقفها من قبل، فقال فيما قالَ محللاً قولَ ربيعي: «إني لأتساءل؛ ما هو الضيق الذي كان فيه الفُرس؟ وما هي السعة التي كان فيها العرب؟ لقد قرّر التاريخ وأجمع المؤرخون على أنّ الفرس والروم كانوا يعيشون في رغد من العيش، ويتقبلون في أعطاف النعيم، لقد اتّسعت لهم الدّنيا ولانت لهم الحياة! أما العربُ فيعيشون في شظفٍ، والمدنيّة لم تتعقد أمامهم بعد، فأين هي السعة؟ إن ربيعيّ بن

عامر كان ينظرُ إلى هؤلاء الملوك والأمراء كما ينظر العاقلُ إلى دُمى قد كُسيَت ملابس فاخرة جميلة، وإلى تماثيل قد أحكمت صياغتها، وتأثَّق صانعوها في تصوير قسماتها وملامحها، ولكنها تماثيل من حَجَر أو جِصٍّ لا حياة فيها ولا حراك بها! وكان ربعي - كبقية المسلمين - يتمتع بالحرية التي عرّفه بها الإسلام، فنقله من دنيا ضيقة محدودةٍ خائفةٍ، دنيا المعدة والمادة، ودنيا الشهوات والأغراض، ودنيا الاستعباد، إلى دُنيا القلب والروح، والإيثار والمساواة، والعدل والرحمة، وتلك هي السَّعة!». .

هذه سطورٌ تنبئ عن صفحات أبدع الكاتب بها في تحليل كلمة «الضيق»، وكلها مُعجِبٌ رائقٌ، فهل يصل أحد إلى استبطان هذه المعاني الدافقة من لفظٍ واحد غير ملهم بصير؟

لقد طوّفت في حديثي عن أبي الحسن، ونسيت أن أذكر في مجال السيرة الذاتية، أنه انتُخب أميناً عاماً لندوة العلماء بعد وفاة أخيه الأكبر الدكتور عبد العلي الحسني سنة ١٣٨٠هـ، وأنه اختير عضواً مراسلاً في المجمع العربي بدمشق سنة ١٣٧٥ هـ، وأنه دُعي لإلقاء محاضراتٍ كأستاذ زائر في جامعة دمشق سنة ١٣٧٥ هـ، واختير عضواً في المجلس التأسيسي لرابطة العالم الإسلامي في مكة المكرمة سنة ١٣٨٠ هـ، وعضواً في المجلس الاستشاري الأعلى للجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة، وانتُخب رئيساً لهيئة التعليم الديني في الولاية الشمالية في الهند سنة ١٣٧٧ هـ، وهو بعد ذلك إمامُ العصر، ورائدُ الإصلاح الديني والأدبي في وطنه الإسلامي الكبير، ولا أقول ذلك دون دليل، فمؤلّقاته ساطعةٌ، ومواقفه ناصعةٌ، وألسنة القلوب تهتفُ بذكره في كل مكان تُرفرف عليه رايةُ الإسلام، ولَمّا عند الله أوفى وأجزل.

* * *

مولانا أبو الكلام آزاد

تتكاثر مواقفُ بعض النابهيين حتى ليزحم بعضها بعضاً، ولكنّ موقفاً واحداً بينها يظلّ مرموقاً ذا دويّ في الأسماع، يرّده الناس مبهورين حين يتحدثون عن صاحبه، ولمولانا أبي الكلام آزاد مواقفُ سياسية لامعة، ومواقفُ علمية ساطعة، ومواقفُ دينية ذات تأثير بالغ، ولكنّ بعض مواقفه الجهير قد جَذَبَ النفوس إليه شرقاً وغرباً على نحوٍ لم يُتَحَ لغيره من المواقف، وأقول: «غرباً» عن عمد، لأنّ صحف أوروبا المستعمرة قد أشادت به، وعدّته مثالاً للجرأة النادرة، وذكرت أنّ الأمة التي أنجبت هذا الثائر العُصوب لا يُمكنُ أن تذلّ.

لقد قضى آزاد - رضي الله عنه - أربعَ سنوات في ظلمات السجن، أثناء الحرب العالمية الأولى، ثمّ لم يكذّ يشمّ نسيم الحرية حتى أودع السجن ثانية لمناوأة الصّريحة للاستعمار الإنجليزي الغاشم بالهند، ووُجّهت إليه تهمةُ الدعوة إلى العصيان المدني، كما وُجّهت إلى زملائه الكبار من سادة القوم، وكلّهم وقف في ساحة الاتهام فأبدى عذره، والتّمس حقه في الصّفح، أمّا أبو الكلام فقد أعدّ مُرافعة خطيرة اتّهم فيها عدوّ أُمته بأقسى عبارات الاتهام، وفضّح دسائس إنجلترا بما لم يكن يتوقّع قضائه من الإنجليز، وأعلن أنه لن يكفّ عن مناوأة الغاصب حتى يرحل، وسيبذل دمه في هذا الاتجاه، وأنه يرحّب بالاتهام، لأنه شرفٌ لكرامته، واستجابة لتعاليم شريعته، والناسُ في ساحة المحاكمة مأخوذون، وشهودُ المحاكمة من مُراسلي الصحف الغربية يسجّلون، وما لبثوا أن طاروا بالمرافعة النارية إلى كلّ صحائفهم، فكثُر التعليق عليها من الخصوم، وهم في لدّهم الحاقد لم ينكروا على الرجل شجاعته البالغة وحميّة الصادقة، مهما حاولوا تبرير مواقف الاستعمار، وهو تبريرٌ ينكرونه في ذوات نفوسهم، ويعلمون أنه مرفوضٌ مدحوض، وفيهم من أيد

الرجل العظيم، ولكنهم قلة ضئيلة جوار من علّوا بالصراخ، وغالوا في الضجيج.

قال مولانا أبو الكلام في ما قال:

«ليس ببدع أن تكون الحرية والمطالبة بالحقوق جنائية في عهد الاستبداد، وأن يكون محاربو وجوده الباطل جناةً وأثمةً، وأهلاً للعقاب الشديد، وما دام الأمر كذلك فإنّي أعلن على مسمع من الحكومة والمحكمة أنني ارتكبتُ هذه الجناية ارتكاباً، وأنني من هؤلاء الذين بذروا هذه الجناية في قلوب أمتهم، ووقفوا حياتهم على سقيها وتثميرها.

أجل، قد قلت: إن الحكومة الحاضرة ظالمةً، وإذا لم أقل هذا فماذا أقول يا ترى؟ إنني لأعجب كيف يُطلب مني أن أسمّي الشيء بغير اسمه، وأن أسمّي الأسود بالأبيض! إنني مُسلمٌ، ولأنني مُسلمٌ وجب عليّ أن أندّد بالاستبداد وقبحه، فالإسلام لا يعترف بالحكومة الشخصية، وإنما جاء ليردّ إلى النوع الإنساني حريته المغصوبة التي اغتصبها الملوك المستبدّون ذوو القوة والبطش، جاء الإسلام ليعلن أن الحق ليس في القوة، ولا للقوة، وأنّ الناس كلّهم متساوون في الإنسانية، متساوون في الحقوق، لقد أعلن ذلك الإسلام قبل ثورة فرنسا بأحد عشر قرناً، ووضع نظاماً عملياً للمساواة الحقيقية بأكمل معانيها، وإنّ مطالبة المسلم بأن يسكت عن الحق، ولا يسمّي الظلم ظلماً، مثل مطالبته بأن يتنازل عن دينه، وإذا كنتم لا ترون لأنفسكم أن تطالبوا أحداً بأن يرتدّ عن دينه، فليس لكم أن تطالبوا مُسليماً بأن يمتنع عن محاربة الظلم والظالمين، فالمسلم يتحمّ عليه ألا يقنع في الحق بدونه، بل يصدع به حيث كان، ولو بذل روحه فداءه، وإنّ التوحيد أساس الإسلام وقطب رحاه، وهو يعلم المسلمون أنّ الخوف والخشوع لا يكونان إلا لله الواحد الأحد، وأنّ من يخشى غير الله فهو مُشرك، لا يعرف معنى الإسلام.

إننا المسلمين حاربنا الحكّام المسلمين في الدول الماضية حين خرجوا عن سبيل الحق، ووقفنا أمامهم بالمرصاد، فكيف لا نُعامل الحكومة الأجنبية المتسلّطة علينا بما يردعها عن الضلال، وهل تكون هذه الحكومة الأجنبية أعزّ علينا من إخواننا الذين ضلّوا السبيل؛ فوقفنا منهم موقفَ العدا، هل دولة الملك جورج الخامس ونيابة اللورد ريدنج أحب إلينا من الحجاج بن يوسف ومن سار مسيرة الظلم، فحاربناه وحاكمناه! لقد قلنا للظالمين بالأمس: أنتم ظلمة. ونقولها لكم

اليوم، ولا نزال نواجهكم بالعداء حتى يزول الاستبداد».

وتمضي المرافعة في هذه المعاني الرائعة حتى تستغرق عشر صفحات، ولو يسمح المجال بتسطيرها جميعها لكانت كسباً للقارئ وعظة للأجيال.

أشرتُ إلى هذه المعاني؛ لأعلن أنَّ أبا الكلام قد فهم الإسلام في جوهره الصحيح، حين رأى أنه يحارب المذلة والضميم، كما فهم التوحيد في مدلوله الصريح حين رأى أن معناه عدم الخضوع إلا لله وحده، فكلمة (لا إله إلا الله) تعني عزّة المسلم، فهو لا يخفض رأسه لغير ربّه، وجميع البشر من رؤساء وحكّام أناسٍ مثله، لهم حق الطاعة عليه، إذا رَدُّوا كلّ أمر إلى الله ورسوله، وليس لحاكم متسلّط أو مستعمر مغتصب غيرُ الثورة عليه، ما دامَ قد ادعى لنفسه سيطرةً تبعث الظلم والاستبداد، هذا المعنى الجوهرى للإسلام لم يكنْ مؤكّداً في عصر أبي الكلام عند من يحسبون الإسلام صلاةً وصياماً وعبادات فحسب، وهم كثيرون في الهند وفي غير الهند من شتّى ربوع الإسلام، وقد ساعدتْ نشأة أزداد الدينية على جلاء هذا المعنى في عينه وإشراقه في ذهنه، حيثُ ربّي تربية أصيلة قادته إلى الزعامة الإسلامية مسلّحاً بمواهبها الرفيعة.

ولد أزداد في مكة، لأنّ أباه عالم الدين الكبير قد رحلَ إلى أمّ القرى، ليجد فيها متنفساً حراً لعقيدته، التي حُوربت في الهند منذ احتلّ الإنجليز بلاده، ولد في سنة ١٨٨٨م لينشأ في وسط ديني، يدرس ناشئته الكتاب والسنة والشرعية، وتبدأ الدراسة بحفظ كتاب الله الكريم، وكان في التلميذ الناشئ تطلّع إلى الثقافة المعاصرة، فلم يكتفِ بموادّ الدين وما يدورُ حوله كالمعارف لدى الكثرة حينئذ، ولكنه انتقل إلى دراسة الفارسية والعربية والفلك والجبر والحساب، فألمّ بما يُمكنُ الإمام به في محيطه على أيدي مهرة من الدارسين، وقد دَرَسَ ما وقع في يده من صحافة الرأي الحرّ، فقرأ العروة الوثقى، واعترفَ بأنّه قرأ مقالات السيد أحمد خان، أدرك منها أنّ المثقّف الإسلامى لن يكون ذا نفع لقومه ولدينه إلّا إذا درس العلم الحديث، وحذق لغةً من لغات الغرب، فعمل على أن يلمّ بالإنجليزية حتّى استوعبها كأحد أبنائها، فاتاحت له أن يقرأ مزاعم الخصوم عن الإسلام والمسلمين، وآلى على نفسه أن يعمل على تصحيح ما يقال من الأراجيف.

يقولُ الرجل الكبير في مذكراته: «ولدت في أسرة متمسّكة بالتقاليد الدينية، فلا

تقبلُ أن ينحرف أحد منها عن العادات الموروثة، ولكّني وجدتُ أن بعض هذه العادات في حاجةٍ إلى مراجعة، فاندفعتُ إلى البحث عن الحقيقة حيث كانت، لا سيّما حين لمسْتُ الخلاف الكبير يمتدّ بين رجال المسلمين، وكأنهم ليسوا من دين واحد، فظللْتُ ثلاث سنوات حائراً، وتركْتُ لنفسِي حرية البحث». وفي سبيل هذه الحرية رحل الشاب الناشئ إلى العراق وسورية ومصر، وتركيا وفرنسا وإنجلترا، واتّصل بعلماء كل قطر، ودرسَ ووازنَ وحلّل، ورجع إلى وطنه وقد استقرَّ على فهم صحيح للإسلام، ولم يكن الفهم الصحيح غير دافع إلى العمل الجاد ليهدي قوماً إلى ما اهتدى إليه من نور.

قلنا: إنه درس آراء السيد أحمد خان، فتأثّر بها، وكان لابدّ أن يدرسها، فيوافق على ما بها مما يلائم روح الإسلام، ويتفق مع طبيعة العصر، ويخالف ما لم يرَ وجهاً لصحته، وقد كتب بهذا الصدد كلمة تحسم كل شك في اتجاهه حين قال في كتابه (التذكرة)^(١).

«إن السيّد أحمد خان قد تناول الموضوعات - موضوعات الفلسفة وعلم الكلام - قبل أن يحين وقتها، وقد أتعّب نفسه، لأنّه لم يكن أحدٌ في الهند قد درس الفلسفة الغربيّة والكتب الإنجليزيّة التي صنفها المستشرقون، ولم يُترجم أي كتاب إلى اللّغة الأردنيّة من هذه الكتب، كان الناس مطمئنّين إلى أنّ آثار السيد أحمد خان لا ترغب فيها الأمة الإسلاميّة، ومن ناحية أخرى فإن الرجل لم يدرس اللغة الإنجليزيّة، ولم يطلّع على الأفكار الحديثة في مصادرها الأصليّة، ولذلك أخطأ في فهم النظريات الحديثة، لأنّه أخذها بمجرد السماع، وكذلك لم يكن السيد أحمد خان ملماً بالدراسة الإسلاميّة كما ألمّ بها أقرانه، مثل العلّامة محمد شبلي النعماني، ولم يستطع أن يبحث في المسائل الإلهيّة والمعجزات بكلّ دقة حتى يعدّ نفسه من مفكّري الإسلام، وينشئ مدرسة فكرية تجري مع الزمان والظروف والثقافة المعاصرة».

وهذا القول به إنصاف تام للسيد أحمد خان، ووضع في موضعه العلمي الدقيق، ونحن نقرأ هجوماً سافراً على الرجل من كتاب كثيرين، وأولى بنا أن نبتعد

(١) نقلا عن ترجمة الأستاذ محمد إسماعيل الندوي، مجلة الأزهر، ربيع الأول سنة ١٣٨١هـ، ص ٣٢٥.

عن هذا الشطط، فقد اجتهد الرجل كما استطاع، ولئن هادن الإنجليز، فقد كان من رأيه أنّ المهادنة مع الدولة المسيطرة قد تتيح بعض المكاسب، وهو رأيٌ مخطيء نكتفي بتصويبه دون أن نلجّ إلى سريره الخافية، فتحدّث عنها بما لا نعلم، وقد أنشأ الرجل جامعة إسلامية، وطبع كتباً ثقافية، قرأ أبو الكلام بعضها وتأثر بها كما ذكر عن نفسه، ثم نقدتها بميزان العدل النزيه، وفي هذا كفاء.

ولا يفرق مولانا آزاد بين الدين والسياسة، لأنّه من طراز جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده، الذين عرفا أن الدين الإسلامي الصحيح هو مصدر السياسة الناجحة، وأنّ محاولة فصل الدين عن السياسة بدعةٌ غريبةٌ مسيحية، حاول المستعمرون تطبيقها على الإسلام، ووجدوا ذيولاً لهم تهتف بمحاولتهم، وتسعى في ركابهم ابتغاء مجدٍ دنيوي زائف، ولذلك خاض آزاد لجج السياسة الهندية سياسياً، كما واجه مشكلات الحياة الاجتماعية مفكراً دينياً، وقد سُجنَ أربع سنوات ممتدة لمهاجمته الاستعمار في صحيفتي الهلال والبلاغ.

وكان انقطاعه في ظلمات العزلة موجهاً له أن يفكر جدياً في إصلاح بلده، وقد اعتزم على الجهاد بقوة مصدرها الإحساس بالظلم الخاص حين سُجن بلا ذنب، والشعور بالظلم العام لدولةٍ كبيرةٍ تحتلّها دولة غريبة لتستنزف ثرواتها الطائلة، وما عثم أن احتلّ مكانه بين زعماء المؤتمر الهندي جوار غاندي ونهرو على حدّاثه سنّه، فكان عامل اطمئنانٍ للمسلمين، لما عرفوا من قوة يقينه وصدق إيمانه، وكان صوته أول صوت ارتفع بمقاطعة زيارة ولي العهد البريطاني، التي قام بها تأييداً للحكم الإنجليزي في البلاد، وقد ظنّ نائب الملك في الهند أن الشعب سيقابل ولي العهد بالموودة طمعاً في استمالته، ولكنّ المؤتمر الوطني أعلن المقاطعة، وكتب مولانا أبو الكلام منشوراً قال فيه: «لا يجوز لأحد من المسلمين أن يشترك في استقبال وليّ العهد، ولا في احتفالات الحكومة الخاصة بتكريمه».

فكان المسلمون جميعاً من رأي آزاد، إذ لم يقدّم واحد منهم باستقباله، على حين ضعفت جماعة من الهندوك، فلَبّت مطلب نائب الملك طمعاً في مآرب شخصية، وكانت أكثرية الهنود منساقّة وراء نهرو وغاندي وأزاد، فأظهرت المقاطعة أثرها الحاسم، واضطرّ نائب الملك الإنجليزي إلى اتخاذ إجراءات صارمة، لم تفت في عضد المقاطعين، فقابلها أبو الكلام بدعوة عامة إلى عصيان الحاكم، وعقد

المجالس والندوات لإيضاح مزية هذا العصيان، وحذّر الشعب من الخوف من السجن قائلًا: «إن كل عدد يُساق إلى السجن يدلّ على انهزام الحكومة الغاصبة، وسيخرجُ المسجونون أشدّ حميّة من ذي قبل، لأنّ السجن مدرسة الأحرار». وقد جرّب ذلك بنفسه، إذ زادت ثورته على الاحتلال غبّ اعتقاله، ولو علمت الحكومة أثر الاعتقال وإشعال الغضب، لتباعدت عنه، والحمد لله فقد أتاح لنا العدو أن نشور ونعمل.

وهنا فزعت الحكومة من معارضة أزداد، ورأت أنّه سبب الخيبة التي مني بها وليّ العهد عند استقباله فبادرتُ باعتقاله، وقدمته إلى المحاكمة العاجلة رغبةً في استخائه حين يُواجه بالعقاب الصارم، ولكنه فرح بالمحاكمة فرحاً شديداً، وقام بإعداد خطبة الدفاع الحارّة، التي ابتدأتُ هذا المقال بفقرات منها، ولم يكن نائب الملك يتوقع أن المرافعة ستدوِّي في آفاق الشعب، وأنها ستنبّه النائمين إلى حقهم المغتصب، ولم يفتأ من غضبه أن قدّم مولانا أبا الكلام إلى ظلمات السجن من جديد ففضى به عاماً مديداً كانت رسائله به لا تنقطع عن الجمهور، حتى إذا انقضت مدة السجن، تهيأت الأمة على اختلاف طبقاتها لاستقباله الحافل، وكان في طليعة مستقبله غاندي ونهرو ورؤوس المؤتمر الوطني، وقد قال غاندي كلمته الذائعة حينئذ: «هاكم المذنب يعود تائباً إلى مولانا أبي الكلام». والمذنب هو المستعمر الذي أحسّ بأثر السجن في إذكاء المشاعر والأحاسيس.

وقد كرّر غاندي هذه الجملة مرة أخرى، حين اختلف مع أزداد وخاصمه، ثم ظهر له تسرّعه، فكتب إليه يرجوه الصفح كما سيجيء.

حين خرج أزداد من سجنه فوجيء بانقسام خطير في المؤتمر الوطني، ولا شك أنّ الإنجليز كانوا أكبر بواعث هذا الانقسام بما ينفثون من مكاييد، ويؤقدون من فتن، ولكنّ مما لاشك فيه أنّ الهندوك كانوا يرقبون نشاط المسلمين بعين الحذر، بل وبعين الغضب، التي تورث نيران التعصب، وكان غاندي ونهرو يريان من الحكمة أن يتصدّر زعيم مسلم لرئاسة المؤتمر، ليقضي على بواعث القلق لدى المسلمين، فانتخب أزداد رئيساً لمؤتمر عُقد في دهلي سنة ١٩٢٣ ليدعو المتخاصمين إلى الوفاق، وسار في طريقه شوطاً كبيراً، ولكنه لم يستطع أن يبعث الاطمئنان في نفوس إخوانه في الدين، لأنّهم لا يتفألون تفاؤله، فكان رجالُ

الرابطة الإسلامية مع تقديرهم لجهود أزداد يرون التعاون بين الفريقين مما لا سبيل له، وكان الشاعر الكبير إقبال يدعو دعوة صريحة إلى إنشاء دولة إسلامية مستقلة بالهند، وله مؤيدوه من الكبار ذوي الحمية الثائرة أمثال الزعيم الخالد: محمد علي جناح، الذي تحقّق الحلم على يده، ورأس الدولة الإسلامية الجديدة فيما بعد!.

ونعود إلى رئاسة أزداد، فنراه يواصل جهوده وفق ما يراه، حتّى تضطرب الأمور مع الانجليز، فيعلنّ الحزب برئاسته العصيان المدني، تلك الحركة التي قاطعت مورداً هاماً من موارد الثروة للإنجليز في الهند، وامتدّ العصيان إلى كل ناحية من نواحي البلاد، ورأى المحتلون أن تأثير أزداد لا يقل عن تأثير المهاتما غاندي، فبادروا باعتقاله، وكان يتوقّع ذلك، فعين الدكتور أنصاري خلفاً له في رئاسة الحزب، فسار على نهجه وازداد العصيان فاعلية ونفوداً.

وجرت الانتخابات الجديدة، فكان أزداد في مقدمة الفائزين على مبادئ الحزب، ولم يكن تابعاً للزعيم الهندي في كلّ ما يراه، بل كان يُعارضه في كلّ ما يجده موضعاً للمعارضة، ومن ذلك موقفه الخطير أثناء الحرب العالمية الثانية من انضمام الهند إلى الحلفاء، وإعلانها الحرب على دول ألمانيا وإيطاليا واليابان، كان أزداد لا يرى إعلان الحرب في صفّ الحلفاء إلا إذا أعطت إنجلترا الهند استقلالها، فتكون البلاد مالكة لزماتها، وتستطيع أن تقرّر دخول الحرب مطمئنة إلى أنها صاحبة الحق في محاربة الدكتاتورية النازية والفاشية، وإلا فكيف تُحارب هذه الدول رسمياً، وتعرض لقذائف القنابل، وهدم المدن وسفك الأرواح دون أن تنال حريتها المستقلة، والأمّر سواءً لديها إذا انتصر الإنجليز أو الألمان دون أن تُعطى هذه الحرية المستقلة! هذا كان رأي مولانا أزداد.

ولكنّ المهاتما غاندي لا يرى أن تعلنّ الهند الحرب إطلاقاً، لأنّ الحرب عمل شيطاني شرير لا يقرّه، سواءً كان القائمون به إنجليزاً أو ألماناً.

وحين انتشرت دعوة أزداد إلى الحرب المشروطة بنيل الاستقلال التام أولاً، ذهب المهاتما غاندي إلى الحاكم العسكري بالهند وأفهمه أن استخدام السلاح محرّم لديه، لذلك لن يوافق على إعلان الحرب وإن أعطت إنجلترا الاستقلال للهند، والحاكم العام يعرف أن إنجلترا لن تُعطي الهند استقلالها طائفة غير مكرهة، فلم يزد على الابتسام.

- ٢ -

رفضت إنجلترا إعلان الاستقلال، فاتفق أزاو ومن والاه مع غاندي في الإصرار على عدم الدخول في الحرب، وخافت إنجلترا أن تحدث الثورة في الهند، وهي مشغولة بالحرب الطاحنة، فبعثت السير ستافورد كريس مندوباً لمفاوضة الزعماء على رأس بعثة كان من خطتها أن تهدّيء الخواطر دون أن تقدّم الجديد، وطبيعي أن تبوء البعثة بالفشل التام، وقد حذر أزاو رئيس البعثة حين أعلن تجاهله للاستقلال، وهو مطلب رئيسي، وحين أصرّ أزاو على أن يكون الحديث الأول في مفاوضة الزعماء هو حديث الاستقلال التام، ورأى غاندي صلابة أزاو والتفاف الشعب حوله، فكتب إليه خطاباً يعتذر فيه عن موقفه العارض من رأيه، ويقول عبارته السابقة «هاكم المذنب يعود تائباً إلى مولانا» .

وازداد الخلاف بين الهنود والإنجليز حدّةً، فاعتقل أزاو ونُقل من سجن إلى سجن، واعتُقل مع كبار الزعماء من حزب المؤتمر، وحزب الرابطة الإسلامية، ثم بدا للإنجليز بعد أن بدت بشائر النصر لهم أن يتعاونوا مع الأمة في مطلبها الاستقلالي، فدعوا إلى مفاوضات لتقرير المصير، ووجّه اللورد وينل دعوةً إلى ممثلي حزب المؤتمر، وممثلي الرابطة الإسلامية للاجتماع به، وكانت الرابطة الإسلامية بقيادة زعيمها محمد علي جناح ترى ضرورة التقسيم، فيستقلّ المسلمون بدولة ذات سيادة تامة، ويرى حزب المؤتمر غير ذلك، وأزاو مع المصّرّين على عدم التقسيم، وقد وُجّهت إليه انتقادات كثيرة من المسلمين بعامة في هذه الأثناء، وقد يكون الرجل مخطئاً، ولكنه برّر وجهة نظره، بأنّه لو تمّ التقسيم لما انفصل المسلمون عن الهندوك انفصالاً تاماً، إذ لابدّ أن تكون هناك أقليات في المدن التي يحكمها الهنود، وستعرض الأقلية الإسلامية إلى بلاءٍ لسنا في حاجة إليه .

وقد قام الزعيم الكبير محمد علي جناح بالدعوة إلى التقسيم، وطاف مع رفاقه أنحاء المدن الإسلامية بلدة بلدة داعياً إلى توحيد المسلمين أمام هذا المطلب العادل، وقاومه خصومه من الهندوك، وأخذوا يشيّعون زوراً عنه بمحabbاته للإنجليز، واتفاقه معهم في ما يريدون، وأسرفوا في التّشديد بزعماء الرابطة

الإسلامية إسرافاً لا حدّ له، ولكن الله عز وجل قدّر للزعيم الكبير محمد علي جناح أن يتحقّق النصر على يده، إذ تحسّن موقف الرابطة الإسلامية حين جاءت انتخابات سنة ١٩٤٦ ففاز المسلمون بجميع الأماكن المخصّصة لهم بالمجلس التشريعي، واتّضح للرأي العام أنّ المسلمين قوة، وأنّ حزب المؤتمر لا يمثل الهند وحده، وكانت هذه هي الورقة الرابعة في كفّ الزعيم الكبير محمد علي جناح، فتمّت الموافقة على التقسيم، وتحقّق حلم الشاعر الكبير محمد إقبال رحمه الله، إذ قامت الدولة الإسلامية في باكستان ذات هبة واستقلال.

وقد أذاع مولانا أبو الكلام خطاباً سياسياً يرحّب فيه باستقلال باكستان، ويعدها جارة شقيقة للهند، راجياً أن تبدأ الدولتان في تعاون مثمر، ومهما يكن من انضمامه إلى حزب المؤتمر، فإنّه كان عامل تهدئة حين تشتعلّ العواصف السياسية بين الأمتين المتجاورتين، فهو في صميمه مسلمٌ صادق الإيمان، ويرى أن الأخوة الإسلامية ذات رباط وطيد.

انتقل آزاد بعد الاستقلال من الجهاد الثائر إلى الجهاد الهادئ في محيط السياسة، فقد احتفظ برئاسة حزب المؤتمر حتى سنة ١٩٥٠، حيثُ اختير رئيساً للبرلمان الهندي، فوزيراً للمعارف، ومع بُعد الوزارة عن تيّارات السياسة الخارجية فقد ظلّ المستشار الأول في إدارة البلاد، يرجعُ إليه نهرو في كلّ خُطب يلوح، ويرى رأيه في المقام الأول بين الآراء، وحين انتقل الراحل الكريم إلى جوار ربه سنة ١٩٥٧ فزع رئيس الدولة عليه فزعاً، وقال في كلمة الوداع التي ألقاها مؤبناً له:

«إلى من أذهب الآن للتشاور إذا عنت مشكلة سياسية؟ لقد ترك مولانا أبو الكلام آزاد فراغاً عظيماً سيّسع على مر الزمن، حتّى لا نجد من يسدّ مسدّه على مرور الأيام». وهكذا كانت حياة الرجل السياسية حافلة بالجلال مليئة بالأحداث.

وأتركّ الناحية السياسية إلى مجال الفكر، في دنيا الدين والأدب والصحافة، لنرى المفكر المبدع في استقلال رأيه، وعمق بحثه، وسلامة اختياره.

وُجدت عدّة تيارات في الفكر الإسلامي في الحقبة الأولى من القرن العشرين، فكان لدينا التيار المكتفي بكتب التراث الخاصّة بالعبادات وبعض الآداب الخلقيّة، ويرى فيها وحدها موضع الإفادة والتوجيه، وكان لدينا التيار الغربي، الذي انبهر بأضواء الحضارة الأوروبية، فكفر بكل ما يعتقده التيار الأول، ورأى فيه مدعاة

الانحدار والتخلف، ورجعَ بما أصاب الإسلام من تقهقر إلى عدم التتبع الصريح والاقتفاء المندفع إلى الثقافة الأوروبية ديناً ودنياً، بل عدّ الإسلام نفسه مصدر الجمود والانحطاط، أما التيار الثالث فقد فهم أحسن ما في كتب التراث من ذخائر، ووازن بين الطيّب والخبيث منها، فعلم أنّ الطيّب هو ما انجلت عنه عقول الأئمة في عصور الازدهار، وأنّ الخبيث هو ما جمّد عليه المتأخرون حين تركوا الاجتهاد، ومالوا إلى التقليد في كلّ ما يأخذون ويدعون.

كما درس الثقافة الوافدة دراسة المستبصر، فعرف نواحي القوة فيها، ومناحي الضعف في مغرياتها البراقة، كما علم أن نواحي القوة في هذه الثقافة ترجع إلى أصول ثابتة في كتب التراث جهلها الجامدون، وتجاهاها المقلّدون، وهذا التيار هو الذي بعث الصحوة في النفوس، وقاد العيون إلى منارات الضياء، ومن أعلامه في المشرق جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده وابن باديس والكواكبي ومولانا أبو الكلام آزاد.

قرأ آزاد ثقافة عصره، وثقافة الإسلام في كتبه الأصيلة قبل عهود التقليد، فأدرك الفجوة الكبيرة بين ما عليه المسلمون في عصرهم المتخلف، وبين ما كان عليه المسلمون حين أخذوا قوانينهم وعاداتهم وتقاليدهم من ينابيع القرآن والسنة وفتاوى الكبار من المجتهدين، فأصدر الصحف والمجلات ليُنَبِّه الأذهان إلى ما يجب أن ينهجه المسلم كي يُسابق الركب الحضاري في القرن العشرين، وخطب في الأندية، إذ كان كثير الترحال في مدن الهند، وله مكانة القائد الذي تتّجه إليه الأنظار أينما حلّ، فأشعل النفوس حماسة، لأن أثر الخطابة المشافهة للجمهور أقوى أثراً في بعض الأحيان من مقالات الصحف وفصول الكتب، حتى إذا أنس من النفوس ميلاً إلى أفكاره، عكف على إصدار المجلات العلمية لتكون سجلاً دائماً لآرائه، وليلتفّ حوله من يستطيع الكتابة بها وفق منهجه الصريح.

بدأ آزاد فأصدر مجلة (لسان الصدق) ففاجأت الهنود بضرب من التوجيه لم يعرفوه من قبل، وكان في صدر شبابه قبل أن تستفيض شهرته؛ فظنّه قراء المجلة شيخاً مجرباً قد تخطى السنين، وعكف الأساتذة الكبار على آراء الشاب الناهض مستبشرين، ودعّوا القراء إلى تأييد المجلة والاشتراك فيها، وأذكر أن الشاعر الهندي الكبير، أشهر الشعراء في عصره قد قابل آزاد، وكان في السادسة عشرة من عمره،

فُدْهَشْ دهشةً محيرةً حين علم أنّ هذا الفتى اليناع هو صاحبُ مجلة (لسان الصدق) كما أنّ العلامة الكبير محمد شبلي النعماني أكبر علماء الهند في عصره، بالغ في الثناء على مقالات أزداد، وحينَ قابل الفتى قال له: «أخبر والدك أنّ مقالاته التوجيهية هي أعزّ ما يقتنيه المسلمون». فسكت أزداد حائراً، وكان نوابُ محسن الملك سكرتير جامعة عليكرة حاضراً هذا المجلس، فقال للعلامة النعماني: إن أزداد المائل أمامك هو صاحب المقالات وليس أباه، فقام الشيخ مندهشاً مبهوراً، وقال له «إذا كنت صغير السن يا أزداد فأنت كبير العقل». وأنت تسمع صرخات الشاب المتحمّس حين تقرأ قوله في هذا الطور الأول^(١).

«إنّ العقل موهبة من الله وهبها لنستخدمها في الإصلاح، لا لنضيعها في الغفلة، فما بالنّا لا نميّز بين اليقظة والنوم، وبين الموت والحياة، ولا نفكر فيما سيقوله عنا التاريخ إذا لم ننهض، وما يمنعنا أن نُعنى بجروحنا الدامية التي تكاد تقضي على القوة الروحية، ما يمنعنا أن نرى ما يجب على العيون أن تراه، وأن نفقه ما على القلوب أن تفقهه، ألسنا الخلفاء في الأرض؟ فما بالنّا نخاف ونتخاذل ولا نجاهد لكي نصبح أحراراً ذوي سيادة؟ إذا أعرضنا ولم نستغلّ مواهبنا فسيطوي التاريخ ما خُصّ لنا من بابٍ حافل بالمجد والشرف، ويفتح لنا باباً آخر يسجّل فيه أمام الأجيال أنّ الهند سعت إلى الحرية، وجاهدت في نيل الاستقلال، ونادت أبناءها لحمل لواء الجهاد، فلبّى قوم نداءها، واحتجب آخرون، ولجؤوا إلى مغارات الدلّة، فواحسرتاه حين يقول التاريخ: إن هؤلاء كانوا من قبل أمةً مسلمة، تزعمُ أنها قائدة الأمم وزعيمة الأقوام».

هذا بعض ما قاله الشاب المتحمّس متوجّهاً لمخاطبة العاطفة، مصطنعاً لهجة الخطيب لا الباحث، وهي لهجةٌ ضرورية في مثل موقفه، فإنّ الركود المسيطر على المستسلمين للاحتلال، وفيهم من يراه مصدر خير، لأنّه يريح من أعباء الجهاد، هذا الركود يحتاج إلى الأسلوب العاطفي المتوقّد.

وقد تجاوز أزداد هذا الدور إلى دور آخر يجمعُ فيه أسلوبه بين حرارة العاطفة

(١) ما أنقله من كلمات أزداد المختارة من مجلّات لسان الصدق والهلّال والبلاغ هو مما اختاره صديقي المرحوم عبد المنعم النمر، ونشره بمجلة الأزهر سنّتي ١٣٨٢، ١٣٨٣ في مقالاته عن الرجل الكبير.

وقوة المنطق، حين أصدر مجلة الهلال سنة ١٩١٢ بعدما احتجبت مجلة لسان الصدق لمعاكسات ومكايد قامت في وجهه، إذ عمل المحتلّ على مطاردتها ومصادرتها، فكتب في العدد الأول من مجلة الهلال كلمةً افتتاحية يقول فيها متحدثاً عن أمله الحار في إصدار مجلة فكرية تؤدي دورها بعد احتجاب مجلته الأولى، حتى تحقّق الأمل بعد أعوام، يقول أزيد:

«لقد حلمتُ بعين اليقظة النابضة سنة ١٩٠٦، ومكثتُ سنين متوالية أبحث عن التعبير العملي لهذه الرؤيا، وكنتُ في غاية الاشتياق لتحقيق هذه البُغية، ولطالما هاجمني القنوط مهاجمة عنيفة للتغلب على عزيمتي، لكنني تشبّثت بعزيمتي المستحكمة معتمداً على عون الله وتأييده، إلى أن جاء يوم أقول فيه الآن: هذا تأويل رؤيائي، ولا يخفى على عالم السرائر ما يحيط بي من المشاكل المضنية، وما يهددني من الآلام مما يكاد يذهب به وعيي.

مالنا نُشغل كعادتنا بالحديث عن الفشل والخيبة وشكوى الدهر!! ليت شعري ماذا دعا الناس إلى الإيمان بأنّ الحياة يجب أن تكون مقرونة بالطمأنينة والهدوء؟ وما يمنعنا أن نقوم في وجه النوائب والآلام، ألا ترون أنّ الغواصين يسبحون البحر إلى شاطئ السلام، بينما يرتعدّ الخائفون وجلّاً وهم يركبون في السفن، إنّ الحياة مقرونة بالشدائد ولا فكاك لها قبل الموت، فهلا رَوّض الشاكون نفوسهم لاحتمال المشاق، ومكايدة الشدائد، فعبروا الأبحر دون خوف أو خشية».

وحين احتجبت (الهلال) لظروف الظروف التي داهمت مجلة (لسان الصدق) نهض بإصدار مجلة دينية توجيهية جديدة سماها (البلاغ) وهي تسميةً اقتفاها صحفيون كثيرون في العالم الإسلامي، فأصدروا جرائد ومجلات بهذا الاسم، ومن أشهر هذه الصحف: جريدة البلاغ المصرية، التي أصدرها الأستاذ عبد القادر حمزة، فكان لها صدئ رنان في العالم الإسلامي، لأنها احتفلت بآلامه وآماله، ولم تقصر همّها على مصر! أصدر أزيد مجلة البلاغ سنة ١٩١٥ وافتتحها بمقدمة رثانة لا سبيل إلى مقارنتها بافتتاحية الهلال، لأنّ مرور الزمن قد أكسب أزيد نضوجاً مثمراً خصباً عاد على قرائه بأنفس المغانم، ففي هذه المقدمة الحافلة تحدّث صاحب المجلة عن وحدة العالم الإنساني كما برأه الله، وعن رسالة الأديان المتعاقبة التي أفسدها المؤولون بمرور الزمن، حتى جاء الإسلام فأعاد رسالة السماء صافية مشعّة

بالنور، واصفاً ما كان عليه المسلمون في عُهود الازدهار، وراجعاً ذلك إلى استعمال الفكر الحرّ، والاجتهاد البصير، ثم انتقل إلى حالة المسلمين اليوم وما أصابهم من التقهقر الوجيه، وما لحقهم من آفات التقليد والتعصّب والجمود، وقال عن هذه الآفات المهلكة :

«فمنذ جاء التقليد والتحرُّب والتعصّب حلّت النعمة، وذهبت الريح والشوكة، إلى أن وصلنا إلى هذه الدرجة من الضعف والذل، ذهب ملكنا، وقعت المملكة الكبيرة في أيدي الأجانب؛ فلا يُبالي بها المسلمون في جنبات الأرض، فأين الوحدة والأخوة والتواؤم والتراحم؟ أين تمثيل مجموعهم بالجسد الواحد، كل ذلك قد زال الآن، وكان مبدأ زواله الاختلاف، فما لهؤلاء القوم لا يفقهون حديثاً».

ولم يقصّر أزيد بحوثه على ما أصدره من المجلات المشار إليها، فقد كانت له جولات علمية في كثير من الصحف الهندية والإنجليزية، جولاتٌ تدل على تحقيق مكين في العلم، واستنباط دقيق في مسائل التاريخ، وقد نشر في مجلة الثقافة الهندية بعددين صدرتا في مارس (يونيو) سنة ١٩٥٠ بحثاً قوياً عن ذي القرنين، الذي تحدّث عنه القرآن في سورة الكهف، كان له دويٌّ بين المثقفين، فكثُر التعقيب عليه أخذاً ورداً لأنه قلب الرأي السائد في ذي القرنين من وجهة إلى وجهة، إذ ذهب نفر من المفسّرين، ولعلّهم الكثرة الكاثرة منهم إلى أنّ المراد بذي القرنين هو الإسكندر المقدوني. وهو رأيٌ لم يجد القبول عند من درسوا تاريخ الإسكندر المقدوني، إذ كان كما أجمع عليه مؤرّخوه طاغيةً جبّاراً يسرف في سفك الدماء، وكان يضحي بعشرات القرى والمدن ليُرْضي أتباعه من الجنود، حين يمعنون في الناس قتلاً وتشريداً، واغتصاباً للنساء، ونهباً للأموال والذخائر وكلّ ما يقعون عليه من تحف ونفائس، وكان أصدقاؤه المقربون لا يسلمون من شره، فلم يكن يسمع بقائده انتصر تحت راية إلا خاف منه، وعمل على استئصاله ناسباً إليه أشد التهم خطورة؟ فكيف يكون هذا الطاغية المرید من عناء الله بقوله المشير إلى عدله ورحمته ﴿ قَالَ أَمَّا مَنْ ظَلَمَ فَسَوْفَ نَعَذِّبُهُ ثُمَّ يُدْعَىٰ إِلَىٰ رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا ثَكْرًا وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُ جَزَاءُ الْحَسَنَىٰ وَسنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا ﴾ [سورة الكهف: ٨٧، ٨٨].

هذا ما فكّر فيه مولانا أبو الكلام، فاهتدى إلى تفسير آخر، رجع فيه إلى أنّ اليهود هم الذين سألوا رسول الله ﷺ عن ذي القرنين، لأنهم عرفوا بعض أمره في

التوراة، وهنا نقل أزاؤ ما جاء بالتوراة متعلّقاً بذِي القرنين، ثم رجع إلى الكشف الأثرية التي عثر عليها علماء الآثار خلال القرن التاسع عشر، ومنها تمثالٌ حجري يمثل شخص (قورش) الملك الفارسي، وهو في صورة وصفية تطابق ما جاء في سفر دانيال، وعلى رأس التمثال قرنان أحدهما وراء الآخر، وعند ذاك قرأ أزاؤ ما كُتِبَ عن تاريخ الملك الفارسي (قورش) فعلم أنه في مسيرته الحربية اتجه إلى مغرب الشمس، وقد حكى القرآن ذلك، ثم إلى مطلعها من جهة المشرق وذلك في آسيا الصغرى، ثم إلى الشمال في مضيق بين سلاسل جبال القوقاز الممتدة بين بحر الخزر والبحر الأسود، وكان هذا المضيق مرتع أقوام همج من آسيا يعيشون في الأرض فساداً، فاستنجد أهل البلاد الواقعة جنوب المضيق بقورش ليحميهم، فبنى لهم هذا السد المنيع فكان حصناً منيعاً يقيهم من الغارات، وهو ما عناه القرآن الكريم في قول الله عز وجل ﴿ قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا ؕ آتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ حَتَّىٰ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ قَالَ انْفُخُوا حَتَّىٰ إِذَا جَعَلُوا نَارًا قَالَ آتُونِي أُفْرِغَ عَلَيْهِ قِطْرًا فَمَا اسْطَبَعُوا أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَعُوا لَهُ نَقْبًا ﴾ [الكهف: ٩٥ - ٩٧]. والبحث الذي كتبه مولانا مستفيض مدعم، وقد أشرتُ إلى فحواه فحسب، وهو بحث رائع حقاً.

وأسأل نفسي: لو خلاص مولانا أبو الكلام من شواغل السياسة التي كان أحد أقطابها الكبار، وتفرغ لتحقيق هذه المسائل الدقيقة، فأَيُّ بحّثة يكون؟ وأي آثار دسمةٍ سيبتكرها في دنيا البحث والتحقيق! رحمه الله وأكرم مثواه.



أحمد زكي باشا (شيخ العروبة وأمين التراث العربي)

- ١ -

حين نشرتُ مقالي المتواضع عن العلامة أحمد تيمور رحمه الله، كتب إليّ أخ عزيز يرجّوني أن ألحق حديث تيمورٍ بحديث مماثل عن أحمد زكي باشا شيخ العروبة، فهما صنوان في جَمع كتب التراث وتحقيق المسائل العلمية الخاصة بلغة العرب وتاريخها، ولكنّي لم أسرع بتلبية هذا المطلب لتعذّره حينئذٍ، فإن آثار أحمد تيمور قد جُمعت بعد رحيله، وظهرتُ كُتُبٌ تتحدث عن فضله، أما آثارُ شيخ العروبة أحمد زكي فقد ظلّت مشتّتة في أنهار الصحف اليومية والمجلات الأسبوعية على مدى أربعين عاماً، يجدها الدارس على صفحات الأهرام والمؤيد والبلاغ والمقطم والمقتطف والهلال والمعرفة، فكيف أصِلُ إلى استيعابها؟ وهي من الكثرة بحيث جاوزت ألف مقالة!

ثم شاء الله أن يكتب الباحث المؤرّخ المستوعب الأستاذ أنور الجندي كتاباً حافلاً عنه في سلسلة أعلام العرب، فشوّقني إلى الرجوع إلى بعض آثاره المستقلة في أجزاء صغيرة، والمشتّتة في أمهات الصحف في مقالات ضافية! ولكنّ ما رجعت إليه لا يُساوي عُشرَ ما تركت، ومنّ لي بالزمن والمكان حتّى أحقّق ما أريد، لذلك كان كتاب الأستاذ الجندي مرجعي الأوّل في هذا البحث، ولعلّ باحثاً جامعياً ينهضُ بتتبّع آثار الرجل الكبير، فيكتب عنها رسالة ضافية تليق بمجده، فليس شيخ العروبة بأقل ممن تُكتب عنهم رسائل تُعجّب لِمَن كتبت عنه، ومن كتب ومن ناقش ومنح الدرجة، لأنك ترى في كلّ هؤلاء ضعفاً تراكم على ضعف، فلم يُنتج شيئاً ذا بال.

لقد اقترن اسم أحمد زكي باسم أحمد تيمور، لاجتماعهما في أمور كثيرة،

واختلافهما في أمور قليلة، وقد عقد الأستاذ محمد كرد علي موازنة بين الرجلين الكبيرين في محاضرة تحت عنوان (الأحمدان المصريان المحدثان) قال فيها: «إن تيمور يتحلّى بالروح الديني، وإن زكيّاً يتحلّى بالروح المدني، فهذا مستشرق، وذلك شرقي قبل كل شيء، وقد عكف تيمور في دائرة محدودة بين أصدقائه وكتبه فلم يخرج عنها، أما زكي فرجلٌ مجتمع وسياسة واختلاط، وهنا تظهرُ بعض الشيء أرسقراطيةُ تيمور، وديمقراطية زكي، كانت حياةُ زكي مرحّةً يتمتع بمباهجها ومناعمها على ما يشتهي، ويتعجّل النعيم لا يُرجئه، وحياة تيمور عابسة فيها شيء من الانقباض، وكلاهما صادق في مشربه، صادق في سيرته؛ فني تيمور فيما أحب من صفوف الأدب، أما زكي فأخذ حياة العُمال والسياسيين وحياة المُسرفين والمترفين، وكلاهما حكمت عليه بيئته أن يكون كما كان؛ وعدد من أخذ عنهم تيمور من الشيوخ كان أكثر من عدد من أخذ عنهم زكي، فجاء تيمور عالماً إسلامياً قبل كل شيء، يحب الانتفاع بما أنتج أهل الغزب، وجاء زكي عالماً شرقياً يشبه علماء الغرب إلى حد بعيد».

وكلام الأستاذ محمد كرد علي صادق في مجموعه لا في جميعه، لأن أحمد زكي وإن كان له اطلاع المستشرقين فلم يكنُ ينهج نهجهم في أسلوبه العلمي، ولا في غرضهم المستتر والظاهر، وكذلك لم يكن أحمد تيمور أرسقراطياً كما يُفهم من هذا اللفظ عند سماعه، فتيمورُ كان يجالس الشباب المسلم في جمعية الشبان المسلمين التي أسست بفضل تشجيعه الماديّ، وكُنْتُ تراه أكثر ما تراه بين العلماء الأزهريين في جمعية الهداية الإسلامية، وفي المكتبة السلفية مع صاحبها محب الدين الخطيب، وقد ألّف الأستاذ نور الدين مصطفى جمعيةً خاصة بأبناء الأتراك، ودعاه إلى الانضمام إليها، فعرف أهدافها المترفّة، وصاح به: أنا جنديٌّ من جنود المسلمين فحسب. فكيف يكون أرسقراطياً؟.

وُلد شيخ العروبة بالإسكندرية سنة ١٨٦٧، وعاش في كنف أخيه الأكبر القاضي البحّاث محمود رشاد، وكان القاضي ذا ولوع بالقراءة والبحث، وله مكتبةٌ كبيرة يقضي فيها أكثر أوقاته، حتى اشتهر بنبوغه العلمي فاختر مبعوثاً إلى مؤتمر المستشرقين الدّولي بفيينا، وأسند إليه التفتيش التربوي في وزارة المعارف زمناً ما، وأصدر بعض الكتب التاريخية، وقام بالرحلات الخارجية إلى دول الغرب، وله

موقفٌ وطني مشهود فرحت به الأمة المصرية، وضاق به أعوان الاحتلال! هذا الأخ هو الذي كفل أخاه الصغير وربّاه في بيته، وأشرف على تعليمه بالمدارس الابتدائية والثانوية، ومدرسة الإدارة العليا، التي سُمّيت بالحقوق فيما بعد، وكان الشاب الناهض يرى ندوات أخيه العلمية في منزله، يحضرها كبار الأساتذة من أمثال حفني ناصف ومحمد دياب وأحمد سمير، وقد حكى عنهم أنّهم شهدوا له بالنبوغ حين سألوه في معاني بعض الأبيات! أذكرُ ذلك كله لأنصّ على أنّ هذا الأخ النابغة كان مثل أخيه الذي يحتذيه، وقد وُفق لاحتدائه، حين عمل على إنشاء مكتبة علمية لم يقيم بمثلها أحد من قبله، وحين عقد الندوات الأدبية في منزله جامعةً بين أعيان الأدب والعلم والسياسة، وحين ألّف الكتب، ونشر المقالات، وحين رحل إلى أوروبا ممثلاً مصر في بعض المؤتمرات العلمية، وسائحاً في ممالكها للوقوف على حضارتها المزدهرة!

أليس التوافق قريباً بين الأخ المربيّ، والأخ اللائذ بفضلته وحنانه! ولعلّ شيخ العروبة كان يزهو نفسياً بما قام به من أعمال يعتبرها مكملة لسيرة أخيه بعد أن فارق الحياة! فإذا سأل سائل عن سرّ الاتجاه الحيويّ في سلوك أحمد زكي فليعلم سيرة الأخ الشقيق.

ولكل مفكر في الحياة رسالة تتشبع بها نفسه، وتسيطر على أهوائه، فهو يدور حولها بادئاً ومعيداً، وكانت رسالة زكي باشا هي الهتاف بمجد العروبة والإسلام، وفي محيط هذه الرسالة دارت أبحاثه، وتعددت رحلاته، وطالت مناظراته، وتستطيع أن تردّ كل بحث قام به إلى خدمة العربية لغةً وديناً، وقد ألّم بمعارف متعدّدة، وساعدته هواية جمع المخطوطات النادرة، على أن يقف على ما لم يقف عليه سواه، وقد هيأ لذلك نفسه منذ أن شبّ عن الطوق، فكان يتصفح المجلّد، ومعه جذاذات مختلفة، يدوّن فيها كلّ ما يعدّه جديداً ذا نفع، حتى امتلأت أدراج عدّة مكاتب بهذه الجذاذات، التي لا تقفّ على موضوع واحد، فقد تحدث الدكتور بشر فارس عنها حين استعان بها في بعض ما ألّف، بعد أن توثقت صلته بشيخ العروبة فقال: إنها دائرة معارف كبرى، وتتطلّب لجنة تقوم على تبويبها تبويماً مفهرساً، لتكون في متناول الدارسين.

وقد ذكر الأستاذ محب الدين الخطيب خبراً عجبت له كثيراً، ذكر أنّ شيخ

العروبة قد قضى على أكثر هذه القصاصات قبل موته كيلا ينتفع بها باحثٌ يسهل عليه ما قامَ به من جهد لم يشاركه فيه أحد، وأنا أرتابُ في هذه الرواية لأن شيخ العروبة قد ماتَ قبل السبعين، وكان يرى نفسه في صحة تسمحُ لعمره أن يمتد، فكيفَ قضى على هذه الجذاذات وهو في مزيد الحاجة إليها إذ هي عدته في كل ما يعالج من شؤون! ولكن السؤال الحائر هو: أينَ ذهبَت هذه الجذاذات؟ هل استولى عليها من احتكرها لنفسه، وبخاصة إذا كان شيخ العروبة لم يترك وارثاً يرعى حقوقه؟ كل ذلك محتمل غير مستبعد.

قلتُ: إن العربية والإسلام كانتا شغلَ الرجل الشاغل، وقد تحدّث الأستاذ الزيات عن هيامه بالعروبة حين قال في وداعه^(١):

«زكي باشا منذ بلغ سنّ التكليف تمثّل لعينه مثله، واستبانَتْ في ذهنه رسالته، رأى العروبة لفظاً تغيّر مدلوله في الناس، وجنساً تنكّرت معالمه في الأجnas، ولساناً فشا فيه الدخيل، وأثراً عبث به الجهل، وتاريخاً تطرق إليه النسيان، وحضارةٌ غصّ منها التعصّب، ووحدةٌ مزّقتها العوادي، فنهض لإصلاح ذلك، نهوض المصلح الملهم والمؤمن الواثق». وتفصيلُ ما أجمله الزيات في هذه الجمل المركزة مما أنا بسبيله الآن.

وإذا كان الإمام محمد عبده قد تولّى الإشراف على تحرير الوقائع المصرية قبل الثورة العربية، فأدخَلَ على الأسلوب العربي ما ينقصه من الصّحة اللغوية والبيانية في عهد انتشرت فيه الركake، وبلغ الإسفاف اللفظي غايته، فإنّ أحمد زكي قد تولّى الترجمة في مجلس النظار (رياسة الوزراء) منذ سنة ١٨٩٢ وما زال يرقى حتى وصل إلى سكرتارية المجلس، وأُحيل إلى المعاش سنة ١٩٢٢، وفي مدى ثلاثين عاماً كان له الفضلُ الأكبر في مجالي الترجمة وتهذيب لغة الدواوين، لأنّ منشورات النظارة ومكاتبات الإدارات المختلفة بها، كانتْ تمتلئُ بالعاميّة تارة، وبالألفاظ التركية تارة، وتدور في فلكٍ متّحد، وكأنّها صيغٌ متعارفة محفوظة لا تتغيّر فيها غير الأسماء والأرقام والتواريخ، فعمل الرجل على تقويم العبارة، وطرّد ما يشعر بالركake، واختار ألفاظاً جديدةً لعبارةٍ عامة، أو مخترعات محدثة، فأحدث

(١) وحي الرسالة: ١٥٢/١ ط رابعة.

ما يُحدثه مجمع لغوي بمفرده، لأن تعدّد المكاتبات وتنوّع الرسائل قد فسح له في مجال الإصلاح اللّغوي، ودفعه إلى الكتابة عن هذا الإصلاح في الجرائد شارحاً وجهة نظره الأسلوبية، وقد لاقى معارضةً من قوم كبار حفظوا متون اللغة، وأولعوا بالغريب المتنافر، ولهم رياسةٌ مؤثرة في تفتيش المعارف، حيث يؤثرون على الأساتذة في المدارس المختلفة، ولا ننكرُ أنّ لهؤلاء دورهم الصحيح في حفظ اللغة والحرص على صحتها العريقة، ولكنّ متطلبات العصر تتطلّب الإفصاح اليسير بعيداً عن ظلمة الغرابة، وعبوس المعاضلة، ولم يقف اهتمامه على رسائل الديوان فحسب، بل انتقل إلى ما شاع في الصحف من الألفاظ الإفرنجية التي قال حافظ إبراهيم عنها:

سرتُ لوثّة الأعجام فيها، كما سرى لُعاب الأفاعي في مسيل فرات
فجاءت كثوبٍ ضمّ سبعين رقعةً مشكّلة الألوان مختلفات

التفت إلى ألفاظِ الفرنجة ذاتِ النبرة النابية في الأسلوب العربي، فأحدث أسماءً جديدة لمكتشفات حديثة، ومن أظهر هذه الألفاظ لفظ (السيارة) حيث ارتضاها بدلاً عن (الأوتومبيل) وقد عارضه من ادّعى أن لفظ السيارة في اللّغة هم الجماعة السائرون. ومنه قوله تعالى: ﴿وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ﴾ [يوسف: ١٩] ولكن الرجل ردّ عليه بوجود اللفظ المشترك في اللغة، إذ لا مانع أن يُطلق اللفظ على معنيين ويقوم السياق بتوضيح المعنى المراد، كما اخترع كلمة (الدراجة) للعجلة، و(صحافي) لمن يعمل في الصحف، وهي ألفاظٌ كتُب لها الانتشار حتى أصبحت من المسلّمات الآن، وقد قال للذين خاصموه إنه لا يدّعي التفرد في إيجاد الألفاظ المستحدثة، ولكنه يدعو أرباب البيان إلى مساعدته، وقد قام الكاتب الشهير محمد المويلحي صاحب عيسى بن هشام بتلبية رجائه، فاختر عدّة ألفاظ جديدة لأسماء مستحدثة، وقام الشيخ عبد القادر المغربي بدوره في هذا المجال، فاختر ألفاظاً أخرى، وحاول استعمالها في كتاباته الصّحفية بجريدة المؤيد، ففتح باباً جديداً للنقاش والتأويل.

وأظهر ما أتاه الرجل في خدمة العربية هو ما اهتمّ به من اختصار حروف الطباعة وإحداث علامات الترقيم، فعن الاختصار المطبعي، نظرَ فوجدَ حروف المطبعة تتضمن ٩٠٥ شكلاً من أشكال الحروف، وبذلك تُسبّب جهداً في الصناعة وغلاءً في

السعر، وتعباً لا مبرّر له في الطبع، فاستطاع أن يختصرها إلى ١٣٢ حرفاً فقط، شاملة كل ما يضمن الصحة في القراءة، وقد حاول نفرٌ من بعده أن يمتدّوا بالاختصار إلى عددٍ أقل، ولكنّ القراءة على نهجهم لم تمض على وجهها الصحيح، فكان ما صنعه الرجل الدؤوب هو ما تسيّر عليه المطابع إلى الآن، وما جدّ من تجويف في كتابة العناوين بالصّحف كان مدعاة عبث لا مُبرّر له، ثم قام برحلة إلى أوروبا مع مدير المطبعة الأميرية، شملت النمسا وفرنسا وألمانيا وإنجلترا وتركيا، للنظر في الوسيلة العملية لاختصار صناديق الطباعة وتسهيل طريقة الجمع المطبعي، وعادَ محققاً مأمّله، ونشر ما اهتدى إليه في مقالٍ ضافٍ صادف ارتياح القارئ.

أما علاماتُ التّقييم فقد أوجدها إيجاباً في الكتابة العربية، حيثُ اعتمد على ما تواضع عليه الفرنجة في هذا الباب وذاكراً أنّ المُشاهدة المحسوسة قد دلّت على أن السّامع والقارئ معاً في أشدّ الاحتياج إلى دلائل تدل على المعنى المراد، وإذا كان السّامع يفهم ذلك باختلاف النبر الصّوتي عند الخطيب والمحاضر، فإنّ القارئ في حاجةٍ إلى ما يعوّض وظيفة هذا النبر الصّوتي، ومن هنا وضع علامات تعرف بالشولة والشولة المنقوطة، وعلامة الاستفهام، وعلامة التعجب، والشّرطة، والتقويس والتضبيب، وطبع لأول مرّة في العربية مذكرة خاصة بما ارتآه، ولا أدلّ على صواب ما اتجه إليه من علامات التّقييم التي اهتدى إليها من أنّها أصبحت واقعاً ملموساً لا مجالاً لإنكاره، بل إنّ الذي يتخلّف عن مراعاته يُعدّ مقصراً وعليه أن يستكمل ما فاتته من هذا النقص الكبير.

فإذا تركنا مجال الإصلاح اللّغوي والتّرجيمي في كتابة الألفاظ، فإننا ننتقل إلى مجالٍ آخر برز فيه أحمد زكي باشا، وهو نهوضه بإلقاء المحاضرات العلمية في الجامعة المصرية القديمة، حيث ناقش كبار المستشرقين، ممن قاموا بالتدريس في هذه الجامعة الناشئة، وكان فاهماً أتمّ الفهم لرسالة الأستاذ الجامعي، مع أنّه لم يتلقَ تعليماً جامعياً بالمعنى المتعارف عليه، لأن مدرسة الإدارة (الحقوق) - التي أتمّ بها تعليمه العالي - لم تكن كُليّة، ولكنها كانت تنهّجُ نهج المدارس في إعداد الدروس، واجتماع التلاميذ في الفصول لا في القاعات، وقد تجلّى هذا الفهم الدقيق لرسالة الأستاذ الجامعي فيما نقله عنه تلميذه الدكتور زكي مبارك، وقد سمع محاضراته

بالجامعة، وتحدّث عنها مستشهداً بقول الأستاذ العلامة أحمد زكي^(١)، مخاطباً الطلاب في صراحة ووضوح:

«جُلّ ما يُصيبكم مما أحمله إليكم من العلم بهذه المحاضرات هو ضوءٌ مصباح يُضيء لكم مواضع أقدامكم فتبصرون الطريق التي تسلكونها للغاية المطلوبة، وما المعلّمون إلا مُزّشدون وهادون، فعليكمُ بالبحث والتنقيب والدرس ومساءلة أهل الذكر، فإنّ النبوغ لا يكونُ إلا بهذا، فالمدارسُ مهما علا شأنُها، وسمت منزلتها، لا يمكنها أن تعلّم الناس النبوغ في الفنون، وإنما تنتهى ما تصل إليه الجامعات - التي هي أرقى مدارس الهيئة الاجتماعية - إنما هو هداية الطلاب إلى طريق النبوغ».

هكذا فهم الأستاذ رسالة الجامعة، وهكذا قامت الجامعة المصرية الجديدة في عهدها الأوّل، حيثُ كان الأستاذ مرشداً هادياً إلى طريقة البحث، وأماكن المراجعة، وتبويب المسائل، وصحة الاستنباط، أمّا الآن فقد تقهقرت الجامعات، وتخلّفت تخلفاً شائناً - على كثرتها في العاصمة والأقاليم - إذ أصبح كلّ ما يحصل عليه الطالب مذكرةً في المادّة، يلقيها الأستاذُ دون شرح ما، لأنّ ازدحام المدرجات بالحشد الهائل من الطلاب يعوقُ الأستاذ عن أداء رسالته، ويقطعُ صلته بالناهين والخاملين من طلابه معاً، لذلك تجدُ الطالب يتخرّج من كليته حاملاً درجة الامتياز، ولا يعرف مرجعاً عن مراجع البحث، لأنّه نجح باستظهار المذكرة فحسب، وأيّ فرقٍ إذن بين التعليم الثانوي والتعليم العالي، إذا قامت المذكرة في الدراسات الجامعية مقام الكتاب المدرّس في المدارس الابتدائية والثانوية! إنّ الجامعة في حاجةٍ إلى إصلاح جذريّ، وأقلّ وسائل هذا الإصلاح أن نرجع إلى ما قرّره أحمد زكي في هذه السطور المحدودات.

- ٢ -

أتيج لأحمد زكي من الرحلات إلى العالم الغربي ما أمده بكثير من التجارب والمعارف الغالية، لأنّ منصبه الحكومي أتاح له أن يكون مندوباً في عدة مؤتمرات استشرافية عن مصر، وكان معه من رجال العلم والفضل من يُماثلونه، ولكنه كان ذا نشاط حيويّ يخرج به عن مهمة المؤتمر العلمية إلى دراسة ما يتوق إلى دراسته من

(١) أحمد زكي، للأستاذ أنور الجندي ص ٧٩.

كتب القوم وآثارهم، ثم من المخطوطات العربية التي ملأت دور الآثار في مختلف العواصم الأوروبية، وكان إذا زار مدينة حرص على رؤية معالمها التاريخية البارزة، ودون الملاحظات القوية عنها، وكتب مذكرات سريعة عن كل ما يقرأ ويسمع ويرى، ليجعل منها مقالات حية تملأ صحف مصر، ويتحدث بها القراء، فيلمون بما غاب عنهم، وكأنهم كانوا مع الراحل الطموح في خطواته المتتابعة، وكم وصف في هذه الرحلات من المساجد والكنائس والقصور والحدائق، حتى مناجم الفحم، وفنادق النوم، وحُجرات الدراسة في المدارس والجامعات!

ولم أسعد بقراءة ما ألقاه من المحاضرات في هذه المؤتمرات العلمية، لأن مؤتمرات الاستشراق لم تكن في أكثرها غير محاولة لتغيير اتجاه علمي سائد، ليحل محله اتجاه يرضي المستشرقين، وإذا وجهوا الدعوة إلى علماء المسلمين، فلا يُحدّدون أبواباً معينة للقول، بل يتركون لكل مبعوث أن يتحدث فيما تسمح به ظروفه، حتى وجدنا من مبعوثي العرب من قام بشرح قصيدة الشنفرى، وكأن هذا الشرح هدف عال يسعى المؤتمرون للحصول عليه، ولو صدقت النيات لاقتصر البحث على موضوع معين يُحدّد قبل أشهر، ويلم كل محاضر بزاوية منه، ويدور النقاش حوله فلا يتعداه، ليصل المجتمعون إلى رأي ممّخص في مسألة جوهرية!

وقد أفاد أحمد زكي من المؤتمرات المتعددة التي مثل فيها بلاده معرفة واسعة بالمستشرقين، وإماماً فسيحاً بما نشروا من المخطوطات، وما وعوا من أماكن التراث العربي؛ في شتى العواصم الأوروبية، وهنا نذكر بالحمد أن شيخ العروبة قد بذل الجهد الأكبر في تصوير ما وقعت عليه يده من المخطوطات، وعانى ما عانى وكابد ما كابد في هذا التصوير، حتى امتلأت خزائنه الآهله بما يعزّ وجوده في غيرها من المكتبات، وكانت رحلته إلى الأندلس، وقد سمّاها الفردوس المفقود، وهي تسمية كتّب لها الانتشار والذيع فأصبحت تتداول لدى الكتاب؛ كانت هذه الرحلة مصدر فرح وحزن معاً لعربي غيور مثله، أما الفرح فلما شاهد من الآثار الرائعة في سرقسطة وغرناطة ومدريد وأشبيلية والحمراء، وقد كتّب عن هذه البلاد بحثاً موجزاً، لكنه يعبر عما لا تكفه مئات الصفحات، أما الحزن فواضح السبب، إذ لا يرى هذه المشاهد الإسلامية عربيّ إلا تفرق الدمع في محاجره أسفاً على جنة زاهرة أصابها ريح عاصف، فتركها خاوية على عروشها، وقد سعد بزيارة الملكة

(كريستينا) الوصية على العرش، وأنعمت عليه بوسام (إيزابيلا) الكاثوليكية، ودار بين الزائر والملكة حديثٌ عن ازدهار الأندلس في عصر العرب، فتحدّثتِ الملكة عن حضارة الأندلس الغابرة بلسان الإعجاب، وذكرت من آثارهم الجليلة، ما دُهِش له الزائر إذ لم يكن يتصوّر أنّ هذه الملكة المُرَهقة بأعباء العرش ذات إحاطة تامّة بتاريخ بلادها في القديم والحديث.

هذا عن بعض رحلاته إلى العالم الغربي، أما رحلاته إلى العالم العربي فقد نهض بها من تلقاء نفسه، بعد أن تخلص من أعباء الوظيفة الرسمية وأُحيل إلى المعاش، فأصبح حرّاً يجهزُ برأيه في السياسة الخارجية والداخلية دون حرج، وقد هام في هذه الحقبة بحبّ العروبة، والدعوة إلى وحدة بلادها، في وقتٍ لم تكن فيه فكرة الوحدة تشغل بال أحد في مصر، إلّا الرجل العظيم عبد الرحمن عزام رحمه الله، فقد كان أوّل من دعا إلى الوحدة العربية في مصر، ناشراً شتى المقالات الضافية في وجوب تضافر العرب أمام أعدائهم، ولجهاد الأستاذ عبد الرحمن عزام في هذا المجال حديثٌ يطول.

أما شيخُ العروبة فقد نهض لزيارة بلاد الشام طائفاً في شتى حواضرها، متنقلاً بين دمشق وحلب وحمص وحماة، وقد ذكر الأستاذ سامي الكيالي - وكان رفيقه في مشاهدة آثار حلب - أنّه قضى الوقت في زيارة مساجدها ومدارسها الأثرية، ثم حلا له أن يزورَ قلعتها، وأن يصعدَ إلى أبراجها، وكان يروي شعراً للمتنبي وأبي فراس، ويتحدّث عنهما حديث المعجب الفخور، كما روى الكثير من أخبار الفارابي وابن خالويه وسيف الدولة وأبي العلاء، ممن عاشوا في هذه الرحاب المجيدة! وعاد إلى مصر ليكتب خواتمه في فصول ضافيات.

وحين قامَ الخصام بين جلالتي ملكي السعودية واليمن، ودارت الحرب بين العاهلين، كان أحد الأحرار الذين توسّطوا لإزالة الخلاف، وكلّل مسعاهم بالنجاح، وهي سفارةٌ تدلّ على أنّ روح الإخلاص إذا كانت متبادلة فإنها تُنتج الخير الكثير، ومما ساعدَ على نجاح هذه السفارة، أنّ القائمين بها يمثلون أنفسهم، ولا يتكلّمون باسم دولة ما ليرجعوا إليها في تلقّي الأمر، فيكونوا كسعاة البريد الذين يحملون الرسائل، ثم يعودوا كما جاؤوا، بل كانوا يرسمون ما يرونه من الوسائل الكفيلة بلمّ الشمل.

وقد أحسَّ شيخ العروبة أنَّ باليمن كنوزاً من المخطوطات العلمية، وأنَّ رغبته شديدة جدّاً في تصوير بعض هذه الكنوز، فأفْضى إلى الإمام يحيى بن حميد ملك اليمن برغبته على تحفُّظ، فأذن له بمشاهدة هذه الذخائر، وتصوير ما يُريد تصويره منها، كما أحضر نسخة مصوّرة من كتاب الإكليل للهمداني وأودعها دار الكتب، وهو كتابٌ جليل الخطر في تسجيل تاريخ اليمن القديم، وبقراءته صُحِّحت أخطاء كثيرة كانت تغمر هذا التاريخ، وقد ذاعت شهرة الإكليل بعد أن أشار إليه أحمد زكي، وبحث الدارسون عن أجزائه المتفرقة في المكاتب المختلفة، وأذكُر أنَّ الأب انستاس ماري الكرملّي قد نشر الجزء الثامن منه مصحّحاً كامل التحقيق.

ولا نتركُ حديث الرحلة اليمنية حتى نشير إلى أنَّ الإمام يحيى بن حميد الدين ملك اليمن - وكان ذا علم بالآثار التاريخية - ناقش شيخ العروبة في كثير من الحقائق التاريخية المتّصلة بالعرب والإسلام، وكتب له إجازة برواية كتاب (الكامل لابن الأثير) عنه، ورواية بعض كتب أخرى سأذكرها فيما بعد، وقد نُشرت هذه الإجازة التاريخية بمجلة الزهراء الصادرة في جمادى الأولى سنة ١٣٤٥ هـ، ومهد لها رئيس التحرير تمهيداً موجزاً قال فيه: «هذه الإجازة التي تلقّاها سعادة الأستاذ من عالم اليمن لهذا العهد، وأوسع أهلها معرفةً واطلاعاً وتغنّى به: جلالة الإمام يحيى بن الإمام حميد الدين، فقد أجاز سعادة الأستاذ زكي باشا بأن يروي عنه طائفةً من كتب التاريخ الإسلامي على طريقة السلف في تلقّي العلم، وهي الطريقة التي أهملها الناس في بعض الأقطار الإسلامية منذ عهد قريب».

وقراءة الإجازة تُعطي لوناً واضحاً من ثقافة الإمام يحيى، فهو يتحدث عن التاريخ ومنزلته بين العلوم، والغاية المرادة من تحصيله، والسند المتصل من الرواة السابقين عن الإمام، الذين روى عنهم كتب التاريخ المجازة، مثل السيرة النبوية لابن هشام، والاكتفاء في مغازي المصطفى والثلاثة الخلفاء، وهو كتاب لم أسمع به من قبل، ومؤلفه هو الإمام أبو الربيع سليمان بن موسى الكلاعي، وشرح السيرة للسهيلي، والكامل لابن الأثير، ووفيات الأعيان لابن خلكان، والأغاني لأبي الفرج، وفتوح مصر والمغرب لابن أبي الحكم، والعقد الحسن في طبقات أهل اليمن، وقرّة العيون بأخبار اليمن الميمون، وبغية المستفيد في أخبار زبيد، ثم خُتمت الوصية بما ينبغي سماعه من إيصاء المجاز بتقوى الله عز وجل في السر

والعلانية، فنعم الزاد التقوى، والقيام بطاعته، فهي الموصلة بفضله إلى جنة المأوى^(١).

أما رحلات شيخ العروبة فقد نُشر عن بعضها في مجلتي الهلال والمعرفة، وبهما تفصيل دقيق لصعود أعلى ذروة في المسجد الأقصى وهي القبة، وقد قال عن هذا الصعود: إن الزمن قد جاد له بفرصة لم يهبها لغيره، إنه ارتقى مرتقى ما رقىه الأنبياء. لأن القبة المباركة لم تكن موجودة في أيامهم.

وقد شاع عن شيخ العروبة أنه المكتشف الأول لأمجاد العرب والمسلمين في عصره، فقد كتب فصولاً ضافية عن سبق العرب إلى اكتشاف أمريكا مرتين قبل كولمبس، وعن سبق العرب إلى الطيران حين همّ به في الأندلس عباس بن فرناس، وعن معرفة العرب طريقة (الشّفرة) وهي الكتابة السريّة، وعنهم أخذها الفرنجة أيام الحروب الصليبية، وعن معرفة العرب بكروية الأرض، وسبقهم إلى اكتشاف منابع النيل، ويطول بنا الحديث لو تتبعنا اكتشافاته الكثيرة لأمجاد قومه، وقد ذكرها الأستاذ الجندي في كتابه ملخّصة عن الصحف اليومية، التي سجّلت مقالات الأستاذ عن هذه الكشوف، كما سجّل الأستاذ الجندي كثيراً من مناظراته العلمية بين فحول الباحثين، من أمثال الأستاذ محمد مسعود، وعلي بهجت، وزكي مبارك، ومقرس سمكة، وغيرهم، مؤكداً ما لاحظته من لهجة التعالي والتباهي المفرط، ولا أدري سبباً للزهو العلمي ما دامت الحقائق تنطق باطلاعه وغوصه، فمناظره الأستاذ محمد مسعود لا يقلّ عنه تضلعاً، وله قدم راسخة في البحث الأدبي، والنضال العلمي، ولكنه يزيّن ذلك كله بتواضع يفتح له القلوب، وكل ميسر لما خلق له.

قلتُ إن الاهتمام بالعروبة كان شغل الرجل شاغل بعد إحالته إلى المعاش، فقد بدأ في إنشاء الرابطة الشرقية منذ فرغ من حبسه الوظيفي، وكلمة الشرق حيثئذ كانت تشمل العروبة، وتفضي إلى مدلولها، وقد قال أحمد زكي في الافتتاح الأول للرابطة كلمة مبدعة جاء فيها «لِمَ لا نُؤسس رابطة شرقية تجمع بيننا، ثم هي غداً تصبح جامعة بين أممنا الشقيقات، لأن الشرق سيظل مشرقاً يمينه ومفاخره، ومن الخير لمصر أن تكون رأساً لشقيقاتها وجاراتها من بلاد الشرق وأمم العروبة من أن تكون ذنباً لبلاد الغرب وأممه».

(١) مجلة الزهراء، جمادى الأولى سنة ١٣٤٥هـ، ص ٣٤٠.

ثم خصّ الأمة العربيّة بمقالات متتابعة تُنادي باليقظة، وتذكّر بالمجد القديم، وقد أثر بعد وصفه بشيخ العروبة أن يلبس العقال والعباءة كشيوخ العرب، وهو المصريّ الأوّل الذي فتح منزله لكل قادم عربي، حيث يجد المكان المريح عند شيخ العروبة مهما طالّت إقامته، وقد كانَ طعام المنزل يُبذل في سخاء مفرط توقّعاً للزائرين من كلّ صوب، حتى وإن لم تدل الأحوال على قدومهم، وهي حقيقةٌ لمسها كلّ ضيف عربي، وعبر عنها الشاعر الكبير خليل مطران في رثائه لشيخ العروبة حيث قال^(١):

شيخ العروبة أين صائن إرثها	ومعيد نضرة عهدها المتقادم
بل أين في الفسطاط موئل قومها	من بارح يخلي المزار لقادم
يفد الغريب إليه وهو كأنه	يمشي من الأشواق بين معالم
فالدار من لطف الضيافة داره	وليّها المخدم شبه الخادم
دار أجذبها النوى لنزيلها	أشهى الطرائف من قرى ومكارم
تتنافس الزينات ترحيباً به	ويُكاثر الإيناسُ جود الطاعم
فلعينه ولسمعه ولقلبه	ولجسمه منها فنون ولائم

ولشيخ العروبة مفاجآت مدهشة في إكرام الوافد العربيّ، وطريقه هذا الإكرام، فقد وفد إلى مصر نابغة بُنان وأديب المهجر الشهير الأستاذ أمين الريحاني سنة ١٩٢١م، فاحتفلت به البلاد احتفالاً لم يتكرّر لأحد من بعده، إذ تعددت مہارج الاحتفال في النوادي والمنازل ودُور الصحافة، وكانت الحفلة الثامنة هي (حفلة الصحراء) خاتمة الاحتفالات، وقد قام بها شيخ العروبة أحمد زكي على نمط فذّ منقطع النظير، إذ أرسل الدعوة إلى ثمانمئة مدعو من كبار الفضلاء وخيرة رجال أهل الفضل، على أن يكون الاحتفال كما جاء في بطاقة الدعوة: «تكريماً لثالث الثلاثة بعد الجعدي والذبياني؛ نابغة العرب الجديد أمين الريحاني، حيث تناول الشاي على سماط بدوي فوق بساط الرّحل، وتحت ظلال الشجر الذي غرسه الصحابة الكرام في سفح الأهرام، يُشرف عليها أبو الهول بإشارته البليغة في صمته الدائم».

وقد كانت صحراء الأهرام حينئذ مزينة بأبهج زينة من الأعلام المصرية، وقد ضُربت منها المضارب تتخلّلها الجمال والأبقار ممثلة مساكن البدو في حلّهم، وبرز

(١) ديوان مطران: ٢٠٣/٤.

الفرسان منهم على صهوات الخيل يلعبون بسيوفهم، ويُرقصون جيادهم على نغمات الطبل والمزمار، وقد نُصب في صدر المكان سرادقٌ كبير لاستقبال المدعوّين، ونُصبت فيه موائد الشاي حاويةً لأطباق الفطير والحلوى والتّمر العربي، وفي مقدّمة الطاعمين أكابرُ الوزراء والعلماء والأمرء وجمهورٌ كبير من المستشارين والقضاة، والمهندسين والأعيان، وسعادة أحمد زكي باشا يتولّى استقبال الوافدين مرحّباً، ثم ألقيت كلمات الترحيب، وفي مقدّمتها كلمة أحمد زكي وقصيدة أحمد شوقي وقصيدة نثرية لأنطون الجميل، وطُرف من أشعار أحمد رامي ومحمود صادق، وفي الختام خطبة ممتازة للأنسة مي! فأبى ابتكار شعري هذا الذي اهتمتُ إليه مخيلة شيخ العروبة في إقامة الاحتفال على هذا النسق الفريد! وقد أخذتُ عليه قوله في بطاقة الدعوة: «إنّ الريحاني النابغة الثالث بعد الذبياني والجعدي». فالرجل لا يُشبههما في شيء، ومجالهما الشعري غير مجاله! وكان الأولى أن يقول: ثالث النوايغ بعد الجاحظ وابن خلدون مثلاً، ولكنه شيخ العروبة، ولو كان حياً وسمع اعتراضى لانهالت مقالاته مؤكّدة صحة اختياره، وعاصفة بما أبدى من اعتراض.

وإذا كان نتاج شيخ العروبة من الغزارة والتدفّق بحيث كان يوافي القراء يومياً بمقالاته، وقد يملأ المقال صفحة كبيرة من صفحات الأهرام، إذا كان هذا النتاج من الغزارة بهذه الكيفيّة فليس من المعقول أن يقولَ قائل: إن مصطفى صادق الرافعي رحمه الله كان يُعاون شيخ العروبة في مقالاته، كما ألمع إلى ذلك الأستاذ سعيد العريان في كتابه (حياة الرافعي) لأنّ العريان نفسه قد اعترف بأنّ الرافعي طلب من شيخ العروبة أن يكتب عن كتابه (تاريخ أدب العرب) فقال له (متخلّصاً): اكتب أنت وأوقع أنا. ففعلها الرافعي، وظهر المقال بإمضاء أحمد زكي يملأ الصفحة الأولى من الجريدة اليومية، ولعلّ زكي باشا كان متضيقاً في نفسه من هذا الفعل، ولكنّه تسامح، فكيف يكون ذلك دليلاً على أنّ الرافعي كتب لشيخ العروبة بعض المقالات! وهناك عامل حسم لاشك فيه، هو أنّ أسلوب الرافعي مفرد منقطع النظير، وليس بينه وبين أسلوب شيخ العروبة صلةً مشابهة، فكيف يكتب باسمه؟.

كما أشار الأستاذ العريان إلى أنّ الرافعي شارك في معجم لغوي كان شيخ

العروبة على أهبة إصداره، ولكن المنية عاجلته، وهو زعمُ نفاه الدكتور بشر فارس حين قال على صفحات الرسالة^(١):

«والذي أعرفه حق المعرفة - للصلة التي كانت بيني وبين أحمد زكي رحمه الله - أنّ ذلك المعجم كان مجموعة من الجذاذات على الطريقة الإفرنجية، وهي الطريقة التي حذقها أحمد زكي دون غيره من أهل اللغة عندنا فيما نعلم، وقد اتفق لي مرّة أن أنظر في هذه الجذاذات، فكانت من خط أحمد زكي، أو من خط كاتبه الخاص، وقد وقع لي أن أطلع على مُسودات القليل المدوّن في المعجم، فإذا الخط خط أحمد زكي، ذلك ما أعرفه، وربما غابث عني أشياء، أو ربما كان أحمد زكي يستشير الرافعي كما كان يستشير غيره من المشتغلين باللغة، وليس فيها مغمز، أما حديثُ المقالات التي كان يكتبها الرافعي يمدحُ فيها نفسه، ثم يستدرج أحمد زكي إلى توقيعها، فمن الغريب أن يعدّها العريان مما انتحلّه أحمد زكي وهو من تأليف الرافعي، والحقيقة أنّ هذه المقالات مما أراد الرافعي - لسبب في نفسه - أن ينسبه إلى أحمد زكي».

وقد لقي شيخ العروبة ربّه في سنة ١٩٣٤ م، ودُفن في المسجد الذي أشرف على بنائه بالجيزة، وجعل فيه مدفنًا خاصاً به، ولا يزال المسجد ماثلاً للعيون يفد إليه الزائرُ مصلياً، ثم مسترحماً على صاحبه، راجياً له المثوبة قدر ما أنفق من عناء في رفعة وطنه ودينه، دون ميل إلى الراحة والاستجمام.



(١) الرسالة، العدد ٢٨٤، ١٢/١٢/١٩٣٨ م.

جاد الحق علي جاد الحق

(فقيه كبير ، ومجاهد غيور)

- ١ -

لم يكن الإمام الأكبر جاد الحق علي جاد الحق ممن يعشقون البريق الخادع، فيتحدثون عن جهودهم في الصحف والمؤتمرات، ولكنه كان مجاهداً عملياً يصدع بكلمة الحق في ميدانها الأصيل، تاركاً جزاء كفاحه لربّه وحده، جهر في مصر أثناء حرب الأفغان بعداء الروس المغتصبين، واستقبل زعيم المجاهدين، ليعلن وقوف المسلمين مع إخوانهم، منادياً بوجوب التبذّر بالمال والدم، أمّا اهتمامه بالحرب الصليبية في مأساة البوسنة والهرسك فقد ملأ حياته طيلة أيام الحرب الظالمة، فدعا إلى نصرة لجنة الإغاثة بنقابة الأطباء، وإلى صلاة الغائب بالمساجد المصرية على أرواح الشهداء، وأشرف على جمع ملايين الدولارات، وعمل على إيصالها إلى هناك، موفداً بعثة أزهرية إلى البوسنة لشدّ أزر المجاهدين، وحثهم على عدم التنازل عن شبر واحد من بلادهم ومن ورائهم جميع المسلمين في جنبات الأرض.

وفي أزمة الشيشان أرسل وفداً للأزهر لزيارة زعماء الجمهوريات الإسلامية بما يعرف بالاتحاد السوفيتي من قبل، كي يجمعوا الكلمة جميعاً على مساندة المجاهدين، ونجح في الدعوة إلى تأسيس جامعة إسلامية مصرية هناك، معلناً مضاعفة منح الدارسين للطلاب المسلمين في الأزهر بمعاهدته وجامعاته! أمّا في مآسي العروبة فقد نادى بتحريم زيارة إسرائيل حتى ينتهي العدوان اليهودي على كافة الأراضي العربية، مواجهاً حملات شرسة من أنصار التطبيع؛ ورفض أن يستقبل رئيس الدولة الصهيونية، حين جاء إلى مصر معلناً صداقته الجديدة، وقال في

تصريح سافر: «إنّ الصداقة صداقة أعمال لا أقوال». وحين أصدر الكونجرس الأمريكي قراره بنقل السفارة الأمريكية إلى القدس أصدر بياناً صرّح فيه بأن أمريكا الصهيونية قد كشفت عن وجهها الحقيقي، وأنّ الأمريكيين لا يدعون إلى السلام العادل، بل لنصرة فريق معتدٍ على فريق مظلوم، وحثّ جامعة الأزهر على تنظيم ندوة خاصة بالقدس تفضح فيها مزاعم إسرائيل!.

هذا في الخارج الخاص بالوطن الإسلامي الكبير، أما في الداخل الخاص بمصر، فقد كان حرباً على الآراء المنحرفة في الدين، هاجم ما يسمّى بمؤتمر الإسكان مهاجمة ضارية أبطلت قراراته، وفضح ما يسمّى بمؤتمر المرأة في (بكين) حين خرج على حدود الله فيما قرّر من فضائح، محدّراً المسلمين من أتباع آراء التهنّك والانحلال، وحارب من يفتاتون على ختان المرأة، فأعلن أنه سنّة في الإسلام بدليل فقهي قرّره في بحث جريء؛ وثبت أمام فتاوى الرّبا الخادعة، وأعلن زيفها؛ كما حارب تحديد النسل، وأعلن أن المشكلة ليست مشكلة فقر، ولكنها سوء استغلال لموارد البلاد؛ أمّا المعاهد الدينية الأزهرية فقد أنشأها في كل ربوع البلاد حتى ارتفع عددها في عهده إلى خمسة آلاف معهد أزهرى، بعد أن كانت قبل توليته المشيخة الأزهرية أقلّ من ألف، وحين أصاب الزلزال أكثر من ألف معهد، نادى بالتبرّع لإنقاذ ما تهدّم من هذه المعاهد، وزار عواصم الأقاليم، حتى استطاع بالجهود الذاتية أن يعوّض ما قصّرت فيه الدولة من الإسراع في الترميم والتشييد؛ أما جهاده مع الصحف المنحرفة ذات الطابع العلماني، فكان لا يفتّر ولا يهدأ، وقد تعاونت هذه الصحف المنحرفة في الهجوم عليه مفترية كاذبة، ولكنّ الشعب من ورائه يرجم كل آفك بالتهكّم والازدراء؛ ولن أطيل في سرد هذه المآثر الرائعة، لأنّ كافة المتصلّين به، والواقفين على جهوده، يعلمون أن الرجل الكبير قد عاش مجيداً، ومات كريماً، حيث ودّع حين رحيله بما لا يُعهد من مظاهر الاحتفاء والتكريم.

أما جهاده الفقهي الذي خصّصته بهذا البحث؛ فيدلّ عليه ما تركه من المجلدات العلمية الخاصة بالفتوى الفقهية، إذ كان المرجع الأوّل للمسلمين في إيضاح رأي الشريعة في معضلات العصر، وقد نشرت دار الإفتاء للإمام الأكبر ثلاثة مجلدات، تقع في ثلاث وتسعين وألف من الصفحات، تسجل ما أصدره المفتي الأكبر أثناء

تولّيه منصبه في مدة لا تزيد عن ثلاث سنوات وأربعة أشهر، كما نشرت الأمانة العامة للجنة الدعوة الإسلامية أربعة مجلدات كبيرة تقع في أكثر من ثلاثة آلاف صفحة تسجل فتاوى الإمام في مدة مشيخته السعيدة بالأزهر، ومن يعرف صبر الإمام، وبُعد غوصه العلمي، وسعة اطلاعه على التراث الفقهي في شتى عصوره؛ يعرف قيمة ما أصدر من الآراء الصائبة في هذا الحقل الكبير.

وقبل أن أشير إلى الخطوط البارزة في اتجاهه التشريعي، أشير إلى موقف فقهي يتعلّق بي، فقد طلبت مني مجلة (طبيبك الخاص) مقالاً عن الحكم الفقهي في ختان البنات، وكنتُ من كتاب هذه المجلة - حيناً من الزمن - ولكنني لست بالفقيه الذي يصدر الرأي من ثقة مطمئنة، فرأيت أن أرجع إلى فتاوى ذوي الاختصاص، وطالعتُ ما كتبه الإمام الأكبر الشيخ محمود شلتوت، والمفتي الأكبر الشيخ حسنين محمد مخلوف، ولجنة الفتوى بالأزهر الشريف، وقد انتهوا جميعاً إلى رأي مقارب عبّرت عنه لجنة الفتوى بقولها^(١):

«إن الإسلام لم يوجب على أهله الاختتان إيجاباً، كما هو مذهب الإمامين أبي حنيفة ومالك، ولم يجعله شرطاً للإسلام، فهو في نظرهما سنة للرجال إن شأؤوا أخذوا به تصوناً وتطهراً، وإن شأؤوا تركوه، أما النساء فلم يصل إلى درجة السنة في مذهب الإمامين السابقين، ولكنه عندهما كرامة لهنّ فقط، لذلك نجد أكثر المسلمين لا يختنون نساءهم، فالأتراك كافة والمغاربة والإيرانيون والهنود وغيرهم لا يعملون بهذه العادة فيما يتعلق بنسائهم».

كما عبر عنه الأستاذ حسنين مخلوف في فتواه الصادرة من دار الإفتاء بمصر شعبان سنة ١٣٦٨ هـ، حيث قال بعد أن أشار إلى عدة مذاهب:

«فتلخص من ذلك أن أكثر أهل العلم على أن الخفاض (ختان الأنثى) ليس واجباً، وهو قول الحنفية والمالكية والحنابلة، ومروي عن بعض أصحاب الشافعي، فلا يوجب تركه الإثم، وأن ختان الذكر واجب، وهو شعار المسلمين، ومن ملّة إبراهيم عليه السلام، وهو مذهب الشافعية والحنابلة، ومن هذا يُعلم أنه لا إثم في ترك خفض البنات، كما درج عليه كثير من الأمم بالنسبة لهن».

(١) مجلة الأزهر، المجلد السابع، ص ٣٤٩.

ولم يكذ مقالي يظهرُ في مجلة (طبيبك الخاص) حتى كتب إليّ الأستاذ الكبير محمد سعيد العامودي رئيس تحرير مجلة رابطة العالم الإسلامي بمكة، يعلنُ أنه قرأ المقال، ولم يسترخ لقراره النهائي، ويتمنى أن أرجعَ إلى فتوى الإمام الأكبر الشيخ جاد الحق علي جاد الحق في هذا المجال.

قلت متعجباً: أليكون للإمام الأكبر رأيٌ في الختان وأغفل عن قراءته؟! وسارعتُ إلى مجموعةِ دار الإفتاء الخاصة بفتاويه، فوجدتُ طلبتي بالمجلد التاسع^(١)، حيث أجاب فضيلته عن سؤال خاص بالختان، فبدأ بالحديث عن الفطرة وأن الختان منها، معدداً أقوال العلماء في معناها، ومنتهاً إلى ما استصوبه الإمام النووي من أن معناها السنة، ثم نقل نصاً وافياً لابن القيم في (تحفة المودود) يسردُ أقوال العلماء في الختان من أمثال الشعبي وربيعه والأوزاعي، ومالك والشافعي وأحمد، والحسن البصري وأبي حنيفة، وعقب على هذه الأقوال بذكر خلاصتها، وهي اتفاق الفقهاء على أن الختان في حق الرجال والخفاض في حق النساء مشروعٌ، ثم انتقل إلى استدلال الفقهاء على خفاض النساء بحديث أم عطية التي كانت تختنُ بالمدينة، وقد قال لها الرسول ﷺ: «لا تنهكي، فإن ذلك أحظى للزوج، وأسرى للوجه» وبحديث آخر عن أم حبيبة، وقد عُرفت بختان الجواري، ينحو منحى الحديث السابق، وثلث بحديث لأبي هريرة، ثم قال الشيخ:

«وهذا التوجيه النبوي إنما هو لضبط ميزان الحسّ الجنسي عند الفتاة، فأمر بخفض الجزء الذي يعلو مخرج البول، لضبط الاشتهااء، والإبقاء على لذات النساء، واستمتاعهن مع أزواجهن، ونهى عن إبادة مصدر هذا الحسّ واستئصاله، وبذلك يكون الاعتدال، فلم يُعَدِّم المرأة مصدر الاستمتاع والاستجابة، ولم يُبقها دون خفض فيدفعها إلى الاستهتار، وعدم القدرة على التحكُّم في نفسها عند الإثارة». ثم انتهى بعد حديث جيّد إلى قوله:

«وإذاً قد استبان مما تقدّم أن ختان البنات المسؤول عنه، من فطرة الإسلام، وطريقته على الوجه الذي بيّنه رسول الله ﷺ، فإنه لا يصح أن يُترك توجيهه وتعليمه إلى قول غيره، ولو كان طبيياً، لأن الطب علم، والعلم متطور، تتحرك نظرتُه

(١) الفتاوى الإسلامية، الجزء التاسع، ص ٣١٢٣.

ونظرياته دائماً، ولذلك نجد أن قول الأطباء في هذا الأمر مختلف، فمنهم من يرى ترك ختان النساء، وآخرون يرون ختانهن، لأن هذا يهذب كثيراً من إثارة الجنس، لا سيما في سن المراهقة التي هي أخطر مراحل الفتاة.

هذا ما قاله الأطباء المؤيدون لختان النساء، وأضافوا أن الفتاة التي تعرض عن الختان تنشأ من صغرها، وفي مراهقتها حادة المزاج، سيئة الطبع، وهذا أمرٌ يصوره لنا ما صرنا إليه في عصرنا من تداخل وتزاحم، بل وتلاحم بين الرجال والنساء في مجالات الملاصقة والزحام، التي لا تخفى على أحد، فلو لم تقم الفتاة بالختان لتعرضت لمثيرات عديدة تؤدي بها - مع موجبات أخرى تزخر بها حياة العصر وانكماش الضوابط فيه - إلى الانحراف والفساد.

هذا لباب الفتوى، وهي تحرص على ختان الفتاة، ولا تهوّن من شأنه، وحين وقفت عليها بعد كتابة مقالتي السالف، رأيت أن أضيف ما قاله الإمام الأكبر إليه، حين نشرته بالجزء الثاني من كتابي (من منطلق إسلامي)^(١) وقلت: إنها وجهة نظر أحترمها. وزدت على ذلك بأن قلت: «إذا كان الواقع الاجتماعي لدينا بهذه الصورة الأليمة التي أشار إليها الإمام الأكبر، فليس الختان وحده هو الذي يُصحح هذا الوضع الأليم، بل التربية الإسلامية التي تنشأ في البيت والمدرسة هي الحاجز الواقعي قبل كل شيء».

ولعل القارئ من خلال هذا العرض المقتضب جداً لفتوى الإمام الأكبر، يلحظ طريقتيه في الفتوى، إذ يقدم النصوص الدالة من الكتاب والسنة، ثم يعرض ما يعلمه من أقوال الأئمة في التراث الإسلامي، وينتهي إلى ترجيح ما يراه بأدلة فقهية من اطلاعه، وأخرى من مشاهداته في المجتمع، وهذا الحرص المتأني على ذكر الأقوال المختلفة لكبار الفقهاء قد يؤدي إلى الإطالة، بالنظر إلى الفتاوى الأخرى لبعض النظراء، ولكنها إطالة يتطلبها المقام، وتؤدي بالقارئ الدارس إلى الإلمام بما يحيط الموضوع من وجهات شتى، فإذا أثر الإمام حكماً على غيره كان للدارس من قرائه أن يزن أدلته وزناً محايداً، لذلك أعدت من مميزات الفتوى لدى الإمام الأكبر هذه الإحاطة الشاملة دون نقص، وهذا الإسهاب الوافي دون اكتناز.

(١) من منطلق إسلامي: ٢٥/٢، للدكتور محمد رجب البيومي.

وأذكر بهذه المناسبة أن الإمام محمد عبده رحمه الله، كان يهتدي إلى الرأي الفقهي في فتواه في ضوء ما يعلم دون أن يهتم بنصوص الفقهاء، وقد لاحظ الأستاذ عبد المجيد سليم هذه الناحية فيما أُثِرَ من فتاوى الأستاذ الإمام، فقال بصدد ذلك^(١):

«إن الناحية التي تجلّت فيها مواهب الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده هي إدراكه الصحيح لمعاني القرآن الكريم، وفهمه الدقيق لأغراضه، مع بصرٍ عظيم بأحوال الناس وعبر التاريخ، وكان رضي الله عنه يعتمدُ في فتاواه على إدراك روح الشريعة، وتبيين أغراضها العامة، لا على مناقشة المذاهب، وترجيح أقوال الفقهاء، ولذلك تأتي فتاواه غالباً مختصرة، وقد تُثير خِلَافاً بين أهل العلم، ومن أمثلة ذلك أنه أفتى فتواه المشهورة بجواز لبس البرنيطة، فقامت من أجلها ضجة هائلة بين العلماء وأهل الأزهر يومئذ، فلما أردتُ أن أفتي في هذا الموضوع انتفعتُ بموضع العبرة فيه، فأخرجتُ فتاوي التي تُجيز لبس البرنيطة إخراجاً فقهياً مؤيداً بقول العلماء، جارياً على طريقتهم في الاستدلال والترجيح، وبذلك لم يستطع أحدٌ أن يشغب على هذه الفتوى، أو يثير في شأنها جدالاً».

والذي يقرأ فتاوى الإمام الأكبر - ولا يدري أنّه حنفي المذهب - لا يشعر إطلاقاً بأنه حنفي، لأنّ مراجعته في الفتوى الواحدة تشملُ مذاهب الأئمة جميعاً، لا أئمة أهل السنة وحدهم من الحنفية والشافعية والمالكية والحنابلة، بل من جميع أئمة الفقه؛ ظاهرية وأباضية وزيدية وإمامية، ومن لا أحصي، وقد أدهشني أن أرى أسماء مؤلفات لم أعهدّها من قبل على طول عهدي بقراءة الفهارس المكتبية في التراث الفقهي، وأقول: «الفهارس» مقتصرأ عليها، كيلا أدعي ما ليس لي، وقد عهدنا في بعض الكبار بُعداً عن الاستشهاد بآراء من دونهم من التلاميذ، ولكن الإمام الأكبر يشيّد بما يراه صحيحاً ويدلّ عليه ويعده من مراجعته، وهو تواضعٌ حميد، يضربُ المثل الحيّ لمن يُريد أن يبحث عن الحق حيثُ وجده، وألحُ على تأكيد هذا المعنى لأنّي أعلم من الكبار من يأنف أن يُشير إلى من لا يراهم في مستواه، وقد حفظنا من قضايا الدراسة الأزهرية قول أساتذتنا: «ليس في العلم كبير». وفي مجال ما صدرَ من كتب الفتاوى الفقهية رأيتُ الشيخ الأكبر قد استوعبها استيعاباً في شتّى

(١) مجلة الرسالة، العدد ١٤٤٩، ٩ فبراير، سنة ١٩٤٢.

مذاهبها قديمة ومعاصرة، ولا أدري لماذا لم أجد أثراً للاستشهاد بفتاوى السيد محمد رشيد رضا، وقد صدرت عن لبنان في خمسة أجزاء كبار، بتحقيق الأستاذ صلاح الدين المنجد وزميل له، والسيد رشيد رضا من الرسوخ والنباهة بحيث لا يُجهل مكانه، والإمام الأكبر يرجع إلى تفسير المنار كثيراً، ولن يكون المفسر لآيات الأحكام غير فقيه مرموق! ومما يؤكد هذا الاطلاع الشامل لكتب التراث الفقهي المذهبي في شتى مصادره، أن الإمام الأكبر حين يتحدث عن قضية هامة في فتوى محدودة، يستند المستفتي فيها إلى بعض الأحاديث التي تكون موضع نظر، لا يكتفي بالحكم الفقهي وحده، بل يمتد إلى القواعد الأصولية، ليصل إلى مبتغاه، وقد روى الظمأ وشفى الغليل، ففي السؤال الخاص^(١) بظاهرة الصرع ودخول الجن جسد الإنس، واستناد بعض القائلين إلى خبر الآحاد في هذه العلاقة المشار إليها بين الجن والإنس، نقل المفتي الأكبر ما يردده أصحاب هذه الاتجاهات من أحاديث الآحاد، ورأى من جوهر الفتوى أن يتحدث بإشباع عن محل العمل والاحتجاج بخبر الآحاد ناقلاً عن البزدوي والنووي والغزالي، ومُشيراً إلى مراجع أخرى للشوكاني والسرخسي والتفتازاني والآمدي وابن حزم، لينتهي إلى تأكيد ما تقرّر من أن أحاديث الآحاد ليست حجة في باب الاعتقاد، لأنها توجب الظن لا العلم القطعي! هذا البحث الجاد عن أحاديث الآحاد في ظلال فتوى فقهية خاصة بالجن يصلح أن يكون بحثاً مستقلاً إذا استوفى بعض ما اجتراه الأستاذ الأكبر من النصوص الفقهية لأعلام الشريعة، ولذلك دلالة الباهرة في حرصه الأكيد على استيفاء البحث الفقهي، وإنارة ما قد يلوح في الأفق من شبهات . . .

- ٢ -

قرأت قديماً للدكتور أحمد أمين مقالاً بالجزء الثالث من (فيض الخاطر)^(٢) تحت عنوان (مصدر تاريخي مهمل) عرض فيه إلى تحليل كتاب فقهي تحت عنوان (الفتاوى الحديثة) لابن حجر الهيتمي المتوفى سنة ٩٧٤هـ، وقد قال الكاتب: «إن أكثر كتب التاريخ تركز على الملوك والرؤساء، أما الشعب نفسه فلننا نعرف حاله

(١) بحوث وفتاوى فقهية، للإمام الأكبر: ١ / ٤٨ وما يليها من الصفحات.

(٢) فيض الخاطر: ٩٣/٣، ط ٥، سنة ١٩٥٨م.

إلا من ثنايا الكلام ومما يذكر عرضاً، فإذا كان هذا المصدر يُعنى بشرح الحالة الاجتماعية للعصر فلا شك أن يكون مصدراً لا يصحُ إغفاله، تلك هي كتبُ الفتاوى في الفقه وما أكثرها».

ذكرتُ هذا المقال حين طالعتُ هذه الأيام ما كتبه الإمام الأكبر جاد الحق علي جاد الحق في موسوعة فتاويه الجامعة، إذ أنها لا تقفُ عند تصوير الحالة الاجتماعية فقط، تلك التي أشار إليها الدكتور أحمد أمين، بل تشملُ نواحي كثيرة؛ من سياسية واقتصادية وتاريخية وغيرها، ويزيدُ في قيمتها ما ذكره الدكتور أحمد أمين من أن مؤلف هذه الفتاوى الفقهية «عادة ما يكون من أكبر رجال عصره فقهاً وعلماً ومركزاً، حتى تتجه إليه الأنظار بحكم مركزه العلمي أو منصبه الرسمي» وهذا ما ينطبق على الإمام الأكبر دون محاباة.

وسأعرض إلى أمثلة من الفتاوى التي تشير إلى المناحي السالفة، لنرى كيف أرضتُ هذه الآراء الفقهية رغبات العصر، وأنارت الطريق لذويه من ناحية، وكيف صارت مصدراً تاريخياً يجب أن يرجع إليه من يتحدثون عن الأحوال العامة في مصر، بل في أكثر بقاع العالم الإسلامي في العصر الحديث؛ لأنَّ الأسئلة التي أجاب عنها الإمام الأكبر لم تقفُ عند مصر وحدها، ولا عند العالم العربي وحده، بل اتسعتُ إلى آفاقٍ رحبية في العالم الإسلامي، وهكذا كانت فتاوى أئمة الإسلام في مصر؛ من أمثال محمد عبده ومحمد بخيت المطيعي، وعبد المجيد سليم ومحمود شلتوت، إذ كانوا مصدر إشعاع منير، وقبله الأنظار في العالم الفسيح.

نختارُ - في الناحية الاجتماعية - مثلاً من فتوى الإمام الأكبر في الإجهاض، حيث أجاب عن سؤال سائل - طبيب - يذكر أن هناك عيوباً وراثية، بعضها عيوبٌ خطيرة لا تتلاءمُ مع الحياة العادية، وقد أصبحَ من الممكن الآن اكتشافُ هذه العيوب بطرقٍ علمية صحيحة، لا يتطرق إليها الشك قبل الولادة وأثناء فترة الحمل، وهذه العيوب تُعالج في الخارج بالإجهاض، ويريدُ السائل أن يَعرف ما هو حكمُ الشرع الإسلامي في هذه الحالات.

وقد أجاب الإمام الأكبر عن هذا السؤال إجابةً مبسوبة شافيةً وافية، فبدأ بالتعريف اللغوي لمادة الإجهاض، وثنى بالتعريف الاصطلاحي عند الفقهاء، ثمَّ انتقل إلى حكم الإجهاض عند أئمة الفقه في شتى مذاهبه، فذكر فقهاء المذهب

الحنفي وما اتجهوا إليه من إباحة إسقاط الحمل قبل أربعة أشهر وإن لم يأذن الزوج، ولم ينسَ أن يذكر قولَ بعض فقهاء المذهب أنه يكره وإن لم يتخلَّق، لأنَّ الماء بعد وقوعه في الرحم مألّه إلى الحياة، وخلُص إلى مذهب مالك فذكر أن فقهاء يرون عدم الجواز لخروج المنّي المتكوّن في الرحم، ولو قبل الأربعين، وإذا نُفخ فيه الروح حَرَم إجماعاً، ومعنى هذا أنه ليس عند المالكية قولٌ بإباحته وإخراج الجنين قبلَ نفخ الروح فيه وبعده بالأولى، كما نصَّ ابنُ رشد على أنَّ مالكاً استحسن في إسقاط الجنين الكفارة، ولم يُوجبها لتردُّه بين العمد والخطأ، أما الشافعية فقد اختلف علماء المذهب في التَسبّب في إسقاط الحمل الذي لم تنفخ فيه الروح على قولين؛ فقد قيل: لا يثبتُ له حكم السَّقَط، وقيل: له حرمةٌ ولا يباح إفسادها، أما في حالة نفخ الروح فما بعدها فلا شك في التحريم، ولدى الحنابلة أنّه يباح للمرأة إلقاء النطفة قبل أربعين يوماً بدواء مباح، وكذلك اتجه فقهاء المذهب الظاهري فيما نقله الإمام عن المحلّي لابن حزم، وفقهاء الزيدية والشيعة الإمامية والأباضية، وبعد أن عرض هذه الآراء بادر بتلخيصها في دقة ووضوح.

هذا عن الإجهاض قبل نفخ الروح، أمّا بعد النفخ ومضي أربعة أشهر، فقد ذكر الشيخ الأكبر ما يدلّ على أن فقهاء المذاهب جميعاً يجمعون على أن إسقاط الجنين دون عذر بعد نفخ الروح فيه محظورٌ، وتجبُ فيه عقوبة جنائية، وذكر في الهامش أحد عشر مرجعاً لأقوال فقهاء هذه المذاهب موقّعةً بالصفحة والجزء، ليستطيع المعقّب أن يرجع إليها دون عناء، وهذه دقّة تُحمد وتُسْتَطاب، وفصّل في القول بما لا يتحمّله هذا البحث المركز، ثم قال: «أما إذا قامت ضرورة تحتم الإجهاض كما إذا كانت المرأة عسرة الولادة، ورأى الأطباء المختصّون أن بقاء الحمل في بطنها ضارّ بها، فعندئذٍ يجوز الإجهاض، بل يجب إذا توقّفت عليه حياة الأم عملاً بقاعدة ارتكاب أخفّ الضررين وأهون الشرّين». وهذا ما ارتآه الشيخ في حكمه الختامي.

ثم انتقل الإمام إلى نقطة أخرى، هي الحديث عن حكم الإسلام في وراثته الأمراض والصفات والطباع، فقال: «إن هذه الوراثة مقطوعٌ بها، وكشف العلم عنها يؤكّد قول الرسول: «تخيّروا لنطفكم» كما يشير إليها ما دار من حوار بين رسول الله ومن ذكر له أن امرأته جاءت بغلام أسود، فقال له النبي ﷺ: هل لك من إبل؟ فقال: نعم، قال: ما ألوانها؟ قال: حُمَر، قال: فهل فيها من أورك؟ قال: نعم، قال: أتى

ترى ذلك؟ فقال: أراه نزع عرق فقال: فلعل هذا نزع عرق!« .

ثم تابع ما يؤكد ثبوت الأثر الوراثي بأقوال الشوكاني في نيل الأوطار. وللشافعي، ولابن حجر الهيتمي وغيرهم، ليتساءل بعد ذلك: هل يجوز الإجهاض؟ بمعنى إسقاط الجنين إذا اكتشفت عيوبه الخطيرة التي لا تلائم الحياة العادية؟ ولم يجزم بالجواب قبل أن يعرض في امتداد رُحْب آراء الأئمة في التعقيم وإجماعهم على حرمة إن لم تدع له الضرورة، أما إذا دعت لوجود مرض عقلي أو جسدي أو نفسي عصي على العلاج؛ فيجوز لمن تأكدت حالته المرضية بالطرق العلمية والتجريبية أن يلجأ إلى التعقيم الموقوت، لدفع الضرر القائم فعلاً، المتيقن حدوثه إذا لم يتم التعقيم، هكذا قرر الإمام الأكبر مستنداً إلى آراء كبار الفقهاء من أمثال ابن عابدين في حاشيته على الدر المختار، والبجيرمي في حاشيته على الخطيب، والشبراملسي في نهاية المحتاج، والرملي نقلاً عن الزركشي، والقرطبي في كتابه الجامع لأحكام القرآن، ويطول القول إذا تتبعنا ما جاء في الفتوى من مصادر كانت ركيزة الحكم النهائي الذي قرره المفتي الأكبر بإشباع وإمتاع.

ولعل القارئ على ذكر مما قلته من قبل عن الاتجاهين المختلفين في إصدار الفتوى عند الإمام محمد عبده، والشيخ عبد المجيد سليم؛ حيث يعتمد الثاني على النصوص الفقهية، ويعتمد الأول على الروح العام للتشريع، لأن ذلك يمثل في هذه القضية وفي غيرها اتجاهين مختلفين للفقهاء الكبارين الإمامين محمود شلتوت، وجاد الحق علي جاد الحق، حيث تعرض الأول للإجابة عن حكم الإجهاض، فحرر المراد^(١) في صفحات ثلاث بعيداً عن النصوص الفقهية، ومنتهاً إلى الحكم بالإباحة قبل النفخ والتحريم بعده إلا لضرورة، مؤكداً التقاء النظرتين الطبية والشرعية في سبيل واحد، ولست أعني أن الإمام الأكبر محمود شلتوت لم يعرف أكثر هذه النصوص فمكانته الفقهية أعرق من أن يحوم حولها حائماً، ولكنني في مجال الاختيار أوثرت الاتجاه المؤكد بالنصوص، والنظر الشامل إلى المحيط الفسيح في التراث الفقهي، لأن في دراسة الآراء المتماثلة والمتعارضة معاً لدى فقهاء الشريعة في مذاهبهم المختلفة لذة نفسية يدرکها أهل النظر، فوق جدواها الراسخة في الإقناع والإلزام.

(١) الفتاوى، للإمام محمود شلتوت، الطبعة الرابعة عشرة، ص ٢٨٩ وما بعدها.

ومن المسائل الاجتماعية الهامة التي دار حولها الجدل في الصحف، واندفع بعض من يتزَيون بأزياء العلماء إلى القول المشتطّ دون دليل ما عُرف بمسألة تنظيم النسل، حيث كثر اللجاج في الصحف، وظهرت أسماء تدّعي المعرفة بأصول علم الاجتماع وقواعد التربية ومسائل الاقتصاد، لتقرّر وجوب إصدار قانون يفرض التنظيم، ولم يشأ الإمام الأكبر أن يسكت عن هذا اللغو، فقال في فتواه الواضحة بعد أن عرض أقوال الأثبات من الفقهاء كدأبه فيما يصدر من تحقيق، قال^(١): «إنّ هذا الذي قرّره الفقهاء من جواز تنظيم النسل بمنع الحمل فترة مؤقتة أخذاً من جواز العزل إنما أباحوه بشرط موافقة الزوجين، فلا ينفرد أحدهما مستبدّاً بالرأي، وإذا كان هذا هو الأساس فإن القانون لا يصلح أداة في هذا الموضع، لأن الإرادة لا يتحكّم فيها القانون، إذ أنّ لكل فرد ظروفه التي يقدرها وعليه أن يحسن التقدير».

ثم انتقل إلى مسألة التعقيم لمنع الحمل فقال: «يحرّم التعقيم لأي واحد من الزوجين أو كليهما إذا كان يترتب عليه عدمّ الصلاحية للإنجاب مستقبلاً. سواء كان التعقيم القاطع للإنجاب بدوياً أو جراحية، إلا إذا كان الزوجان أو أحدهما مصاباً بمرض موروث، أو ينتقل بالوراثة مضرّاً بالأمة، حيث ينتقل بالعدوى، وتصبح ذريتهما مريضة لا يستفاد بها، بل تكون ثقلًا على المجتمع سيما بعد أن تقدّم العلم، وثبت انتقال بعض الأمراض بالوراثة، فمتى تأكد ذلك جاز تعقيم المريض بل يجب دفعاً للضرر».

ونكتفي في الفتاوى الاجتماعية بهذين الشاهدين، لنلّم بما يمثل المنحى السياسي فنقول: إنّ سيطرة بعض ما يُسمّون بالعلمانيين على منافذ الصحافة الجهرية من يومية وأسبوعية، لم تُتَح الفرصة للإمام الأكبر أن يُظهر كلّ ما يقرّره، فقد يصدر المقال العلمي، أو البحث الفقهي، أو الحديث التاريخي لمناسبة دينية، فيجد من يبتريه بترأ، بل من يُحاول أن يشوّه تشويهاً مقصوداً لإخفاء ما يراه منافياً لأهوائه، ومن العجب أن الجرائد التي تملأ ثلاث صحفٍ يومية بأخبار الرياضة، وصحيفة وصحيفتين لأخبار الفن، تضيقُ بحديث الإمام فتوجزه في عمود، يظهر في مرأى عمودين، لتخدع القارئ، لذلك لا يعلم الجمهور - أو لا يكاد يعلم - شيئاً من آراء الإمام فيما يدور من الأحداث، بل يجد المهاجمة الحادة من صحف تدّعي أنها

(١) الفتاوى الإسلامية (دار الإفتاء) المجلد التاسع ص ٣٠٩٠، ٣٠٩١.

تحمل راية (التنوير) باطلاً دون حق، لأن التنوير في صميمه رجوع إلى نور الإسلام الذي قال الله عنه في كتابه: ﴿قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ ۝ يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [المائد: ١٥-١٦]، هذا هو النور الحقيقي، ومنه يشتق التنوير في مفهومه الإيماني الصريح، وماذا بعد الحق إلا الضلال...

ونكتفي بمثالين - في الاتجاه السياسي - مما كتبه الفقيه الإمام، لا باعتباره مفتياً، بل باعتباره فقيهاً كبيراً يتحدث عن معاضل العصر وموبقاته، فقد قال كلمته المنصفة عن التطرف الديني وأبعاده سياسياً وأمنياً واجتماعياً، فكان العالم المتزن، والفقيه الدقيق، ذا البصر الممتد إلى شتى الزوايا والمنعرجات، فقد أرجع سموم التطرف إلى الثقافة الوافدة، التي نكتفي بشرّها في ميدان اللغو الزائف، ونجانبُ خيرها في دنيا الاكتشاف العلمي والتوثب الصناعي، فمهّد لحديثه بكلمة عن سياسة الغرب في تعامله مع الشعوب النامية، وقال في صراحة^(١): «لقد نادى الغربيون بحقوق الإنسان وحقوق الفرد والحرية، ووضعوها في مصطلحاتٍ معلنة؛ هي حرية التمتع بالحياة وحرية الملكية، وحرية الفكر والاجتماع وحرية القول والعقيدة، وجرى التصوّر لدى البعض بأن الغرب مقتنعٌ بهذه الشعارات، ولكنّ الواقع العملي شاهدٌ على أن الغرب يحتفظ لنفسه بحق السيادة والتوجيه للشعوب الأخرى في أفريقيا وآسيا، وحرمانها من حريتها في تصريف شؤونها».

ثم قال الإمام الأكبر ما ملخصه: «إن مصر قد تعرضت لتيارين مختلفين، تيار يدعو إلى التجديد في كل شيء، بحيث تحذو حذو الغرب في الثقافة والأدب والاجتماع والرأي الديني أيضاً، وتيارٌ يتشبّث بقيم المجتمع وتقاليده وآدابه، وقد انتصر الاتجاه الأول، وبدا التغيير في مصر في كثير من المجالات الثقافية والدينية والاجتماعية، فانزوت الشخصية الإسلامية العربية في الثقافة والتعليم، وصار للمتغربين اليد الطولى في التخطيط والتنظيم، ثم كانت التغييرات الواسعة في مجالات الأسرة والتعليم والثقافة والتربية والقضاء والتعليم الديني! لقد تواقبت هذه العوامل وتشابكت، وأنتجت شعوراً بعدم الرضا المكتوم في الصدور لدى قطاعات

(١) التطرف الديني وأبعاده، للإمام الأكبر (ملحق مجلة الأزهر) ص ٨ وما بعدها.

كبيرة من الناس، ومما زاد من حدة الأمر أن هذه القطاعات لم تكن لتجد الفرصة للتعبير عن رأيها فيما تراه من المتناقضات، وما تريده من إصلاح؛ وعلى الجانب الآخر، فإن فئات أخرى مُكِنَّتْ من زمام الإعلام والفن، وأخذت تعمل على تغيير الفكر الاجتماعي والتقاليد المصرية، بما لا يتفق أحياناً مع عقيدة هذا المجتمع، مما أوقع المواطن في حيرة بين ما يؤمن به وبين ما يعيشه كرهاً، ثم فشَّتْ في العشرين سنة الأخيرة ظاهرة التحلُّل الأخلاقي بين الشباب، ولم تلتفت إليها - مع ظهورها - الأجهزة المعنية، ولم تنهض لمكافحتها إلى أن دَوَّتْ طلقات التطرف».

ثم قال الإمام بعد أن حدّد تيارين متقابلين، تيار الغلو في الدين وتيار التحلُّل من الدين ومن القيم الأخلاقية، ما ملخصه:

«لابد من مواجهة الظاهرتين معاً، فلا بد من كشف المفهوم الصحيح للتدين حتى يكون هذا المفهوم في صفائه ونقاؤه مصدر جذب لكلا التيارين، ومصيحاً لمسيرتيهما في الحياة! لقد استشرى الانحلال بين قطاعات كبيرة من الشباب، وفقدت الأسرة سيطرتها، وانعدم دور المجتمع والمدرسة، وزاد الأمر حدة ما تمارسه بعض وسائل الإعلام وما ترسخه من قيم غريبة عن المجتمع، لا سيما الأفلام والشرائط التي يُساء اختيارها، وتُقدّم عن طريق السينما والتلفزيون، ولم تعد الصحافة كذلك تلتفت إلى أمانة الكلمة، ولكن تلتفت إلى الخبيث من المثل، وقد أفرغت الحرية من مفهومها الصحيح، حتى صارت الدعوة إلى الفساد حرة، وصار الطعن في الإسلام وصلاحيته حرة، ثم صارت المسارعة إلى توزيع الاتهامات على الناس أسبق من نتائج التحقيق التي تقوم بها الجهات المختصة! هذه الجولة بين آفاق التطرف والإرهاب أوضحت أنه لا ينبغي التركيز على ما يُسمى بالتطرف الديني فحسب، وإنما يلزم دراسة التطرف الفكري بوجه عام!».

هذا منطق الحق، صدع به الرجل عن دراسة مطمئنة، ووعي بما يختلط في المجتمع من تيارات، أظهرها صوتاً ما تقذف به الصحف وأدوات الإعلام من جرائم ذات إبادة واستئصال.

ولم يقصر الإمام نظره السياسي على مصر وحدها، بل كان له رأيه المسموع في أحداث الدول الإسلامية على اختلاف أقطارها، وقد كان صوته أجهر ضد المبطلين

الذين يدعون إلى تدويل إدارة الحرمين الشريفين، فبعد أن مهّد بحديث^(١) شاف عن قدسيّة الحرمين الشريفين في القرآن والسنة والفقه الإسلامي، تحدث عن سدانة البيت الحرام كما فصلت حديثها كتب التفسير والحديث والسير والتاريخ، منتقلاً إلى لباب الموضوع، وهو ما يشاع عن التدويل، فذكر أن فكرة التدويل فكرة حديثة في مفهوم الفقه القانوني الدولي، وهي نظامٌ استثنائي ابتدعته الدول الكبرى، وفشل تطبيقه عملياً، وقد اتخذت الجمعية العامة للأمم المتحدة توصيةً بتدويل منطقة القدس، وكان تعقيب فقهاء القانون عليها أنها لا تستند إلى أساس قانوني، وإذا فليس لهذا التنادي بالتدويل - على ضالة المنادين به - من سببٍ ولا سند في الإسلام!.

ثم تحدث عن مكانة الحرمين كما تقررت في كتب المذاهب، وخصّ كتب الإمامية بالاستشهاد ليردّ على من أثاروا الشغب من الإماميين في المسجد الحرام، يردّ عليهم من كتبهم المعتمدة لديهم، وهو اتجاه يقطع عليهم سبيل اللجاج، كما هو صريح في تحريم المسيرات السياسية ذات الشغب في موسم الحج، إذ لا جدال في الحج بنص القرآن الكريم..

وفي مجموعة الفتاوى للإمام الأكبر فتاوى سياسية أخرى عن الفريضة الغائبة، وأحداث الزاوية الحمراء، ومعاهدة الصلح بين مصر وإسرائيل، وكلها ذات منطق أصولي واضح، وذات استشهاد قوي بالنصوص الصريحة لأئمة التشريع في مختلف المذاهب الفقهية، مما يؤكد أنّ إمام المسلمين يعيش في مواجهة الأحداث عيش الراصد المتربص، وأنا أعرف جيداً أن كثيراً من آرائه التي دونها في حقبة الإفئاء ومشخة الأزهر الشريف لم يُنح لها الذبوع على النحو المنتظر، لأنّ أكثر المسيطرين على أدوات الإعلام يعتنقون ما يخالف الرأي الإسلامي، وهي ظلمةٌ داجية نرجو أن يبددها الضياء عن قريب.

منذ خضعت مصر للاستعمار البريطاني في أواخر القرن الماضي، ومعاملاتها الماليّة تتم في البنوك الأوروبيّة وفق الفائدة المحرّمة في الإسلام، لذلك أصبح حديث الربا موضوع مجاذبة جادة بين العلماء، وأذكر أنّ مؤتمراً خاصاً بمسألة الربا

(١) قداسة الحرمين الشريفين للإمام الأكبر (ملحق مجلة الأزهر) شعبان سنة ١٤٠٨هـ، ص ٣ وما بعدها.

عُقد في مدرسة عبد العزيز في ١٢ ربيع الأول سنة ١٣٢٦هـ، وألقى^(١) فيه الشيخ عبد العزيز جاويز كلمةً فقهيةً تنتهي إلى أن الربح المحرّم هو الذي يكون أضعافاً مضاعفةً، وليس ذا الفائدة القليلة، كما ألقى السيد محمد رشيد رضا كلمةً أخرى تتحدّث عن الواقع الفعليّ للبلاد الإسلامية المضطّرة إلى التعامل بالبنوك، وتنتهي إلى حكم الضرورة بإباحة الفائدة القليلة، وإذا كان المؤتمر قد انعقد في مطلع هذا القرن فإن صداه الفقهي أخذ يتردّد على ألسنة كثير من الباحثين، وقد حاول الأستاذ الإمام محمود شلتوت، والأستاذ عبد الوهاب خلاف السير في اتجاهه.

ونحن علم الله لاننكر جهد هؤلاء المُخلصين، فكُلّهم خيار من خيار، وقد صدّروا عن إخلاص لا يتطرّق إليه الشك، ولكننا نرى أن معارضيتهم من المتشدّدين أقوى حجّة، وأوضح طريقاً، والإمام الأكبر الشيخ جاد الحق في طليعة هؤلاء الملتزمين بالنصوص الصريحة، وقد ثبت بأرائه في وجوه العواصف العاتية، ولكنّه - في فتاويه الاقتصادية - أبان وجهة نظره بما لا يحتمل اللبس، وفي المجلد التاسع من الفتاوى الإسلامية التي صدرت عن دار الإفتاء ثلاث عشرة فتوى صريحة تحت عنوان (من أحكام التعامل مع البنوك) تتجه اتجاهها صريحاً نحو تحريم الفوائد المصرفية، وأرباح شهادات الاستثمار، وقد استغرقت ما بين ص ٣٣١ و ٣٣٥٨، ولا بدّ من اختيار ما يدلّ على فحواها من إفتاء الفقيه الكبير.

ففي الفتوى الخاصة باستثمار المال في أذون الخزانة وسندات التبعيّة، عرض المفتي الأكبر لتوضيح وجهة نظر المستفتين، وانتهى إلى قوله^(٢):

«ولما كانت أذون الخزانة وسندات التنمية التي تُصدرها الدولة بمعدل فائدة ثابتٍ من باب القروض بفائدة، وقد حرمت الشريعة الإسلامية القروض ذات الفائدة المحدّدة أيّاً كان المقرض والمقرض، لأنها من باب الربا المحرم شرعاً، بالكتاب والسنة والإجماع، فإن تحقيق رغبة المستثمرين وحرصهم على الكسب الشرعي الذي أحله الله يستلزم ألا تُستغلّ أموالهم إلى غير رغبتهم في هذه الأذون والسندات، وإنما تستغلّ في المشروعات غير الربوية كالمبيّنة بكتاب البنك، وحتى لا يخرج

(١) تراجع مجلة الأزهر، الجزء الثامن (شعبان سنة ١٣٨٠هـ) فيها بحث عن المؤتمر

وتلخيص لرأي الشيخ جاويز والشيخ رشيد، ابتداءً من ص ٨٣٢.

(٢) الفتاوى الإسلامية، الجزء التاسع ص ٣٣١٣.

البنك عن حدود وكالته لهؤلاء يتعيّن الالتزام بما رغبوا فيه» .

وفي الفتوى الخاصة بما تقوم به المنظمات التعاونية من مدّخرات للأعضاء في قروض ذات فائدة، بسط المفتي الأكبر قضية هذه المدّخرات على الوجه الفقهي الصريح، ليقول في نتيجة بحثه :

«إن الفائدة المحرّمة في الإسلام هي تلك التي سماها (الربا) وهو كلّ زيادة مالية في معاوضة مال بمال، بدون مقابل حقيقي، وتحريم الربا بهذا المعنى أمر مجمع عليه في كل الأديان السماوية، كما أخبرنا القرآن الكريم». والفتوى مستفيضة سابقة ملأت ثلاث عشرة صفحة فلا سبيل إلى تلخيصها، وتكفي الإشارة^(١) إليها، أمّا موقف الإمام من عائد شهادات الاستثمار فذائع مشتهر، وقد تناوله بالنقد من لا يعرف حرمة البحث الفقهي، ويقدر وجهة النظر المخالف، وبخاصة إذا كان صاحب هذه الوجهة أكبر فقيه ملتزم يتبوأ أكبر مركز علمي في العالم الإسلامي، وقد أحسّ الإمام الأكبر أن الجمهور في حاجة إلى الإيضاح الموجز كيلا يضيع تفكيره في عجاج النصوص، وتناطح النقول، فسرّد هذا القول الصريح الناطق بفحواه دون التباس^(٢) :

«إن الإسلام حرّم الربا بنوعيه، ربا الزيادة وربا النسبة، وهذا التحريم ثابت قطعاً بنص القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة، وبإجماع أئمة المسلمين، منذ صدر الإسلام حتى الآن، ولما كان الوصف القانوني لشهادات الاستثمار أنها قرض بفائدة، وكانت نصوص الشريعة في القرآن والسنة تقضي بأن الفائدة المحددة مقدّماً من باب ربا الزيادة المحرّم، فإن فوائد تلك الشهادات، وكذلك فوائد التوفير أو الإيداع بفائدة، تدخل في نطاق ربا الزيادة، ولا يحل الانتفاع بها، أما ما يقال بأن هذه الفائدة تعتبر مكافأة من ولي الأمر، فإنّ هذا النظر غير وارد، بالنسبة للشهادات ذات العائد المحدّد مقدّماً، لا سيما وقد وُصف بأنه فائدة بواقع كذا في المئة، وقد يجري هذا النظر في الشهادات ذات الجوائز دون الفوائد، وتدخل في نطاق الوعد بجائزة، الذي أجازه بعض الفقهاء. والله أعلم» .

وهكذا مضى الإمام في بقية الفتاوى المدونة تحت عنوان (من أحكام التعامل مع

(١) المجلد التاسع من الفتاوى ص ٣٣٢١ وما بعدها.

(٢) المجلد التاسع من الفتاوى ص ٣٣٣٦.

البنوك) وفي غير هذا العنوان من مجلدات الفتاوى الإسلامية أفتى الإمام الأكبر في شؤون اقتصادية تشغل ذهن المعاصر، وأتى فيها بما يراه الحق في ضوء ما اهتدى إليه من مقررات، ومنها فتواه في التأمين ضد الحرائق، حيث عرض وجهة نظر القانون المدني التي ترى مسؤولية المؤمن عن كافة الأضرار الناشئة عن حريق أو بداية حريق يمكن أن تصبح حريقاً كاملاً، والتأمين على ذلك يكون مقصوداً به تعويض المؤمن عليه من خسارة تلحق ذمته المالية بسبب الحريق.

هذه وجهة نظر القانون المدني، وقد عارضها الإمام^(١) بأن المعروف في الشريعة الغراء أنه لا يجب على أحد ضمان مالٍ لغيره بالمثل أو بالقيمة، إلا إذا كان قد استولى على هذا المال بغير حق، أو أضاعه على صاحبه أو أفسد عليه الانتفاع به بحرقه أو تمزيقه أو هدمه، ولا شيء من ذلك بمتحقق في التأمين ضد الحريق، وغيره من أنواع التأمين التجاري، حيث يقضي التعاقد أن تضمن الشركة لصاحب المال ما يهلك أو يتلف أو يضيع بحرق أو غرق أو بفعل اللصوص أو قطاع الطريق، كما أن المؤمن لا يعدّ كفيلاً بمعنى الكفالة الشرعية، وتضمن الأموال بالصورة التي يحملها عقد التأمين محفوفٌ بالغبن والحيف والغرر، ولا تقرّ الشريعة كسب المال بأي من هذه الطرق وأشباهها، لأنها لا تبيح أكل أموال الناس بغير الحق.

أما الفتوى الصارخة في وجه الظلم الصريح الذي عمّ وبأوه مصر، بشأن التعويض الجائر عن إخلاء الأراضي الزراعية، إذ يرى المستأجر أنه شريك المالك في أرضه، وبذلك يستحق نصف الثمن في سبيل الإخلاء، هذه الفتوى قد حسمت الموقف حسماً صريحاً حيث قرّرت^(٢) أن عقد الإجارة لا يستتبع ملكية العين المؤجرة، وأخذ نصف الثمن أمر محرّم، ويضبح إذا تمّ من أكل أموال الناس بالباطل المنهي عنه بقول الله عز وجل ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ إِلَّا أَنْ تَكُونَتْ بِحْكْرَةً عَنْ تَرَاضٍ مِّنْكُمْ﴾ [النساء: ٢٩] ويكون إثمه على المستأجر، إن لم يرض المالك رضاء تاماً بهذا التصرف! وأنا أقول: وهيئات أن يرضى!

وأختم ما يدور في فلك المسائل الاقتصادية بالفتوى الخاصة بالعزوبون جين

(١) المجلد العاشر من الفتاوى؛ ص ٣٤٤٧.
(٢) المجلد العاشر من الفتاوى الإسلامية؛ ص ٣٥٦٤.

لا تتم الصفقة، إذ دأب بعض المالكين على اعتبار ما قُدّم من المال عربوناً لا سبيل إلى رده إذا لم يتم البيع، وهذا غصبٌ دون حق، وفي سبيل توضيح الفتوى الحاسمة بسط الإمام الأكبر أقوال جمهور العلماء من أئمة السلف في هذه المسألة بعد أن نقل الأحاديث الناهية من السنّة المطهرة وشفّعها بأقوال مالك وأبي حنيفة وابن حنبل والشافعي بما لا يدعُ مجالاً للتوقّف، وانتهى المفتي الأكبر إلى قوله^(١): «ولمّا كان ذلك يكون مبلغ العربون الذي دفعه المشتري إلى البائع، ولم تتم الصفقة، محرّماً على البائع، ويتعيّن عليه رده إلى المشتري إذا كان معروفاً لديه وعلى قيد الحياة، وإلى ورثته إن كان قد توفّي، فإن لم يعلم بذلك ولا بورثته، فعلى البائع التصدّق بمبلغ العربون في المصالح العامة للمسلمين، كبناء المساجد أو المستشفيات، لأنّ عليه التخلص مما حازه من مال محرّم، ولا يحل الانتفاع به لنفسه».

وإذا كنْتُ قدمت نماذج من الفتوى تصوّر النواحي الاجتماعية والسياسية والاقتصادية، فقد بقي ما يصوّر الناحية التاريخية، وأمثلتها واضحة في ما نقرؤه من هذا الفيض الزاخر.

فحين تحدّث الإمام الأكبر عن التعزير بالحبس أكدّ أنه موضع اتفاق بين فقهاء المسلمين، وأنه يكون في قضاء الديون كما يكون في الجرائم، بشرط أن يكون الدين حالاً، إذ لا حبس في الدين المؤجّل، ولن يكون الحبس في الدين إلا إذا طلبه الدائن، أما في الجرائم فإن ذلك شأن الحاكم مع العقوبة المقرّرة، وبعد أن أكّد المفتي الأكبر ما يتصلّ بهذه الأحكام في نصوع بيّن، انتقل إلى الناحية التاريخية فقال^(٢): «لم يكن للسجن معالم خاصّة في شريعة الإسلام، وإنما تركّ تحديد معالمه، وفقاً لتطوّر الإنسان واتّساع العمران، وانحسار الإيمان عن القلوب، وانعدام مراقبة الله، جرياً وراء المادة والمادية، ففي عصر الرسالة كان الحبس في المسجد، فقد حبس رسول الله ﷺ رجلاً في تهمة، فربطه في سارية المسجد، وكان هذا الفعل كافياً في امثال هذا الرجل واحتباسه أنفاسه وجسده حيث وضعه الرسول صلوات الله عليه، فلا يمكن أن يخطر بباله الخروج على حكم الرسول، فلمّ إذن السجن والسجان وقتئذ؟ وجرى هذا أيضاً في عهد عمر رضي الله عنه.

(١) المجلد العاشر من الفتاوى الإسلامية؛ ص ٣٥٧٣.

(٢) الأزهر في ندوة الفقه الإسلامي بعمان (ملحق مجلة الأزهر) شوال سنة ١٤٠٨، ص ٥٦.

ثم بدأ في العصر الأموي اتخاذ أماكن للسجن، كانت جُباً يحفر في الأرض يستقرّ فيه المسجون، ولم تكن مدة السجن موضوع تحديد، لأن هذه العقوبة كانت في الأغلب من اختصاص الولاة والقضاة، وكان لأولئك سجنٌ ولهؤلاء سجن، وكما هو مشهور فقد نزل هذا العقاب بعددٍ من الفقهاء المجتهدين أصحاب المذاهب كالإمام أبي حنيفة، وكالإمام أحمد بن حنبل في فتنة خلق القرآن، وهذا في العصر العباسي».

ومما يجدر ذكره أن حديث المفتي الأكبر عن تاريخ السجون، جاء في بحثٍ شاملٍ فيّاحٍ عن مرونة الشريعة الإسلامية، تصلحُ عناصره أن تكون مجلداً كبيراً يصورُ هذه المرونة، فقد تحدّث الفقيه المؤرّخ عن ثبات الأصول التشريعية في القرآن والسنة بإفاضة، كما ألمع إلى أهم خصائص التشريع الإسلامي، منتقلاً إلى الأدلة الدالة على هذه المرونة الطيعة في إصدار الأحكام وتنفيذها، فذكر طرفاً من النواحي الدستورية والنواحي التجارية مما تمسّ إليه الحاجة في هذا العصر، كما أفرد حديثاً هاماً عن الشريعة الإسلامية باعتبارها مصدراً أساسياً للقواعد القانونية بما فيها قواعد القانون التجاري، والقانون الجنائي، وضرب الأمثلة الشافية تطبيقاً على ما يقرّر من أحكام، وجعل خاتمة بحثه عن تغيّر الأحكام بتغيّر الأزمنة والأمكنة والعرف، باعتبار ذلك من أوضح خصائص هذه المرونة الطيعة، والبحث دقيق مستوعب على إيجازه.

ومثال آخر على الاهتمام بالناحية التاريخية نجده فيما كتب المفتي الأكبر عن تاريخ الإفتاء المعاصر، ومهام دار الإفتاء بالقاهرة، إذ لو استطعنا أن نجد دلائل على نظام الفتوى في الزمن الغابر، فإن تاريخ الإفتاء المعاصر لم يجذ من يؤرّخه على وجهه المتّصل الحلقات، وقد قال المفتي الأكبر بصدد ذلك^(١):

«لم أعثر - بالرغم مما بذل من جهد في البحث والرجوع إلى المصادر التاريخية، وسؤال بعض المؤرّخين الإسلاميين المعاصرين - على بدء إنشاء دار الإفتاء بوضعها الحالي، فيما قبل شهر جمادى الآخرة سنة ١٣١٣هـ، ونوفمبر سنة ١٨٩٥م، فقد تردّد لقبُ المفتي، أو مفتي الديار المصرية، في بعض اللوائح والقوانين الصادرة

(١) الفتاوى الإسلامية (المجلد العاشر) من ص ٣٦٥٠ - إلى ص ٣٦٦٧.

فيما قبل هذا التاريخ، على نحو ما سنبينه بعد...». ثم سرد ما استطاع جمعه من أخبار الإفتاء قبل هذا التاريخ، وهذا جديد كل الجدة على الباحثين، إذ لم أقرأ مثل هذا التسلسل الخاص بالإفتاء منذ ولاية محمد علي إلى نوفمبر سنة ١٨٩٥، وقد استغرق هذا التسلسل عدة صفحات متوالية كلها جديد، وأذكر أن القاضي الكبير الأستاذ محمود محمد عرنوس مؤلف كتاب (القضاء في الإسلام) قد شكّا في بعض مقالاته ما يجده من الغموض المُدْلهِم في محاولة تأريخ هذه الفترة، وظلّت شكواه عالقةً بذهني حتى قرأتُ ما كتبه المفتي الأكبر، فرأيتُ بريقاً يسطع في ظلمات، أليس هذا تاريخاً جديداً في فتوى تاريخية؟.

كما استرعت انتباهي هذه الصيحة الرنّانة التي أوقف بها المفتي الأكبر عملاً بغضباً، ما كان يجب أن يخطر في بال مسلم يعيش في أرض الإسلام والعروبة والأزهر، حين نشرت جريدة الأهرام تحت عنوان (مسابقة لاختيار ملكة جمال النيل) فقالت ما ملّخصه: إنّ قداماء المصريين كانوا يقومون باختيار أجمل فتاة عذراء في مصر ويلبسونها أفخر الثياب، ويلقونها في النيل، وعندما جاء العرب استبدلوا العروسة بتمثالٍ لعروس النيل، وفي هذا العام يتخذ الاحتفال مظهراً أكثر حيوية، ويفتح المجال أمام الفتيات من سن ١٥ إلى ٢٥ للاشتراك في مسابقة ملكة جمال النيل أمام لجنة التحكيم التي ستنعقد لاختيارها، وإنّ العروس الفائزة بلقب ملكة جمال النيل ستنتقل يوم ٢٤ أغسطس الجاري من أمام الميرديان في موكبٍ داخل مركب فرعوني، ثم مركب بها ٤٠٠ مدعو من مختلف الهيئات الدبلوماسية، ومن ورائهم خمسون مركباً شراعياً حيث يسيرُ هذا الموكب من فندق الميرديان إلى كوبري قصر النيل، وتبدأ المراسم المتبقية في ذلك، ويُلقى محافظ القاهرة الوثيقة، وتطلق الصواريخ، وتقفز العروس إلى النيل.

ما كاد هذا التّرق السفيه يُنشر في الأهرام حتى علت صيحة المفتي الأكبر في مقالٍ رنان تحت عنوان (أوقفوا فوراً هذا العبث باسم وفاء النيل) ولا يتّسع المجال لنشر ما دفع^(١) به المفتي الكبير أصحاب هذا التّرق الطائش، وقد سجّل صريحاً ما يراه من أن في هذا الطيش عودة إلى سوق النخاسة والرقيق الأبيض، وأن دعوة مصر بلد الإسلام والأزهر - التي جعلها الله قائدة للعرب والإسلام - لهذا البغي المنكر ردةً

(١) الفتاوى الإسلامية (المجلد العاشر) ص ٣٥٨٣ وما بعدها.

إلى جاهلية عمياء، لا تفرق فيها بين الحلال والحرام، فأَيّ وثيقة هذه التي يُلقِيها المسؤول الكبير في النيل مع العروس التي اشترط أن تجيد السباحة، وأن تلتقطها فرق الإنقاذ! أيّ إهانة للأنثى! وأيّ وثيقة يمكن أن تُكتب! وقد كان هذا الرأي الحاسم كافياً للقضاء على هذا البغي الصريح! فاضطرّ أصحاب العبث إلى النكول عنه! والغريبُ بعد هذا كله أن أسطورة عروس النيل هذه لم تَحْدث أصلاً، وإنّما هي أكذوبة اخترعها ذوو الخيال المشتطّ، وقد فنّدها الكاتبُ الكبير الأستاذ عبد القادر حمزة في كتابه الرائع (على هامش التاريخ المصري القديم) بما ينتزعها من الأوهام، ولكن القوم لا يقرؤون. .

هذه خطوط مبدئية تشير إلى أنماطٍ من الاتجاهات الفقهية لدى الإمام الأكبر الشيخ جاد الحق علي جاد الحق، ولا أظنّ أنني وفّيتُ الموضوع حقه، ولكنني أرجو أن ينهض من الدارسين الذين يسطّرون رسائل الدكتوراه في الفقه الإسلامي من يدور موضوعُ رسالته حول هذا النتاج الفقهي الكبير الذي سطره الإمام الأكبر، ليستطيع أن يُعطي الموضوع حقه في رسالته المبسّطة، مع أستاذٍ مُشرف يعلمُ غور البحث، ويُدرك أبعاده، فيسير بالباحث إلى نهجه السليم، لا أقول ذلك خاصّاً بالإمام الأكبر وحده بل بأعلام الفتيا في هذا العصر، ومن الحظّ السعيد لهؤلاء الباحثين أن مجموعات الفتاوى الصادرة عن دار الإفتاء قد سجّلت في مجلدات مستقلة، إذ عمل الأستاذ جاد الحق على بعثها من الأضابير المجفّوة، وقام على نشرها في جدّ راصدٍ، حتى أصبحت ذخيرةً حيّة في المكتبة الإسلامية! وفي المجلات الإسلامية فيضٌ زاخر من هذه الفتاوى الصائبة لكبار الفقهاء. . وفي ذلك كلّ مجالٍ للدرس والشرح والموازنة والترجيح. . فأين المستجيب؟ .



حسن حسني عبد الوهاب (عالم تونس وأديبها)

- ١ -

قمةً في التواضع وسماحة النفس، كان يحمل ألقاباً ضخمة يعتزّ بها الكثيرون، ولكنه كان يكتب اسمه مجرداً في بطاقته وعلى صدر مؤلفاته، وفي توقيع مقالاته! كان يحمل الباشوية في عصر كان فيه هذا اللقب منية المتمني، وغاية المطمح، كما يحمل لقب أمير الأمراء، لأنّه كان يرأس حكّام الولايات المختلفة في تونس حقبةً من الدهر، ثم صارَ وزيراً للقلم، ثم هو لا يضع غير اسمه مجرداً إذا أُلّف أو كتب أو راسل، حدث أنه أرسل إلى مجلةٍ علمية مقالاً وقعهُ باسمه، ولم يعرف رئيس التحرير عنه غير اسمه، ورأى المقال جيداً، فنشره في الصفحات الأخيرة بالعدد، مقدّماً عليه من هم في مرتبة تلاميذه، ثم علم رئيس التحرير أنّ الرجل وزير القلم في تونس، فكتب يعتذر إليه، فردّ سريعاً بأنّه لم يلحظ أن مقاله في غير موضعه، لأنّه نُشر بالمجلة وهذا حسبه، والقارئ البصير لا يترك مقالاً يفيدُه أيّاً كان موضعه، وذلك ما يذكرني بالأديب الفيلسوف الشيخ مصطفى عبد الرزاق شيخ الأزهر الأسبق، فقد نال مرتبة الباشوية، وكتب إليه الأستاذ محمد كرد علي يداعبه، ويخبره بأنّه سيدعوه من الآن بالباشا مع أنه - كرد علي - لا يحمل لقباً ما، فردّ عليه الشيخ ردّاً يهوّن عليه قيمة اللقب جوار معدن الشخصية، ويدعوه إلى ألا يخاطبه إلا بالشيخ! وأنعم به!.

على أنّ حسن عبد الوهاب كان يعتزّ بنسبه إلى المعتمد بن صمادح ملك المريّة أيام الأندلس! يعتز بها لا لأبهة الملك الغابر، بل لأصالة نسبه في العروبة، فالمعتمد من قبيلة (تُجيب) التي وفدت على الأندلس في عهد الفتح، وتقلّب

أبناءؤها في مناصب الرئاسة، حتى صار أحدهم من أكبر ملوك الطوائف، ولا يضارعه غير المعتمد بن عباد! لذلك كان يوقع مقالاته كثيراً بإمضاء حسن عبد الوهاب الصمادحي، وقد كتب فصولاً تاريخية عن الأندلس أبانت عن حمية صادقة للعروبة، وغيره شديدة على الإسلام.

ولم يكن الرجل متواضعاً في سلوكه فحسب، بل كان متواضعاً في تأليفه، إذ من دأبه الإيجاز في أكثر ما كتب، الإيجاز التام غير المخل، فقد يكتب بحثاً عن شخصية تاريخية فيعمد إلى اللباب من خصائصها وتاريخها، ويقف قارئه على الجديد في كل سطر، فتملاً المقالة الواحدة ذهن القارئ بما يعوزه أن يراه أحياناً في عدة مقالات يكتبها المُسهبون في غير مجال الإسهاب، وليت الذين يؤلفون الكتب اليوم، ويدبجون الرسائل الجامعية يقتدون به، لأن أكثر هؤلاء إذا كتب عن شخص ما، انطلق يتحدث عن العصر والبيئة الاجتماعية والحياة الثقافية، والاتجاه السياسي بما يملأ نصف البحث، مع أن أكثر ما يُدبج ذائع مشتهر، ولكنّه الولوع بتضخيم الرسائل، وكأنها عند تقديرها تُوزن بالرطل، لا بما تحمل من إضافات جديدة، وترصد من نتائج طريفة تسبقها مقدمات ليست عوجاء.. وكم شكونا!.

لقد طلبت بعض الجامعات الأدبية تعريفاً مفصلاً مستوعباً من الأستاذ حسن حسني يتضمن تاريخ حياته بالتفصيل، لينشر في سجل خاص بكبار العلماء في المغرب، وكان المتوقع أن يفيض الكاتب في سرد تفاصيل حياته لا سيما وقد عاش ثلاثة وثمانين عاماً حافلة بالجلال، لقد طلبت الجامعة منه هذا التقرير المسهب قبل وفاته بشهرين، فطلب من كاتبه أن يحضر الورق والقلم، وأملى عليه بضع صفحات لم يتجاوزها، وهذه إحدى سمات التواضع المعهودة عنه، فقد اكتفى بخطوط بارزة في نسج حياته، ولم يشأ أن يجعل الثوب زاهياً لامعاً كبعض من يُترجمون لأنفسهم، فيختلقون أدوار البطولة على حساب من عاشروهم من الأساتذة والزملاء، بل على حساب ذوي القربى من أب وعم وأخ؛ فكلهم كان يعترض طريق هذا المناضل، ولكنه ثابر وكافح حتى انتصر، لقد قرأنا ما كتب هؤلاء فلم نزد على الابتسام الساخر، أما ما كتبه الأستاذ حسن حسني فكان وثيقة متواضعة، أتيح لي أن أقرأها في مجلة العرب السعودية، بعد أن حدثني عنها فضيلة العالم الكبير الشيخ محمد الفاضل بن عاشور أثناء زيارته الأخيرة للقاهرة، ومما كتبه الفقيه الكبير في

الوثيقة أنقل ما يلي؛ بعد أن أشار بالإجمال إلى جدّه عبد الوهاب بن يوسف الصمادحي الذي كان يدير الحرس الأعلى للبلاد ويرأس التشريفات في القصر الحاكم، ثم إلى أبيه صالح بن عبد الوهاب الذي أجاد الفرنسية والعربية، فأصبح مترجماً في بعض السفارات التي تُرسلها الدولة إلى الممالك الإفرنجية، وطار له ذكرٌ في العلم والسياسة معاً، فلما تحدّث عن نفسه بدأ بقوله^(١):

«أول دراستي في كُتّاب سيدي الموحّد، حسب العادة المتّبعة حينئذٍ لصغار التونسيين، ثم تحوّلت إلى المدرسة الابتدائية بالمهدية، وتلقيتُ هناك حفظ الربع الأخير من القرآن الكريم، كما ابتدأتُ تعلم اللّغة الفرنسية، ولما انتقل الوالد من المهدية إلى تونس دَخَلْتُ أول مكتب فرنسي، ونلتُ شهادة العلوم الابتدائية سنة ١٨٩٩، فالتحقْتُ بالمدرسة الصادقية، وزاولت بها العربية والترجمة، ثم قصدت باريس، وانتظمتُ في سلك تلاميذ (مدرسة العلوم السياسية) وتابعتُ التعلم بها، ومن أساتذتي بها (دومنتاي) وفي الأثناء كنتُ أحضر محاضرات الحكيم (شاركو) في تحليل الأخلاق والنجائز والطبائع، وتوفي والدي سنة ١٩٠٤، فعدتُ إلى البيت في حضرة تونس، وانخرطتُ بعدُ في سلك موظّفي الدولة».

هذه نشأته التعليمية كما دوّنها بقلمه، وهي نشأة مباركة ساعدته على إتقان العربية والفرنسية معاً، وأتاحت له أن يدرس علوم الأخلاق والحكمة على يد كبار الأساتذة بفرنسا، وقد أُجبر على العودة بعد وفاة والده، لينخرط في سلك الوظائف، ولكنّ رُوح الاطلاع لم تفارقه، فأخذ يقرأ لنفسه دارساً مستوعباً حتّى استوى علماً من أعلام البلاد.

كان المتعلمون قلة في أوائل هذا القرن وأواخر القرن الماضي في أكثر البلاد العربيّة، ووظائف الدولة في شتّى فروعها في حاجةٍ إلى أن تملأ بالموظّفين، فما يظهرُ من يُحسن الكتابة والقراءة على نحوٍ ما حتى يجد عملاً إدارياً أو كتابياً مناسباً، وإن لم يحمل مؤهلاً رسمياً! وما عاد حسنُ حسني من باريس حتّى صار مرموقاً في وطنه، لأنّه بالنسبة إلى غيره يُعدُّ أرقى الفئة المثقفة المستنيرة، لذلك تقاسمته وظائف شتى متعددة الاتجاهات، مختلفة التوجيهات، فتقبّلها بقبول حسن، وأظهر في إدارتها براعة نادرة كأنّها من تخصّصه الصميم، لقد عُيّن أول ما عُيّن في سلك

(١) مجلة العرب، ذو القعدة ١٣٨٨ - بالرياض ص ٤٦٩.

موظفي الفلاحة والتجارة، وهو ذو شعبتين؛ شعبة زراعية، وشعبة تجارية، فعكف على قراءة اللوائح الخاصة بالشعبتين، وكان موضع استشارة زملائه، ومكان ثقتهم، وحين استفاضت شهرته، رُقي إلى إدارة غابة الزياتين للشمال التونسي بعد خمس سنوات، وهي مسؤولية جديدة تتطلب دراسة لم يتهيأ لها، ولكنه قرأ اللوائح، وواصل استشارة ذوي الخبرة، وناقش ووازن حتى أصلح جهاز الإدارة كاشفاً عنه عوامل الخلل، ثم انتقل بعد ست سنوات إلى رئاسة قسم إدارة المصالح الاقتصادية في العاصمة، وهي إدارة تتصل بشتى الإدارات المختلفة، لأنها ذات مسؤولية مالية في التوزيع والمحاسبة والإنشاء، وتقع في مسؤوليتها شؤون الإدارات المختلفة في ولايات الأندلس جميعها، ثم ساعد الحظ على قيامه بعمل تاريخي جاد حين أسندت إليه رئاسة خزانة المحفوظات التونسية في عام ١٩٢٠، يقول الأستاذ بصدها فيما كتبه عن تاريخ حياته^(١):

«لقد استفدت كثيراً من هذا العمل، حيث أُتيح لي الاطلاع على مجرى أحداث التاريخ التونسي منذ الفتح التركي وبعده، ولا يخفى أن خزانة المكاتب الدولية - كما كانت تسمى - هي من محاسن مؤسسات الوزير خير الدين التونسي، حين باشر شؤون الدولة التونسية، وأهم عملٍ قمت به هو أنني وضعتُ جهازاً تاماً لفهرست محتوياتها، في جذاذاتٍ محفوظة، في صناديق خاصة بها، وهو المعمول به إلى الآن، ولم يكن ذلك موجوداً بها».

وواضح أن تاريخ هذا العصر في تونس، لا يُكتب على وجهه الصحيح إلاّ بمراجعة هذه الجذاذات، لأنها توضح سير الاتجاه السياسي للدولة، وعلاقتها بالدول الأخرى، فهي تقدم المادة الموضوعية لكتابة التاريخ، وعلى مقرراتها قام التاريخ التونسي لحقبة شائكة اختلط فيها الأمر، حين انتقلت تونس من دور الاستقلال إلى دور الاحتلال، وإذا كان العمل بهذه الجذاذات قد استمر إلى وقت كتابة الأستاذ حسن حسني لترجمة حياته فمعنى ذلك أنه وضع الأساس لمصدرٍ حيٍّ من مصادر التاريخ، هو وحده الجدير بالثقة، لأنه يعتمد على مكاتبات مؤرخة لا يُقبل أدنى شك في مضمونها. وبعد خمس سنوات من قيامه على العمل بخزانة المحفوظات التونسية، ارتقى الأستاذ إلى مناصب الحكام الكبار للولايات، فعُين

(١) مجلة العرب ص ٤٧٠.

سنة ١٩٢٥ (والياً) أي حاكماً - وهو ما يسمّى بالمحافظ الآن - على ولاية (المثاليت)، وكانت ذات إهمال مؤسف من الولاة السابقين، حيث عاشت عيشة بدائية لا تختلف عن معيشة أهل القرون الغابرة، فبذل الأستاذ حسن جهده في تزويد القرى بالمياه، لأنّ الفلاحين قد هجروا أراضيهم وتركوها ياباً، لعدم الحصول على المورد المائي الناهض بالإرواء، كما كانت الطرق في الولاية غير معبّدة، ولا يمكن السير فيها دون صعوبة مؤكدة، فسعى الحاكم النشط إلى تعبيد الطرق وإصلاحها على وجه يضمن سلامة الاتصال وسرعته بين أنحاء الولاية.

وحين رأى المسؤولون نشاط الأستاذ في خطته الإصلاحية نقلوه إلى (المهدية) ليواصل سعيه الإداري، فأبدى همّة كبيرة في إصلاح المرافق المختلفة، لكنّه خصّ التعليم بأكبر نصيب من جهاده، إذ اجتهد في نشر التعليم الابتدائي بكافة القرى، وكانت (المهدية) تضمّ فريقاً من المثقفين لا عهد له بأمثالهم في (المثاليت) فأعلن الأستاذ عن محاضرات أسبوعية يلقيها في التاريخ الإسلامي بعامة، والتاريخ التونسي بخاصة، ولاقت هذه المحاضرات العلمية رواجاً منقطع النظير، إذ كانت أول منارة ثقافية بالمهدية، وشجّعت نفراً من المثقفين على إلقاء ما يختارونه من الموضوعات الثقافية تاريخية وأدبية واجتماعية، مع البعد عن المسائل السياسية، كيلا يتسبّب الاحتلال في إيقافها، وإطفاء ما تبعث من ضياء، وهذا وفق النظرة السطحية لموضوع المحاضرات، أمّا النظرة العميقة فتدلّ على أنّ هذه المحاضرات ذات مغزى سياسي لا ينكر، لأنّ الذي يُلقى محاضرةً عن بطل مثل (صلاح الدين) أو (عمر بن عبد العزيز) أو (ابن خلدون) إنما يتحدّث عن مواقف فيها المثل الخالدة الحية للبطولة والعدل والحرية والمساواة، وذلك من صميم السياسة وجوهرها.

وبهذه المحاضرات انتشر للأستاذ صيتٌ علمي جعله مرجعاً دقيقاً للشبيبة المتطلّعة للمعرفة، وزاد من ذلك ما بدأ بنشره في الصحف من خلاصات لهذه المحاضرات، ساعدت على انتشارها العام في ربوع الشباب، وقد رأى الأستاذ غرسه الفكري ينمو ويزدهر، ورأى صحوةً من سنّة طويلة تبشّر باليقظة الدائبة، فجعل يشجّع على نشر الكتب، كما عمل على نشر (الأندية) وأوقف كثيراً من كتبه عليها، لتكون زاداً للمطلّعين، ورأى المخلصون ثمرة هذه الكتب، فجعلوا يشترونها، وبيعثون بها هدايا للنوادي العامة.

والذين يؤرّخون للنهضة العلمية التونسية المعاصرة يجعلون ما قام به الأستاذ من جهد في إنشاء النوادي، وإيجاد المكتبات، ونشر المقالات أحد الأسس الركينة في اليقظة الفكرية المعاصرة، لأنّ حكام الولايات التونسية قد أعجبهم هذا الاتجاه، فعملوا على نشر الأندية وإقامة المكتبات، بعيداً عن الإدارة العامة في عاصمة البلاد، لأنها محتلة بمن يُغضون البحث العلمي من طغاة الاستعمار.

ثم ترك الأستاذ ولاية المهدية، إلى ولاية الوطن القبلي (نابل وناحيتها) وقد سبقه فضله إليها، فوجد من تعاونوا معه على إنشاء دار الكتب بالعاصمة، وعلى توزيع كتب أخرى في مراكز الولاية بالقرى الصغيرة والكبيرة، وهذا الجهد جهدٌ فرعيٌّ بالنسبة للعمل الإداري الأول، الذي عُيّن من أجله.

ومن الوطن القبلي انتقل إلى العاصمة (تونس) ليتولّى الشؤون الداخلية للبلاد، وهي اختصاصات متفرقة متباينة، أمكن الرجل بجهاده وجهده أن يقوم بها خير قيام.

هذه الاتجاهات المتعددة من إدارة شؤون الفلاحة والزراعة والأمن الداخلي والمواصلات، مع نبوغه العلمي كانت منار دهشة المتحدثين عنه بعد رحيله، أذكرُ أن الأستاذ الكبير محمد الفاضل ابن عاشور في خطابه التأييني للفقيد، أشار إلى هذه الاتجاهات، ورأى في سردها ما يشبه التشويز، إذ يجب في رأي بعض الناس أن يتحدث في موقف التأيين بمجمع اللغة عن الجهد العلمي وحده، لأنّه هو الأثر الخالد للرجل الكبير، ولكنّ الشيخ ابن عاشور قد استشعر هذا الخاطر، وأجاب عنه بقوة حين قال^(١):

«كأنني بهاجس يهجم في نفوسكم الكريمة قائلاً عني: لقد أبعد النجعة، وذهب يعرض علينا أموراً ما لها علاقة كبيرة بفقيدنا المرحوم؛ وما لنا بالعمّال والمديرين، وأمراء الأمراء، وأمراء الأولوية، أو أين ذلك كلّ من الأديب الكامل، والعالم الفاضل، الذي عرفناه متواضعاً، لطيف المعشر، رقيق الحاشية، متفانياً في خدمة العلم، مُعْتزّاً بشرف التحليّ به، نعم.. ذلك هو بيت القصيد، فقد كان الفقيد رحمه الله في خلاله وأعماله نتيجة أتت على غير قياس المقدمات التي كان المتوقّع منها أن تُبرزه على صورة تُخالف الصورة التي عرف بها، حتى كان تاريخُ حياته غريباً عن

(١) البحوث والمحاضرات للدورة الخامسة والثلاثين، سنة ١٩٦٩ ص ١٠٦.

شخصيته، ولقد كان في حقيقته تلك مظهراً عظيماً من مظاهر قوة الشخصية، تكون فيه ذلك السرُّ الباطن الذي يتطلَّب مظاهر وجودية على غير ما تقتضيه العوامل الظاهرية المتصلة بحياته الفردية والاجتماعية، ثم تولَّد فيه من شعوره بذاتيته التي تسبِّر بذلك السرَّ، همّة نَزاعة سلكَتْ به مسالك غريبة عن ظروفه، تتَّجه إلى تحقيق المظهر الذي يتلاءم مع الذات الباطنية على غير ما تقتضيه ظروف الواقع، وتلك هي الإرادة التي تتولَّد عن ظروف باطنية، ونُسميها نحن العرب عصاميّة، وتُسمَّى عند بعض فلاسفة الغرب المعاصرين تحقيق الذات بالذات».

وبعد بلوغه السن القانونية للإحالة على المعاش لم يشأ القائمون بالأمر أن تُحرم البلاد من كفاءته النادرة؛ فاختير رئيساً لمصلحة الأوقاف ذات المطاعم والأهواء، فكابد رهطاً من الناس حتّى جرى بها إلى الصراط القويم، وكما قال: «منع أيدي الطَّمع من الامتداد إلى أرض الأوقاف الخصبة، كما تعود على ذلك الطامعون من ذوي الأهواء». ثم انتخب وزيراً للقلم، وهو ما يعني في القديم بديوان الإنشاء، إذ يقوم على تحرير المكاتبات الدولية ومخاطبة الملوك في الخارج، والولاية في الداخل، فكان لسان صدق لما عُهد به إليه، ومن وزارة القلم إلى رئاسة المعهد القومي للآثار والفنون، وهي مرحلة تتصل بثقافته الحضارية عن يقين.

- ٢ -

ذكرتُ أعمال الأستاذ الصمادحي الإدارية الحافلة دون أن أخلطها بما قام به أثناءها من الأعمال الأدبية الباهرة، والحقيقة أنّ أكثر الإداريين ممن نراهم في دنيا الناس، لا يهتمّون بالأدب والتأليف، لأنّ مواهبهم قد انحصرت في نطاق الإدارة لا تعدوه، ولا يُعابُ عليهم ذلك، فلكلِّ تخصصه الذي ينال به الحمد إذا رعاه حقّ رعايته، فأنمر في ميدانه بما يعودُ عليه وعلى أمته بالنجاح، ولكنّ الذين يجمعون بين الإدارة والثقافة على نحوٍ متوازن هم أفراد كبار من ذوي المواهب الرفيعة، إنّ ازدحام حياة الرجل في شبابه وكهولته بالأعمال الإدارية العويصة لم يُلْهِه عن موهبته الرفيعة في دنيا الأدب والثقافة، لذلك كان - وهو الوالي الحاكم للإقليم - يُرسل مقالاته في أمهات الصحف من عربيّة وأوروبيّة، ويكتب المؤلفات ذات النفع الخاص لأُمته، والعام لموطنه العربي الكبير، وتفصيل ذلك يحتاج إلى مزيد من التبيان.

لقد كان الممثل العلمي لتونس في مؤتمرات الاستشراق، منذ بلغ العشرين عاماً، فحين عقد مؤتمر المستشرقين في الجزائر سنة ١٩٠٥م، كان صوته جهوريماً بما شارك من حوار وألقى من محاضرة، وكذلك في المؤتمرات التي توالى في الدانمارك سنة ١٩٠٨م وفي أثينا سنة ١٩١٢م، وفي باريس سنة ١٩٢٢م، وفي الرباط سنة ١٩٢٥م، وفي مؤتمر الموسيقى بمصر سنة ١٩٣٢م.

وقد تحدّث عن انطباعاته الخاصة بهذه المحافل، فقال إنّ بحثه الخاص بالاستيلاء العربيّ على صقلية الذي ألقاه في أوّل مؤتمر شهده بالجزائر، كان مدعاةً لتعرّفه الوثيق برؤساء الدول، وأرباب الأقلام، وأعلام الاستشراق، مثل جورج براون الإنجليزي، ويغن، وامدروز، وفولارس، وكلّهم ذوو دراساتٍ استشرافية، وكذلك تعرّف بئولده الألمانى، وكويديرا، ورييرا، وميكال آسين بالاثيوس، وثلاثتهم من أسبانيا، ولويس ماسنيثون وأوليم مرسى، وهذه النخبة الممتازة لم تقطع صلتها بالأستاذ، بل كان تعرّفه بها مجالاً لمراسلاتٍ علمية، ومناقشاتٍ تاريخية كثيرة.

ولا ينسى مشاركته في كوبنهاجن عاصمة الدانمارك، إذ اصطدم بآراء الأب لامنس، والأب لويس شيخا اليسوعيين، فقد هاجم المبتشران المغرضان نبيّ الإسلام في بحثيهما التبشيريّين مهاجمةً لم تخف بواعثها على زملائهم في المؤتمر، وكان به منهم البارون (ماكس أوبنهايم) الألماني و(جولدزيهر) النمساوي، وهما ذوا صيتٍ مسموع حينئذٍ، ففوجئ المبتشران اليُسُوعيان بالأستاذ حسن حسني يطلب الكلمة معقّباً، وكان هو المسلم الوحيد في المؤتمر، ولعلّ الرجلين المغرضين لم يُقدّرا أن شاباً مبتدئاً مثله سيقوى على دحض أراجيفهما، وهو الوحيد الذي يدين بالإسلام بالمؤتمر، ولكنّ الحقّ أبلج، فقد استطاع هذا الشابّ الضليع، أن يعصف بكل ما قال الرجلان، واضطرّ من عقبوا على كلمته القائمة الدامغة أن يعتذروا له مما تورّط فيه القسيسان! وقد طوى الأستاذ بحثه الذي كان سيُلقاه في المؤتمر، اكتفاءً بما قام به من التعقيب المُسهب الجريء، وانتقل صدى المناقشة إلى جرائد الدانمارك، وتناقل المراسلون من الصحفيّين أخبارها، فنشرت أمهاتُ الجرائد الأوروبية خلاصةً عنها!

وتوالى لقاءاتُ الأستاذ بهذه العواصف في محافلٍ كبيرة فما هداً أو استكان، وله

في هؤلاء رأيٌ مسطرٌ في مجلة العرب على لسان الأستاذ ظافر القاسمي، حيث قال: عَرَفْتُ عنه يومئذٍ أَنَّهُ كان سَيِّءَ الظنِّ بالمستشرقين في أكثرهم، لا من الناحية السياسية، بل من الناحية العلمية، وَأَنَّهُ كان يتأَقَّف من أخطائهم الكثيرة، مقصودة أو غير مقصودة، وكان يرى أَن الذين أَتَقَنُوا اللغة العربية، وغاصوا على أسرارها، وتذَوَّقُوا بلاغتها أُنْدَر من الكبريت الأحمر، وأما الذين فهموها على شكلٍ يُخَوِّلُ لهم النقلَ منها إلى لغاتهم الأصلية فهم قَلَّة، يقولُ الأستاذ حسن حسني: «وَكَمْ من خَطِيئَةٍ مَخْجَلَةٍ لا يَرْتَكِبُها المَبْتَدِئُونَ، رَأَيْتُها في كُتُبِ أَعْلَامِهِمْ، على أَن لهم فضلاً لا ينكر في إتقان المناهج (الخاصة بنشر الكتب) وهو ما لم نتعلَّمه منهم حتى اليوم، وقد أَتَقَنُوهُ وأبدعوا فيه»^(١).

أقول: إن ثناء الأستاذ على إتقان المستشرقين لمناهج النشر، يدلّ على أَنَّهُ مُحايد في حكمه، وإذا كان قد نقدهم في حقيقة معارفهم، فهو نقدُ المَطَّلَعِ الحصيف الذي يقولُ ما يعتقد صوابه، ورأيه في ذلك متَّفِق تماماً مع رأي الأستاذ الكبير عباس محمود العقاد، حيث قال في حديث عن الاستشراق:

«ولكنَّهم في أصل صناعتهم حُقَاطُ مسجِّلون، يَغْلِبُ على الجملة منهم ضَعْفُ الملكة الأدبيّة، ومن كان مِنْهم أَلَمانيّاً أو فرنسيّاً أو إنجليزيّاً تسألُه عن أدباء قومه، فلا تسمعُ منه رأياً يعوِّلُ عليه، فليس من المعقول أن يعوِّل عليه في نقد البحري والمتنبي والمعرّي لمجرد علمه بالعربيّة!».

وقد وضع عالمٌ من أكبر علمائهم معجماً تاريخياً قال فيه: إِنَّ (أَخَذَ) تأتي بمعنى نام، لأن القرآن الكريم يقول: ﴿لَا تَأْخُذْ سِنَةً وَلَا نَوْمًا﴾. وقس على ذلك علمهم بمعاني البلاغة والأدب، فإنّه في الغالب علمٌ معجمي يضع الكلمة أمام الكلمة ولا ينفذ منها إلى اللباب^(٢).

وقد تعددت مؤلفات الأستاذ، وتنوعت ما بين تأليفٍ بالعربية، وتأليفٍ بالفرنسيّة، وتحقيقٍ علمي لكتب التراث، فمن مؤلفاته بالعربية؛ الأدب التونسي في العصر الحسيني الثاني، والإرشاد في علم الاقتصاد، وبساط العقيق في حضارة القيروان وشاعرها ابن رشيّق، وترجمة الإمام المازري، وخلاصة تاريخ تونس،

(١) مجلة العرب - ذو القعدة سنة ١٣٨٨هـ، ص ٤٦٢.

(٢) قضايا إسلامية، للدكتور محمد رجب البيومي: ١١٠/١.

والشهيرات التونسية، وصدور الأفارقة، ومذاهب الشعر في كلام الأعراب، والمنتخب المدرسي في الأدب التونسي، وورقات عن الحضارة العربية بأفريقية التونسية.

ومن مؤلفاته بالفرنسية: امتزاج العناصر التي يتألف منها الشعب التونسي، تاريخ صقلية في عهد المسلمين، تقدّم الموسيقى العربية بالشرق والأندلس وتونس، مُعرج في تاريخ الأغلبة، مدائنُ اضمحلت من البلاد التونسية.

ومما حقّقه ونشره: آدابُ المعلمين لمحمد بن سحنون، أعمالُ الأعلام لابن الخطيب، التبصّر بالتجارة للجاحظ، رسائل الانتقاد لابن شرف، قراضة الذهب لابن رشيق، ملقى السبل للمعري، غابة الزياتين، وهذه الكتب في شتى اتجاهاتها تؤلّف مكتبةً كاملة، وإذا كنتُ في هذا المجال لا أستطيع أن أوفيهما حقها من الدراسة، فسأكتفي بالحديث السريع عن بعضها.

وأبدأ بكتاب المنتخب المدرسي في الأدب التونسي، لأنه طبع بمصر، طبعته وزارة المعارف المصرية تعريفاً بأدب القطر الشقيق، فكان أول كتاب قرأته للأستاذ، وقد دفعه إلى التأليف ما رآه من عدم ذبوع الأدب التونسي في البلاد العربية، إذ قرأ المنتخبات الأدبية المقررة على المدارس في مصر والشام والعراق، فلم يجد نصيباً وافراً للأدب التونسي، فأحبّ أن يقدم باقات فاخرة من هذا الأدب، تمثل العصور المختلفة حتى القرن الثالث عشر، وقد لاحظ الأستاذ محمد عبد الغني حسن في حديثه عن الكتاب أن المؤلف تواضع حين جعل كتابه مدرسياً، لأنه يفيد الطالب والأستاذ معاً، كما أخذ عليه وقوفه عند القرن الثالث عشر، حيث لم يمتّع قراءه بنماذج للشعر التونسي الحديث، يقول الأستاذ محمد عبد الغني حسن^(١):

«لقد أمتعني هذا الأمير التونسي المتواضع العالم بهديته النفيسة، التي عرفتني إلى فضيلة أرضه، وفضل قومه، والحق أن هديته هذه باقةٌ تونسية مختلفة الثمر، ناضرة الزهر، ولو أنّها وصلت إلى أدباء القرن الرابع عشر الهجري، لعرفنا تونس الحديثة التي يهيم كلُّ عربي أن يعرف كثيراً عن أدبائها وشعرائها وعلمائها، ولكننا نطمعُ منه في دراسة أخرى تصل حاضر تونس بماضيها».

(١) مجلة الرسالة، العدد ٦١٥، ١٦/٤/١٩٤٥م.

كما أنثني ببحثه القيم عن الإمام المازري، فقد وفى الإمام حقّه على إيجازه المفرط - وقد أشرتُ إليه من قبل - والحق أن الإمام المازري من كبار الفقهاء في عصره، وله في نشر المذهب المالكي بالمغرب أثر لا يقل عن أثر سحنون في مدوّنته، وقد لغط بعض المتشدّقين بشأنه لغطاً لم يستند إلى منطق العلم، فرأى الأستاذ أن يكتب سيرة المازري لتكون ردّاً على هذا اللاغط دون أن يذكر اسمه، مقتدياً بقول الله عز وجل ﴿وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغَوِ مَرُّوا كِرَامًا﴾ [الفرقان: ٧٢] فتحدّث عن نشأة الإمام بالساحل التونسي، وعمن تلقّى عليه الفقه من الأساتذة، ثم عن شهرته بالعلم وتصدّره للتدريس بجامع المهدية الكبير، وأشار إلى تلاميذه الذين أخذوا عنه، وطارث لهم شهرة في العلم من بعده، واقتدى بالسابقين فذكر ثناء المؤلفين على الإمام، وآراء العلماء فيه معقّباً على ذلك بقوله: «وفي الحقيقة أننا لسنا في حاجة إلى إثبات مرتبة هذا الإمام الجهيد والعلم المفرد، بإيراد شهادات المؤرخين، وثناء العلماء عليه، ما دامت مؤلفاته القيّمة بين أيدينا، وهي - بلا مرأى - الحجّة القوية على علوّ مقامه العلمي، ونيله بحقّ الصيت العلمي الذي حاز به رئاسة عصره بلا منازع»^(١).

وتبعاً لذلك مضى يعرض ما تيسّر له الحصول عليه من مؤلفاته، فتحدّث عن (المُعَلِّم بفوائد مسلم) وذكر أنه أول شرح وضع على صحيح الإمام مسلم القشيري، ونقل قول ابن خلدون عن هذا الشرح، معقّباً عليه بقوله: «وغفل ابن خلدون في تعريفه بشرح المازري عن أنّه اشتمل على مسائل كثيرة في علم الكلام، وأبحاث قيمة في النظم الإسلامية، ومسائل الخلاف، كمسألة الاجتهاد والإمامة وشروط البيعة والمفاضلة بين الصحابة، وجواز الجوسة في الحرب وغيره، مما يطول تعداده»^(٢).

وحين تعرض إلى كتاب المازري المسمّى (الكشف والإنباء على المترجم بالإحياء) أنصف الغزالي والمازري معاً، وذكر أن المازري لم يعد الحق حين نبّه على الأحاديث الضعيفة في كتاب الإحياء قائلاً: «ولا يتسنّى لمحدّث ثبت نهضت به فضائله، واجتمع فيه العقل الراجح، والفهم الدقيق وممارسة العلوم طول عمره

(١) مجلة لواء السلام (المجلد الثاني) سنة ١٣٦٧هـ.

(٢) مجلة لواء السلام (المجلد الثاني) سنة ١٣٦٧هـ.

كالإمام المازري السكوت على مثل ذلك والتغافل عنه، لما يعلم من إقبال المتعلمين على الإحياء، وانكباب المعلمين على مُطالعتِهِ^(١).

أما الطريف فيما كتبه الأستاذ عن المازري فهو حديثه عن إحاطته بالطب، وضربه الأمثلة على صحة علاجه للمرضى، وذكره شتى الأدوية وطرق علاجها، فكل ذلك جديد مفيد، وقد نُشر الكتاب قبل أن يجمع بمجلة لواء الإسلام المصرية، ومنها جثت بهذه النقول.

أما أهم مؤلفاته - كما قال ذلك - كتاب صدور الأفارقة أو كتاب العُمر، وهو يحفل بتراجم ممتازة لمشاهير الأفريقيين من علماء وأدباء ومؤرخين، وقد قال عنه: «يبقى بعد ذلك تأليفي الكبير المعنُون بكتاب العمر كتابٌ أفنيت فيه عمري، واستنفدتُ صبري، إذ قضيتُ في جمعه وتدوينه زهاء السّتين عاماً على الولاء، وهو يخرجُ في عدة أجزاء، وينطوي على التعريف المفصّل بأكثر من ألف مؤلّف تونسي في سائر العلوم والفنون، وحيثُ تقدّمتُ بي السن، رجوتُ لهذا العمل المضني من يقوم بإنجازه، فتكفّل الابنُ الأديب، والمفكر المُصيب (العروس المطوي) بجمع ما أنهيتُ من تراجم العلماء، وإتمام ما بقي جاهزاً بلا انسجام، في تصنيف ينتفع به الباحثون عن مآثر بلادنا إن شاء الله»^(٢).

ولا أدري لماذا لم تخرج هذه الموسوعة إلى القراء مطبوعة محققة، وهي تراثٌ عربي إسلامي قبل أن تكون تراثاً تونسياً، كما أنها تعين على تحديد المساهمة الفكرية من علماء شاركونا الآلام والآمال، وأوسعوا بلادهم ثراء علمياً خصيباً.

ولا يقل اهتمامه بالفكر التونسي عن اهتمامه الكبير بالفن التونسي، حيث دُعي بعد إحالته إلى المعاش وبعد زوال عهد الاحتلال إلى رئاسة (المعهد القومي للآثار والفنون) فبقي خمس سنوات متوالية باحثاً بكل جهده عن الآثار التاريخية في شتى نواحي البلاد، وكانت من الكثرة بحيث لا تجتمع في متحف واحد، بل ضمتها خمسةُ متاحف؛ هي متحف أبو رقية، ومتحف أسد بن الفرات برباط سُوسة، ومتحف إبراهيم بن الأغلب في القيروان، ومتحف دار الحسين، هذا إلى غير الآثار الإسلامية مما سبق في عهد الرومان، حيث عمل الأستاذ على إيداعها في متحفٍ

(١) مجلة لواء السلام (المجلد الثاني) سنة ١٣٦٧هـ.

(٢) مجلة العرب، المصدر السابق، ص ٤٦٦.

مستقل ، ولم يضمنَ الباحث الكبير على تزويد هذه المتاحف بكل ما جمعه لنفسه من الآثار الفنية القديمة ، والتحف الإسلامية النادرة التي اشتراها بماله الخاص أثناء تجواله في ربوع العالم شرقاً وغرباً ، كما نشرَ مقالات متتابعةً في الصحف التونسية تدعو من لديه ما يُماثل هذه الآثار بالتبرّع بها للمتاحف العامة ، حيث تُدَوَّن محفوظة باسم صاحبها ، وقد لَبَّى طلبته الكثيرون ، فكانت متاحف الفن التونسي مشهداً رائعاً من مشاهد التقدّم الحضاري الكبير .

أما ما جمعه من الكتب العلمية مخطوطة ومطبوعة ؛ فقد كوّن أكبر مكتبة عُرفت في تونس ، وقد خشي عليها من الضياع بعد رحيله ، وبها من المخطوطات العلمية ما لا يوجد في غيرها ، لذلك تقدّم باقتراح لرئيس الدولة كي يلحقها بالمكتبة التونسية العامة في حيّز مستقل ، لتصبح مؤسسةً خصوصية تحفل بالكثير من أخبار الأندلس والمغرب الكبير ، وقد أُجيب اقتراحه ، وصارت في متناول الدارسين .

وأشيرُ في خاتمة هذا البحث إلى ما ناله من الدرجات العلمية من مختلف أنحاء العالم ، حيث مُنح الدكتوراه الفخرية من جامعتي مصر والجزائر ، وأقيمت له حفلتا تكريم بهذه المناسبة ، كما كان عضواً لأمعاً في أكثر المجامع العربية ، وعضواً مراسلاً لمجمع الآداب والكتّاب الفرنسي ، وعضواً مراسلاً لمجمع التاريخ الإسباني ، وعضواً عاملاً في اليونسكو ، وقبل وفاته بثلاثة أيام (!!) نالَ الجائزة التقديرية للدولة مع الوسام السامي ، الذي قلّده إياه رئيس البلاد ، وهو مما يذكرنا بقول القائل :

أتت وسياقُ الموت بيني وبينها وجادت بوصل حين لا ينفع الوصل

وكان ختام حياته في ١٨ شعبان سنة ١٣٨٨ هـ ، الموافق ٩ نوفمبر سنة ١٩٦٨ م ، فضجت عليه المحافل العلمية ، ووفّته حقّه من التأبين والتنويه ، ولكن الصحافة العربية قصّرت تقصيراً تاماً في أداء واجبها نحو علم من أعلام العرب الخالدين ، وفيها من اكتفى من كتابها ببضعة سطور تُبلغ نبأ وفاته ، وكأنّه لم يسدّ فراغاً علمياً وثقافياً وإدارياً في موطنه عجز أن يسده سواه ، وجزاءُ الله بعد ذلك أوفى وأرغد ، فهو لا يضيع أجر العاملين . .

حفني ناصف (بين الأدب والعلم)

- ١ -

أَتَفَنَىٰ مَعِيَ إِنْ حَانَ حِينِي تَجَارِبِي وَمَا نَلْتُهُا إِلَّا بِطُولِ عَنَاءِ
وَأَبْذُلُ عَمْرِي فِي اكْتِسَابِ مَعَارِفِي وَيَفْنَىٰ الَّذِي حَصَلَتْهُ بِفَنَائِي
إِذَا وَرَثَ الْمُقْرُونُ أَبْنَاءَهُمْ غَنَىٰ وَجَاهَهَا، فَمَا أَشْقَىٰ بَنِي الْحُكَمَاءِ

لا يقولُ هذه الأبيات إلا شاعرٌ بذل جهده الجاهد في اقتناصِ الحكمة، وارتشاف العلم، ورجلٌ محنك ذو تجارب قاساها في حياته الشاقة، فلبس لكل حالة لبوسها، وقابل الخير والشر بعزم وحزم، وهو بعد غني النفس، فقير اليد، ترك من خلفه أولاداً يصفيهـم الود، ويشاطرهم الحب دُونَ أن يترك لهم مالاً يقيهم نكبات الدهر، وصروف الأيام! لا يقولُ هذه الأبيات إلا أديبٌ كبير مثل حفني ناصف، ذلك الرجل الذي برع في فنون شتى لا في فنٍّ واحد.

ومن بلاء الذين يبرعون في فنون مختلفة، أن تضيق جهودهم فلا تُذكر على حقيقتها، لأنَّ الذين يحاربون في عدّة جبهاتٍ مختلفة ليسوا كالَّذي يحارب في جبهة واحدة، فصاحب الجبهات المختلفة، يتركُ الجبهة إلى غيرها وقد نالَ منه التعب، وأضناهُ الجهد، فيبذلُ قدر طاقته مكافحاً مناضلاً، ثم يلقى الجبهة الثالثة، ومعه جهادُ جبهتين سابقتين، فيتشجّع ويقابلُ الصعاب بثغر باسم، وعزم لا يفتر، أما صاحب الجبهة الواحدة، فقد خبر دُروبها، وعرف آكامها ووهادها، وصابر مكايدها وأهوالها حتى استطاع أن ينتصر بجهده انتصاراً تلوح معالمه ويُدوي صداه، فلو اقتصر حفني ناصف على الشعر يُوليه همّه، ويحصر في أجوائه نشاطه لكان شاعراً له سمعة أحمد شوقي، ولو قصر حفني ناصف جهده على النثر الفني يكتب المقالات والرسائل، ويصوّر خلجات النفوس في أدب يترقرق ترقق الماء في الغدير؛ لكان

كاتباً له سمعة مصطفى لطفي المنفلوطي، ولو اقتصر على البحوث العلمية بفرعيها اللغوي والفقهية لكان عالماً كبيراً كمحمد عبده أستاذه وصديقه، ولو اقتصر على المسائل القانونية التي عالجها قاضياً ومشرعاً، لكان قانونياً ضليعاً كعبد الرزاق السنهوري!

لم يقتصر حفني ناصف على فرع واحد أو فرعين، ولكنه جال وصال في شتى ضروب المعرفة، وطار وحلّق في أفانين الفنّ، فترك آثاراً مختلفة ذات تشعب وافتراق، ولا أعني بذلك أن آثاره الباقية لم تكن في كثير منها تحلّق في الذروة، فله سبق مشهود في كثير مما روي عنه شعراً ونثراً، ولكنه سبق المتعب المجهود، الذي تكاثرت أعباؤه، وتنوّعت مناصبه، واختلّفت شؤون حياته، رفعاً وخفضاً، ومدّاً وجزراً؛ وذو الموهبة مهما قلّ إنتاجه في ناحية من نواحي الإبداع، فإنّ هذا القليل ينبىء عن معدن نفيس، يتمتّى القارئ لو كثّر ونما، ولعلّ حفني كان يودّ أن يفرغ لموهبته الأولى في الشعر، ولكن هل يملك الإنسان من أمر نفسه في الحياة شيئاً، وهو مشهود المكانة، متعدّد المواقف، يدعوهُ كلّ منصب فيستجيب، ويناديه كلّ موقف فلا يتخلّف، بل يكون رئيساً نابهاً بين زملائه المشاركين، هكذا كان حفني المدرس بكلية الحقوق، والمدرس بمعهد الخرس والعميان، والمترجم بوزارة الحقانية، والقاضي القانوني في محاكم الدولة جنوباً وشمالاً، والمفتش الأول للغة العربية في وزارة المعارف، ورئيس المحافل العلمية في ندوات البحث والمناظرة، والمصلح الاجتماعي في جمعيات الخير والمعروف، ثم هو بعد هذا الكاتب الشاعر الباحث المربّي المؤلّف! وله في كلّ من ذلك نتاج مرموق وموقف مشهود.

ولد حفني ناصف في إحدى قرى مديرية القليوبية في ١٦ من سبتمبر ١٨٥٥م، في أسرة ذات مجد سالف، وفقر حاضر؛ إذ توفّي والده وهو جنين في بطن أمّه، فكفله خاله، كما كفل حافظ إبراهيم خاله أيضاً، والخال إذا كان ربّ أسرة كبيرة فإنّه مضطر لأنّ يجود ببعض ما يحوز على ابن أخته، وكانت ظروف حفني أفضل من ظروف حافظ، لأنّ والد شاعر النيل لم يترك له شيئاً ما، أمّا والد حفني فقد ترك له بعض ما يقوم به الأود، فنشأ كما ينشأ أبناء القرى متوجّهاً إلى فقيه القرية ليحفظ كتاب الله، وقد لاقى التلميذ من شيخه عناء، لأنّ رجال التحفيظ بالأمس، كانوا يروّون العقاب البدني طريق الحفظ والتسميع، وقد صبر التلميذ ما صبر حتى حفظ

القرآن الكريم، وعلم من زملائه الذين كانوا معه ثم رحلوا إلى القاهرة لتلقي العلم بالأزهر، وجاؤوا في شهور العطلة، علم أن هناك علماً أكثر من علم الشيخ، ومعهذا للعلم يخرج منه الطالب أستاذاً جليلاً، فدفعته نفسه إلى السفر إلى القاهرة ليكون أحد هؤلاء الأزهريين، لم يستشِر أمه أو خاله، بل سافر على قدميه في سن الرابعة عشرة حتى بلغ مراده، وطار النبأ إلى والدته، فاستعطفت أخاها كي يمد له معها العون، وعكف الشيخ الصغير على علوم الأزهر مدى عشرة أعوام، وعلى الاتصال بالصحف الأدبية والعلمية قراءةً واستيعاباً، حتى عُرف بالنبوغ في محيطه، وقال الشعر المناسب لسنه، وسعد بنشره في بعض الجرائد، وقد افتتحت مدرسة دار العلوم في هذا الأمد، واختارت طلابها من نابغي الأزهريين، وفي طليعتهم حفني ناصف، وكان نظامها التعليمي مضبوطاً منسقاً على غير ما عهده في حلقات الأزهر بالمسجد الجامع، فسعد بما تهيأ له من مورد، وقال في ذلك مراسلاً أحد أصدقائه إذ ذاك:

«حتّى سمعت بدار العلوم، ذات الفضل المقسوم، فوردتُ منهلها الرائق،
واهتديتُ بنورها الشارق، فما سمعت أذني بأطيب مما رأى بصري، فنظمتُ نظري
في سلكها، وأطربتني حمائم الفنون تغرّد على أيكها». وقد نقلت هذا النصّ ليعلم
القارئ طريقة التعبير الكتابي الذائعة في هذا العهد، وكيف احتذاها الناشء
المتطلع، وليعرف أنه أيضاً قد ألّم بدروس الأدب والشعر قدر طاقته، فأحسن
الاقتياس من قول القائل:

كانت مساءلة الركبان تخبرنا عن جابر بن سعيد، أطيب الخبر
حتى التقينا فلا والله ما سمعت أذني بأحسن مما قد رأى بصري

وقد تخرّج من دار العلوم، فعُيّن مدرساً بمدرسة الخرس والعميان، وهو تعيين غير مناسب لمؤهله العلمي، ولكن صلة حفني بالشيخ محمد عبده وبعض المشجعين للثورة العربية جعلت التعيين عقاباً لا وظيفة، وحفني واسع الصدر، أخذ كل شيء مأخذ الجدّ، ففكر وتأمل وجرب، حتى وُفق في عمله، ولكن أحد رجال القانون المرموقين في الدولة احتاج إلى سكرتير يُتقن اللغة العربية، ليكون ساعده في ترجمة ما يُريد من القوانين الأوروبية، وقد اختبر بعض المتقدمين للسكرتارية، فاختر من فيهم حفني ناصف، وحفني نشيط غير خامل، إذ عكف

على فهم ما يُشاورُ في شأنه من القوانين حتّى ألمّ إماماً كافياً بأكثرها، وصارت له بذلك دُرّة رشّحته للتدريس بكلّية الحقوق، وهي موطن القوانين ومجالُ دراستها، فأكبّ على دراسة مواد الكلية، ليكون في مستوى أساتذتها، وتضلّع في ما عكف عليه حتّى أقيم امتحانٌ لاختيار القضاة بالمحاكم الأهلية، فتقدّم لامتحان وأدرك الفوز، فصار رجلُ اللغة العربية قاضياً رسمياً يزاملُ من تخصصوا في القانون في كلياته المتخصّصة، ولكنّ القاضي لم يترك مجال التفكير في ما يشغل الأمة أثناء قيامه بالقضاء، إذ كان يُسهم بتناجه الفكري شعراً ونثراً في كل مناسبة تدعو إلى القول، وصارَ اسمه يأتلق جوار شوقي ومطران وحافظ وصبري من الشعراء، وجوار المويلحي وعلي يوسف والبكري من الكتّاب.

وبعض الذين يتحدّثون عن النهضة النثرية في أوائل هذا القرن، يجعلون حفني ناصف من مدرسة عبد الله فكري التي تميل إلى النثر الفنّي المسجوع، وقد يعدّون ذلك مدعاة تأخّر لا تقدّم، وهو خلطٌ نعرفه لدى من يتصدّرون للتاريخ الأدبي المعاصر، فيعرفون بما لا يعرفون، لأنّ حفني ناصف أولاً لم يلزم طريقة النثر الفنّي في كلّ ما كتب، بل كان يرسل المقالات الصحفية على النهج الصحافي، الذي يميل إلى الاسترسال دون قيد، وله في هذا المجال مقالات يذكرها قراء اللواء والمؤيد والجريدة، بل إنه دُعي لرئاسة تحرير المؤيد بعد اعتزال صاحبه الشيخ علي يوسف، فاعتذر مؤثراً عمله الحكومي على موضع قد يكونُ غيره أولى منه في القيام عليه، هذا شيء. والشيء الآخر، أنّ الأسلوب الفنّي المسجوع لا يُعدّ موضع انتقاص، إذا جاء وفق الطبع، ومتمشياً مع المعنى المراد دون تكلف، بل يُعدّ مصدر نبوغ وتنفوّق لصاحبه، وهل كان بديع الزمان الهمذاني إلا سابقاً مجلياً في مقاماته، لأنّه انفرد بلونٍ من السجع المصور الذي يرسم المواقف والعواطف ويتغلغل إلى النفوس في قوّة وابتكار.

هكذا كان نثرُ حفني ناصف؛ يقرأه الدارسون فيعجبون بدقّة تصويره، وسلامة تعبيره، فكيف يكون الأسلوبُ المسجوع موضع مذمة على الإطلاق، وإذا أردنا مثلاً مما كتب حفني بأسلوبه الفنّي المطبوع، فلنقرأ رسالة للسيد البكري حين تحاشى تحيته وهو زائره، وفي ساحة منزله، وانصرف إلى غيره متجاهلاً وجوده، فلم يشأ

حفني أن يسكت على هذه الغميمة، بل وجه إليه في الصحف رسالة أدبية ممتازة، قال فيها:

«زرتُ السيد، وسألتُ عنه، فقليل: إنه انصرف لتشجيع زائر، وهو عما قليل حاضر، فانتظرتُ رجوعه، وترقبت طلوعه، ولم أزل أعدّ اللحظات، وأستطيلُ الأوقات، حتى بزغت الأنوار، وارتجّ صحن الدار، وظهر الاستبشار على وجوه الزوّار، وجاء السيد في موكبه، وجلالة محتده ومنصبه، فقمنا لاستقباله، وهينما بكماله، فمرّ يتعرّف بوجوه القوم حتى حاذاني، وكبر على عينه أن يراني، فغادرني ومن على يساري، وأخذ في السلام على جاري، وجرّ السلام الكلام، وكثر القعود والقيام، وأنا في هذه الحال أوهم جاري، أني في داري، وأظهر للناس أنّ شدة الألفة تُسقط الكلفة، ومرّ السيد من أمامي ثلاث مرات، ولم يتدارك ما فات! وكنت أظنّ أنّ مكاني عند السيد لا تُنكر، وأنّ عهدي لديه لا يُحفر، فإذا أنا لست في العير ولا في النفير، وغيري عند السيد كثير، وذهاب صاحب أو أكثر عليه يسير.

ومن مدت العليا إليه يمينها فأكبر إنسان لديه صغير»

والرسالة ذات طول، وهي من هذا الطراز الأنيق، فهل يكون ما بها من السجع المطبوع مدعاة تخلف وانحدار؟ هذا عن نثر الرجل، أما شعره فقد سار أكثره على الأفواه، لأنّ الشاعر الكبير، وإنّ زاملَ الفحول من أنصار الجزالة كان يميل في أكثر شعره إلى السهولة، وقد قرنه الأستاذ محمود غنيم في كتابه الخاص به بالبهاء زهير الشاعر المصري الناشئ في العصر الأيوبي! وهو شبه قريب غير بعيد، فالشاعران يتمتّعان بصفاء الروح، وعذوبة التعبير، مع عدم الغوص في أفكارٍ تُثقل الشعر فتعجزه عن الطيران، وإذا كان شعر حفني من هذا الطراز، فهو أقرب مسلكاً للنفوس، وأسرع سيراً على الألسنة.

لقد كان قاضياً في محكمة طنطا، وأصدر حكماً صادقاً مخلصاً لم يرتح له أولو الأمر ممّن كانوا يتوقّعون ثبوت الاتهام على بريء لم يقترب، إرضاءً لبعض الرؤساء من ذوي الغرض، ولكنّ الحق لا يعدم النصير، فقد عصّف القاضي الفاضل بكل ما جاءه من الشفاعات المغرضة، وهتف بالحكم جهيراً ساطعاً لا يحتمل اللبس، وضاق ذوو الأمر به، وهم لا يستطيعون عزله بحكم استقلال القضاء، فأرهقوه بنقله إلى أقصى الصعيد قاضياً في محكمة قنا، ولا شك أنّ هذا النقل كان ظُلماً جائراً لا

مبّر له، وكان فوق احتمال قاضي ذي أسرة كبيرة يرعاها بالقاهرة، ولكنه أراد أن يفوت فرصة الشماتة على من نقلوه، فنظم قصيدة مشتهرة ذاعت وصلصلت في الآذان، حتى قرّحت الأسماع، لأنه في قصيدته لم يلجأ إلى التبرّم، بل جعل النقل مكافأة طيبة، وأملأ كان ينتظره، وكمداً للحساد، وغيظاً للأعداء، هكذا قرّر الشاعر المتهكّم حين قال مخاطباً وزير الحقانية الذي أمضى قرار النقل:

رقيتني حسّاً ومعنى	فلصنعك الشكر المثنى
وجعلت رأس الحاسد	ين بمصر من قدمي أدنى
أسكنتني في بقعة	فيها غدوت أعز شأنا
بلد إذا حللت به	قدماك قلت: حللت حصناً
قالوا شخصت إلى قنا	يا مرحباً بقنا وإسنا
ها قد أمنتُ البرد والبر	داء، والقلب اطمأننا
فالشمس تكفل راحتي	فكأنها أمي وأحني
عش في القرى رأساً ولا	تسكن مع الأذئاب مُدنا
واربأ بنفسك أن تُرى	مستمرئاً في العيش جُبنا

والبيت الأخير هو بيتُ القصيد، من قصيدة طويلة ممتازة لا أستطيع نقلها في هذا المقام، لأنه ردٌّ صريح على ذوي الجبن، ممن يطيعون أوامر الرؤساء وإن حادت عن الحق، وقد سارت القصيدة مسير الشمس منذ نشرها في الصحف، وعارضها كثير من الشعراء مما يفتح مجالاً لموازنة نقدية مثمرة، وممن عارضوها هذا الذي خاطب الشاعر الكبير قائلاً^(١):

حَفَنِي قَلْبَتَ الْحَقِّ مُجْتَر	ثأ فِدَعْنَا مِنْكَ دَعْنَا
قَدْ نَاحَ قَلْبُكَ مَعُولاً	لَكِنْ شَعْرَكَ قَدْ تَغْنَى

ونحن نعرف أن القاضي بالمحاكم مرهقٌ بعمله المضني، لأنه يضطر إلى قراءة مذكرات قانونية، واستماع مرافعات الاتهام والدفاع، ومناقشة الشهود، ثم يخلو لنفسه ليوازن بين ما رأى وسمع وقرأ، هذا في القضية الواحدة، مع أن عشرات القضايا تُعرض في الأسبوع الواحد، وهذا الجهد المتّصل قد شغل كثيراً من القضاة عن ممارسة هواياتهم الذاتية في الأدب والعلم والفن، ولكن حَفَنِي ناصف لم ينسَ

(١) ديوان (حنين الليالي) للدكتور محمد رجب البيومي: ص ٢١٩.

أنه رجل اللغة العربية، وأن لها أمانةً في عنقه مهما بذل في سبيلها من مشاق.

وقد كانت قواعد اللغة العربية من نحو وصرف وبلاغة تُدرس في كتب ألفَت للكبار لا للصغار، فالأزهريّ المبتدئ يبدأ بدراسة شرح الأجرومية للعلامة الكفراوي، وهو كتاب لا ينفع غير من له إلمام وإف بالقواعد الأولى للنحو، وغير الأزهري من تلاميذ المدارس الابتدائية يبدأ بدراسة (تقريب فن العربية لأبناء المدارس الابتدائية) وهو كتاب وضعه الشيخ أحمد محمد المرصفي في دروس النحو، وهو صورة مختصرة للمنهج الأزهري في التأليف، حيث يبدأ بتعريف المصطلح، ثم يأخذ في إخراج المحترزات، ويأتي بالاعتراضات التي يُمكن أن توجه للتعريف، وهذا كله بمنأى شاسع عن إدراك تلميذ صغير، يريد أن يعرف المراد من كلمات الاسم والفعل والحرف على وجه يتفق وإدراكه المحدود.

لذلك قام الأستاذ حفني ناصف برياسة لجنة علمية من زملائه مُهمتها تأليف كتب مدرسية في النحو والصرف والبلاغة على نحو يُفيد الطالب المبتدئ، فألفت سلسلة الدروس النحوية في أربعة كتب، الأول والثاني والثالث للمدارس الابتدائية، والرابع للمدارس الثانوية، ثم اتجهت لتأليف كتاب خاص بالبلاغة وفروعها، من معانٍ وبيان وبديع، فظهر التأليف المدرسي لقواعد اللغة العربية لأول مرة على نحو تربوي يفيد التلميذ والمدرّس معاً، وتقوم الفكرة العامة لهذه السلسلة الدراسية على التدرّج المتصاعد، بحيث يكون دَرَسُ باب كالمتبدأ والخبر سهلاً في الجزء الأول ثم يضاف إليه فيما تلاه ما يكمله من التقسيمات اللازمة، وقد ظلت هذه السلسلة تُدرّس في المدارس المصرية قرابة نصف قرن، فأثت أكلها على قدر ما يتيسر، ثم أُتبعَت بسلسلة النحو الواضح للأستاذين علي الجارم ومصطفى أمين، فاكتمل التأليف المدرسي بها على وجه مفيد.

- ٢ -

حين تنقّل الأستاذ حفني ناصف في عواصم المديریات بالمملكة المصرية، رأى من سعادته الأدبية أن يُنشئ مواسم للمحاضرات الأدبية لأول مرة في الأقاليم، إذ كانت المحاضرات مقصورةً على الوعظ الديني، ومكانُها المساجد الكبيرة، وصادفت الفكرة هوى في النفوس، فكان الإقبال شديداً على هذه المحاضرات، وقد حاصرَ

حفني عن حسان بن ثابت، وشجّع غيره على مواصلة البحث، فرأت طنطا وقنا وبعض الحواضر الأخرى نشاطاً فكرياً، كان الأساس للمحاضرات العامة التي نراها اليوم.

وحين انتقل إلى القاهرة قاضياً بمحكمة الأزيكية، رأى أن يتّسع بالمحاضرات إلى مسائل هامة تشغل الأذهان وتتطلب الحلّ السريع، فعمل على إنشاء نادٍ لدار العلوم يقوم أعضاؤه بالنشاط الفكري في العاصمة، وأسندت إليه رياسته عن سُرور وارتياح، وهنا وَجّه الأنظار إلى ضرورة بحث موضوعين هامّين يمثلان أزمة فكرية معاصرة، أحدهما: موضوع الألفاظ الأعجمية التي بدأت تغزو اللغة العربية وثانيهما: موضوع الربا، والحديث عن دور البنوك الاقتصادية التي أُنشئت في البلاد، ومدى موافقة أعمالها لما تقرّره الشريعة الإسلامية.

وقد بدأ بالموضوع الأول، فعقد ندوة جمعت أساطين المفكرين من رجالات مصر، لبحث الموضوع من جميع أطرافه، وبدأت الندوة بتقديم لحفني ناصف يشرح موضوع الاجتماع وأهميته، ثم قام الأستاذ محمد الخضري، فمال إلى طريقة اتباع التعريب في تسمية المسمّيات الحديثة، واصطلاحات العلوم، وعرض شذوراً من تطور اللغة العربية التاريخي مؤكداً أن المحافظة على لغة الأجداد لا تكون بالتحجّر الجامد على ألفاظ قديمة تُختار لأسماءٍ مستحدثة ليسَ بينها وبين ما اختيرت له صلة قريبة أو بعيدة، بل بزيادة ما يمدّها بالنماء والحيوية بإيجاد ألفاظٍ جديدة تُواكب العصر المطّرد في نموه الحيوي، والدعوى بأن عدم الحاجة إلى المزيد في لغة ذات قواميس واسعة: دعوى تخالف ما عليه لغاتُ العالم جمعاء، لأنها دائماً تضيف الجديد إلى قاموسها المتنامي، مع أنّ الواقع المشهود في الصحافة المعاصرة هو استعمال الألفاظ الأوروبية دون تعريب كالتليفون والأوتومبيل وغيرهما، فلا بدّ إذن من اختراع أسماءٍ تناسب اللغة العربية لأمثال هذه المخترعات! وقد قام أحمد زكي باشا فشكا مَرّ الشكوى مما يكابده أثناء ترجمته للبحوث القانونية من عناء في إيجاد ألفاظ جديدة للمصطلحات القانونية، وله اجتهادات في هذا المجال لا أستطيعُ الحكم عليها.

وقام أحمد فتحي زغلول باشا فأفاض في وجهة نظره، وأكد أن لغات دول أوروبا الحديثة جميعها متطورة، وأنّ الفرنسي المعاصر من حيث هو مجرد

مواطن غير متخصص لا يعرف كلمة واحدة من أصل لغته القديمة، والفرنسيون يستعبرون من جميع اللغات لا من اللغة اللاتينية وحدها، وأحياناً يستعبرون كلمتين؛ من كل لغة كلمة، وينحتونهما ويصقلونهما، ثم يدمجون هذا المزيج في لغتهم، ويفسحون له مجالاً في كتب اللغة الجديدة باعتباره صار لفظاً فرنسياً، فليس لنا أن نتمسك بالقديم لقدمه، ولكن لا بد من التعريب المناسب.

أما صاحبُ الرأي المخالف فهو الأستاذ أحمد الإسكندري الذي ألقى بحثاً مستفيضاً في منع طريقة التعريب في تسمية المسميات الحديثة، واتباع طريقة التوسع في استعمال الألفاظ العربية ذات الوزن الخفيف على السمع.

ثم كان القول الفصل في الكلمة النهائية التي اختتم بها حفني ناصف الندوة فلخص ما قيل، وأبدى رأيه منتصراً لمن قال بضرورة التعريب، وانتهى المتدون إلى قرار نهائي في تسمية المسميات الحديثة جاء في نصّه: «يبحث في اللغة العربية عن أسماء المسميات الحديثة بأيّ طريق من الطرق الجائزة لغة، فإذا لم يتيسر ذلك بعد البحث الشديد يُستعار اللفظ الأعجمي بعد صقله ووضع على مناهج اللغة العربية، ويستعمل في اللغة الفصحى بعد أن يعتمد عليه مجمع لغوي سيؤلف لهذا الغرض». وجاء القرار بتوقيع (حفني ناصف رئيس النادي).

أما موضوع الرّبا فقد كان أكثر إثارة، لأن الجمهور يهتمّ بالبحوث الدينية ويراقبها دون إغفال، وإذا نشرت في الصحف سارع المثقف وغير المثقف بقراءتها، كلٌّ على حسب فهمه، وقد دعا حفني ناصف إلى بحثه في ندوة أعقبت الندوة الأولى بنادي دار العلوم بدأها بضرورة البحث في ما تدلّ عليه كلمة الرّبا، وأن الذين سيتحدثون عن هذا الموضوع لهم من الكفاية العلمية ما يهدي إلى الصواب، وهذا ما كان فعلاً، فقد تحدث السيد محمد رشيد رضا، والشيخ عبد العزيز جاويز، والشيخ عبد الوهاب النجار، والشيخ محمد الخضري، ونادوا بوجوب إنشاء مصرف مصري، يُزاحم البنوك الأجنبية التي ملكت اقتصاد البلاد، وحدّدوا المراد بلفظ الرّبا، ومدى انطباقه على المعاملات المعاصرة، وقام حفني ناصف ليقول في خطبته الدقيقة:

«لستُ أخشى اعتراض الذين يبيعون السِّلَم المخزَّب للقرى، ويتعوّذون من القرض بفائدة معتدلة، وإنما أخشى الذين يرمون دين الإسلام بالجمود، ويصمّونه

بمضادة العمران، مع أنّه صالح لكلّ زمان ومكان، ثم انتقل إلى القول الذائع (كلّ قرصٍ جرّ نفعاً فهو حرام) فنفي أن يكون حديثاً نبوياً، لأنّ في رجاله متروكاً، وقد قالوا: إنه بكلام المناطق أشبه، وإذا كانت الندوة لم تنته إلى قرار حاسم في تحديد المدلول بلفظ (الربا) كما انتهت إلى قرار حاسم في استعمال اللفظ الأعجمي بعد صقله، فإنّها فتحت أبواباً جديدة للبحث الفقهي، وشجعت الفقهاء على مواصلة البحث الجاد، ولا زلنا إلى الآن نقرأ بحوثاً كثيرة في الربا بين متسرّعين ومتّئين، ولا بدّ أن تُقرر المجامع الفقهية رأياً يكون موضع اتفاق!

ترك حديث النادي بمحاضراته الدسمة - ذات التوجيه الحار إلى ضرورة البحث اللّغوي والاجتهاد الفقهي - إلى بعض آثار حفني ناصف التاليفيّة، فقد دُعي إلى المحاضرة عن تاريخ الأدب العربي في الجامعة المصرية التي كان من دعاة إنشائها، فقد جاهد مع سعد زغلول وقاسم أمين ومصطفى كامل في الدعوة إلى إبرازها من عالم الأمانى إلى عالم الواقع، وحين بدأ العمل بها سنة ١٩٠٧ اختير أستاذاً لتاريخ الأدب العربي بها، فألقى محاضرات لم تُطبع إلا بعد وفاته بأمد بعيد.

وقد كان الرجل يسير في طريق لم يسز فيه باحث عربي من قبله، فاتّسع بمفهوم تاريخ الأدب إلى مفهوم آخر يتضمّن فقه اللّغة العربية وأصولها اللّغويّة، حيث فسح المجال لبحوثٍ شافية عن حروف الهجاء وطريقة نطقها في القبائل، وعن المخارج واللهجات والإمالة والإنباع، والخطّ العربي في زمنه القديم من عهد عرب الرعاة والنبط والبابليين، ونشأة الشكل والنقط، وأنواع الخطّ من مُسند ومقوّر وكوفي ومبسوط، ولا أشكّ في أنّ حفني ناصف قد ألمّ بمنهج المستشرقين في كتابة تاريخ الأدب، ولكّنه عدل عنه إلى حيث خلط به غيره، أو امتدّ بكلمة الأدب من مفهومها الخاص إلى المفهوم العام، وهذا ما صنعه مصطفى صادق الرافعي رحمه الله حين كتب كتابه الرائع (تاريخ آداب العرب) لأنّه تحدّث عن طريقة المستشرقين، فقال: إنهم اصطَلَحُوا^(١) على تقسيم التاريخ الأدبي إلى عصور كالتاريخ السياسي، ولكن طريقة العصور لا تصلح لكتابة تاريخ الأدب وإنّ صلحت لتكون تاريخاً لبعض أجزاء الحضارة العربية، ومن ثمّ راح الرافعي يتحدّث في الجزء الأول عن عُيوب النطق العربي وعن الارتجال والاشتقاق والمجاز والحقيقة، والإبدال والقلب والنحت

(١) تاريخ آداب العرب، للرافعي ١٨/١ ط رابعة.

والمترادف والمشتراك، والمسلسل والأضداد والدخيل، وما يتصل بفقه اللغة من هذه الشجون.

وإذا كان حفني قد بدأ محاضراته سنة ١٩٠٧، وأخرج الرافعي كتابه في طبعته الأولى سنة ١٩١١ فأنا أميلُ إلى أنه توسع في شؤون فقه اللغة متأثراً بحفني ناصف، لأن محاضراته كانت عامة، وكان بعضها ينشر في الصحف، على حين نرى جورجى زيدان في كتابه (تاريخ آداب اللغة العربية) وقد ظهر قبل كتاب الرافعي بأشهر معدودة ينأى عن طريقة حفني والرافعي إلى ما هو أقربُ إلى تاريخ الأدب في مفهومه الخاص، وقد سار على نهج زيدان من تلاه من مؤرخي الأدب على طريقة العصور، مثل الشيخ أحمد السكندري ومصطفى عناني في الوسيط. وأحمد حسن الزيات في تاريخ الأدب العربي، ومؤلفو كتاب المفصل بجزأيه الجليلين.

وحفني بعد ذلك رائدٌ في مجاله، والرائدُ يبتدع ولا يتبع، كما كان رائداً في بحوثه التي تقدّم بها إلى مؤتمرات الاستشراق، إذ مثل مصر في عدد منها، وحازت بحوثه تقدير المؤتمر، فأشار القائمون على تنظيمه بطبعها، على حين لم تُطبع بحوث زملائه، وفيهم من هو أعلى منه مركزاً في مناصب الدولة بمصر، لأن الشأن لدى هؤلاء شأنُ الإبداع لا شأنُ الرتب والألقاب.

ومن البحوث التي قام المؤتمر بطبعها بحث حفني عن (مميزات لغة العرب) الذي تقدّم به إلى مؤتمر فيّنا، المنعقد سنة ١٨٨٦، وقد جعله خاصاً بدراسة ميدانية للهجات مديرتي المنيا وبني سويف، حيث لاحظ فروقاً في نطق بعض الحروف بين أبناء المديرتين، وأرجع هذا الاختلاف إلى القبائل العربية التي نزلت بالمكائين بعد الفتح الإسلامي، فعرّب قريش تتجلى لهجتهم لدى سكان مديرية المنيا، وغير قريش تبدو لهجتهم لدى سكان مديرية بني سويف، وهو اجتهادٌ يصيب ويخطئ، ولكنه بحث ميدانيّ يعجب الدارسين، ويروّنه على ما به من مآخذ، سبيلاً لمباحث أخرى تنحو منحاه، متباعدة عن مآخذه.

والعجيبُ أن الرجل كتب هذه البحوث جميعها وهو في مناصب لا تتصل باللغة، فقد كان يُلقب محاضراته بالجامعة وهو قاضٍ مُرهقٌ بأعباء الوظيفة الدقيقة، كما كان يبعث إلى المؤتمرات وهو في القضاء تارة أو في مدرسة الحقوق تارة أخرى، ولعله لو فرغ للبحث الأدبي دون شاغل آخر لرزق توفيقاً كبيراً أكثر مما حازه، ودروسٌ

الجامعة تحتاج إلى نصب وكدح، وإلى قراءة في مخطوطات لم ترَ النور لعهد، فكيف استطاع أن يقوم بها، وهو صاحبُ بالَيْن، فصباحُه في المحكمة، ومساوؤه في قاعة المحاضرات بالجامعة، ذلك عبءٌ كبير، ولا يعرف الشوق إلا من عاناها!

ونحن نقرأ المصحف الشريف برسمه وطريقة الوقوف على كلماته، ورموز السجدة والأربع، ولا ندري أن من قام بهذا الجهد الكارب حفني مع زميله الإسكندري وعناني، فالآية التي تحتلُّ سطراً واحداً تحتاج إلى مراجعة في طريقة الرسم لتأتي مطابقة للرسم العثماني الذي التزم به حفني وزميله، وتحتاجُ إلى بحثٍ في القراءات والقواعد النحوية، لترسم علامات الوقف والوصل على الوجه الصحيح، وقد أرهقت اللجنة نفسها حين جعلت علامات للوقف الواجب والوقف الجائز والوقف الممتنع، وما يدورُ هذا المدار.

ومن أعجب العجائب في دنيا الأخلاق، أن يتعدّد طبعُ المصحف الشريف كما انتهى منه حفني وزميله، ويجراً ناشر الكتاب العزيز على أن يذكر في الخاتمة ما كتبه المحققون عن إيضاح الرموز، ثم لا تُذكر أسماءهم، بل يُذكر أناس آخرون قاموا بالإشراف المطبعي فحسب! وذكرُ أسمائهم بدل الأسماء الأصلية تدليسٌ كبير، حيث يظن الظان المتسرّع أنهم أصحاب الجهد العلمي ما داموا قد كتبوا أسماءهم بآخرة المذكرة التفسيرية التي كتبها الأصلاء، وقد استمرّ عمل اللجنة الحفنيّة ست سنوات نال بعدها مئة جنيه على مجهوده المضني من الحكومة المصرية، ويقول الأستاذ عصام الدين حفني ناصف -نجل الرجل الكبير- متهكماً^(١): «لقد كانت الحكومة سخية حيث قدّرت جهوده في ست سنوات بمئة جنيه، أي بمعدّل ١٣٠ قرشاً في الشهر». وأنا أقول للأستاذ عصام: إن ما عند الله أوفى وأعظم، وسيأتي والده يوم القيامة حاملاً كتاب الله بيمينه، أفما يكفي هذا!.

أما أطرف بحوث حفني ناصف العلمية فهو ما كتبه عن قرية السيدة مارية القبطية زوج رسول الله ﷺ، فقد كان يبحث مبدئياً عن كلمة حفني التي سُمّي بها، إذ رأى أناساً في مديريات مختلفة ينطقون الحاء بالكسر والفتح والضم، لكل إقليم لهجته في النطق، فلجأ إلى المعاجم اللغوية فلم يظفر بباطل، فاهتدى إلى كتاب (معجم

(١) مجلة المقتطف، ديسمبر سنة ١٩٣٢، ص ٦٠١.

البلدان) لياقوت الحموي، فقرأ فيه أن (حفن) بفتح الحاء ناحية من نواحي مصر، وفي الحديث: «أهدى المقوقس إلى النبي ﷺ مارية من حفن من رستاق أنصنا»، فكان هذا النص الكريم باعثاً لنفسه على البحث عن تلك الناحية التي سعدت إحدى بناتها بالانتساب إلى رسول الله زوجاً ذات ولد، فأخذ يوالي البحث حتى اهتدى إلى حديث عن (أنصنا) فعرف أن ابن دقماق قال في كتاب الانتصار: «أنصنا بلدة قديمة بها آثار عظيمة، وهي على ضفة النيل قبالة الأشمونين». وحفني يعرف بلدة (الأشمونين) فاتجه إليها كباحث في علم الآثار، وأخذ يحوسر بين أطلالها، ويحاول قراءة ما تحمله تماثيلها من إشارات، ثم واصل القراءة، فعرف أن الناحية تضم قرية (حفن) وكانت مُعفاة من الضرائب في عهد الصحابة، وقد بنى بها عبادة بن الصامت مسجداً تجدد بعد موته، وصارت القرية تسمى باسمه! وإذن فحفن بلدة مارية قد حظيت باهتمام الصحابة تكريماً لنبي الإسلام، وأصبحت ذات مسجد حافل، وسُميت باسم صحابي كبير تكريماً لأعماله بها، وشاء الأستاذ أن يختلط بأبناء القرية، فوجد عندهم جميعاً خيراً يتوارثونه، وهو أن مارية من بلدتهم، فاطمأن إلى ما انتهى إليه، وكتب بحثاً مستفيضاً عن تحقيقه الأثري، نشره أولاده بعد كتابته بثلاثين عاماً بمجلة الهلال (نوفمبر سنة ١٩٣٢م).

وبعد فهل لي أن أشير إلى المستفيض الذائع من فكاهات حفني ناصف، إذ عُرف بالنادرة الطيبة، والفكاهة الباسمة حيناً، اللاذعة أحياناً، إذ كانت روحه روح إنسان منبسط باسم للحياة على فرط سمنه، وضخامة جثته حتى ليصدق عليه قول القائل:

لئن ناء من سمن جسمه فما عرفت روحه ما السمن

ولكن بعض هذه النوادر مدونة في مقالات صحفية، وقد وعى الأستاذ الشاعر البليغ محمود غنيم قدراً منها في كتابه عن حفني ناصف، والرجوع إليها مما يسر النفس ساعة الضيق، فربّ فكاهة كشفت همّاً، وأزاحت كرباً، وبعض الفكاهات لا يفهم إلا لمناسبتها الطارئة، فلا بدّ من الإلمام بالجو السياسي أو الاجتماعي الذي نطق فيه القائل بفكاهته، وتعبّ هذه المناسبات ممّا يطول، وقد انتقل حفني رحمه الله إلى جوار ربه سنة ١٩١٩، وقامت الثورة، فلم تستطع البلاد أن تفيه حقه من التأبين كعادتها حينئذ مع الراحلين، أيام كان تقدير النبوغ أمراً مفروضاً لا حائل دونه، ولكن كتب الرجل وشعره ونثره تشهدُ بقدرة، وهي حفلة ذكرى تتصل باتصال

قراءتها المتتابة، وربّ كتابٍ مجفوّ في مكتبة نائية أبلغ من تمثال ضخّم، أقيم نفاقاً
لمن أورث البلاد رهقاً وضيقاً، غير ناظر إلّا لكسبه الشخصي، فغدا تمثالُه مذكراً
بسوءاته، وكان من نفعه أن تنقطع الذكرى، ويخفت الحديث.

* * *

حمد الجاسر علامة الجزيرة العربية

- ١ -

حبُّ الوطن، معنى يدّعيه كل إنسان، ولكنَّ المحبَّ الحقيقي هو الذي يسعى لرفعة شأنه، وتحقيق تاريخه، وقد ألهم الشيخ حمد الجاسر حبَّ الوطن، لا بالمعنى اللَّفظي الذي يدّعيه من لا يبذل شيئاً نبياً عن عميق محبته، بل بالمعنى الإيجابي الذي دفعه إلى استجلاء كلِّ غامضةٍ من غوامض الأماكن المترامية في بلاده، على سعتها العريضة الشاملة للجزيرة العربيّة، فقد قرأ حمد وهو شاب ما وقع تحت يديه من شعر الجاهليّة والإسلام، ووقف على أسماء أماكن تتردّد دُون أن يَعرف أين هي، ومن ساكنوها من القبائل والأناس، وما مرّ بها من أحداث التاريخ سلماً وحرباً، ورخاءً وعُسراً.

وأخذ يرجع إلى أمّهات الكتب الخاصّة بتحديد بعض هذه الأماكن فرأى من التّضارب والتناقض ما أوقعه في مزيد من الحيرة، وكان مُنتظراً بمثله أن يكتفي بما قرأ لهؤلاء الكبار من أمثال البكري وياقوت والإدريسي وابن حوقل، ممن تحدّثوا عن هذه الأماكن، ولكنّه وجد أن اختلاف هؤلاء يلزمه بأمرٍ صعب هو تحقيق هذا الخلاف، ومعرفة الخطأ من الصواب، فقرأ واستوعب، ورحل وانتقل، وسأل وسُئل، وزخرت حافظتهُ بشتى المعارف، وساعدته دواوين الشعر وحيأة الشعراء على الترجيح والتصويب والتعليل، حتى عرف وجهته العلمية الصحيحة، وانتصب علماً بارزاً في تاريخ الجزيرة العربية، ومعرفة أماكنها وبلادها وقبائلها، وكتب شتى المؤلّفات لإيضاح هذا التاريخ الجغرافي.

وقد يُنكر بعضُ الناس أن يكون المؤرّخ جغرافياً، ولكن كُتب التراث قبلُ سبقت المعاصرين إلى المزج بين الجغرافيا والتاريخ على وجه يُساعد القارئ على التعمّق

والإحاطة والشمول، وإذا كانت كُتُبُ الجغرافيا الآن في المدارس والكلّيات تحمل بعض المنقّراتِ من قراءتها لأسلوبها العلميّ الجاف الذي يقتصرُ على سرد التضاريس وأحوال المناخ ومساحة الأرض دون بسطِ تاريخي شاف لما يتحدّث عنه الباحثُ، فإن الأستاذ حمد قد رجع في حديثه الجغرافي إلى كُتُب الأدب، كما رجع إلى كتب تقويم البلدان، فجاء حديثه عن الأمكنة مؤيِّداً بالشواهد الشعرية، والأحداث التاريخية، وقارنه سعيدٌ جدّ السعادة حين يجد أسلوب التدوين الجغرافي قد انتقل من حال إلى حال.

أذكر أوّل اجتماع علمي شاهدتُ به الأستاذ حمد الجاسر، فقد كنتُ ذات صباح أسيرُ بالجيزة متّجهاً إلى بعض الأعمال الخاصّة، فوجدتُ من يهتف باسمي فالتفتُ فإذا أستاذي الكبير الشيخ محمد علي النجار، وقد بدا عليه ما يشي بالتعب لقيامه من مرضٍ ألزمه الفراش عدة أيام، فاتجهتُ إليه مسروراً بلاقائه، فأخبرني أنّ عليّ أن أصبح به إلى مجمع اللّغة العربية الآن لحضور حفلة استقبال الأستاذ حمد الجاسر، وأنّه يحسّ في صحّته ضعفاً، والأفضل أن أكون بجواره، ليأنس بمساعدتي، إذا طلب ما لا بدّ منه، فقلتُ له: يا سيدي وإذا كنت في دور النقاهة فلماذا تحضر الاحتفال، وزملاؤك من أعضاء المجمع الموقر يقدرّون موقفك، ويقبلون عذرك، فقال: يا بنيّ، العضو الذي نستقبله اليوم رجلٌ فاضل من علماء المملكة العربية السعودية، وله على صغر سنّه - حينئذ - مقامٌ في التحقيق والتأليف، وقد رأيتُ من واجبي أن أحضر مهرجان استقباله، وسيتكلّم في الترحيب به الأستاذ الدكتور عبد الوهاب عزام، واستماعُ كلمتين منصفتين من الدكتور عزام، ومن الأستاذ حمد الجاسر مما أحرصُ عليه رغم ما أعاني، والحق أنّي أكبرت الأستاذ محمد علي النجار رحمه الله في سموّ اتجاهه وشدة تحامله على نفسه، إذ لا يعرفُ الفضل إلا ذووه.

لم يكن حضورنا مبكّراً، فحين طالعتُ المكان؛ وجدته غاصّاً بنفّر كثير من أهل الفضل، أدباً وعلماً وسياسة، وأذكر أنّي شاهدت بين الحاضرين الحاجّ محمد أمين الحسيني، ولم يكن عضواً بالمجمع، بل حضر للمشاركة في الاحتفال، كما شاهدتُ العلامة الشهير الشيخ محمد البشير الإبراهيمي الزعيم الدّيني للجزائر، والأستاذ محمد توفيق دياب، والدكتور منصور فهمي، والأستاذ العقاد وكانت معه

ورقةً يدوّن فيها بعض ما يسمعُ من الكلمات، ولا أدري ما دوّن، ثم قام الدكتور عزام بعد الافتتاحية، فألقى كلمته عن المحتفل به، ومن عادة من يُقدّم العضو الجديد أن يطلب منه نبذة عن تاريخ حياته، ويصوغها هو بقلمه، وكأته الذي بحث وأعدّ، ولكنّ الدكتور عزام رجُلُ صراحةٍ وصدق، فقد ذكر في كلمته أنّه طلب من الأستاذ الجاسر كلمةً موجزةً عن حياته، فمأطلّه زمنًا، وقال له: ليس لديّ ما أقوله. وبعد إلحاح شديد كتّب على عجل - وبودّه ألا يكتب - هذه الكلمة تعريفًا به، ثم تلا الدكتور ما كتبه الأستاذ حمد، منسوبًا إليه، وتلك أمانة علميّة جديرة بالتقدير، وفيما كتبه الأستاذ حمد الجاسر ما يُعطي تعريفًا صادقًا بنشأته العلمية ذات الزاد الموفور، وإذا رجعت إليها الآن فأنا أرجع إلى رجلٍ صادق تحدث عنه رجل صادق!.

قال الشيخ حمد ما ملخصه: «ولدتُ في قرية البرود من إقليم السّر الواقع جنوب القصيم، وغرب الوشم في سنة ١٣٣٠ هـ، وسافرتُ مع والدي وكان يشتغل بالزراعة إلى الرياض طالباً للعلم سنة ١٣٤١، فقرأتُ بعض المتون التي اعتاد طلبة العلم قراءتها في ذلك الحين. وحدّد الأستاذ أسماء المدرّسين الذين تلقّى عنهم شرحَ هذه المتون، ثم عاد إلى بلده بعد وفاة والده، ولكنّه لم يصبز عن العلم فالتحق بالمعهد السعودي بمكة، وأكمل الدراسة في قسمٍ منه يُسمّى قسم التخصص، وتخرج سنة ١٣٥٣ هـ، ليعيّن مدرّساً فمديراً لمدرسة (ينبع)، ثم اختير قاضياً، ولكنّه أثر التعليم فأجيب لرغبته بعد عامٍ من توليته القضاء، ورجعَ إلى المعارف مُعاوناً لمُعتمدها في (جدّة)، ثم حضر إلى مصر وانتسب عامّاً واحداً بكلية الآداب، ورجع لظروفٍ طارئة، فعين بالمملكة رئيساً لمراقبة التعليم في الظهران، ثم معتمداً للمعارف في نجد (والمعتمدُ هو المدير)، وأُتيح له عقب ذلك أن يقومَ على إدارة المعهد الديني بالرياض، ثم مديراً لكلّيتي الشريعة واللغة العربية بالعاصمة، ولم يقتصر على التعليم الرّسمي؛ بل انطلق إلى التنوير العام فأنشأ أوّل صحيفة بنجد وهي (اليمامة) صدر العدد الأوّل بها سنة ١٣٧٣ هـ، وسعى إلى إنشاء أوّل دارٍ للطباعة بالرياض، فتمّ ذلك بجهده كما أصدر بعض مؤلّفات؛ أهمّها (معجمُ البلاد العربية) و(أمراء نجدٍ من قديم العهد) ورسالةٌ عن المعادن في الجزيرة».

هذا موجزٌ ما كتبه الأستاذ الجاسر عن نفسه، وقد زاد عليه الدكتور عزام ما أوضح مرامي الرجل واتجاهاته العلمية، كما ذكر نبذاً من صلته الشخصية به - وهي صلةٌ لحمتها وسداها العلم - حين نقد الأستاذ الجاسر شرح المتنبي لعزام، وكتاب (مهد العرب) في مقالين كريمين بمجلة المنهل، وحين كتب مقالاً جيداً عن موقع عكاظ؛ نشره عزام منسوباً إلى كاتبه في مؤلفه الخاص بهذا الموضوع، وقد كان الدكتور عزام مُديراً لجامعة الملك سعود بالرياض، فاقترب مكانه من صاحبه وتعددت مرّات اللقاء، وكلا الرجلين سعيدٌ بصاحبه.

ثم قام الأستاذ حمد فألقى كلمةً ممتازة! ممتازةً بتواضعها الجَمّ، شاكرًا المجمع لاختياره، ومثنياً على الدكتور عزام لتقديمه، ثم تحدّث المحتفل به عن ميدانه الذي اختاره في البحث العلمي، فذكر أنّ اللغة العربية دُوّنت أوّل ما دُوّنت مما أثر عن العرب، وأنّ هذا المأثور قد زخر بجلّ ما للعرب من أخبار وآثار، كما اشتمل على مُفردات ألفاظٍ لغتهم، وذكّر أسماءَ مرابعهم ومراتعهم، وأنواع النبات في بلادهم، ولكنّ القدماء نظروا إلى ما أثر من هذا الأدب من زاوية واحدة هي خدمة كتاب الله وفهمه على ضوء المعاني التي دارت حولها الألفاظ، ولم يهتموا بصلة الشعر بتحديد مواضع جزيرة العرب، أو وصف نبات هذه المواضع، وهي ناحية ذات أهمية عظيمة، فالشعر لا يزال المعجم الجغرافي الذي تضمّن أسماء مواضع هذه الجزيرة، غير أنّ التصحيف قد أعجم هذا المُعجم، فبدت أسماء المواضع فيه في صورٍ مختلفة متعدّدة، تُوقّع الباحث في الحيرة والشك، ثم ذكر أربعة أمثلة لما وقع فيه التحريف والتصحيف، أكتفي منها بهذا المثال:

قال زهير بن أبي سلمى:

لئن حللت بخوّ في بني أسد في دين عمرو وحالت بيننا فذك

وخوّ بالخاء المعجمة وإدّ عظيم من روافد وادي الرمة في عالية القصيم بنجد، ولكنّ الزّواة والشرّاح صحّفوه، فقالوا: (جو) بالجيم المعجمة. كما في ديوان الشاعر المطبوع في دار الكتب، وكما رواه البكري في معجمه منذ تسعة قرون.

وقد انتهى الحفل، وودّع المحتفل به كما استقبل وداعاً حسناً، وخرجت مع أستاذي الشيخ النجار، فقال لي: إنّ الأستاذ حمد الجاسر قد اختصّ بوجهة جغرافية

دقيقة البحث، قلّ من يُحسن التعرّض لها من علماء مصر، فإنّ نشأته بالجزيرة العربية، ومعرفته شتّى الأماكن المذكورة في كتب التراث مما يساعده على البحث المفيد. ثم قال الأستاذ النجار: أجدّ في كتب اللّغة أسماء مُصنّفة لأماكن مختلفة، إذ يذكر الاسم في مادتين، وهو متعين في مادة واحدة، لما نزل من بلاء التصحيف.

حداني ما سمعتُ من حديث الأستاذ حمد، ومن تعليق أستاذنا النجار أن أبحث عن موضوع للأستاذ حمد، قرأته خاصّاً بنقد البكري الأندلسي في مُعجمه منذ أعوام، فجعلتُ أفتش حتى اهتديتُ إليه في مجلة الرسالة^(١)، وقد كتبه الأستاذ في سنٍّ مبكرة بالنسبة لما تتطلبه هذه البحوث الدّقيقة من مواصلة البحث أعواماً طويلاً، وكنتُ أتوقّع أن أرى في هذا البحث بذرة عالم يتهيأ للنمو، ولكنّي وجدتُ البذرة قد استوتت على ساقها وصارت ثمرة، فعرفت أن حب الوطن الذي أشرتُ إليه في مطلع هذا المقال قد تغلغل في نفس الباحث منذ نشأته الأولى، وأنه على تخصّصه الفقهي الذي تولّى به القضاء في المملكة قد جعل تحديد الأماكن العربية هوايته الخاصة، يعكفُ عليها كما يعكفُ الشّاعر الموهوب على نظم قصائده، والرّسام الفنان على إبداع لوحته، وإذا استحال العلم - من الغرام الدافع - إلى التّلقّ والإيغال فإنّه يُؤتي كلّ ما يُستطاب.

بدأ الأستاذ الجاسر نقده بقوله عن محقّق الكتاب الأستاذ مصطفى السقا: «إنّ عمله في تحقيق الكتاب لا يُدركُ مشقّته إلّا من عرّف ما مُنيّت به معاجم الأُمّة وقواميسها من التحريف والتصحيف والغموض والقصور، حتّى قلّ أن نجد بين تلك المعاجم - مخطوطها ومطبوعها - مُعجماً سلّم من هذه السيّئات، وإذا كانت الإشارةُ إلى نقص تلك المعاجم تعتبر مشاركة في إصلاحها، فإنّ من واجب القائمين على نشرها أن يتصفّوا برحابة الصدر، وأن يقبلوا الحقّ، وأن يحملوا ما وجّه إليهم من نقدٍ نزيه أحسن محمل».

وقد مهّد الناقد بهذه الكلمة، حين رأى معارك شديدة اللّهجة تدور أحياناً بين الناقد والمنقود، على صفحات المجلات العلمية، إذ يتمسّك كلّ واحد منهما برأيه، ويميل على الرّأي الآخر تسفيهاً وتجريماً، ومعارك الأب أنستاس ماري الكرملّي مع اليازجيين والبُستانيّين مثل واضح لهذه الضراوة العلمية في المسائل

(١) مجلة الرسالة، العدد ٩٠٢، ١٦/١٠/١٩٥٠م.

اللغوية، وهو ما تحاشاه الأستاذ حمد في جميع نقاداته التي امتدّت أربعين عاماً في أشهر المجلات العلمية، مع جنوح بعض المتناظرين إلى التّطاول، ولكنّ الأخذ بالتي هي أحسن من الأستاذ قد دفع المتطاولين إلى الاعتدال.

ومن نقادات الأستاذ في هذا المقال؛ إذ يستحيل أن ننقلَ جميعه :

١ - في ص ٦٨٢ (صخر بن جعد الحضرمي) وعلّق الأستاذ السّقا في الحاشية قائلاً في (ج): «الخضري» وهو تحريفٌ، وأقول: صخر بن جعد الشّاعر هذا من قبيلة الخضّر، وهم أبناء مالك بن طريف بن خلف بن محارب، وسُمّوا الخضّر لأدّمة ألوانهم، وقد ورد ذكرهم في ص ١٠١٦ من هذا الجزء نفسه، ولجعد بن الخضريّ قصّةٌ طريفةٌ أوردها الزمخشري في أمثاله في مادة (من مال جعد) وإذن فالصوابُ الخضري لا الحضرمي، وانظر مادة (خ ض ر) من تاج العروس، وراجع كُتب الأنساب.

٢ - عكاظ ص ٩٥٩ «قال أبو عبدة: عكاظ فيما بين نخلة والطائف إلى موضع يقال له (العنق) وصواب (العتق) (الفتق) بالفاء بدل العين، وانظر هذه المادّة من معجم البلدان، وتجد في صفة الجزيرة للهمداني تحديداً دقيقاً لهذا الموضع، وانظر الأغاني (ج ١ ص ١٤٩ طبعة السّاسي)، وقد ورد كلامُ أبو عبدة في تاريخ مكة للفاكهي وللناسي، ووردت الكلمة فيهما صحيحة.

٣ - (بيش) صوابه (بس) انظر هذه المادّة في معجم البلدان والتاج وغيرهما قال الشاعر:

بنونَ وهجمةٌ كإِشاءِ بُسّ صفايا كثة الأبار كُوم

وهو جبلٌ معروف باسمه في هذا العهد، مُطلٌّ على (منهل عشيرة) المحطة الثانية لقاصِد نجِد من مكة، أما بيش فهو وادٍ من أودية تهامة، فيه قُرَى ومزارع، وهو بعيدٌ عن هذه الأمكنة التي حدّدها البكري في سياق الكلام، وقد أورد البكري اسم الجبل في المادّتين (بس وبيش).

هذا نمطٌ من النقد الدقيق، يرى فيه القارئ رجوع الناقد في المادّة الواحدة إلى مصادر مختلفة ما بين لغوية وجغرافية وأدبية، وقد قرأتُ (فيما بعد نشر هذا المثال بعدة سنوات) سلسلة مقالات بمجلة العرب قصّرها الأستاذ الجاسر على نقد ما جاء

في كتاب البكري بأجزائه المختلفة من التحريف، والبكريُّ معذور في ما قد يقع فيه لأنَّ الرجل مغربي أندلسي لا شرقي، والأندلس بمنأى عن التحقيق المباشر في أرض الجزيرة، والذين يشتنعون عليه (والأستاذ حمد ليس منهم قطعاً) يُوغلون في الباطل، إذ يتهمونه بالتقصير، مع أنَّ كتابه قد حوى آلاف الأمكنة، وبكلِّ سطرٍ من مجلّداته الكبار اسمُ مكانٍ تقريباً، فإذا زلَّ في مئةٍ أو مئتين على الأكثر، وقد أجاد في عشرات الآلاف، فجهدهُ مشكور مقدّر، وأنا بهذا الاقتباس السريع من مقال الرسالة، أقدم مثلاً لأدب الناقد سواءً مع المحقّق الأستاذ السقا، أو مع المؤلّف العلامة البكري، وما صدر عن الأستاذ بعد ذلك في نقوده الكثيرة يتّسم بسمّة الإنصاف، والتماس العذر عند الخطأ الصريح، ولا تجد أوثق خلقاً، وأرحب صدرأ، وأقرب إلى طبقة ورثة الأنبياء ممّن يلتمسُ العذر لدى الخطأ الصريح.

هذا والذي يقرأ النبذة التاريخية التي كتبها الأستاذ حمد الجاسر عن نفسه، وقدّمها إلى الدكتور عبد الوهاب عزام مما أشرنا إليه من قبل يرى أن الأستاذ قد وقف بحديثه عن نفسه عند سنة ١٣٧٨ هـ، وهي السنة التي عُيِّن فيها عضواً بمجمع اللغة العربية بمصر، وقد امتدَّ الزمنُ بعد ذلك فأتاح للأستاذ أن يقوم بأعمالٍ جليّة، تحدّث عنها عارفوه حديثاً مسهباً، إذ ذكروا أنّه أوّل من نادى بوجوب تعليم الفتاة، ووضع خطة خاصة بإنشاء مدارس للبنات، فأحدث نداؤه استجابة فوريّة لدى المسؤولين، كما أنّه جعل مجلّة الإمامة ميداناً للشباب، إذ يقومون بتمرين أقلامهم على الكتابة الهادفة، وكانت تصلُّه الكلمات ذات التعبير المختل، فيقوم بتصحيحها تشجيعاً للناشئة، ذاكرأ أنّ الناشئ حين يجد اسمه منشوراً تحت مقالة كتبها، فإنّه سيتحفّز إلى الاطلاع، وسيدركُ أخطائه حين يرى التصحيح في النّص المطبوع، وبهذه الرعاية الخاصة بالنّشء ظهر جيلٌ من الكتاب مدينٌ للجاسر بالأستاذيّة، أما إنشاء المطبعة بالرياض فقد كان حدثاً علمياً رائعاً لعهد، لأنّه شجّع ذوي المواهب على إصدار مؤلفاتهم، وقد بدأت المطبعة محدودة الإمكانيات، ولكنها تطورت سريعاً حتى أصبحت تؤدي رسالتها على الوجه المنشود.

ومع تشجيع الأستاذ للشباب كي يدوّنوا آثارهم في صحيفة الإمامة، فإنّه كان حازماً في توجيهه لهم، فقد أخذ عليهم أنّهم حين امتلأت جيوبهم بالمال سارعوا بإصدار الدّواوين الشعرية والقصص الأدبية، دُون أن يكملوا استعدادهم اللائق،

فازدحمت المكتبة السعودية بعشرات الدواوين للناشئة، وجُلّها تمثل خطوات بدائية، كان من الواجب أن ينتظر أصحابها حتى يحين أوان النضوج، وليس معنى هذا أن كلّ ما صدر يحتاج إلى مراجعة، بل معناه أن كثيراً مما صدر يجب أن يعلم صاحبه أنّه لا يزال في أول الطريق، لأنّه إذا اعتقد أنّه بإصدار الديوان مطبوعاً أو القصة منشورة قد بلغ غاية الكمال فقد أضّرّ نفسه، إذ وقف بموهبته الناشئة عند حدّ لا يسمح لها بالتّضحج، وكلُّ أديبٍ يحسّ في قرارة نفسه أنّ رسالة الأدب شاقّة، ولن يؤديها الكاتب أو الشاعر إلّا بعد سبّح طويل، لأنّ النبوغ محدود، والعبقريّة لا تلد أبناءها إلّا على أبعادٍ شاسعة، ولكنّ الاجتهاد في التحصيل لن يضيع، لأنّ الله لا يُحبّط ثواب العاملين، وإذا كان الأستاذ الجاسر قد دعا الشباب السعودي إلى مواصلة الاطّلاع الجادّ، فقد دعاهم إلى الرّحلة داخل البلاد، ليعرفوا الأماكن التاريخية الكثيرة التي تزدهم بها بلادهم ذات العطاء التاريخي المديد، يقول الأستاذ الجاسر^(١):

«شبابنا والمثقفون منّا يحسن الواحد منهم أن يحدثك عن كثيرٍ من المدن خارج المملكة، ولكنه لو سأله عن إحدى مدن المملكة أو قرية من قراها يتلعثم ولا يحير جواباً، ولذلك رأيتُ ضرورة تأليف معجم جغرافي تاريخي شاملٍ لكلّ ما في المملكة من مدن وقُرى وأماكن مأهولة». وبإلحاح الأستاذ حمد الجاسر على ضرورة الرّحلة إلى داخل البلاد انتبعت الجامعات العلمية في المملكة إلى ضرورة هذه الرحلة، فجعل طلابُ الدّراسات الإنسانية في كليات الآداب والتربية والعلوم الاجتماعية يقومون بعدّة رحلات إلى الأماكن المشتهرة والأماكن المهجورة معاً، ويكتبون تقاريرَ علميّة عن الرحلة! وهذه خطوة أولى يجب أن تتبعها خطوات أخرى، تربط حاضِر المكان المرتحل إليه بـماضيه التاريخيّ البعيد، فيحكّي المكانُ قصة حياته من قبل، كما يحكي الإنسانُ قصة حياته، ودواوين الشعر القديمة بما سجّلت من الوقائع التاريخية القديمة تسعّف كثيراً بما يكشف الضباب.

- ٢ -

مؤلفاتُ الأستاذ الجاسر كثيرة موفورة، وهي تدل على أنّ هذا الباحث لا يكادُ

(١) مجلة العرب (الربيعان سنة ١٤٠٤هـ) ص ٧٦٣.

يترك ساعة من وقته دون بحث إلا في أوقات الراحة الضرورية، لأن كثرة هذه المؤلفات تدل على الجهد المتواصل الممتد إلى أبعد مدى، فكلها تحقيقات علمية، وليست مقالات وجدانية أو قصصاً فنية، تكتب المقالة، أو القصة في مجلس واحد، بل إن تحقيق كلمة واحدة تدل على مكان أو ماء أو نبات مما يتطلب الرجوع إلى عدة مصادر، لذلك كانت كثرة هذه المؤلفات عنوان ثراء خصب في العقل، وعزيمة قوية في العمل، ومن هذه المؤلفات ما أفردت له مجلة العرب (الربيعان سنة ١٤٠٤) متسعاً فسيحاً لتسطيرها، وهي كما يلي:

- (١) شمال المملكة؛ صدر ضمن سلسلة المعجم الجغرافي المفصل.
- (٢) المنطقة الشرقية، صدر ضمن المعجم.
- (٣) المعجم الجغرافي المختصر للبلاد العربية السعودية، ويقع في ثلاثة أجزاء تشمل (١٩٩٠) صفحة.
- (٤) مدينة الرياض عبر التاريخ.
- (٥) مع الشعراء مختارات ومطالعات.
- (٦) المغانم المطابة في معالم طابة (تحقيق).
- (٧) كشف المناسك وأماكن الحج ومعالم الجزيرة (تحقيق).
- (٨) أبو علي الهجري وأبحاثه في تحديد المواضع.
- (٩) أدب الخواص، (تحقيق).
- (١٠) أشهر رحلات الحج، وهو تلخيص لرحلتي ابن عبد السلام الدرعي.
- (١١) الإيناس في علم الأنساب (تحقيق).
- (١٢) مختلف القبائل ومؤلفها (تحقيق).
- (١٣) البرق اليماني في الفتح العثماني (تحقيق).
- (١٤) بلاد العرب (تحقيق).
- (١٥) جمهرة أنساب الأسر المتحضرة في نجد.
- (١٦) رحلات.
- (١٧) رسائل في تاريخ المدينة.
- (١٨) ابن عربي موطن الحكم الأموي في نجد.
- (١٩) بلاد ينبع.

(٢٠) في شمال غرب الجزيرة (نصوص ومشاهدات).

(٢١) في سراة غامد وزهران . . .

والمعجمُ مبسوطاً ومختصراً من أجلِّ حصاد هذا التأليف الزاخر، وهو ما بذل له المؤلف أكبر جهده، إذ يراه الهدف الأول من اتّجاهه الجغرافي، وقد ألمعنا إليه من قبل، ولكننا نعرض وجهة نظره العلميّة التي دفعته بإلحاح إلى إنشاء هذا العمل الموسوعي الضخم مُنفرداً في الأجزاء المختصرة، ومشاركاً في الموسوعة الفائقة التي بلغت تسعة عشر مجلّداً، ساعده فيها نفرٌ من أفاضل الباحثين من أمثال الأساتذة الشاعر العلامة عبد الله بن خميس، والدكتور عبد الله الناصر الوهيبي، ومحمد بن أحمد العقيلي، ومحمد بن عبد الله بن حميد، وعبد الرحمن بن عبيد وغيرهم، ممن لا تقع مؤلّفاتهم تحت يدي الآن، وكلّهم خيار من خيار، لقد تحدّث حمد الجاسر عن أمله في تأليف هذا المعجم، وهو في خطواته الأولى فقال^(١) عن القدماء من المؤلفين:

«إنّهم كانوا بعيدين عن الجزيرة، كتّبوا كتبهم وهم قابعون في بلادهم، والذين حاولوا تحديد الأماكن كياقوت اعتمدوا على ما كتبه هؤلاء، واتّخذوه أساساً لتأليفهم؛ فجاء الكثير ممّا قالوه غير صحيح، وهذا لا يقلل مجهودهم العلمي، إذ قدّموا ما استطاعوا تقديمه، وبقي علينا عبءٌ كبيرٌ هو أن نقوم بتأليف معجم مستوعبٍ خال من الخطأ قدر المستطاع، وإنّ الباحث مهما أوتي من سعة الاطلاع وعمق المعرفة لا يستطيع أن يقوم بعملٍ كامل من جميع النواحي، ولكن في استطاعة الباحث أن يقدّم شيئاً نافعاً مفيداً عن الإقليم الذي يعيش فيه، ومن ثمّ يصبح لدينا مجموعة من تلك الدراسات يُمكن اتّخاذها أساساً لوضع ذلك المعجم الشامل». وهذا ما تحقّق فعلاً.

ولقد كانت مجلة (العرب) التي أنشأها الباحث الكبير أكبر حافزٍ على إتمام هذا الجهد الضخم، فقد بدأت بنشر فصولٍ منه للأساتذة الباحثين، واهتمّ القراء بما يُنشر فتابعوه، وبعضهم قد نقد وجادل، والمجلة واسعة الصدر لكلّ ما يقال، كي يصل النقاش إلى نتيجة صحيحة، والإشرافُ على مجلة متخصصة مثل مجلة (العرب) يتطلب جهداً مضميناً، إذ كان رئيسُ التحرير يُشرف على كل ما يختار من البحوث،

(١) مجلة العرب (ذو الحجة ١٣٨٧هـ) ببعض التصرف.

وينشر النقود جميعها، مُحاولاً الإجابة عن ما يراه موضعاً للتصويب، وقد ظهرت المجلة لتعطي انطباعاً بأنها جغرافية تاريخية فحسب، وأخذت عليها بعض الصحف هذا الاتجاه الضيق، لأنَّ اسم (العرب) يشمل البحوث الجغرافية وغيرها، والردُّ على ذلك واضحٌ، لأنَّ المجلة تنشرُ كلَّ ما يصلح للنشر مما يردُّ إليها، وإذا اهتمت بالمباحث الجغرافية، فلأنَّها تحسِّن نقصاً تاماً في هذه المباحث، وقد أخذت على عاتقها أن تكمل هذا النقص، وحين قرأتُ الأعداد الأولى لمجلة العرب سررت بخطتها، ثم عنَّ لي أن أنشر فيها مقالين عن النقد الأدبي في العصر الجاهلي وفي صدر الإسلام، وبعثتُ بهما إلى الأستاذ الجاسر، فسارع بنشرهما، مع مقدمة مُرحَّبة صدرَ بها المقال المنشور في عدد (ربيع الأول سنة ١٣٩٠) وإذن فالأستاذ على استعدادٍ لنشر كل ما يردُّ إليه خاصاً بالأدب العربي، فسقط الاعتراض.

وأنا أميلُ دائماً إلى الإسراع في قراءة كُتب المختارات الشعرية، لذلك ما وقع في يدي كتاب (مع الشعراء - مختارات ومطالعات) حتى أسرعُ في مطالعته مغتبطاً، لأنَّ المؤلف قد اختار عدَّة شعراء تناثر شعرهم في كتب التراث، ولم يُجمع في حيز خاص، فحرص على أن يقدِّم ما يعثر عليه من نتاج هؤلاء الذين لم يُرزقوا جامعاً قديماً أو حديثاً يحتفل بنتائجهم الشعري، ومنهم عبد الله بن همام السلولي، وجحدر العكلي، ويزيد بن الطرية، والقحيف العجلي، والصمَّة القشيري، وهذا ما جاء في القسم الأوَّل من الكتاب، وقد اهتديتُ إلى فكرة نقدية تألقت في ذهني بعد قراءة ما جمعه الباحث الفاضل من أخبار هؤلاء الشعراء، إذ حرص على أن يذكر أماكن حياتهم، والمواضع التي جاءت في شعرهم، وهذا وحده ممَّا يُسهِّل على الدَّارس أن يحكم بنسبة الأبيات لشاعرٍ ما أو بنفيها عنه، إذا كانت الأماكن التي يشير إليها تدلُّ على الإثبات لتيقُّن وجوده بها، أو النفي لعدم ذهابه إليها.

ولأضرب المثل بما ذكره عن الصمَّة القشيري، فهو شاعرٌ غزل من الطراز الأوَّل، وما بقي من شعره يدلُّ على أنَّه في مقدمة العذريين، ولا يقلُّ عن مثل جميل بن معمر وكثير بن عبد الرحمن وقيس لبي؛ ممَّن جُمعت دواوينهم واشتهرت لدى الدارسين، هذا الشاعر القشيري قد نُسب إليه في كُتب التراث شعرٌ نسب إلى غيره، وتردَّد الدَّارس في الوقوف على النسبة الصحيحة لمن تكون، لأنَّ الشاعرين معاً عاشقان اشتهرا بالصَّباية، وأسلوبُهُما ينزِعُ منزعاً متقارباً ممَّا يتعذَّر معه الحُكم

على وجهٍ أكيد غير مرجوح، وبمطالعة ما كتبه الأستاذ الجاسر عن الشاعر الصمة بن عبد الله القشيري نجده قد حدّد مواطن قومه بني قشير، وتتبع الأماكن التي جاءت في شعره، وهي: «الأحزاب والأعراف والبشر، وبُصْرَى وتبرك، وجبل الأوشال وجفاف، وحایل، وحصن البابلي والحمى، وفزازي ودابق، وذات الرمث، والرقاشان وسعد، والسّليل وسنام الحمى وذو سلم، وسواج، والشر، وشعب مراهق، وشعبب، والصمد، والضمار، وعارمة، وعاقل، والعثثان، والغور، وقرقري، وقرن نحلة، وقَتَى والقُببية، وقَتَيْن والمكالي، ومطلوب والمنيفة، ونجد والنير، ووادي الشرى، وواسط، ووَدّان، والهضب والوركاء».

هذه هي الأماكن التي جمعها الباحث من شعر الصمة، وقد أطلتُ بذكرها عن عمد، لأنّها تقدّم الدليل على ترجيح ما نسب للشاعر أنّاً، وتقدم الدليل على بطلان النسبة أنّاً آخر، ولعلّ الأستاذ الجاسر باطلاعه العميق على الأماكن العربيّة بالجزيرة كان أقدر من يتصدّون للحكم في هذا المجال، وقد حَكَم فأصاب، فكلّ الأماكن التي عُرِف أنّها كانت مرّاداً للشاعر حكم بصحة النسبة الشعرية في الأبيات المحتوية عليها، أمّا الأماكن التي عُرِف من تتبّع لتاريخ الصمة أنّه لم يرحل إليها، فقد حكم ببطلان انتسابها إلى الشاعر، وألّم هنا ببعض نقداته الصائبة، فقد قال الصمة:

ولما رأيت البشر أعرض دوننا وجالت نباتُ الشوق يحزن نزعاً

فعقّب الأستاذ حمد بقوله: «نجد هذا الاسم (البشر) في كثير من كتب الأدب، والبشرُ سلسلةُ الجبال المعروفة الآن في جهة الفرات، ولكننا نستبعدُ أن يذكره الصمة في شعره لعدم صلته به، ونرى الصواب (النير) وهي سلسلة جبالٍ عظيمة تقع في عالية نجد في طرف بلاد بني قشير».

وقد ذُكرتُ مدينة (بُصْرَى) في المقطوعة (٢٨) فقال المحقق: إن بُصْرَى من بلاد الشام التي ارتحل إليها الشاعر، وكذلك اختار ترجيح النسبة في كلّ مكان أثبت التاريخ وجود الشاعر به، ولا أُطيل بذكر ما رجّح، بل أُشير إلى ما استبعد مثل (السليل) إذ قال الباحث: «لا أعرف موضعاً بهذا الاسم إلّا في بلاد بني أسد غرب القصيم، وهو بعيدٌ عن بلاد الشاعر، ومثل (الصمد) فهو كالسّليل بعيدٌ عن موطن الشاعر، وكذلك (عاقل)، ومثل (وَدّان) فهو موضعٌ يقع بقرب ساحل البحر الأحمر، ومن المستبعد أن يذكره الصمة لعدم صلته به». يقول الباحث: «وأرى أن

المقطوعة ليست للصمة»، ثم ختم الباحث ملاحظاته القوية بقوله: «هذه هي المواضع الواردة في شعر الصمة، أو جلّها إن لم يكن كلها، رأينا الحديث عنها ممّا لا تكملُ دراسةُ شعر الشاعر بدونه، وأضيفُ إلى ما تقدّم أن دراسة الأمكنة التي يُوردها الشاعر ممّا يُعين على فهم ذلك الشعر، بل على تمييز الصحيح منه من غيره، متى عرفنا المواطن التي للشاعر صلة بها».

أتمنى بعد هذه النظرات الصائبة أن يهتم باحثٌ من طراز الأستاذ الجاسر الرفيع بديوان (مجنون ليلي) حيث احتشدت فيه قصائد كثيرة، لا يُعقل أن يكون قيسٌ قد هتف بها، ومنها ما توزّعت نسبته في كتب التراث بينه وبين سواه، يهتم هذا الباحث المنتظر بما جاء عن أماكن الشعر المنسوب إلى قيس، فيحدّد مواطن ارتحاله على ضوء ما جاء في تاريخه، ثم يعتمد بالدليل الملزم إلى نفي كل شعر لا يتّصل بما ارتأده قيس من الربوع!.

وقد يحسُّ القارئ أنّي أطلت في هذه القضية، ولكنها إطالة هادفة تخطّ اتجاهها نقدياً برع الجاسر في تطبيقه، فدعا غيره إلى الاحتذاء به.

هذا بعض من نماذج التحقيق العلمي لدى الجاسر، ويتّسم بالإيجاز غير المخلّ، وهو بذلك جزيل النفع، وأذكرُ أنّ مباحث الأستاذ جميعها ذات إيجازٍ مقصود، والقارئ يطالعها في شغفٍ، لأنّه في عشر صفحاتٍ مثلاً يغنيك عن قراءة كتابٍ مستقل في الموضوع الذي عني به، فقد قرأتُ له بحثاً في فصلين فقط تحت عنوان (قُطر الطائف ومؤرّخوه) فخرجتُ بما أحب أن أعلمه عن هذا البلد الأثير، وفكرتُ في ما لو تعرض كاتبٌ آخر ممن يُشغلون الفراغ الكبير في غير جدوى إلى تاريخ الطائف، فماذا سيصنع؟ إنه سيلجأ إلى مقارناتٍ مُضنية، وشذوٍ من الوقائع البعيدة عن الطائف يلتمسها لأدنى مناسبة، ثم يترجمُ لكلّ من ورد اسمه مقروناً بالطائف وإن كان من الاشتهار كأميّة بن أبي الصلت مثلاً، بحيث لا يحتاج القارئ إلى شيء مما يقول - أعني القارئ المثقف فضلاً عن المتخصّص - ويجيء الكتاب ثقيلاً مملاً، ولستُ أقول ذلك عن افتيات، فلدي كتبٌ من هذا القبيل أعني بقرائتها، وأربأ بنفسي أن أذكر مؤلفيها، فكلهم على كل حال له جهد الساهر الكادح، وأنا ألحّ على هذا المضمون حين أعرض ما كتبه الأستاذ عن الطائف في فضليّه الموجزين، حيثُ بدأ بذكر المميزات الجغرافية للطائف؛ من حيث اعتدال مناخه وخصوبة

أرضه، وتوسّط موقعه، وعزّج على ما روي من تاريخها القديم مستنداً إلى بعض الآثار الشعرية لذي الإصبع العدواني، فإذا انتقل إلى سُكنى ثقيف بالطائف، وأشار إلى المصادر الدالة على ذلك، من أمثال كُتب ابن الأثير وأبي الفرج الأصبهاني والبكري، مقرّراً أنّ ما ذكره الكلبي أوفى ما جاء في الموضوع، وهو الأصل لما بعده، ولو كان الباحث من غير طراز الجاسر لنقل كلّ ما قال هؤلاء، وحملنا أوزاراً من زينة القوم.

واتّسع المجال أمام الجاسر لحديث الطائف في العصر الجاهلي وموقعها التجاري الممتاز لتوسّطها بين الحجاز واليمن ونجد، والتجارة تتبع العمران بشتّى أوجهه؛ زراعة وصناعة وعمارة، ولم يفتّه أن يلمّ بحياة طبيب العرب الحارث بن كلدة الثقفي، باسطاً بعض ما رُوي عنه، وهذا البسط في محلّه، لأن الحارث قد اشتهر باسمه دون معرفة تامة بأحداث حياته، فكلّ ما قاله عنه الباحث يُضيف الجديد، وقد اختصر حديث عكاظ الواقعة في إقليم الطائف، لأنّ حديث عكاظ من الاشتهار بحيث يُقال فيه: «ما يومٌ حلّمة بسرّ».

أما رجال الطائف من المشتهرين في الإسلام فقد أُلْمع إلى مصادر تراجعهم في كُتب الطبقات والتاريخ، إذ ذكر المصادر بالاسم ليدلّ عليها من يتطلّب المزيد، وتابع حديثه منتقلاً إلى العصور التالية؛ أمويّة وعباسيّة، آخذاً على كثير من المؤرّخين عدم اهتمامهم بإبراز النواحي الاقتصادية للطائف وإهمالهم ما اشتهر من آثارها القديمة، فلم يُلْمَوْا بها إلّام الدّارس بل إلّام من يكتفي بذكر الأسماء، وقد أحسن إذ أوجز الحديث عن الناحية الأدبية في الطائف، لاشتهار هذه الناحية نسبياً عن غيرها، ولاهتمام كُتب التراث بالطرائف الأدبية قبل المناحي الاقتصادية والعمرانية، ولم يترك القارئ دون أن يُرشده إلى كلّ من أرخوا للطائف من أمثال ياقوت والبكري والزمخشري والهمداني والمقدسي والإدريسي والأزرقي والفاسي والطبري. وختم الفصل الأول بقوله^(١): «ليس من المستطاع الجزم بصورة قاطعة بعدم وجود تاريخ للطائف على أساس قويّ من كتابات المتقدّمين، ذلك وإن جزءاً من التراث العربي لا يزال مجهولاً، وقسماً آخر عدّت عليه العوادي، فأصبح مفقوداً».

(١) مجلة العرب: عددي رجب وشعبان، سنة ١٣٨٧هـ.

هذا مثلٌ للإيجاز المحكم في كتابة البحوث العلمية، ومجلةُ العرب تحفل في مجلّداتها المتتالية بكثيرٍ من هذه البحوث الدسمة ذات الصبغة الجذابة والطريقة أيضاً، كالبحث الرائع عن الأمثال العربية وما تدلّ عليه من خصائص المدن والقرى التي دارت هذه الأمثال حولها، وهو بحثٌ أكاديمي يتطلّب دراسةً علمية في إحدى فروع علوم النفس والاجتماع والتاريخ، فمن يقوم بها؟ وقد مهّد له الأستاذ سبيل البحث عن قريب! .

أما سعةُ الصدر البارزة في صفحاتِ المجلة فتدلّ على احترام قويٍّ للرأي الآخر، يذكّرنا بأساتذة فضلاء يهتمّون في مجلاتهم بعرض آراء مخالفيهم، وأبرزهم في هذا المجال الأستاذ العلامة محمد فريد وجدي - رحمه الله - حيث فسح مجلاته التي تولّى الإشراف عليها لآراء ناقيده، وإن كان بعضهم منه في مرتبة تلاميذ التلاميذ، كذلك أجدُ الأستاذ الجاسر يفسحُ المجال لناقيده عن سماحة، ويعقّب كثيراً بما يدل على موافقته للناقد شاكرًا له جهده العلمي البارز.

أذكرُ أن الدكتورين الفاضلين أحمد الضبيب، وعبد الرحمن الأنصاري قد اختصّا كتاب (رحلات إلى بلاد نجد) تأليف (اللادي آن بلنت) وترجمة الأستاذ محمد أنعم غالب، وقد نُشر أكثرُهُ بمجلة العرب، ثم أصدرته دارُ اليمامة للبحث والترجمة والنشر في كتاب مستقل، أشرف الأستاذ الجاسر على طبعه، وأشار في مقدّمته إلى عدم مُراعاة التقيّد بفصول الكتاب كما في النسخة الإنجليزية، مع التصرّف الدافع إلى إسقاط بعض المسائل، وتلك كما يقولُ الأستاذ الأنصاري: مما يجب أن يلتفت إليه المشرفُ على إخراج الكتاب وطبعه، يُريد بذلك الجاسر، فنشر الأستاذ النّقدين كاملين، وقال إنه يشكرهما لتمتّعهما بالروح العلمية المجرّدة، وأنّه سيرعى ملاحظتهما عند إعادة طبع الكتاب، ليكون أوفى وأكمل، ثم دعا الناقدين إلى قراءة ما أصدرته مؤسسة دار اليمامة التي يقوم على إدارتها وتوجيهها قراءة نقدٍ وتوجيه، لأن من أهداف (العرب) اعتبار النّقد وسيلة من أقوى وسائل الروح العلمية وتقويم التّهج في حياتنا الأدبية، التي يُخيّم عليها الركود والضعف^(١). فهو إذن لم يكتف بما نشرنا من النّقد، بل دعاها مُلحاً إلى متابعة ما أصدرته مؤسسة اليمامة، وما أظنّ سعة صدر تنفسح لترقب النّقد ومطالبته كمثّل هذه السعة ذات الأمد العريض. .

(١) مجلة العرب (ذو القعدة، سنة ١٣٨٧هـ).

أما مؤسسة الإمامة التي جاء ذكرها في هذا التعقيب فهي من أكبر مآثر الأستاذ الجاسر، وقد أنشئت - كما قال الأستاذ - لنشر ما تستطيع نشره مما يتعلّق ببلاد العرب، لا سيّما المملكة العربية السعودية من مؤلّفات، مما قد يكشف بعض النواحي الخفية من تاريخ هذه البلاد أو جغرافيتها أو أدبها أو تراثها الفكري، مع الاهتمام بترجمة بعض المؤلّفات التي لها صلة بالجزيرة، مما قد يُلقي ضوءاً على جانب مجهول يتعلّق بها من رحلات أو دراسات، ومع الإسهام بقدر الإمكان بنشر مؤلّفات أبناء البلاد، مما يُضيف الجديد إلى الحياة الثقافية.

ومن سوء الحظّ أنّ كثيراً من آثار هذه المؤسسة، وفيها عددٌ جَمٌّ من بحوث الشيخ حمد قد تعرّض للضياع في بيروت أثناء الحرب اللبنانية الأليمة، إذ هوجم مبنى المؤسسة ونُهب ما فيه، ومن الطريف أن أذكر أنّ الأستاذ أكرم زعيتر الأديب السياسيّ المعروف نشر حديثاً له مع الأستاذ خير الدين الزركلي بالمجلة العربية قال فيه الأستاذ خير الدين، وقد كان حديث الصديقين عن موسوعة الأعلام الشهيرة التي ألّفها الزركلي، وعمّا يدور في لبنان من الدمار والنهب والإحراق حيثُذ، قال الزركلي: «لو أُحرق الأعلام لرميتُ بنفسي في البحر أسفاً، وصديقي عالم الجزيرة الشيخ حمد الجاسر قد سُرقَت أوراقُه وخرائطه في اللّعازرية، فلا عجب إن كان في همّ مقيم».

وأنا أعلمُ أن الأستاذ حمد مؤمنٌ صبور، وقد احتسب أجره عند ربّه، فهو إذن سيفارق هذا الهمّ إلى غير ما عود، فهو بالسرور والغبطة جدير.



خير الدين الزركلي شاعر النهضة العربية ومؤرّخ الأعلام

- ١ -

حين انتقل إلى رحمة الله الشاعر المؤرّخ خير الدين الزركلي كتبْتُ مقالاً عنه بمجلة (رابطة العالم الإسلامي) التي تصدر بمكة المكرمة، قلت فيه (عدد محرم سنة ١٣٩٧ هـ):

«قرأتُ نعي الشاعر الكبير الأستاذ خير الدين الزركلي في صحيفة الوفيات بجريدة الأهرام، دون أن أقرأ عنه شيئاً في الصحف المصرية الأخرى، وليس هذا بغريب، فقد دأب المتصدّرون في الصحف المعاصرة على أن يهملوا حقوق الراجلين، وكأنهم لم يكونوا أعلاماً في دنيا السياسة والأدب، وهو إهمال مؤلم، لا يرجع إلى الجهل وحده، قدر ما يرجع إلى الجحود المنكر، وليسَ خير الدين بالرجل الخامل، فإذا جاز لبعض المتأدّبين اليوم أن يجهلوا شعره الرائع، ومواقفه السياسية الباسلة، فكيف يجوز لهم أن يجهلوا مؤلّف الأعلام، والأعلام موسوعة تاريخية حافلة، لا يجهلها باحث عن العرب والمسلمين في الشرق والغرب، وقد أخذت عن جدارة مكانها النابه بين المراجع التاريخية، وأصبحت مورداً يخفّ إليه المنقّبون عن حيوات الرجال من اللامعين والمجهولين معاً!».

هذا ما كتبتُهُ من قبل، وقد تتبعتُ المجلات الأدبيّة، فوجدتُ نفرأ من ذوي الفضل قد كتبوا عن الشاعر المؤرّخ بعض ما يستحق، ولكنهم قلّة قليلة، وكنتُ أطمع أن أجد من تلاميذه أو أصدقائه من يخصّه بكتاب تحليلي يكشف عن جهاده وأدبه، ولعلّ ذلك يتحقّق فيما بعد، وهأنذا أعود إلى الحديث عنه قدر ما أستطيع.

عُرف خير الدين منذ نشأته الأولى بالغيرة الوطنية الملتهبة، فكان اعتزازه بالوطن

العربي مبعث إحياء شعريّ جرى به لسانه وهو تلميذ لم يُتقن علوم اللّغة، لأنّ قوة اندفاعه قد بعثت فيه قدرة على النظم التلقائي ما دامت الموهبة الصغيرة ترفده بما يعبر عن إحساسه الحارّ، وقد تعجّب أساتذته من قدرته الشعرية وهو غلام ناشئ لم تكتمل أدواته اللغوية، وهي ظاهرة جعلتنا نصدّق ما يقال عن شعراء قدامى نظموا الشعر في العاشرة، بل إنّ تصديقنا لهم أكثر وأولى، إذ أنّ عهودهم القريبة من عهد الفصاحة مدعاة إلى جودة ما يقولون.

وقد كتب الأستاذ كرم زعيتر بالمجلة العربية^(١) مقالاً يقول فيه: إنه في أصله البعيد ينتمي إلى الخوارج من الأزارقة، لذلك كان يوقّع كلمات له بجريدة الحياة بلفظ الأزرق، وأثر الخوارج ظاهر في اشتعال حماسته، وإصراره على موقفه الجادّ، ونفوره من النفاق الكاذب، وإذا كان أبوه كردياً، وكانت أمّه عربيّة، فإنّ ذلك نسب طارئ، لأنّ أرومته العربيّة - كما قال للأستاذ أكرم - لا شك فيها، إذ أن أجداده قد نزحوا إلى كردستان واختلطوا بها بعد أن حارب المهلب بن أبي صفرة جماعة الأزارقة من الخوارج، وألجأهم إلى الفرار تحت وطأة سيفه الصّارم، ومهما يكن من أمر هذه النسبة فإنّ اعتزاز خير الدين بها، وإصراره على توقيع كلماته باسم الأزرق: خبر يجب أن يذكر عند تحليل نصاعته الشعرية، وبلاغته الأسلوبية، يذكر دون جزم أكيد، لأننا لا نملك الترجيح.

يستطيع من يؤرخ للسياسة العربية في سورية ولبنان وفلسطين والحجاز في الربع الأول من القرن العشرين، أن يجعل ديوان الزركلي أحد مصادره الهامة، لأنّ الشاعر كان ينفع بالأحداث انفعالاً لا يقف عند القول الشعري فقط، بل يصل إلى المشاركة الحقيقية في اتجاهها، وقد تكون المشاركة تأييداً لاتجاه يميل إليه، كما تكون معارضة صارخة لما يخالفه من الاتجاه، وقد ذكر الأستاذ حبيب الزحلاوي في مقال جيّد نشره بمجلة الزهراء^(٢) أن الزركلي حين جمع الديوان في طبعته الأولى قد أحرق كثيراً مما نشره من قبل، لأنّ الأحداث السياسية لم تُصدّق صحّة اتجاهه، أو لأنّ بعضه كان اضطراراً محتوماً لتأييد مذهب لا يراه، ولكنّه خشي من الحكّام أن يفاجئوه بعقوبات تصل إلى الإعدام. قال الأستاذ الزحلاوي ذلك في مقالٍ قرأه

(١) المجلة العربية، جمادى الآخرة، سنة ١٣٩٧ هـ.

(٢) مجلة الزهراء، المحرم، سنة ١٣٤٤ هـ.

الزركلي، ولم يعقب عليه بشيء، فهو إذن حقيقة واقعة.

ولو كنْتُ مكان الشاعر ما أهملتُ هذا الذي قلتُهُ، وبدائي خطأ وجهته بعد زوال خطر النشر، بل كان عليّ أن أنشره، وأقدّم له بما يشفع لدى القراء من تبرير صادق، لأنّ الرجل السياسي يخطئ ويصيب، والخطأ مغفور إذا صدقت النية، وحسن القصد، ولكّنه يعدُّ باباً للمؤاخذة إذا كان خطأ متعمّداً، حيث يعرفُ الشاعر بطلان مقصده، ثم يسيّر في تيار الباطل لمأربٍ شخصيٍّ، وليس الزركلي بواحدٍ في هذا الاتجاه، فقد حرص شوقي أمير الشعراء على أن يُسقط كل ما قاله هجاءً للزعيم الخالد أحمد عرابي، وما ينحو هذا المنحى من شعرٍ برهنتُ الأيام على فساد اتجاهه، بل على أنه كان غلوّاً مفرطاً في الانتماء إلى تيّار عنيد يصادم رغبات الأمة، وجاء الدكتور محمد صبري السوبوني بعد رحيل شوقي بثلاثين عاماً، لينشر ما حرصَ أمير الشعراء على كتمانها! ولن تسمح الأيام بصبري آخر يفعلُ هذا مع خير الدين الزركلي، لأنّ الشعر ليس كل شيء في حياته كما كان الشعر كل شيء عند شوقي!! وبه امتدّ صيته الرنان.

جاء في التعريف الذي تصدّر به ديوان الزركلي عن الشاعر ما يلي :

«خير الدين بن محمود بن محمد بن علي بن فارس الزركلي، ولد في ٩ ذي الحجة سنة ١٣١٠ (٢٥ يوليو سنة ١٨٩٣) في بيروت من أبوين دمشقيين، ونشأ وتعلّم بدمشق، وتطوّع للتدريس بالمدرسة الهاشمية بدمشق، وقد أحرز شهادة القسم العلمي بها، وأصدر مجلّة الأصمعي، فعطّلتها الحكومة العثمانية بسبب صورةٍ رمزية كُتبت تحتها (الخليفة العربي المأمون) وذهب إلى بيروت تلميذاً في مدرسة اللايك العلمانية الفرنسية، ثم أستاذاً للتاريخ والأدب العربي بها، وأصدر بعد الحرب العالمية الأولى (لسان العرب) يوميّة بدمشق، ثم (المفيد) يوميّة بالاشتراك مع أحد أصدقائه».

نقلتُ هذه السطور لأكشف عن النبوغ الباكر الذي هيأ للفتى الناشئ أن يكون مدرّساً في المدرسة التي تعلم فيها عقب تخرّجه مباشرة، وأن يُصدر مجلّة أدبية سياسية ترى الحكومة خطرهما فتبادر بتعطيلها، ويضطرّ إلى الرحلة إلى بيروت تلميذاً بالمدرسة العلمانية، ثم أستاذاً بها بعد تخرّجه أيضاً، ويعود حينه إلى الصحافة

فيسهم بالكتابة في الصحف الذائعة، ثم يستقلّ بإنشاء صحيفتيّ المفيد ولسان العرب!

إنّ مثل هذا الناشئ اليافع كان في صغره يلمّ بحال موطنه أواخر وُلاة العثمانيين، أثناء الحكم العثماني، ويعرف ما يجري من الأحداث ويعلم أنّ كبار الأدباء في عصره مثل الكواكبي وكرد علي ورشيد رضا وجبران قد رحلوا إلى مصر والمهجر الأمريكي، ينشدون الحرية التي تعاني كثيراً من القيود، ثم يفاجأ بإعلان الدستور العثماني سنة ١٩٠٨، ويقرأ ما في سطره من دعاوى الحرية والعدالة والمساواة، والمحافظة على حقوق الشعوب فيصدق ما يقرأ، ويبدأ وهو في سن السابعة عشرة بالاتصال بنفرٍ من الشبيبة يجمعهم في بيته^(١)، وقد يكونُ أصغرهم قائلاً: دَقَّت ساعة العمل.

وقد بدأ بنشر قصائده داعياً إلى الحرية في مجلة المقتبس وغيرها، وكان يظنّ بالقائمين على الأمر في تركيا أنّهم سيحفظون للعرب مكانتهم، إذ هم إخوانهم في الشقاء والنعماء، ولكن علم على وجه اليقين بما لمسّه لمس التجربة، أنّ القوم يسعون إلى تترك الأمة العربية، ويحاربون كل من يعتزّ بعروبتّه ساعياً إلى الإصلاح السياسي، فأرسل أناشيده الصارخة محذراً مهذّداً، والزركلي شاعرُ الأناشيد الحماسية الأوّل في دنيا العروبة، فقد لمس تأثير الأناشيد في الشبيبة، وعلم أنّها نفسٌ يتردّد في الرثّة، قبل أن تكون كلمات تتردّد في الحناجر، مثل نشيد (هيا بنا)، هذا النشيد الذي ابتدأ به صرخاته الشعرية موقظاً منبهاً، ومنه:

أين الطّبا أين القنا	الموت أو نيل المنى
نبىء ذوي السمر اللّدان	عن آلنا يوم الطّعان
أنّا وإن نام الزمان	حيناً، فقد يصحوبنا
نحن بني العرب الكرام	من شأننا حفظ الزّمام
وضيفنا ما إن يضام	ومن يضيّم ضيفنا؟
سل النّهى فهي الشهود	تغزو لنا صدق الوعود
سل الوفاء بالعهود	هل يتمي إلّا لنا!

وواضح أنّ النشيد الجماعي لا يراد به الغوص على المعاني، بل يُراد به مخاطبة

(١) مجلة الزهراء، محرم، سنة ١٣٤٤هـ.

النفوس الغضة، والتسلل إلى العواطف النائمة في صدور الناشئة، وهو بذلك ذو تأثير يفوق تأثير القصائد الشعرية، لأن القصائد في كثير من منازعها ذات صقل فكري يرتفع عن مستوى العامة، وقد يطربون للجو العام حين يسمعون القصيدة في محفل أدبي أو سياسي، ولكن النشيد الذي يكتب ليردّد على الألسنة يُصبح شعاراً واسع الانتشار، وقد أدرك الزركلي أثر أناشيده في الخاصة والعامة معاً، فجرى معها شوطاً طويلاً، إذ أخذت حيّزاً فسيحاً في ديوانه الكبير.

وأذكر أنه في (ذكرى حطين) يوم أقيمت ندوة شعرية خاصة بها، تحدّث فيها كبار الشعراء من أمثال شكيب أرسلان، وعبد المحسن الكاظمي، وفؤاد الخطيب؛ فآثر الزركلي أن تكون قصيدته نشيداً طويلاً موقع النغمات مرتفع الحماس، وهو من يقدر على نظم القصائد المطولة في هذا المجال، ولكنه آثر أن يصدق بنشيد يكرّر فيه المطلع، غبّ كلّ غرض، ليكون مذكّراً قوياً ببطولة صلاح الدين، هذا المطلع المكرّر هو:

في ذمة الأحقّاب والفلكك الـدوّار
شهابٌ مجد غاب في حلك الأعصار

ثم مضى يتحدث عن بطولة الأسد الباسل، مشيراً إلى مواقفه الحاسمة في دفعات شعورية ذات التهاب، حتى وصل إلى مبتغاه في إشعال النفوس حميّة، وبعث الهمم توقّداً واقتداءً فقال:

يا راقداً في الشام يسقيك غاديهـا
قد خلّلت الآجام من رابض فيهـا
توالى الآلام وانقضّ مزجيـها
هل ترجع الأيام ييضاً لـيالـيهـا؟
وتخفّق الأعـلام فوق روايـهـا! (١)

ظنّ العرب في ديار الشام خيراً بإعلان الدستور العثماني، فأخذوا يعملون على النهضة الواثبة، وألفوا الجمعيات السريّة، وأصدروا الصحف، ونظموا القصائد والأناشيد، وجرت في البلاد حركة إصلاحية ترقب الغد بأمل باسم، ولم يطل الأمد بهم، إذ جاء جمال باشا السفاح، ليعوق كل تقدّم نحو الاستقلال العربي، بل جاء

(١) ديوان خير الدين الزركلي.

ليدحر أبطال النهضة، وقد أمر فور مجيئه بإلغاء كتيبة الضباط العرب من الشباب، وهم صفوة من خريجي المدارس العليا، ثم بُسّطت الأحكام العسكرية، وأقيمت المحاكم، وعُطّلت الصحافة، وانطلقت أيدي الاتحاديين - كما يقول الأستاذ نسيب سعيد - في البلاد العربية يسجنون ويعذبون كلّ من ينادي بالحرية، وقد قتل كثير من هؤلاء الشهداء ظلماً واغتيالاً، حين ظنّ الترك أن محاولة تترك الأمة العربية، وانضمامها إلى امبراطورية طورانية أمرٌ مفروغ منه، إذا قضوا على زهرة الشباب المتعلّم، وأغلقوا النوادي، وصادروا الصحف.

وفي هذا الجو المظلم، رأى الزركلي أنّ الرقابة تحاصره، وتحاسبه على قصائد قالها في تمجيد الحرية، والدعوة إلى عزة العرب، وقد جاءه من أنذره أن الأمر قد صدر باعتقاله فاغتياله، وعليه أن يمدح السّفاح جمال باشا لينجو برأسه، ووازن الشاعر بين إعدام محقّق لا يستطيع بعده نفع أمته في شيء، ومهادنة - تصل إلى المداجاة - يستطيع بسببها أن يُنقذ نفسه، ويتشعّق للمغضوب عليهم ممّن تمتلئ بهم السجون، وقد عانى الشاعر حرباً مضطربة السّعر في نفسه، حين رآه مجبراً على مدح الطاغية الظالم، وتمنّى لو يستطيع الهروب دُونَ أن يقع في أيدي الجواسيس، فيستنشق الحرية في مصر أو في سواها من البلدان التي لا تخضع لكابوس السّفاح، وكان يتصل بإخوانه ليسمعهم أمثال قوله:

مدحتكم وبودّي لو هجوتكم
حكمتكم فظلمتكم، فاتخذت فمي
ضرورة أخوجتني لامتداحكم
لو أطلق الحُكم لي في منطقي ويدي
والشعر درعاً يقي من شركم جسدي
وللضرورة حكم غير مطّرد!

وبعض الناس يمرّون بمثل هذه الأبيات هازئين، إذ يطيب لهم أن يصبّوا اللوم على من حاول الاستكانة لينجو، وهؤلاء ينسون قول الله عز وجل ﴿إِلَّا مَنْ أَكْثَرَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ﴾ ولو كانوا مثل موقف الشاعر لعذروه وقَدّروه. يقول الأستاذ الزحلاوي بصدد هذا الموضوع^(١):

«وأظنّ العاقل الذي تلقّيه الظروف بورطة كالتّي وقع فيها الزركلي لا يتوانى عن مديح الظالم وجلاً على حياته، وإني ألوم أصحابه الذين تمنّوا سكوته على عدم تقديرهم موقفه بين الحياة والموت».

(١) مجلة الزهراء، العدد السابق، ص ٥٠.

وحين أقدم السّفاح على شقّ الشهداء من أعلام سورية تعسفاً وإجراماً، لأنّهم طالبوا بحقّهم وحقّ بلادهم في الحرية، لم يبق في قوس التّصبّر منزع، فهاجت النفوس إلى درجة الغليان، وبعضُ الذين كانوا يُواذون التّرك فاض بهم الكيل، فعلموا أن السّفاح الغاشم يريدُ أن يحرق البلاد! وهنا لابدّ من التّنبه على أمرٍ هام، هو الموازنة بين حالّي سورية أيام السلطان عبد الحميد وحالها أيام الاتحاديّين، لنجد الفرق شاسعاً واضحاً للعيان، فإذا كانت مرافق البلاد قد أهملت في عهد السلطان إذ أهملت شؤون التعليم والزراعة والعمران، فإنّ رُوح العدوان للعروبة والإسلام لم يكن لها وجودٌ في هذا العهد؛ كانت الدولة ترعى شؤون الشّريعة، وتشجّع المواطنين على الالتزام بالقانون، وتُعيّن من رؤسائهم أعضاء في مناصب الدولة، وفي مجلس المبعوثان، رعايةً لحقّ الأخوة الإسلاميّة، وإذا وقع ظلم من والٍ، فإنّ الأمر يصلُ إلى السلطان، وله أن يحكم بإدانة الباغي! نعم إنّ النفوس لا ترضى بغير الحرية التامة، والمساواة الكاملة، وهذا ما دعا إلى التذمّر من عهد السلطان، ومحاولة التملّص منه، ولكنّ ذلك إذا قيس بمن يجعلون أنفسهم أبطال الحرية من الاتحاديّين، ثم يشنّقون الناس، ويملؤون السجون، ويسوقون البراء إلى المحاكمة الباطشة، دون استماع إلى شاهد عدل، أقول: إذا قيسَ عهدٌ بعهد، فإنّ الذين عايشوهما معاً يترخّمون على العهد السالف، ويردّدون قول الشاعر:

ربّ يوم بكيْتُ منه فلما صرْتُ في غيره بكيْتُ عليه!

لقد أعلنت الثورة على التّرك، وقام الشريف حسين بقيادتها، حين يئس كل اليأس من كل صلاح يُرجى على يد الأتراك، ونحن نحكم الآن على الأشياء بعد أن انجلت عواقبها، وأصبحت تاريخاً يُروى ويُناقش ويُحلّل، ولكنّ الذين كانوا في غمار المعركة لم يعرفوا من النتائج ما نعرفه الآن، فإذا اندفعوا إلى وجهة لم تأت بالفائدة المرجوة، فهم بشر يصيبون ويخطئون، والذي يتفق عليه الجميع دون اعتراض، أن الاتحاديّين قد بغّوا وطغوا وأسرفوا في العدوان، فلا بد من البحث عن البديل.

الحلفاء، وقد أصدر جريدَتَيْن تُعبّران عن رأيه، وتجمعُ الرأي العام حول ما يراه من التوثُّب للنهوض الانتقالي، حتَّى انكشفَ الزيف الخادع، واحتل الفرنسيون دمشق بعد موقعة ميسلون الشهيرة، ثم تتبَّعوا من يعرفون عنه المعارضة لاحتلالهم البغيض، وكان الشاعر أوّل من اتجهت إليه الأنظار، فخرج إلى فلسطين فمصر فالحجاز، وقد صدر حُكم غيابي عليه بالإعدام ومصادرة أملاكه، فحمد الله أن نجث رقبته، يقول الزركلي^(١):

«وفي سنة ١٩٢١ تجسّست بالجنسية العربية في الحجاز، وانتدبني الملك حسين بن علي لمساعدة ابنه الأمير (عبد الله) وهو في طريقه إلى الأردن، وكان الظن به حسناً فعدت إلى مصر فالقدس، واصطحبت منها إلى الصلت فعمّان جماعة مهَّدتُ معهم السبيل لدخول عبد الله، وإنشاء الحكومة الأولى في عمان، وسمَّيتُ في تلك الحكومة مفتشاً عاماً للمعارف، فرئيساً لديوان رئاسة الحكومة (١٩٢١/١٩٢٣) وفي خلال ذلك أبلغتُ حكومة الجمهورية الفرنسية بيتي في دمشق أنّها قرّرت وقف تنفيذ حكمها عليّ، فكانتُ فرصةً لزيارة دمشق، والعودة منها بعائلي إلى العاصمة الأردنية».

هذه السطور تحتاج إلى تفصيل كثير، وقارىء تاريخ هذه الحقبة يعرف تمام المعرفة معارك الحُسَيْن مع الأتراك والحلفاء وغيرهم، ويدركُ الواقع الأليم الذي أصاب آماله بنكسةٍ قويّة، لأنّه استكان إلى وعود زائفة، وجاهد ما استطاع كي تتحرر الأمة العربية ناسياً أن ذلك لن يكون بمعاونة الأعداء، ولعلّه تذكر إذ ذاك قول أبي الطيب:

ومن يجعل الضرغام في الصيد بازه تصيّده الضرغام فيما تصيّدا

وخيرُ الدين لم يخفُ ما عناه أثناء هذه الأزمات الحوالم، فسطر كتابَيْن ذائعين عن جهاده في الحجاز وفي عمان هما (ما رأيت وما سمعت) و(عمان في عمان) وهذه الصفحات السياسية مذكراتٌ خاصة تمثّل وجهة نظر صاحبها فقط، دون أن تكون وحدها التاريخ الحقيقي للأحداث، إذ أنّ الذي يكتب التاريخ يجب أن يكون بمنأى عن ملابساته الشخصية، فقد يضطرّ إلى تبرير أمرٍ ما بغير وجهته المنطقية، ومذكراتُ خير الدين - كمذكرات غيره من السياسيين - تمثّل وجهةً ذاتية، وتصلحُ أن

(١) الأعلام، ط سادسة.

تكون شهادة لدى المؤرّخ المحايّد يُقابلها بشهاداتٍ أخرى في الموضوع ذاته، ليخرج من كلّ ما طالعته بنتائج صحيحة تدعمها الأسانيد، وقد بُعد الأمد بهذه الحقة، وظهر فيها من المؤلفات ما يجعل حقائقها من الوضوح بحيث لا تحتاج إلى بحث جديد.

وقد استراح الشاعر سياسياً بعد رحلة عمان، وعاد إلى القاهرة لينشئ مطبعة يرتزق من محصولها، ويدوّن من مذكراته ما جمعه في كتب مختلفة، أهمّها كتاباه اللذان أشرّت إليهما، وقصّة شعريّة عن ماجدولين، كما نشر ديوانه في طبعته الأولى، ولئن فارق الأحداث العربيّة مجاهدّاً لشخصه، فلم ينسَ أن يشارك فيها بقلمه شاعراً وناثراً، إذ أخذ يرقب الأحداث في الشرق العربي عامّة، وفي سورية خاصّة، معبراً عن مشاعره بإزائها، وله في فظائع الاحتلال الفرنسي قصائد شوارد.

وقبل أن أستشهد ببعض شعره، أشير إلى أنّ الشعر السياسي مظلوم لدى بعض ناقدَي اليوم، إذ أنهم يسمّونه بالتقريّريّة، ويعدّونه ضرباً من الخطابة العفوية، فهو ثورةٌ حماسية تهيجُ مندفعة ثم تُسجّل اندفاعاتها دون تعمّق في التحليل، أو إتقان في التصوير، وهذا كلامٌ خطؤه أكثر من صوابه، لأنّ أكثر ما نقرأ من الشعر شرقاً وغرباً قد صدر عن انفعالٍ حماسي متوقّد، فما يكادُ الشاعر يكابد معاناته حتى تفور به أحاسيسه، فيندفع إلى تسجيل تجربته كما أحسّها في صدق وجيشان، وليس الشاعر في نظمه مهندساً دقيقاً يُرتّب أدوات البناء لبنة لبنة حتى نرميه بالتسرّع المنفعل! على أنّ سرعة النظم وحدها ليست عيباً، فقد يُبطئ الشاعر المجيد ثم لا يصلُ حيناً إلى ما وصل إليه شاعرٌ أحرقتُه التجربة، ففاضت على لسانه، ثم إنّ تحديد معنى الخطابية لدى هؤلاء مبهم غامض، إذ لا يتفقون على سماتها البارزة، ومن يرمي الشعر السياسي بها، وقد قاله شعراء مقتدرون؛ يستطيع أن يرمي المتنبي والشريف والبحري بما رمى به معاصريه! وبذلك يضع الشعر العربي - أو جلّه - تحت مبضع الخطابية ذات المدلول العائم، وهو أعلى ما لدينا من التراث.

وإذ أكتب في هذا المجال لا أستطيع أن أستشهد بكلّ ما قال خير الدين ولا بعُشر ما قال، فإني سأكتفي هنا بقصيدتين نادرتين، حازتا إعجاب القراء، وتردّد الحديث عنهما في كتب معاصرة تعرّضت للشعر السّوري المعاصر، وإحدهما كان موضع المعارضة بين كبار الشعراء، إذ قام الأمير عادل أرسلان، والأستاذ محمد

البزيم بمعارضة قصيدة (الوطن) وقد أحسَّ الزركلي نفسه بخطرها فجعلها فاتحة الديوان الذي طُبِعَ بعد وفاته، وها هي ذي :

لا ساكناً ألفت ولا سكناً	العينُ بعد فراقها الوطناً
أن لا تحسنَ كرى ولا وسناً	ريانةً بالدمع أفلقها
حسنأ، وباتت لا ترى حسناً	كانت ترى في كل سانحةٍ
أنكرته، وشككت فيه أنا	والقلبُ لولا أنه صُعدت
وهمُ هنالك ما لقيت هنا	ليت الذين أحبهم علموا
حتى تفارق روعي البدناً	ما كنت أحسبني مفارقهم
* * *	

من ذا الذي أغرى بك الزمناً	يا موطناً عبث الزمان به
لا كان لي بسواك عنك غنى	قد كان لي بك عن سواك غنى
كرمته وطابت مغرساً وجنى	ما كنت إلا روضةً أنفأ
وهم يُسمّون الأذى منناً	عطفوا عليك فأوسعوك أذى
مسنونة، وتقدّموا بقنا	وحنوا عليك فجرّدوا قضباً
* * *	

والنيلُ يروي ذلك الغصناً	يا طائراً غنى على غصن
إن كنت تعرف مثلي الشجناً	زدني وهج ما شئت من شجني
ولربّ ذكرى جدّدت حزناً	أذكرتني ما لست ناسيه
والطير أحاداً به وثنى	أذكرتني بردى وواديّه
وهوأي فيهم لاعجاً كمنا	وأحبةً أسررت من كلفني
دمعٌ إذا كفكفته هتنا	كم ذا أغالبه ويغلبني
هنا الحياة تألّقنا وسنا	لي ذكريات في ربوعهم
* * *	

إن حلّ لم ينعم، وإن ظعننا	إنّ الغريب معذب أبداً
لهممت أعبد ذلك الوثناً	لو مثلوا لي موطناً وثناً

والبيت الأخير مجال اعتراض قوي، فالمبالغة به مكروهة، وهي شنيئة نعرفها لدى من يتحمسون لقضية ما، فيشتطون دون اتئاد.

أما قصيدة خير الدين الثانية في مأساة دمشق حين داهمها برابرة الاستعمار، فقد كادت تكون الأولى في بابها، لولا أن شوقي قد سبقها بقصيدة قال في مطلعها:

سلام من صبا بردى أرقُ ودمع لا يكفكف يا دمشق
ومعذرة البراعة والقوافي جلال الرزء عن وصف يدقُ

وكنت سمعت الأديب الكبير الأستاذ علي الطنطاوي يقول في تلفزيون المملكة العربية السعودية: إنه كان طالباً بمكتب عنبر عندما نشرت قصيدة شوقي في دمشق، وأن زملاءه الطلاب قد نسخوا القصيدة في أوراق يحفظها كل طالب ليسلو بها حين ينقُص عن شجونه، ومما قاله الزركلي:

لهفي على وطنٍ يجوس خلاله شذاذ آفاق شراذم سود
أبرابرُ السنغال تسلب أمتي وطني ولا يتصدّع الجلود
شرّ البلية والبلايا جمّة أن يستبيح حمى الكرام عبيدُ
غلتِ المراحل فاستشاطت أمة عريية غضباً، وثار وقود

وبرابرة السنغال، هؤلاء قوم مضطهدون يعانون ذل الاستعمار، وقد سيّقوا إلى دمشق جبراً دون اختيار، والسنغال الآن دولة مسلمة تنعم بالاستقلال، ولا أشك في أنها تلعن تلك الأيام التي رسفت فيها بقيود ثقيلة لا طاقة لها بتحطيمها من قبل، حتّى أذن الله بالصباح، ولم يشفِ صدر الزركلي أن نظم هذه القصيدة الحارة ذات اللهب المتقد، بل عاود الكرة في قصيدة أخرى قال فيها:

النارُ مُحَدَقَةٌ بجلّق بعد ما تركتُ حماةً على شفير هار
تنسابُ في الأحياء مسرعة الخطا تأتي على الأطمار والأعمار
والقومُ منغمسون في حمّاتها فتكأ بكلّ مبرّأ صبار
الطفلُ في يد أمّه غرضُ الأذى يُرمى وليس بخائضٍ لغمار
والشيخ متكئاً على عكّازة يُرمى، وما للشيخ من أوزار
الوابلُ المدرار من حِمم اللظى متواصلٌ كالوابل المدرار
والظلم منطلقُ اليدين محكم ياليت كلّ الخطب خطب النار

وشعر الزركلي حار العاطفة ملتهب الأداء، ولكنه من النمط السهل الواضح، الذي يسلم معانيه لقارئه لأول مرّة، فهو إلى طريقة حافظ إبراهيم أقرب منه إلى طريقة شوقي، وقد نظم في الشعر القصصي ما حلق فيه فوق مستوى حافظ، لأنّه

راعى التصوير الفني، ولم يأت بالحادث عارياً عن الإيحاء والتلوين، كما اختار بعض الشعر الغربي فساقه مترجماً، واختياره هذا دليلٌ حميتِه الوطنية، وأذكرُ أنَّ قصيدة (الديدبان) التي ترجمها في نسق بياني رائع، تلقي درساً في الوطنية الصادقة لا تبلغه عشرات الصحف الحماسية، التي يمرّ بها الدارس دُون التفات يُنبىء عن تقديرها، وهي تُذكرنا بترجمات أخرى حازت نصيبها من الإبداع.

على أنَّ الشاعر الكبير قد آثر أن يودّع الشعر في الفترة الأخيرة من حياته، فلم يواصل العزف على قيثارته كما كان في صدر شبابه إلا في فترات يسيرة، وهي قضية لا تخصّه وحده، فالمازني قد هجر الشعر إلى الصورة القصصية نثراً مطبوعاً، والرافعي هجر الوزن والقافية فحسب، إذ هو في مقالاته بوحى القلم شاعر أي شاعر، وكذلك في بعض ما كتب بأوراق الورد ورسائل الأحزان، أمّا الزركلي فيقول بهذا الصدد من حديث له مع الأستاذ الدكتور بكرى الشيخ أمين^(١):

«ما رأيك إذا قلت لك: إني لم أترك الشعر، بل لم يتركني هو، فما زال بيننا وصالٌ، فأنا إلى اليوم أنظم، وأترنم بالشعر الجميل، ولكنّي إلى الإعراض عنه أميل، هذا الإعراض ليس وليد الساعة، ولكنه ذو عمر طويل، يكاد يمتدّ إلى خمسين سنة إلى الوراء، ولولاهُ ما خرجتُ للناس بكتاب (الأعلام) ويخيّل إليّ أنّي خدمتُ به بلادي وأمّتي بمثل ما خدمتها بالشعر، لكنّي أرى أن نظم قصيدة واحدة يستغرق زمناً، ويحتاجُ إلى تفرُّغ وخيال، وابتعادٍ عن الشواغل، والعمل في الأعلام يستحوذُ على ليلي ونهارى، ويغرقني في بحر من القراءة والكتابة والتأليف، لا أجدُ بعده ساحة أتفرّغ فيها لعمل آخر».

وقد حان الآن أن أتحدث عن موسوعة الأعلام، وهي موسوعة قال عنها الزركلي إنها سلبت من عمره خمسين عاماً، فقد ظهر الأعلام أولَ ما ظهر في العشرينيات، في ثلاثة أجزاء فحسب، ورأى الزركليّ إقبال الباحثين عليه، ورجوعهم إليه مطمئنين، فعرفَ أنَّ من واجبه أن يكمل ما فاتته، وقد فاتته الكثير، فعكفَ في مدى خمسين عاماً على هذا الإكمال، وللقارىء أن يعلم أنَّ (الأعلام) يشملُ تاريخ ستّة عشر قرناً وأكثر من تاريخ العربية، لأنّه اهتم بالجاهليين قبل مشرق الإسلام، فلم يغادر تاريخاً لأديب عربي أو شاعرٍ أو مؤلّفٍ أو سياسي قرأ عنه في

(١) المجلة العربية، عدد جمادى الأولى، سنة ١٣٩٧هـ، ص ٥٠.

العالم كله دون أن يتحدث عنه في سطور كاشفة، وأقول: في العالم كله لأنه اهتم بمن كتبوا بالعربية في كل مكان مستشرقين وغير مستشرقين، ومعنى ذلك أنه قرأ كل كتب التاريخ الخاصة بالتراجم في المكتبة العربية، ليأخذ منها مادته، وقد قرأ عشرين صفحة ليختار منها عشرة سطور يراها تفي بالمقام، أجل، لقد قرأ الزركلي كتب الطبقات من تاريخية وأدبية وصوفية وعلمية وكتب الأخبار كالأغاني، ومعجم الأدباء، ووفيات الأعيان، وبيته الدهر وسلافة العصر، ودوائر المعارف، وما لا أستطيع حصره، ولكنني أوجزه في أنه قرأ المكتبة العربية في القديم، أما في الحديث فقد كان العبء أكبر وأشق وأضخم، لأنه أخذ يترصد كل جريدة أو مجلة في شتى ربوع العالم الإسلامي، ليقف على أخبار الراحلين منذ ظهرت الصحف والمجلات، كما أخذ يُرسل أقارب من رحلوا دون أن تكتب عنهم الصحف، ولهم مؤلفات باقية، فلا بد من الحديث عنهم.

وحين عيّن سفيراً للملكة العربية في المغرب هاله أن يجد في التراث المغربي الحافل قديماً وحديثاً ما لم يخطر له على بال، فعكف على البحث والتصنيف حتى أضاف عدة مجلدات، ثم رتب المتحدث عنهم من هؤلاء في أماكنهم من الموسوعة وفق التسلسل الأبجدي، وهو عمل شاق لا يدركه غير من يكابده، كما حرص على أن يذكر المراجع التي استقى منها في هوامش الصفحات، وهو عمل آخر يضاف إلى مجهوده فيما فوق الهوامش مما ينوء به الجمع دون الفرد، يقول خير الدين في حديثه مع الدكتور بكري أمين المشار إليه من قبل:

«حدث مرة أن كنت في استانبول أفتش عن كتاب خاص، فلم أعثر عليه، وفجأة رأيت صديقاً، وسألته عن الكتاب فقال: إنه في بلدة تسمى (مغنيسا) فركبت السيارة إلى (مغنيسا) وقضيت إحدى عشرة ساعة في الطريق إليها، ولما زرت مكتبتها وجدتُها من أغنى المكتبات، لكنها دون فهرس حديثة، وإنما هي جذاذات في الأدراج، وهي تملأ اثني عشر درجاً، فرحْتُ أستعرض الدرج الأول خلال صيف كامل، وعُدت في الصيف الثاني لأقرأ مخطوطاته، وهكذا ظللتُ أكرّر الزيارة سنة بعد سنة حتى اطلعتُ عليها جميعاً».

ولعلّ هذا الخبر يصوّر لك معاناة الباحث الكبير مدى خمسين عاماً، حتى تهتأ له أن يظهر الأعلام في ثوبه الجديد.

اشتغل الرجل مع اهتمامه العلمي بمناصب كبيرة في السلك السياسي بوزارة الخارجية السعودية، كان خاتمتها أن عُيِّن سفيراً للمملكة في المملكة المغربية، وظلَّ بها عميداً للسلك السياسي حتى اعتلَّت صحته سنة ١٩٦٥، فتقاعد حاملاً رتبة السفير حتى لقي ربه في ٢٥ تشرين الثاني سنة ١٩٧٦ .

وقد ذهب الزركلي وبقيت آثاره تتحدَّث عنه حديثاً لا ينقطع ما دام الأعلام قد صار في مقدمة المراجع التاريخية لدى الباحثين .

* * *

سيد قطب شاهد الرأي الحرّ

اسمُ سيد قطب يتضمّن لدى القراء سيرته جميعها، فقد شاء الله أن يعرف كلُّ قارئٍ مسلم تاريخَ جهاده، ومناحي بطولته، حتّى أعداؤه الذين يُخاصمونهُ الرأي، قد رأوا سعة انتشاره، وأمجادَ عظمتِهِ تتردّد على ألسنة الناس، فلم يَجْروا على أن ينتقصوا عظمتَهُ المسطورة في النفوس، وكلّ الذي حاولوه أن يلقفوا من كتاباته بعد تأويل مُغرض ما يدُلُّ على الثورة، وكلّ كاتبٍ حتّى لو كان أهدأ الكاتبيين يستطيعُ المُحلّلُ المُغرضُ أن يأخذَ من أفكاره الصريحة ما يجعلها مظنة التأويل، وأمرٌ هؤلاء قد اكتشفَ لدى خاصّتهم الأثيرة لديهم، قبل أن يُكتشفَ لدى العامة، فهم يحاولون تبرير اتجاهاتهم بما يُرذُّ عليها من أيسر سبيل، وحين يضيقُ بهم القول، يفركون أيديهم في أسف، ويقولون في ندم: لقد صار مُعجزة!! فماذا نصنع؟.

وآية أسفهم النادم هذا، أنّهم رأوا الدولة في ذات يوم تُحارب مؤلّفاتِ الشهيد سيد قطب، تجمعُها من خزائن الكتب، ومكتبات المدارس والجامعات ثم تحرقها حرقاً، وتعتقلُ مَنْ تجد لديه أثراً منها، ومن الطريف أن كتاباً مدرسياً في النقد الأدبي جَمَعَ مقالاتٍ نقدية مختارة لطفه حسين والعقاد، والمازني، وسيد قطب، ومحمد مندور، ووُزِعَ على الطلاب في مدارس المعلمين والمعلمات، ثم صَدَرَ الأمر الغاشم بمصادرة آراء سيد قطب وبحوثه، واكتشفَ الوُصوليون أن مقالاً نقدياً لسيد قطب في كتابٍ مدرّس، فقرّر إعدام الكتاب جميعه، وسُحِبَت عشرات الآلاف من النسخ من أيدي الطلاب ومن مكتبات المدارس لتواجهه الإحراق الكاسح، والموضوعُ نقديٌّ لا يتصل بالسياسة والإسلام، ولكن اسم سيد قطب أصبح مُربحاً، فلا بدّ أن يلاحق في كل مصدر، وماذا كانت النتيجة، لقد انهزم العدو الحاقده هزيمة نكراء، وأشرقت الشمس الساطعة، فسطعتْ كُتُب سيد قطب سطوعاً لم يكن ينتظر

لها قبل محتته، حتّى إنّ كتاب ظلال القرآن بمجلّداته الستّة الضخمة قد طُبِعَ عشرين مرّة، ولا تخلو منه مكتبة باحث إسلامي أو محلّل للبيان القرآني، أو عاشقٍ لكتاب الله، وليس كتابُ الظلال وحده هو صاحب الحظوة، بل جميع ما كتب سيد قطب، وقد تعددت طبعاته، وتداولت آثاره في كل بلد إسلامي، حتّى كأنّ محاربة فكره كانت دعوةً لانتشاره الباهر، مما يصدقُ معه قول القائل، وهو الأستاذ علي الجارم:

كالشعلة الحمراء لو نكستها لأضفت إشعالاً إلى إشعال

وقد أحرقت من قبلُ كتُب الأئمة؛ أبي حامد الغزالي وابن حزم الظاهري وابن رُشد الفيلسوف، وغيرهم من أفذاذ المفكرين، فماذا كانت النتيجة؟ كانت النتيجةُ نتيجةُ المعركة الظالمة مع كتب الأستاذ سيد قطب، ولعلّ الطّغاة يعتبرون بأحداث التاريخ حين نجدُ الجُناة يُحاكمون الأبرياء في كل زمان ومكان! وهي مأساة تتردّد على مسرح الأيام.

قلتُ: إن اسم سيد قطب يعني سيرته الذائعة المردّدة، ومعنى ذلك أنّي لا أتعرضُ إلى هذه السيرة الذائعة المشتهرة، ولكنّي أرصدُ بعض اتجاهاتٍ فهمت على غير وجهها، وتحتاجُ إلى تصحيح، ومعروفٌ أن الأستاذ سيد قطب قد تخرّجَ في كلية دار العلوم، دارِ الأدب والدين معاً، وقد دَرَسَ علوم الشريعة جوار علوم الأدب واللغة، ومثله لا يُقال عنه: إنّهُ كان غافلاً عن الدراسات الإسلامية في شبابه الأوّل. إنّما يقال إنه طرّق هذه الدراسات، ولم يشأ أن يبدأ التّأليف فيها حتّى اكتملت رؤيته! أما الفضيحةُ كل الفضيحة فهي أن يتحدّث كاتب في مجلة الهلال، فيزعمُ أنّه كان ملحداً في هذه الفترة! هذه الفترة التي كتّب فيها سيد قطب آلاف الصفحات في أشهر مجلّات الأدب والثقافة، ثم لم يندّ منه لفظ واحدٌ ينبئ عن إلحاده المزعوم! وقد أعوزَ صاحبُ هذا الاتّهام أن يجد الشبهة التي يرتكن إليها، فقال: إنّهُ يعتمد على حديثٍ شخصيٍّ، ومَع مَنْ؟ مع داعية الإسلام في عصر الكنود والجحود! أي باطل هذا؟.

وأنا أقولُ بصدد تعديل مسار سيد قطب من البحوث الأدبية إلى البحوث الدينية: إنّهُ كان طبيعياً لا شذوذ فيه - وسأتناولُ هذه الناحية بالتفصيل فيما بعد - لأنّه قد بدأ في دراسة الشعر المعاصر، وانتقل إلى دراسة الشعر القديم، فنلحظ بعد هذه

الدراسة الممتدة أن كتاب الله عز وجل أكبر نصٍّ أدبي عرفته اللغة العربية، وأخذ يتأمل كتاب الله من الناحية الأدبية وحدها، فلاحظ أن التصوير الفني هو أداته المفضلة في التعبير، وإذ ذاك أخذ يتبع مظاهر التصوير الفني في كتاب الله، وجمع من الحقائق ما أتاح له أن يكتب مؤلفاً في هذا الموضوع، كان بدء اتصاله التأليف بكتاب الله، وقد تعرض في مقدمة هذا الكتاب إلى دواعي التأليف في هذا المنحى، فذكر أنه لاحظ أن التصوير الفني هو الأداة المفضلة في أسلوب القرآن «فهو يُعبّر بالصورة المحسنة المتخيلة عن المعنى الذهني، والحالة النفسية، وعن الحادث المحسوس، والمشهد المنظور، وعن النموذج الإنساني والطبيعة البشرية، ثم يرتقي بالصورة التي يرسمها فيمنحها الحياة الشاخصة، أو الحركة المتجددة، فإذا المعنى الذهني هيئة أو حركة، وإذا الحياة النفسية لوحة أو مشهد، وإذا النموذج الإنساني شاهداً حيّاً، وإذا الطبيعة البشرية مجسدةً مرئية، فأما الحوادث والمشاهد، وأما القصص والمناظر، فيردّها شاخصةً حاضرةً فيها الحياة وفيها الحركة، فإذا أضاف إليها الحوار فقد استوت كل عناصر التخيل، فما يكاد يبدأ العرض حتى يُحيل السامعين نظارة، وحتى ينقلهم نقلاً إلى مسرح الحياة الأول، التي وقعت فيه أو ستقع، حيث تتوالى المناظر، وتتجدد الحركات، وينسى المستمع أن هذا كلام يُتلى، ومثلٌ يضرب، ويتخيل أنه حادث يُعرض، ومنظرٌ يقع، فهذه شخصٌ تروح على المسرح وتغدو، وهذه سمات الانفعال بشتى الوجدانات المنبعثة عن الموقف، المتساقفة مع الحوادث، وهذه كلمات تتحرك بها الألسنة، فتتم عن الأحاسيس المضمرة، إنها الحياة هنا وليست حكاية الحياة»^(١).

وعلى هذا النمط سار في تحليل مشاهد القيامة في القرآن في كتاب مستقلّ اهتم بإبراز التصوير الفني في الأسلوب القرآني، ولكن مراعاة التصوير الفني قد جذبتُه إلى شيء آخر بعد ذلك، هو المعاني التي جاءت خلال هذا التصوير، معاني القرآن الرفيعة التي أخرجت البشرية من الظلمات إلى النور، هذه المعاني التي بعثت الإسلام هديةً غالية للإنسانية، لقد بدأت نقطة التفكير في رسالة الإسلام الخالدة تنبعث في نفس سيد قطب بعد أن وقف على أسرار هذه المعاني تشريعاً وهداية

(١) التصوير الفني، للأستاذ سيد قطب (مقدمة الكتاب) ص ٤.

وتاريخاً ورسماً لطريق النور في الحياة الدنيا والآخرة، وهذا بعض ما عناه المؤلف الكبير في قوله بمقدمة الظلال^(١):

«عِشْتُ أتملى في ظلال القرآن ذلك التصور الكامل الشامل الرفيع النظيف للوجود، لغاية الوجود كله، وغاية الوجود الإنساني، وأقيسُ إليه تصوراتِ الجاهلية التي تعيش فيها البشرية في شرقٍ وغرب، وفي شمال وجنوب، وأسألُ: كيف تعيش البشرية في المستنقع الآسن، في الدرك الهابط، وفي الظلام البهيم، وعندها ذلك المرتع الزكي، وذلك المرتقى العالي، وذلك النور الوضيء!.

وعشتُ في ظلال القرآن أرى الإنسان أكرم بكثيرٍ من كل تقدير عرفته البشرية، من قبل للإنسان ومن بعد، إنه إنسان بنفخةٍ من روح الله ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُمُ سَجِدِينَ﴾ وهو بهذه النفخة مستخلفٌ في الأرض ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ ومستخرٌ له كل ما في الأرض ﴿سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ ولأن الإنسان بهذا القدر من الكرامة والسمو جعل الله الآصرة التي يتجمع عليها البشر هي الآصرة المستمدة من النفخة الإلهية الكريمة، جعلها آصرة العقيدة في الله، فعقيدة المؤمن هي وطنه، وهي قومه، وهي أهله، ومن ثم يتجمع البشر عليها وحدها، لا على أمثال ما تتجمع عليه البهائم من كلالٍ ومرعى وقطيع وسياج».

هذه النقلة الرائعة إلى كتاب الله كانت باعثة الاتجاه إلى البعث الإسلامي، كما تصوّره المؤلف الشهيد، وقد بدأت هذه النقلة منذ أنشأ يخط الأجزاء الأولى من الظلال، قبل أن يبتلى بمحنة السجن والتعذيب، وبسببها دوت مقالاته في الإصلاح السياسي والاجتماعي على صفحات المجلات الأدبية والدينية، وبسببها ابتدأ سنل مؤلفاته الإسلامية الرائعة بكتاب (العدالة الاجتماعية في الإسلام) وما تلاه من كتب تتحدث عن (معركة الإسلام والرأسمالية) و(السلام العالمي والإسلام) و(دراسات إسلامية) و(هذا الدين) و(خصائص التصور الإسلامي) و(المستقبل لهذا الدين) و(معالم في الطريق) و(مقومات التصور الإسلامي) وهي كتب تؤلف وحدها مكتبة إسلامية معاصرة، ترى الإسلام بمنظور واسع حافظ محلل، وأثر هذه المكتبة قد انتقل من أولياء الدعوة الإسلامية إلى خصومها، فهم يحاولون الرد على بعضها، فيدرکهم

(١) مقدمة الظلال ١١/١.

العي، لأن النصوص صريحة، والوقائع التاريخية شاهدة، والحق جهير الصوت، فلا يسكتة نقيق الضلال!

وكما عذب الشهداء من قبل، عذب سيد قطب، ولاقى من ألوان التعذيب على ضعف صحته، وضآلة جسمه، وتقدمه في السن ما يزلزل التراسي، وقد جهر بعقيدته في أحلك محاكمات الطغيان مرتين قاسيتين، لا مرة واحدة، وعرض عليه في أشد ساعات الهول أن يتقدم بالتماس لصاحب الأمر كي يعفو عنه، متبرئاً مما نسب إليه قولاً وفعلًا، فترفع، وقال قولته الشهيرة: «إذا كنتُ مسجوناً بحق فأنا أرتضي حكم الحق، وإذا كنتُ مسجوناً بالباطل، فأنا أكبر من أن أسترحم الباطل» قال ذلك وقد أصيب بعد التعذيب بنزيف رئوي شديد كاد يقضي عليه، لولا أن أجل الله لم يحن، وقال ذلك، حين ربطوا أعضاء جسمه على كرسي خشبي مدة أربعة أيام حُرْم أثناءها من الطعام والشراب، وهو مريض بالكلية يحتاج إلى كميات كبيرة من الماء، وبعد سجنه في المرة الأولى عرض عليه الرئيس العراقي عبد السلام عارف منصباً كبيراً في وزارة المعارف بالعراق، كي يخلص من الجو القابض في مصر، فاعتذر مُفضلاً أن يبقى في حلبة الصراع، ثم قُدِّم للمحاكمة في مهزلة قادها من يُسمّى بفؤاد الدجوي، وهو ضابط متخاذل قدّم نفسه أسيراً لإسرائيل دون أن يظهر نخوة تدل على رجولته، ثم أطلق بعد تذلل وانكسار، ووقائع المحاكمة مسجلة في كتب كثيرة تتحدث عن الشهيد، وقارئها يقرأ مهزلة لا محاكمة، وقد انتهت بما انتهت إليه من حكم الإعدام، ودوى الحكم في العالم الإسلامي، فكان له وقع السهام في الأكباد، وقد تشفع كبار الملوك والرؤساء في العالم الإسلامي، كي يخفف الحكم، فأصمّ عبد الناصر أذنيه، ولكنه فتحها بعد النكسة حين سمع كل ما يكره من مُلاصقيه - فضلاً عن مباعديه - وإخاله ظل يتخيل شبح سيد قطب في يقظته ومنامه، كما كان معاوية بن أبي سفيان يتخيل شبح حجر بن عديّ شهيد الرأي الحر أيضاً، وقد روي أنّه قال في احتضاره: يؤمي منك يا حجر طويل!

لم أرد بهذا المقال أن أضيف جديداً إلى ما يعرفه المثقفون من جهاد سيد قطب، ولكنني رأيت بعض الكاتبين يهرفون بما لا يعرفون عن الرجل الكبير.

وإذا ما خلا الجبان بأرض طلب الطعن وحده والنزلا

وفيه من ظنوا أنهم سينالون بعض المراكز المرموقة حين يشنون حراهم على

الشهيد الثاوي بمرقده المطمئن، وقد نالوا أكثر ما يريدون فعلاً، ففتحت لهم أمهات الصحف، واحتلوا الذروة في مجالس إداراتها، وتخطفتهم بعض المناصب المغرية، ولكن ذلك شيء، وتقدير الجمهور الواعي لهم شيء آخر، فالوصولية المحترفة موجودة في كل زمان ومكان، ولكنها كانت أبشع مظهراً، وأسمح مرأى، وأبغض حديثاً عقب المحنة التي أودت بحياة البطل الشهيد، وأعجب شيء أن يقول صحافي ناشئ لا يقدر على أن يفهم مقالاً صحفياً كتبه الشهيد، فضلاً عن أن يقرأ مؤلفاته العلمية، وبحوثه الأدبية، يقول هذا الناشئ في جريدة يومية إنه ناقش سيد قطب في أفكاره في ساعات طويلة، وأوضح له شططها وسفهاها، فلم يجد منه غير السكوت والإذعان! وسيد قطب كان يرد على أكبر عملاق أدبي في عصره دون احتياط! ولكنه سكت وأدعن أمّام من لا يتجاوز معرفة حروف الهجاء!! وهذا وغيره مما لا يؤبه لهم بحال. . . إنما الدهشة كل الدهشة أن يتصدى أديب كبير في مصر - إن لم يكن أكبر أدباؤها الآن - وهو الكاتب الكبير الأستاذ نجيب محفوظ، فيقول عن الشهيد ما طوّعه قلمه أن يسجله، ونظراً لمكانة الكاتب الكبير فقد رأيت أن أناقشه في الفصل التالي، مع احترامي لشخصه، أمّا بعض أجباء سيد قطب فقد تورطوا في الحكم على حياته الأدبية الأولى بما يخالف الواقع، وإذا كنت أحترم إخلاصهم للحقيقة التي جهلوها، فقد كتبت فصلاً آخر يبدد ما تكافئ لديهم من الشبهات! وهما هذان.

بين سيد قطب ونجيب محفوظ

نعهد في الكاتب الكبير الأستاذ نجيب محفوظ إنصافاً ولباقة، فهو في أحاديثه عن معاصريه يلتزم حدود الذوق العاقل؛ فيبرز المحاسن، ويغضي عن الهنات، وتلك لباقة حصيفة، استطاع بها أن يميل بمعارضيه إلى مسالمتة، ولكن هذه اللباقة المعهودة قد تخلت عنه حين نشر بمجلة الهلال (ديسمبر سنة ١٩٨٨) حديثاً عن الناقد الكبير الأستاذ سيد قطب رحمه الله يتضمن غبناً فادحاً للأستاذ الشهيد، لأن ما ذكره الأستاذ نجيب محفوظ عن الأديب الكبير يُجافي الحقائق المشهودة مجافاة صريحة، ولا أدري كيف كتب الأستاذ نجيب عن صاحبه الأثير ما كتب، وأقول: (الأثير) عن عمد، لأن الأستاذ نجيب محفوظ أشاد بالأستاذ سيد قطب في أحاديث

عدّة، كما قرّر أنّه حظي بنقده الموجّه منذ دخل الميدان الروائي! لذلك كانت كلمة الأستاذ نجيب محفوظ بمجلة الهلال ذات علامة استفهام مُلحّة، تتطلّب الإجابة العاجلة، وأنا بادئ ذي بدء ممّن يقدّرون مواهب الروائي الكبير، ويعدّونه أديباً موهوباً تبوّأ مكانته الفكرية عن أصالة وكفاءة، كما أذكر أنّي حيّيته بمناسبة جائزة نوبل بمقالٍ منصف نشرته بمجلة الهلال تحت عنوان: (نجيب محفوظ ناقد مثقف) فأشرتُ إلى جانب من جوانبه الفكرية المضيئة، لم يُخصّه الكاتبون بالتحليل، فإذا أتيتُ اليوم لأضع الحق في نصابه بمناسبة ما نشره بالهلال عن الراحل الشهيد، فذلك واجبٌ مفروض يؤدّيه من يملك حقّ التصويب ومعه برهانه الناطق، ودليله الصريح.

رجع إلى الماضي

والذين تابَعُوا حركة النقد الأدبي في الأربعينيات، حين كان الأستاذ نجيب محفوظ يسير خطواته الأولى في طريق الإبداع الفني الرائع، يعرفون أنّ الناقد الكبير الأستاذ سيد قطب قد خصّ الأديب الواعد باحتفاء زائد، إذ تابع نشاطه الفني متابعة واعية على صفحات مجلة الرسالة، فأفرد له صفحاتٍ مشهودة كان كبار الكتاب حينئذ يتطلّعون إلى أمثالها متلهّفين.

ففي العدد (٥٨٧) من مجلة الرسالة الصادرة في (٢/١٠/١٩٤٤) كتب الأستاذ سيد قطب مقالاً حارّاً الترحيب بقصة (كفاح طيبة) وهي من بواكير نتاج الأستاذ نجيب محفوظ بدأه بقوله: «أحاول أن أتحمّض في الثناء على هذه القصة فتغلبني حماسة قاهرة لها، وفرحٌ جارف بها، هذا هو الحق، أطلعُ القراء به في أول سطر، لأستعين بكشفه على ردّ جماح هذه الحماسة، والعودة إلى هدوء الناقد واتزانه». ومضى الناقد الكبير في تحليله البارع حتى قال:

«ولم يكن الشعور القومي وحده هو الذي يصلُ نبضاتي بنبضات أبطال القصة، بل كان الطابع الإنسانيّ الذي يطبعها، والتنسيق الفني الذي يشيع فيها، هُما كذلك من بواعث إحساسي بصحة ما يجري في القصة، وكأنّه يجري في الواقع المشهود، بكلّ ما في الواقع من عُقد فنية، وعُقد نفسية، ينسّقها المؤلف في مواضعها بريشة متمكّنة، ويد ثابتة تبدو عليها المرانة، والثقة بمواقع التصوير والتلوين».

وفي مقال آخر عن قصّة (خان الخليلي) نشره الأستاذ سيد قطب بالرسالة، وأضافه إلى مجموعة (كتب وشخصيات)^(١) قال الأستاذ سيد قطب:

«ولكنّ هذه القصّة الثالثة هي التي تستحقّ أن تُفرد لها صفحة خاصة في سجلّ القصّة المصرية الحديثة، فهي منتزعة من صميم البيئة المصرية في العصر الحاضر، وهي ترسم في صدق ودقة وفي بساطة وعمق صورة حيّة لفترة من فترات التاريخ المعاصر، فترة الحرب الأخيرة، بغاراتها ومخاوفها، وبأفكارها وملابساتها، ولا ينقص من دقة هذه الصورة وعمقها أنها جاءت في القصّة إطاراً لحوادثها الرئيسية».

ثم وازن الناقد بين قصّة «خان الخليلي» وقصّة «عودة الروح» لتوفيق الحكيم فقال:

«ولكنّ من الحق أيضاً أن أقرّر أن الملامح المصرية الخالصة في (خان الخليلي) أوضح وأقوى، ففي «عودة الروح» ظلال فرنسية شتّى، وألمع ما في عودة الروح هو الالتماعات الذهنية، والقضايا الفكرية بجانب استعراضاتها الواقعية، أما (خان الخليلي) فأفضل ما فيها هو بساطة الحياة، وواقعية العرض، ودقة التحليل».

ولم يفت الأستاذ نجيب محفوظ أن يتابع نشاط الأستاذ سيد قطب، إذ احتفل بصدور كتابه (التصوير الفني للقرآن) وكتب عنه كلمة ممتازة قال فيها^(٢): موجّهاً الحديث إلى المؤلف:

«قرأت كتابك بعناية وشغف فوجدت فيه فائدتين كبيرتين، أولهما للقارئ، خصوصاً القارئ الذي لم يُسعد الحظّ بالفقه في علوم القرآن، والغوص إلى أسرار بلاغته، بل حتى هذا القارئ الممتاز واجد في كتابك أنواراً جديدة، ولذة طريفة، ذلك أنّ كتاباً خالداً كالقرآن الكريم لا يُعطي كلّ أسرارهِ الجمالية لجيل من الأجيال، مهما كان حظه من الذوق، وقدره من البيان... والمهمّ أنك وفقت لأن تكون لسان جيلنا الحاضر في أداء هذا الواجب الجليل، فجاء كتابك كالمرشد للقارئ والمستمع العربي من أبناء جيلنا، يدلّه على مواطن الحُسن، ومطاوي الجمال،

(١) كتب وشخصيات، لسيد قطب (ص ١٥٩) ط ٢، دار الشروق.

(٢) مجلة الرسالة، العدد ٦١٦، بتاريخ ١٩٤٥/٤/٢٣ م.

ويجلي له أسرار السحر ومفاتيح الإبداع، كان القرآن في القلب، فصار ملء القلب والأذن والعين والعقل جميعاً».

وهذا التقدير المتبادل بين الكاتبين الكبيرين ممّا يعرفه القراء المتابعون عن بصير دقيق بأسبابه، لذلك كان المتوقع من الأستاذ نجيب محفوظ أن يُصوّر صاحبه بقلمه البارص صورةً دقيقة، صادقة الملامح، ولكنّ ما نشر بمجلة الهلال عن الأستاذ سيد قطب تحمّل عبثاً قاسياً، لا أدري كيف وقع فيه الكاتب الحضيف؟! وهو من أدري الناس بواجب الدقة الأمانة، والإنصاف العادل، وإذا تعدّر أن نجد الصدق الوفي عند أكبر كاتب عربيّ يحتلّ الصدارة في هذه الأيام، فعند من نجد؟.

قدّمت مجلة الهلال مقالة الأستاذ نجيب محفوظ بكلمة قالت فيها:

«هذا الفصل من المرايا لنجيب محفوظ يرسم شخصية «سيد قطب» ويؤجّز تاريخ حياته في مفاصلها الرئيسية، إنّما بقدره الفنّان، الذي يُضمر بقدر ما يفصح، ويستخدم الإبهام ببراعة فذة، حتى لا يكشف عن سرّ معرفته بشخصه، فيُلقي هذا العبء على القارئ الأديب».

وقد بدأ الكاتب حديثه بقوله: «إنه اليوم أسطورةٌ، وكالأسطورة تختلف فيها التفاسير، وبالرغم من أنّي لم ألقَ منه إلّا معاملةً كريمة أخوية إلا أنّي لم أرتح أبدأً لِسِحْنَتِهِ، ولا لنظرة عينيه الجاحظتين».

والأستاذ حين لا يستريحُ أبدأً لِسِحْنَةِ صاحبه، ليسَ بمؤاخِذٍ على هذا الإحساس النفسيّ، إذا كان مجرّد إحساسٍ ذاتيّ، لا يؤثّر في موضوعيّة الفكرة، ولكنّ ما كتبه في مقاله يدلّ على أن هذا الإحساس قد تعدّى الذاتيّة إلى الموضوعيّة، حيثُ جافى الكاتب الكبير كثيراً من الحقائق الملموسة، وهذا ما نحار في تعليقه! لأنّ الحق أبلج لا يستتر بنقاب.

المشال الأول:

قال الأستاذ نجيب محفوظ عن سيد قطب: «إن تعصّبه وتأثره بالدين لم يخفَ عليّ، أذكر أن كاتباً قبطياً شاباً أهداه كتاباً يحوي مقالات في النقد والاجتماع، فحدّثني عنه ذات يوم في مقهى الفيشاوي، فقال: إنه ذكيٌّ مطلع حسّاس، وذو أصالة في الأسلوب والتفكير، فسألته ببراءة وكنت مُغرماً بالكاتب، متى تكتب عنه؟

فابتسم ابتسامة غامضة، وقال: انتظر وليطولن انتظارك، قلت: ماذا تعني؟ فقال: لن أشارك في بناء قلم سيعمل غداً في تجريح تراثنا الإسلامي بكافة السبل الملتوية، فتساءلتُ بامتعاض: أفهم من ذلك أنك متعصب، فقال باستهانة: لا تهذّدي بالأكليشيات فإنها لا تهزّني».

هذا ما قاله نجيب بلفظه، وفيه خلط واضح بين شيئين متباعين، فسيد قطب حين لم يشارك في تزكية كاتبٍ لحظ في منحاه الفكري تجريحاً للتراث الإسلامي، وأشاح بقلمه عنه، فإنه لا يصدر في اتجاهه هذا عن تعصب ديني كما أراد الكاتب الكبير أن يحكم بذلك، ولكنه يربأ بقلمه أن يقرّض مُتهجماً لا يحترم الحقيقة! وكان على الأستاذ نجيب أن يقرن هذا التأبي العادل بما يعرفه عن سيد قطب حين تحدث عن كتاب من أفاضل الأقباط والمسيحيين حديث المقرّط المعجب، ولو كان متعصباً كما حاول الكاتب أن يصوّره في مرآته، لأغفل الحديث عن هؤلاء.

إن الأستاذ نجيب محفوظ صديق حميم لرفيق شبابه الكاتب القبطي الأستاذ عادل كامل، وهو يعلم جيداً أن الأستاذ سيد قطب قد خصّ قصّته الرائعة (مليم الأكبر) بمقالين حافلين، نُشرا بعددَين مُتتابعين من مجلة الرسالة (يناير سنة ١٩٤٥) مع أن نجيباً نفسه كان يخطئ بمقال واحد عن القصة التي يختارها سيد قطب لنقده، وقد قال عنه: «إن المؤلف ليبدو في قصّته هذه صاحب موهبة فيّة لا سبيل إلى الشك فيها، موهبة العرض والتنسيق ورسم الملامح والشخصيات، وإدارة الحوادث والمفاجآت، فهي من هذه الناحية تستوفي صفات القصة الجيدة على وجه العموم، ثم هي تحمل طابع مؤلفيتها بوضوح في نواحي النقص ونواحي الكمال، فالمؤلف صاحب طريقة مطبوعة، وأسلوب مرسوم، وهذا يُقرّر وجوده الفني في عالم القصة بلا جدال».

فإذا كان الأستاذ نجيب قد قرأ ما كتب سيد قطب عن صاحبه الأستاذ عادل كامل في الرسالة، ثم أعاده في مجموعة (كتب وشخصيات) فكيف ارتضى لنفسه أن يحكم على الكاتب الشهيد بما هو منه براء، وأمامه الشاهد الذي لا يقبل الشك، ولم يكن الأستاذ عادل كامل وحده الذي خصّه الناقد الشهيد بتحليل نقديّ بين ذوي دينه، فقد تحدّث قطب عن شعراء وكتاب من هؤلاء حديث الناقد المعجب، وإذا كان الأستاذ نجيب قد قرأ مجموعة (كتب وشخصيات) فإنّها وحدها تشهدُ بصد

ما قال، ففي هذه المجموعة حديث نقديّ ممتاز عن الأستاذ ميخائيل نعيمة بدأه بقوله عن كتابه (البيادر)^(١):

«إنه في نظري كتاب الموسم لسنة ١٩٤٥م! وهذه السنة قد سعدت بكتب ممتازة للأساتذة عباس العقاد وتوفيق الحكيم وطه حسين!». وقد تعرّض الناقد الكبير لتحليل بعض آثارهم الصادرة في هذا العام، ولكن الأستاذ سيد قطب أفاض في تحليل (البيادر) إفاضة رائعة حقاً، ولا سبيلَ إلى نقل ما سجّله في اثنتي عشرة صحيفة من صفحات الكتاب!.

فماذا يقول نجيب محفوظ عن حديث قطب هذا؟ وهو مما يُنقض دعواه.

ولا نتركُ مجموعة (كتب وشخصيات) دون أن نشير إلى البحث المستفيض الذي كتبه سيد قطب تحت عنوان (أنطون الجميل الصحافي والأديب والناقد) إذ ملأ أكثر من عشرين صفحة متوالية، توضّح اتجاه الجميل في منحاه الأدبي، ونحن نعرف أن كتابَ الجميل عن شوقي، وأنّ لقطب موقفاً نقدياً من أمير الشعراء، لا يلتقي مع موقف الجميل، ولكنّه وافق وخالف، وقارب وباعد، في حيدة موضوعية رائعة، وقد ابتدأ حديثه بقوله^(٢) عن الجميل:

«وأخصّ صفاته الألمعية واللباقة... مع سرعة البديهة، وحسن المدخل، ولطف المآخذ، والتماع الفكرة، ورشاقة العبارة، ويسر التفكير، وبراعة التصوير».

هذه حقائق ملموسة تنطق بها آثار الأستاذ قطب، ولم أشأ أن أذكر ما أعرفه من إنصافه للمجيد من كلّ مذهب، إذ سعدتُ بلاقائه، ونعمتُ بحديثه، لم أشأ ذلك كيلاً أرمي بالافتعال، ولكنّي أعجب لمفكرٍ واسع الأفق؛ بعيد النظر، مثل الأستاذ نجيب محفوظ، حين يلمّ بآثار صاحبه، ويقرأ ما كتبه عن زيد وعمرو، ثم لا يُعيره أدنى التفات! على حين يتكئ في حكمه على جملة عارضة قيلت في مجلس خاص، وعمّن قيلت هذه الجملة؟ عن كاتب لاحظ الأستاذ تهجّمه على التراث الإسلامي، فأشاح عنه! لتكون هذه الإشاحة وحدها دليل تعصّب ممقوت عند الكاتب الكبير!!.

(١) كتب وشخصيات: (ص ١٠٠).

(٢) كتب وشخصيات (ص ٢٥٣).

المثال الثاني

قال الأستاذ نجيب محفوظ - سامحه الله - :

«وتكشف لي جانب منه لم أكن لأصدقه لو لم أخبره بنفسه؛ ذلك أنه كان يوجد كاتبٌ صاحبٌ مجلة ومطبعة، تُصدر سلسلةً شهرية من الكتب، وكان يحتقره ويقول عنه: لولا مجلته لما وجد مجلة تقبل أن تنشر له كلمة. وكما أدهشني أن أطلع له على مقالة في (الرسالة) عن صاحب المجلة رفعه فيها إلى السماء، وحرث في تفسير ذلك حتى علمتُ بأنه اتفق معه على نشر كتاب له في سلسلته الشهرية نظير أجر ممتاز، لم يظفر بمثله كاتبٌ آخر، وتذكرتُ في الحال موقفه الأعمى من الكاتب القبطي، فأزعجني جداً اكتشاف ذلك الجانب الانتهازي في شخصيته، وساورني شك من ناحية صدقه وأمانته، واستقر في نفسي نفورٌ دائم منه».

لترك قصة الكاتب القبطي التي كررها نجيب محفوظ، فقد علمنا مبلغ زيفها، حين قدمنا ما يدحضها مما كتبه الشهيد سيد قطب عن كاتبٍ قبطيٍّ مماثل، وعن اثنين آخرين ذوي شهرة وذويوع، أما صاحب المجلة والسلسلة الشهرية، فقد تتبعنا كل ما كتبه الأستاذ سيد قطب بالرسالة، فلم أجد غير الأستاذ عبد الحميد جودة السحار، الذي كان شريكاً لأخيه في إصدار السلسلة، فمجلة (الفكر الجديد) فيما بعد! وقد كتب الأستاذ سيد قطب مقالاً عن كتابه (في الوظيفة بالرسالة الصادرة في ٢٢ يناير سنة ١٩٤٥)، ولهذا التاريخ أهميته، إذ أن سيد قطب لم يُصدر حينئذ كتاباً في سلسلة لجنة النشر للجامعيين، التي يُشرف عليها الأستاذ السحار، إنما صدر بعد عدة شهور كتابُ (الأطياف الأربعة) للإخوة الأربعة محمد قطب وسيد قطب وأختيهما، وهو الكتاب الذي يعنيه الأستاذ نجيب، وإذا كان سيد قطب قد حدث نجيباً من قبل عن عدم رضاه عن المؤلف، في بعض ما كتبه من قبل، فليس في ذلك تعارضٌ ما حين يمدح الناقد كتاباً ظهر فيما بعد يحمل طابع الأصالة، وما قاله سيد قطب لنجيب محفوظ قد اعترف به علناً، حين قال في مقدمة حديثه عن كتاب السحار «همزات الشياطين»:

«لقد قرأتُ له قصة (أحمس بطل الاستقلال) وهي لا تُبشّر بشيء، ثم قرأتُ له (في الوظيفة) فأعجبني فيه قدرته على التصوير السريع، ثم قرأتُ (همزات

الشياطين) فكانت الشقة بينها وبين جميع أعمال المؤلف الشاب بعيدة فهي وثبة واسعة المدى».

وإني لأسأل الأستاذ نجيب فأقول له : إذا قال ناقد ما عن القصص الصغيرة التي نشرتها بمجلة الرواية سنة ٣٧، ٣٨، ٣٩ : إنها لا تُبشر بشيء، ثم قال بعد ذلك عن قصة (خان الخليلي) أو (كفاح طيبة) . إنّ كليهما رائعة . أف يكون ذلك مصدر حيرة لك لا تجد لها أي تفسير ! .

إن المؤلف قد يرتفع في مؤلف، ويهوي في مؤلف آخر، أفنلزم الناقد أن يتحجّر بإزائه على وصف واحد لا يتعداه، لقد نشرت سلسلة لجنة النشر للجامعيين كتباً لمن هم أدنى مكانة من الأستاذ سيد قطب، فماذا زاد عليه حين انضم إلى جماعة بينهم الصاعد والهابط، حتّى يُغيّر رأيه لينشر كتاباً في سلسلة متواضعة، إذا قيست بسلاسل أخرى تُصدرها لجنة التأليف والترجمة والنشر، ودار المعارف، ودار الهلال! الحق أن الافتيات هنا واضح صريح ! .

على أنّي أواجه الكاتب الكبير بأمر يجب أن يتدبّره كثيراً، فقد كان الأستاذ سيد قطب مُدرّساً متواضعاً بوزارة المعارف، وكان ينقد طه حسين المستشار الفني بالوزارة، وصاحب الرأي الأول بها بما يتحرّج الكثيرون من زملاء طه أنفسهم أن يقولوه، فهو مثلاً يقول عن قصة (شجرة البؤس)^(١) بعد أن نقل أساليب فخمة ساقها المؤلف على لسان امرأة عامية ليبرز ما سمّاه الناقد بعدم التكافؤ بين القائل والمقول :

«هذه الفخامة كلّها في أسلوب امرأة عامية، وهذا الاقتباس من الأساليب العربية القديمة، أمر نختلف في شأنه مع الدكتور . . وإنّ الفوارق بين ملامح هذه الشخصيات البسيطة الساذجة في واقع الحياة فوارق قليلة دقيقة، فكلهم طيّب، وكلهم مؤمن بالله، ومن شأن هذا كله أن يزيد في عبء المؤلف الذي يريد أن يرسم ملامحهم المتشابهة، ويبرز شخصياتهم المتعدّدة» .

وهذا كلام له خبّ لا يخفى على الدكتور طه ومن دونه! أفنقول بعد ذلك : إن سيد قطب قد قرّظ السحار لينشر له كتاباً في سلسلة نشر بها لفلان وفلان وفلان!!

(١) كتب وشخصيات (ص ١٩٠).

وقد سبّب هذا نفوراً دائماً لنجيب محفوظ ، لأنه يمثّل الجانب الانتهازي!! أي انتهاز يا أخي! .

المثال الثالث

ثم قال الأستاذ نجيب محفوظ إنه قابل الأستاذ سيد قطب بعد قيام الثورة ، فوجده يقول بكل ثقة : «يجب أن يحلّ القرآن مكانَ كافة القوانين المستوردة ، المرأة تتعلّم وتعود إلى المنزل ، ولا بأس من أن تضمن لها الدولة معاشاً ، الاشتراكية والوطنية والحضارة الأوروبية خبائث علينا أن نجتثّها ، لدينا رسالة الإسلام ، وهي كفيلة بإنقاذ العالم وخلّاصه ، فعندنا العدالة الاجتماعية والأخوة الإنسانية وعبادة الله وحده ، لا رأس المال» .

قال سيد قطب ذلك واستمع إليه نجيب ليقول تعقيباً عليه : «استمعتُ إليه طويلاً ضاغطاً على انفعالاتي حتى لا أخلّ بواجب المجاملة»! .

إنّ الكاتب الكبير نجيب محفوظ قد ضغطَ على انفعالاته ، حين سمع سيد قطب يدعُو لتطبيق الشريعة الإسلامية! فيحلّ القرآن مكان القوانين المستوردة!! وأنا أعهدُه يجلس مع الماركسيّين والوجوديّين والملاحدة ، ثم يبتسم دون أن ينفعل!! فلماذا يضغط على انفعالاته ، وهو يسمع كلاماً يقوله قادةُ الفكر في العالم الإسلامي من أمثال محمد عبده ومحمد إقبال ومحمد عاكف ، وعباس العقاد في إسلاميّاته ، وجميعهم لا يقلّون في نضوجهم الفكري عن الأستاذ نجيب محفوظ! حسبُ الأستاذ سيد قطب شرفاً أنه الوحيد بين كتاب مصر - وفيهم الحكيم وطه حسين ونجيب محفوظ - الذي لم يغب عنه الوعي حين حارب الطغيان معتزلاً بأمانة الكلمة ، أما السّادة الكبار فقد اعترفوا بأن الوعي قد كان غائباً عنهم ، وأنه عاد بعد نكسة ١٩٦٧م ، أنسيتم هذا يا قوم!! .

سيد قطب بين اتجاهين

كثرت الدراسات عن الشهيد سيد قطب كثرةً حميدة ، وهي في مجموعها تُنبئ عن إخلاصٍ وفيّ لكاتب بذل روحه هيّنة في سبيل مبدئه القويم ، وإذا كنتُ أحيي من قاموا بهذه الدراسات حين بذلوا أقصى ما يملكون من جهد حتى استوت لهم

أبحاثهم كما يتصورون، فإني أجدُ لزاماً عليّ أن أبدي رأيي في مسألة شاعت لديهم، وتناقلها دارسٌ عن دارس، وكأنّها قضيةٌ مُقرّرة لا تقبل الجدل، وذلك حين تحدّثوا عن الحياة الأدبيّة الأولى للكاتب الكبير، وأطلقوا عليها (فترة الضياع) وهو إطلاقٌ عجيب، لا أدري كيف شاع وتقرّر حتى أثبتته دارسٌ عن دارسٍ دون أدنى تحفّظ.

والمفهومُ عمّن توصف حياته بالضياع في فترةٍ من فترات حياته، أنه انهمك في سلوكٍ هابط لا يزعمُ قيمَ دينه، وأخلاق مجتمعه، أو أنّه كتب مقالاتٍ منحرفة تؤيد الإباحية وتدعو إلى الانحدار، وإن اقتصر على الكتابة فقط دون استجابة لما يقرّر، هذا هو المفهوم المنطقي لمن توصف حياته بالضياع في فترةٍ من فترات عمره، فهل كان سيد قطب منحرفاً سلوكياً في فترةٍ ما؟ أم هل كان مستخفاً بالقيم الدينيّة، والمقررات الأخلاقية في مقالٍ كتبه، أو في كتاب ألفه؟ وإذا كانت الإجابة بالنفي القاطع الذي لا تتخلله ذرّةٌ من شك، فأين هو الضياع؟.

لقد نظر هؤلاء الدارسون إلى المرحلة الأولى من حياة الكاتب الأدبيّة، فوجدوها موزّعة بين السياسة والأدب والنقد، بعيدة عما اتجه إليه بعدُ من منهج إسلامي متكامل، فقرّروا في سهولة أنّ مرحلة الأدب والنقد مرحلة ضياع، ومعنى هذا أن كل أديب اقتصر على البحوث الأدبيّة، والمقالات النقدية بعيداً عن مسائل الشريعة، وأحكام الدين يُعدّ ضائعاً طيلة حياته، وإن التزم بما يلتزم به المؤمنُ الصادق من مقرّرات الإسلام في سلوكه الشخصي، وعلاقته العامة والخاصة، بل معنى هذا أن العلماء الذين يبحثون في شتّى فروع المعرفة من هندسة وطبّ وزراعة واجتماع ضائعون أيضاً، لأنهم غير مؤلّفين في مباحث الدين! وما الأدب والنقد إلّا بعضُ فروع المعرفة ذات الروافد المتعدّدة، فيجب أن يندرج الحكم على جميع هذه الفروع!

بعض ما يقال

نقلَ الدكتور صلاح عبد الفتاح الخالدي في كتابه (سيد قطب من الميلاد إلى الاستشهاد) عن الأستاذ محمد توفيق بركات قوله مؤيداً شارحاً^(١):

«إن السبب المباشر لضياعه - سيد قطب - هو إقباله على الثقافة الماديّة الغربيّة،

(١) سيد قطب من الميلاد إلى الاستشهاد (ص ٢١٦).

وأخذ كل ما فيها من مبادئ وأفكار وتصوّرات... وهذه الثقافة جاهليّة مضادّة لمقررات الإسلام وتصوّراته ومعاديه لها».

ويُسهب الدكتور الخالدي في تأكيد ما نقله عن زميله لينتهي إلى قوله^(١):

«المسؤولون عن ضياعه، هم الذين فتحوا له هذا المورد الثقافي، وسهّلوا له العبّ منه، وفي طليعة هؤلاء سيد قطب نفسه الذي سمح لنفسه أن يتزوّد من مصادر أجنبية، وهو غير متمكّن من مصادره الإسلامية، وغير واقف على أرضيّة إيمانية صلبة، ومنهم أستاذه العقّاد حيث حاول التلميذ أن يقلّد أستاذه في كل شيء، فقلّده وجاراه في العبّ من تلك الثقافة، التي وَجَدَ مصادرها في مكتبة أستاذه الضخمة».

وقارىء هذا الكلام يظنّ أن سيد قطب قد تربّى في نشأته الأولى في مدارس أجنبية، ثم اتّصل مباشرة بالثقافة الغربيّة دون أن يقف على أرض إيمانية صلبة.

والحقيقة أن نشأة سيد قطب كانت إسلاميّة خالصة، فقد التحق بمدرسة المعلّمين الأولية، وهي مدرسة تشترط فيمن يتقدّم إليها أن يكون حافظاً للقرآن الكريم، ويُعقد له امتحان قبل أن يُقبل، ليجد نفسه أمام دروس الفقه والتوحيد والحديث والسيرة النبوية، فيأخذ منها ما يؤهّله استعدادّه، ثم انتقل إلى تجهيزيّة دار العلوم، ليجد هذه الموادّ على نحوٍ أوسع، مضافاً إليها مواد التربية والتاريخ الإسلامي مع إضافة الأصول والتفسير، كما يتّضح من الجدول المنشور في الجزء الأول من تقويم دار العلوم^(٢)، ومدة الدراسة بالتجهيزيّة أربع سنوات، انتقل بعدها إلى مدرسة دار العلوم ليجد منهجاً^(٣) مُفعماً بموادّ الأدب والنصوص والمطالعة وفقه اللّغة والعروض، والفقه التشريعي والأصول والتفسير والحديث، والتاريخ الإسلامي وتاريخ الأديان، والمنطق وعلوم الاجتماع! فيا الله كيف يقضي سيد قطب تسع سنوات كوامل؛ في التجهيزيّة أربع سنوات، وفي دار العلوم خمس سنوات - لينهل من فروع الشريعة والدين على أيدي كبار الأساتذة من المتخصّصين، ويكون له سبقٌ جهيزيّ بين الطّلاب، وصيت ذائع بين الأساتذة، ثم يقال: إنّه لم يدرّس

(١) المرجع السابق (ص ٢١٨).

(٢) تقويم دار العلوم ٥٤/١.

(٣) تقويم دار العلوم ٦١/١.

حقائق الإسلام، ولم يقف على أرض صلبة، فأخذته ثقافة الغرب، دون أن يعلم من أمر دينه شيئاً!! إن دار العلوم أخت كلّيات الأزهر فكيف يكون الطالب بها بعيداً عن جوهر الإسلام، وقد قضى في الكلية العالية خمس سنوات، يدرس في السنة الأولى ٣٢ مادة، وفي السنوات التالية ٢٥ مادة، لبابها الأصيل علوم اللغة والشريعة، في زمن كان الطالب فيه طالباً، والأستاذ أستاذاً، وكان الانتقال من فرقة إلى فرقة ذا ضوابط قاسية لا تُتيح النجاح لغير الطالب المجتهد، وقد انقطع عن مواصلة الدراسة من قعدت بهم مواهبهم عن التحصيل! وإذا لم يكن من تعلم في دار العلوم - في أرقى عهودها الزاهرة - ممن يقف على أرض صلبة من قواعد دينه ولغته، فأين يكون؟.

أما الحديث عن مكتبة العقاد فعجيب حقاً، إذ يُوحى لقارئه أن كلّ ما بالمكتبة ينتمي إلى الثقافة الغربية وحدها، وقارئ العقاد يعرف أن مكتبته إسلامية حافلة، ونصيبه من الثقافة الإسلامية في شتى عصورها لا يقلّ عن نصيبه من الثقافة الإنجليزية، والكتب العربية أوسع مدى، وأشمل محصولاً من الكتب الأوروبية بالمكتبة، فهل تصوّر عاقل أن الأستاذ العقاد قال لتلميذه الذي وقع تحت تأثيره القوي - كما يرى هؤلاء -: لا تقرأ غير الكتب الأوروبية المترجمة وحدها!! وإياك ثم إياك من قراءة كتب الشريعة والأصول والتاريخ الإسلامي!! أو أن الأستاذ قطب قد امتدّ بقرائه فشملت الشرق والغرب، كما ينتظر من قارئ ذكي يشق طريقه في دنيا الثقافة والإبداع!.

قد يقول قائل: إن الأستاذ سيد قطب قد اعترف بأنه قد انتقل من عالم ضيق إلى عالم فسيح، إذ ومضت في رُوحه شعلة الإيمان، فتجاوز الأدب إلى الدعوة في عالمها الفسيح! وهذا حق، ولكن ليس معناه أنه كان ضائعاً من قبل، بل معناه أنه أصبح ذا رسالة في الإصلاح يؤمن بها، وأنه يرى بحوث الأدب والنقد تتضاءل وتنكمش، إذا قُورنت بهذه الرسالة! وأنا لا أشك لحظة في أن دراسة إنسان ممتاز كسيد قطب للحضارة الغربية والثقافة الأوروبية كانت مصدر نفع جليل له، إذ جعلته يعرف نقائص هذه الحضارة، ويواجه أصحابها بأسلحة ساحقة لا يملكها من اقتصر على الثقافة الإسلامية وحدها، وقارئ (الظلال) يلمس أثر القراءة المستوعبة لهذه الحضارة، حين يجد النقد الحصيف في أسلوب عاطفي متوهج! وأقول: «في

أسلوب عاطفي متوهج» لأنَّ صاحب الدعوة الهادفة لا يكون جامداً يستعمل القواعد المنطقية ذات المقدمات والنتائج، فلا يؤثر إلّا في القلة القليلة من القراء، ولكنّه بعاطفته الحارة ينقلُ نبضه الحيّ، وإيقاعه المتدفّق إلى قلب قارئه، فيهديه إلى الصواب من أقرب طريق.

ليس الشهيد بدعاً

حين ندرسُ أعلام الأدب المعاصر في مصر، نجدُ منهم من نشأ كاتباً إسلامياً منذ عَرَفَ القلم، إلى يوم لقي ربّه؛ مثل الأساتذة محمد فريد وجدي ومحبّ الدين الخطيب وطنطاوي جوهرى، ومنهم مَنْ قضى صدرًا من حياته أديباً يعالج مسائل النقد والتاريخ والسياسة، ثم اتّجه إلى البحث الإسلامي في بعض مناحيه، مُصغياً إلى هواتف جديدة تدفعه إلى طريق الإيمان، شأنه في ذلك شأن الأستاذ سيد قطب، ولكنّ في هدوء صوت، وسعة صدر، ولم يقلْ أحدٌ عن هؤلاء: إنهم ضاعوا حين تريتوا في شبابهم بعض التريث، بلّ إنهم ليتحدّثونَ عن مراحل حياتهم بما يجعلها في نظر القارئ سلسلة ذات اتصال متشابك، مهما تعدّدت الاتجاهات، واختلفت الينابيع، ولنضرب المثل بكاتبين كبيرين هما الدكتور محمد حسين هيكل، والأستاذ عباس محمود العقاد، حيث بدأ الأول حياته الأدبية داعياً إلى إحياء التاريخ الفرعوني، واتخاذِه مصدر إلهام فكري، ومبعث تحفّز سياسيّ، فأخذ يكتُب الفصول التاريخية عن مينا وخوفو ورمسيس، ويوالي زيارته المتّصلة لآثار الفراعنة بالصعيد الأعلى من مصر، ليصفَ هذه الآثار وصفَ العاشق المستهام، ولعلّه كان متأثراً بمن دَعَوْا إلى تفريق الأمة العربية من صنائع الاستعمار، فتنادوا بإحياء القوميات الفرعونية والفينيقية والآشورية والبربرية؛ توهيناً لرابطة اللّغة والإسلام وخُدعَ بهم أمثال الدكتور هيكل حيناً من الدهر، بعد أن كتَبَ فصولاً أخرى تتحدّث عن المشاهير من أدباء الغرب وزعمائه، ليكونَ في تاريخهم ما يلهم القارئ المصري، ويدفعه إلى الاقتداء بأعلام أُمم بلغتْ مبلغها الأعلى في التقدّم الحضاري! وما أظنُّ خطأً يعدل هذا الخطأ، والدكتور هيكل قد اكتشف خطأه بنفسه، وعادَ إلى زعماء الإسلام يسطُ الحديث عنهم في مجلّدات وافية نالت قبول القراء، وتعدّدت طبعاتها حتى إنّ كتاب (حياة محمد) قد بلغتْ طبعاته رقماً قياسياً بالنسبة إلى القارئ العربي، وهو الطبعة التاسعة عشرة! ولترك الدكتور هيكل

يتحدّث عن تجربته بصدق وإخلاص، إذ يقول^(١) في مقدمة الطبعة الثانية من كتاب (في منزل الوحي):

«لقد حاولتُ أن أنقلَ إلى أبناء لغتي ثقافة الغرب المعنوية، وحياته الروحية، لتتخذها جميعاً هُدىً ونبراساً، ولكّني أدركتُ بعد لأيٍ أنني أضعُ البذرَ في غير مَنبتِه، فإذا الأرضُ لا تتمخّض عنه، ولا تبعث الحياة فيه، وانقلبْتُ أُلُتْمَسُ في تاريخ الفراعين موطئاً لوحى هذا العصر، يُنشئ فيه نشأةً جديدة، فإذا الزمنُ وإذا الركودُ العقلي قد قطعاً ما بيننا وبين ذلك العهد من سبب قد يصلحُ بذراً لنهضة جديدة، ورويتُ فرأيتُ أنّ التاريخ الإسلامي هو وَحْدَةُ البذر الذي يُنبُت ويثمر، ففيه حياةٌ تحرّك النفوس، وتجعلها تهتّز وتربو، ولأبناء هذا الجيل في الشرق نفوسٌ قوية خصبة تنمو فيها الفكرة الصالحة لتؤتي ثمرها بعد حين».

ومن ثمّ تتابعت مؤلفاتُ الرجل الكبير تتحدّث عن محمد ﷺ وعن الصديق أبي بكر، وعن الفاروق عمر، وعن ذي النورين عثمان، وعن الإمبراطورية الإسلامية! فضاهات بنورها الساطع ما كتبه هيكل من قبل في كتبه «ثورة الأدب»، و«في أوقات الفراغ»، و«تراجم مصرية وعربية»، و«جان جاك رسو»، و«زينب»، و«هكذا خلقت!» ولكنها مع ذلك ذاتُ غذاء جيد، ولم يقلُ أحد إنها تمثل مرحلة الضياع!

أما العقاد، فقد فاجأ القراء بفيض زاخر من إنتاجه الإسلامي، منذ بدأ كتابته (عبقريّة محمد) وما تلاه من عبقریات الصديق وعمر والإمام وخالد، ثم عكفَ عكوفاً يكاد يكون تاماً في الحقبة الأخيرة من حياته على الدّراسات الإسلامية، فبلغ ما كتبه في محيطها ثلاثين كتاباً! وكان قيامُ الحرب العالمية الثانية مبعث ضيقه وتأزمه من الحضارة الأوروبية، فحولت وجهه نحو الإسلام وأبطاله، وخصائمه التشريعية وتأثيره الحضاري، وقد ضاق بمسلكه من يسوؤهم أن يُذكرَ أعلامُ الإسلام بالثناء، وعدّوا ذلك رجعية لا تناسب العصر، وقد قال العقاد^(٢) في الرد على هؤلاء:

«أطلعت على كلمة بعنوان (المستقبل لا الماضي) يعيب فيها كاتبها الأديب أن

(١) في منزل الوحي (ص ٢٤) طبعة ثانية.

(٢) مجلة الرسالة، العدد ٥٧٧، ١٩٤٤/٧/٢٤.

يتكلم الناس عن علي وعثمان، وموقف أبي موسى الأشعري من التحكيم، ويتساءل ماذا عسى أن يصنع ١٧ مليوناً منهم ٩٥٪ فقراء معدمون!! نريد أن نعرف ما هو مستقبل الوطنية الصحيحة في مصر . . إلى آخر ما قال .

ويعقب العقاد على هذا الاعتراض قائلاً: «من العجيب أن يصدرَ هذا من محرّر (الإثنين) وهو يعلم أن العامَ ينطوي، وقد استنفدت المطابعُ من صُحف المجلات عشرة آلاف صفحة في توافهِ المتبطلين والمتبطلات، من رُواد المراقص والمحافل وميادين السباق (كما تفعل مجلة الإثنين) ثم يستكثرُ بعد هذا مئات من الصفحات على سيرة خالد بن الوليد أو عثمان بن عفان». ويقول العقاد في موطن آخر^(١):

«أصحابُ المذاهب الهدّامة يكرهون الكتابة عن عمر بن الخطاب، وخالد بن الوليد، يكرهون كل ما يُحيي في الأمم نخوةً روحيةً أو نخوةً أدبيةً، يكرهون ذلك، ولكنهم يخرسون دون الجهر بما يكرهون، فلا يقولون إنهم يكرهون الكتابة فيما يُحيي الكرامة الوطنية أو الكرامة الروحية، بل يصيحون: الفتّة الفتّة، الجوع الجوع. لتعمى العيون وقت البطون».

وقد ظهرت عشرات الكتب عن العقاد، فلم يقلْ أحد: إن مقالاته السابقة على إسلامياته كانت مرحلة ضياع! ولمْ تكونْ مرحلة الضياع وهماً في نفوس من يؤكّدونها، أَلَسْنَا نقرأ الآن كتب سيد قطب؛ (النقد الأدبي)، (كتب وشخصيات)، (طفل من القرية)، ونعدها مثلاً قوياً للإبداع الفكريّ، أُنكون بعد ذلك ضياعاً يتخبّط صاحبه في الظلمات! ثم ألا نقرأ كل ما كتبه هيكِل والعقاد قبل الاتجاه الإسلامي، فنلمسُ في الكثير منه عين السداد؟!

مثال للضياع

فإذا أردنا مثلاً للضياع الحقيقي في المرحلة الأولى، فإننا نستشهد بالدكتور منصور فهمي عميد كلية الآداب الأسبق، ورئيس جامعة الإسكندرية من قبل، حيث تعرّض لتأثيرٍ مستشرق مغرّض من أساتذة جامعة السوربون أشرفَ على رسالةٍ للدكتوراه تحت عنوان (حالة المرأة في التقاليد الإسلامية وتطوّراتها) ومع أن الرسالة خاصةً بالتقاليد الإسلامية، لا بشخصيّة رسول الله ﷺ فقد استطاع المشرف

(١) مجلة الرسالة، العدد ٥٧٩، ١٩٤٤/٨/٧.

المسيو (لوفي بريك) أن يُخصّص بحثاً منكرّاً مُسقفاً عن نبيّ الإسلام، كلّهُ افتراءً صارخ، كان مدعاة السّخرية من المنصفين من أساتذة السوربون أنفسهم، وقد طارَ حديث الرسالة إلى الصحف المصرية، فوجدتُ من يَغصّف بمفترياتها عصف النار بالهشيم.

وقد قرأ الدكتور منصور كلّ ما قيل في تفنيد آرائه، فرجع إلى صوابه وتحدّث عن نفسه: بأنّه قابل الشيخ حَسُونَة النووي شيخ الأزهر فنصحه بالرجوع إلى المصادر الأصلية من قرآنٍ وحديث وكتب السيرة والتشريع، بدلَ الاعتماد على المترجمات المغرضة التي خطّها المستشرقون، وقيل الدكتور نصيحة الشيخ الأكبر، فقرأ ودرس حتى أشرق نور الحقيقة على قلبه، فنجّا من مرحلة الضياع إلى ساحة اليقين، وأصبح من كبار أعضاء الجمعيات الإسلامية في مصر، وما أُقيم بهذه الجمعيات احتفال موسميّ في مناسبات الهجرة أو المولد النبوي أو ذكرى بدر أو ذكرى الإسراء إلّا كان الدكتور منصور فهمي من ألمع خطبائه، وكانت كلماته ذات طابع مستنير، يجذب السّامعين إذا قيسَ بسواه من المتكلمين، أذكرُ أنّه في إحدى كلماته بمناسبة المولد النبوي بجمعية الشبان المسلمين بالقاهرة أتى بالرائع المعجب حينَ وازنَ بينَ أحاديث رسول الله ﷺ وأقوال الفلاسفة الكبار؛ من أمثال أرسطو وأفلاطون في أمور السياسة والأخلاق، لترجعَ كفةُ الرسول الأعظم بمقارنة ما قاله الفلاسفة في موضوع متّحد، وإذنَ فلنا أن نعتبر الدكتور منصور فهمي قد مرّ بمرحلة الضياع ليجتازها سريعاً إلى مرحلة الاستقرار، ولا يمكن أن يكون في مسلك سيد قطب أو هيكّل أو العقاد ما يُشبههُ في شيء! ولا بدُّ أن نعرفَ للألفاظ معانيها المحدّدة، فلا نتجاوز بالمعنى حدّه المرقوم.

عود على بدء

بعد أن تبدّدت أسطورة الضياع المرحلي في حياة سيد قطب، نشيرُ إلى بعض ما قيل بصدد هذه المرحلة المزعومة، فنذكرُ أن الدكتور صلاح الخالدي نقلَ عن كاتب آخر^(١) ما موجه: «إن مجلة الرسالة قد جمعت بين الرافعي حامل لواء الأدب الإسلامي، والعقاد الذي يمثّل جانب العداء للأدب الإسلامي، وقد انضمَّ سيد قطب

(١) سيد قطب من الميلاد إلى الاستشهاد (ص ٢٣٥).

إلى العقاد في اتجاهه هذا». وقد دهشت لهذا الشطط المتسرّع، فالعقاد لم يُعرف بعدائه للأدب الإسلامي منذ حمل أمانة القلم، ولدينا كتبه التي جمعت مقالاته المتفرقة على مدى خمسين عاماً، لا نجد فيها مقالة واحدة تحمل هذا العداء! فليت شعري كيف نرمي بالاتهام الجائر دون أدنى دليل! ثم إن مجلة الرسالة مجلة إسلامية قبل أن تكون مجلة أدبية، وصاحبها من ألمع كتّاب المقالة الإسلامية، وكان يُصدِر في مطلع كل عام عدداً ممتازاً بمناسبة الهجرة، يُعتبر ملحمة رائعة تشيد بمبادئ الإسلام، وعبقرية أبنائه، وكفاح أبطاله، فكيف تكون الرسالة العظيمة مسرحاً لأقلام تنهجم على الإسلام!! وكيف يُعقل أن يكون العقاد الكبير أحد ذوي الأقلام المتهجمة، وهو رجلٌ مبدأ قبل أن يكون رجل قلم!! وإذا كان سيد قطب قد هاجم الزّافعي أديباً، أيكون قد هاجمه مُسلماً غيوراً؟! إن مناقشة هذا الموضوع تُحرج وتؤسف، لأنها تضطرّ المناقش أن يفتري في ظهور الشمس حين تُرسل نورها في الظهيرة.

وليس يصحّ في الأذهان شيء إذا احتاج النهار إلى دليل
إن آثار العقاد تنطق بأنّه كان يناقش زعماء الفكر الأوروبي مناقشة النظر للنظر، فهو لا يرى عباقرة الغرب دونّه في شيء، وله قدرة فكرية على التخطئة والتصويب، بحيث إذا تكلم عن أكبر الفلاسفة والأدباء هناك وجد له ما يؤخذ عليه، فهو ليس داعيةً لأدب غربيّ، ولا متهجماً على تراثٍ شرقيّ، فكيف نكتب عن الرجل دون أن نقرأه، وكيف نبحت عن مبررات موهومة، لضياح موهوم فلا نجد غير الخطأ يتراكم بعضه فوق بعض.
ثمّ ماذا؟.

ثم نجد بعض من يلتمسون الأدلة المفتعلة على وجود مرحلة الضياح هذه، ينقلون أبياتاً شعرية لسيد قطب قالها متسائلاً عن المجهول، وكلّ إنسان لا بدّ أن يتساءل عن المجهول؟ من أين وإلى أين؟ وهذا التساؤل ظاهرة عقلية صحيحة، لأنه يفضي إلى اليقين، ونحن نفرق بين تطوّر الشاعر المستخفّ، الذي يستهزئ دون بحث كأن يقول:

ما جاءنا أحد يخبر أنه في جنة من عاش أو في نار
وبين من يقع في حيرة فيتساءل ليقتنع، فالأول عابث لا يؤبه له، والثاني حائر

يلتمس الطريق، وكلُّ إنسان قد أتى عليه وقتٌ دفعه إلى التساؤل الحائر، وقد سأل أحد الصحابة رسولَ الله عن شكٍّ يجده في نفسه، ولا يستطيعُ أن ينطق به فقال له الرسول العظيم: «أَوَجَدْتَهُ؟ ذَلِكَ مَخْضُ الإِيْمَانِ». فالقصاصُ الذي يقولها سيد قطب في هذا المجال ليست جحوداً، ولكنها خطوات في طريق اليقين، وقد بلغ الساري في الليل مداه، فأشرق عليه الصباح، وحمد السرى إذ هداه للنور، ودواوين الشعر العربي منذُ الجاهلية حتى الآن تُفصح عن مثل هذا التساؤل، فلا نجدُ حرجاً في ترداد ما تنطق به، إذ هو تسجيلٌ لمعاناة، وليسَ كُفراً، فالقائل في أكثر أحواله مؤمنٌ يتلمس السبيل.

أما الغزل الشعري في ديوان سيد قطب فمن ذا الذي يُنكره؟ ولأئمة الفقه من أمثال ابن حزم وابن داود وعُروة بن أذينة، وعُبَيْد الله بن مسعود شعر غزلي تَرَفَّ حوله القلوب، وقد كتب أستاذنا الكبير علي الطنطاوي بحثاً ضافياً تحت عنوان (من غزل الفقهاء)، جَمَعَ فيه مِنْ عَذْبِ النسيبِ ومدايح الحنين، وصادقِ الصبابة ما ينبيءُ عن قلبٍ مشتعل، وكبد محترقة! أفيكونُ أعلام الفقهاء من شعراء الغزل، ولا يُنكرُ عليهم أحدٌ ما يقولون، ثم يكونُ ما تغزل به سيد قطب من شعر عاطفي عفيف عنواناً لمرحلة موصوفة، هي ما تُسمَّى بمرحلة الضياع! وقياساً على هذا المنطق يكونُ ابنُ الجوزي وابن القيم وابن حزم ضائعين، حين كتبوا المؤلفات الضافية الشافية عن الحبِّ والمحبين: لقد عَنَ لي أن أستشهد ببعض ما قال هؤلاء، ولكنني تذكرتُ أنني أكتبُ مقالاً، ولستُ أولِّفُ كتاباً، فإلى فضاءٍ فسيح، حيثُ يتسع المجال لما أريد.



سعيد النورسي منقذ الإسلام في تركيا الكمالية

- ١ -

من الناس مَنْ له إشعاعٌ خاص يجذب الملاء حوله، فما يتحدّث في موضوع، أو ينتهي إلى رأي، أو يأمر بمطلب حتى يجد الإذعان التامّ لرأيه من حواريّه، وكأنّ حديثه لديهم وحيّ منزل، نعرفُ من هؤلاء جمال الدين الأفغاني وحسن البنا وسعيد النورسي، وقد اختلف هؤلاء مكاناً وزماناً، ولكن اتجاههم الديني، وإخلاصهم الروحي، وغضبهم الثائر الناقم على الشذوذ والانحراف والإلحاد قد جمعهم في طريق واحد! وسعيدُ النورسي من هؤلاء الثلاثة، لم يأخذ حظّه لدى قراء العربية من الدراسة والتحليل، لأنّ مواقفه المجيدة لم تُترجمْ إلى لغة العرب على نحوِ كاشفٍ وهاجٍ، وما قرأناه في هذا النطاق نطفٌ من قطرات نرجو أن تتكاثر، حتى تكون مجرى مائياً عذب الورود.

لقد قام الأستاذ إحسان قاسم الصّالحي بجهدٍ مشكور في ترجمة بعض آثار المصلح الكبير، وفي كتابة ترجمة أمينة، على إيجازها تدل على الخطوط العامة في طريقه الإصلاحية، كما انتشرت مقالاتٌ سريعة في المجلّات العربية على مستوى العالم العربيّ في كل ربوعه، فلفتت الأنظار إلى عَظْمَةِ ما تمَّ على يد النورسي من بناء، ويطولُ البحث عن هذه المتفرّقات في أصقاعها المترامية، ولكنّ أوفاهَا مادةٌ وأغزرها فائدة ما كتبه الأستاذة مريم جميلة، وتزجّمهُ الأستاذ التيجاني زَعُودَة بمجلة «جوهر الإسلام التونسيّة» (العدد الثاني من عام ١٩٧٦) ومنذُ ظهر هذا البحث في حيّزه المتواضع، وأنا دائمُ الإلحاح على تتبّع كلّ ما يقال عن هذا المصلح الخطير، حتى اكتملَ لي ما يصلحُ أن أُقيم به حديثاً عنه، يتّسم بالإجمال تاركاً التفصيل لمن قرؤوا آثاره في لغتها التركية، فهم أصلُ منطقاً، وأوثقُ طريقاً!

ولا يُقدَّر جهدُ النورسي إلّا مَنْ يلتفتُ إلى الوسط الإعلامي الذي عاش فيه، ويرصدُ التيارَ المكتسحَ الغالبَ الذي شقَّ مجراهُ مصطفى كمال في تركيا بعد أن أسقطَ الخلافةَ، إذ جعلَ الحديثَ الطيّبَ عن الإسلام واللغة العربية والقرآنَ جزءاً فادحاً، ورَجَعَ بالتأخرَ الذي حاقَ بالبلاد إلى الإسلام نفسه، وجمَعَ حوله من الوُصوليين مَنْ ملأوا الصحف والإذاعات بالحرب الدامية على مَنْ وصمّوهم بالفساد والجناية والرشوة والانحلال! وعُقدت المحاكماتُ الظالمة لمن أَرَادَ أن يُحقِّقَ الحق ويبطلَ الباطلَ مستعيناً بأدلّته من الكتاب والسنة ووثائق التاريخ.

وإذا لم يستطع الكماليون مناقشة ما لديهم من الحُجَج الدامغة؛ فإنهم يتجاوزون الأدلةَ القرآنية والبراهينَ الإسلامية إلى الاتهام الشخصي، وتلفيق الوقائع الكاذبة ذات الشهود المأجورة، وكم زُجَّ في السجون من أبرياء راحوا ضحية الادعاء الآفك، بل كم أزهقت أرواحَ بريئة كلَّ سيئاتها أنها تعتصمُ بكتاب الله!! وإذا كانت مكانةُ سعيد النورسي في وطنه ممّا لا تخفى على أحد، وإذا كان إخلاصُه الوطني وقيئُهُ الإيمانِي، وطهارةُ كَفِّهِ، ونظافة سلوكه ممّا لا يرقى إليه الشك، فقد حاولَ أتاتورك أن يستميله بالمنصب اللامع، والجاه البراق، والذهب الوهاج، كما استمال ضعاف النفوس من مواطنيه حتّى أفقدهم عقولهم، فتنكروا لتاريخهم وتهكّموا بدينهم! حاولَ مصطفى كمال ذلك بنفسه تارة، وبأعوانه في الحُكم والتعليم ومجلس الأمة الكبير، فوجدَ الإباءَ الجادَ، والعنف الصارمَ، فلم يرَ أمامه منقذاً غير ظلمات السجون!

والطغاة في كل زمان ومكان يظنون السجون نهايةَ خاتمة، وما درّوا أن ظلمات المعتقلات ليلٌ يُفضي إلى فجرٍ وضيء! فمن ظلمات هذه السجون توهّجَ الغيظ حتّى أصبحَ ناراً تشتعل وتُضيء، تشتعلُ لتحرق هشيم الإفك والبغي، وتضيء لتفتح الطريق لصباح جديد، وقد مَسَّتِ البأساء والضراء ذوي الحق، وزلزلوا حتّى يقول الرسول والذين معه متى نصر الله؟ فيكون الرد الحاسم: ألا إن نصر الله قريب.

وسأتابع سيرةَ البطل الباسل في هذه السطور على ضوء ما سجّله الأستاذة مريم جميلة في مقالها الفريد أولاً، ثم ما تناثر في الصحف المختلفة من فقرات!.

من ميزة سعيد النورسي أنّه قرأ القرآن والحديث وتاريخ الإسلام قراءة الحاذق البصير من لدن يفاعته، فعرف الأصول الثابتة في التشريع، ونظر بعين الغضب إلى

ما جدّ من تأويلاتٍ وتخريجاتٍ أصابتِ التّراث الإسلامي بالعوَر، فهي ليستْ جزءاً منه، ولكنّها أداةٌ لسقامه، عَرَفَ ذلك كلّهُ، ثمّ درس رجالَ عصره من مُحترفي السياسة دراسةً واعيةً فعرف بُعْدَ الاتحاديّين وبعْدَهُم الكماليّون عن الإسلام، بل عرف غضبهم الحاقداً عليه، لأنّه في جوهره عدوّ الاستعباد والقهر، وهم في أنفسهم أصحابُ قهَرٍ، وإنّ تظاهروا بالإصلاح، وإذا كانوا ينسبون الاستبداد للخليفة لبعض أشياء حُسبت عليه، فإنّ ما قيلَ عنه في المنطق الصحيح ذرّةٌ من الذّرات إذا قيسَتْ بما يقترفون.

عَرَفَ النّورسي حقيقة الإصلاح إذ اتّجه الوجهة الإسلامية؛ كما عرف حقيقة دُعاة الإصلاح، حين تظاهروا بالعمل على المساواة والحرية والإخاء، وهم طُغاةٌ ينشدون السيطرة باسم الاستقلال، فلم يكنْ من السهلِ إذن أن يقبَلَ الانقياد لمُدّعي الاستقلال، وهم أنانيّون مُغرضون؛ كما لم يكنْ من السهلِ أن يرى في الإسلام مدّعاة تأخّر وانحدار، وقد دَرَسَهُ من ينابيعه الصافية، وعَرَفَ أن الشعوب التي انضوت تحت لوائه قد رَحِبَتْ به، لأنّها وجدتْ فيه الملاذ من الاستعباد، والملجأ من الاضطهاد.

وكثيرٌ من العلماء قد عرفُوا ما عَرَفَ سعيد، وأنكروا ما أنكرهُ، ولكنّهم خافوا على أنفسهم، فلجئُوا إلى المهادنة، ورأوا التّيار أقوى من أن يُعارض، كما أرهبتهم كلماتُ الرجعية والظلم والتأخّر، التي وُصِفَ بها كلّ من حاول أن يفتح العيون على الحقيقة، وهنا تَظْهَرُ قيمةُ النّورسيّ الذي تأبّى على الخضوع، ولم يعتزلْ كما اعتزل سواه، بل حمل سيفه ليجاهد في الحومة المشتعلة، وقد استطاع أن يجمّع حوله من استضاؤوا بنوره، فارتفع صوتُ الإيمان في صراخ الإلحاد، وواجه الخطر في أرهب ميادينه فما استكان.

وإذا كان كمال أتاتورك لم يستطع اغتياله، وقد رآهُ مصدرُ خطرٍ على اتجاّاهه، فلائِه رأى الاغتيال عاملاً يقظة، لأنّ الناس سيَسْأَلُونَ عَنْ جريمته، فيجدونها في أهون أمورها جريمة رأي، وفي التعبير الصحيح عنها: قضية دفاع عن المقدسات! وقد يندفعون إلى قراءة (رسائل النور) التي سارت مسير الشّمس بين أتباعه المخلصين، فيرون من الحقائق ما حاول الطّاغية أن يطمسه، وما أعدّ الكتائب من

ذوي الأقالام الوصلية إلى استئصاله! هكذا صَبَرَ الطاغيةُ على غيظ، وآثر ما دُونَ
القتل من النفي والسجن والاعتقال! .

وُلد سعيد النورسي ١٨٧٤م في إحدى القرى التابعة لمقاطعة (حيزان) منحدرًا
من أسرةٍ كريمة عريقة تعزّزَ بإسلامها كلَّ الاعتزاز، وما بلغَ التاسعة حتى تهيأَ لدراسة
اللغة العربية والشريعة الإسلامية، فاستوعبَ كتابَ الله حفظاً وتطّلعَ إلى كُتب
التفسير، يُطالعها في شغف، وكانَ يقرأ الجرائدَ فيعلمُ التقدّمَ الحضاري في أوروبا،
ويوازنُ بين هذا التقدّم وما عليه الأمر في بلاد الإسلام، فيعتصر قلبه الألم، وقد
أدركَ أن العلومَ الدينيةَ مع أهميّتها البالغة لا تُغني عن دراسة العلوم الطبيعية
والكيميائية والرياضية، لأنّها أساسُ التقدّم الحضاري، فجعلَ يُرسل الصحفَ داعياً
إلى دراسة هذه العلوم، وامتدَّ لَهُ صيْتُ بين زملائه، فاقننوا بفكرته .

ولم يملكه الغرور إذ وَجَدَ شخصه موضع التقدير، ولكّنه جعل نفسه صديقاً
حميماً لكلِّ زميلٍ، فكانَ واسعَ الصدر جدّاً في أحاديث السمر وميادين النقاش،
وكانَ لهذا الالتزام الخلقيّ الكريم أثره في انجذاب الزملاء إليه، كما كان شديد
التمسك بشعائر الدين، قويّ الإيمان بما في النصوص القرآنية من صدقٍ ويقين، فهو
كثيرُ الاستشهاد بها في كلِّ موقف، وقد جَهِدَ خصومه في أن يأخذوا عليه ما يدعوا
إلى النقد، فلم يجدوا غيرَ اهتمامه بإطعام (النمل) إذ كان يأخذُ الفُتاتَ من مائدته
ليُدفعَ به إلى جُحورها مستأنساً، وقد صَحِبَ بعض زملائه إلى قُرى النمل، ليشهدوا
مظاهر التعاون والاتحاد في سلوك هذه الجماعات، وليضربَ المثل بما شاهده قائلاً
إن الله حين ألهمه تتبّع حركات النمل وإطعامها بما يقدر عليه، ألهمه مثلاً للسلوك
الاجتماعي الدقيق. وكتبَ عن هذا الموضوع مقالاً أيّدهُ بالوقائع والتجارب .

وفي يومٍ من أيام صباه المتطلّع قرأ في بعض الجرائد التركية تصريحاً لرئيس
الوزراء الإنجليزي (غِلادستون) فَحَواه أن الإسلام لا يُمحى من النفوس إلا إذا مُحي
القرآن، وأنَّ على إنجلترا أن تملأ فراغَ المسلمين بكتبٍ جديدةٍ تجعلَ كتابَ الله
قليل الجدوى، وإلّا فالقرآن سَتَجَدُّ روح الإسلام ويُبعثُ من جديد، وقد يُسقط
دُول أوروبا، كما أسقط دولتي فارس والرومان عند ظهوره . . لم يكد الثورسي يقرأ
هذا الهجوم، وقد جَهَرَ به رئيسُ وزارةٍ في برلمانٍ كبير، يقوم على تنفيذ سياسة
الاستعمار في أكثر بلاد الإسلام، حتّى توجّه إلى (استامبول) عاصمة الخلافة،

وَنَادَى بِتَأْسِيسِ جَمَاعَةٍ لِحِمَايَةِ الْإِسْلَامِ سَمَّاها (الزُهراء) تَيْمَنًا (بِالْأَزْهَرِ الشَّرِيفِ بِمِصْرَ) لِتَكُونَ عَلَى غَرَارِهِ .

وَاتَّصَلَ نَبُوهُ بِالْخَلِيفَةِ، فَدَعَاهُ لِمُنَاقَشَةِ مَا يَقْصِدُهُ مِنْ تَأْسِيسِ الزُّهْرَاءِ، وَأَعْجَبَ بِمِبَادَتِهِ، وَقَدْ كَانَ الشَّيْخُ مُحَمَّدٌ بِخَيْتِ الْمَطْبِيعِيِّ مُفْتِي مِصْرَ يَزُورُ تَرْكِيا فِي هَذِهِ الْفَتْرَةِ، فَاقْتَرَحَ السُّلْطَانُ أَنْ يُنَاقَشَ الْمُفْتِي هَذَا الْفَتَى الْمُتَحَمِّسُ، وَأَنْ يَقُومَ بِمُنَازَظَتِهِ، وَقَدْ بَدَأَ الشَّيْخُ مُحَمَّدٌ بِخَيْتِ رَحِمَهُ اللَّهُ، فَسَأَلَ التُّورْسِيَّ: مَا رَأْيُكَ فِي الْحُرِّيَةِ الْمَوْجُودَةِ الْآنَ فِي الدَّوْلَةِ الْعُثْمَانِيَّةِ! وَمَاذَا تَقُولُ فِي مَدِينَةِ أَوْرُوبَا؟ فَقَالَ سَعِيدٌ دُونَ إِمْهَالٍ: إِنَّ الدَّوْلَةَ الْعُثْمَانِيَّةَ حُبْلَى حَالِيًّا بِجَنِينِ أَوْرُوبَا، وَسَتَلْدُ يَوْمًا، أَمَّا أَوْرُوبَا فَهِيَ أَيْضًا حُبْلَى بِجَنِينِ الْإِسْلَامِ، وَسَتَلْدُ يَوْمًا مَا. فَصَفَّقَ الشَّيْخُ مُعْجَبًا، وَقَالَ لِلْحَاضِرِينَ: أُوَافِقُ كُلَّ الْمَوَافِقَةِ عَلَى مَا يَقُولُ سَعِيدٌ، وَأَنَا أَحْمِلُ رَأْيَهُ، وَلَا يُمَكِّنُ مُنَازَظَتَهُ، لِأَنَّ الْمُنَازَظَةَ عِنْدَ الْاِخْتِلَافِ لَا عِنْدَ الْوُفَاقِ! .

وَمَا قَالَهُ التُّورْسِيُّ عَنْ تَرْكِيا الَّتِي تَحْمِلُ جَنِينَ أَوْرُوبَا هُوَ عَيْنُ الْوَاقِعِ، لِأَنَّ الْاِتِّحَادِيَّينَ حِينَئِذٍ قَدْ بَدَؤُوا يَنَاقِشُونَ كُلَّ اتِّجَاهٍ إِسْلَامِيٍّ، وَيَجْعَلُونَ أَوْرُوبَا النَّمْطَ الْمُحْتَذَى، لِذَلِكَ سَارَعَ النُّورْسِيُّ بِتَأْلِيفِ اِتِّحَادٍ مُعَارِضٍ سَمَاهُ (الْاِتِّحَادُ الْمُحَمَّدِيُّ) لِيَقِفَ أَمَامَ آرَاءِ جَمَاعَةِ الْاِتِّحَادِ وَالتَّرْقِيَّ مَوْقِفَ النَّقِيضِ مِنَ النَّقِيضِ، وَقَدْ أَعْلَنَ تَأْلِيفَ الْاِتِّحَادِ الْمُحَمَّدِيِّ فِي جَامِعِ (أَيَاصُوفِيَا) وَأَلْقَى خُطْبَةً ضَافِيَةً تُوضِّحُ أَغْرَاضَهُ، وَقَدْ احْتِطَا فَلَمْ يَذْكُرْ اسْمَهُ بَيْنَ مُؤَسَّسِي الْاِتِّحَادِ، لِأَنَّهُ يَعْلَمُ أَنَّ هَؤُلَاءِ مُعَرَّضُونَ لِلْاِعْتِقَالِ أَوْ مَا فَوْقَهُ، وَوُجُودُهُ خَارِجَ النِّطَاقِ الرَّسْمِيِّ يُنَبِّئُ لَهُ أَنَّ يُوَاصِلَ الْعَمَلَ فِي حِذْرٍ، وَهَذَا مَا كَانَ! .

ظَهَرَتْ نِيَّاتُ زُعَمَاءِ الْاِتِّحَادِ وَالتَّرْقِيَّ سَافِرَةً دُونَ غُطَاءٍ، لِأَنَّ ارْتِبَاطَهُمْ بِالْمَاسُونِيِّينَ وَالْيَهُودِ قَدْ أَفْهَمَ الشَّعْبَ الْمُسْلِمَ سُوءَ مَا يَضْمُرُونَ لِلْإِسْلَامِ، وَقَدْ دَبَّرَ الْاِتِّحَادِيُّونَ مَقْتَلَ مُنَاوِئِهِمْ مِنْ أَنْصَارِ الْوَحْدَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ؛ مِثْلَ حَسَنِ فَهْمِي بَكْ، وَإِسْمَاعِيلِ مَاهِرِ بَاشَا، ثُمَّ نَشَبَ عَصِيانٌ عَسْكَرِيٌّ دَامَ أَحَدُ عَشَرَ يَوْمًا، وَهَتَفَ الْجُنُودُ هَتَافَهُمُ الرِّنَانِ «نَرِيدُ عَوْدَةَ الشَّرِيعَةِ! نَرِيدُ عَوْدَةَ الشَّرِيعَةِ!» وَلَكِنَّ قُوَّاتَ الْجَيْشِ التَّرْكِيِّ قَدْ تَدَاعَتْ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ لِمُهَاجِمَةِ الثَّائِرِينَ فَسَيَّطَرَتْ عَلَى الْوَضْعِ، وَشَكَّلَتْ مُحْكَمَةً عَسْكَرِيَّةً لِمُحَاكَمَةِ الثَّائِرِينَ! وَقَدْ كَانَ دَوْرُ النُّورْسِيِّ فِي هَذِهِ الْحَرَكَةِ الْعَسْكَرِيَّةِ دَوْرَ الْمَهْدِيِّ الْمَلَطَّفِ، الَّذِي يَدْعُو إِلَى رَأْبِ الصَّدْعِ دُونَ إِرَاقَةِ دِمَاءٍ، وَلَكِنَّ النِّيَّةَ كَانَتْ مَبِيتَةً لِاِغْتِيَالِهِ، إِذْ هُوَ - وَإِنْ لَمْ يَكُنْ عَسْكَرِيًّا مُنَاوِئًا - بَاعَثُ الشَّرَارَ، وَمَلْهَبُ الصَّدُورِ غَيْرَةً

على إقامة القانون السماوي العادل، ولا يعدم خُصُومه التقاط كلماتٍ من مقالاته الذائعة في صحيفة (البركان) تُبرّر هذه المحاكمة، إذ أنّ مضمون مقالاته يتفق تماماً مع ما أعلنه الثائرون! وكانت المحاكمة علنيةً بل كانت محاكمةً إرهابيةً، لأنّ المحكمة قبل أن تُقدّم النورسي للاتهام العلني قضت بإعدام خمسة عشر من كبار الضباط، ووضعت الجُثث المشنوقة في الطريق العام لثُرهَب من تدفعه نفسه إلى الاعتراض، وجاء دور النورسي لسمع الحاكم العسكري «خورشيد باشا» يواجهه بقوله مستخفاً مستهزئاً^(١):

وأنت أيضاً تدعو إلى تطبيق الشريعة! أما رأيت جُثث هؤلاء! وأشار بيده إلى السّاحة التي تضمّ جُثث الشهداء من المشنوقين! وتوقع خورشيد أن يرى مظاهر الاستكانة، في هذا الأفق الرّهيب، ولكن سعيد النورسي قام خطيباً يدافع عن نفسه في جراءة أخذت بعقول المشاهدين، وألقى خطاباً رناناً جاء فيه:

«لو أنّ لي ألفَ رُوح لما تردّدت في أن أجعلها فداءً لحقيقة واحدة من حقائق الإسلام، لقد تعلّمون أنني طالب علم، فأنا أزنُ كلّ شيء بميزان الشريعة، ولا أعتزُّ إلاّ بملّة الإسلام، أقولُ لكم، وأنا واقفٌ أمام البرزخ في انتظار القطار الذي يمضي بي إلى الآخرة، لا تسمعوا أنتم وحُكمكم، بل ليتناقل العالم ما أقول، لقد حان للسّراء أن تنكشف، وتبدو من أعماق القلب! إنني مُتهَمٌّ بشوقٍ لِقُدومي للآخرة، وأنا مستعدٌّ للذهاب مع هؤلاء الذين علّقوا في المشانق، تصوّروا ذلك البدوي الذي سمع من غرائب استامبول ومحاسنها فاشتاق إليها، إنني مثله تماماً في شوقي إلى الآخرة والقدوم إليها، إن ذهابي إليها لا يُعتبر عقوبةً، إن هذه الحكومة تعادي العقل والحياة، وإذن فليعيش الجنون والموت، وللظالمين فلتعش جهنم».

وقد حكمت المحكمة بإعدام المجاهد، ثم اضطرت لإخلاء سبيله بعد مظاهرات عاصفة قام بها الشعب التركي؛ ورأى سعيد النورسي أنّ الرحلة إلى الخارج تضمن استمرار كفاحه، حذراً أن يغتاله مأجورٌ في حندس الليل، ثم يقيد الحادث ضد مجهول، فرحل إلى دمشق، وقد طار صيته هناك، فاجتمع بكبار العلماء، وألقى في المسجد الأموي خطباً ثائرة تناقلتها الصحف، وأعلن أنّ داء العالم الإسلامي في كل أقطاره يرجع إلى التزعة التشاؤمية التي تفرض العجز التام

(١) بديع الزمان النورسي: ترجمة (إحسان قاسم الصالحي ص ٣٤).

أمام سيطرة الغرب، وإلى فقد النزاهة لدى المشتغلين بالعمل السياسي، حيثُ تسود
الأنانية، ولا يفكر كل سياسي إلا في ذاته وذويه، أما هيمنة الحكم الدكتاتوري فأمّ
المصائب جميعها، ولا خلاصَ من هذه العلل إلا بقانون السماء! كما وإلى صيحاته
في وجوب تدريس العلوم المعاصرة؛ من رياضية وطبيعية وكيمائية، لأنّ المسلمين
قد انصرفوا عن التعقّي في أصولها، وما تقومُ به المدارس العالية في هذا النطاق
لا يزيدُ عن ملخصات تُعطى للمدارس الثانوية في الغرب، وليتها تُدرس على وجهها
الصحيح!.

ثم جاءت الحرب العالمية الأولى، ونظرَ التّورسي فإذا إخوانه الأبطال يخوضون
المعارك، وقد فُكّر في تهوّر الاتحاديين حين انضمّوا إلى ألمانيا، ولم يقفوا على
الحياد! ولكّنه ترك الحساب إلى موعده، وسارع إلى الالتحاق بالجيش العثماني
ومعَ بُعده التربويّ عن التدريب العسكري في كلياته الحربية فقد أظهر من البسالة
والحميّة ما دفع رؤساءه لترقيته إلى مصافّ الضباط، وفي ثكناتِ الجيش وساحات
الكر والفِرّ كانَ المجال أمامه فسيحاً للتذكير بمواقف الأبطال من قادة الإسلام، منذ
عُهود عليّ وخالد وأبي عبيدة وسعد وعمرو، وعتيبة بن مسلم ومحمد بن القاسم
وعقبة بن نافع، ممّن فتحوا البلاد، ودكّوا العروش لترتفع راية الإسلام، وقد كان
يقابلُ الجموع الروسية بعدد محدود من رجال فرقة حتى تمكّن من اختراق ثلاثة
خُطوطٍ من خطوط العدو، ودارت معركةٌ رهيبة استمرت ثلاثاً وثلاثين ساعة حتى
نفدت ذخيرَةُ الأبطال، وتمكّن الروس من اعتقال التورسي ومَنْ بقي معه في
المعمعة، وهُم أربعةُ جنود! وقد كُسرت رجله برصاصةٍ صائبة، وتمكّن الروس من
الاستعلاء على الخندق وأسرَ المقاتلين.

وقد يكونُ من الرائع أن ننقلَ هذا الموقفَ البطولي لأسير معتقل يواجه القائد
العام للجيش الروسي، وهو خالُ القيصر الأعلى وصاحبُ الأمر النافذ في الجيش
الروسي جميعه! فقد جَعَلَ القائد المتكبرَ يمرّ بالأسرى متشامخاً، فينهضون له
رافعين أيديهم بالتحية العسكرية، سوى أسير واحد لم يُعزه اهتماماً! وقد كُبر على
القائد أن يجلس أسيرٌ دون أن ينهض لأداء التحية في خُشوع، فاتّجه إليه ليقول في
تعازم: أَظنّك لا تعرفني. فبرّد سعيد: لقد عرفتكُ أنتَ نيكولا خال القيصر والقائد
العام! فاحمرّ وجه نيكولا وصاح: وإذن فلماذا تستهين بمقدمي؟ فقال التورسي: لم

أستهنُّ بأحد، إنما فعلتُ ما تأمُرني به عقيدتي! فسكت القائد قليلاً ثم قال: وبماذا تأمرُك عقيدتك؟ فقال النورسي: أنا مسلم أحمل الإيمان في قلبي، فأنا أفضل ممَّن يفقد الإيمان! (١).

صاح القائد: هذه إهانةٌ أخرى، إلى المحكمة العسكرية!! ويكفهُرُ الموقف، ويأتي الأسرى من الأتراك يرجون النورسي أن يعتذرَ ويُذعن؟ فيقول لماذا؟ أنا شديدُ الرغبة في الذهاب إلى الآخرة، والمثول بين يدي رسول الله ﷺ، فلماذا تحرمونني من الشهادة! وتصدر المحكمة أمرها بإعدام البطل، وتأتي ساعةُ التنفيذ، فيطلب النورسي إمهاله حتى يُصَلِّي ركعتين، ليستقبل حياة الخلود! ويسألُ القائد الروسي -وكان حاضراً يلهو- عن معنى حياة الخلود، فيدركُ أن البطل لم يقصدُ إهانته، وإنما كان مُخلصاً في اتباع دينه، حين تخلف عن الوقوف لتحيتته، فتدركهُ شفقة لم يعهدها، ويتجه إليه قائلاً: عفوتُ عنك! لقد تأثرتُ بصلاتك!.

هذه حقيقةٌ لا خيال، وهي بسموقها الشامخ تجلُّ عن التعقيب.

-٢-

بقي النورسي في الأسر الروسي سنتين وأربعة أشهر، كانت بمثابة تفكيرٍ متصل في نفسه وفي العالم الإسلامي، فقد اختارَ مسجداً صغيراً لبعض التتاريق على حافة نهر الفولجا ليكون ملجأً أميناً له، لأنَّ زملاءه المأسورين من التُّرك لم يكونوا يحملون همومه النفسية العارمة فكان بينهم غريباً غريباً، وشعَّ المسجد التتاري في عينه كما تشعَّ المنارة للساري في الظلام، فاتخذهُ مدرسةً هامةً يدرِّس فيها نفسه بعيداً عن الناس، إذ يتساءلُ مَنْ أنا؟ وما عساي أقدمُ لنفسي كي أصِلَ بها إلى ما تُريد من نصرة المسلمين، ورأب الصدع المتزايد بينهم.

وهكذا كانت همومه الإنسانية هموم زعيمٍ يشعرُ بالخطر المُحدق على جماعته، فيأخذُ في أسباب النجاة، وقد جعل كتابَ الله حصنه الواقي فعكف على استجلاء معانيه، وتكشفتَ له معاني لم تكن لتفد على خاطره في عالم الضجيج والازدحام، فأخذَ يضمُّها ويدوِّن بوارقها اللامعة لتكونَ مادةً لرسائل منقذة سمّاها فيما بعد (رسائل النور).

(١) المرجع السابق ص ٤٢.

وهكذا تكونُ العُزلة المفكّرة اجتماعاً حافلاً بفيض من المشاعر الداخلية المؤمنة، واستماعاً إلى هواتف الحق يتجلّى في آية قرآنية أو حديث نبويّ، وكم من الناس من يعتزلون في كهوف الجبال وأغوار الصحراء، ولكنهم يكتفون بالبُعد النازح دون تفكير متوهّج يفتح منافذ الضياء، فتكونُ العزلة حينئذ صمّاء بكماء، ولأمر ما كان أنبياء الله يجنحون إلى العُزلة حين يتهيّؤون إلى رسالة السماء .

وقد استطاع المعتزل المفكّر أن ينجو من الأسر، وأن تحمله قدماه ماشياً على الأرض حتّى يصل إلى موطنه، ليجد اسمه على كلّ لسان، وليختار عضواً في دار الحكمة الإسلامية ليحتل مكانه العلمي بين شيخ الإسلام مصطفى صبري، وشاعر الإسلام محمد عاكف، ومفسّر القرآن حمدي الماللي وغيرهم من صفوة المُجاهدين، وكلّهم خيارٌ من خيار، ولكن اجتماعات دار الحكمة لم تُسفر عن شيء عمليّ، فأثر النورسي الانسحاب، ليتمكّن من تدوين خواطره التي بذرها في معتقله!

ثم جاء الاحتلال الإنجليزي لمدينة استانبول في مارس ١٩٢٠ فأخرجَه من هذه العزلة، ليكون فدايياً مجاهداً يُناوئ الاحتلال، ويرأس حركة المقاومة في الأناضول، وحين تحقّق النصر، عَرَف له مصطفى كمال جهاده، وحضر ليقابل الزعيم، فسأه أن يجد الاستخفاف بشعائر الدين، فأصدّر بياناً حاراً يدعو إلى العمل بالتشريع الإسلامي، ويحث الأتراك على التدين الحقيقي، وفوجيء أتانورك بمن يخالف اتجاّاه، فدعاه ليقول له غاضباً: إنك قد جئت لتبعث الفرقة حين تتحدّث عن الإسلام والصلاة، ولا بدّ أن تظّل بعيداً عن العاصمة بالولايات الشرقية، ورأى الشرّ في عين الزعيم المتحمّس، فأثر السفر ليدوّن رسائله العلمية، فتكون أبلغ ردّ على التيار الإلحادي السفيه، وقد أدرك أن الغازي (كما كانوا يصفونه) قد عبأ الأقاليم لنُصرة اتجاّاه، وأنّه يملك ما لا يملك من النفوذ القاهر الباطن، فطوى نفسه على مرارة أليمة .

ثم علّم بقيام ثورة حسين باشا الكردي ضدّ أتانورك، فخاف عليه من العاقبة، وصارحه أنّه يضحي بصفوة المسلمين حيث لا نفع، والناس غير التّاس، ودُنيا اليوم غير دنيا الأمس! وقد تحقّق ما ارتآه النورسي حيث سُحقت المقاومة، وتعرض زعمائها للإعدام! وفكّر النورسي، في المأساة متحسّراً، وأخذ يُوازن بين عمل وعمل، فرأى أنّ الأصوب هو تدوين التفسير في رسائل سماها (رسائل النور)

لتكون الحقائق القرآنية كافيةً للرد على الأباطيل الجمهورية، دون أن يُثير ضجيجاً يقضي على أتباعه وتلاميذه، وهم عُدّة الغد، وأملُ المستقبل، دون سواهم من المخدوعين.

تقول الأستاذة مريم جميلة^(١)، متحدثّة عن هذه الفترة العصبية :

«ولكنّ الفئة الحاكمة ساءها هذا النشاط الإسلامي الهادف، فسُرعان ما التفتت إلى الرسائل المنتشرة بين أيدي الشبيبة المؤمنة، وكلّها دعوة إلى التمسك بمبادئ الإسلام، فهجمت على مقرّ اجتماعاته، وقذفت بتلاميذه إلى غياهب السجن، وأمرت بإبعاد التورسي ثمانية أعوام إلى إقليم ناء في (بارلا) ليُحرّم من الاتّصال بمن ربّاهم على النضال، وليظلّ وحيداً مُكرهاً على أن يطهو طعامه بيده، وأن يُخيط ثيابه دون معاونّة من حائك؛ ولكنّ رُوحانيّته العالية كانت فوق النفي والاعتقال، فجعل يُنشئ (رسائل النور) وجعل المخلصون الجُدد من إقليم (بارلا) يَجتمعون حوله، ليحملوا الرسائل إلى الناس مخطوطةً غير مطبوعة، حيثُ يقوم كلّ قارئ بنسخ صورةٍ يقدّمها لغيره، وعليه أن يُكرّر عمليّة النسخ، وبذلك أصبحت الرسائل المخطوطة تُنافس المطبوعات في سيّورتها!.

ودُعرت السّلطة الحاكمة في أنقرة حين علمت سيرورة هذه الرسائل المخطوطة وانتشارها على نحوٍ مدهش، فعمدت إلى تليفق تُهمةٍ سياسية ضدّ التورسيّ ومئةٍ وعشرين من أتباعه، وقدمته للمحاكمة بمدينة (إسكي شهر) وكانت تُهمته هي التحريض ضدّ النظام القائم والسلطة الحاكمة، ووقف المتهم الجريء ليقول في جهازة عالية: «إنّ قيام حركةٍ عن طريق الكتابة والتأليف لا يُسمّى عِصياناً يؤدّي إلى إسقاط الحكومة، وإذا كانَ عودُ الثّقاب لا يحرقُ دون أن يُحكّ فليس من المعقول أن يُعتبر مجرماً من يحمل ذلك العود، وهو لم يحرق العمار، وأنا لا أنوي الاستيلاء على الحكم، وكلّ ما أسعى إليه أن أهدي قومي إلى صراط الحق القويم، لست أنتمي إلى أيّ نحلة، أو أدعو إلى أيّ عصبيّة، ولكنّي أتحمّس لكتاب الله، وشرعية الإسلام، و(رسائل النور) مدرسةٌ دون مكان أو منهج أو مالٍ أو مُدير، هي مدرسةٌ روحيةٌ كتابها القرآن! فما ذنبٌ من يقرأ القرآن وتفسيره، وهو عضوٌ في مدرسة لا تعرف حُدود الزّمان ولا حيّز المكان، إنّ قرار الاتهام ينصّ على أن رسائل النور

(١) مجلة جوهر الإسلام التونسية، عدد (٢) سنة ١٩٧٦م.

قد قرأها ستمئة ألف شخص في إقليم الأناضول، وماذا في ذلك؟ هل أدت قراءة الرسائل إلى الإخلال بالواجب أو تهديد الأمن العام، أو خرق دستور البلاد! لقد وَقَفْتُ أمامَ عدّة محاكم، ولم تتوفر الأدلة على إدانتني، فاتركوني إذن وشأني لستُ محارباً، ولكّتي مسالم».

وقد يكون من المناسب أن نعرف قليلاً عن (رسائل النور) فننصّ على أنّها مع بُعدها الظاهر عن السياسة صارت جذوةً ملتهبة تحرق صدور المردة، وتزيدُ المؤمنين إيماناً، لأنّ حقائق الإسلام في سُفورها الصريح تدفعُ الطغيانَ وتدفعُ البغي، فمثلاً كلمة (لا إله إلا الله) حين يتعرّض لها التورسي في تفسير قول الله عز وجل ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَاكُمْ﴾ [محمد: ١٩] هذه الكلمة الجبّارة، تعني أنّ الله وحده مالكُ الكون، وأنّه لا طاعةَ لأحدٍ يُخالف ما أنزل، وأنّ العزة كلّ العزة لمن اعتقد أن الله وحده هو الحاكم، وأنّ ما حَكَمَ به هو ما جاء في كتابه الخالد، وأنّ ولي الأمر مهما كان؛ رئيس دولة أو قائد جيش مسلّح، لا سلطان له في الأمر والنهي إذا ابتعدَ عمّا أمر الله!! لا إله إلا الله مَصْدَرُ عِزِّ للمسلم، لأنّه بإيمانه الحازم بحقيقتها يعتقد أنّه متساوٍ مع أكبر الناس، فالكلُّ سواءٌ أمام الحاكم الأوحد، هذه العِزّة تخلعُ عن مُعتقديها مظاهر الضعف والخنوع، وتدفعه إلى الجهر بالحق، ومُناوأة الباطل دون خوف، حيث لا إله إلا الله، أما مَنْ دُونه من أدياء السلطة فهباء هباء!.

وقد ارتفع صوت النورسي بنقدِ علم الكلام في وصفه الاستدلاليّ المتحجّر، لأنّه بتأثير الثقافات الوافدة قد انقلبَ إلى قضايا عقلية ذاتِ مقدّمات ونتائج، وأصبحَ مجالاً لصِيال العقول وحدها، لا لاطمئنان القلوب، كما أنّه ينتهي في بعض قضاياها المهمة إلى ما يُعرف بتكافؤ الأدلّة! ومَعْنَى ذلك أنّك لا تملكُ ترجيحَ رأي على رأي لأنّ الموازين مُتساوية، بلّ معناه أنّ لا فائدةً في صِيال العقول وترتيب المقدمات واستخلاص النتائج، وهذا بعضُ ما عناءُ التورسي حين قال في كتابه (حقيقة التوحيد)^(١):

«إنّ معرفة الله المُستنبَطة بدلائل علم الكلام ليست هي المعرفة الكاملة،

(١) حقيقة التوحيد، بقلم سعيد النورسي، ترجمة الأستاذ إحسان الصالح، ص ١٢ (مقدمة الكتاب).

ولا تُورثُ الاطمئنان القلبي، في حين أنّ تلك المعرفة إذا جاءت على نهج القرآن المعجز، فإنها تُصبح معرفة تامة، وتَسْكُبُ الاطمئنان الكامل في القلب... وكما أنّ معرفة الله الناشئة من علم الكلام تبدو ناقصة وقاصرة، فإن المعرفة عن طريق التصوّف ناقصة ومبتورة بالنسبة نفسها؛ أمام المعرفة المستقاة من القرآن الكريم مباشرة من قبل ورثة الأنبياء.

إنّه لأجل الحصول على الماء، هناك من يأتي به من مكان بعيد، يحفر في أسفل الجبل، وآخرون يجدون الماء أينما حفروا، ويفجّرونه حيثما كانوا، فالأول سيّرٌ طويل في طريق وَغْرٍ، والماء معرّض فيه للانقطاع والشحّة، وهذا هو مسلكُ علماء الكلام، إذ يُبتَوْنَ واجب الوجود باستحالة الدور والتسلسل غير المتناهي للأسباب، أما منهجُ القرآن الكريم، فهو يجد الماء ويفجّره في كل مكان يَسُرُّ كامل، فكلّ آية من آياته الجليّة تُفجّر الماء كعصا موسى أينما ضربت:

وفي كل شيء له آية تدل على أنّه الواحد

ثم إن الإيمان لا يحصل بالعلم فحسب، إذ أنّ هناك لطائف كثيرة للإنسان لها حظُّها من الإيمان، فكما أنّ الأكل إذا ما دخل المعدة ينقسم، ويتوزّع إلى مختلف العروق حسب كل عضو من الأعضاء، فكذلك المسائل الإيمانية الآتية من طريق العلم إذا ما دخلت معدة العقل والفهم، فإنّ كل لطيفة من لطائف الجسم - كالروح والقلب والسرّ والنفس - تأخذ حصّتها منها وتمصّها حسب درجتها، فإن كانت فاقدة لبعض الأغذية، فالمعرفة ناقصة مبتورة، وتظلّ اللطائف المشار إليها محرومة منها».

أطلت النّقلُ ببعض التصوّف في نقد النورسي لعلم الكلام النظري، لأنّه أضاف الجديد في هذا المجال، ونحن نعرف من أفاضل المعاصرين من شاركة هذه النظرة إلى علم الكلام القاعدي، وفي طليعتهم الشيخ الجليل الأستاذ حسين والي، إذ كان أجهر من نقد كتب العقائد المدوّنة في حواشي المتأخرين، كما نعرف أنّ بعض الأفاضل بدؤوا يضيفون الجديد في كتب التوحيد، لتساير التطلع الفكري المعاصر، وقد أبدع النورسي حين أشار إلى ما تتطلبه الروح والقلب من أدلة وجدانية لا تكفي معها البراهين المنطقية للإقناع، وقد جعل حرمان الروح والقلب من هذه الأدلة بمثابة حرمان بعض الأعضاء الجسميّة مما يقوِّها من موادّ الغذاء الطبيعي..

والنورسي لم يَعدْ نفسَه أديباً بيانياً رائعَ التصوير، جيّدَ التعبير وثّابَ الخيال، ولكنَّ إحساسَه التامَّ بالوجود وما فيه ومن فيه، ومحاولة البرهنة على إيجاد خالقٍ مبدعٍ له، ممّا أوحى له أن يُبدع من وسائل الحوار، وأفانين النقاش، ودافع الحُجج ما رفعه إلى مُستوى الأديب المبدع، فحين حاول أن يُبرهن على وجود الصانع بأدلة لا تقبل الدّحض، ساقَ هذه البراهين في نسقٍ تمثيليٍّ رائع، إذ تصوّر نفسه مع إنسانٍ عاقلٍ يَرحلُ معه إلى مملكة زاهية ذاتِ قصور وبساتين ورياض، ويدور نقاش حول المبدع العظيم الذي أنشأها، ويحاولُ محاوره أن يُنكر المُنشئ، ويَعدّ المملكة ناتجةً عن مصادفة طارئة، فما يزالُ صاحبه يُريه الدليل بعد الدليل على استحالة أن ينشأ شيءٌ من عدم، دون أن يُحدثه مدبّر عاقل، وقد تعدّدت براهينه الاثنا عشر لتثبت وجود المُبدع العظيم، فإذا لجأ صاحبه إلى احتمال أن يكونَ هناك مبدعون، لا مبدعٌ واحد، قال النورسي عليك أن تقبل ملايين الملايين من المُبدعين الصّانعين، على أن يكون كلُّّ منهم ندّاً للآخر ومعارضاً له، ومحاولاً أن يسيطر عليه، وهنا سيتمخّض النقاشُ عن حرب ضروس لا تُبقي ولا تذر، ولن تُصبح المملكةُ مملكةً رائعة المنظر، بديعة النظام، أسرة الجمال بعد هذه الحرب الضروس، تلك التي لا تدع شيئاً أنت عليه إلّا جعلته كالرميم، وقد يكونُ هذا المنطق معروفاً مشتهراً، وليس للنورسي إلا صوغه في قالبٍ حواريّ، ولكن غير المعروف أن يتحدّث النورسي عن الموت والحياة، ليثبت أن الموت برهانٌ آخر على التوحيد الإلهي، كما أن الحياة برهانٌ مُشاهد لا سبيلَ إلى إنكاره؛ يقول النورسي^(١):

«إن الفقاعات والزبد والحباب تُقابل الشمس، وتَنساب متألّقة على سطح نهرٍ عظيم، والموادّ الشفّافة المتلمّعة على سطح الأرض شواهدٌ على وجود الشمس، التي تتألّق على صفحة الوجود، وهذه الموادّ الشفّافة تغرب وتزول، ولكن الشمس لا تغيب، مع توالي النقص في هذه الموادّ الشفّافة، وتلك شهادة قاطعة على أن تلك الشمسيات المثالية، وهذه الأضواء المنعكسة التي تنطفئ ثم تُضيء، وتتغيّر وتبذل؛ إنما هي تجلّياتُ شمسٍ باقية دائمة عالية لا زوال لها، فتلك القطرات اللّماعة بظهورها وبمجئها تدلّ على وجود الشمس ودوامها ووحدةها، وهذه

(١) حقيقة التوحيد: ص ٨٦ (بتصرف يسير).

الموجودات السيّالة إذ تشهد بوجودها وحياتها على وجود الخالق سبحانه وتعالى، وعلى أحديّته، فإنها تشهد بزوالها وموتها هي أيضاً على وجود الخالق سبحانه، وعلى أزليّته وسرمدية وأحديّته، كما أنها تشهد بوجود ذي جمال سرمدٍ رفيع الدرجات دائم التجلّي، وعلى بقائه، إنّ موت تلك المصنوعات وزوالها ثم تجدد مثيلاتها لدليل على بقاء الخالق وتديره المحكم للكون العظيم».

ومع هذا التوفيق الباهر في إحكام الأدلة الساطعة يخشى النورسي ألا يصل حديثه للأفهام واضحاً كوضوحه في ذهنه، فيقول في تواضع^(١):

«إذا دخلتُ بستاناً، فلا أجنّي منه غير الأجود من الثمرات، فإذا تعبْتُ في قطفها وجدتُ كثيراً من المتعة واللذة، وحين يقع نظري على الفاسدة منها أصرفه عنها، أخذاً بالقاعدة التي تقول: خذ ما صفا ودع ما كدر، هكذا أرجو قرائي أن يفعلوا مثلي، قد يقال: إن كلامك لا يفهم بوضوح. فأقول: ما حيلتي! هكذا تردّ السوانح إلى القلب مختلفة، فبينما أتحدث وكأنّي أتكلّم من فوق منارة عالية، أجدني في أحيانٍ أخرى كأنّي أنادي من قعر بئر عميقة!!».

وقد أخذت رسائل النور في الانتشار، فألّفت في كلّ بلدة جماعة تدين بمبادئها، وتنادي جبهة بعودة التشريع الإسلامي لحكم البلاد، وقد طبع تلاميذ النورسي رسالة (مرشد الشباب) في مطبعة كبيرة، نشرت منها آلاف النسخ، بعد أن كانت الرسائل تُفرّق مخطوطة باليد، وكلّ من يقرأ نسخة يكتب مثلها، ويعطيها لمن يقرأ ثم يكتب! وكان طبع الرسالة سبباً في اتهام النورسي من جديد، فقدم إلى المحاكمة بتهمة مخالفته للمادة (١٦٣) من الدستور، وهي تحظر كلّ نشاط يستهدف إقامة الدولة على أسس دينية؛ وجيء بالمتهم البريء، ليستمع قول ممثل الاتهام: «إن المؤلف يُحاول في رسالته نشر الفكرة الدينية، ويرسم طريقاً للشباب يُفضي إلى اعتناق مبادئ الإسلام، ويدعو النساء إلى الاحتشام وعدم التبرج وستر ما يُوحى بالفئة تبعاً لمنطق القرآن! ثم يدعو إلى تدريس الدين بالمدارس!! وكان الظنّ به أن ينكر إشرافه على طبع الرسالة، لأنّه لم يشرف فعلاً، بل قام بذلك تلاميذه، ولكّنه قال: «إن طبع الرسالة كان مصدر ارتياح لنفسه، لأنّه بها ينقذ آلاف الشباب والشابات من التيارات الهادمة للمجتمع التركي».

(١) حقيقة التوحيد: ص ١٠٦ (بتصرف يسير).

وقد حانَ ميعادُ صلاةِ العصر، فطلب الأستاذ أن يسمح له بأداء الصلاة، وقام الدفاع القويّ بواجبه القانوني في ردّ الاتهام، فبرّئت ساحة النورسي وسط هتاف الآلاف! وتكرّر الاتهام مرة أخرى بسبب نشر مقال توجيهيّ في جريدة الجهاد الأكبر، اعتبره الحاكم مصدرَ بلبلة، وكان الرجل مريضاً قد ناهز الثمانين، وقَدَّمَ طبيبه تقريراً طبياً يشرح حالته التي لا تسمح باستجوابه، ولكن المحكمة أصرت! وتدافع المحامون إلى نُصرة الرجل دُونَ أن يختار أحداً، وانتهى الحكم بالبراءة. ثم شكلت محكمة (آفيون) لجنةً للنظر في رسائل النور، حتى لا تتكرّر دعاوي الاتهام بسببها، وعلى مدى سنوات تصرّمت في الأخذ والرد انتهت المحكمة إلى جواز طبع الرسائل، فحقّ لها أن ترى النور دون اعتراض، وقد كانَ هذا الحكم أسعداً ما بُشّر به المجاهد الكبير في أيامه الأخيرة. . ثم رأت المحكمة أن يُيأرح العاصمة إلى مدينة نائية، فاستجاب.

وفي يوم ٢٣/٣/١٩٦٠ الموافق ٢٥ من رمضان سنة ١٣٧٩هـ، انتظر تلاميذه أن يؤمّمهم لصلاة الفجر، فلم يأت، فتوقّعوا مرضاً عاقه، ولكنّه كان اليقين الصادق الذي إذا حان موعده فلن يُؤخّر، وانتشر الخبر كالريح العاصف، فتدافع الجمهور إلى وداعه، ودُفن في احتفال مهيب، وأخذت وفود الزائرين يتقاطرون على المثوى كلّ يوم دون انقطاع، فرأت الدولة أن تنقل الرّفات إلى مكانٍ لا يُعلم، وحُفر القبر لتحمل الطائرة التّابوت إلى مكانٍ بمقاطعة أسبرطة، ولكنّ الذين أخفّوا ضريحه لم يقدروا على إخفاء تاريخه، فاندفع الخطباء يؤبّنون، وظهرت بعض الكتب خاصّةً بحياته، وتألّفت جمعيات تنتسب إلى اسمه وهذا كلّ ضئيلٍ جوار ما سيجدُ من مثوبةٍ رحيمة عند من لا يضيع أجر العاملين.

لقد حاولتُ أن أوجز الحديث - قدر الطاقة - لأنّ مثل النورسي يحتاج إلى مؤلّف كبير، لا إلى بحثٍ مقتضب، وكتبه الآن أخذتُ تُترجم إلى العربية والأردية والفارسيّة لتشرق بالنور، كما أشرقت رسائله في حياته بساطع من الضوء المبين.



العلامة طاهر الجزائري (شيخ العلماء في ديار الشام)

- ١ -

رُزق الخطوة في تلاميذه، ولم يُرزقها في مؤلفاته، لأن تلاميذه من أعلام النهضة المعاصرة قد أكثروا الإشادة به، وذكرُوا كثيراً من فضائله ومزاياه، وضربوا الأمثلة الشاهدة على صدق ما يقولون، فهم من هذه الجهة قد أدّوا واجب التاريخ، وواجب التلمذة، أما مؤلفاته فأكثرها مدرسيّة كتبت للطلاب، وهي لا تُنبئ إلا على خبرته التربويّة في تيسير العلوم، وتذليلها للناشئة، وفيها ما كتب خضوعاً لموقف طارئ كإزالة شبهة علمية، أو تقرير حكم شرعي اختلف فيه، ولأنّ سفّ نجد مخطوطاته العلمية لا تزال منذ ودّع الحياة مجفّوة، لا تجد من يُخرجها من الظلمات إلى النور، وفيها تفسيره الدقيق لكتاب الله في أربعة أجزاء كبار، وإذا عرفنا أنّ الرجل الكبير كان يتعمّد اللباب الجوهري في الموضوع، مبتعداً عن الاستطراد المملّ، فإن ما كتبه في التفسير لا بدّ أن يجري على نهجه الذي دعا إليه، فيكون كلّ باباً خالصاً، وما قرأناه من كتبه غير المدرسية ورسائله إلى تلاميذه ومريديه يدلّ على إحاطة أستاذ متمكّن، بصير بكلّ ما يتحدث عنه، وهذه الإحاطة هي التي جعلته من أعلام المُصلحين في عصره، لأنّ رجل الإصلاح الناشئ في بيئة أميّة، لا بدّ أن يكون متفوّقاً في اتجاهه العلمي، تفوّقاً حداً به أن يُجاوز القول إلى العمل.

وقد كتّب عنه الأساتذة الكبار محبّ الدين الخطيب وعلي الطنطاوي وصلاح الدين المنجد فصولاً مقتضبة لا تُشبع نهمة القارئ المتّدد، ولكن الأستاذ الكبير محمد كرد علي قد كتب عنه ترجمة وافية مستوعبة في مطلع كتابه (كنوز الأجداد) وإليها أرجع في أكثر ما أكتب الآن، لأن قارئ هذه الترجمة المستوعبة لا يخالجه شك في أن العلامة طاهر الجزائري كان زعيم النهضة الفكرية المعاصرة في ديار

الشام، إذ فتَحَ العيون على دراسة شتى العلوم من أدبية وعلمية، وحارب الجهل محاربة باعدت بينه وبين الطليعة المتوثبة إلى المجد، تلك التي قادت زمام التقدم سياسياً واجتماعياً ودينياً وأدبياً، معترفة له بفضل السبق، وسديد التوجيه .

ولد طاهر سنة ١٢٦٨ في بيت علم ومجد، فقد رحل والده من الجزائر إلى دمشق قبل مولده بخمس سنوات، وذاع له ذكر بين أهل العلم، ورعى ولده رعاية تامة، ووصله بأكبر علماء عصره في نشأته الأولى، ومن بينهم الشيخ عبد الغني الميداني، وهو عالمٌ متّسع الذرع في العلوم الإسلامية، وأنس من تلميذه نباهةً، فاهتم به اهتماماً كبيراً، وحَبَّبَ إليه دراسة العلوم الحديثة مع العلوم العربية، فألم بدروس من علوم الطبيعة والرياضة والفلك والتاريخ، واشربَتْ نفسه إلى دراسة اللغات الأجنبية، فحذق الفارسية والتركية والفرنسية، وبذلك فقه رُوح العصر، وامتازَ على زملائه الذي اقتصرُوا على دراسة كتب المتأخرين في الفقه والنحو، هذا الامتياز جعله يفكّر فيما حوله من الركود العلمي، ويضعُ الخطط لإنعاش الأذهان، ويتّصل بمن يثق فيه لينشر العلم على وجهه الصحيح، وقد حُورِبَ في اتجاهه من أناس يرون الخروج عن الكتب التقليدية مروقاً وزندقةً، ويسعون لدى الحكّام في شأنه، ولكن سيرة الرجل وصراطه المستقيم قد زيفاً كلّ زور لصق به، حتى ظهر فضله فوثق به أهل الرأي، والواحد منهم بمئة ! .

وإذا كان الوزير الخطير علي مبارك رجل الإصلاح التعليمي في مصر، إذ أنشأ كثيراً من المدارس، وجمع المخطوطات المتناثرة في المساجد والمنازل، وجعلها نواةً لإنشاء دار الكتب المصرية، فإنّ الشيخ طاهر الجزائري يمكنُ أن يقارن به فيما صنع بالشام من نهضة علمية، مع الفارق الواضح في أنّ علي مبارك رحمه الله كان وزيراً يملك سلطان الوزير الحاكم، فيضعُ الخطة ويقومُ على تنفيذها بسلطانه المكين .

والشيخ طاهر فردٌ لا يملك منصباً مؤثراً، بل هو في نظر العامة وبعض الخاصة عالمٌ كعشرات العلماء من حوله، ولكنه بمنزلته القوية، وتأثيره النفاذ استطاع أن يؤثر تأثيراً كبيراً فيمن حوله، فجعلَ اتصاله بالوالي التركي سبيلاً إلى إنشاء المدارس، وجعل تودّده للعلية من الدمشقيين سبيلاً إلى جمع المخطوطات وقراءتها وحفظها للمطالعة المثمرة بعيدةً عن أيدي الناهيين، وما زال يجمع ويشترى وينسخ

ويبيّض حتى اكتمل له بطول الزمن عدّة أسفار ما بين مخطوطة ومطبوعة بلغت بضعة آلاف مجلّد كانت نواة دار الكتب الظاهرية بدمشق.

وقد كابد حرباً لا هوادة فيها ممّن ظنوا به الظنون فحسبوا أنّه يجمع المخطوطات ليبيّعها، وأذاعوا ذلك وافتروه، وفي رأيهم أنّ الذي يبذل ما يملك في شراء هذه الأوراق يبتغي المكسب الماديّ، لا الثراء العلمي، وقد افتتحت دار الكتب الظاهرية سنة ١٢٩٦ ورأى الحساد رأي العين ما قدّمه العلامة الفاضل من مخطوطات نادرة ومطبوعات علمية رفيعة، فصعقوا مبهورين!! وفي هذه المخطوطات كنّاشات كتبها الرجل الكبير بخط يده، تروي ذكريات تاريخيّة معاصرة شاهدها وتأثّر بمواقفها وأثر فيها، وهي مادة دسمة لمن يريد التأريخ العلمي والسياسي والثقافي في عصر الأستاذ، فسيجدُ بها من الاعترافات والتحقيقات والمشاهد ما يُرسل أضواءً قويّة على أحداث بالغة الغموض.

يقول الأستاذ صلاح الدين المنجد في مقال نشره بمجلة الثقافة (المصرية) ١٩٤٥ / ١٠ / ٣٠ بإمضائه المستعار المشتهر بين قراء الثقافة (فواز) متحدثاً عن الأستاذ الجزائري:

«كان الشيخ رجلاً سبق زمانه، فأوذي، والأذى جزاء المصلحين المفكرين الأحرار، وكان الشيخ إلى ذلك جواباً طوافاً، يجوبُ ويطوف لبحث عن الكتب، فلم يدع مكتبةً ولا خزانة استطاع أن يصل إليها إلا وقرأ ما فيها، وأثبت في كنّاشاته ملاحظات ذوات شأن، عن أزوع ما رأى، وأحسن ما قرأ، وأندر ما عثر عليه من مخطوطات، وقد يُتوّه بكتاب واحد من مكتبة، وقد ينقل فهرستها أو بعضه، وقد يُشير إلى فصل، وقد ينقل فصلاً، ثم يعلّق ويتقدّم ويقرّظ، ولا ينسى أن يدلّ على مكان الضعف، أو يشير إلى مغمز الدسّ.

هذه الكنّاشات النادرة، الرثة المتواضعة، التي تحوي علم رجلٍ صاحب الدهر أعواماً طوالاً، بيعت إلى بقالٍ كان يلفّ بأوراقها ما يبيّع من أرزٍ وسمن! ثم يقدر لها بعد ذلك أن تُنقذ وتنقل إلى المكتبة الظاهرية بدمشق، فترمى يعلوها الغبار، ولا يُعنى بها أحد، وقد قلّبت أوراقها مرات فإذا فيها خير كثير، وحبذا طبعُ منتخباتٍ منها، فإنها جليلة الفائدة وسأنشر منها طرفاً في الثقافة إن شاء الله».

ثم نشر الأستاذ بالمقال نفسه طرفةً تاريخية قد أعودُ إليها في هذا المقال، وختم

حديثه عن الكناشات بقوله: «والكناشاتُ - كما قلتُ - ذات شأن، وفيها كثيرٌ من أسرار مصر والشام في القرن الماضي».

وما أشار إليه الأستاذ المنجد من تعليقات الرجل الكبير على المخطوطات ممّا لا شك فيه، فقد كان يُناقش أهل العلم في كُتُب التراث، ويحكمُ عليها حكمَ من استوعبها وآلم بخوافيها، وقد ذكّرَ عنه الأستاذ محمد كرد علي عدة تعقيبات علميّة تدل على بصره بالآثار المخطوطة في المكتبة العربيّة، فقد سأله الأستاذ كرد علي عن معجم أبي عبيد البكري المسمّى (معجم ما استعجم) عن الأسماء التي وردت في المعجم، فقال: إنها ٤١٠٠ فكأنّه عند قراءته لا يكتفي بالمراجعة، بل يحصر ويجمع، وتلك دقّة واعية؛ وسأله عن الكتب الفقهيّة التي ألّفت على طريقة المتكلّمين في القرن الخامس، فقال: أربعة وهي: كتاب البرهان لإمام الحرمين، والمستصنّى للغزالي وهما من أهل السنة، وكتاب العمُد للقاضي عبد الجبار وشرحه المعتمد لأبي الحسين البصري.

والجوابُ يدلّ على مراجعة طويلة لكُتُب التراث ووقوفٍ على اتجاهاتها الفكرية، وقوفٍ العالم الدارس الصبور، لا نظرة المتسرّع العجول، وهو بهذه القراءة الواسعة لم يقصر نفسه على مذهب فقهي معيّن كعلماء عصره، وبخاصّةٍ موطن إقامته دمشق، بل كان يأخذُ من أصل الشريعة باتجاهه الخاص، ولكنه يتجهّم لمن يجرأ على النيل من الأئمة، لأنّه يقدر مكانتهم العلمية، ويعرف أنّهم عانوا في التّحصيل والاستنباط ما يجله هذا المتهجّم الدعيّ، وقد ظنّ بعض السطحيين أنّه بتحرّره من مذهب خاص، لا يثقُ بإمامه، وهو ظنٌّ يدل على قصر نظر، لأنّ صاحب المذهب في أقلّ أمره فقيهٌ دارس مستوعب، فكيف لا يكون موضع الثقة والاطمئنان؟.

أما شغفه بإنشاء المدارس ومعاونة مدرّسيها على الطرق التربويّة الصحيحة فقد نشأ عن أسفه لانتشار مدارس الإرساليات الأوروبيّة بمناهجها البعيدة عن الروح الإسلاميّ في ربّوع الشام، فكان ينظر إلى تاريخ الشام القديم، وكيف حَقَل بالمدارس المختلفة ذات المذاهب المتنوّعة في عصور الزنكيين والأيوبيّين والمماليك، ثم أخذت هذه المنارات المشعّة تتضاءل وتنكمش في العهد التركي، حتى أصبحت في حكم المهجورة المجفّوة، فكان يتّصل بأصحاب المنازل الواسعة، ويحرّضهم على أن يكون أحد المنازل مدرسة تعليميّة ذات أجر أُخرويّ

من الله، وشكر خالص من الناس، ثم يتصل بأولي الأمر للمعاونة في هذه المنشآت التعليمية ببذل ما ينهض ببقائها، وله في ذلك نشاطٌ مقيم لا يقعد، ودأبٌ جاهد لا يفتر، حتى كثرت المدارس الإسلامية ما بين ابتدائية وثانوية.

وانتهز اختياره عضواً بالجمعية الخيرية عند إنشائها بدمشق بمعاونة علماء المدينة وأعيانها، احتذاءً بالجمعية الخيرية الإسلامية التي أنشأها الأستاذ الإمام محمد عبده في مصر، انتهز اختياره عضواً بهذه الجمعية الخيرية الإسلامية فوجه أكبر همّها إلى إنشاء المدارس، ولم يأنف من التدريس بإحدى هذه المنشآت الابتدائية على جلاله قدره، وغزارة علمه، ليقدم لزملائه المدرسين مثلاً يحتذى في التدريس والتفهم، قبل أن تُنشر الكتب التربوية الخاصة بطرق التعليم، ورأى أن يتسع نشاطه بعض الشيء، فاستجاب لمن عينوه مفتشاً عاماً على هذه المدارس، إذ بانتقاله من مدرسة إلى مدرسة يستطيع التوجيه التربوي على نحوٍ أشمل وأعم.

وكان من حظّه أو حظ التعليم بعامة أن يكون والي سورية حينئذ هو المصلح الكبير مدحت باشا، فاستجاب لما أشار به الشيخ من ضرورة انتشار المدارس، لا في دمشق فحسب، بل في جميع المدن؛ كحلب وحمص وحماة أما وضع المناهج للدراسة، واختيار المدرسين للتعليم، فقد كان من مهام الشيخ الضرورية بالنسبة له، وكتبه الدراسية لهذه المدارس يجب أن تؤزن بحسب رسالتها وحسب زمانها، لتأخذ مكانها المنصف العادل.

وإذا كنّا نحكم على بعض كتب علي مبارك التي وضعها للصغار من التلاميذ في مصر بامتيازها بالنسبة لعصرها التعليمي، فسبيلنا أن نحكم على كتب طاهر الجزائري بالحكم نفسه! أذكرُ أنني استمعت زميلاً يضائل من قيمة دروس التوحيد التي وضعها الشيخ (حمزة فتح الله) في عصره لدروس التربية الدينية، وقال لي: إن أصغر مدرّس الآن يضع مثلها! فقلتُ له: إن أمثال هذه الكتب الناشئة كانت بذوراً جيدة في أرض طيبة، وما زالت هذه البذور تنمو وترعرع بتواتر الخبرات ونضوج الأفكار في الزمن، حتى انتهت إلى ما تشاهده الآن من نجاح في تأليف الكتب الدراسية! ولولا البذرة ما كانت الثمرة، كذلك لولا جهود علي مبارك وعبد الله فكري وحمزة فتح الله وطاهر الجزائري ما نهض التأليف المدرسي في سيره الحديث.

يقول الأديب الكبير الأستاذ علي الطنطاوي متحدّثاً عن جهد الجزائري في هذا المجال^(١):

«كان التعليم في دمشق: الكتاتيب للصغار، وحلقات المساجد للكبار، فكان طاهر الجزائري - من أكبر العاملين على افتتاح المدارس العصرية، ووضع بذور المعارف في سورية، والغريب أنه افتتح مدرسة للبنات في تلك الأيام، وأن الناس قد أقبلوا عليها، ولدى (عمّتي) التي تعيش معنا إلى اليوم شهادة عليها خاتم الشيخ طاهر، ويرجع تاريخها إلى سنة ١٣٠١هـ، ولولا صلته برجال الحكم من الأتراك ما كانت هذه المدارس.

وكان أشد خلق الله تشجيعاً للناشئين، وتنشيطاً للعاملين، يحاول أن يوصل الناس جميعاً إلى المثل الأعلى، لا يرفعهم جميعاً إليه، فإنّه لا يمكن أن يرتفع الناس جميعاً لهذا المثل، ولكنه يُقرّبُهُ إليهم، ويسهّل بلوغه عليهم حتى ترتفع بهم هممهم إلى محاولة بلوغه، وكان يقول لأصحابه: «إن جاءكم من يريد أن يتعلّم النحو في ثلاثة أيام فلا تقولوا له: لا فذلك مستحيل، بل علّموه، فلعلّ اشتغاله هذه الثلاثة الأيام بالنحو يحبّبه إليه». وكان كلما رأى مخايل النجابة في أحد جذبه إلى طريق العلم، ووصله بشعبة من شعبه، وكان أكثر اهتمامه بإدخال العلم إلى بيوت الأكابر، ليجد منهم المندفعين إلى الارتقاء دون عائق.

واهتمام الشيخ بنشر التعليم كان يُصادف عقبات كثيرة ممن يدّعون العلم، ويتزيّون بزيه، إذ وجدت في دمشق لعصر الشيخ عائلات تحسب العلم مقصوراً على أبنائها، ليتقلّدوا وحدهم وظائف الدولة في الإمامة والتدريس، وما يمتّ إلى الشريعة بسبب، ولم يتورّع هؤلاء عن أن يَمْنَعُوا من يروّنه من الأبناء ينتسب إلى المدارس الناشئة بجهود الشيخ، فكأنوا يذهبون إلى آباء هؤلاء، ويقولون لهم: ماذا يستفيد الغلام من الكتابة والقراءة؟ لماذا لا ينشأ نجاراً أو حدّاداً، أو فلاحاً يستطيع أن يعين أهله بما يتكسّب به، ومؤرّخو الشيخ قد أشاروا إلى أسماء هذه الأسر الجاحدة، فالمسألة - على غرابتها - حقٌّ لا مزية فيه، وقد وقف الشيخ وقفات صارمة أمام هؤلاء، ولولا تقدير الوالي المصلح لجهوده لدّبرت له المكائد، ولكن

(١) رجال من التاريخ، للأستاذ الطنطاوي ص ٣٧٧، ط ٨.

الله إذا نصر مجاهداً فلا غالبَ له، وأيّ جهاد كان نضال هذا الشيخ العظيم؟» .

- ٢ -

إنَّ استواء الخُلُق في أكملِ وجوهه، وأهداها إلى الحق منزلةً لا يبلغه غير الكبار ممَّن رزقهم الله سمو الروح ونقاء النفس، فقد يكونُ الإنسان عالماً كبيراً بكثرة الاطلاع، وطول الصبر على الاستيعاب والتحصيل، ولكنَّ وجودَ مثله شيءٌ مألوف لا يبعث على دهشة أو إكبار، فذُو الخلق الرفيع مضافاً إلى العلم الغزير هو موضع الدهشة حقاً، والخُلُق النبيل لا يتكوَّن في يوم وليلة، ولكنه مراس طويل، وتحملُ هذه ثقل للشدائد والأهوال، فالمرتفع عن مغريات الحياة أمام الرؤساء لا يبلغُ هذه المرتبة إلا بعدَ مرانٍ شاق، يخرج منه مسيطراً على الأهواء والنوازع، والمجابهة للباطل في حضرة السلطان الغاشم لا يبلغُ ذلك إلا بقوة مستمدة من روح الله، أيدتها تعاليم الإسلام، وباركتها السماء .

فإذا كان العلامة الجزائري قد اعتصم بخُلُق نادر في زهده، وإبائه الضيم، وهُتافه بالحق، فتلك صفاتٌ رائعة لا تُوجد في الخاصّة، بل في خاصّة الخواص، وهو مع ذلك حازمٌ بعيدُ النظر يأتي الأمر من بابه، فلا يُجابه ويعاند إذا استطاع أن يبلغَ مأربه بالرفق واللين، لقد رأى في عصره حزباً طاحنة على الإمام ابن تيمية ممَّن لم يَفْروا وكتبه، بل اكتفوا بمحاربته عن جهلٍ بآرائه، ولهم نفوذٌ لدى العامة يخطف الأبصار، وتلاميذُ يجلسون في حلقات الشيخ، ليعلنوا الباطل عن ابن تيمية تقليداً لشيوخهم، فجعلَ الشيخ يُدلي بآراء ابن تيمية في دَرسه دون أن يُشير إليه، فتكون موضع الإعجاب فإذا سأل الطلابُ عن مصدر هذه الآراء، أحالهم على مؤلفات الإمام، وهي حينئذٍ مخطوطة لم تُطبع، فكان ينسخها مع معاونيه في أوراقٍ دُون أن يلحقها باسمه، ويقدمُ الأوراق للطلاب، فإذا وقعت منهم موقعها المؤثر وتساءلوا عن المؤلف، قال لهم: إنه الإمام ابن تيمية الذي تُنكرون . . وهذه طريقةٌ حصيفة في التوجيه الصحيح، والوعظ السديد بالتّي هي أحسن .

كان يعمل على أن يصحب ذوي الأهواء، ويُطيل الاستماع إلى آرائهم، حتى يظنّوا أنهم قد جذبوه إلى معتقداتهم فيأمنونه، ثم يدورُ السمر العلمي، وقد أخذَ له الأستاذ عدته الهادئة، فيكتر على الآراء الباطلة مسائلًا في لهجة المستفيد عن مواضع

الضعف بها، فإذا لمَسَ حيرةً في الرد، أخذَ يجيب بما يراه من فساد هذه الآراء،
يجيبُ إجابةً المتنقِّلَ من خطوة إلى خطوة دونَ هجومٍ سافر، فإذا انكشفتِ الحقيقة -
بعد سطوع الرأي - عَرَفَ كيف يهاجم الباطل، وقد أَمِنَ الشغب والعناد.

أما ترفُّعه الكبير، واستعلاؤه على الرؤساء، إذا أحسَّ ببعض ما ينال من كرامته،
أو توهم هذا النيل دون أن تكونَ له أسبابٌ حقيقية، فمِمَّا يجبُ أن يُسجَّلَ لتقرأه
الأجيال، فيكون قدوةً مثالية تخشعُ لها النفوس، والمثلُ الحيُّ المتجسِّدُ في إنسانٍ
عظيم رآه الناس وعاشوه؛ أقوى تأثيراً وأسرع نفاذاً من مقالاتٍ تدوَّن في الصحف،
وحكايات تُروى في المجلَّدات، فيقرأها الناس ما بين مصدِّق ومكذب، لقد وفد
الشيخ الجزائري على القاهرة، فنزلَ على الرَّحْب والسعة من أناسٍ يعرفون فضله،
ويقْدرون علمه، ولكنه لم يشأ إلا أن يبذل - من شموخه العالي - ما يهيئ له سبيلَ
العيش من وظيفة معلومة تُعطي له كل شهر مرتبته، وليس ذلك عيباً، فالمُعطي هو
الدولة، وليس إنساناً خاصاً يتصدَّق من ماله، وكلَّ العلماء يأخذونَ من مال الدولة
وَقَفاً كان أو غير وقف.

وقد ظنَّ الشيخُ أنه إذا رُصدَ له مالٌ معلومٌ سيضطرَّ إلى إسكات صوته في غير
موضع السكوت، وجعلَ يبيعُ كتبه التي اشتراها بكده الكادح ليعيش عيشة الكفاف
بعيداً عن ذوي الشأن من الرؤساء! ولا يُقدَّرُ فجيعة الرجل في كتبه التي قرأها
واستوعبها حين يعرُضُها مضطراً إلى البيع إلا من عرف قيمة العلم في نفس العالم
الكبير، إن للشيخ الكبير في هذا المجال موقفاً نادراً، لا أرى أن ألخِّصه، بل أنقل
أكثره على طوله كما كتبه تلميذه الكبير الأستاذ محب الدين الخطيب، إذ رأى الأمر
رأي العين، وتحدَّث عنه في مقالٍ مسهب قال فيه^(١):

«أنفق الشيخ طاهر كلَّ ما ملكت يده في اقتناء نفائس الكتب، ولا سيَّما
المخطوطات الفدَّة النادرة، فلما ضاقَ به وطنه (دمشق) زَمَن السلطان عبد الحميد
اختار القاهرة وطناً ثانياً، وصار يبيع فيها هذه النفائس، ويعيشُ بثمرتها عيش
الكفاف، ومن عجيب أمره أنه كان يرضى من دار الكتب المصرية بنصفِ القيمة التي
يُمكن أن يحصل عليها من المتحف البريطاني ثمناً لكتاب من كتبه، إثارةً لبقاء هذا
الكتاب في الوطن الإسلامي على انتقاله إلى أوروبا.

(١) الحديقة، للأستاذ محب الدين الخطيب ٤/ ١٨٠.

خَرَجَ الشَّيْخُ عَنْ كُتْبِهِ كُلِّهَا، وَبَقِيَ مَعَهُ مِنْ ثَمَنِهَا مَا يَعِيشُ بِهِ عِيشَةَ التَّقَشُّفِ، وَفِيمَا كُنْتُ ذَاتَ يَوْمٍ عِنْدَ الشَّيْخِ عَلِيِّ يَوْسُفَ صَاحِبِ الْمُؤِيدِ، وَفِي مَجْلِسِهِ سَعَادَةِ الْأُسْتَاذِ أَحْمَدَ تَيْمُورَ بَاشَا أَخَذَا يُحَدِّثَانِ فِي حَالَةِ الشَّيْخِ طَاهِرٍ، وَمَا فُطِرَ عَلَيْهِ مِنَ الْإِبَاءِ وَعِزَّةِ النَّفْسِ، وَأَنَّهُ - مَعَ ضَيْقِ ذَاتِ يَدِهِ - لَمْ يُغَيِّرْ مَا اعْتَادَهُ مِنَ التَّصَدُّقِ عَلَى الْفُقَرَاءِ، وَالْبَذْلِ فِي سَبِيلِ الْخَيْرِ، فَقَالَ تَيْمُورُ بَاشَا لَصَاحِبِ الْمُؤِيدِ: أَلَا تَرَى يَا أُسْتَاذَ أَنَّ مِنَ الْوَاجِبِ عَلَى مِصْرٍ أَنْ تَعْرِفَ لِهَذَا الْعَالَمِ الْجَلِيلِ قُدْرَهُ، فَتُسْتَفِيدَ مِنْ عِلْمِهِ وَفَضْلِهِ فِي مِثْلِ دَارِ الْكُتُبِ مِثْلًا، لَا سَيِّمًا وَهُوَ الْيَوْمَ أَعْلَمُ النَّاسِ بِالْكِتَابِ الْإِسْلَامِيَّةِ، وَقَدْ كَانَ فِي الشَّامِ مِفْتَشًا عَامًّا عَلَى دُورِ كُتُبِهَا، وَهُوَ الْعَامِلُ عَلَى تَأْسِيسِ دَارِ الْكُتُبِ الظَّاهِرِيَّةِ بِدَمَشَقٍ، وَالْمَكْتَبَةِ الْخَالِدِيَّةِ بِالْقُدْسِ.

فَوَعَدَهُ الشَّيْخُ عَلِيُّ يَوْسُفَ بِالسَّعْيِ فِي ذَلِكَ، وَكَانَتْ لَصَاحِبِ الْمُؤِيدِ مَنْزِلَةٌ مَعْلُومَةٌ فِي الْمَعِيَّةِ الْخَدْيَوِيَّةِ، وَمِنْ وَزِيرٍ إِلَّا يُوَدُّ أَنْ تَكُونَ لَهُ يَدٌ عِنْدَ الشَّيْخِ عَلِيِّ يَوْسُفَ لِيُقَابِلَهُ بِمِثْلِهَا عِنْدَ الْحَاجَةِ، وَرَأَى الْأُسْتَاذُ تَيْمُورَ بَاشَا أَنْ يَكْشِفَ الشَّيْخَ طَاهِرَ بِأَسْلُوبِهِ اللَّطِيفِ، فَاعْتَذَرَ لَهُ الشَّيْخُ بِأَنَّهُ اعْتَادَ الْمَطَالَعَةَ بِاللَّيْلِ إِلَى الْفَجْرِ، وَلَيْسَ مِنَ السَّهْلِ عَلَيْهِ أَنْ يُغَيِّرَ عَادَتَهُ، وَهُوَ فِي سِنِّ الشَّيْخُوخَةِ، وَلِذَلِكَ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يَتَّقِيدَ بِالْأَوْقَاتِ الرَّسْمِيَّةِ الَّتِي يَتَّقِيدُ بِهَا الْمَوْضُفُونَ، وَاجْتَمَعَ الْأُسْتَاذُ تَيْمُورُ بِصَاحِبِ الْمُؤِيدِ مَرَّةً أُخْرَى، فَذَكَرَ لَهُ كَلِمَةَ الشَّيْخِ، ثُمَّ اتَّفَقَا عَلَى أَنْ يَطْلُبَ الشَّيْخُ عَلِيُّ يَوْسُفَ مِنَ الْخَدْيَوِيِّ إِجْرَاءَ رَاتِبٍ لِلشَّيْخِ طَاهِرِ الْجَزَائِرِيِّ مِنَ الْخَزِينَةِ الْخَاصَّةِ.

وَفِيمَا أَنَا قَائِمٌ بِعَمَلِي فِي تَحْرِيرِ الْمُؤِيدِ يَوْمَ الْخَمِيسِ ٢٤ مِنْ جُمَادَى الْأُولَى (أَوَّلُ مَآيُو سَنَةِ ١٩١٣) اسْتَدْعَانِي الشَّيْخُ عَلِيُّ يَوْسُفَ، وَكَانَ يَعْلَمُ أَنَّ سَعَادَةَ تَيْمُورَ بَاشَا يَتَفَضَّلُ بَزِيَارَتِنَا دَائِمًا، فَقَالَ لِي: أَبْلَغُ الْبَاشَا أَنِّي تَكَلَّمْتُ فِي مَسْأَلَةِ الرَاتِبِ لِلشَّيْخِ طَاهِرٍ، وَأَنَّ كُلَّ شَيْءٍ قَدْ تَمَّ عَلَى مَا يَنْبَغِي، فَشَكَرْتُ لَهُ مَسْعَاهُ الْحَمِيدَ، وَاجْتَمَعْتُ بِالشَّيْخِ طَاهِرٍ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ قَبْلَ أَنْ أَرَى سَعَادَةَ تَيْمُورَ بَاشَا، فَأَخْبَرْتُهُ بِمَا وَقَعَ، وَكُنْتُ أَظُنُّ أَنَّ هَذَا الْخَبَرَ سَيَسِرُهُ، فَظَهَرَ لِي أَنِّي لَا أَزَالُ أَجْهَلُ تِلْكَ النَّفْسِ الْكَبِيرَةِ رَغْمَ مَعْرِفَتِي بِصَاحِبِهَا مِنْذُ طِفُولَتِي، فَقَدْ غَضِبَ الشَّيْخُ طَاهِرُ مِنْ هَذِهِ الْحَادِثَةِ غَضَبًا لَمْ أَعْهَدِهِ فِيهِ مِنْ قَبْلُ، وَقَالَ لِي: كَيْفَ يُقَدِّمُ صَاحِبُ الْمُؤِيدِ عَلَى مِثْلِ هَذَا الْأَمْرِ قَبْلَ أَنْ يَأْخُذَ رَأْيِي..

ثُمَّ قَابَلَ الشَّيْخَ عَلِيَّ يَوْسُفَ فَقَالَ لَهُ: «كَأَنِّي مَعَكَ يَوْمَ كَلَّمْتَ الْخَدْيَوِيَّ بِشَأْنِي،

وسمعتني أثنى عليه لتعزيده مشروع زكي باشا في إحياء الآداب العربية التي نقلها من مخطوطات الأستانة، نعم أنا أثنى على كل من يخدم العلم، ولكن من الذي يضمن لك ألا أقف من الخديوي عكس هذا الموقف إذا صدر منه ما يُناقض هذا العمل، الأحسن يا أستاذ ألا تُعرض نفسك لما قد يسودّ به وجهك بسببي، وأنا بحمد الله في سعة ولا حاجة بي للراتب ولا إلى الوظائف، فأرجو أن تعمل طريقة لتنقض ما تمّ من هذا الأمر بشأني». فذهش صاحب المؤيد، ثم قال لي بعد يومين: لقد كان تيمور باشا محققاً في إعجابه بالشيخ طاهر إلى هذا الحدّ، إن الراتب الذي سعت لتدبيره إليه لا أعلم من كل الذين عرفهم إلا مَنْ يسعى للحصول عليه بكل وسيلة، لقد كنتُ أظنّ الذين يزهدون في مثل ذلك قد ذهبوا من الدنيا، ولكن وجدت منهم بقية الآن».

نقلتُ هذا الموقف على طوله، لأنّ كل عبارة منه ذات معنى خلقيّ تحتاج إلى تحليل دقيق، وقد يكون من الأوفق أن أذكر أن سموّ الخديوي عباس حلمي الثاني كان يعرفُ الشيخ طاهر معرفة جيدة، وقد اجتمع به، ودار نقاشٌ حول المخطوطات العربية بين الرجلين، وفي الكناشات التي تركها الشيخ ما يدلّ على ذلك صراحة، إذ جاء في بعضها، كما نقله الأستاذ صلاح الدين المنجد ما يأتي^(١):

وقد عثرتُ في كُناش رقم (١٣٥) كتُب في مصر، بين رجب سنة ١٣٢٧هـ، وصفر ١٣٢٨هـ، على وصفٍ لمقابلته خديوي مصر، وكيف أشار عليه قبل ست وثلاثين سنة أن يؤسّس مدرسة للغة العربية، تُقصد من كل جهة، وأن يُنشئ داراً لترجم كل كتاب، وهذا نصّها:

«في يوم الخميس السابع من صفر سنة ١٣٢٨هـ، اجتمعنا بحضرة الأمير الجليل، نخبة الدولة العلوية بمصر خديويها المبجل، وكان ذلك قبيل المغرب، وأجلستنا بلا فاصل عنه، وأخبرنا أنه بلغته أخبار كثيرة عنا لا سيما من الشيخ علي، المحبّ المخلص، ومن الدكتور هيس المحبّ لنا أيضاً، ويرغب في رؤيتنا، إلا أن سفر الحجاز قد عاق عن ذلك، والآن يعدّ اجتماعنا به يوماً يُذكر، وله من ذلك الحظّ الأوفى، فقابلته بما يليق بمقامه، إلا أنّ عبارتنا كانت قاصرة، وكانت تدل على فرط إخلاص، ثم جرّى البحث فأشرت عليه أن يغتنم الفرص في إبراز آثار

(١) مجلة الثقافة، العدد ٣٥٧، ٣٠/١٠/١٩٤٥.

مهمة، وذكرنا من ذلك شيئين؛ أحدهما: تأسيس مدرسة للغة العربية تقصد من كل جهة، والثانية: تأسيس دارٍ للترجمة، وإنشاء مطبعة لطبع ما يُترجم، وجعل مصححين للترجمة، فسُرَّ بذلك كثيراً وأبنا له مقامه في النفوس، وآلا يعبأ بالمشاغبين، ولو أردنا شرح ما جرى لطلال، غير أنني سُئِلْتُ عن ما يُنتقد في مصر، فقلْتُ: شيئان، أحدهما عدم إتمام الأعمال، والثاني احتقار الأشغال الجزئية، والأمور الكلية؛ فلا تتم إذا أخذت من أقرب وجه».

وهذا المجلس العالي يكشف عن معدن الشيخ، كما يصوّر حبه للمعرفة في جميع صورها شرقية كانت أو غربية، إذ أشار بإنشاء دار للترجمة، ومما يروى عنه في هذا الصدد، صَدَدَ التمسك بنشر الكتب وسرعة تداولها بين الناس، ما حكاه الأستاذ محمد كرد علي في مقدّمة كتاب كنوز الأجداد^(١)، من أنّ شيخ العروبة الشهير أحمد زكي باشا قد نال بواسطة أحمد حشمت باشا وزير معارف مصر اعتماداً بعشرة آلاف جنيه لطبع مجموعة من الكتب النادرة، تبلغ - فيما يذكر - سبعة عشر كتاباً، ومنها ما يدخل في بضعة مجلّدات، فتباطأ زكي باشا في الطبع، ومضت السنة، فقَيَّدَ المبلغ في نظارة المعارف على حساب السنة المقبلة، ولم يخرج الباشا شيئاً، ثم ألغى الاعتماد باستقالة حشمت باشا ومجيء وزير بعده لا يهتم بهذا الأمر.

فغضب الشيخ غضبة مُضْرية من عمل زكي باشا، وصارحه بقوله: لقد أسأت إلى الأمة العربية بإبطائك في إخراج الكتب للناس، وإذا ادّعت أنك تقصد نشرها سالمة مشفوعةً باختلاف النسخ والتعليق، فالتأق لا حدّ له، وكفي أن ينتفع الناس بالموجود، وظلّ الشيخ غاضباً على زكي باشا، لا يكلمه إلا تكلفاً، كأنّه أضّر بمصلحته شخصياً، وأيّ مصلحة أعلق بقلبه من نشر آثار السلف.

وحين تولّى الأستاذ محمد كرد علي أمر المعارف في سورية مديراً ووزيراً، عنّ له أن يلتمس الرأي التربوي لدى الشيخ، فأخذ يُراسله في مصر مراسلةً منتظمة، ليأخذ رأيه في كثير من أمور التربية والتعليم، والشيخ لا يرضنّ على أحدٍ ما بالرأي المطول، فإذا كان طالبُ الرأي تلميذه الأول، وصاحب التنفيذ العملي لأمر التعليم في سورية؛ فلا عجب أن تتوالى الرسائل التربوية بين الرجلين الكبيرين حاملة أقوى المقترحات الناجعة، وقد أشار الأستاذ كرد علي إلى بعض هذه الرسائل، ونقل

(١) كنوز الأجداد، ص ١٨ ط أولى.

جانباً منها في الترجمة المسهبة التي افتتح بها كتابه (كنوز الأجداد) ومن هذه الرسائل ما اشتمل على هذه الاقتراحات :

(١) إدخال مبادئ الصنائع في المدارس الابتدائية، ويُمكن تجربة ذلك أولاً في مدرسة واحدة، فإذا تمّ على ما يُرجى من النجاح عمّ واتسع .

(٢) الحرص على التربية الخُلقية بين التلاميذ، بتعويدهم الصدق، وعدم التكلم في أمرٍ دون معرفة جوانبه، لأنّ الشرقيّ - في رأي الأستاذ الجزائري - اعتاد أن يقول في كل شيء، ولا يقول: لا أعلم في شيء، وهذا ما جعله لا شيء عند الغربي .

(٣) السعي في مدرسة للقراءات السبع، كما كان من قبل، ولا ينبغي أن يكون هذا الأمر موضع الجدل والخطب، بل تنشأ المدرسة أولاً ثم نتكلّم عنها كيلاً نخلق المعوّقات .

وإدخال المبادئ الصناعية في المدارس الابتدائية اقتراحٌ عملي، لأنه يجعلُ التلميذ صاحبَ حرفة وتعليم ما، فإذا لم يتيسّر له أن يتمّ تعليمه في ما بعد هذه المرحلة، فقد توجّه توجّهاً صحيحاً نحو عملٍ نافع يرتزق منه، وأذكر أن المغفور له الأستاذ عبد العزيز جاويز الزعيم الإسلامي الكبير قد دعا إلى هذا الاتجاه، حين كان مراقباً عاماً للتعليم الأولي بمصر، كما أنشئت المدارس الصناعية تطويراً لهذا الاقتراح، وما دعا إليه الأستاذ من التربية الخُلقية العملية ضروريّ للتلميذ، فدّروس التربية الدينية إذا اكتفت بالنصوص الداعية إلى أخلاق القرآن التي ستها، لا تفيّد دون أن تكون موضع التنفيذ، أما اقتراحُ إنشاء مدرسة للقراءات السبع فقد كان وثبة طافرة لم تُصادف تطبيقها في سورية كما أعلم، ولكنّ إنشاء معاهد القراءات التابعة للأزهر في مصر تأكيدٌ للاقتراح وتطبيقٌ واقعيّ له، وقد كانت المدارس العلمية بمصر والشام في العهود الماضية تجعلُ القراءات علماً ضرورياً للطالب، وقد خُصّصت مدارسُ خاصة بها من قبل .

هذه الإمامةُ يسيرة بفضل الرجل، ولم أشأ التعرّض لمؤلفاته لأنها في أكثرها مدرسية، ولا تدلُّ على فضله الكبير، وإذا كان الرجل عاملاً عالماً، ومصلحاً موجّهاً، وقدوة نادرة المثال فحسبه ذلك، وله جزاؤه العظيم .



عبد الرزاق السنهوري والدعوة إلى الخلافة الإسلامية

- ١ -

نحنُ أمامَ قَمَّةٍ علميةٍ وخُلقيةٍ وإداريةٍ معاً، قمةٍ علميةٍ أثمرتُ عدةَ موسوعاتٍ قانونيةٍ، وشاركتُ في وضعِ القوانينِ الدستوريةِ والمدنيةِ لعدةِ دولٍ عربيةٍ، ونشرتُ عشراتَ المقالاتِ التوجيهيةِ ذاتِ الصبغةِ القانونيةِ، إلى غيرِ ما يعرفه المثقفون من تلاميذه في شتى ربوع الوطن العربي، وهم يعدّون بالآلاف . . وقمةٍ خلقيةٍ لأنّه أثبت أن رجولته الكريمة تستعصي على الإغراء بزخارف الجاه والمنصب والثراء، ولأنّه حارب الطغيان المسلّح بالسلطة والإعلام الكاذب محاربةً من يعتقد أن الحق لا بدّ أن ينتصر، ولأنّه في باريس كان مُسلماً حقيقياً يجهر بعظمة الإسلام، ويكتبُ المقالات بالفرنسية في إيضاح مبادئه وتعاليمه، وبعضُ خصومه أساتذةً له، يملكون له الضرّ والنفع، ويستطيعون أن يرجعوه إلى وطنه دون إجازةٍ علميةٍ، لأنّه لا يسير في تيارهم المعارض للفكرة الإسلامية، ولكنّ الرجل صلبُ العود صعبُ المكسر، فما وَهَنَ أو استكان .

وهو قمةٌ إداريةٌ لأنّه زاوَلَ الأعمالَ الإداريةَ عميداً ووكيلَ وزارةٍ، ووزيراً! فكان مثلاً رائعاً لمرؤوسيه جميعاً، إذ بدّل من وقته صباحاً ومساءً، ما اضطر تابعوه على أن يحرسوا على وجودهم معه .

حدّثني بعضُ من اشتغلوا معه حين كان عميداً لكلية الحقوق أنه كان يحضر بعد صلاة الفجر مباشرةً إلى مقر عمله بمكتب العمادة ليطالعَ خطوات التنفيذ العملي لما قرّره في اليوم السابق، ثم يستأنف العمل إلى الساعة الثانية بعد الظهر، ويعودُ في المساء ساعتين في اليوم نفسه لمراقبة العمل، قلتُ له: وفيمْ كان يقضي هذا الوقت المديد، وأكثرُ العمداء لا يحضرون في الأسبوع غيرَ ثلاثة أيام، يقضون أكثرها

هادئين دُونَ اضطِلاع بأعمال متصلة؟ فقال محدثي: إن الرجلَ الكبيرَ كان يُلقِي دروسه بالكلية وبالدراسات العليا دون أن يعتذر عن محاضرة واحدة، ثم يُراعي أعمالَ كل الأجهزة الإدارية بالكلية؛ في إدارة شؤون الطلاب، وإدارة الامتحانات، وإدارة الحسابات المالية، ومراجعة من يعتقد أنه مسؤول عن كل ورقة تُقدّم إليه، فيقرؤها باهتمام، ويُشير بما يراه الأصلح في التنفيذ العملي الصائب، أما سعيه في إعفاء بعض الفقراء من المصروفات الجامعية، فكان شُغله الشاغل، ولا يفتر عن هذا السعي إذا لَمَس لدى الطالب جدًّا وتقدّمًا في امتحاناته، فهو يحرص عليه حرصه على ولده.

هذا بعض ما تحدّث به أحدُ مرؤوسيه في إدارة واحدة، هي عمادة الكلية، ونحن نعلمُ أن الخُلُق الإنساني وحدةٌ لا تتجزأ، فالذي قام به في كلية الحقوق، قام به في غيرها ممّا باشره من أعمال الإدارة؛ وكيل وزارة ووزيراً، وقد تحدّث عنه الدكتور أحمد أمين فقال: إنه يشقّ على نفسه كثيراً، إذ يرى الدنيا رسالةً علياً لصاحب القيم، وأنّه لا يجوز التفرّيط في دقيقةٍ منها إلّا إذا كانت الراحة الجسميّة وسيلة لاستئناف العمل الجديّ، فتكون الراحة عملاً لأنّها أكبرُ أسبابه.

وإنسانٌ كالسنيهوري مع هذه المواهب النادرة لا بدّ أن يثمر، وأن يترك كنوزاً علميّة ذات فكر صائب، وهذا ما صدّقَه الواقع الفعلي، إذ تركَ مكتبةً علميّة نادرة قام وَحَدَه بتأليفها، ومن بينها كتابُ الوسيط في شرح القانون المدني في عشرة أجزاء كبار، ومصادر الحق في الفقه الإسلامي في ستّة أجزاء كبار، إلى خمسة مؤلّفاتٍ قانونية أُلقيت محاضراتٌ على الطلاب، وُجمعت في كُتبٍ مستقلة، أما بحوثه في المجلّات العلميّة عربيّةً وفرنسيّةً فقد أشار إليها الدكتور توفيق محمد الشاوي في خاتمة كتاب (فقه الخلافة وتطورها) وقد استدركتُ عليه بعض البحوث التي لم يهتد إليها، وكتبْتُ له خطاباً مسجّلاً عن هذه البحوث، والدكتور الشاوي رجلٌ صدق، وعَلِمَ من أعلام الحركة الإسلامية، وهو زوجُ السيدة الدكتور نادية عبد الرزاق السنيهوري كريمة المفكر الكبير الخالد، وقد تَرَجَمَا معاً كتاب (فقه الخلافة الإسلامية) وشَفَعاه بالتعليق الكاشف، والتحليل السديد، وإليهما يرجعُ الفضل في كتابة هذا الفصل، لأنّي اعتمدتُ على ترجمتهما للرسالة الخاصّة بالخلافة، فأسديا-

للباحثين عن التيار الفكري للحركة الإسلامية المعاصرة - جميلاً رائعاً، وزاداً دسماً
يفتقده الدارسون! .

ليس من شأني في هذا المقال أن أتابع السنهوري في بحوثه المستفيضة، ولكنني
أقصر الحديث عن جهاده الفكري في سبيل توضيح الفكرة الأصيلة للدولة الإسلامية
في ظلّ الخلافة الدينية، فقد صدرَ السنهوري فيما كتب عن حرية فكرية يؤازرها
إيمان صادق بدعوة الإسلام، وحرصٌ قويٌّ على إعادة مجد المسلمين كما كان في
العصور الزاهرة الماضية، وهذا وحده عمل رائع يستحقّ الإشادة، ويستأهل التنويه .

كان الاستعمار الغربي لأكثر بلاد الإسلام شغلاً شاغلاً للشباب الناهض، وهو في
يفاعته، ينظرُ فيرى الواقع الإسلامي لا يُشترُّ بارتقاء، وأغلال الاستعمار تكبل البلاد
بحديد لا يفلّ، وقد نالَ ليسانس الحقوق سنة ١٩١٧ وعُيّن وكيلاً للنائب العام، ثمّ
مدرّساً بمدرسة القضاء الشرعيّ، وهمومه الفكرية لا تنحصر في دائرة عمله الثقافي،
بل تتّجه إلى الوطن الإسلامي، وكانت تركيا عاصمة الخلافة في وضع لا تحسد
عليه، وهي في رأي المسلمين حصنُ الإسلام وقلعته الراسخة، فكيف تُودي واجبها
السياسي، وهي مُحاطةٌ بمن ينهشونها من كلّ جانب، هذا ما كان يفكر فيه
السنهوري الشاب متألماً، وقد كتَبَ مذكراتٍ شخصية ينقُص فيها عن ذاتِ صدره،
ومن سطورها ما كتبه بتاريخ ٣٠ / ١٠ / ١٩١٨ خاصاً بالدولة العثمانية، حيث
قال^(١):

«أقرأ الآن تاريخ أوروبا في القرن التاسع عشر، وما كان من مناوأة الدول
الأوروبية لتركيا، واقتناص ممتلكاتها واحدة بعد أخرى، وفرضها عليها شروط
الغالب، سواء كانت غالبية أو مغلوبة، أقرأ كلّ هذا فلا يدهشني ما أظهرته من
التعصّب والجور، ولا ما استحلته من ضروب الخيانة والغدر، ولا ما انتهزت من
فرصة ضعف تركيا، لتغرس فيها أنيابها فتمتصّ دماءها قطرةً قطرة، بدعوى أنها
تفصدُ منها الدم الفاسد، كلّ هذا لم يدهشني، إنما يدهشني أن أرى المسلمين
يتعجّبون مما أظهرته أوروبا من الوحشية تحت ستار المدنية، كأنهم - أيقظهم الله من
سباتهم - يجهلون أن المدنية والإنصاف والعدالة والقانون ألفاظ مترادفة تُوجد في
المعاجم، وتُسمعُ على ألسنة الساسة والكتّاب، فإذا بحثت عن مدلولها لم تجده،

(١) فقه الخلافة وتطورها (هامش ص ٣٥).

ولا تجدُ أَمَامَكَ غير القوة في هذا العالم، فهي التي يَتَّخِذُهَا الظَّالِمُ سلاحاً فيُسَمَّى مُنْصَفاً، وهي التي يتدرَّع بها الوحش الهمجي، فيُعَدُّ في أعلى طبقات المدنية، فبارك الله في القوة، فهي سلاح من يريد الحياة.

نعم إنني لا أدهش مما أصاب الدولة العلمية في أوروبا، فإن الذي تمَّ كان على وفق السنن الطبيعية، وإنَّ القوي إذا زاحم الضعيف فلا ينتظر هذا منه مبرراً لاغتيال حقوقه أكثر مما قدَّمه الذئب للخروف، الذي عكَّر عليه الماء، وإنَّ الخروف ليكون في أقصى درجات السذاجة إذا فكَّر أنَّ الذئب قد يعيشُ معه في صفاء، وأن ينزلاً معاً على حق المساواة، وما له إلاَّ أمرٌ واحد ليأمن غائلة الذئب، عليه أن يخْلَع قرونه التي تَكَفَّتْ، وأن يتخذ له قروناً من حديد، يستطيعُ بها أن يخرق أحشاء الذئب، إذا حدَّثته نفسه بالاعتداء عليه».

هذا بعضُ ما يَصوِّر شعور السنهاوري داخلياً في هذه الفترة من حياته، وقد سافر إلى فرنسا بعد عامين للحصول على درجة الدكتوراه في القانون، وكان عند ظنِّ عارفيه به، إذ نالَ دَرَجَتَيْنِ، لا درجةً واحدة؛ نال درجة الدكتوراه الأولى في (القيود التعاقدية على حرية العمل في القانون الإنجليزي) ونال درجة الدكتوراه الثانية في موضوع (الخلافة وتطورها لتكون عصبية أمم شرقية) وهنا موضعُ الرجولة حقاً، فإن أساتذته الفرنسيين لا يُنصفون الخلافة الإسلامية، ويعدونها مصدرَ تخلف المسلمين، وكلَّ مدافع عنها متمسكٌ بها يُعدُّ في نظرهم عدوًّا للغرب المستعمر، وفي طليعته فرنسا وإنجلترا.

وقد رأينا طلبةً مصريين من ضِعَاف النفوس سافروا إلى فرنسا بالذات ليكتبوا رسائل الدكتوراه بإشراف المستشرقين من اليهود والنصارى، في موضوعات إسلامية، ليتهموا الإسلام بالتأخر والجمود، رأينا هؤلاء ونعرفهم بأسمائهم فرداً فرداً ممن يحطبون في حبل الاستعمار، ويبيعون تعاليم دينهم ليظفروا بدرجة زائفة.

ولكنَّ السنهاوري صمَّم على أن يفتح الباب الزاخر، وأن يسبح ضد التيار العام غير عابئٍ بالنتيجة، وما يهيمه سوى الإخلاص لمعتقده، وكان المُشرف على الرسالة هو القانوني الكبير الأستاذ إدوار لامبير، وهو ذو صلة وثيقة بالمصريين، إذ كان عميداً بكلية الحقوق (مدرسة الحقوق الخديوية حينئذ) بمصر، واتَّصل بالأساتذة والطلاب اتصالاً مثمراً غير ضار، ثم ذهب إلى فرنسا ليكونَ مُديراً لمعهد

القانون المقارن بجامعة ليون، وهو ممن يقدّرون ذكاء السنهوري، وقد أُعجبَ برسالة الدكتوراه الأولى، ولكّنه حذّره من اختيار موضوع الخلافة، لأنّه يفهمُ الجوّ الفرنسي المُشبع بالعداء، وأيُّ طالب سوى السنهوري كان سيُغفل دراسة الموضوع منعاً لضياع جهوده لدى قوم ينادون موضوعه العداء، ولكنّ السنهوري كان يرى أنّ المسألة مسألة إسلام وليست مسألة كُتب شخصي، فأصرَّ على اختيار الموضوع متحملاً نتائج اختياره، ووافق الأستاذ لامبير معجباً بشجاعة تلميذه، لأن من النفوس نفساً تُعجبُ بمواقف الرجولة لدى الإنسان الجريء، وترى في عزمته الصلبة مبعث ارتياح داخلي، يطغى على المشاعر الخاصّة، فينتقل بها إلى جوهر اللباب من سمات الخلق الرفيع، وإذن فقد وافق الأستاذ المشرف على الاختيار الجريء، كما قال في المقدمة التي كتبها للرسالة^(١):

«لقد راودني القلقُ عندما وجدتُ السنهوري ينساق رغمَ مقاومتي واعتراضي، نحوَ موضوع واسع عميق الأثر، شديد التعقيد هو موضوع الخلافة وتاريخها كما يراه هو، إنّهُ المرأة الكبرى التي يتتبع من خلالها المراحل التاريخية لوحدة العالم الإسلامي، ثم تقويم الجهود المبذولة في العصر الحاضر، استعداداً لإعادة بنائها، الذي يقترح أن يكون في صورة أكثر مرونة، وأكثر ملاءمة لمتطلّبات القوميات الناشئة، وللمرة الثانية (بعد سبقه في الدكتوراه الأولى) كان عناد السنهوري وتمرّده خضباً ومثمرأ، فإن كتابه الذي قدّمه ليس أقلّ امتيازاً من كتابه الأول».

ولنا أن نسأل: لماذا اختار السنهوري موضوع الخلافة بالذات؟ إنّ أوّل سبب دعاه إلى اختيار هذا الموضوع هو اعتقاده الصميم في فائدة الخلافة الجزيلة للشعوب الإسلاميّة، وقد ألمه أن تنهار فجأة حين أعلن مصطفى كمال أتاتورك إلغائها، وعدّها العائق الأول لنهضة تركيا، والسبب الأصلي في تدهورها السياسي، وقد صدّقه أذنان الاستعمار في كلّ بلد مسلم مستعمر، فراحوا يباهون بجريمة مصطفى كمال، ويعدّونها الخطّة الأولى للتحرّر من أغلال الدين!! وقد رأينا في مصر من رَحّبوا بسقوط الخلافة وكأنّه بشير بالجنة الفردوسيّة المنتظرة في المستقبل الغريب، ووُجد كتاب ألفه قاض شرعي يُنابذ الخلافة، ويجد من الزعماء والكتاب والأحزاب سنداً قوياً لدعواه.

(١) مقدمة الأستاذ لامبير للرسالة (ص ٣١).

وصلت هذه الأصداء الأليمة إلى المسلم الغيور عبدالرزاق السنهوري، وهو يبحثُ عن موضوع لرسالة الدكتوراه الثانية، فصمّم على أن يُهاجم الجهلاء في الشرق، والمغرضين في الغرب، بما يُثبت مكانة الخلافة الإسلامية، وأثرها في ارتقاء مجد الإسلام، صمّم على أن يُهاجم هؤلاء، لا في مقالات صحفية سيّارة لا تُخشى لها عاقبة، ولا في كتاب عام يُطبع ويوزع على نفقته دون أن تقع مسؤوليته على أحد، بل على أن يُهاجم هؤلاء في رسالة علمية قانونية يُناقشها أعلام القانون الفرنسي في جامعة ليون! وإذا كان العجب الباهر يمتدّ ويتسع لهذه المجازفة الخطيرة، فإنّ هذا العجب الباهر يزدادُ امتداداً واتساعاً حين ينتصرُ البَحّاثُ الجاد في بحثه، وينالُ من خصوم رأيه أعلى الدرجات!.

لقد كان حبّ الشريعة الإسلامية المتغلغل في نفس السنهوري دافعةً إلى حبّ الخلافة، لأنه يعرف أن الخلافة في مفهومها الأصيل قائمةٌ على تنفيذ الشريعة، وسائرةٌ على منهاجها الصحيح، وإذا صَلُحت الخلافة في عصر الراشدين؛ فلأنّ الخلفاء الراشدين قد التزموا بنصوص الشريعة الإسلامية كلّ الالتزام، وقد دَرَسَ القوانين الوضعية فلم يرَ فيها ما يقرّنه بالشريعة الإسلامية، وهو شعورٌ نفسي تجلّى مظهره في حلم رآه في نومه وهو طالب بمدينة (ليون) وسجّله في مذكراته الخاصة حيث قال^(١):

«رأيتُ فيما يرى النَّائم أن الغربَ تُشرق عليه شمس ساطعة، حدّقتُ فيها طويلاً، ثم أدركتُ وجهي نحو الشرق، فخيّل إليّ أنّي أنقلُ شمساً أوسع مدًى وأسطع نوراً إلى أرجاء الشرق الواسعة، وحسبتُ أنّي أنا الذي أنقل هذه الشمس بيدي، وكأني سمعتُ لفظَ العليم يهمس، ثم أفقّتُ من نومي... وقد يكونُ من الغرور أن أدوّن هذا الحلم في مذكراتي، ولكنّ تأثيره في نفسي كان عظيماً، ولا أزالُ أرى الشمسَين؛ شمسَ الغرب الساطعة، وشمسَ الشرق أبهى وأسطع، وقد تضاءلت أمامها شمس الغرب».

ينقل الأستاذ الدكتور توفيق الشاوي هذا الحلم، ويُقدّمُ له بقوله: «وقد لاحظنا في مذكراته أنه لم يترك فرصة تمرّ دون أن يسجّل اعتزازه بالشريعة الإسلامية وفقهها

(١) فقه الخلافة وتطورها، ص ٣٨ (هامش).

وعلوم الإسلام بصفة عامة . . . وهذه الرؤيا تدلّ على أمله في أن يقوم بمهمة تعريف الأوروبيين بمزايا فقه (الشريعة الإسلامية) التي وصفها بأنها شمسُ الشرق، وأنها أبهى من شمس الغرب» .

بهذا الهيام بالشريعة خطّ كتابه عن الخلافة الإسلامية، وقد يكون الحديث عن الخلافة وأحكامها الشرعية متيسراً الآن بعد أن كتبت مئات الأبحاث، ونُشرت عشرات المخطوطات، ولكنّ الحديث عن الخلافة في العشرينيات يتطلّب من الشاب الباسل خوفاً في مراجعَ فقهية دقيقة كتبت في تركيز يحتاج إلى صبر ومعاناة، من أزهرى زكيّ نشأ من صغره في مُحيط هذه المؤلفات، فكيف بدارس كالسنهوري لم يألَف هذه الكتب من قبل، واضطرّ إلى مراجعة أمثال (المواقف) لعُصّد الدين الإيجي، و(مختصر الوقائع) لصدر الشريعة، و(العقائد العضدية) للداوني و(الفصل في الملل والنحل) لابن حزم، و(البدائع) للكاساني، والمبسوط للسرخسي، و(شرح العقائد) للتفتازاني، وهي كتبٌ يختلط فيها المنطقُ بعلم الكلام، بالفلسفة، بأحكام الفقه، وما يعقلها إلا المتخصّصون! راجع الشاب الناهض هذه الكتب في العربية، وراجع ما سُجّلت أسماؤها في تسع صفحات من مباحث اللغتين الإنجليزية والفرنسية في القانون والسياسة والتاريخ! وهو يعلم تمام العلم أنّه مسؤول عن كلّ مصدر نقل عنه أمام لجنة من كبار الأساتذة، ولكنّ الثقة بالنفس عن همة واجتهاد هي التي اجتازت به مواضع الخطر، ووصل بها إلى شاطئ النجاة، فهي ليست ثقة الحالم المخدوع، ولكنها ثقة العالم المطبوع.

وقراءة مقدمة الرسالة تصوّر للقارئ الدافع السياسي الذي حدا بالمؤلف إلى اختيار موضوعها، فهو يقرّر أنّ العالم الإسلامي يجدُّ نفسه الآن بعد إلغاء تركيا للخلافة دون سند واقٍ من قيادة المظلة العامة لدول الإسلام، وأنّ الشرق الإسلامي في حاجة مُلزمة إلى هذه القيادة، وأنّه لا يدّعي البراءة من كل تحيّز عاطفي في معالجة موضوع؛ يثير من الحماسة العاطفية ما يجعل للمحاذير الناتجة عن البيئة والوسط، والارتباط الغريزي بالتقاليد بعض التأثير على طريقة المعالجة، حتّى من جانب أحرص الباحثين على الموضوعية، يقول المؤلف:

«إنّي أقرّر بأنني منذ حادثة سني لم أستطع أن أقاوم تعلقي الواضح بكل ما يتصل بالشرق، ومع ذلك فقد بذلت جُهدِي في هذه الدراسة لكي يكون عملي علمياً قدر

استطاعتي، لقد التزمتُ الموضوعية وعملت دائماً على ضبط العاطفة حتى لا تطغى على الحقيقة».

هذا ما قاله الباحث المخلص، وقد لزم الحياد العلمي متناً عن اندفاع العاطفة، وهو ما دفع اللجنة الفاحصة إلى تقدير البحث، ومنحه درجة التفوق العلمي دون اعتراض.

- ٢ -

إن الذي يعرف الظرف السياسي الذي كتب فيه السهوري رسالته عن ضرورة الخلافة الإسلامية، أو ما يقرب من حقيقتها ليعجب كيف رسخ يقينُ الباحث أمام عواصف ذات رعد وسيول، فالمسلمون في كلِّ وطن مختلفون لا يستقرُّون على أمر واحد، وقد رُشِّح أناسٌ للخلافة في أوطانٍ ثلاثة، ولكلِّ مرشح من يؤيده ويعارضُ سواه، حتى انتهى الأمر إلى حفظ الموضوع نهائياً دون الخوض فيه، وتركياً تعلن أن نكبتها كانت بسبب الخلافة، وأنصارها الذين دفعوها إلى ذلك في أوروبا يقرُّون هذا الأمر كحقيقة مسلمة، وفي العالم الإسلامي نفسه كُتِّبَ يشيِّعون إلى هذا الرأي، ويكتبون المؤلفات في تأييده، ولهم صحفهم الجهرية، ومناصبهم المرموقة، وأصحابُ العمام ممن يقفون في صفِّ السهوري يؤمنون بالغرض تارة، وبالتأخر الفكري، والجمود الرجعي تارة أخرى، وكأنهم أشباح جيشٍ منهزم يفر في كل اتجاه دون أن يُحدِّد السبيل، إن رسوخَ السهوري في هذه العواصف ذات الأعاصير الكاسحة، يثبتُ أنه فوق زمنه فكرياً، وفوق أهواء الحياة المتطلعة إلى البريق الكاذب لدى أصحاب الحلِّ والعقد، والنهي والأمر، وهم خصومُ الخلافة والشرعية معاً، وذلك مقياسٌ دقيق للرجولة الصلبة، التي تقفُ في وجه التيار المصطخب، لتقول بكل كبرياء: أنا أعلم ما لا تعلمون، وعندي ما لا تفقهون وتدرُّون!

وليس من سبيلٍ إلى تلخيص الرسالة هنا، ولكني أعرضُ التلخيص الدقيق للأهداف المرجوة، كما أوجزه القانوني الضليع الدكتور توفيق الشاوي في مقدمة الترجمة العربية، حيث لخصها في هذه النقاط^(١):

(١) مقدمة كتاب (فقه الخلافة وتطورها للسهوري) بقلم الدكتور توفيق الشاوي (ص ١٢).

١ - إنّ الخلافة معناها إقامة نظام يُحقّق وحدة الأمة الإسلامية في صورة من التنظيم السياسي، يضمن لها المكانة الدولية، التي تتناسب مع رسالتها السامية وتاريخها المجيد، ويضمن سيادة الشريعة والعقيدة الإسلامية، ولذلك فهي ضرورة لا بدّ منها.

٢ - إنّ الظروف الحاضرة يتعدّد فيها إقامة الخلافة الكاملة الصحيحة، فلا بدّ من إقامة خلافة ناقصة بناءً على خطة تمكّنها من أن تستكمل تدريجياً شروط الخلافة الراشدة الكاملة.

٣ - إذا كان تعطيل الشورى وتوقف الاجتهاد نتج عن سيطرة حُكّام مستبدّين، وتخلّف علمي، وجمود اجتماعي؛ فلا بدّ من علاجه، حتى يصبح الحكم شورياً كاملاً راشداً، لكنّ علاج المشاكل الدستورية والعلمية والفقهية لا يستلزم أن تتخلّى شعوبنا عن مبدأ الوحدة الإسلامية، لأنّه يحمي استقلالها ويقوّي شوكتها، وهو اتجاه حتمي يفرضه الإسلام، ويفرضه التطور العالمي نحو التكتلات الإقليمية الكبرى، فهو في صالح تقدّم الإنسانية ومستقبل حضارتها وسعادتها.

٤ - يجبُ في الوقت نفسه بدءُ حركة علمية تجديدية للفقه الإسلامي، وتدوينه وتقنيته في صورة عصرية، وتطبيقه تدريجياً بصفة عملية في جميع الدول الإسلامية، وتنظيم الإجماع، ليكونَ إلى جانب الاجتهاد مصدراً حياً دائماً للفقه، وليكونَ تجمّع المسلمين مبنياً على وحدة العقيدة والشريعة والثقافة والتكامل الاقتصادي والتكافل الاجتماعي.

٥ - إنّ سعي الشعوب العربية والإسلامية للتحرّر والاستقلال على أساس وطني يجب أن يستمرّ بسبب اختلاف ظروف كلّ منها، بشرط ألاّ يتعارض مع تطلّعها إلى التقارب والتعاون والوحدة، لأنّ الاستقلال الوطني لا يمكنُ أن يكونَ الهدفَ النهائي للدول الصغيرة، لكونه لا يُحقّق لها أمنها ولا تقدّمها ولا استقرارها، وإنما يمكن أن يكونَ قاعدةً متينة لبناء وحدةٍ شاملة على أساس التكامل والتقارب والتضامن فيما بينها، لتصبح قوة لها مكانتها في المجتمع الدولي، الذي لا مجال فيه للدول الصغيرة ذات المصالح المحدودة.

٦ - في الميدان السياسي يجب أن تُوجد في كل قطر من أقطارنا، حركاتُ

سياسية، وأحزابٌ عصرية تدعو إلى إقامة منظّمة دولية إسلامية، أو جامعةٍ للدول الشرقية والإسلامية المستقلة لتنظيم التعاون بينها، وتمكينها من مساعدة الشعوب الإسلامية الأخرى في الحصول على حريّتها واستقلالها لتنضمّ إلى هذه الجماعة.

٧ - عندما تنجح الحركة العلمية في تطبيق الفقه الإسلامي، وتنجح الحركات السياسية في إنشاء منظمة دولية سياسية للدول الإسلامية، يمكن أن يختار المسلمون رئيساً للجامعة الإسلامية، على أساس وحدة الأمة والشورى الحرّة، وتطبيق الشريعة، والتكامل بين المبادئ الدينيّة، والنظم المدنيّة.

هذه هي الأهداف التي عناها الدكتور السنهوري كما برّع في تلخيصها الدكتور الشاوي، الذي ألحق الرسالة ببحث مستفيض، يوضّح تحقق كثير من آمال السنهوري، حين أنشئت الجامعة العربية سنة ١٩٤٥، ثم أنشئت منظمة المؤتمر الإسلامي سنة ١٩٧٠، التي أعادت نشر رسالة السنهوري بالنصّ الفرنسي، لتكون أساساً لعملها، والدعوة الصادقة لا بدّ أن تجد صداها المدوّي مهما تراخى الزمن، لأنّ الضمائر الحيّة تندفع إلى تحقيق أشواقها وآمالها متى وجدت أدنى فرصة للتحقيق، فأمواجها الزاخرة تزار وراء السدود الناهضة، ومتى اتّصل هجوم هذا الوجه الكاسح فسَيَنهارُ السدّ لا محالة، وهذا ما نرتجيه!

وحين رجع السنهوري إلى مصر، وتناوبته الوظائف المختلفة، لم ينسَ اهتمامه بفكرة الجامعة الإسلامية، في جوّ مكفهرٍ يحاربُ كل اتجاه إسلامي، وقد رأى الأبواب العالية في ربوع الشرق العربي تتّبع خطوات أوروبا في شتى مدنها ودولها المختلفة مُحبّدةً شتى الاتجاهات المتضاربة في الغرب، فكُتّاب يهتفون للشيوعية، ويكتبون عنها باعتبارها معجزة الإنقاذ، وكُتّابٌ يشيدون بالنازية، وآخرون بالفاشية، وأذئاب إنجلترا يهتفون بالديمقراطية، وكلّ حزب بما لديهم فرحون، وهي اتجاهاتٌ مستوردة زائفة، تبعدُ كل البعد عن طبيعة الحكم الإسلامي، ومهما قيل عن ديمقراطية الإسلام، فهو قولٌ بَرّاق خادع، لأنّ للديمقراطية عُيوباً واضحة، يبرأ منها الاتجاه الإسلامي، ولكنها أقرب هذه النظم نسبياً إلى ما منه الإسلام من حقائق الشورى والإخاء والحرية والمساواة والتكافل الاجتماعي، هذا ما كان في مصر.

وحين سافر الدكتور السنهوري إلى العراق عميداً لكلية الحقوق، رأى في الصحف العراقية والشارع السياسي ببغداد هذا التخبّط المذهبي بين اتجاهات أوروبا

المتناحرة، ورأى طلابه بكلية الحقوق يهيمنون في كلّ وادٍ من هذه الأودية، ذات الإعلام المجوّف، والدعاة المتنفسين، فرأى أن يتحدّث عن هذه الاتجاهات السياسية في محاضراتٍ عامة، أُلقيت في بهو العاصمة الكبرى ابتداء من ٢٣/٣/١٩٣٦ تحت عنوان (النهضات القومية العامة في أوروبا والشرق).

فبدأ بالحديث عن رابطة الدين التي تفكّكت في أوروبا وانحلتّ لأُمور شرحها، ثم عن رابطة الوطن والجنس، محدّداً ما يُراد من مذلول الوطنية على وجهه السياسي المتعارف حينئذ، ومارّاً بحديث الثورات السياسية والصناعية والاجتماعية، مؤكّداً أن الصراع الأوروبي في الوقت الحاضر يدورُ حولَ رابطتي الوطن والجنس، ورابطة الطبقات؛ وهما تتّميان إلى نظامين مختلفين هما: نظامٌ يتبعُ الحكم الدكتاتوري، ونظامٌ يتبعُ الحكم الديمقراطي، وكان لا بدّ من الحديث بعد هذه المقدمة في صميم هذه المذاهب، فبدأً بحديث الاشتراكية، ففضّل أدوارها المختلفة تاريخياً، ونزاعها المستميت مع البورجوازية، وشارحاً مذهب ماركس في ضرورة الاصطدام بالمذاهب الأخرى في الغرب، حيث نادى بتوحيد الكفاح العمّالي في جميع أنحاء العالم، وأشعلها حرباً زُبُوناً بين بني الإنسانية جمعاء، لا تقومُ بين وطن ووطن ولا بين جنس وجنس، بل بين طبقةٍ وطبقة، طبقةِ البورجوازية وطبقة العمال، مُجيزاً لجماعته أن تتخذ من الوسائل المشروعة وغير المشروعة ما تراه محققاً لاتجاهها، وكان الاتجاه الروسيّ مدعاة لظهور اتجاهين آخرين، غير الاتجاه الديمقراطي القائم في فرنسا وإنجلترا وأمريكا، وهما اتجاهُ الفاشية في إيطاليا، واتجاه النازية في ألمانيا، ففي الاتجاه الفاشي لا يأتي أعضاء مجلس النواب والشيوخ بطريق الانتخاب - كما في الدول الديمقراطية - بل يأتون بطريق التعيين، إذ أنّ هؤلاء الأعضاء في مجلس الشيوخ يُعيّنهم الملك بناءً على ترشيح الحكومة، وفي مجلس النواب يعيّنهم المجلس الأعلى، ويُصدّق على التعيين الناخبون بطريق القائمة، والناخب يُصوّت لا كفردٍ سياسي بل كفردٍ اقتصادي، كما أنّ هناك هيئتين جديدتين لا نظير لهما في الدول الديمقراطية هما: المجلس الأعلى، والمجلس الوطني لل نقابات، الفاشية خصمٌ للاشتراكية ولل فردية معاً، لأنها أحدثت نظاماً خاصاً بها.

وأزيد على ما قال السنهوري فأراه نظاماً ينتهي إلى تنفيذ إشارة الحاكم، وعدم مخالفته في شيء، فهو إذن نظام دكتاتوري صريح.

أما النازية فتتفق مع الفاشية في المبادئ ووسائل العمل، ولكنَّ القومية مقدّسة لديها، وهي لا تقومُ على رابطة الوطن، بل على رابطة الجنس، فالجنسُ الجرمانى وحده هو الذي يجب أن يتحد، والنازية كالفاشية لا تؤمنُ بالجامعات الدولية، فهي ترى عصبه الأمم جامعةً خيالية، وهي تُقيم حرباً على البلشفية، لأنها تحاولُ التدخُلُ في شؤون الأمم الأخرى عن طريق ادعائها لقيادة العمّال في العالم، والنازية كالفاشية تجعل الحكم للأقلية الصالحة في رأيها، وليس لها أن تهتمّ برأي الأكثرية، كما أنّ النازية ذاتُ نزعة استعمارية عسكرية كالفاشية تماماً، وهما معاً يقدّسان الزعيم الأوحد؛ هتلر في ألمانيا، وموسوليني في إيطاليا، وللزعيمَين أسلوبهما الدقيق في إخضاع كل السلطات لهما، حتى صارت الفاشية كالنازية، ديناً جديداً معبودة الزعيم القابض على أزمة الحكم.

وبعد أن أفاض السنهوري في حديث هذه الاتجاهات السياسية، التي أغرم بها بعض شباب العرب عن جهل بخفاياها الاستعمارية ونزعتها التسلّطية، أشار إلى أن رابطة الدين التي كانت تسودُ في العصور الوسطى قد زال سُلطانها في العصور الحديثة، وأنّ القوميات في أوروبا عندما تكوّنت أشرفت في التعصّب، وتطرّفت في الاستئثار، وتقهر الجانب الإيجابي من الوطنية، وهو حبّ الإنسان لوطنه؛ أمام الجانب السلبي، وهو بُغضُه للأوطان الأخرى، فكان من ذلك أن هزّت الحروب أركانَ أوروبا، واندلعت نيران التعصّب للوطن. هذا ما قاله السنهوري قبلَ قيام الحرب العالمية الثانية بثلاث سنوات، وقد صدّق التّذير حين قامت هذه الحرب فأثت على الأخضر واليابس، وخرج المنتصرُ والمنهزم منها على حدّ سواء في الكارثة والبلاء!.

إنّ حملة السنهوري على القومية الضيقة، جاءت ملتزمة مع الروح الإسلامية التي قررها في رسالة الخلافة، ومتساوقة مع الدعوة الإنسانية العامة التي قررها الإسلام، فالرجلُ في محاضراته كان ذكياً حين صوّر نواحي الفشل في الدعوات القومية، ليفتح العيون على أفق جديد.

وإذا كان السنهوري يقرّر أصالة الفقه الإسلامي، ويراهُ الأساسَ الصحيح لقيام المجتمع الإسلامي في ظلّ الخلافة الإسلامية، فقد كان مشغول البال طيلة حياته بجمع التراث الفقهي في فُصولٍ وكتبٍ تُناسبُ التأليف المعاصر، وحين عُيّن رئيساً

للجنة الثقافية بالجامعة العربية سنة ١٩٤٥م، قدّم مذكرةً للأمانة العامة للجامعة يقترحُ فيها إنشاءً معهد للفقهِ الإسلامي تنفيذاً للرغبة التي أبدّاها مؤتمرُ الجمعية المصرية للقانون الدولي.

وقد صدرت المذكرة^(١) بمقدمة عن الغاية من إنشاء هذا المعهد، فأشارت إلى مكانة الفقه الإسلامي بين النظم القانونية العالمية، وأنّه لا يقلّ في قوة السبك، وحُسن الصياغة، وسموّ المنطق، ودقّة التحليل عن الفقه الروماني أو القانون الإنجليزي، وهو فوق ذلك التراث القانوني للشرق العربي، ثم أشارت المذكرة إلى إقفال باب الاجتهاد قائلةً: إنّهُ كان على الفقه أن يَسْتكمل خطّه من الاستقرار بعد أن استوفى نصيبه من التطوّر، ولكنّ هذه الحال لم تَبَقْ إلّا إلى حين، إذ لم يلبث الزمَنُ أن دارَ دورته، وتابّع السّير إلى الأمام، هذا والفقه الإسلامي واقفٌ، والعالمُ يمشي، ثم انفرجت مسافةُ الخلف بين الفقه والحاجات المتجدّدة، حتى أصبحَ من العسير على الأمم العربيّة في العصر الحاضر أن تَسْتبقي الفقه مادّةً تستقي منها قوانينها الحديثة، وقد أخذت هذه الأمم تهجرُ الفقه الإسلامي فعلاً، ولجأت إلى القوانين الغربيّة المتطوّرة، التي تُماشي مدنيّة العصر، ومن هنا نشأت أزمة الفقه الإسلامي منذ أول القرن التاسع عشر، وهي أزمةٌ تحتاج إلى علاج طويل، حتى يعود إلى الفقه الإسلامي مجدهُ الأول، بشرط أن نبدأ من الآن في إيجاد بيئة تُعاد فيها دراسةُ هذا الفقه الجليل، وتتحقّق هذه البيئة بإنشاء معهد للفقهِ الإسلامي عن اقتراحات خمسة هي:

(١) إنشاء معهد تدريس يمنح الشهادات والدبلومات الجامعيّة، يلتحقُ به الحاصلون على ليسانس الحقوق من إحدى الجامعات العربيّة.

(٢) إنشاء معهدٍ لتكوين الباحثين في الفقه الإسلامي على الأسلوب العلمي الحديث، ويكون بتخصيص جوائز دراسية للناغبين من الطلبة المتخرّجين في المعهد الأول.

(٣) إنشاء معهدٍ للبحوث الفقهيّة العالية، يضع فيه الأساتذة مؤلّفات حديثة ويرتّبون الكتب القديمة ترتيباً علمياً.

(١) مجلة الرسالة، العدد، ٦٧٨، ١/٧/١٩٤٦م.

٤) إنشاء معهد يضم مكتبة جامعة في الفقه الإسلامي، تشمل على المؤلفات الفقهية القديمة والحديثة.

٥) إنشاء معهد لنشر المخطوطات من كتب الفقه الإسلامي التي لم تُنشر لليوم. وقد وافق مجلس الجامعة على إنشاء معهد للدراسات العربية يشمل دراسة الشريعة الإسلامية، وعيّن السنهاوري رئيساً لقسم القانون بالمعهد، وظلّ رئيساً له حتى أواخر سنة ١٩٥٩، وقد قام بإلقاء محاضرات في الفقه الإسلامي، نُشرت في كتابه (مصادر الحق في الفقه الإسلامي) في ستة أجزاء وقد طبعه المعهد ثلاث طبعات.

وقد منع من إنشاء المعهد مستقلاً خاصاً بالفقه الإسلامي - كما أراد السنهاوري - تشعّب الآراء المختلفة، وقيام المعارضة الداعية إلى إلحاق المعهد بكلية الشريعة الإسلامية بالأزهر، أو بكلية الحقوق بجامعة القاهرة، وكم تؤدّي الخلافات المعهدية إلى ضياع خير كثير.

ولا يكتب كاتب عن عبد الرزاق السنهاوري رئيس مجلس الدولة بمصر، وهو أكبر هيئة قضائية في البلاد، دون أن يهمل تعرّضه للاغتيال القاتل، لأنّه عارض دكتاتورية جمال عبد الناصر، وطالب بالديمقراطية، ورجوع الجيش إلى ثكناته الحربية، فقد ذكر اللواء طيّار (عبد الحميد دغدي) بجريدة الأخبار (١٩٧٥/٨/٣١) قصّة هذه المأساة، إذ حضر من يُدعى (مصطفى خير) إلى مركز القوات الجوية، وطلب خمسة براميل من البنزين لإشعال النّار في مجلس الدولة، لأنّ رئيسه يجتمع بالإنجليز!! وهي فرية كاذبة، وقد صدّق له بعض الضباط على الطلب، ولكن قائد الجناح المختصّ (عز الدين رمزي) رفض الأمر، وعدّه خيانة، وفي اليوم التالي حصل الاعتداء على رئيس مجلس الدولة بالضرب المبرّح، والسبّ المهين، بعد أن مُنع البنزين بأمر قائد الجناح!! هذا ما ذكره اللواء طيّار (عبد الحميد الدغدي) وزاد عليه الأستاذ فؤاد نصحي، إذ كتّب مقالاً تحت عنوان (دافع عن الديمقراطية، فضربوه) بجريدة الشعب قال فيه: رأيتُ قوّات البوليس الحربي يرتدون الجلابيب والملابس المدنية، ويهاجمون بقيادة بعض الضباط مقرّ مجلس الدولة بالجيزة، ويعتدون بالضرب على رئيسه، مُحاولين الإيهام بأنّها مظاهرة شعبية، تحتجّ على موقف السنهاوري في أزمة مارس سنة ١٩٥٤م، حين وقف

مُدافعاً عن الشعب وطالبَ بعودة الجيش إلى الثكنات، وتسليم الحكم للمدنيين، فأرسلتْ له قيادةُ البوليس الحربي لتأديبه ولطرده من مجلس الدولة، ولا تعقيبَ على هذا الحادث الشنيع بغير قول المتنبي :

وكم ذا بمصر من المضحكات ولكنّه ضحك كالبكاء

وبعد سبعة عشر عاماً من هذا الحدث الرهيب، انتقل السنهوري إلى جوار ربه (١٩٧١/٧/٢١) مبكياً عليه من كل وطني عرف رجولته، وقدر كفاحه، ورَجاءَ له حسن المثوبة والجزاء.

* * *

الدكتور عبد الرحمن تاج في بحوثه العلمية

- ١ -

لم أ حظ بمصاحبة الإمام الأكبر عبد الرحمن تاج ولا مجالسته، ولكن الذين نعموا بمسامراته العلمية، يؤكدون أنه عند تطارح الآراء في مسألة علمية، يظل مصغياً يستمع إلى كل ما يدور، حتى ليظن المتناقشون أنه لا يبدي اهتمام المتبّع اليقظ، حتى إذا أتم كل متحدث كلامه، أخذ الرجل الدقيق يُبدي رأيه في سعة فسيحة، ويرد في هدوء على ما لم يرتح إليه من الرأي، فيُعطي - بلهجته الهادئة وأسلوبه الرزين - انطباعاً موضوعياً، تُنسَى به الأشخاص، وتبقى القضايا، ولديه بديهة نادرة في الاستشهاد بمطآن منسية لم يلتفت إليها أحد، لذلك لم أعجب من قول الدكتور محمد مهدي علام عنه: «كَانَ أَخْفَتَنَا صَوْتًا، وَأَعْلَانَا حُجَّةً»^(١). وخفوت الصوت مع ارتفاع الحجة ميزة نفسية لا تُتاح إلا في النادر العزيز، لأن صاحب الحجة العالية - عادةً - لا يضبر عن الجهر بها في سطوع يجذب الأنظار، لأن تحمسه لما يعلم يُقلقه عن الهدوء، فيصول في ساحة الجدل، وكأنه في حومة قتال، أما هذا الهاديء الساكنُ الوديع الذي يعلم ما يجهل سواه، ثم يصبر على النقاش المضطرب حتى ينقطع مداه، وإذ ذاك يأتي بالمنطق الفضل في غير صلف أو مباهاة؛ فيذكرنا بهذا المغوار العربي الباسل، التي قالت عنه ليلي الأخيلية مُكبرةً مادحةً:

ومُخَرِّقٍ عَنْهُ الْقَمِيصُ تَخَالَهُ بَيْنَ الْبُيُوتِ مِنَ الْحَيَاءِ سَقِيمَا
حَتَّى إِذَا رُفِعَ اللَّوَاءُ رَأَيْتَهُ تَحْتَ اللَّوَاءِ عَلَى الْخَمِيسِ زَعِيمَا

(١) الشيخ عبد الرحمن تاج وبحوث لغوية وقرآنية (مقدمة الكتاب ص ٨) للأستاذ أبي بكر عبد الرزاق.

هذا الخلق الهادي الوديع يتحوّل إلى شموخ قاهر مغتّز حين يُفاجأ الشيخ بمتعاضم منتفخ، يحاول أن ينتقص من قدر زملائه، فقد تلقى الشيخ الأكبر دعوة من رئيس جمهورية أندونيسيا للمشاركة في احتفالات الاستقلال بها، كما تلقت قيادة ثورة ٢٣ يوليو دعوة مماثلة، فذهب وفدان يرأس أحدهما شيخ الأزهر، ويرأس الثاني جمال سالم، وأقْلَتُهُمَا الطائِرةُ معاً، ولكن الاستقبال الحارّ لوفد الأزهر قد طَغى على كلّ استقبال في كلّ مطارٍ نزل به الوفدان، حيثُ أقيمت السراقاتُ الزاهية، وقُدِّمت عُقُودُ الزهور الباسمة، وتقاطرَ علماء الإسلام، وطلّابُ المعاهد الإسلامية لتحية البعثة الأزهرية، وأُلقيت كلمات الترحيب، وأُعِدَّت السيَّارات للنزّهة، وشارك الشعبُ في كراتشي وجاكرتا في الترحيب البالغ على نحو رائع.

ولو كان جمال سالم ذا نظير صائب لَسُرَّ بالاحتفاء بشيوخ الأزهر، وهُمُ مواطنوه، ولكنه ما كاد يُقابلُ الشيخ بعد استقبال جاكرتا، حتّى صاحَ في غضب: مَنْ رئيسُ الوفد؟ أنا أم أنت، فقال الشيخُ في تحدٍّ واضح: كلُّ مُتّا رئيسٍ فيما جاء له! فقال جمال سالم: لا بدّ من عودة هؤلاء الفقهاء سريعاً إلى مصر، ويكتفى بك! فقال الشيخُ في إصرار، سأعودُ معهم فوراً لو طلبتَ ذلك! فانسحبَ جمال متضيقاً، فقد تأكّد أنّه لن يخطئ بأيّ استقبال إذا ذهب الشيخُ مع رفقائه، ولَزِم الاعتزال الصامت! أمّا الذين كان يودُّ الخلاصَ منهم، فهمُ الذين ألقوا كلمات العزّة الإسلامية، وأكدوا أواصر الأخوة الدينية فيما أبدعوا من معان فوطعت بالتكبير والتهليل؛ همُ الأساتذة صادق عرجون شيخ المعهد الإسكندري، ومحمد سليمان البحيري، الأستاذ بكلية اللغة العربية، وأحمد القطّ مفتش الوعظ، ويوسف الهمداني رئيس قسم البحوث! وكلُّهم قد قامَ بواجبه الإسلاميّ مُحاضراً وخطيباً ومُفتياً، وحينَ انتهت الزيارة ورجع الشيخُ إلى مصر عقَدَ مؤتمراً صحفياً تحدّث فيه عن مكانة الأزهر في بلاد الإسلام، وأشار إلى روعة الاستقبالات التي حظيت بها البعثة الأزهرية، وكان فيما قاله:

«كلّفتني أهلُ أندونيسيا أن أبلِّغَ عنهم أهلَ مِصرَ تحياتٍ طيبةٍ عطرة، وتمنياتٍ خيرٍ خالصة، وضراعةً إلى الله أن يديم الألفة والمحبة والتعاون بين الأمتين العظيمتين، وإنَّ ما لقيناهُ في رحلتنا هذه، ليزكّرنا بروح الإسلام الفتية، في نشأته القويّة، ويدلّنا على تمكّن المبادئ النبيلة في هذه النفوس الطيبة».

وقد مضت الأيام فأكلت الثورۃ بعضۃها، وعاش جمال سالم حتّى وجد نفسه منبوذاً بالعراء! .

هذا الشموخُ الرَفِيعُ في وجهِ المتكبّر المتنفخ، يُقابَلُ بتواضع حَبِيب في وجه الساذج الضعيف، فقد كان الشيخ عميداً لمعهد الزقازيق الديني، وذَهَبَ الطَّالِبُ لاستقبالِ الملك فاروق حين مرَّ بقطاره الخاصِّ إلى القصاصين، في موكب مشهود، وتسرّع طالب أزهر ي يحملُ العَلَمَ بُهتافٍ لم يُصادِفْ موقعه، وأحدث بعضَ الحرج، وتقدّم المسؤولون بالمعهد إلى الشيخ كي يُحاسب الطالب، فأحضره وناقشهُ مناقشَةً عَرَفَ منها أَنَّهُ سليمُ النية، ساذجُ التفكير، ولم يَكُنْ ذليلاً لأحد، فنظَر إليه في عَطَف، وسأله مُلاطفاً: أصليتَ الظهر يا بُني؟ فقال: لا، قال: اذهب فتوضأ وصل! وحارَ المجتمعون في صنيع الشيخ، فقال لهم: الأعمال بالنيات، والطالب لم يُرِدْ سوءاً بما فعل !! وقد مرَّ الحادث بسلام، فلا بأس!

نشأ الشيخ بالأزهر طالباً بمعهد الإسكندرية، وزاول التعلم في جدّ بحيث كان الأول في صفوف الدراسة، حتى نال شهادة العالمية سنة ١٩٢٣، وعيّن مدرساً بالمعاهد ثم بقسم التخصص بكلية الشريعة، وسافر إلى فرنسا لينال درجة الدكتوراه في الفلسفة وتاريخ الأديان، ثم عاد ليزاول التدريس بالكليات العالية بالأزهر، وجامعة عين شمس، وتوجّ ذلك كله بمشيخة الأزهر الشريف! ولم أذكر هذا التاريخ الموجز إلّا لأدَلّ على أن الشيخ قد درس بالأزهر حين كانت العلوم الشرعية والعلوم اللسانية تدرس فيه للطلاب على مستوى واحد، قبل أن تظهر الكليات بتخصصها المحدود، فأفاده ذلك إفادةً راسخة فيما زاوله من التأليف، لأن بحوثه الفقهية في الكتب الجامعية قد انتفعت في التدليل والترجيح بمسائل اللغة والنحو والبلاغة، وبحوثه اللغوية في مجمع اللغة العربية - وهي ذات خصوبة ثمرة - قد استندت إلى ركيزته الضخمة في علوم الفقه والتفسير والحديث!

ونحن في زمننا الراهن نأسف حين نجد القنوات العلمية غير متصلة بين متخرجي الكليات اليوم، إذ أنّ طالب كلية اللغة مثلاً لا يكاد يعي شيئاً إجمالياً ممّا يدرس في كلية أخرى، والعكسُ صحيح! بل أريد أن أقول إن الأمر قد ازداد غرابةً حين نجد من يتخصص في شعبة النحو لا يتجه إلى شؤون البلاغة بجدّ، ومن يدرس العقيدة لا يمعن النظر في دروس التفسير والحديث!! ولعلّ مراجعة النظر في هذه المعاضل

تفيء بنا إلى تعديل المناهج الدراسية في الكليات، بحيث تكون بينها دوائر اتصال تمنع التقاطع! وأنا أقدم أستاذنا الكبير الدكتور عبد الرحمن تاج مثلاً لما أريده من شمول الثقافة الإسلامية، وأدعو القارئ لمراجعة بحوثه المستفيضة عن حروف الزيادة في القرآن، ليعلم تمام العلم كيف تتناصر العلوم المختلفة من فقهية ولسانية في تأصيل مقررات علمية ذات دسامه وبيان.

أصدر الدكتور تاج مؤلفات شتى في الفقه المقارن والأحوال الشخصية، وتاريخ التشريع الإسلامي، وحكم الربا في الشريعة الإسلامية، وشركات التأمين من وجهة النظر الإسلامية، والثلاثة الأخيرة لم تطبع، ولكنها أُلقيت على الطلاب في الجامعة، وأعيد بعضها في محاضرات عامة ولعل المؤلف كان ينتظر فسحة للتأمل فيها وإلحاقها بما يعتقده متمماً لها، وإلا فكيف يتركها دون أن يطبعها، ومن سمعوا أكثرها كالأستاذ علي الخفيف أشادوا بها إشادة منصفة، هذا إذا لم يكن التواضع العلمي قد دعاه إلى تجاهلها، فالرجل الكبير كان قمة في هذا الباب، حيث لم يلحق اسمه في أي مقال كتبه بلقب الدكتور، مع أنه نال هذا اللقب من أرقى الجامعات الأوروبية، لأن الجوهر عنده أغلى قيمة من العرض، وكم من أناس ذيلوا أسماءهم بشتى الألقاب، فإذا قرأت ما كتبوا كان اللقب مدعاة عجب لا إعجاب!

وأبرغ ما سمق فيه الإمام الأكبر مناقشاته العلمية الهادئة لما يعارضه من آراء تُنشر في الصحف أو المجلات، فقد كان يحرص على تصحيح أخطاء كثيرة يراها مصدر خطر لصدورها من بعض النابهين، ولتقديمها في الصحف اليومية في هالة من الإكبار، تُوحى بصدق أحكامها، ومن ذلك ما كتبه ردّاً على الدكتور محمد صلاح الدين، وزير الخارجية السابق، حيث نشر مقالاً بجريدة (المصري) سنة ١٩٤٩، يعترض فيه على ما يُسمّى بمشروع ضريبة الزكاة، ذاهباً إلى أن مصر تجري في حكمة واعتدال، على فصل الدين عن أمور السياسة وخلافات الحكم، وأن الحركة الوطنية أورثتنا مبدأ جليلاً يقضي بأن «الدين لله والوطن للجميع» وما دام المشروع مستمداً حكمته وأحكامه من الدين الإسلامي فلا بد من الاصطدام بالعقبة، والوقوع في المشكلة وهي علاقة الدين بالسياسة وبالدولة.

هذه الآراء العلمانية يُرددها أصحابها، ولا يكلفون أنفسهم بقراءة الردود الماحقة لأراجيفها، وقد دحضها الدكتور تاج، وبفضل مُسهب، نُشره بمجلة

الأزهر^(١)، أكدّ فيه أنّ دينَ الدولة المصرية هو الإسلام، وأنّ دستور الأمة قد قرّر ذلك دون لبس؛ وأنّ الذي يعرفه الناسُ في مصر، ولا يخفى على أحدٍ من أهل العلم أنّ قانون المحاكم الوطنية الجديد، قد استمدّ في كثيرٍ من مواده من أحكام الشريعة الإسلامية، وأنّ أصحابَ مشروعه - مشروع الزكاة - قد اقتنعوا بكمال الحكمة والاعتدال، فيما اقتبسوه من هذه الأحكام، ولو كانوا من أهل الاختصاص في دراسة الشريعة الإسلامية لعثروا على ما يُريدون وأكثر مما يريدون!.

ثم قال الأستاذ تاج بعد إفاضة شافية مستوفاة: «وإذا كان قانون ضريبة الزكاة صالحاً نافعاً، فماذا يضيرُ الوطن أن تكونَ أحكامه مستقاةً من تعاليم الإسلام؟ وهل يليقُ بإنسانٍ أن يبلغ به التعصّب مبلغاً يُنفّره من قانونٍ تُستقى أحكامه من شريعة هذا الدين، ولو كان قانوناً صالحاً نافعاً للأمة؟!». وكنت أود أن ينشر الرد بجريدة المصري نفسها، ولعل الأستاذ رأى أنها لا تسمح بنشر المقال في عرضه المسهب دون حذف، فأثر أن ينشره كاملاً في مجلة متخصصة وحسناً فعل.

أقولُ ذلك استناداً إلى موقفٍ أعلمه، فقد كان من دأب جريدة الأهرام أن تبدأ أحاديث الصيام السنوية في شهر رمضان المبارك بكلمة للإمام الأكبر شيخ الجامع الأزهر، وقد طلبت من الشيخ عبد الرحمن تاج كلمة مناسبة تبدأ بها كلمات الموسم، فاعتذر بأنه كتب فضلاً مُسهباً عن الصيام ستشره مجلة الأزهر في حيزه الممتد، وحين رجعتُ إلى ما كتبه الإمام، بعدد رمضان سنة ١٣٧٦هـ، قرأت بحثاً مُسهباً ذا فروع كثيرة، يحتلّ تسع عشرة صفحة كاملة! وقد بدأه بالنصوص القرآنية والنبوية شارحاً ما غمض منها، وثنى بتوضيح مزايا الصوم ديناً ودنياً، مُفيضاً في تحليل الآثار النفسية لهذه الشعيرة الكريمة في تربية الفضائل وإماتة الرذائل، وإحياء اليقظة الواعية للضمير المحاسب، وأتبع ذلك بحديث جيّد عن التدرّج في شريعة الصيام، حيث بدأت بصوم عاشوراء قبل أن يفرض رمضان، أما حكمة تخصيص رمضان بشعيرة الصيام؛ فقد تعرض لها الكاتب بما يقنع، منتقلاً إلى المسائل الفقهية المتعلقة بالصوم.

وكان من الطريف أن يُنقل عن لجنة الفتوى بالأزهر - وهو أحدُ أعضائها البارزين - ما رآته من العُذر المبيح للإفطار لطلبة كلية الطيران إذ يبدؤون تدريباتهم

(١) مجلة الأزهر (رجب سنة ١٣٦٨، ص ٥٢٤).

اليومية ابتداءً من الساعة الخامسة والنصف صباحاً، ويستمرّون حتى الساعة العاشرة، ثم يتلقّون بعد ذلك محاضراتهم في العلوم النظرية ابتداءً من الساعة الحادية عشرة، وتتوالى المحاضرات إلى الساعة الرابعة، وإذا كانت النظم الطبية المتّبعة في السلاح الجوي تحتّم أن يأكل الطّالب قبل أن يتمرّن بأمدٍ مناسب، فإن الصوم حينئذٍ يُصبح عائقاً لعمل ضروري، فيجوزُ للطّلبة الإفطار مع القضاء حين ينقضي التمرين. . هكذا قالت الفتوى! ثم تابع الباحث حديثه تحت عنوان جديد هو (أشياء قد يخفى حكمها على بعض الناس، وهي غير مفسدة للصوم) وكذلك تطرّق إلى إثبات رمضان وذي الحجة عن طريق الهلال، فأشبع القارئ في هذه الناحية إشباعاً لا مزيد عليه! ^(١) وأنا أشيرُ إلى هذا البحث، لأضرب مثلاً لاهتمام الشيخ الأكبر بالمناسبات الدينية طيلة توليته مشيخة الأزهر، إذ كان يتحدّث في أعداد مجلة الأزهر المتوالية عن مثل الإسراء أو ليلة القدر، أو الهجرة، أو ثبوت الهلال، أو الحج أو الصوم، أو الزكاة حديثاً دقيقاً مستوعباً، وكأنه أعدّ ليكون دراسةً مستقلة، وإذا كانت بحوثه في مجلة المجمع قد جُمعت في كتاب خاص، فأنا أدعو إلى أن تُجمع بحوث مجلة الأزهر في كتاب تالٍ، لأنّ الحاجة إلى هذه الدراسات تتجدّد بتجدّد مناسباتها، وهي مجموعة أيسرُ منها متفرقة! .

أعودُ إلى حديث القوة الصّلبة في شخصية هذا الإنسان الهادي الرزين، فقد كابدَ من الأحداث ما جعله يقفُ موقف الحزم أمام اتّجاه عام تؤيّدُه الدولة، ويحتشدُ له جمعٌ من المتحدّثين، يزعمون لأنفسهم درايةً تامّةً بالتاريخ ومعرفةً قويّةً بالتيارات المعاصرة، وهم في قرارة أنفسهم يُسايرون اتّجهاً خاصاً، ويرون في مسيرته ما يدفعُ بهم إلى البروز الاجتماعي والسياسي في مجتمع الحزب الواحد، والرأي الوحيد! لقد نشأت بدعةُ القومية العربية، لا لتكون نابتةً في حضن الإسلام ورعايته، بل لتكون القومية البعثية التي لا ترى للدين أثراً في نهضة الأمة العربية، ووحدة الصف العربي، وانتشرت المؤلفات التي تبتعدُ بالدين عن مسرح العربية، وتعدّه عاملَ ضعفٍ للأمة، لا عاملَ نهضة، وفي ما يُسمّى بمؤتمر قادة التّعبئة القومية، قام من يقول ^(٢):

(١) مجلة الأزهر، رمضان سنة ١٣٦٧هـ.

(٢) مؤتمر قادة التّعبئة القومية، ص ٩٥.

«إِنَّ الدِّينَ كَالْجَنْسِ لَا يُعَدُّ مَقُومًا مِنْ مَقُومَاتِ الْأُمَّةِ، لِأَنَّ الدِّينَ شَيْءٌ بَيْنَ الْعَبْدِ وَرَبِّهِ، وَلَيْسَ هُنَاكَ عَلَى وَجْهِ الْبَسِيطَةِ دَوْلَةٌ يَنْتَمِي سَكَّانُهَا إِلَى دِينٍ وَاحِدٍ إِلَّا الْمَمْلَكَةُ السُّعُودِيَّةُ، وَإِسْرَائِيلُ فِيهَا عَرَبٌ وَمُسْلِمُونَ وَمَسِيحِيُّونَ»، وَمَنْ يَقُولُ^(١): «الْقَوْمِيَّةُ الْعَرَبِيَّةُ تَقُومُ عَلَى الْعَرَبِيَّةِ أَوَّلًا، وَلَيْسَتْ عَلَى الدِّينِ أَوْ عَلَى أَيِّ دِينٍ عَلَى الْإِطْلَاقِ، وَقَدْ تَنَبَّاهُ الْعَرَبُ إِلَى هَذَا، مِنْذُ زَمَنِ حَتَّى إِنَّهُمْ رَفَضُوا حَرَكَةَ الْجَامِعَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ الَّتِي نَادَى بِهَا السُّلْطَانُ عَبْدُ الْحَمِيدِ، وَالَّذِينَ تَوَلَّوْا الْحُرُوبَ الصَّلِيبِيَّةَ هُمْ تَجَارُ جَنُوةٌ وَالْبَنْدَقِيَّةُ، الَّذِينَ كَانُوا يَرِيدُونَ أَنْ يُسَيِّطَرُوا عَلَى طَرِيقِ التِّجَارَةِ بَيْنَ الشَّرْقِ وَالغَرْبِ، وَلَوْلَاهُمْ لَمَا قَامَتِ الْحُرُوبُ الصَّلِيبِيَّةُ!». هَذَا الْاِفْتِيَاثُ الصَّارِخُ عَلَى الْحَقَائِقِ الَّتِي يَنْكَرُ وَضُوحُ الشَّمْسِ فِي رَائِعَةِ النَّهَارِ، حِينَ يَزْعُمُ أَنَّ إِسْرَائِيلَ لَيْسَتْ دَوْلَةً دِينِيَّةً، وَحِينَ يَزْعُمُ أَنَّ الْحُرُوبَ الصَّلِيبِيَّةَ تَدْبِيرُ تَجَارٍ وَسِمَاسَرَةٍ، وَلَمْ يَدْعُ لَهَا الْبَابَا «أُورِيَان» وَبَطْرُسُ النَّاسِكِ، مِمَّا يَعْرِفُهُ تَلَامِيذُ الْمَرْحَلَةِ الْاِبْتِدَائِيَّةِ. هَذَا الْاِفْتِيَاثُ قَدْ دَفَعَ الدُّكْتُورَ عَبْدَ الرَّحْمَنِ تَاجَ إِلَى أَنْ يَقُولَ^(٢) فِي حَدِيثٍ عَامٍ مَجَابَهًا هَذَا الْهَرَاءَ الْبَغِيضَ:

«إِنَّ الْقَوْمِيَّةَ الْعَرَبِيَّةَ صَلَةٌ كَصَلَةِ النَّسَبِ وَالْقَرَابَةِ الَّتِي تَجْمَعُ بَيْنَ الْإِخْوَةِ وَأَبْنَاءِ الْعُمُومَةِ، وَهُنَاكَ بَعْدَ هَذَا صَلَةٌ رُوحِيَّةٌ تَحْكُمُ هَذِهِ الصَّلَةَ، وَتَهَيِّمُنُ عَلَيْهَا، وَهِيَ رِبَاطُ الْإِسْلَامِ الرُّوحِيِّ الَّتِي يُعْتَبَرُ أَقْوَى مِنْ صَلَةِ الْقَوْمِيَّةِ، لِأَنَّهُ مِنْهَا بِمَنْزِلَةِ الرُّوحِ مِنَ الْجَسَدِ، وَالرُّوحُ هِيَ الَّتِي تَسِيرُ الْجَسَدَ وَتَسَيِّرُهُ عَلَيْهِ، وَهُوَ أَيْضًا أَوْسَعُ وَأَشْمَلُ مِنْ رَابِطَةِ الْقَوْمِيَّةِ الْعَرَبِيَّةِ الَّتِي تَقْتَصِرُ عَلَى الْبِلَادِ الْعَرَبِيَّةِ، لِأَنَّهُ يَدْخُلُ فِيهِ كُلُّ مَنْ يَنْتَمِي إِلَى الْإِسْلَامِ، وَأَهْمُ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ هَذَا الرِّبَاطَ الرُّوحِيَّ أَقْوَى مِنْ صَلَةِ الْقَوْمِيَّةِ، أَنَّهُ إِذَا خَرَجْتَ جَمَاعَةً أَوْ دَوْلَةً مِنَ الْعَرَبِ عَلَى مَا يَقْتَضِيهِ الرِّبَاطُ الرُّوحِيُّ، فَإِنَّ الصَّلَةَ الْآخَرَى (صَلَةِ الْقَوْمِيَّةِ) لَا يَكُونُ لَهَا أَثَرٌ أَوْ اِعْتِبَارٌ حِينَئِذٍ فِي مَوْقِفِ بَاقِي الشُّعُوبِ الْعَرَبِيَّةِ تَجَاهَهَا، وَالْإِسْلَامُ دِينُ التَّسَامُحِ، وَلَا يُعْتَبَرُ مَجَرَّدُ الْاِخْتِلَافِ فِي الدِّينِ سَبَبًا لِلتَّنَازُعِ وَإِثَارَةِ الشُّحْنَاءِ، وَهُوَ يَحَرِّمُ عَلَى الْأُمَّةِ الْإِسْلَامِيَّةِ أَنْ تَبْدَأَ بِشَنْ حَرْبٍ عَدَوَانِيَّةٍ عَلَى غَيْرِهَا، وَيَقُولُ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَقْعَدُوا إِلَٰهَكُمْ إِلَّاهُ لَا يُحِبُّ الْمُعَصِّدِينَ﴾.

ومثل هذا الكلام يصدم دعاة القومية، ولكنه زئيرٌ غاضبٌ في وجوه الانتهازيين،

(١) مؤتمر قادة التبعية القومية، ص ١٣١.

(٢) مجلة الأزهر، جمادى الآخرة، سنة ١٣٧٦هـ، ص ٥٩٨.

وفي هذه الفترة دعا الدّاعون إلى ما يسمّى بالخطوة الثانية، التي تنادي بتوحيد التعليم في المرحلتين الأولى والثانية توحيداً كاملاً، تُصبح به المعاهد الدينية مدارسَ حكومية تتبع المنهج العام، فأعلن الشيخ تاج^(١) معارضته المستنكرة، لا بالهتاف الصاخب، بل بالمنطق الصارم، فأظهر أنّ دروس التعليم العام لا تُهيء الطالب إلى استكمال التعليم العالي الأزهري على الوجه المنشود، وأنّ الدراسات العالية بكليات الأزهر تعتبر دراسات تخصص، لا بدّ أن يسبقها دراسات عربية ودينية واسعة، ينتقل فيها الطالب من سنة إلى سنة ومن منهج إلى منهج استعداداً لما ينتظره من دراسات أخرى ذات عمق وشمول! وما قال الرجل غير البدهي الملموس لذي النظر المحايد، ولكن الغرض الأعمى يطمس العقول . .

- ٢ -

قرأ الدكتور عبد الرحمن تاج كتب التراث قراءة الفاحص المتأمل، لذلك تدورُ بحوثه العلميّة على مناقشة كثيرٍ من آراء السابقين مناقشةً النظير للنظير، وليس ذلك عن ادّعاء مُتطاوِل، بل عن ثقة بما يعلم ويقرّر، ونحن نحبُّ أن يكثُر فينا من يناقشون الآراء المتوارثة عن دراية فاحصة، وعن ثقة بالغة، لها ما يؤكّدها من طول النظر، وسعة الاطلاع واستقلال الفهم، أما الثقة التي لا تعتمدُ على الاطلاع وبعْد النظر فأهونُ بها، إذ لا تُنتج غير الهباء .

وقد لاحظتُ أنّ الدكتور فيما يعالجُ من مسائل الفقه والتفسير يميلُ إلى تأييد ما قرّره الفاقهون من الأسلاف، أمّا في مسائل اللّغة والأدب والنحو فهو ذو صيَالٍ واثب، إذ يُخطئُ الأئمة من أعلام هذه الفنون في قوة لا تعرفُ التراجع! وقد ناقشَ نفرًا من أعلام المعاصرين منهم الأستاذ الإمام محمد عبده، والأستاذ الفقيه عبد الوهاب خلاف، والعلامة المجدد الشيخ محمود شلتوت، ويطولُ البحثُ لو تتبعتُ مناقشته لهؤلاء الكبار، ولكني أكتفي بمثلين مُوجزين لمناقشته للأستاذ الإمام، وإن كنتُ أجدني بعد المراجعة الدقيقة لآراء الشيخ عبد الرحمن أميلُ إلى ما قرّر الأستاذ الإمام، ولا عليه ولا عليّ.

(١) مجلة الأزهر، ربيع الأول سنة ١٣٧٥، ص ٣٠٧.

١ - يقول الإمام محمد عبده في شرح الطير الأبابيل بسورة الفيل^(١)، ببعض التصرف:

«وفي اليوم التالي فشا في جند الجيش داء الجدري والحصبة، قال عكرمة: وهو أول جدري ظهر ببلاد العرب، وقد فعلَ الوباء بأجسامهم ما يندر وقوع مثله، فكان لحمهم يتناثر ويتساقط، فدُعر الجيش وصاحبه، وولّوا هاربين، وقد بينت لنا هذه السورة الكريمة أنّ ذلك الجدريّ أو تلك الحصبة نشأت من حجارةٍ يابسة سقطت على أفراد الجيش بواسطة فِرَقٍ عظيمة من الطير، مما يرسله الله مع الريح، فيجوزُ لك أن تعتقد أنّ هذا الطير من جنس البعوض أو الذباب الذي يحملُ جراثيم بعض الأمراض، وأن تكونَ هذه الحجارة من الطّين المسموم اليابس، الذي تحمله الرياح فيعلّق بأرجل الحيوانات، فإذا اتّصل بجسدٍ دَخَلَ في مسامته، فأثار فيه تلك القُروح التي تنتهي بإفساد الجسم وتَساقطه، وإن كثيراً من هذه الطيور الضعيفة يُعدُّ من أعظم جنود الله في إهلاك مَنْ يريد إهلاكه من البشر، وأنّ هذا الحيوان الصغير الذي يسمّونه الآن بالميكروب لا يخرج عنها، وهو فِرَقٌ وجماعات لا يُحصى عددها إلّا بارئها، ولا يتوقّف ظهورُ أثرِ قدرة الله تعالى في قهر الباغين على أن يكون الطير في ضخامة رؤوس الجبال، فلله جندٌ من كل شيء».

أما الأستاذ عبد الرحمن تاج فيقول^(٢): «لكن هل يمكن أن يُحمل لفظ الطير على البعوض والذباب؟ وأن يكون المراد بحجارة السّجيل ما يعلّق بأرجل ذلك البعوض أو الذباب من المواد المسمومة، التي تشتمل على جراثيم الأمراض الفتّانة، ثم تكون ملامسةً أَرْجُل البعوض أو الذباب لجسم الإنسان هي المراد بالرمي بالحجارة!! لا تظنّ أحداً من أئمة التفسير يُجيز مثل هذه الاحتمالات، لا من طريق الحقيقة ولا من طريق المجاز...». إلى أن قال: «إن حادثة مرض الجدري أو الحصبة وفشوه في الجيش لم تتفق عليه الروايات».

وإذا لم أكن ممن يجوزُ له أن يتصدّر للفصل في خلاف بين إمامين كبيرين، فإنني أتساءلُ فحسب: لماذا لا يُمكن حملُ لفظ الطّير على البعوض أو الذباب؟ ولماذا لا تحملُ هذه الطيور الصغيرةُ تُراباً مسموماً يصل إلى الجسم عن طريق المسام فيأتي

(١) تفسير جزء عم، للأستاذ الإمام، سورة الفيل.

(٢) الشيخ عبد الرحمن تاج وبحوث قرآنية لغوية (ص ٨٠ وما بعدها).

عليه؟ وإذا كان أئمة التفسير من السابقين لم يهتدوا إلى مثل ما اهتدى إليه الإمام، فماذا عليه إذا تحدّث بما فتح الله عليه به، دُونَ أن يُخطيءَ أحداً من سابقيه؟ وأن يقول في مَبْدَأ تفسيره «يجوزُ» بمعنى أنّه لا يجزم بتخطئة تفسير سابق؟! .

عَلَى أن الاحتياط الدقيق في قبول هذا الرأي قد عبّر عنه الأستاذ عباس محمود العقاد حين قال^(١):

«قد تكونُ محاولاتُ التوفيق مأمونةٌ معقولةٌ كقول الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده رحمه الله في تفسير الطير الأبايل بجرائم الأمراض التي تسمى بالميكروبات، فالميكروباتُ موجودةٌ لا شك فيها، والإصابةُ بها محققةٌ كذلك في مُشاهداتٍ مجرّبة لا تقبل الجدل، فإذا قال المفسّر كما قال الأستاذ الإمام: إنّ هزيمة أصحاب الفيل كانت من فعل هذه الجرائم، فذلك قولٌ مأمونٌ على سبيل الجواز وال ترجيح، لا على سبيل الجزم والتوكيد، لأنّ الحفريات التاريخية قد تكشفُ لنا غداً عن حجارةٍ من سجيل، أصيب بها أصحاب الفيل فجعلتهم كعصف مأكول» .

٢ - ذهبَ الأستاذ الإمام في تفسير سورة القدر إلى أنّ هذه الليلة المباركة قد امتازتْ بالسموّ والشرف والرفعة، لأن القرآن قد نزل فيها، ولولا ذلك لكانتْ مثل غيرها من الليالي، وهو في هذا المنحى قد تابع نفرًا من سابقيه، ولكنّ الأستاذ عبد الرحمن تاج ألحّ في إبطال هذا الاتجاه، ليثبت أنّ لهذه الليلة شرفها وقدرها قبل أن يُشرق نور القرآن بها، وأنها لهذا الشرف قد اختيرتْ من بين الليالي، لينزل فيها كتاب الله، فهي معروفةٌ بمكانتها قبل أن تُختار لنزول القرآن؛ هذه ناحية! أما الناحيةُ الأخرى فقد ذهبَ الإمام إلى أنّها سُميت ليلة القدر من التقدير، لأنّ الله قد ابتدأ فيها تقدير دينه، وتحديد الخطّة لنبيه في دعوة الناس إلى ما ينقذهم مما كانوا فيه، ولم يرتضِ الشيخ عبد الرحمن هذا القول وقال في تفنيده: «وغيرُ جدّاً أن يُحمل التقدير على ذلك المعنى الذي لا يخرج عمّا يتعلّق بالوحي والرسالة وتحديد أحكام الشريعة! وكأني بالدكتور قد ظنّ أنّ ما يتعلّق بالوحي والرسالة وتحديد أحكام الشريعة شيءٌ أقلّ مما تتسع له ليلة القدر؟ وهل كانت أعمال رسول الله جميعها خارجة عن نطاق الوحي والرسالة، وتحديد أحكام الشريعة! أيّ شيء أكبر من الوحي والرسالة! وعلى أيّ ركيزة قام الإسلام بغير الوحي؟ لقد كتب الدكتور أربع

(١) مجلة الرسالة، العدد ٧٤٧، ٢٧/١٠/١٩٤٧م.

عشرة صحيفة من مجلة الأزهر^(١)، لَيْسَطُ الرَّأْيِ الْمُخَالَفَ، وما كانت المسألة من الغموض بحيث تستدعي هذا الإسهاب، ولا أنكرُ أنه أَلَمَ إلماماً شافياً بما تَوَجَّهَ لبسطه، ولكن الأمر من الوضوح بحيث لا يستدعي الإطناب.

فإذا تركنا ما ننقده من آراء الشيخ إلى ما نُحِبُّه ونرتضيه، فإننا نجد فنوناً مبتكرة متعدّدة من الآراء الدقيقة والبحوث العميقة، أَحَسَّنَ الأستاذ إبداعها على نحوٍ شافٍ مستوعب، والاستيعاب الشافي من أوضح مزاياه فهو يكتب المقال، وكأنه يشرح درساً للطلاب، إذ يبتدئ غالباً بتحديد مناطه، وتلخيص عناصره، ثم يُوالي الحديث عنها غُنْصَراً غُنْصَراً في قوة استشهاد، وبراعة استدلال، وقد يَشْعُرُ القارئ ببعض التكرار، ولكنه يعذرُ الكاتب في نهجه المدرسي، إذ يحاول أن يُقْنِعَ كُلَّ قارئٍ بما يُبْديه من رأي، فإذا تَوَهَّمْ غموضَ عبارة، أعادَ معناها على وجهٍ أيسر وأوضح، حتّى يتيقَّن من الامتلاء والارتواء، وهذا منحى أعهده في كثير من الدارسين.

كتب الشيخ بحثاً ضافياً عن السجع وتناسب الفواصل، وما يكون من ذلك في القرآن الكريم، وقد ارتضى وجهة من يثبت وجود السجع في القرآن، وأيدها بما بسط من أدلة شافية، وأنا أعجب كيف صارت هذه القضية مع وضوحها السافر مجالاً لتشعب الجدل، وانشقاق الأفكار، إذ أنّ مَنْ يتعرّض لها بالحديث يتبع التسلسل التاريخي لأقوال المخالفين ويردّ عليها، ثم يجيء مَنْ يزيد القول ومَنْ يقوم بالردّ عليه، فتراكُمُ أحمال ثقيلة بعضها فوق بعض، والأمرُ بالنظرة الواعية لا يتحمّل كل هذا العناء! وأنا قد درّستُ هذه القضية في بعض ما كتبت^(٢)، ولكنني أفدتُ الجديد فيما كتبه الشيخ حين تساءل: بماذا تُفسّر موقفَ الذي يُنكر إنكاراً شديداً أن يكون في القرآن سجعٌ أو تناسبٌ فواصل؟ ثم أجاب بأن الانتصار إلى مذهب الأشاعرة هو الذي دَعَا الأعلام من أنصار هذا المذهب مثل «الباقلاني» وسواه إلى التمسك بهذه الأفكار.

قال الأستاذ تاج رحمه الله^(٣): «إنّ في جو مسألة السجع مسألة أخرى هي مسألة

(١) مجلة الأزهر شوال سنة ١٣٣٢.

(٢) البيان القرآني، للدكتور محمد رجب البيومي (ص ١٥١ وما بعدها).

(٣) عبد الرحمن تاج، بحوث لغوية وقرآنية (ص ١١٥) للأستاذ أبي بكر عبد الرزاق.

خلق القرآن، وما جرى فيها من الخلاف القديم، الذي كان شؤماً على فريق من الناس، وفتنة لآخرين، وليس في هذا الذي نقوله شيء من المبالغة، فهذا بعض ما يقولونه في تلك الكلمات «هل يجوز استعمال السجع في القرآن؟ خلاف! والجمهور على المنع، لأن أصله من سجع الطير، فشرف القرآن عن أن يُستعار لشيء منه لفظ أصله مهمل، ولأجل تشريفه من مشاركة غيره من الكلام الحادث في وصفه بذلك، ولأن القرآن من صفاته تعالى فلا يجوز وصفه بصفة لم يرد الإذن بها». يقول الشيخ: «وهذه كلماتهم بنصّها ليست في حاجة إلى شرح وتعليق، غير أننا نقول: إنها لم تسعد بالانتصار والغلبة حتى في أصل موطنها، وهو موضوع خلق القرآن».

هذا ما أضافه الرجل مما لا يعرفه نفر من الدارسين، وقد أصاب مقطع الصواب حين قرّر^(١) «أن سجع القرآن وتناسب فواصله مبرأ من التكلف والعسر، ومبرأ من أن يكون مقصوداً لذاته بحيث يكون الاهتمام به أعظم من الاهتمام بالمعنى، ولذلك لا يُشار إليه في القرآن من طريق إرادة معنى بعيد الاحتمال، أو معنى يكون غيره أقرب منه وأولى بالمقام، ومحال أن تُستخدم في سبيله ألفاظ جوفاء، أو ملتوية لا تستقيم في دلالتها على المعنى المراد».

ومن الفصول الطريفة ذات الصلة الوثيقة بكتاب الله ما نشره الشيخ تحت عنوان (اللؤلؤ والمرجان، ومن أي البحار يستخرجان) تفسيراً لقول الله عز وجل ﴿مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَا يَبْغِيَانِ فَيَأْتِيَهُمَا الْوُجُوهُ وَأَلْوَانٌ فَيَأْتِيَهُمَا الْوُجُوهُ وَأَلْوَانٌ فَيَأْتِيَهُمَا الْوُجُوهُ وَأَلْوَانٌ﴾ [الرحمن: ١٩-٢٣].

ومناط هذا البحث الطريف يدور حول مرجع الضمير في قوله تعالى ﴿مِنْهُمَا﴾ إذ الظاهر الواضح أنه يعود إلى البحرين معاً، وقد اتفق أهل الاختصاص من علماء الطبيعة والأحياء، ومعهم المفسرون على أن المرجان لا يكون إلا في البحر الملح، أما اللؤلؤ فقد قالوا قديماً: إنه لا يُستخرج إلا من الملح أيضاً، فاضطروا إلى تأويل الآية بما يُفيد أن المراد بالخروج منهما هو الخروج من أحدهما، وهو استعمال سائغ في اللغة، وقد قال الشيخ رحمه الله: «إنه تأويل بعيد كما لا يخفى، ولا ينبغي أن تحمل عليه الآية الكريمة، وأبعد منه ما قيل من أن مياه البحار جميعها سواء»

(١) عبد الرحمن تاج، بحوث لغوية وقرآنية (ص ١١٦) للأستاذ أبي بكر عبد الرزاق.

كانت ملحةً أو عذبةً، فهي من ماء السماء وهو ماءٌ عذب، فيمكن أن يكون اللؤلؤُ مُستخرجاً من هذه العذوبة!». وقفى الشيخ بتأويل ثالث لم يَجْزُ قبوله أيضاً.

ثم جهر الشيخُ بالجديد الطريف، حين قال تعقيباً على ما تقدم^(١): «لا يجبُ أن نقفَ عند ما وقف عنده المفسّرون، بل نرجع لأهل الذّكر من ذوي الاختصاص، وقد قرّروا اليوم في صراحةٍ كاشفةٍ أنّ اللؤلؤَ كما يُستخرجُ من الماء المالح في البحار والمحيطات، يستخرجُ أيضاً من الأنهار، إذ تعيشُ قواقعُه في مجاري الأنهار الجبلية في المناطق المعتدلة من نصف الكرة الشمالي، وتشتهرُ بذلك اسكتلندة وويلز وإيرلندة وسكسونيا وبوهيميا ولا بلاند وكندا، وجهات كثيرة في الولايات المتحدة، وأيضاً في جهاتٍ من الصين واليابان، وهكذا يصلُ العلم أخيراً إلى الحقيقة، ويقرّر العلماء في تلك الشؤون الكونية قضايا خلصتُ لهم بالبحث والتنقيب والتحليل والمشاهدة، وهي قضايا قال فيها القرآن كلمته قبل ذلك بقرون». وفي البحث إفاضةً وإشباع لا يُغني عنهما هذا الإيجاز.

أما المجهود الرائع الذي استغرق وقتاً حافلاً من حياته المباركة قبل خمس سنواتٍ من رحيله، فهو ما خصّ به حروف الزيادة، التي أكّد النحاة وقوعها في كتاب الله الكريم، إذ رأى الدكتور أن كثيراً ممّا قيل عن زيادة هذه الحروف موضعُ نظرٍ جادٍ قد يعصف به، إذ توسّع النحاة ومعهم المفسّرون في هذا الباب توسّعاً لا مبرّر له، إذ استهلّوا القول بالزيادة عن النظر في أسرار التركيب الأسلوبيّ للآية! والدكتور لا يمنع أن يردّ في القرآن شيءٌ مما عُهد في اللّغة زيادته للتوكيد أو غيره، ولكنه يمنع أن نستهل القول بالزيادة دون فحص، وقد أكّد أنّه يمتنع القول - في أي آية قرآنية - بأنّ كلمة ما زيدت لمجرد تحقيق التناسب بين الفواصل أو رؤوس الآي، فهذا لغو يتنزّه عنه القول المعتاد لدى البلغاء، فضلاً عن القول المعجّز في كتاب الله، كما أنّ القائلين بالزيادة لا يعنون أنّ نقصها لا يخلّ بتمام المعنى، فهي ليست مهملةً على نية السقوط، بل لا بدّ لها من نكتة بلاغية.

وفي هذا النطاق كتبَ الشيخُ بحثاً دَسمة حول (لا) التي قيل: إنها زائدة، وليست كذلك، وكذلك حول دعوى الزيادة في (ما) و(إذ) و(إذا) والواو والفاء (وثم) وهي بحوثٌ شاقّة مضمّنية، استوّجت مُنازلة الفحول من أعلام النحو واللّغة

(١) الشيخ عبد الرحمن تاج، بحوث قرآنية ولغوية (ص ١٥٢) للأستاذ أبي بكر عبد الرزاق.

والتفسير، كما استلزمَتْ حصرَ الآراء المتضاربة، ومحاولة الترجيح بينها، بل استلزمَتْ مناقشة مفسّرٍ واحد في رأيَيْن متعارضين، ساقهَما سهواً في نصٍّ واحد! ولا نستطيعُ أن نلخص زبدةً لما قيل في كلمة واحدة، لأن تلخيص الحقائق النحوية والبلاغية مما يتعذّر، فليس المجالُ مجالَ إسهابٍ يُوجز ويكتنز، ولكنه مجال علمي شاقٌّ، وضِعَتْ ألفاظه وضِعاً دقيقاً، يخلُّ بها أن يَغيبَ منها حرف واحد، ولكي يقف القارئ على دقائق فصلٍ واحد أكتفي بذكر رؤوس العناصر الخاصة باباب «(لا)» التي قيل: إنها زائدة، وليست كذلك».

حيث بُدئَ البحثُ بمقدمةٍ دقيقةٍ تُفصح عن تحرير المقصود من الزيادة، ويلى ذلك فصولٌ عن «(لا)» التي ذُكرَتْ في الجملة الواحدة مرّتين، مع الفصل بينهما، ومناقشة الزمخشري والفخر الرازي والطبري فيما قالوه، مشفوعةً بترجيح رأيٍ جديد، ثم فصلٌ عن «(لا)» الواقعة مع أن المصدرية بعد فعل (مَنَعَ) ومناقشة الطبري وابن يعش والطبرسي والزمخشري والفخر الرازي على النسق السابق، وقد طال هذا الفصل حتى شملَ بضع صفحات من مجلة مجمع اللغة العربية ذات القطع الكبير، فإذا انتهى الدارس من هذا الفصل قصدَ إلى البحث فيما قيل عن «(لا)» الزائدة للتوكيد» جارياً على سننه في المناقشة والترجيح ومساجلة الأئمة من المفسرين، ثم ينتقل إلى «(لا)» الواقعة بعد أن المصدرية المسبوقه بلام التعليل» فيفيض بالمساجلة كديده، ويختم القول بالقسم الخامس الخاص بما ذُكرت فيه «أداة النفي» (لا) مرتين جاءت ثانيتهما مع ثاني الأمرين في مجال التسوية» وهو أفسحُ الفصول مدًى في تعقُب الآراء، وهذا مثلاً واحداً، لبابٍ واحدٍ، يشمل ما قيل عن «(لا)» الزائدة وحدها.

وقد توالى الأبواب الأخرى عن حروف الزيادة على هذا النسق المشبع المستفيض، وفي مجال التعقيب بمؤتمر المجمع، حظي البحث بالتقدير المنصف، ودعا المتحدثون فضيلة الدكتور تاج إلى مواصلة البحث في حروف الزيادة جميعها على هذا الطراز الشامل المستوعب، وقال الدكتور إبراهيم مذكور^(١): «إن الشيخ قدّم لنا ما يجبُ أن ندرسه على مهل، لأنّ فيه من الاستيعاب والعمق ما يستأهل معاودة النظر إليه، إذ يضيفُ سنداً جديداً إلى مصادر التفسير، ويفتح باباً هاماً فيه».

وبملاحظة آثار الدكتور تاج العلمية نلمسُ أنه لا يكتب غير الجديد، إذ لا بدّ من

(١) البحوث والمحاضرات، للدورة الثالثة والثلاثين، سنة ١٩٦٧، ص ٩٨.

إضافة علمية تشعّ فيما يقول، وقد كان أثناء مشيخته للأزهر يخطبُ في المناسبات الدينية كالهجرة والمولد وما ينحو منحاهما، وتلك المناسبات المتكرّرة في محافلها الخطابية لا تتسعُ لدقائق البحث المبتكر، ولكنّ الرجل كان يضمّن كلماته هذه معاني جديدة وآراء قشبية، مما يصدّر اهتمامه بالقول الجادّ، وأصحابُ هذا الاتجاه لا تكثُر مؤلّفاتُهم العلميّة، لأنّهم يحاسبون أنفسهم على ما يدوّنونه من معارف، فإذا لم يجدوا ما يستحقّ أن يُضاف من المبتكر الطريف، آثروا السكوت دون أن يسودوا صحائف مشتهرة تجمع المعارف المتداولة، وحبذا لو سادت هذه النظرة بين من يتصدّون للتأليف العلمي، فلخيرٍ للكاتب أن يُصدر كتاباً واحداً يحمل طابعه الخاص من أن يُصدر عشرين كتاباً تنقلُ المسلّمات المشتهرة دون إضافة، ولأصحاب المؤلفات القليلة من الأئمة وزنّهم الراجح، لأنّ ما أبدعوه على قلته يُستعاد ويستجاد.

وقد أخبرني بعض من تلقّوا دروس التشريع بكلية الحقوق في جامعة عين شمس على الدكتور عبد الرحمن تاج أنه كان يؤلّف كلّ عام كتاباً يجمعُ محاضراته المنهجية، ويفرّقه على هيئة (ملازم) يتلقّاها الطلاب أثناء العام تبعاً، دون أن تُجلّد في سفر مستقل، فليت الذين يجمعون هذه المذكرات يقدّمونها للنشر، حرصاً على ما تنفرد به من مسائل في قضايا الشفّعة والبيوع والمواريث والطلاق، وقد أشار الأستاذ علي الخفيف إلى هذه البحوث المخطوطة في كلمته المجمعية، إشارة من يضعها موضع التقدير، فهل سترى النور من جديد؟.

* * *

(عبد الرحمن عزام نصيرُ الوحدة العربيّة) تكريماً صادفَ أهله!

- ١ -

أقامت السفارة الأندونيسية بالقاهرة بتاريخ ٨ / ١١ / ١٩٩٢ احتفالاً رائعاً، أهدت فيه وسامَ الاستحقاق، وهو أعلى وسام تمنحه الدولة الأندونيسية لاسم المغفور له الأستاذ عبد الرحمن عزام باشا، أمين الجامعة العربية الأسبق، ووزير الأوقاف والشؤون الاجتماعية بمصر من قبل، وسفيرها في عدة دول عربية وإسلامية على مدى سنوات متعاقبة، وقد ذكرَ السفيرُ الأندونوسي في كلمة الاحتفال ما فحواه أن بلاده لا تنسى فضل الرجل العظيم على أندونيسيا، حين عملَ جاهدًا على استقلالها، فأقنعَ الدولَ العربيّة جميعها بالإسراع بالاعتراف بها، واتّصل بالملوك والرؤساء ليتمّ هذا الاعترافُ على أسرع وجه، ثمّ والى اتّصاله بالدول الإسلامية ذاتِ العضويّة بهيئة الأمم المتّحدة لترفعَ قضيةَ أندونيسيا إلى مجلس الأمن تمهيداً للاعتراف بها دولةً مستقلة، حتى تمّ ذلك بجهود أمين الجامعة العربيّة.

وليست أندونيسيا وحدها ذاتُ النصيب الكبير من جهد عزام، ولكنّ دُول العرب ودول الإسلام قد استغرقت جهوده البناءة الدافعة، لذلك كان وسام الاستحقاق، وهو أعلى أوسمة الدولة، تقديرًا صادقاً لبعض جهود هذا المجاهد العظيم!

وقد سكّنت الصحف في بلادنا عن الإشارة إلى هذا الاحتفال الوفيّ، ولم يتحدث عنه - فيما أعلم - غير الأستاذ مصطفى أمين في جريدة الأخبار، والأستاذ محمد متولي عوض في جريدة الشعب، فرأيتُ أن يكونَ لمجلة الهلال دورُها الجهير في الإشادة ببعض مآثر هذا البطل الكبير، لا سيّما أنّ مجلة الهلال كانت أوّلَ مجلّةٍ كتب فيها عبد الرحمن عزام عن ضرورة قيام الوحدة العربية سنة ١٩٣٤، حين كان الحديث عن الوحدة في مصر خيالاً بعيداً لا يمكن أن يتمثّل حقيقة واقعة! نعم

إِنَّ كِتَابَ سُورِيَّةٍ حِينْئَذْ قَدْ لَهَجُوا بِالْوَحْدَةِ أَمْلًا مَرْمُوقًا، وَلَكِنْ عَبْدُ الرَّحْمَنِ عَزَامَ وَحْدَهُ فِي مِصْرَ كَانَ أَوَّلَ مُنَادٍ بِهَذِهِ الْوَحْدَةِ، وَقَدْ قَدَّرَ اللَّهُ لَهُ أَنْ يَكُونَ الْأَمِينُ الْأَوَّلَ لِلْجَامِعَةِ الْعَرَبِيَّةِ، وَالْوَاضِعَ لِمِيثَاقِهَا عَنْ ثِقَةٍ تَامَةٍ بِهِ مِنْ مُلُوكِ الْعَرَبِ وَرُؤَسَاءِ الدُّوَلِ، وَلَمْ يَكُنْ هَذَا الْعَمَلُ الْأَسَاسِيُّ الْخَطِيرَ صَعْبًا بِالنِّسْبَةِ لَهُ، فَهُوَ الَّذِي سَلَخَ أَجْمَلَ أَيَّامِ عَمْرِهِ حَالَمًا بِوَحْدَةِ الْعَرَبِ، دَاعِيًا إِلَى ضَمِّ الْجُهُودِ، وَتَوْحِيدِ الْأَهْدَافِ، مُنْتَقِلًا إِلَى شَتَّى الْعَوَاصِمِ الْمَخْتَلِفَةِ دَارِسًا وَمُبَشِّرًا، وَكَانَتْ صِدَاقَتُهُ الْحَمِيمَةُ بِزَعَمَاءِ الْبِلَادِ مَدْعَاةً ثِقَةً فِي اتِّجَاهَاتِهِ، كَمَا كَانَتْ مَصْدَرُ ضَوْءٍ سَاطِعٍ يَبْدُدُ ظُلُمَاتِ الشُّبُهَاتِ.

وَقَدْ لَاقَى الرَّجُلَ الْكَبِيرَ مَعَارِضَةً قَاسِيَةً فِي مِصْرَ مِنْ بَعْضِ مَنْ يَخَالِفُونَ مَنَاحَهُ، فَمَلَأَ الْجَرَائِدَ الْيَوْمِيَّةَ وَفِي مُقَدِّمَتِهَا جَرِيدَتَا الْبَلَاغِ وَكَوْكَبَ الشَّرْقِ دِفَاعًا عَنْ وَجْهِهِ نَظْرَهُ، فَأَعَادَتْ هَاتَانِ الْجَرِيدَتَانِ الْوَطْنِيَّتَانِ خُطَّةَ جَرِيدَتِي الْمُوَيْدِ وَاللَّوَاءِ حِينَ كَانَ عَلِيٌّ يَوْسُفَ وَمُصْطَفَى كَامِلٌ يُفَرِّدَانِ الصَّفَحَاتِ الرَّئِيسِيَّةَ لِمُعَالَجَةِ أَوْضَاعِ الْوَطَنِ الْعَرَبِيِّ بِخَاصَّةٍ، وَالْوَطَنِ الْإِسْلَامِيِّ بِعَامَّةٍ، وَجَاءَ مِنْ بَعْدِهِمَا الْأَسْتَاذُ أَمِينُ الرَّافِعِيِّ، فَجَعَلَ صَحِيفَةَ الْأَخْبَارِ عَرَبِيَّةً إِسْلَامِيَّةً مَعَ اهْتِمَامِهَا بِالْبَالِغِ بِالْقَضِيَّةِ الْمِصْرِيَّةِ، وَكَانَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ عَزَامَ حِينْئَذْ أَصْغَرَ غُضُوٍّ فِي مَجْلِسِ النُّوَابِ الْمِصْرِيِّ، وَلَكِنَّهُ كَانَ الْعَضْوُ الْأَوْحَدَ الَّذِي أَضَافَ الْهُمُومَ الْعَرَبِيَّةَ إِلَى الْهُمُومِ الْمِصْرِيَّةِ فِيمَا بَدَأَ يَكْتُبُهُ فِي الصَّحْفِ السِّيَّارَةِ، وَقَدْ نَاقَشَ الزَّعِيمُ سَعْدُ زَغَلُولُ بَاشَا فِي ضَرُورَةِ الْاهْتِمَامِ الْعَمَلِيِّ بِالْدُّوَلِ الْعَرَبِيَّةِ، وَلَكِنَّ الرَّجُلَ الْكَبِيرَ كَانَ يَرَى اسْتِقْلَالَ مِصْرَ خُطْوَةً أَوَّلَى لِجَمْعِ الشَّمْلِ، وَيَدُونِ اسْتِقْلَالَ لَا يَفِيدُ تَجْمُعَ الضَّعَافِ، وَلَمْ يَنْشِ عَزَامَ عَنْ مَشِيتَتِهِ، بَلْ جَعَلَ الْقَضِيَّتَيْنِ قَضِيَّةً وَاحِدَةً، وَهَكَذَا دَخَلَ التَّارِيخُ مِنْ بَابِهِ الْفَسِيحِ.

على صفحات الهلال

اخْتَارَ الْأَسْتَاذُ عَبْدُ الرَّحْمَنِ عَزَامَ مَجْلَّةَ الْهَلَالِ، لِيَكْتُبَ فِيهَا عَنْ مَشْرُوعِ الْجَامِعَةِ الْعَرَبِيَّةِ، إِذْ رَأَاهَا بَرِيدًا جَيِّدًا يَتَدَاوَلُهُ أَبْنَاءُ الدُّوَلِ الْعَرَبِيَّةِ كَافَةً، وَلَا تَقْفُ عِنْدَ قَطْرِ وَاحِدٍ، فَنَشَرَ فِي افْتِتَاحِيَّةِ الْعَدَدِ الصَّادِرِ فِي أَوَّلِ فَبْرَايِرِ سَنَةِ ١٩٣٤ مَقَالَهُ الرَّائِعَ عَنْ «الْإِمْبَرَاطُورِيَّةِ الْعَرَبِيَّةِ»، وَقَدْ احْتَرَسَ فِي نَهَايَةِ الْمَقَالِ مِنْ أَنْ نَفْهَمَ كَلِمَةَ الْإِمْبَرَاطُورِيَّةِ عَلَى غَيْرِ وَجْهِهَا، فَقَالَ: لَسْتُ أَقْصِدُ بِكَلِمَةِ الْإِمْبَرَاطُورِيَّةِ الْعَرَبِيَّةِ غَيْرَ الْوَحْدَةِ عَلَى أَيِّ مَظْهَرٍ حَقَّقَتْ، وَلَيْسَ الْغَرَضُ تَغْلِبَ قَبِيلَةٍ عَلَى قِبَائِلٍ، أَوْ أَمِيرٍ عَلَى أَمْرَاءٍ، أَوْ اسْتِثْنَاءٍ إِقْلِيمٍ عَلَى إِقْلِيمٍ، إِنَّمَا أَوَّلُ الْقَصْدِ وَغَايَتُهُ التَّعَاوُنُ بَيْنَ الشُّعُوبِ الْعَرَبِيَّةِ، لِتَكُونَ جِبْهَةً

واحدة تسير على ضوء المثل الأعلى الذي يُخرجه مزاجها المشترك! ولو فهم هذا الفهم من حاولوا الوحدة السياسية، والرئاسة المظهرية، لما وقّعنا في هذا التخاذل الحائر بعد قيام الوحدة بين بعض الشعوب، وانهدامها في وقت يسير!! وكأني بمجلة الهلال وقد لمحت بعض الصعوبات في دعوة عزام فمهدت لمقاله الرائع بقولها:

«وقد تكون الدعوة إلى تأسيس إمبراطورية عربية حلاً من الأحلام، ولكن كم من المشروعات الكبرى والحقائق العظمى كانت قبل وجودها حلاً في رؤوس المفكرين، وخيالاً في أذهانهم، ثم ما لبثت أن صحت الأحلام، وتحقق الخيال».

وفي سبيل تصوير هذا الحلم، والانتقال به من حيز الخيال إلى أرض الواقع، استعان الأستاذ عبد الرحمن عزام بأدلة مقررة مُسلمة من التاريخ البعيد، والتاريخ القريب، ففي التاريخ البعيد جعل يسردُ إمبراطوريات الأمويين والعباسيين والفاطميين والموحدين في المشرق والمغرب، متسائلاً: «أكانت حقيقة واقعة أم كانت خيالاً متوهماً؟ ثم ما قبل ذلك؛ ألم تُبسط دولة الخلافة الراشدة في مدى عشر سنوات على مُلك كسرى وقيصر؟ ألم يكن عمر بن الخطاب في نشأته الأولى بدوياً ضالاً ثم صار - بعد سنوات دارت - ملك الرومان والفرس في آسيا وأفريقيا! إذا كان التاريخ البعيد ينطق بهذا، فلماذا نستبعد؟ وقد يوجد من يقول إن الزمان غير الزمان، والناس غير الناس، فلنأت إلى التاريخ القريب، ولننظر إلى بعض فجاءاته:

لو أن سائحاً تعرّف إلى محمد علي وهو جندي صغير بين طائفة (الباش بوزوق) من الأرناؤوط، وقيل له: إن هذا الجندي الصغير سيملك مصر والسودان والشام والحجاز ونجد، أما كان يسخر من هذا القول؟ ولكنه أصبح حقيقة واقعة!.

لقد قام في جزيرة (أبا) بالسودان معلّم للقرآن يجتمع حوله الصبية، وما كان أحد يعتقد أنه سيكون زعيماً سياسياً خطيراً، ولكنه بعد أعوام جمع الكتاب، وهزم الجيوش المصرية والإنجليزية معاً! ذلك هو صاحب الثورة المهدية، محمد أحمد المهدي، فهل في صنيعه شك؟!.

وهذا هو الملك عبد العزيز بن سعود كان ضيفاً لاجئاً مع أبيه عند أمير الكويت، وهو اليوم ملك الحجاز ونجد، وموحد الجزيرة العربية! جَمَعَ الإقليمين في سلطة واحدة دون منازع! فهل يشك أحد في هذا؟.

ليسَ بين العرب وبينَ بَعْثِهِمْ مرَّةً أُخرى إلَّا أن يُؤْمِنُوا بأنفسهم، فقد افْتُتُّوا بعظمة مَنْ سواهم، حتَّى أَصْبَحُوا يعيشونَ على هامشِ الأحياء! إِنَّ الأُمَّةَ العربيَّةَ الحديثةَ وحدةٌ ثقافيَّةٌ واجتماعيَّةٌ ذاتُ تاريخٍ مشتركٍ وخواصٍّ بارزةٍ، تُرَشِّحُها للوحدة والاكتمال».

واستطردَ الباحثُ الكبير إلى أثر التنافس في دُول الشرق والغرب منتهيًّا إلى أننا في عصر التجمُّع، ومن المستحيل على الشعوب الصغيرة أن تُناوِيَّ الدَّولَ الكبرى حتَّى تقفَ معها في مستوى واحد، وقد يكونُ هذا الكلام الآن من قبيلِ المسلَّمات، ولكنَّه عندما هتف به الأستاذ عزام لأوّل مرَّة كانَ مدعاةَ نقاشٍ معتدلٍ عند قوم، وثورةٍ جامحة عند آخرين.

مصر العربيَّة

في الثلاثينيَّات والعشريَّات دارت معارك صاخبة حولَ هوية مصر، إذ انطلق الدَّاعون إلى الفرعونيَّة يجاهرونَ بابتعاد مصر عن العرب، كما انطلق الدَّاعون إلى الثقافة الأوروبيَّة يُعلنونَ أنَّ مصر أقربُ إلى أوروبا من الجزيرة العربيَّة، لأنَّها إحدى دُول البحر الأبيض المتوسط، ومن حُسن الحظ أنَّ هؤلاء وأولئك قد رَجَعُوا عن آرائهم عن اقتناع أو عن إرغام، لأنَّ صوتَ العروبة في وقت ما قد سيطرَ على ما سواه، ولم تُكُنْ له هذه السيطرةُ الكاسحةُ إلَّا بجهود أعلام كبار كان عبد الرحمن عزام في طليعتهم الظافرة، وهو وقد كان صاحب قلمٍ بارعٍ لم يشأ أن يكتبَ به إلَّا فيما يخصّ سياسة العروبة ورسالة الإسلام، إذ كانَ صاحبَ مبدأٍ يُنافح عنه، وما القلمُ إلَّا إحدى وسائل هذا الكفاح، وقد تصدَّى لكل ما يُوهنُ أسبابَ العروبة من كلماتٍ تشتت، فترك أثراً لا يرتضيه، ومن هنا كانت معركةُ مع الدكتور طه حسين، حينَ كتبَ يقول: إن المصريين قد خضعُوا لضروب من البُغضِ وألوانٍ من العُدوان جاءَتْهم من الفرس واليونان والعرب والترك والفرنسيين، فردَّ عليه الأستاذ عزام بمقالٍ مستفيض، جاءَ فيه نقلاً عن جريدة البلاغ الصادرة في ١٩٣٣/٨/٢٩ (ببعض التصرف):

«الدكتور طه رجلٌ له في العلم والتاريخ مقامٌ معلوم، فهل له أن يتفصَّلَ بذكر بعض الحوادث التي تُدخل العربَ المسلمين في زُمرَةِ البغاة المعتدين! لقد قيل لنا:

إنَّ دخول العرب إلى مصر كان استخلاصاً لأهلها من البغي والعدوان، وإنقاذاً لها من الضلال، وقد جاء العربُ دُعاةً إلى دين جديد أصبح دين الكثرة العظمى من أهلها، هذا الدينُ يسوّي بين الرعية والراعي، فهل يتفضّل الدكتور طه حسين فيصنّح معلوماتنا عن الفتح العربي؟.

إنَّ الدكتور يذكرُ أن المصريين ردّوا أهل البغي والعدوان، وأنفوهم في أنفسهم، وحشر العرب في زمرة الذين أفناهم المصريون، والواقع أنَّ كل الأمم التي بَغَتْ على مصر قد فنيَتْ فيها غير العرب، لأنَّهم لم يكونوا بغاةً ولا معتدين، لقد قبلَ المصريون دينَ العرب، وعادات العرب، ولسانَ العرب، وحضارةَ العرب، وأصبحوا عرباً في طليعة العرب! لقد فني في مصر جميعُ الفاتحين، ولكنَّ مصر قد كسبت الأمة الوحيدة التي جاءت تحمل راية الإسلام، ولا تقصدُ بغياً ولا عدواناً، تلك هي الأمة العربية!«.

واضطرَّ الدكتور طه أن يتراجع بعض الشيء، فعقّب على مقال عزام بقوله: «إنِّي لستُ من خصوم العرب، ولا من المنكرين لما كان لهم من مجدٍ مؤثّل . . . ولكنَّ حكم العرب لمصر كان في الخير أوّل الأمر، حين حمل إلى مصر الإسلام وبعْد ذلك صارَ مزاجاً من الخير والشر، وقد ضاقتْ به مصر وثارت عليه!«.

وما قاله طه حسين ردّاً عليه عزام^(١) والمازني! وكان إبراهيم عبد القادر المازني أصرحَ وأحسم، لأنّه واجهَ طه مواجهةً صريحة، فأعلنَ أنَّ الدكتور قد عزّ عليه أن يعترف بالخطأ، ونحنُ لا نحتاجُ إلى علمٍ بالتاريخ لنعرف أنَّ حكم الإنسان للإنسان قد يكونُ فيه الخير والشر، والعدل والجور، وأنَّ كل أمةٍ قديمةٍ أو حديثة في كل مكان من هذه الأرض لقيتْ هذه الألوانَ من حكامها، فدفاعُ طه عن كلمته لا يَنْهَضُ ولا يستقيم، وما كنّا نَعْنِي بهذا الجدل، لولا أنّه كره أن يُقال عنه: أنه أخطأ، كأنّما هو معصوم، فذهب يكابر.

في حومة الجهاد

نعرفُ في تاريخنا المعاصر أناساً نذرُوا أنفسهم للدفاع عن العروبة والإسلام في

(١) لخص الأستاذ أنور الجندي كل ما دار حول رأي الدكتور طه حسين في كتابه عن المعارك الأدبية، فإليه يرجع من أراد الاستيفاء.

شَتَّى بَقاع الأرض، فهم يعرفون دواهي الاستعمار في أممٍ مقهورة يتخطفها بالذخيرة الغاشمة، والسلاح المبيد، ومن هؤلاء من رجالات مصر عبد الرحمن عزام، وعبد الحميد سعيد، وصالح حرب، ممن خاضوا المعارك خارج مصر؛ خاضوها في حرب البلقان جوار دولة الخلافة في مطلع هذا القرن، وخاضوها في صراع ليبيا مع الاحتلال الإيطالي قبيل الحرب العالمية الأولى، وإذا تبرّعت مصر بالسلاح والمال رغم وطأة الاحتلال، فإنّ عزّاماً وصالحاً وعبد الحميد كانوا من شهود الحومة الحامية، تعرّض كلّ منهم للقتل، فأقدّم على الموت غير هيّاب، ولم يشأ أحد منهم أن يدوّن مذكرات يتطاوّل بها، لأنّ أكثر أصحاب المذكرات يقولون ما لا يفعلون، أما الذين يُرضون أنفسهم بالجهاد في سبيل الحرية فحسبهم ما يستشعرونه من رضى النفس وراحة الضمير، وما عند الله أوفى وأجزل.

وقد كان عزام عليماً بدقائق السياسة في كلّ بلدٍ إسلامي، يحرص على رُصد الأحداث الجارية، ويحذّر من العواقب، ويسعى للصلح حين يتنازع فريقان من ذوي الدم المتّحد، فيقطع البرّ والبحر والجوّ داعياً للوئام، فإذا وُفق مسعاه عاد قدير العين، وكأَنه كسب لنفسه سعادةً هائلة، وإذا كانت الأخرى فحسبُه أن فعل، وقد قدرته هذه الأمم أرفع التقدير، فصارَ صديقَ ملوكها، وناصحَ وزرائها وقادتها.

ولما ألّفت جامعة الدول العربية كان اسمُه الوحيد الذي قُوبل بالارتياح دُونَ اعتراض، لأنّ جهاده العربيّ كان من الجهارة والسطوع بحيثُ أَعَدّه مقعد التوجيه والقيادة في جامعة ناشئة، تتطلّب في خطواتها الأولى حرارة الإخلاص مضافةً إلى قوّة اليقظة، وكان الكثيرون من وزراء الخارجية يجهلون من أمور بلادهم ما يعرفه الأمين العام حقّ المعرفة، فكان يَهدي إلى الصواب في تواضع نبيل، وعلى ذكر هذا التواضع أسجّل في اعتزاز ما أعلمُه عن قَلّةٍ قليلةٍ من نابهي الوزراء بالأمس كانوا فوقّ المنصب الرفيع بأخلاقهم السمحة، إذ يتجافون عن الغطرسة الكاذبة، تلك التي نَعُدّها في قوم يروُن المنصبَ اللامع داعيةً الغرور الكاذب؛ لقد أُتيح لي أن أجلس مع عبد الرحمن عزام، وعلي عبد الرازق، وعبد الرحمن الرفاعي، فأجد من فيض السماحة، وحُسن الإصغاء ما لا أجده في قوم من أمثالهم يروُن الوزارة مدعاة استعلاء على الناس، وقد فكّرتُ كثيراً في هذه الظاهرة فاهتديتُ إلى أنّ الناس معادن، وأنّ هؤلاء أساتذة أخلاقٍ ودعاة معرفة، قَبْل أن يكونوا من ذوي الأوسمة

والنياشين، ولكلّ منهم في مجال الثقافة الرفيعة نصيبٌ مرموق، وحظٌّ ملحوظ.

الباحث المجتهد

نعم كان لعبد الرحمن عزام نصيبٌ مرموق في مجال الثقافة الإنسانية الرفيعة، حَاصِرٌ ونَاطِرٌ، وكتبَ المقالات وألّف الكتب، وأذاعَ الأحاديثَ الثقافية في الإذاعة المصرية، وله في سيرة رسول الله ﷺ كتاب (بطل الأبطال) الذي يَرَسُمُ للبشرية قدوةً مثلى في حياة محمد ﷺ، أمّا كتابه (الرسالة الخالدة) فلم يكن - كما قال المؤلف - وليدَ المصادفة، بل كانَ وليدَ تأملٍ طويلٍ في الأحوالِ الداميةِ أثناءَ الحرب العالمية الثانية، حيثُ جعلَ الباحثُ يتأملُ أسبابَ الاضطرابِ العالمي، ويقفُ أمامَ الدّعاوى الكاذبة التي ترنّ بها المادية الحديثة؛ يقول المؤلف (ببعض التصرف):

«وكَلَمّا قَلَبْنَا الرأْيَ في هذه الدّعاوى، وسايَرنا تنفيذها الواقعيّ في أوروبا وأمريكا، ازداد الشكُّ في نفوسنا، وظَهر عجزُها عن حلِّ المعضلة ووفائِها بحاجةِ الناس، وتوالي الحروبِ المدمّرة، وتَدَبَّذُ الأَقوامُ بيْن هذه الدّعاوى أَكْبَرُ شاهدٍ على ذلك، فلا بدّ إذن من النظر بجدٍّ لالتماسِ الهدى في غيرها، فهل هو في الرسالةِ الخالدة التي تعاقب عليها الأنبياءُ، وجاءَ بها إبراهيمٌ وموسى وعيسى ومحمد؟! إنّ الشريعةَ المحمديّةَ بوصفها نظاماً عالمياً هي آخرُ تطوّرٍ لهذه الرسالة، وهذا الكتابُ هو محاولةٌ متواضعةٌ لإيجاد حلٍّ لمشكلات هذا العالم على ضوئِها، وهو أيضاً محاولةٌ لبيان أسسِ الدّعوة المحمديّة في السياسة والاجتماع والحرب والسلم والعلاقات بين الدّول والشعوب، وبيان حاجة الحضارة إلى سَنَدٍ من القوّة الروحيّة يوجهها إلى الخير العام، ويحدُّ من حوافز السيطرة والأثرة والظهور».

وقد كانَ لكتاب (الرسالة الخالدة) صدَى رَنانٍ في العالم الإسلامي، فتزجَمَتُهُ حكومةُ الجمهوريّة الأندونسيّة، ونشرته في البلاد المتكلّمة بلغة الملايو، كما ترجمتهُ رياسَةُ الشؤُون الدينيّة في حكومة تركيا، ووضعَ له شيخ الإسلام بها (حمدي أفسكي) مقدّمةً مسهبةً، كما تُرجمَ الكتابُ إلى الفارسيّة والأرديّة والإنجليزيّة بإيران وباكستان وأمريكا!.

وتسألُني: هل حازَ كتابُ في موضوعه ما حاز (الرسالةُ الخالدة) من هذا الذبوع، فأجيب بأن سرَّ هذه الحظوة البالغة أنّ الباحث لم يكتب مؤلفه لأنّه قرأ

وجمع ولخص كما يفعلُ هواةُ التأليفِ اليوم، بل لأنّ الأفكار التي آمن بها كانت مسرحَ خواتمه، ومرادَ تفكيره، وهواتفَ روحه، طيلة حياته، وحين كتبها نقلَ عن عقيدة راسخة، وإيمان مطمئن، وتجربة صادقة، فصادتُ موضعَ الارتياحِ الخالص ممّن يُميّزون بين الدّر والخزف، وما يستوي الأعمى والبصير.

من يستمعُ إلى عبد الرحمن عزام أو ابن أخيه الدكتور عبد الوهاب عزام، لا يشك في أنّه أمامَ عربيٍّ مسلم من رجال الصدر الأول في الإسلام، فلامحُ الصّدق الحقيقي تتجلّى في قوله وفعله معاً، يتكلّم عبد الرحمن في مسائل العروبة والإسلام فلا تلمس شعشعةً في الألفاظ، أو تلاعباً بالأفكار، ولكنك تجدُ حقاً صادقاً يسطّهُ الرجل أمامك، لا يُخبركَ بما يعلم، بل ليطلبَ منك الرأْي فيما سمعت، وهو لا يتعصّب لرأْي يذيعه، أو يضيقُ بوجهة نظرٍ مخالفة، لأنّ الحق ديدنه لا يبغي به بدلاً، وإذا كان الدكتور عبد الوهاب عزام قد ثَقّف العلوم الإسلامية ونهلَ من معين التاريخ العربيّ على مدّه الأطول في الأزهر الشريف ومدرسة القضاء الشرعي، فلا غرابة أن يأتي بوجهة النظر الإسلامية الصحيحة كما دَرَسها عن استفاضة وإمعان، إنما الغرابة أن ينشأ عمّه عبد الرحمن نشأةً مدنيّة فيتلقَى تعليمه بالمدارس الحكومية، وبكلية الطب بلندن، ثم يكون بعد ذلك نَظيرَ ابن أخيه في الإحاطة بالتراث الإسلامي، ويصبحُ محاضراً من الطراز الأول في شؤون العرب والمسلمين في القديم والحديث.

وللوراثة صَداها الملموسُ في هذه النزعة الإسلامية العربيّة، فجذّه الشيخ سالم عزام كان ناظراً للجيزة في عهد إسماعيل، وهي وظيفةٌ تعدلُ اليومَ وظيفةَ المحافظ، وكان لا يعرفُ من الرئاسة ما يعرفه زملاؤه من الغطُرة والاستعلاء، إذ كان بيته الرّحب الفسيح على النّظام العربي الأصيل، لا يَنقطعُ عنه ضيفٌ في الصباح والمساء، وكذلك نشأ ولده حسن عزام بك أحدُ أعضاء الجمعية التشريعية بمصر، نشأ متأثراً بروح والده الذي جاهد ما جاهد، حتى أغضب المحتلين، ونُفي إلى السودان، فمات بها شهيداً الوطنيّة والاغتراب، وقد نشأ عبد الرحمن وهو يعرف كفاح جدّه والده، ويُدْرُسُ مواقفهما الخالصة في حبّ الوطن والعروبة والإسلام، فشبَّ على أن يكونَ جُنديّاً في معركة الاستقلال الحرّ للوطن الإسلامي الكبير، فسافرَ وهو طالبٌ سنة ١٩١٢ إلى البلقان ليقفَ في صفوف الجيش الإسلامي أمامَ

وُحوش الصَّرب، شأنهم بالأمس شأنهم اليومَ في مأساة البوسنة والهرسك، وأدى ضريبةَ الجهاد، ثم عادَ إلى الميدان في أرض ليبيا لمُنازلةِ الطليان، مع فريق من صفوة الشباب المصري، منهم عبد الحميد سعيد، وصالح حرب، وعزيز المصري^(١)، ودَامَ يواصلُ الجهاد في أوطان العروبة حتى قامت ثورة سنة ١٩١٩ في مصر، فكانَ أحد أبطالها.

واعترفَ زعيم الثورة بجهاده فَرَّشَحه لمجلس النواب، ونَجَحَ نَجَاحاً مُشْرِفاً، وكانَ لا ينسى الحديث عن أوطان العروبة تحت القُبَّة البرلمانية، فَصَّارَ صَوْتَهُ مبعثَ أوَّلِ نداءٍ مصريٍّ للاهتمام بالوحدة العربيَّة، وقد أشرتُ من قبل إلى طَرَفٍ من جهاده أمامَ المُعترضين، حتى لاءمت الظروفُ السياسية منحاه السِّيَاسي، فكانَ أوَّل أمينٍ للجامعة العربيَّة حين أنشئت سنة ١٩٤٥، وهو الذي وَضَعَ ميثاقها الحافل، وَحَمَلَ مسوّداته إلى الرؤساء والملوك في مصر والسعودية وسورية ولبنان واليمن والعراق والأردن، ولم تُكُنْ مهمته سهلةً في هذا المجال، لأنَّ لكل دولة منزَعها الخاص، وهدفها الذي قد يتعارضُ مع دولة أخرى، ومحاولةُ الالتِقَاءِ في نقطةٍ معيَّنة تحتاج إلى بذلٍ دَافِقٍ من الروح والعقل والدم، وقد ذكرت الصحف أنَّه كانَ يتردَّد أثناء وضعه لميثاق الجامعة على عدَّة دُول في أسبوع واحد، ثم يرجع ليوصل التنقيح، والمحو والإثبات، حتى أُتيح لميثاق الجامعة العربيَّة أن يظهر على وجهه النهائي.

وقد نصَّ الميثاق على أن من أغراض الجامعة الأساسية التعاون المشترك في الشؤون الاقتصادية والمالية وشؤون المواصلات وشؤون الثقافة، ويدخلُ في أغراضها تقريرُ وسائل التعاون مع الهيئات الدوليَّة، التي قد تنشأ في المستقبل لكفالة الأمن والسلام، كما نصَّ الميثاق على أنَّه لا يجوز الالتجاءُ إلى القوة لفضِّ المنازعات بين دولتين أو أكثر من دُول الجامعة، ومجلس الجامعة هو المسؤول عن فضِّ الخلاف سلمياً، ويكون قراره ملزماً، أما الاعتداء الخارجي على دولة عربيَّة فمن حقِّ المجلس أن يتخذ التدابير اللازمة لدفع هذا الاعتداء سلمياً وحربيّاً، وقد أكَّد الميثاق على أن تحترم كلُّ دولةٍ من الدول المشتركة في الجامعة نظامَ الحكم القائم، وتعتبره حقّاً من حقوق كل دولة، ولمجلس الجامعة أن تعتبر أيَّة دولةٍ

(١) أكَّزَر هذا القول مرة ثانية عن قصد، ليعرف القارئ مفهوم التضامن الإسلامي على وجهه الصحيح.

لا تقوم بواجباتِ هذا الميثاق منفصلةً عن الجامعة .

وفي جلسة الافتتاح الأول خَطَب مندوبو الدول بما يؤيد الميثاق، وألقى الأمين العام الأستاذ عبد الرحمن عزام كلمة هامة قال فيها: «إن الجامعة وميثاقها ليست إلا عنواناً لميثاق غير مكتوب أخذه علينا آباؤنا ورُسُلنا من قبل، وأخذناه على أنفسنا اليوم، والميثاق الذي أمضيناه الآن هو عنوان الكتاب، ولكن رسالة الجامعة مطوية في ثنايا السطور، وهي المقصودة من الميثاق» .

وقد تصدّت الجامعة لعداوات كثيرة من الشعوبيين المعاصرين، فزعم المغرضون أنّ الجامعة حركة إنجليزية أنشأتها إنجلترا، وأنّ مجلس الجامعة دُمِيَ في أصابع الإنجليز، وكانت مهمّة عبد الرحمن صعبة، إذ أخذ يتعقّب كلّ مقال بالتفنيد، وكان من أصوب ما قاله: «إنّ الإنجليز قد يكونون مرتاحين لإنشاء الجامعة العربية لنفع يعودّ عليهم، ولكنهم يجدون هذا التفعّ في التفاهم بينهم وبين الإغريق والطلّيان، فلا يقول قائل: إنهم خلّقوا القومية الإغريقية، أو خلّقوا الأمة الإيطالية» . وهو كلام أكّده الأستاذ عباس محمود العقاد مناصراً للأستاذ عزام، وإذا بدا اليوم في الجامعة العربية عند التطبيق العملي ما يدعو إلى الاعتراض، فلا ذنب لميثاق الجامعة، إنّما الذنب لمن يُخالفونه منحرفين .

وناحية نضالية من نواحي الأستاذ عبد الرحمن لا بدّ من الإشارة إليها، فقد تولّى وزارة جديدة هي وزارة الشؤون الاجتماعية بمصر، والوزارة الناشئة تُحدث عادة ضجّة من الخلاف حول رسالتها، وقد كتّب الكاتبون فحصرها مهمة الوزارة الجديدة في القضاء على الآفات الثلاث: وهي الجهل والفقر والمرض، وطالّ الجدل في الصحف على نحو ذهب فيه المخالفون إلى أنّ الوزارة ستعجز عن أداء رسالتها، وأنّ الجهل موكول لوزارة التربية والتعليم، والمرض موكول لوزارة الصحة، والفقر موكول إلى وزارة المالية، وكان الوزير التهاض يقرأ ويسمعُ ويناقش، ثم كتّب مقالاً هاماً يُقرّر فيه أنّ تشعّب مناحي الإصلاح على الوجه الذي اتضح في مقالات الكتاب الكبار، يتسع بالخلاف إلى حيث يتعدّر انتهاؤه، وأنّ الواجب أن نلتفت إلى أصل جذريّ هو أسُّ كل بلاء، ذلك الأصل هو الفقر وحده، لأنّ المريض إذا كان غنياً أمكنه أن يتداوى ويعالج دون إرهاب، وكذلك الجاهل؛ إذا كان أمياً فإنّه لا يعدم من يُعلّمه ويثقفه ويأخذ أجر تعليمه إذا كان كبير السن، أو أن يلتحق بالمدرسة إذا كان

من الناشئة، أما علّة العللِ وَحدها فهي الفقر! وعلى الوزارة أن تهتمّ برفع المستوى المعيشي للفقراء، فتصلّ إلى النّجاح من أقرب طريق، وكان الأستاذ كثير الاستشهاد في مقاله هذا بنصوص القرآن وأحاديث الرسول ومواقف الخلفاء، وقد وَجد في هذا الاستشهاد ما يؤصّل دعوته، ولكنّ الذين في قلوبهم مرضٌ اتّهموا الرجل بإثارة الحرب بين الطبقات، وهُم يعلمون شرف اتجاهه، لذلك لم يستطع البقاء طويلاً في منصبه، وانتقل إلى وزارةٍ أخرى.

وأذكر أنّه لم يتراجع عن رأيه بعد أن أخذت هذه الزبوة التي شتّنها خصومُ الاتجاه الإسلامي، إذ بسط رأيه هذا بعد أن خرج من الوزارة في مقالٍ مُسهب تحت عنوان: (الفقر آفة البشر، كيف عالجه الإسلام؟)^(١) وفيه يقرّر أن الإسلام قد نظر إلى حال الفقير، فراه إمّا أن يكونَ عاجزاً عن الكسب لعلّة به، وإمّا أن يكونَ عاجزاً عن الكسب لفقد الوسيلة للعمل، فالذي يعجز عن الكسب لعلّة لا علاج لها، فقد جعل الإسلام مواساته حقّاً على المجتمع لا تبوّعاً ولا تطوّعاً، قال الله تعالى: ﴿والذين في أموالهم حق معلوم للسائل والمحروم﴾ فصانَ بذلك كرامته الإنسانية، وأمّا الذي يعجز لفقد الوسيلة إلى العمل، فقد أوجب الإسلام على الدولة إيجاد الوسيلة لتكسّبه، إذ قَبَّح الإسلام السؤال، ودعا المسلم للترفع عنه، لأن اليد العليا خير من اليد السفلى، وتحريمُ الترف يُوجّهُ الأموالَ إلى إنتاج أكثر فائدة للجميع، وتحريمُ كنزها يُوجب تداولها، ولو قامت الدولة بواجبها في كفاية المتخلفين من إخواننا لما يُصيبهم في أنفسهم أو أبدانهم، فوزعت الصدقة على من لا سبيل له غير الصدقة، ووزعت العمل على الناس، بقصد الخير العام، ولو على سبيل الإجبار على عملٍ مُعيّن للقادرين عليه، لقاتلت الفقر بإحدى وسائلها الفعالة، وقد جعل الإسلام في هذا سلطاتٍ واسعة لوليّ الأمر، فله في سبيل الإصلاح العام أن يحدث أقضيةً بقدر ما يحدث من المشكلات، وله أن يكيّف الأحوال لتسير وفق الغرض الأساسي للإسلام، وهو الإحسان، وقد امتلأ المقال الضافي بالنصوص المؤيدة، والأحداث الناطقة من تاريخ الإسلام عند التطبيق العملي للشرع الحنيف.

هذا البحثُ الضافي يذكّرنا بكتاب الأستاذ (الرسالة الخالدة) وهو كتابٌ لا تُغني الإشارة إليه عن استيعابه على وجه دقيق، وقد دعا الأستاذ كبار المؤلفين إلى نقده.

(١) مجلة الرسالة، العدد ٧٠٥، ١/٦/١٩٤٧.

وتصحیح ما قد یقعُ فیهِ من الأخطاء، وقد لَبَّى الدعوة الباحث العراقي الکبیر الأستاذ محمد بهجت الأثری، فکتَبَ نقداً هادفاً أرسله للأستاذ عزام، فسارعَ بنشره علی القراء، لأنه یعتقد أن تصحیح الخطأ واجبٌ مفروض، ولا یضیره فی شیء أن یُجانب الصواب غیر عامدٍ، لأنّه بشر، وموضعُ الخلاف أن الأستاذ عزام ذکر أن عمر بن الخطاب قد خالفَ النصَّ القرآنی فی مسألةٍ صریحة، وهي مسألةُ الفیء، وهو کلامٌ خاطیء، لأن الفاروق قد اعتمد علی نصٍّ صریح، كما أوضح ذلك الإمام أبو یوسف فی کتاب الخراج، وهذا ما لم یعلمه الأستاذ عزام، لذلك ابتهج بتصحیح الأستاذ الأثری، وعقّب علیهِ بقوله^(١) من حدیث متصل:

«إن الروایة التي ذکرْتُها أنا فی المسألة نقلاً عن کتاب الشریع الإسلامي للمرحوم الشیخ محمد الخضری قد ذکرَتِ الجانبَ التاریخی، والجدلَ العقلي بین عمر ومخالفیه؛ فیما رأى من تخمیس الأموال وتقسیمها بین أهلها، وإخراج الخمس، وتوجیهه وجهته، وحبسَ الأراضي بعلُوجها، ووضعَ الخراج علیهم فیها مع الجزية الشخصية، ولم أذكرُ استدلالَ عمر بالآیات التي تلي الفیء من سورة الحشر، كما رَوی أبو یوسف فی کتاب الخراج، وكما ذکرَت فی کتابك إلّیَّ.

أما وقد رَوی أبو یوسف اعتمادَ عمر فیما ذهبَ إلیهِ علی فهمٍ لهذه الآیات فقد صارَ للمسألة بذلك وجهٌ آخر، ولم یخطرُ ببالی قط أن عمر رضی الله عنه یرى نصّاً قرآنیاً لا یقبلُ التأویل ثم یخالفه، فعمُرُ هو من هو، صدقَ إیمان، وإذعاناً لأوامر الله».

ولیت المَنقودین یُرزقون إیمانَ صاحب (الرسالة الخالدة) فیسارعون بالرجوع إلى الحق، متى اتضح لهم وجه الصواب!.

وقد أشرتُ إلى کتاب (بطل الأبطال) إشارةً موجزة، أُتبعها هنا ببعض التفصیل، حین أذكرُ أن الأستاذ ألقى أثناء الحرب العالمية الثانية عدّة محاضراتٍ عن رسول الله ﷺ، لا لتشملَ المعروفَ الذائع من سیرته المطهرة، بل لیقْبَسَ منها المعاني الخُلُقِیة التي تقدّمه للإنسانية نموذجاً أعلى للاحتذاء، فقد جعلَ بطولةَ الرسول شاملةً شتّى نواحي الخلق الکَرِیم، فهي بطولةٌ عامة تشملُ بطولةَ الرأي، وبطولةَ القلب، وبطولة

(١) مجلة الرسالة، العدد ٧١٢، ٢٤/٢/١٩٤٧.

الجهاد، وتضعُ القدوة المثلى لهذا البطل المعلم، إذ تناولَ المؤلف الكبير أبرزَ صفاتِ رسول الله ﷺ، فتكلّم عن شجاعته ووفائه وزهده وقناعته وعفوه وسياسته بما يجعله القدوة العُليا للبشريّة. وقد قالَ الأستاذ الأكبر الشيخ محمد مصطفى المراغي في تقديم الكتاب^(١): «إنَّ مؤلّفه قد أحسنَ إذ تناولَ السيرةَ النبويةَ من الجانبِ الخلقي، فإنَّ الناسَ في حاجةٍ ماسّةٍ إلى أن يَهتَدُوا بسيرة رسول الله ﷺ في كلّ عصرٍ، وزادَ المؤلفُ إحساناً فوق إحسان حين استخلصَ هذه المواقفَ النبويةَ بين الحادثاتِ الصحيحةِ والوقائعِ الثابتة، فلم يُرسلِ القول دون حجةٍ قاطعةٍ أو برهانٍ سديدٍ».

وبعد، فقد كتبَ الأستاذ الكبير عبد المنعم خلاف مقالاً تحت عنوان (عبد الرحمن عزام لمن لا يعرفه) لا أقولُ: إنه أعجبني فقط، بل أقولُ: إنه أطربني لصديقٍ لهجته، ودقّةِ وصفه، وحرارةِ أسلوبه، وفيه يقول^(٢):

«بكرتُ رجولتهُ وحساسيتهَ بالمسؤوليّاتِ الوطنيةِ والماليةِ والقوميةِ الكبرى، فحملَ من أعباءِ المجدِ وأوشحتهُ ما لم يحملهُ أحدٌ في مثلِ شبابهِ الأول، وظفّرَ بتقديرٍ من اتّصل به من رجالِ السياسةِ والحربِ في الشرقِ والغربِ وهو حَدَثُ ناشئٍ في باكورةِ الشبابِ، فأدار ثورةً، وأقامَ دولةً، وأصلَحَ بين أقاليمٍ مختلفين، وألّفَ بينهم ووحّدهم، وهو فيهم غريبٌ، نزيلٌ في الحدودِ الأولى من العقدِ الثالثِ من عمره».

فيه سكينَةٌ منزلةٌ من الله تعالى في جميعِ الظروف، صابرٌ دائماً، باذلٌ دائماً، يبذلُ من نفسه ومن ماله، حييٌّ يستحيي من الناسِ، فينالونَ منه بحيائه ما يرهقه في بعضِ الأحيان، ومع ذلكَ لا يتملّلُ، فهو فيهم كالنهرِ الكبير يأتي إليه كلٌ وارد فلا يردّه، وإن كان كلباً، لأنّه واسعٌ طهورٌ لا يتنجّس، متواضعٌ ليس لديه فروق مصطنعةٍ في معاملةِ الناسِ، إذ يملكهُ الفقيرُ المحدود ويأنسُ به، ليسَ به لهفَةٌ على شيءٍ مهما كان، فهو دائماً هادئٌ الأعصاب، وإن كان كثيرَ الآلامِ الاجتماعيةِ، عميقَ الأحزانِ المقدّسةِ في الدينِ والوطنيةِ والقوميةِ، الخيرُ عنده واضحُ المسالك، فلا تأويلَ ولا عذرَ يصرفه عنه ويصدّه عن مُقتضياتِ البر والإحسان، كأن لكل قاصديه عليه

(١) مقدمة (بطل الأبطال) للإمام المراغي.

(٢) مجلة الرسالة، عدد ٥٩٥، ٢٧/١١/١٩٤٤م.

حَقّاً لازماً يَلامُ إذا قَصَرَ في أدائه، وطالَما عَجِبْتُ لصبره على رجاواتِ الناس، فهوَ كثرُ من الصبر والاحتمال لا ينفد، أو هو الشجرةُ المثمرة المباحة القرية الجَنَى، لا تردُّ يداً عن قطاف، ما عرفه أحدٌ من الناس إلّا وأمسك بتلابيبه، وعَضَّ على علائقه بالنواجذ، فإنَّ كان من أهلِ العلم وجدَّ عنده علماً وفقهاً بلُباب الحياة، وبصرأ في شؤونها وعلومها، وإنَّ كان من أهل السياسة وجدَّ لديه بصيرةً ملهمة، تنفدُ إلى بواطن الأمور، وتُشير إلى مصادر الأحداث، وتضعُ يدها على ما غاب عن أكثر الأذهان، وإنَّ كان من أهل السلوك، وجدَّ له عِنْدَه فهماً وتقديراً ورفعاً لشأنه، وتشجيعاً واسع المدى، وإنَّ كان من أهل الشرِّ الذين لا يُؤمنون بالخير، وجدَّ عنده في شخصيَّته وسلوكه ردّاً ونقضاً بليغاً على دَعَواه، يحمله على أن يُرجعَ النظرَ كَرَّتَيْنِ فيما رأى لنفسه، وما اتخذَ من مسالك الشرِّ.

وهذا عنقودٌ من كرمٍ ممتدَّة الظلِّ، رائقة الشراب.



عبد الله بن كنون مثال حي للنبوغ المغربي الحديث

لإخواننا في المغرب العربي الكبير أدب حافل، وتراث ضخم، لم تر المطبعة منه شيئاً ذا بال، ومن مفكره وعلمائه أئمة لم تنتقل شهرتهم إلى المشرق، فيُذاع عنهم ما قاموا به من كفاح علمي وسياسي يُضاف إلى مفاخر العروبة والإسلام، وقد أحسن العلامة الكبير عبد الله كنون بهذا النقص الفادح، فعكف على إصدار أجزاء صغيرة متوالية تعرّف بالمغرب ونابغيه، ولم يأل جهداً في هذا المجال، إذ لا يكاد يمرّ شهر حتى يتحدّث عن علم مجهول في كتيب موجز، ثم رأى أن يضمّ هذه المتفرّقات إلى كُتُب ذات أجزاء، فأطلع القراء على كنز علمي مخبوء.

وقد كان كاتب الشرق الأكبر الأمير شكيب أرسلان أكبر مُلمّ بتاريخ المغرب من أعلام المشاركة المعاصرين، حيث والى التعريف برجاله وأحداثه وتاريخه ومحنته الاستعمارية، موالاة من حسب نفسه مغربياً يعيش في آفاق هذه الربوع الشقيقة ويتنسّم أريجها، ويقاسم ذوبها السراء والضراء، وتعليقاته الرائعة على كتاب (حاضر العالم الإسلامي) بأجزائه الأربعة الكبار، ومراسلاته ومقالاته، وصدقاته لأعلام المغاربة تُؤكّد تضلّعه الراسخ في هذه الشؤون، ولكنه قرأ ما كتب الأستاذ النابغة عبد الله كنون في موسوعة (النبوغ المغربي في الأدب العربي) وفي كتاب (ذكريات مشاهير رجال المغرب) وهو في مجلدين كبيرين، قرأ الأمير هذا الحشد الهائل عن أبناء المغرب، فكتب بعد أن فرغ من قراءة موسوعة النبوغ المغربي: «كنتُ أعهد نفسي من المشاركة الرجل الذي اطلع أكثر من غيره، على تاريخ المغرب وأهله، وأنعم النظر فيما يتعلّق بثقافته وسياسته وسائر شؤونه، ولكني رأيتُ نفسي بعد أن طالعت هذا الكتاب كأني لم أعلم عن المغرب قليلاً ولا كثيراً، وكدتُ أقول: إن من لم يطلع على هذا الكتاب لاحقاً له أن يدعي في تاريخ المغرب الأدبي

علماء، ولا أن يُصدر في حركاته الفكرية حكماً^(١). وأميرُ البيان لم يبالغ فيما قال، لأن رجالَ العربية في المغرب كرجالها في المشرق، تَصَلَّعُوا في فقه علوم الشريعة، وعلوم اللسان، ومنهم أكبرُ كاتبٍ عرفه الأدب العربي في نظراته الاجتماعية والسياسية والتاريخية، حتى عَدَّه الغَرِيبُونَ أنفسهم رائدَ علم الاجتماع، وهو ابن خلدون.

وقد أحس الأستاذ كَتُون أن أدبَ بلاده غيرُ مشتهر، ولا سبيلَ إلى طبع كُنُوزِهِ المخطوطة وإذاعتها في المشرق دونَ إرهاقٍ متواصل، وكَدِّ دائب، فإذا تيسَّر الكد والإرهاق بمعونة الخلفِ في إحياء آثار السلف، فقد تَقَفُ المادَّة دُون أن تتَّسع لاستجابة مَنْ يطمحون إلى بَعَث القديم ليكون مددًا للجديد، أحسنَّ الأستاذ بذلك، فواصل التعريفَ المُوجز بهؤلاء الأعلام، وكانَ في إيجازه الدقيق لا يغفلُ الملامحَ البارزة في أدبٍ من يتحدث عنه، وربَّ إيجازٍ شَفَى وكَفَى، وربَّ تطويلٍ أخلَّ وأملَّ، وإخاله شعرَ بيزدِ الراحة حينَ فرَغَ من موسوعته الحافلة قائلاً لِقَرَاء المشرق والمغرب معاً: هَاؤُم اقْرَؤُوا كتابيه.

وإذ كُنَّا في المشرق نَعْرِفُ المشتهرين مِنْ هؤلاء، أمثال ابن خلدون والإدرسي وابن بطوطة وابن آجَرُوم الصنهاجي، والمازري والجَزُولي، فقد أَحْصَى الأستاذُ فيضاً غزيراً ممن لم نَعْرِفْ عنهم شيئاً، مثل عبد العزيز القشتالي، وأبو القاسم الزياتي، وابن إدريس، والسنوسي، وبُوجعفر بن عطية، وبو العباس الجرادي، وميمون الخطابي، ومالك بن المرحَّل، وعبد العزيز الملزوزي، والأمير سليمان الموحد، وعثمان السلاجي، وابن غازي، وابن زاكور، وابن الطبيب العلمي، وابن الرنان، وأبو عبدوس المكناسي، وأبو بكر ابن شيرين، وابن رشيد، وأبو القاسم الشريف، وأبو الحاج الفاسي، وأحمد زروق، وعبد المهيمن الخضرمي، وأبو العباس العزفي وغيرهم.

وأذكر أن بعض الناقدين أخذَ على الرجل البَحَّاث وقُوفَهُ عند التراجع، دُون نظرةٍ شاملةٍ للمجرى العلميِّ في كل عصر، وهذا هو الظلمُ بعينه، لأنَّ النظرة الشَّاملة للمجرى العلمي في كل عصر كما يقولُ الناقد - لَنَ تأتي إلا بعد دراسة هؤلاء والوقوف على مؤلفاتهم المختلفة، فكَتُون قد وَضَعَ اللَّبَنَات القوية في أساسِ التاريخ

(١) (مفكرون وأدباء) للأستاذ أنور الجندي، ص ١٤٢.

العلمي والثقافي لموطنه، وَلَنْ يرتفع بناءً ما دون أساس وطيد، وَلَوْلَا كُتُب التراجم ما تسنى لتاريخ الأدب في المشرق أن ينهضَ على قدم وساق، أليسَ واضعُ هذا التاريخ قد اعتمدوا أولاً على كُتُب التراجم، فطالَعُوا الأغاني ومعجم الأدباء، والخريدة واليتمة والدجّية ووفيات الأعيان، والوافي بالوفيات، وما أعجزُ عن حصره مما يدور في هذا النطاق حتى اكتمَلَ الأساسُ العلمي، وقام البناءُ التاريخي على دعائمه الراسخة! على أَنَّ لقراءة التراجم لذةً لدى القارئ، لا يجدها في السرد التاريخي المتناسك، وبهذه اللذة الأدبية المحققة أمكن غير المتخصص أن يطالع كتابَ النبوغ في شوقٍ ونهم، أما المثقف المتخصص، فقد احتضنه احتضاناً، ورأى فيه بذراتٍ صحيحةً ستؤتي أطيب الثمار.

وقارئُ المجلّات الأدبية والعلمية في مصر والشام وغيرها من ربوع الشرق يُطالع اسمَ الأستاذ عبد الله كنون بين كبار الكتاب، لأنّه دأبَ على قراءة ما يصدرُ في الجناح الشرقي قراءة المُشارك المُسهِم بآثاره ناقداً أو مبدعاً، حتى إنّه يستدركُ على الأستاذ محمد سعيد العريان بعضَ ما فاته في كتابه عن الأستاذ مصطفى صادق الرافعي، والعريانُ تلميذُ الرافعي وكانَ موضعَ سرّه ونجواه بضعَ سنوات، وقد نهضَ لكتابة تاريخ الأديب الكبير غبّ رحيله وفاءً بحق التلمذة البارة بالأبوة الحانية، فإذا جاءَ الأستاذ عبد الله من طنجة ليستدرك بعضَ ما فات المريد اللاصق فمعنى ذلك أنّه ملّمَ بكل ما يتعلّق بالرافعي رحمه الله.

كما أنّ مناقشاته الكثيرة لكبار الأدباء في مصر والشام والعراق تُنبئ عن تتبّع يقظ، وهو من الجراءة الأدبية العاقلة بحيث يحوزُ إعجاب قارئه مهما خالفه في منحاها؛ أذكر أنّي قرأتُ قديماً ما قاله عن المصلح الكبير عبد الرحمن الكواكبي، وقد ذهبَ إلى أنّ كتابَ المشرق قد تعمّدوا غمطه، وإهمال تاريخه، على حين قد أفاضوا في حديث المصلحين الكبيرين، محمد عبده وجمال الدين الأفغاني، وهو لا يقلّ عنهما. . ومكانة الكواكبي رحمه الله لا تُنكر، ولكنّ عدمَ تردّد ذكره لا يرجعُ إلى الغمط والتكران في شيء، لأن الرجل العظيم لم يترك تلاميذَ تشيّد بفضلِهِ كما ترك جمالُ الدين: محمد عبده وسعد زغلول واللقاني والمويلحي والهللّاوي، وكما تركَ محمدُ عبده: محمد رشيد رضا ومصطفى عبد الرازق ومحمد مصطفى المراغي، فالتلاميذُ قد كتبوا وأذاعوا.

وللقاريء أن يعجب كيف أهمل حديث العلامة محمد فريد وجدي، وانتشر حديث من لم يبلغ مبلغه من أساتذة الجامعات، لأن وجدي العظيم لم يكن له حواريون يشيعون آراءه، وسواء قد اصطنع من يُبدى ويُعيد في نجواه.

ولد عبد الله كنون في مدينة فاس سنة ١٩٠٨م، ونشأ في أسرة مباركة ذات مجد علمي مشهور، فوالده ممن اشتهروا بالتأليف العلمي، وله ندوة بمنزله رآها الطفل الصغير وتأثر نفسياً بملابساتها، وجدّه من كبار أساتذة جامعة القرويين، وحين وقع الاستعمار الغربي البغيض على البلاد كالليل الحالك، هاجر الوالد بأسرته من فاس، لأن الفرنسيين قد تعقبوا المجاهدين بها تعقباً ظالماً، فقتلوا بعضاً، وسجنوا بعضاً، والشيخ الكبير يحب الهدوء بعد حياة طويلة الكفاح، فهاجر إلى (طنجة) إذ كان له بها نسب قريب، وهي مدينة هادئة لا ترصد لها أفاعي المستعمرين.

وفي جو المدينة الهادئ استطاع الصبي الناشئ أن يجد مجالاً للتربية والثقافة، وكان والده حريصاً على أن يرثه علماً وتأليفاً، فقدّر الله أن يرثه ويفوقه، وقد دفعته حماسة الشباب إلى الكتابة مبكراً في الصحف، ورحت المجلات شرقاً وغرباً بإنتاجه الفكري، وكانت مجلة الرسالة - وهي في صدر المجلات الأدبية بالشرق العربي - تحتضن آثاره، وهو في مقتبل عمره، لأن حديثه بها عن المتنبي وبشر بن عوانة وغيرهما دلّ على نضوج فكري ملموس! والرسالة لا تشجع الضعيف، ولا تُجامل القوي، فكان نشرها مقالات الأديب الناهض (كنون) شهادة علمية بارتقائه، وقد أمدته بثقة تدفع للأمام.

ثم تخطفت المناصب العلمية والسياسية معاً، إذ صار مُدرّساً بإحدى الكليات التابعة لجامعة القرويين، فرأى فيه التلاميذ مثلاً جديداً للمدرّس المثقف، حين يمزج العلم بالأدب، وينزل إلى مستوى الطلاب، بعيداً عن غموض الشروح، وثقل الحواشي، وضيق المتون، وكانت صحيفة الميثاق المغربية لسان حال جماعة العلماء بالقرويين، فتصدّر للكتابة بها، وانتُخب رئيساً لرابطة علماء المغرب على حداثة سنه، وعضواً بمجلس إدارة الجامعة، وعضواً بالمجلس الأعلى للتخطيط، وسما به الحظ، فكان حاكماً لطنجة، فقاضياً كبيراً، فوزيراً ناهضاً. . وذلك لم يأت إليه من فراغ، بل بجهد متواصل، وعمل دائب كان موضع التقدير.

لقد أُتيحَ لي أن أقابلَ الأستاذ عبد الله كنون بالقاهرة عند انعقادِ المؤتمر الأول لمجمع البحوث الإسلامية سنة ١٩٦٤م، فعرفته من زِيَةِ المغربي، وهرعت لأسلمَ عليه متشوقاً، إذ كنتُ من قرائه، ومُتتبعي آثاره في شَتَى الصحف العربيّة، فوجدتُ من كرم اللقاء وسعة الصدر ما أكبرته، بل لمستُ من تواضعه العلمي حقيقةً نبيلةً تُنبئُ عن صدقِهِ، فقد ذكرَ لي في أول لقاء أنّه خجل من موضوعه الذي قدّمه للمجمع، إذ أنّه اختارَ موضوع (الملكية الفردية في الإسلام) بين الموضوعات التي عرضها عليه المسؤولون، وكان يظنّ أنّه وحده الذي سيتكلّم في هذا الموضوع، فكتبته على قدر طاقته - هكذا قال - ثم وقع في حيرة، حين رأى المجمع قد ضمّ باحثين كبيرين، هما: الأستاذان الجليلان محمد عبد الله العربي، وعلي الخفيف، ليتكلّم الثلاثة في موضوع الملكية الفردية.

وحين وُزعت المحاضرات على الأعضاء، وقرأ الأستاذ عبد الله ما كتبه الزميلان، دُهِش لما وجدّه من غزارة المادة، وشُمول الاستيعاب وجودة الاستنباط، بحيث أصبحَ بحثه جوارهما ضئيلاً كمّاً وكيفاً، ثم ابتسم الأستاذ في هدوء، فقلتُ له: إن المجمعَ يختار عدةَ علماء للحديث في موضوع واحد، ليُكَمَّلَ كلّ متحدّث ما نقصَ من حديث زميله، والمسألةُ ليست مسألة كمّ يا سيّدي، حتى تقوم بنفسك هذه الحساسية، فقال الشيخ في إصرار: أنا أدري بما كتبّا وما كتبْتُ، بعد أن طالعت ما كتبه! وسأخذُ حذري حين يُطلب مني موضوع لاحق.

على أنّي راجعتُ ما كتبَ الأعلام الثلاثة، فلم أجذُ بحثَ الأستاذ كنون يقصر عنهما كثيراً إلّا في الكمّ، والكمّ ليس مناط الحكم، فقد ذكرَ التّصوص الدالة على تشجيع العمل، وتأمين جهود العاملين ضمن ملكية الأفراد والجماعات، وتحدّث عن البذل السّمح في عصر النبوة وما تلاه، وأكّد أن سياسة الإسلام في الأموال مبنية على أصلٍ أصيل من حرية المعاملة، ورفع الحرج عن الناس، ثم ألمّ بفريضة الزكاة ووجوب مُراعاة حقّ الفقير بها، مقارناً بين مواقف أبي بكر وعمر وعثمان، جاعلاً لكل موقفٍ أسبابه ومبرراته، ثم كَرَّ على من يذهبون إلى شيوعية الأموال؛ ففندَ شُبُههم مؤكداً أن مالَ الدولة حقّ مفروضٌ ينال منه الجميع، والمقصود من ذلك كله وَضْعُ الأمور في نصابها، وعدمُ الخروج عما سنّه الشرع، واجتنابُ الأهواء المختلفة، لأنّ الخير في الاتباع، وختم حديثه بقول الله: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً

وَسَطًا لِنَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴿١٤٣﴾ [البقرة: ١٤٣]

والبحث بهذا التحديد المؤيّد بالأدلة جيّد لا غبار عليه في شيء، وقد صدّق الأستاذ وعده، حين تحدث في العام اللاحق بالمؤتمر الثاني لمجمع البحوث سنة ١٩٦٥ حديثاً مشبعاً مستفيضاً عن (الرق في الإسلام)^(١) إذ بدأ بحثه الشامل عن الرّق قبل الإسلام، فطاف بما كان يغمر العبيد من إرهاب عاسف، لدى الفراعنة في مصر، ولدى المجوس في الفرس، متنقلاً إلى اليونان وما أهدروا به قيمة العبيد من قوانين، يباركها فلاسفتهم الكبار، مبيّناً هول ما كابد الأرقاء في إسبرطة من عسف، وانتقل إلى الرومان، فكشف من مظاهر القسوة في معاملة العبيد لدى هؤلاء ما يفزع، إذ كان للسيد أن يقتل عبده وإن لم يفعل شيئاً، فهو كبهيمة تذبح حين يريد صاحبها أن يأكل منها، وفي العصور الوسطى تحدّث عن أنواع الرّق عند الأوروبيين، وعن آراء المفكرين فيهم منتهياً إلى قوله: «إن نظرَ المفكرين إلى الرّق سواء القدامى منهم والمحدثون نظرٌ أثنائيٌّ قاصرٌ عن مفهوم الكرامة الإنسانية». وكان ذلك كلّ تمهيداً للحديث عن الرّق في الإسلام، فأفاضَ الباحث فيما كتبه تحت العناوين الآتية: (الإسلام والرق)، (استرقاق أسرى الحروب ضرورةً وقتيةً)، (الشارع متشوّفٌ للحرية)، (لماذا لم يكن المسلمون هم البادئين بإلغاء الرّق؟)، مؤكداً أنّه لو رُوّعت تعاليم الإسلام في سياسة الأرقاء لما وُجدَ رقيقٌ ما، لأنّه لم يعترف بالرق في عصره الأوّل إلا على سبيل الضرورة المؤقتة، ولَمَّا زالت أسباب الضرورة تحتم أن يزول الرّق نهائياً بمنطق شريعة الإسلام.

هذه لمعٌ مختلفة من بوارق الذهن الصافي الذي يتمتّع به الأستاذ عبد الله كنون، وهو ذهنٌ لم ينحصر في البحث المجرد دون مشاركة عملية في الواقع السياسي والاجتماعي، لأنّ الأستاذ قد شارك في أعمال إصلاحية وسياسية، وقدم اقتراحاتٍ شافية للنهوض بالحياة المغربية سياسياً واجتماعياً وفكرياً؛ وإذا كان حاكماً لبعض الأقاليم، فقاضياً لعدّة محاكم، فوزيراً لبعض الوزارات، فريئساً لجمعية العلماء القرويين، فكلّ هذه المناصب ذاتُ أعباء شديدة في التنفيذ الفعلي، ولا تقفُ عند التصحّح الكتابي.

ومن أعظم مواقفه البارزة، صيحته العالية في وجوه من أرادوا القضاء على

(١) المؤتمر الثاني لمجمع البحوث، من ص ٣٥٩ إلى ٣٧١.

جامعة القرويين سنة ١٩٥٧م، بحجة اندماج التعليم الديني في التعليم العام، وكان الأستاذ ملماً بما يُدبّر للجامعات الإسلامية في المغرب ومصر والزيوتنة والتجف من تدمير يأخذ مأخذ الإصلاح، فظاهرة فيه الرحمة، وباطنه من قبله العذاب، وقد تابع ما أريد بالأزهر من هذا الدمج، حين بدأ الدكتور طه بمقاله الشهير (الخطوة الثانية) تابع ما أريد بالأزهر من كيد، وقَرَّ عيناً حين أبطل هذا الكيد، فظهر برأيه المعارض، وقال فيما قال^(١): «كم أراد البعض في مصر الإيقاع بالأزهر، ولكنهم لم ينجحوا، فقد ثار جدل عنيف حول ما سمي (بالخطوة الثانية) وكاد الأمر يتم لولا يقظة الأزهرين وثباتهم، فسلم الأزهر، ولكن القرويين وقعت».

يقول الدكتور أحمد الحفناوي^(٢) تعقياً على ذلك: «وقد استمرت حملة الشيخ كنون على هذه القرارات حتى أُلغيت، وأتبع ذلك بأن أصدر مشروعاً عن رابطة علماء المغرب برياسته، يوضح كيف يتم النهوض بهذا النوع من التعليم، ثم دعا إلى أن تقوم لجنة بالسفر إلى مصر لدراسة كيف استطاع الأزهر أن ينهض بذاته بعيداً عن الدمج والمحو، وهكذا كانت رحلة عمره تمثل التاريخ الحي لجريمة الاستعمار، وبسالة الإنسان العربي في المغرب، ثم هزيمة المستعمر، وعودة المغرب الشقيق إلى الصف العربي مساهماً في طريق الحرية والبناء».

ولكي يتضح للقارئ بعض مواقف الشيخ كنون - التي أشار إليها الكاتب فيما قبل - عن النهوض بالتعليم الإسلامي في جامعة القرويين، وعن مواجهة المستعمر حين يُرسل بعض أذنا به من ذوي الاستشراق، ليسمّموا الأفق بآراء شاذة تعارض التيار الإسلامي، ولا تقف عند المعارضة فقط، بل تدعو إلى محوه واستئصاله؛ لكي تتضح بعض هذه المواقف، لا بد أن نلّم بمثاليين واضحين لها، ممّا جاهد به الشيخ في سبيل الاستقلال: دينياً في الجامعة، وسياسياً في الأمة؛ لنقدم الدليل.

- ٢ -

عَرَفَ الأستاذ كنون هدفه منذ بدأ يفهم التيارات المتصارعة في وطنه، هذا

(١) مجلة الأزهر، ذو القعدة سنة ١٤١٠هـ.

(٢) المصدر السابق.

الهدف الواضح لعينه، هو ازدهار المجد الإسلامي في حاضره كما كان مؤتلقاً في الماضي، والماضي بأعلامه وأحداثه وانتصاراته شيءٌ مُجَسَّمٌ حتى في نفس الأستاذ، ووسيلة إعادته هي التربية الدينية القويمة، التي تُنشِئ الشَّيْبَةَ على إحياء المجد المندثر، وإعادة الاستقلال الغابر.

وجامعة القرويين هي مصدرُ الأمل المترقّب حين تُعد أبناءها ليكونوا حَمَلَةَ المشاعل في دياجير الغياب، والأستاذ عضوٌ جهير بمجلس إدارتها، ورئيسٌ لتحرير صحيفة الميثاق التي تنطقُ بلسان علماء المغرب، وقد دَرَسَ تاريخَ الجامعة دراسةً مستوفاة، عَرَفَ ماضيها وحاضرها، وأدركَ ما بهما من المحاسن والمآخذ، ففي الماضي أوجدت جامعة القرويين أئمةً وقفوا أنفسهم على خدمة الشريعة وعلوم اللسان، وطافَتْ لهم شهرةٌ في جميع الآفاق، وقد أَلَمَ الأستاذ بشذور من أعمالهم الثقافية فيما كتبه من مقالاتٍ تحت عنوان (ماضي القرويين وحاضرها) نُشرت بالمجلد السادس من مجلة الرسالة سنة ١٩٣٨، وقام الأستاذ بتلخيصها في كتاب (التعاشيب) وإذا كان اهتمامُ الجامعة بعلوم الشريعة وعلوم العربية مما لا شك فيه، فإن دراسة العلوم الفلسفية بها كانت في حاجةٍ إلى إضاءة نيرة انبعثت من مشعل الأستاذ حين تحدّث عن انضمام الأندلس إلى المغرب في أيام المرابطين، فوجدَ من أساتذة الأندلس مَنْ قاموا بالنشاط الفلسفي على أحسن وجهه؛ يقول الأستاذ^(١):

«ومن رسل الثقافة العلمية من أهل الأندلس إلى المغرب أبو بكر بن باجة، الفيلسوف والعالم الطبيعي والرياضي الطبيب، ومنهم أبو العلاء بن زهر، الطبيب البارع المدقّق في تشريح الأمراض، وابنه أبو مروان صاحب كتاب (التيسير في مداواة والتدبير)». ومضى يتحدّث عن ابن رشد وابن الياسمين، ويوسف بن سمعون، وابن البناء العدوي، وابن أبي الربيع العالم الرياضي، والجاديري وأبي القاسم النباتي، وأبو القاسم الغول، وابن حميدة، وعبد الرحمن الفاسي مؤلّف (الأقنوم في مبادئ العلوم) وعبد الوهاب إدراق، وابن شكرون، وكلُّ هؤلاء حُكَمَاءُ أطباء رياضيين، يكتبون في الفلسفة بمعناها القديم الذي يشمل الرياضيات والطبيعات، وكلُّ منهم يحتاجُ إلى دراسة علمية تتوافر أسبابها بالاطلاع على ما تركوا من المؤلفات.

(١) (التعاشيب) للأستاذ كنون، ص ٧٩.

هذا عن الماضي . . أما الحاضر، فقد أشار الأستاذ إلى فترة الهمود التي أعقبت فترة الحركة، وهي دَوْرَة نراها دائماً في تواريخ العلوم والعلماء، وقد مرّت بالأزهر كما مرّت بسواه، هذه الفترةُ تمثّل فترة أنكماش واكتناز، وفيها تنحصرُ الدراسة في علوم الشريعة وعلوم اللسان على نحوٍ تقليديّ لا أثر فيه للابتكار، ويرى الأستاذ للخلاص من هذا الهمود، أن تعود الدراسة إلى مُحيطها الشامل الفسيح، وذلك^(١) بأن «تتعدّد أقسام الجامعة، فتخصّصَ كُليّةٌ للدراسات الإسلامية المحضة، وهي الأصلُ في إنشائها، ثم تخصّصَ كُليّةٌ للأدب تصلُّ ما انقطع من مسائله بما جدّ من قضاياه المختلفة في العهد الحاضر، وكليّتان للطب وللعلوم نسُدُّ بهما مفارقنا في الحياة العلمية العملية العصرية، التي ما فتئنا نسمع التبشيرَ بها، والوعدَ باستقبالها منذ ربع قرن، ولا نجدُ لها أثراً». ولعلّ الأستاذ قد قرّرَ عيناَ حين رأى هذا الوعد قد تحقّق في المغرب على نحوٍ محمود.

هذا عن التعليم، أمّا جهادُ الرجل في تحطيم أفكار الاستعمار، والدعوة إلى الاستقلال التام دون انتماء إلى اتجاه أوروبي، فقد أبلى فيه بلاءً حسناً، وجهاده في هذا النطاق لم يخرج عن قضية التعليم، فقد حرصَ المستعمرون على محو اللغة العربية من البلاد، وانهجُوا في ذلك طرقاً شتى باءت جميعها بالفشل الذريع، وأوّل هذه الطرق محو اللغة العربيّة نهائياً وقيامُ اللغة الفرنسيّة مقامها، وهو ما عبّر عنه المسيو (جود فودي منين) إذ قالَ في بحثٍ له عن التعليم المغربي: «من الخطر أن نتركَ كتلةً ملتحمة من المغاربة لُغتها واحدة، وأنظمتها واحدة؛ يجب أن نستعمل لفائدتنا الحكمة القديمة (فرّق تسد). ووجودُ العنصر البربري أداةٌ نافعة لحفظ التوازن مع العنصر العربي، ومن الممكن أن نستعمله ضدّ الحكومة المراكشية نفسها!».!

وهذه خطة أوّلَى ثبت فشلها، لأن قيام اللغة البربريّة مقام العربيّة بالمدارس لم يثمر أدنى ثمرة في التغلّب على العربية، حين أسس الاستعمار مدارسَ خاصّة بأبناء البربر، جعلت تدرّس البربريّة والفرنسيّة فحسب! فلم تُجد شيئاً، وإزاء هذا الإخفاق رأى المسؤولون أن تقوم اللغة الفرنسيّة وحدها مقام اللغتين، لأنها لسان المدنيّة والحضارة، وحاولوا كثيراً من الجُهد، الذي أسقطه علماء القرويين ومشايخ

(١) (التعاشيب) ص ٨٧.

الكتاتيب، ووعاظ المساجد في التحذير من هجر العربية! ففشلت الخطتان معاً!! .

وقد كتب الأستاذ الكبير علاء الفاسي بُحوثاً ضافية^(١) تسجّل خطوات هذه المكيدة، وتعلنُ فشلها، ثم رأى القوم أن يرجعوا إلى شيء معقول في رأيهم، وهو محاربة اللغة العربية الفصيحة عن طريق استعمال اللغة العامية الدارجة على لسان الشعب، لتُصبح لغة الكتابة والقراءة والبحث، وقد كتب المستشرق (م. كولان) بحثاً تحت عنوان (العامية المغربية) يدعُو إلى هذا التهجّج بعد مُقدمات مأكرة تُعرض كيف أخفقت الفصحى في رأيه عن مجاراة العصر، ويرى أحدَ حلّين: أن يُستغنى عن اللغة الدارجة والعربية معاً مع تعميم اللغة الفرنسية، وجعلها أداة الثقافة، والحلّ الثاني هو ما اتجه إليه المسيو (جود فوري مينين) من إحلال اللغة العامية الدارجة، واستبعاد اللغة العربية، ووضح أنّ (م. كولان) كان يُرحّب بالحلّ الأوّل ويتمنّى تحقيقه، ولكنّه جاء بالحلّ الثاني لاعتقاده عدم قبول ما يراه، فإذا تعدّرت الفرنسية فلتكن العامية الدارجة، فهذا أهونُ من رُسوخ العربية ذات الخطر بمبادئها وقرآنها وتراثها الحفيل! وقد واجه الأستاذ عبد الله كنون مقترحات (م. كولان) بنقِدٍ هادم مُسهب لا سبيل إلى ذكره جميعه، ولكننا نلتقط منه ما يمحوه محوّاً على إيجازه، قال الأستاذ كنون (بتصرف كبير في حذف بعض المسائل نظراً لضيق المقام)^(٢):

«إنّ الأزمة التي يتحدث عنها الأستاذ المذكور لا وجودُ لها إلا في مخيلته، وفرنسا قد مضتْ على فزَسة التعليم منذُ نزلت هذه البلاد، ولكنها لم تقدّر أن تخلقَ هذه الأزمة، لأنّ الشعب المغربي جدّ متمسّك بعربيّته، ويقدمها في الطلب على كلّ لغةٍ أخرى، كما أنّ عامية المغرب هي أقربُ اللهجات إلى الفصحى لكثرة ما تشتمل عليه من الكلمات الفصيحة، وهي لا تزال مُحفَظَةً بتصاريف الأفعال، ومُراعيةً الفرق بين المذكر والمؤنث وما إلى ذلك، وقد سلّم المغربُ من ذلك التسلط الأعممي - بالنسبة لدولٍ عربيةٍ أخرى - وبقي محتفظاً بصيغته العربية، وزادَ قُربُه من الأندلس استعراباً وشدةً تمكّن من العربية، وإذن فليس في المغرب أزمة لغة، وإنّ

(١) تراجع بحوث (السياسة البربرية في مراكش) للأستاذ علاء الفاسي بأعداد مجلة المسلمون (السنة الأولى، سنة ١٣٧١).

(٢) (التعاشيب) ص ١٠١.

كانت هناك أزمةٌ فهي أزمةُ التعليم، لأنَّ المغرب - حين كتابة الرد - ليس فيه غير ثلاث مدارس ثانوية، وهي كالمدارس الابتدائية قُرّر التعليم فيها بالفرنسية وحدها! أما العربية فتلقّى كلغةٍ إضافية في حصص قليلة جداً، وليس بالمغرب تعليم عالٍ أصلاً، لا بالفرنسية ولا بالعربية، ما عدا التعليم الديني بالقرويين، ولا أدلّ على سوء نية الاستعمار في المغرب من أن المستعمرين أرادوا عام ١٩٣١ أن يتبعوا مذهب (فرّق تسد) وراحوا يُدخلون في روح أهل المغرب أنهم نشؤوا من أصلين عربي وبربري، ليشيروا الحفاظَ بين أولئك وهؤلاء، ولكنَّ أهل المغرب تنبّهوا لهذه الدسيسة وثاروا عليها فباعت بالخذلان».

إن إحساس عبد الله كنون بأصالة المغرب ديناً وثقافة وحضارة دفعه إلى الإشادة به، ومجابهة من يقف في وجه هذه الأصالة! وقد أشرتُ من قبل إلى بعض آثاره المنشودة في إحياء ذكرى النوابع من بني وطنه، وقد أدّت هذه الآثار دورها على الوجه الأكمل، وأنقل هنا بعض ما قالته مجلة الكتاب عن أثر قيم للأستاذ كنون، لم أشِر إليه من قبل، وهو كتاب (مدخل إلى تاريخ المغرب) حيث قالت^(١):

«وقد لفتَ نظرنا في هذا الكتاب أنّ المؤلف حرص على أن يصوّر عصورَ المجد والازدهار والتقدم في بلاد المغرب تصويراً رائعاً، يجعل القارئ ينزعُ إليها، حتّى تتمثل صورة الوطن المغربي في نفوس أبنائه، وهي فاتنة المعارض، بعيدة عن الصور القاتمة السود، التي تعجّ بالاختلافات والاضطرابات فتتمثل أمام النشء في أسوأ معارضها، ولم يفتِ المؤلف، وهو في معرض القصّ التاريخي أن يُصوّر الحالة الاجتماعية والأدبية في كلّ عصرٍ من العصور، حتّى يستطيع القارئ أن يتابع مدى التطور الذي خضعت له البلاد، في سلسلة الدول المتعاقبة عليها، وبهذا صار الكتابُ مرآةً صادقة تتجلّى فيها أحوال المغرب وأخباره في معرضٍ من التحقيق الذي حرص المؤلف عليه في بعض المسائل الخلافية، حتّى يكون ميزان الحكم صحيحاً لا يميل عن صواب، ولا ينحرف عن حق».

وقد تعدّدت رحلات الأستاذ إلى القاهرة، ليلقي في مؤتمراتها العلمية بحوثه الرصينة، فكان ما يختاره من هذه البحوث ذا صلةٍ حميمة بالمغرب ورجاله، وأذكر أنّه في أول مؤتمر شهده لمجمع اللغة العربية قد جعل موضوع حديثه (أثر المغرب

(١) مجلة الكتاب، أكتوبر سنة ١٩٥٢.

في العلم واللغة) وهو موضوعٌ يحتاج إلى كتابٍ مستقل، لا إلى بحثٍ يلقي في مؤتمر علمي، ولكن الأستاذ قد اضْطَفَى من العناصر العلمية ما يشبع السامع ويُقنعه مادةً وتعبيراً، فقد أعلن أنه باختياره هذا الموضوع يؤدي واجبَ التعريف ببلاده ذات المجد الحفيل، وبعد أن أفاضَ في ذكر التقدّم الحضاري في المغرب الحديث والقديم قال: «وباستطاعتكم أيها الزملاء الكرام أن تذهبوا معي إلى بلادكم المغرب فتشاهدوا بأمّ العين معالمَ هذه الحضارة ماثلةً أمامكم في أسلوبِ البناء، وفنّ المعمار وما يزيّنه من زخارف ونقوش، وتوريق وتذهيب وتطعيم وتنزيل».

وأنهَب كثيراً فيما يجري هذا المجرى بإشباع وإمتاع، ثم انتقلَ إلى الآثار العلمية لأدباء المغرب وباحثيه فاختارَ بضعةَ أعلام من كبار القوم لينوّه ما أبدعوه من الجديد، وقد فوجئت في حديثه بشيء لم أعرفه، وأسجّله هنا لطرافته، حيثُ أعلن أن المغرب يكتبُ أرقام الحساب على النمط الأوروبي في رأي من لم يعرف حقائق التاريخ، لأنّ الأرقامَ الإفرنجية هذه أرقامٌ عربيةٌ أدخلها البابا سلفيستري الثاني إلى أوروبا، وأشاعها هناك حتى حلّت محلّ الأرقام الرومانية لسهولة استخدامها وضبطها، والعربُ أوّلَى باستعمالها لأنّها منهم وإليهم، أمّا الأرقامُ الذائعة في المشرق فمجلوبةٌ من الهند، وأوّلَى بالعرب أن يرجعوا إلى أرقامهم التي أهدوها إلى العالم المتمدّن مُعْتزّين بها، وتلك حقيقةٌ مذهشةٌ سجّلناها كتب التراث المغربي، ووقفَ عليها الأستاذ كنون في كتاب (تلقيح الأفكار) لابن ياسمين الرياضي المغربي وهو مخطوط محفوظ بالمكتبة العامة بالرباط^(١).

وتتابعت محاضراتُ الأستاذ في المؤتمر اللغوي وهي تدور حول التّراث العلمي للمغرب، وأُشيرُ إلى محاضرتين رائعتين إحداهما عن ابن البناء العددي والثانية عن ابن رشد الفقيه، أما ابنُ البناء فهو نابغةُ الرياضيات الذي شملتْ مؤلّفاته علوم الجبر والحساب والمقابلة، والعدديّ نسبةً إلى العدد، وهو ما يشملُ الرياضيات جميعها، كما كانت ميزته العلمية فيما كتب عن علم الفلك، وهي ميزاتٌ شهد بها أساطين العلم الغربي في أوروبا من أمثال سارطون وويكه وشوتر، وكان المظنون بابن البناء أن اشتغاله بالعلوم الرياضية قد عاقه عن التبحّر في العلوم الإسلامية والعلوم العربية، ولكنّ الأستاذ كنون ذكرَ له خمسةً وثمانين كتاباً بأسمائها، منها اثنان وثلاثون كتاباً

(١) مجلة مجمع اللغة العربية، الجزء الحادي والعشرون سنة ١٩٦٦، ص ٢٨.

في بحوث التشريع واللغة، وأربعة عشر كتاباً في العلوم الرياضية، وثلاثون كتاباً في المؤلفات الفلكية، وباقي المؤلفات في المسائل الفلسفية الحكمية، وهذا الجهد العلمي جبارٌ في تنوع مسائله، واختلاف مواده، وقد أفصح المحاضر عن ذلك بما لا مزيد عليه، كما وقفَ عند أمورٍ نُسبت إليه تعدّ من الخوارق، وحاول تعليلها تعليلاً علمياً، كما حاول دَخُض ما اتَّسم بالمبالغة في كثير منها، فصدر عن فهم ناقد، وبصر سديد^(١).

وأما ابن رشد فقد خصّه الأستاذ ببحث عن فقهه التشريعي، لأنّ الكتابة عن فلسفته كثيرة، ولم تنل بحوثه الفقهية كثيراً من الاهتمام حتى تُنوسيت أو كادت، مع أنّه من أئمة المذهب المالكي، ولا يقلّ كفاءةً ودراية عن أعلام هذا الميدان، لذلك اختصّت محاضرة الأستاذ بإيضاح هذه المنزلة الرفيعة للفيلسوف في مضمار الفقه، وقد ذكر إحاطة ابن رشد بمذهب مالك، مع عدم التقيّد به إذا كان في المذهب الأخرى التي يعرضها عرضاً موقفاً ما يرجح الذائع المشهور في المذهب المالكي، وقد أخذ على المذهب مخالفته للأصول في بعض المسائل، وعلّل ذلك بعدم وصول النصّ إلى الإمام، أو عدم صحّته لديه، فهو في صميمه لم يتخلّ عن المذهب المالكي، ولكنّه واسعُ النظرة شاملُ الاطلاع، وينظره الواسع أوجد مدرسةً جديدة في الفقه المالكي، كما انتقد مسائل كثيرة في المذاهب الأخرى، وألزم أصحابها بالرجوع إلى القواعد الأصولية التي اصطَلَحوا عليها، ولم يقتصر في الإشادة بالمذاهب الفقهية على المشتهر منها، بل ناقش غير المشتهر مؤيداً ومعارضاً، وله اهتمامٌ بارز بالعلامة الأندلسي الكبير ابن حزم، على أنه انتفع كثيراً بمعلوماته الطيبة والطبيعية والفلكية في الترجيح والاختيار للأقوال، وبناء الفقه على النظر العلمي الصحيح.

وقد لاقت محاضرة الأستاذ كنون اهتماماً كبيراً من أعضاء المجمع، وعقب عليها الدكتور إبراهيم مذكور والأستاذ محمد بهجة الأثري، والأستاذ عباس حسن، والشيخ محمد محيي الدين عبد الحميد تعقيماً ناقداً مقدراً، ذلك كلّ سجّل بمجلد البحوث والمحاضرات الخاصة بالدورة الرابعة والثلاثين سنة ١٩٦٨.

(١) البحوث والمحاضرات للدورة الثالثة والثلاثين للمجمع، سنة ١٩٦٦م، ص ٢٠٥ وما بعدها.

هذه إلمامة موجزة بحياة الأستاذ العلمية، وبها إشادةٌ ببعض ما أخرج من الذخائر العلمية، وقد لاحظتُ أنه يختارُ لبعض آثاره أسماءَ تدلّ على التواضع الأدبي مثل (التعاشيب) و(خلّ وبقل) وما يدورُ هذا المدار، وهو طريقٌ سبقه إليه الأستاذ إبراهيم عبد القادر المازني حين سمّى كتبه بمثل (خيوط العنكبوت) و(حصاد الهشيم) و(قبض الريح) مع أنّ كثيراً من القدماء كانوا يُسمّون كتبهم أسماء ذات صلف وبريق مثل (عرائس المجالس) (زهر الآداب) (بدائع الزهور) ولكلّ عصرٍ اتجاهاته، بل لكلّ مؤلف مشربه الحبيب.

وقد لبّى نداء ربه سنة ١٩٩٠ على حين كان مولده ١٩٠٨ فعاشَ عمرًا سعيداً بالعمل، حافلاً بالجهاد، وترك آثاراً شاهدة يقرؤها الدارسون في ثقة وإعجاب، وله منهم الشناء الحافل، ومن الله جزيل الثواب.



عجاج نويهض لسان القضية العربية

- ١ -

من الذين يظللهم الله في ظل عرشه يوم لا ظلّ إلا ظله، شابّ نشأ في عبادة الله، وقد ألفَ بعضُ الناس أن يفهموا العبادة على أنها محصورة في الصلاة والصوم، وما يلحقُ بهما من أذكارٍ وتسابيح، ولكنهم لا يعلمون أنّ العبادة الحقيقية هي العملُ الجادّ في إصلاح المسلمين، والدعوة إلى اليقظة الواعية التي تدفع المسلم إلى كرامته والتمسك بحقه، واستقلال وطنه، والهجرة من مناخ القيود إلى فضاء الحرية! هذا الفهمُ الواعي البصير قد رُزقه الشابُّ الناهض عجاج نويهض، فمنذ أتمّ تعليمه بלבnaan في سنّ التاسعة عشرة، جعلَ من دأبه العملَ على يقظة العرب بخاصّة والمسلمين بعامة في كلّ قطر من أقطار الأرض، وقد التحقَ آنئذٍ بجريدة القلم السورية، ليكتبَ عن مُعضلات السياسة الاستعمارية كتابةً من يحرسُ على قراءة ما يقعُ في يده من شتّى صحف العالم، التي تنطقُ بالعربية والفرنسية والإنجليزية، وهي قراءةُ الناقد الناصح الذي يرى حبالاً تنصب لمحو العروبة والإسلام، ويقعُ في شراكها قومٌ من المسلمين والعرب، لا يفتنون للخديعة الماكرة، ولعلمهم يفتنون، ولكن إغراء المنصب والجاه والمال يحثهم على أن يسيروا في ركب الأعداء مهلّلين.

ظلّ هذا الشاب البصيرُ يجاهد في صحيفة القلم عامين ونصف، حتى دارت الدائرة على الحكم الفيصلي في سورية، وخابثَ آمالُ عقدها العرب على حُلّفاتهم مخدوعين بأمانيتهم الكاذبة، واتّضح الحق الجهر لكل ذي عينين، فآثرَ عجاج أن يتركَ سورية إلى فلسطين بعيداً عن سيطرة الفرنسيين، وفلسطين يومئذ في مهبّ الحريق، إذ اندلعت شرارة الصهيونية الماكرة، يؤيدها المندوبُ الإنجليزي في

البلاذ، ووقف المسلمون بقيادة الحاج محمد أمين الحسيني يقاومون الفريقتين ما استطاعوا.

وهنا تقدّم عجاجٌ إلى سماحة المفتي باذلاً كلّ جهوده المدخرة في محاربة الغزو الصهيوني، وكانت قراءته المتصلة لصُحف الغرب، ومؤلفات السياسيين هناك، تقنعه كلّ الإقناع أنّ القومَ يُبيتون المكيدة لنهب فلسطين جميعها، وأنّ دوره الإيجابي هو تنبيه المخدوعين إلى هذه الحقائق الكاذبة، فجعل يطوفُ بالبلاذ، ويؤمّ المساجد دافقاً أجراس الخطر، ثم رأى أنّ المسألة أكبر من أن تنحصر في عظة بمسجد، أو كلمة للطلاب في مدرسة، بل لا بدّ من إعداد قاعاتٍ خاصّة بعواصم البلاذ، كنابلس والرملة ويافا والقدس ورام الله، لإيضاح ما يُنتظر من الكوارث، ولكن كيف تُهيأ قاعاتُ الاجتماع في وُضع لا يستكره المندوب الإنجليزي، فيرمي المجتمعين بالشغب، وتُتاح له الفرصة لاعتقال كثير من الأبرياء!

لقد جاء إلى سمعه أنّ جمعيةً إسلامية نشأت في مصر هي جمعية الشبان المسلمين، وأنها تَبْسُطُ يدها للتعاون مع مَنْ يُناصرون فكرتها في كلّ بلاد الإسلام، فسارعَ إلى الذهاب إلى مصر، وقابل رُوح الجمعية الملهَم، وصاحبَ فكرتها الأولى، ثم هوَ بعدَ إنشائها واسطةً عقدها، والمتحدّث عنها في مجلاته دون أن يكون له منصبٌ رسمي بها، ذلكم هو الداعية الإسلامي الكبير الأستاذ محب الدين الخطيب مؤسس المطبعة السلفية، وصاحبُ مجلة الفتح.

لقد سعى الأستاذ عجاج نُوبهض إلى لقاء الأستاذ محب الدين الخطيب، واستمع طويلاً إلى ما يراه من رسالة الجمعية الناشئة، وقد قال صاحب الفتح: إنّ الأحزاب السياسية تتقاتلُ في مصر بشأن قضية الاستعمار والمناداة بالاستقلال فحسب، ولكنّ ذلك لا يكفي أمامَ خطرٍ داهم، فصُحفُ التبشير تُشر ما يؤرّق الجنوب، ومقالاتُ التبعية المستكينة لتقاليد الغرب المنافية للآداب الإسلامية لا تقفُ عند حصر، والتمرد على آداب الفضيلة يجدُّ الهاتفين المُلَحّين، والنعراتُ الإقليمية تجد مرتعاً خصيباً لتفريق الأمم الإسلامية تحت شعاراتٍ قومية أو عرقية تُساق لتوهين العلاقات بين الأمة الواحدة.

كلُّ ذلك بجب أن يجد الردّ المهاجم من فريقٍ مؤمنٍ يدحض ما ينتشر من ترّهات، لذلك قامت جمعية الشبان المسلمين بدور التوعية الراقية، حيث تلقى

المحاضرات أسبوعياً لتفصح أساليب التحلل، والذين يقومون بهذه المحاضرات أئمة من صفوة المخلصين، وأكثرهم أساتذة في الجامعة والمعاهد العليا والأزهر، ومنهم الأطباء والمحامون والمهندسون، وقد لمسنا من إقبال الشبيبة ما تطمئن إليه النفس! وفي قانون الجمعية ما يرحب بإنشاء فروع لها في شتى ربوع الإسلام، فإذا كانت فلسطين تجدُ سميعاً لهذه الدعوة فإن المركز العام بالقاهرة يمدُّ إليها يدَ العون، ويضع منشوراته ومطبوعاته تحت أيدي القائمين عليها، وقد سمعَ عجاج كل ذلك، فوعد بالعمل على إنشاء فروع متعددة لجمعية شبان المسلمين في ربوع فلسطين، ورجع مزوداً بما أراد من قانون الجمعية، وما قدّمته من مطبوعات.

لم تمضِ عدّة أسابيع حتى استجاب مفتي فلسطين الأكبر سماحة الحاج محمد أمين الحسيني إلى ما عرّضه عليه الأستاذ عجاج نويهض، فبادر بالليل على إنشاء عدّة فروع للجمعية الناهضة في القدس ويافا ونبلس وغيرها، وكان الشّباب الفلسطيني متعطشاً إلى الارتواء من فيض ما يقال في محاضرات الجمعية، فما ذاع صيتها حتى انضمَّ إليها صفوة الشّباب الفلسطيني، وكان الأستاذ عجاج عجاجاً كاسمه، فلم يهدأ لحظة بل سارع بالسفر إلى الأماكن المتعددة، ليفتح الفروع الجديدة، ويلقي كلمات نارية تصوّر الوضع المأسوي للعالم الإسلامي جميعه!.

وقد أعدّ لكل فرع من فروع الجمعية برنامجاً للمحاضرات الأسبوعية، كما لاحظ أنّ بعض المتكلّمين يريدون أن يتحدّثوا عن المقررات المشتهرة في علمي الفقه والأخلاق، إذ عرّض كثيرٌ منهم أن يتحدّث عن الصوم والصبر والشكر والحجّ وما يدور هذا المدار، ولكن الأستاذ عجاج أشار بأن تكون دروس الفقه والأخلاق في المساجد العامة، أو في أندية الطلاب بالمدارس الابتدائية والثانوية، لأنّ هذه الدروس مع ضرورتها القصوى للنشء، لا تجدُ مكانها في محاضرات التوعية السياسية والاستقلالية، تلك التي ترصد التيارات المعادية في الغرب، وتحاول تنفيذها، وتلمحُ خيوط المؤامرات الماكرة، فتعلن عن مصدرها واتجاهها.

وقد بدأ فألقى عدة محاضرات ثقافية ترسم المثل لما يريد، فدهش الناس لما سمعوا من أمور السياسة، ورأى الأستاذ ألا يقتصر على جمعية الشبان بالقدس، إذ عليه أن يجذب الشّباب الفلسطيني في البلاد المختلفة، فحدّد مواعيد لمحاضراته بنابلس ويافا والرملة، وكان يُستقبل عند حضوره استقبال الأستاذ الأثير، ولم يفتّه

أن يترك بعد المحاضرة زماناً للنقاش حول ما قاله تأييداً أو تفنيدياً، فكانت التعقيبات المتوالية امتداداً لمحاضرة أخرى يفرضها الواقع المشاهد، ومن حسن حظ هذه المحاضرات أن كثيراً منها نُشر في مجلة الفتح الإسلامية، كما تُنشر محاضرات القاهرة، ولو جُمعت هذه الكلمات في أفقها الممتد لكانت قطعة حية من التاريخ.

إن النظرة الشاملة المحيطة بالعالم الإسلامي جميعه كانت نظرة عجاج نويهض، ومن لطف الله بالأمة الإسلامية أن بعث بها أفراداً يتألمون لكل حدث يقع من أحداثها شرقاً ومغرباً، لأنهم يعرفون أن الإسلام أمة واحدة، وأن الحواجز السياسية حواجز مصطنعة في دين يقول تنزيله: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ فالواحد من هؤلاء الكرام يظل مؤزق الجفن لحادث سئى يسمعه عن أخيه في اليابان أو الصين أو أندونيسا أو المغرب أو الجنوب الأفريقي، لأن حمية الإسلام تجعل المسلمين جميعاً بمثابة العضو الواحد، وهذا ما عبّر عنه شاعر الإسلام الأستاذ أحمد محرم حين قال:

وارحمنا للمسلمين تفرقوا وتباعدا في الأرض بعد تدان
فلئن بكيت فقد وجدت مصابهم في منكبي وجوانحي وجناني
من كان أبصر خطبهم فأنا الذي مارسه ولمسته بيناني
ما زلت أجمع بالقريض شتاتهم حتى انقضى أدبي وضاع زماني

وكذلك كان عجاج كأحمد محرم، يجد مصاب المسلمين في منكبه وجوانحه وجنانه، وقد ألقى محاضرة عظيمة تحت عنوان (الإسلام والثقافة الإسلامية، بين أنقره وطهران وكابل) ألقاها بجمعية الشبان المسلمين بنابلس بعد أن شاعت حركة أتاتورك المعادية للإسلام، وانتقل أثرها الأليم إلى إيران وأفغانستان انتقالاً كان مبعث الإشفاق ممن يحرسون على بقاء الإسلام كاملاً غير منقوص في أوطانه، وكان المحاضر واضحاً صريحاً حين قال:

«إن هناك وجهة مشتركة فيما يحدث بتركيا وإيران وأفغانستان، وأبين هذه الوجهة المشتركة - مع التفاوت في مقدارها بين العواصم الثلاث - هو مناهضة الروح الإسلامية خاصة، وعلى طريق يقضي إلى التفصي من الإسلام ومن الثقافة الإسلامية، وهذا واضح سافر في تركيا، وواضح على وجه قريب في إيران، ولا يمكن الحكم عليه في أفغانستان قبل مرور زمن، لأن ثورة عارمة شبت في وجه أمان الله خان داعية الاتباع المطلق لمجريات الأمور في أنقره، والذي يجمع

الحركات الثلاث هو التعمد الصريح لإقصاء الإسلام عن معتزك الحياة في هذه البلاد.

وقد أخذت بعض الصحف في مصر تؤيد هذه الحركات وتعدها - للأسف - نصراً مبيناً، وصحف مصر واسعة الانتشار في العالم العربي، ومن هنا يهبّ الخطر الأليم، وقد يقول قائل: إنّ لهذه الشعوب الثلاثة مزاجاً خاصاً غير مزاج الشعب العربي، وأنّ الثقافة الإسلامية لا تتصل بأحاسيسهم تمام الاتصال، فانفصالهم عن الإسلام لا غرابة فيه! نعم، قيل ذلك من أناس يُبطنون الكيد للإسلام، ويَشْحون بمظاهر التحليل العلمي، ولكنّ ذلك كله إفكٌ، لأنّ العراق في الدول الثلاث ليس عراقاً مع هذه الشعوب ضد الإسلام، ولكنه عراقٌ جماعة من القواد استولوا على الحكم بقوة السلاح، وحاولوا إرضاء الغزب باتباع تقاليده ومعاداة الإسلام، وشعوبهم في صميمها تُنكرهم وتدعو عليهم بالثبور، فالقول بأن المزاج في تركيا وإيران وأفغانستان مزاجٌ يبتعد عن المزاج الإسلامي لا يتفق مع الواقع في شيء.

والغريب أن مراسلي الصحف في أوروبا، يُغفلون أو يتغافلون عن هذه الحقيقة، ويُبرقون إلى جرائدهم الاستعمارية بما يدلّ أن الرأي العام في هذه الدول يؤيد العسكر من الحكام، وتجيء الصحف العربية فتتقلّب هذا التأيد، وكأنه حقٌّ لا شك فيه.

وعلينا ألا نحكم على إيران وأفغان بما تمّ في تركيا، لأنّ الأتراك قد خطوا خطوات جريئة في سبيل التنصّل عن الإسلام إرضاءً لأشياءهم من الممالك الأوروبية، وحكم الطغيان على المسلمين هناك حكمه الدمويّ القاهر، فسكنت النفوس سكون المتربّص المتحفّز، أما الأمر في إيران وأفغان فلا يزال نهب المدّ والجزر، وصاحب الأمر في البلاد يعلمان حقيقة الشعور الإسلامي ومدى تغلغله في النفوس، فيحاولان السير بحذر، وهذا وحده دليلٌ على قوة المقاومة الإسلامية الفاعلة، بل إنّ الثورة قد هبت فعلاً على صاحب الأفغان أمان الله خان وأصبح مصيره في يد الأقدار. ومهما بدا من نجاح الكماليين فإنّ الجيل القادم لا يملكون أمره، وسينقضي حكم هؤلاء، وينشأ جيلٌ يعود إلى أصلاته الغائبة!.

هذا ما قاله عجاج سنة ١٩٢٦ وقد مضت الأيام وتحقّق ما عناه، لأنّ اليقظة الإسلامية في تركيا الآن أخذت تنمو على نحو مطّرد، وتخاذلت أكثر تعاليم أتاتورك

المضطهدة للإسلام! أما إيرانُ فقد تراجعتُ تراجعاً كبيراً عن خطوات التقدّم الانحلاليّ في عهد رضا بهلوي نفسه! وهذا دليلٌ على تسرّعه من قبل، ولم تستطع روسيا الكبيرة أن تُزهق روح الإسلام في أفغانستان بحيث قضت هذه الدولة الصغيرة على كبرياتها الغاشم، ورأت قبورَ جنودها تحفر كل يوم على نحو مرعب، فأثرت الانسحاب!.

هذا تلخيصٌ غير وافٍ لمحاضرة واحدة من محاضرات الأستاذ عجاج، وفي محاضرة ثانية ألقاها بالقدس تحدّث بإفاضة عن الصّراع بين الملاحدة والمسلمين الجغرافيّين، فأوضح أن الثقافة الاستعمارية تنتقلُ في سرعة مخيفة إلى المحيط الإسلامي على يد المخدوعين أو الوصوليين من أبناء هذا المحيط، وهذا أخطرُ ما في الأمر، لأن المتحدّث المسلم يظهرُ بمظهر الناصح المترقّب، وقد فطن الأعداء إلى ذلك فبسطوا لهؤلاء من أسباب السعادة والرفي ما جعلهم ينسّون حقّ الله في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وقد عاشوا في أوروبا زمناً غير قصير، ومُنحوا أرقى الجوائز والشهادات العلمية ليكونوا ألسنة المحتلّين، وقد عادوا ليتحدّثوا عن الماضي الوضيء بما يَمُخُو محاسنه، وبإزائهم نفر آخر من المسلمين أثروا الانزواء في زوايا المساجد والتكايا، دُون أن يَقوموا بواجب العمل الجادّ لنفع نفوسهم أولاً، ولنفع المجتمع الإسلامي ثانياً.

ثم انتشرت المطابع وذاعت وسائل النشر لتكون ألسنة الملاحدة من الأذئاب، وانتشرت الدعوة إلى ما يُسمّى بالحرية الفكرية، ومعنى الحرية الفكرية عندهم هي التحرُّر من الإسلام، ونَبَذُ تعاليمه، وقد غفل هؤلاء عن حقيقة واضحة هي أن الحرية الفكرية في أوروبا التي يُقلّدونها تمنعُ مهاجمة المسيحية في أزوقة التعليم بالمدارس والجامعات، وتعدّ ذلك أمراً خطيراً، ولكنها تُشجّع أذئابها على أن يُهاجموا الإسلام فيما يتحدّثون به عن مسائل علم النفس وعلم الاجتماع والفلسفة! يُهاجمون الإسلام في الكتب المؤلّفة، وفي الجرائد اليومية ذات الانتشار الواسع، ولا توجد جريدة إسلامية الآن لها هذا الانتشار، وأكثر ما ينحو هذا المنحى مجلّات متواضعة لا تصلُ إلّا إلى العوام وأشباه العوام، ثم لا تُعطي جديداً غير المتعارف من شرح لآية وتفسير حديث!.

ومن اللقطات البارة حقّاً، والتي يجبُ أن يقف عندها المتأمل طويلاً،

ما تحدّث به الأستاذ عجاج نويهض عن (النقد) عندنا نحن المسلمين في الشرق، والنقدُ عند الأوروبيين في الغرب، فقد أثبت بالدليل الملموس مما تُخرجه المطابع من كُتُب وصحف، أنّ النقد لدينا عند دُعَاة المتحمّسين قائمٌ على الهدم فقط، فكلُّ ناقدٍ يمسك بيده معولاً ليجتث كلّ تقليد متفق عليه من أساسه، ولا يكاد يرى خيراً في بعض التراث الإسلامي الذي أُشْرِبَتْ حَبَّة الأجيال، بل إنّ منهم من يكتُب المقال تلوَ المقال ليقولَ: إنّ السبيلَ الأوحد للبلاد العربيّة إذا شاءت الارتقاء أن تنقل كل ما هو غربي إلى الشرق نقلاً مطبوعياً دون تعديل، ناكلُ كما يأكل الغرب، ونكتُب من الشمال إلى اليمين كما يكتب الغرب، حتى يصبح الشرق قطعةً من أوروبا! ولا تزالُ معاول الهدم تتردّد دُون بصر فيما يجب أن يُهدم، وما يجب أن يبقى.

أما النقدُ في الغُرب - الغُرب الذي نتبعه ونقلّده في كل شيء إلا في هذا المجال - فهو لا يعتمد على الهدم وحده، بل لا بدّ من البناء، فالدينُ المسيحي بعد الحرب العالميّة لم يُوجّه إليه نقد في أوروبا، بل إنّ الكرسي البابوي في إيطاليا يَسط سُلطته في أصقاع العالم الكاثوليكي، وفي بعض بقاع العالم البروتستانتي أيضاً، لقد كان البابا يدعو أبناء الحرب إلى مُثُل المسيحيّة دعوةً يراها سبيل النصر، فلما انتهت الحرب أخذت هذه الدعوة في الازدياد، وقد أُلِفَتْ في أكثر بلدان أوروبا أحزابٌ تنسب إلى المسيحيّة وتُنادي بها، ودونَ أن يكونَ ذلك مدعاة تأخّر، كما نشأت النزعاتُ الرّوحية في أوروبا وأمريكا، وتألّفت جماعات رُوحية تدعو إلى مبادئها، ومعنى ذلك أن القائمين بتلك الجهود في أمريكا وأوروبا يعتقدون أن مداواة النفوس عن طريق الدين هي أنجعُ طريق للفلاح، وقد صمّم رجالُ السياسة على احترام آرائهم، وأظهروا اعتناقها خطابة وكتابة في الصحف وتأليفاً في الكتب.

ثم يتساءلُ الأستاذ بعد هذا العرض قائلاً: «هل الحركاتُ التي طغَتْ في بلادنا، ولها مريدون وعُمالٌ، ووسائل وطُرق وأساليب، هيَ من حيث استقرارها ملائمةٌ لنفسية الأمم التي تَقطنُ مصر وسورية والعراق والجزيرة، أو هي تُصادِم ما في نفسيّات هذه الأمم من دين وعقيدة وإيمان؟ والجوابُ واضحٌ، لأن برامج التَهتِك ونبذ الفضائل يخالفُ طبيعة الشعب العربي حتى في أيام جاهليته قبلَ مشرق الإسلام، فقد كانَ العربي ذا مبادئ سليمة في حفظ الحرمات، وصونِ الأعراض، والالتزامِ بالوفاء، وتأكيدِ المواثيق، وقد يسقط الرجل في قبيلته إذا زلَّ مرةً واحدة،

وخرجَ عن بعض هذه التقاليد، فتنبَّه قبيْلته، ويُعرف (بالخليع) وكأنَّه مهدور الدَّم، لا يُطالب أحدٌ بقصاص له إذا لقي المصير، فإذا كانتِ الجاهلية ترعى الحرم، وإذا كان سلطان الكنيسة الروحي قد عادَ إلى أوروبا لينشرَ أخلاقَ الدين المسيحيّ على أوسع نطاق! لأنَّه أصلُ كل تجديد يمكن أن يتاح، إذا كانَ ذلك كذلك، فلماذا يكون الهدم وحده هو سبيلنا إلى التقدّم، لماذا يتنكرُ المسلم لما جاء في كتابه ولوعاً بمبادئ زائفة لم تجد الزواج في بيئتها الأولى؟!».

هذه هي الأسئلة التي انتهت إليها محاضرة الأستاذ، وقد أعقبتها إجابات شديدة، هي في صميمها أضواءٌ تبديد الظلام..

- ٢ -

انتقل الأستاذ نويهض من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر حين رحلَ إلى فلسطين، واختارَه سماحة الحاج محمد أمين الحسيني سكرتيراً للمجلس الأعلى الذي يرأسه، فمساعداً لمفتش المحاكم الشرعية في فلسطين، وإذا كانت الوظيفةُ الثانية محدودة الإمكانيات، فإنَّ سكرتارية المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية تعني عملاً متصلاً لا ينقطع، وإذا كان رئيسُ المجلس يضعُه موضعَ الثقة لكفاءته النادرة، فقد كانَ يعتمد عليه فيما لا يستطيع أن يقوم به سواه، كانت المؤتمرات الإسلامية تُعقد في فلسطين وغيرها من عواصم الدول العربية، ويمضي سماحة الحاج محمد أمين الحسيني إلى هذه المؤتمرات ومعه سكرتيرُ المجلس الذي أعدَّ برنامج الوفد الفلسطيني إعداداً يحوزُ القبول لدى أهواءٍ تتباعد وتتقارب، وفي أعضاء الوفود من لا يتكلّمُ العربية، ولكنّه يجيد الإنجليزية مثل مولاي محمد علي ومولاي شوكت علي وهما ممثلاً الهند في كلّ اجتماع إسلامي يُعقد، ولهما رأيُهما النافذ، ونظرهما البعيد، فكانَ الأستاذ نويهض يتولّى الترجمة عن كلّ من لا ينطق بالعربيّة، في جودة وإتقان، يتولّى ترجمة ما أعدّه الوفدون من كلمات، ثم يتولّى ترجمة التعقيبات إلى الإنجليزية ليحجب عنها هؤلاء الفضلاء، وقد وصفته الجرائد حينئذٍ أنه روح المؤتمر، وهو وصفٌ صادقٌ أهله.

ومن المحرجات القاسية التي قابلها مفتي فلسطين أنّ رؤساء الدول العربيّة كثيراً ما يكونونَ ذوي آراء متعارضة، ولكلٍّ منهم مكانتهُ العالية في المؤتمرات وفي غير المؤتمرات، ومحاولةُ التوفيق بين هذه الآراء المتعارضة تتطلبُ صبراً دبلوماسياً

لا حدَّ له، فكان عجاج نويهض مبعوثَ الحاج أمين إلى هؤلاء الرؤساء، ليبيِّنَ لهم بوضوح أنَّ البحث في المؤتمر خالصٌ لوجهِ العروبة ولوجهِ فلسطين، وأنَّ رئيس المجلس الإسلامي الأعلى لا يتحازُّ إلى فريق دون فريق!.

وقد تحمَّل الأستاذ نويهض أعباءَ المجلس عشرَ سنواتٍ كوامل، ثم رأى أن يتفرَّغ لإصدار مجلة (العرب) السياسية، وواضحٌ أن مجلةً تصدر في فلسطين إذا وجدت من يكتبُ فيها من كبار الزعماء في العالم الإسلامي فلن تجدَ المطابعِ الراقية والمراسلينَ المأجورين في شتى العواصم، أضفْ إلى ذلك اتجاهاً العربي الصميم الصريح، فإنَّه ألجأها إلى معارضة قوَى استعمارية جبَّارة، ومكايد صهيونية قاهرة، كانت تضعُ العراقيل في سبيل انتشارها، وقد تحمَّلت المجلة هذه العواصف التي لا طاقة لها بها مدة سنتين كاملتين، وتوقفت عن الصدور بعد أن فتحت العيون على غوامضٍ مبهمةٍ من مكايد السياسة والاستعمار، وجعلت قضية فلسطين واضحةً الاتجاه رائعة الملامح.

وإذا كان الأستاذ قد عجزَ عن مواصلة السير في إصدار جريدةٍ تتطلب من النفقات المادية ما لا قبلَ له به، فلم يعجزَ عن تأليف حزب الاستقلال مع فريقٍ من قادة فلسطين، ليحرِّك القوَى الشعبية في مواجهة الإنجليز والصهيونية معاً! ثم وقعت الحرب العالمية الثانية وحدثت بريطانيا العرب بما سمَّته (الكتاب الأبيض) وتفرقت الآراء على نحو يُؤسف حقاً، وكلُّ يرى نفسه المصيب وغيره المخطيء.

وقد شاءَ القائمون بالأمر أن يُهادنوا الأستاذ نويهض، فاخترأوه ليتولَّى مراقبة القسم العربي في الإذاعة الفلسطينية، وكانت هذه الإذاعة ذات إمكاناتٍ جبَّارة، إذ جعلَ منها الإنجليز منبراً لنصرة الحلفاء أمام النازية والفاشية، فزودت بوسائل الازدهار، وعرف الأستاذ نويهض مكانة هذه الإذاعة الجبَّارة، فقبلَ العملَ بشروط، هي أن يكون القسمُ العربي مستقلاً إدارياً بموازنته وتعيين موظفيه، وألا يتدخل مسؤولٌ حكومي في برنامج القسم العربي واتجاهاته، وألا يدخل يهوديٌّ مهما كان مركزه السياسي والاجتماعي مكاتبَ القسم العربي، وقد قبلت الحكومةُ الإنجليزية هذه الشروط لأنَّها في مآزقٍ إعلاميٍّ، وتريد النهوض بالقسم العربي ليعطي وجهاً كريماً أمام من ينتقدون سياسة إنجلترا في الشرق والغرب.

وكانَ رائعاً أن ينقلب القسمُ العربي انقلاباً خطيراً في عهده الجديد، فاحتفلَ

احتفالاً كبيراً بالمواسم الإسلامية والذكريات العربية، وقام بتشجيع أرباب المواهب الأدبية في فلسطين، مع رصد الجوائز الأدبية لذوي السبق، ومع الاتساع في الحديث عن أعلام الإسلام والعروبة، وإيضاح الوجه الوضيء للحضارة الإسلامية، وأبرز ما وضح في القسم العربي هو دعوة أعيان الفكر العربي في العالم لإذاعة أحاديثهم بها، فكان كبار أدباء دمشق والقاهرة وبيروت وبغداد ومراكش وتونس والمغرب ممن زاروا فلسطين، وألقوا بإذاعتها محاضرات ذات توجيه، وقد قصد الأستاذ نويهض بهذه الدعوات مقصداً سياسياً فوق المقصد الأدبي، إذ رأى أن يقف مفكرو العرب بأنفسهم على ما يُدبره الانجليز لخدمة الصهيونية، فيعرفوا أنّ الخطر مشترك، وأن الإنجليز ليسوا بأبرياء كما يدّعون.

وإذا كانت النكبة قد بدأت في سنة ١٩٤٨ فإن عجاجاً رأى أن يترك البلاد أسفاً إلى جارتها الأردن، فتولّى عدّة مناصب سياسية وعلمية بدرجة مدير عام، وطبيعيّ أن تكون حركته مقيدة لا يستطيع معها أن يبلغ ما يُريد من بثّ آرائه، فكتب استقالته، ورَجَعَ إلى مسقط رأسه بلبنان (رأس المتن) ليواصل العمل الفكري مستقلاً دون سيطرة خارجية، وقد أصدر مؤلفات ثمينة ما بين مؤلف و مترجم، وما بين متصل بالقديم، ومتصل بالحديث، وقد أحصى الأستاذ البدوي المثلث هذه المؤلفات في موسوعته الشهيرة عن أدباء فلسطين ومفكرها، وفي مقدمتهم الأستاذ عجاج، وأظهر ما ترجمه الأستاذ هو ترجمته الرائعة لبروتوكولات حكماء صهيون في أربعة أجزاء، وقد فضحت هذه الترجمة نيات الأوروبيين جميعاً، ولم تقف عند مكاييد الصهيونية وحدها، وجدير بالذكر أنّ صديقي الأستاذ محمد خليفة التونسي قامَ بترجمة مماثلة، ولكنه اختار الأهم، واكتفى ببعض عن بعض، أمّا الأستاذ نويهض فقد شفى وكفى.

وأحدث الآن عن ترجمة ذائعة كتبها الأستاذ نويهض، ولاقت من القبول الواسع ما جعل طبعها تنفذ في أمد قريب، فأعيد طبعها سريعاً، هذه هي ترجمة كتاب (حاضر العالم الإسلامي) ونظراً لتأثيره البعيد في العالم الإسلامي فقد نخّصه ببعض الإسهاب.

لقد كان عجاج نويهض يقرأ في غيظ كتب كثيرة عن الإسلام ونبى الإسلام بأقلام المبشرين ومن يضطّعون مذهبهم في تشويه الحقائق، وتنميق الأراجيف، ويزيد

غِيظُهُ حِينَ يَرَى نَفَرًا مِنْ مُثَقَفِي الْعَرَبِ يُسَارِعُونَ إِلَى اقْتِنَاءِ هَذِهِ الْكُتُبِ، وَيَعْدَوْنَهَا مِثْلًا لِلْبَحْثِ الْعِلْمِيِّ الْمَحَادِدِ، فَإِذَا نَبَّهَهُمْ إِلَى خَطَرِهَا الْفَادِحِ ذَكَرُوا أَنَّ مُؤَلَّفِي هَذِهِ الْكُتُبِ لَا يَسْمَحُونَ لَأَنْفُسِهِمْ بِالْإِفْتِرَاءِ، لِأَنَّهُمْ رُبُّوا فِي عَصْرِ الْحُرِيَةِ وَالْعَدَالَةِ وَعَدَمِ الْإِنْحِيَاظِ، وَقَدْ اضْطُرَّ إِلَى أَنْ يَكْتَبَ عَنْ هَذِهِ الْكُتُبِ مَسْجَلًا أَخْطَاها لِئُبْرَى ذِمَّتِهِ أَمَامَ نَفَرٍ اسْتَعْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَوَضَعُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آدَانِهِمْ.

فَكَتَبَ مَقَالَاتٍ مُتَوَالِيَةً عَنْ كِتَابِ (العالم الإسلامي اليوم) وَهُوَ كِتَابٌ ضَخْمٌ جَمَعَ ثَلَاثًا وَعِشْرِينَ مَقَالَةً مُسْتَفِيزَةً لِأَشْهُرِ كِتَابِ الْمُبَشِّرِينَ، وَقَدْ جَمَعَهُ وَكَتَبَ مُقَدِّمَتَهُ الدُّكْتُورُ مُوْطُ رَئِيسِ الْمَجْلِسِ التَّبَشِيرِيِّ الْعَالَمِيِّ، وَعَنْ كِتَابِ (العالم الإسلامي في الثَّوْرَةِ) وَهُوَ بِقَلَمِ أَحَدِ الْمُسَاعِدِينَ لِقِسِّ مُبَشِّرِ التَّحَقُّ بِالْحَمَلَاتِ الْعَسْكَرِيَّةِ أَثْنَاءَ الْحَرْبِ الْعَالَمِيَّةِ الْأُولَى، لِيُعلنَ أَنَّ الْكَنِيسَةَ هِيَ أَمَانُ الْمُسْتَقْبَلِ، وَقَدْ طُبِعَ كِتَابُهُ سَبْعَ طَبْعَاتٍ، لِأَنَّهُ كَانَ يُوزَعُ مَجَانًّا عَلَى الْجُنُودِ، وَعَنْ كِتَابِ (إِنْتِشَارُ الْإِسْلَامِ) لِلْمُؤَلِّفِ السَّابِقِ، وَقَدْ جَعَلَهُ خَاصًّا بِمَاضِي الْإِسْلَامِ مِنْذُ نَشَأَتِهِ، وَأَخْبَثُ فُصُولُهُ مَا كُتِبَ عَنْ نَبِيِّ الْإِسْلَامِ مُحَمَّدٍ ﷺ، وَعَنْ كِتَابِ (الْإِسْلَامُ الْفَتَيِّ فِي طَرِيقِ السَّفَرِ) وَهُوَ تَبْشِيرٌ بِإِنْقِضَاءِ عَهْدِ الْإِسْلَامِ وَتَطْلُعِ الشَّرْقِ الْإِسْلَامِيِّ إِلَى دِينٍ صَحِيحٍ، وَعَنْ كِتَابِ (سِيرَةُ الْإِسْلَامِ) لِمُؤَلِّفَةٍ تَعْمَلُ سَكْرَتِيرَةً لِلْجَنَّةِ التَّبَشِيرِ، وَتَرَى مِنْ وَظِيفَتِهَا أَنَّ تَشَوُّهُ سِيرَةِ الْإِسْلَامِ بِأَقْبَحِ مَا تَسْتَطِيعُ، وَقَدْ كَتَبَتْهُ بِلُغَةٍ سَهْلَةٍ لِيَقْرَاهُ طُلَّابُ الْمَدَارِسِ فِي بِلَادِ الْإِنْجِلِيزِ كَمَا تَدْعِي، وَكُلُّ فُصُولِ الْكِتَابِ سَمٌّ نَاقِعٌ كَمَا يَقُولُ الْأُسْتَاذُ نُوْبِيهْضُ، وَعَنْ كِتَابِ (تَوْبِيخُ الْإِسْلَامِ) لِمُؤَلِّفٍ يَنْتَمِي إِلَى الْجَمْعِيَّةِ التَّبَشِيرِيَّةِ الْكَنِيسِيَّةِ، وَقَدْ طُبِعَ خَمْسُ طَبْعَاتٍ، وَوُزِعَ مَجَانًّا لِلْجُمْهُورِ!

هَذِهِ الْكُتُبُ أَصْبَحَتْ وَاسِعَةً الْإِنْتِشَارَ بَيْنَ مَنْ يَقْرَءُونَ اللُّغَاتِ الْأَجْنَبِيَّةَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ، لِأَنَّهَا تَأْتِي مَجَانًّا لِتُوزَعَ بِالْبَرِيدِ كَهَدَايَا ثَمِينَةٍ! وَلِبَعْضِ الْقُرَّاءِ ثَقَّةٌ بِمَا يَقُولُهُ هَؤُلَاءِ! مَعَ أَنَّهُمْ مُبَشِّرُونَ يَقْبِضُونَ رَوَاتِبَهُمُ الْمَغْرِبِيَّةَ مِنَ الْكَنِيسَةِ، لِيَقُومُوا بِمُحَارَبَةِ الدِّينِ الْحَنِيفِ، وَقَدْ أَلْحَ الْأُسْتَاذُ نُوْبِيهْضُ فِي دَخْصِ مُفْتَرِيَاتِهَا مَعَ فَرِيقٍ، نَذَرَ مِنْهُمْ الْأُسَاتِذَةُ: مُحَمَّدُ فَرِيدٌ وَجَدِي، وَعَبْدُ الْعَزِيزِ جَاوِيْشُ، وَشَكِيبُ أَرْسَلَانْ؛ وَلَكِنْ انْتِمَاءُهَا لِكُتَّابِ الْغَرْبِ جَعَلَهَا حَلِيَّةً ثَمِينَةً لَدَى مَنْ لَا يَفْرُقُ بَيْنَ الذَّهَبِ وَالتَّرَابِ.

لِذَلِكَ مَا كَادَ الْأُسْتَاذُ نُوْبِيهْضُ يَقْرَأُ كِتَابَ حَاضِرِ الْعَالَمِ الْإِسْلَامِيِّ لِلْكَاتِبِ (لَوْتَرُوبِ سِتْوَادَارْدِ) الْأَمْرِيكِيِّ، حَتَّى وَجَدَ فِيهِ رُوحًا جَدِيدَةً بَعِيدَةً عَنْ سُمُومِ التَّبَشِيرِ

الكنسي، ومع ما تضمن من أخطاء غير مقصودة، فمؤلفه نزيه المقصد شريف الغاية. . قرأ الأستاذ نويهض هذا الكتاب وبأدب بترجمته إلى العربية ليقف في الواجهة المقابلة لكتب التبشير الكنسي، وليقول لمن يهيمون بكتاب الغزب: ها هو ذا واحد منهم رأى الحق فلم ينكص عن الهتاف به.

وفصول الكتاب ذات دسامة، إذ تتحدث عن اليقظة الإسلامية، والجامعة الإسلامية، وسيطرة الغرب على الشرق، والتطور السياسي، والعصية الجنسية، والطورين الاقتصادي والاجتماعي، وهي فصول مركزة تبين اضطهاد الغرب لحركات الإصلاح في العالم الإسلامي، وتفضح أساليب الاستعمار حين تدعي أنها طريق التنوير، والخروج من الجمود.

وقد أراد الأستاذ نويهض أن يجعل للكتاب هيمنة قوية على القارئ الإسلامي، فبعث به إلى الأمير شكيب أرسلان ليكتب له مقدمة ضافية، ولكن الأمير لم يكتف بالمقدمة الضافية، بل وأصل التعليق على أكثر موضوعات الكتاب بمناسبة وغير مناسبة حتى صارت التعليقات في الطبعة الأولى ضغفي فصول الكتاب.

وقد أذن الله ونفذت الطبعة الأولى على وجه سريع، ورأى الأستاذ عجاج نويهض أن يعرض الطبعة الثانية على الأمير شكيب ذوقياً لأنه أسهم في بعث الكتاب، وما درى أن الأمير قد أعد من التعليقات الكثيرة ما ارتفع بالكتاب إلى أربعة أجزاء كبار! وهو عمل من الناحية الاقتصادية مرقق للمترجم، لأنه يتعرض لنفقات هائلة في الطبع قد لا يقدر عليها، وهذا ما كان لولا معونة بعض الموسرين، كما هو مرقق للقارئ، لأن آراء المؤلف الأمريكي قد تاهت في خضم مزبد لا ساحل له.

وقد نقد هذه الطريقة بعض من قرؤوا الكتاب، وفيهم أصدقاء الأمير نفسه، فقد قال الأستاذ محب الدين الخطيب في لهجة مهذبة^(١): «إن أغلب تعليقات شكيب على كتاب حاضر العالم الإسلامي، لم يكتبها خصيصاً للكتاب، بل كانت عنده من قبل، وأتمس لها المناسبات في الكتاب ووضعها». وقال الإمام السيد محمد رشيد رضا صاحب المنار - من كتاب بعث به للأمير^(٢) -: «إن هذه التعليقات بلغت من

(١) أمير البيان شكيب أرسلان، للدكتور أحمد الشرباصي ٢ / ٥٠٣.

(٢) أمير البيان شكيب أرسلان، للدكتور أحمد الشرباصي ٢ / ٥٠٥.

الطول المشدّب مبلغاً ترك الأصل الذي وُضعت عليه أثراً بعد عين، وصارت قراءة كل منهما مع الآخر مضیعة لكل منهما، وقراءته وحده لا ترتاح إليه الأنظار ارتياحها لو لم تكن معه» وقد علّق الأمير على قول صاحب المنار^(١): «بأنّه ما كان ينوي هذا الطول، ولكنّ الكلام أخذ يتّسع تدريجاً، وصارت التعليقات تزدد طولاً، بحيث صارت الحواشي ثلاثة أرباع المطبوع، وأنه لو لم يُدرج هذه الحواشي في هذا الكتاب ونشرها في كتاب مستقل لما راج، لما في طباع الشرقيّين عموماً من الاحتفال بكلام المؤلّف الأوروبي والأمريكي بنوع خاص».

وهذا كلام غير مسلم، لأنّ للأمير مؤلفات مستقلة لاقت الرواج، والقارئ الشرقي لا يحتاج إلى مؤلّف غربي كي يهتم بمقالات الأمير، ولكنّ الأمير وجدّ عنده فصولاً لم تُنشر من قبل - كما يقول الأستاذ محب الدين - فجازف بنشرها، وأنا أتصوّر الأستاذ عجاج نويهض وقد طُوب بما فوق طاقته من أجر الطبع، فحار في أمره، وكان على الأمير أن يُشاركه نفقات النشر أولاً، ثم يأخذ حقّه بعد نفاذ النسخ من الكتاب الكبير ذي الأجزاء الأربعة! وأنا أقول ذلك غير منتقص من قدر الأمير - فهو علّمُ الأعلام في الأدب والتحقيق - لأنّي آثرت أن أقرأ كتاب حاضر العالم الإسلامي حين قرأته، بعيداً عن تعليقاته، فهذه التعليقات معارف عامّة كان من الخير أن تكون نواة لموسوعة جغرافية تاريخيّة خاصّة ببلاد الإسلام، وهي في هذا النطاق ذات نفع محترم!.

كما أنّ الأستاذ قد تفرّغ أخيراً إلى كتابة ذكريات عزيزة عن أناس من أهل الفضل والعلم والسياسة سَعِد بصحبتهم وسعدوا به، وكانت مجلّة الأديب البيروتية منبره الذي يُذيع عليه هذه الذكريات العزيزة، وأكثرها يتّصل بالجهاد الإسلامي في فلسطين وغيرها من ربوعه الحنيف، وقد تحدّث عن الحاج أمين الحسيني حديثاً متّصل الحلقات، فأبان عن حوادث لم تكن مشتهرة، وأحسن تعليلها، وعاد باللائمة على من وقّفوا في طريق هذا الزعيم الإسلامي الكبير، وإذا كانت فلسطين لعهد المجلس الإسلامي الأعلى محطّ الرّحال من أئمة السياسة والفضل والدين، فقد كان الأستاذ وثيق الصلة بكلّ وافد كريم، يعرف له قدره، ويحتفظ له بأعذب الذكريات، وهذا ما ظهر على صفحات الأديب من حديثه عن مولانا محمد علي

(١) المرجع السابق نفسه.

الهندي والزعيم التونسي عبد العزيز الثعالبي، والفقيه المبرور العلامة الشيخ محمد أبو زهرة.

أما حديثه عن الأدباء، فلا يبرح حديث فلسطين أبداً، لأن صلته بهم قد ارتبطت بتراب الأرض المغتصبة، فهي تعيش في دمه، لتمدّ قلمه بأفكار مستفيضة لا يغيض لها معين، تحدّث عجاج عن صديقه الشاعر (جورج صيدح) بمناسبة ظهور أحد دواوينه، فجعل مدار الحديث عن قصيدته (أغنية الانتقام) واستطرّد إلى ذكر الصهيونيين فذكر أنّ شاعرهم الأكبر (حاييم نخمان بياليك) صار له ذكرٌ بما قال عن الصهيونية، وأنّ وايزمان أول رئيس لإسرائيل قد أشاد به، وقال: «إن الحركة الصهيونية كانت تنام على أنغام (بياليك)». وكأنّه يريد بهذا الاستشهاد أن يُعرّف قدر الشعر والشعراء لدى أعدائه، حيث جعلوا الشعر أداة إثارة واستنهاض، ولدينا من الشعراء من يفوقون (بياليك) ولكنهم يُغنّون لأنفسهم، وإذا سمعهم أحد اكتفى بالتصفيق.

وفي حديث نُويهض عن الشاعر العراقي عباس الخليلي، تعرّض إلى التاريخ السياسي للعرب من مطلع هذا القرن، فألمّ إلماً خاطفاً بذكريات عن الأفغاني ومحمد عبده وعبد الرحمن الكواكبي والدولة العثمانية، وأطال في الحديث عن الثورات السياسية في مصر والشام والعراق وفلسطين، بحيث كانت السياسة العربية محيطاً واسعاً يعوم الشاعرُ الخليج في ضفة من ضفافه، وقد يستنكرُ هذا من يُولعون بالتحديد الضيق، ولكنّ الذي يعرف تأثير البيئة في الأديب، لا يُسمّي هذه الإشعاعات القوية استطراداً، بل يجعلها ضوئاً تهدي إلى الطريق.

وكم أحب أن تُجمع هذه الآثار المنشورة في الصحف، لأنّ في اجتماعها المستقل بأجزاء خاصة ما يُعطي القارئ انطباعاً شاملاً عن المؤلف ومرماه السياسي، واتجاهه الإسلامي، وقد يكون في سطورها ما لا يعرفه أحد غير الكاتب الكبير، لأنّه أثر في الأحداث وتأثر بها، وأصبح شاهداً على عصرٍ يموج بالتوتّب والاندفاع والثوران، وأي شهادة أكبر من نظرات أديبٍ ثاقب، ومجاهدٍ أمين!.

* * *

علي الطنطاوي في صحافة مصر

حاولتُ أن أتحدّث عن علي الطنطاوي في فصل واحد، فوجدتُ ذكرياته في أجزاءها الثمانية المستفيضة تغمرنني بفيض من المعلومات لا يستقلّ به فصل، بل لا يكفيه كتابٌ برأسه، ففكرتُ أن أختار شريحةً واحدةً يدور حولها الحديث، هذه الشريحةُ هي آثارُ الطنطاوي في مصر، وقد تعمّدتُ ذلك لأنّه أصدر كتاباً خاصاً بذكرياته عن بغداد وكتاباً بذكرياته عن دمشق، وكتاباً خاصاً بأندونيسيا، ولم يُفرد كتاباً خاصاً بمصر، وأذكر أنني كتبتُ إلى الأستاذ نادر حتاحت، صاحب دار المنارة التي تنشرُ مؤلفات الكاتب الكبير، أرجو منه أن تجمع ما يخصّ مصرَ من آثار الكاتب الكبير في مجلّدٍ خاص، وزِدْتُ فوضعتُ له فهرساً يجمعُ هذه الآثار مُحدّداً أماكنها، ولكنّ ظروف النشر لم تُهيء لهذا العمل الجاد أن يظهر إلى حيّز الوجود، وهأنذا أقومُ ببعض ما يُذكرُ بهذه الآثار.

لقد تحدّثَ الكاتب الكبير عن رحلته إلى مصر بدعوةٍ من خاله الكاتب الكبير الأستاذ محب الدين الخطيب سنة ١٩٢٨م، فوصفَ القاهرة في ذلك الحين وصفاً يَحْسُنُ أن يكون مرجعاً لمن يتحدّث عن هذه الحقبة، وقالَ إنّهُ أقامَ فترتين متواليّتين بها، ولكنّه استفادَ فوائد جمةً في مصر، فقد عَرَفَ أصدقاءً خاله من كبار الكتاب والمفكرين، وانتقلَ أسلوبه من طورٍ إلى طورٍ، إذ انتهى عهدُ التعبير الحماسي المحشوِّ بالمبالغات، إلى عهدِ الرّصانة الدقيقة؛ وقد فتحتُ له مجلة الزهراء صفحاتها، وهي من أكبر المجلّات الأدبيّة في عصرها، فكتَبَ بعض المقالات الخاصّة بتعريف الكتب الصادرة، وبعض التراجم العلمية لعلماءٍ مزموقين، وكانَ يوقّع ذلكَ بِإمضاء (محمد علي الطنطاوي) ثم أتيحَ له أن يلتحقَ بدار العلوم طالباً، وشهدَ دُروس العلامة الشيخ أحمد الإسكندري بالدار، وقالَ إنّهُ اقتفى أثره فيما بعد حين صار مدرّساً للأدب.

ولكن أعظم حادث أدبي أثر في حياة الأستاذ هو ظهور مجلة الرسالة، لأنها أشرقت على العالم العربي إشراقاً ساطعاً البريق، وضمت عظماء الفكر الأدبي في مصر، وكانت مجلة السياسة الأسبوعية قد أدت دورها ومالت للغروب، فظهرت الرسالة لتأخذ مكانها، ولكن بمخالفتها في اتجاهها التغريبي، ونهجها الفرعوني، مخالفة ظهرت دلائلها في مقدمات الزيات الافتتاحية، وفي مقالات الصفوة من الكتاب، وعلى رأسهم الزيات والرافعي، وأحمد أمين وعبد الوهاب عزام، ومحمد أحمد الغمراوي، وقد تحوّل الدكتور محمد حسين هيكل عن اتجاه السياسة الأسبوعية إلى اتجاه الرسالة بعد ظهورها، وذكر أسباب هذا التحول في مقدمة كتابه الرائع عن منزل الوحي.

نظر الأديب الشاب علي الطنطاوي إلى مشرب مجلة الرسالة الناهضة، فوجدته يتفق مع هواه الوجداني، وروحه الإسلامي، وشاء لنفسه أن يكون عضواً في أسرة الرسالة، لأن مواهبه الأصلية تُرشحه لذلك عن جدارة، فقد درس التيارات الثقافية في العصر الحديث شرقاً وغرباً، كما قتل كتب التراث بحثاً واستيعاباً في كل فروعها المختلفة، تشريعاً وأدباً وتاريخاً، وكتب التراث كلمة لا يتفق على مدلولها إلا من قرأ المكتبة العربية قدر طاقته، وقد قرأ الطنطاوي كثيراً كثيراً من أسفار هذه المكتبة، وتحدث عن روائعها في مقالات تشهد له بالسبق والتبريز، وهو في مستقبل الشباب، وأذكر أن الأستاذ الكبير أحمد حسن الزيات، تحدث عنه في هذه الحقبة في مقال جيد جعله تعريفاً لكتاب (أبو بكر الصديق) فأجاد الوصف الدقيق حين قال عن الأستاذ علي الطنطاوي^(١):

«الأستاذ علي الطنطاوي أو الشيخ علي الطنطاوي - كما يُحب أن يُدعى - ثمره ناضجة من ثمار الثقافة العربية الحديثة، ثقف علوم الدين وعلوم اللسان ثقافةً محيطية، ثم درس القانون دراسةً فقهية عميقة، وشارك في إيقاظ النهضة الفكرية والدينية والاجتماعية في سورية مشاركةً منتجةً، فله في قيادة الشباب محل، وفي توجيه الآداب طريقة، وفي سياسة الإصلاح مذهب، وهو ونفر من صحابته يمثلون في سورية الناهضة الحلقة الواصلة بين عقلية تُنكر القديم، وعقلية تُنكر الجديد،

(١) الرسالة: العدد (١٠١).

وليس الأستاذ الطنطاوي مجهولاً لدى قراء الرسالة، فهو يُطالعُهم الحين بعد الحين، بالفصول الممتعة في الأدب والتاريخ والقصص، ينقلها عن فكر خصيب، وأطلاع واسع، ومنطقي سليم، وإيمان صادق، وعاطفة نبيلة».

وهذه السطور من جوامع الكلم حقاً، لأنها تضع فهرسَ كتاب يتحدث عن الطنطاوي، إذ يجعلُ فصولَ الكتاب واضحة لمن يُريد أن يكتبَ الكتاب، إذ أبرزت عناوين هذه الفصول في قوة وإبداع.

أقول بعد هذا الاستطراء: إن الأستاذ الطنطاوي عرّف مشرب الرسالة من قراءة ما ظهر من أعدادها، ولكنه أراد أن يوجّها وجهةً إصلاحية، حيث تُعنى بالهدف الأصيل للكاتب العربي الملتزم، فبدأ مقالاته في الرسالة بسؤال أدبي وجهه إلى رئيس التحرير، يهتف به قائلاً^(١): «أخبرني يا سيدي هل تُنشر الآثار التي تُنشرها، لأنها وافقت خطة معروفة، اختطتها لنفسها الرسالة في الأدب، أم أنت تُنشر كل جيد يُبعث إليك، لا تبالي منه إلا بشرف القول، وحسن الأداء، والبلاغة في التعبير؟ إن مذاهب الأدب كثيرة، ولكن القراء بين اثنين منها، مذهب الأدب للفن، ومذهب الأدب للحياة، أفعملُ وغايتنا الجمال الفني وحده، وسواء لدينا أكان هذا الجمال في مقطوعة ماجنة، أم قصّة مفسدة، أم مقالة ملحدة؟ أم نعملُ وغايتنا تسخيرُ الأدب للقضية الكبرى، واتخاذُه أداةً لتحقيقها، ووسيلةً من وسائل الإصلاح الاجتماعي والسياسي والأخلاقي؟».

والسؤال بذاته توجيه أكثر منه استفادة؛ لأن الطنطاوي ضنّ بالرسالة أن تُنشر قصص الخُلعاء من مُنحرفي الغرب مترجمة، وقصائد الممرورين من متسكعي الشباب ماجنة غير ملتزمة، فربأ بالرسالة أن تكون كغيرها من مجلات الإغراء الخادع للشباب، وهو يعرف مكانة الزيات وحواريّه، ولكنه أراد أن يأخذ عهداً وثيقاً لا تحلّل منه ولا انفصام، وقد سارع الأستاذ الزيات بالإجابة الموجزة كعهده دائماً في جوامع كلمه، فقال في حاشية المقال^(٢): «أما خطة الرسالة وغايتها، فقد رَسَمناها في العدد الأول، وما نُشر فيها وما سيُنشر يسيرُ مع هذه الخطة الملتزمة، وأنّ الأدب هو التعبير الجميل عن العواطف والأفكار، وهذا التعبير يختلف

(١) الرسالة: العدد (٢٢).

(٢) الرسالة: العدد (٢٣).

باختلاف البيئة والتربية والطبيعة». ثم ذَكَر الزيات أَنَّ الأستاذ أحمد أمين سَيُجِيب مفضلاً القولَ في العدد القادم .

والحقُّ أَنَّ الأستاذ أحمد أمين قد كَفَى وَشَفَى وأمتع ، ولم يَتَدَّ اثتادَ الزيات بل عَجَلَ يقول : «لَكَ الحقُّ كل الحقِّ يا أخي أَن تَصْرُخَ ونصرُحَ معكَ في وجهِ رُعماء الأدب العربي ، طالبينَ أَن يَلْتَفِتُوا إلى الأدب القوميِّ ، فالعالمُ العربي كُلُّه يجيشُ صدرُهُ بآلام وآمال ، والأدبُ العربيُّ يُحِبُّ أَن يُعَبِّرَ عن هذه الآلام والآمال ، لَكَ الحقُّ أَن تَطْلُبَ من الرسالة أَن تَدْعُو الكِتَابَ والشعراء إلى وُجوه النقص كي يُكْمِلُوها ، حتى إذا احتاجَ الشباب إلى الأناشيد وجدَّها ، ولكَ أَن تَطْلُبَ من كُتَّاب الروايات أَن يَبْحَثُوا عن نواحي الضعف في الحياة الاجتماعية ، فيجْلُوها ويعالجوها . . ولكنَّ ليس لك الحقُّ في أَن تَطْلُبَ أَن يكونَ الأدبُ كُلُّه للحياة ، لأنَّ القطعةَ متى استوفت عناصرها الأدبيةَ كانت أدباً ، ولكنَّ يجب أَن يكونَ للمصلحين سُلْطَةٌ فوق سلطة الأُدباء ، فإذا رأى المصلحون أَن ضَرْباً من الأدب يَحَلُّ الأخلاقَ ويفكُّ عُرَى المجتمع حارثُوهُ بكلِّ قوة ، وإذا رأوا أَن ضرباً من الأدب في الأمة ضعيفٌ يجبُ أَن يَقْوَى طالبُوا بالإكثار منه بشتى الوسائل» .

بهذه المقالة الرثانة التي نَبَّهت الأستاذين الزيات وأحمد أمين إلى سرعة الردِّ العاجل دَخَلَ الأستاذ الطنطاوي مجلَّة الرسالة دُخول الفاتح المنتصر ، إذ هيئاً الأذهان إلى مَا سيقوله على صفحات المجلَّة متَّسقاً مع خطته التي دَوَّنها في سؤاله ، ولكنَّ الأستاذ الطنطاوي كان يَرْمِزُ إلى معنى أكبر من المعنى الذي أشار إليه ؛ هذا المعنى هُوَ أَن يجعلَ الرسالة مجلَّةً إسلاميةً قبلَ كُلِّ شيء ، وهو معنى يَرَحِّبُ به الزيات ، لأنَّه في صميم تفكيره عالمُ دينٍ تخرُجُ أولَ ما تخرُجُ في الأزهر الشريف ، وإنَّ كانَ يعلمُ أَن البحوث لا بدَّ أَن تتنوعَ في مجلَّةٍ يقرؤها كُلُّ إنسانٍ مهما كان اتجاهه ، لذلك صمَّم الأستاذ الطنطاوي - كما بدا من آثاره الكثيرة على صفحات الرسالة - أَن يكونَ للإسلام المجالُ الأوَّلُ من هذه الآثار ، وهو ما رَحَّبَ به الزيات كُلَّ الترحيب ؛ لقد تَتَبَعَ الأستاذ الطنطاوي مقالات الرسالة لأكثر كُتَّابها في الشرق والغرب ، فإذا وَجَدَ انحرافاً أو ما يشبه الانحراف بادَرَ إلى تصحيحه في مقالٍ نقديٍّ أو في سؤالٍ هادفٍ مركزَ المعاني ، فكانَ صاحبُ العين الساهرة المترقِّبة لكلِّ نشازٍ يشذُّ به كاتبٌ ، فيكشف عن عواره .

ولكن أعظم حادث أدبي أثر في حياة الأستاذ هو ظهور مجلة الرسالة، لأنها أشرقت على العالم العربي إشراقاً ساطعاً البريق، وضمت عظماء الفكر الأدبي في مصر، وكانت مجلة السياسة الأسبوعية قد أدت دورها ومالت للغروب، فظهرت الرسالة لتأخذ مكانها، ولكن بمخالفتها في اتجاهها التغريبي، ونهجها الفرعوني، مخالفة ظهرت دلائلها في مقدمات الزيات الافتتاحية، وفي مقالات الصفوة من الكتاب، وعلى رأسهم الزيات والرافعي، وأحمد أمين وعبد الوهاب عزام، ومحمد أحمد الغمراوي، وقد تحوّل الدكتور محمد حسين هيكل عن اتجاه السياسة الأسبوعية إلى اتجاه الرسالة بعد ظهورها، وذكر أسباب هذا التحول في مقدمة كتابه الرائع عن منزل الوحي.

نظر الأديب الشاب علي الطنطاوي إلى مشرب مجلة الرسالة الناهضة، فوجدته يتفق مع هواه الوجداني، وروحه الإسلامي، وشاء لنفسه أن يكون عضواً في أسرة الرسالة، لأن مواهبه الأصلية تُرشحه لذلك عن جدارة، فقد درس التيارات الثقافية في العصر الحديث شرقاً وغرباً، كما قتل كتب التراث بحثاً واستيعاباً في كل فروعها المختلفة، تشريعاً وأدباً وتاريخاً، وكتب التراث كلمة لا يقف على مدلولها إلا من قرأ المكتبة العربية قدر طاقته، وقد قرأ الطنطاوي كثيراً كثيراً من أسفار هذه المكتبة، وتحديث عن روائعها في مقالات تشهد له بالسبق والتبريز، وهو في مستقبل الشباب، وأذكر أن الأستاذ الكبير أحمد حسن الزيات، تحدث عنه في هذه الحقبة في مقال جيد جعله تعريفاً لكتاب (أبو بكر الصديق) فأجاد الوصف الدقيق حين قال عن الأستاذ علي الطنطاوي^(١):

«الأستاذ علي الطنطاوي أو الشيخ علي الطنطاوي - كما يُحب أن يُدعى - ثمره ناضجة من ثمار الثقافة العربية الحديثة، ثقف علوم الدين وعلوم اللسان ثقافةً محيطية، ثم درس القانون دراسةً فقهية عميقة، وشارك في إيقاظ النهضة الفكرية والدينية والاجتماعية في سورية مشاركةً منتجةً، فله في قيادة الشباب محل، وفي توجيه الآداب طريقة، وفي سياسة الإصلاح مذهب، وهو ونفر من صحابته يمثلون في سورية الناهضة الحلقة الواصلة بين عقلية تُنكر القديم، وعقلية تُنكر الجديد،

(١) الرسالة: العدد (١٠١).

باختلاف البيئة والتربية والطبيعة». ثم ذَكَرَ الزيات أن الأستاذ أحمد أمين سيُجيب مفصلاً القول في العدد القادم.

والحق أن الأستاذ أحمد أمين قد كَفَى وَشَفَى وأمتع، ولم يتَّذِ انتأَد الزيات بل عَجَلَ يقول: «لك الحق كل الحق يا أخي أن تَصْرُخ ونصرُح معك في وجهِ زُعماء الأدب العربي، طالبين أن يلتفتوا إلى الأدب القومي، فالعالم العربي كله يجيشُ صدره بآلام وآمال، والأدب العربي يُحب أن يُعبّر عن هذه الآلام والآمال، لك الحق أن تطلب من الرسالة أن تدعو الكتاب والشعراء إلى وجوه النص كى يُكملوها، حتى إذا احتاج الشباب إلى الأناشيد وجدها، ولك أن تطلب من كُتّاب الروايات أن يَنحُثوا عن نواحي الضعف في الحياة الاجتماعية، فيجلّوها ويعالجوها. . ولكن ليس لك الحق في أن تطلب أن يكون الأدب كله للحياة، لأن القطعة متى استوفت عناصرها الأدبية كانت أدباً، ولكن يجب أن يكون للمصلحين سلطة فوق سلطة الأدباء، فإذا رأى المصلحون أن ضرباً من الأدب يحلّ الأخلاق ويفكّ عرى المجتمع حاربوه بكل قوة، وإذا رأوا أن ضرباً من الأدب في الأمة ضعيف يجب أن يقوى طالبوا بالإكثار منه بشتى الوسائل».

بهذه المقالة الرثانة التي نبّهت الأستاذين الزيات وأحمد أمين إلى سرعة الردّ العاجل دَخَلَ الأستاذ الطنطاوي مجلّة الرسالة دُخول الفاتح المنتصر، إذ هيّا الأذهان إلى ما سيقوله على صفحات المجلّة متسقاً مع خطته التي دوّنها في سؤاله، ولكن الأستاذ الطنطاوي كان يَرْمِزُ إلى معنى أكبر من المعنى الذي أشار إليه؛ هذا المعنى هو أن يجعل الرسالة مجلّة إسلامية قبل كل شيء، وهو معنى يرحّب به الزيات، لأنه في صميم تفكيره عالم دينٍ تخرّج أول ما تخرّج في الأزهر الشريف، وإن كان يعلم أن البحوث لا بد أن تتنوّع في مجلّة يقرؤها كلّ إنسان مهما كان اتجاهه، لذلك صمّم الأستاذ الطنطاوي - كما بدا من آثاره الكثيرة على صفحات الرسالة - أن يكون للإسلام المجال الأول من هذه الآثار، وهو ما رحّب به الزيات كلّ الترحيب؛ لقد تَتَبَعَ الأستاذ الطنطاوي مقالات الرسالة لأكثر كتابها في الشرق والغرب، فإذا وجد انحرافاً أو ما يشبه الانحراف بادّر إلى تصحيحه في مقالٍ نقديّ أو في سؤالٍ هادفٍ مركّز المعاني، فكان صاحب العين الساهرة المترقبة لكلّ نشازٍ يشذّ به كاتبٌ، فيكشف عن عواره.

أذكر أن الكاتب اللبناني الفاضل الأستاذ كرم ملحَم كرم كتب مقالاً يتحدث فيه عن آثار (هُوجو) و(لامرتين) و(فولتير) و(روسو)، فقال فيما قال: «والَّذينُ نفسُه يقومُ على الروايات، فما هو كتابُ التوراة، وما هو الإنجيلُ، وما هو القرآن؟ أليسَ للرواية من هذه الكتب أكبر نصيب؟»! وقد قرأها الطنطاوي فذكر^(١) أنها كلمة نذت من قلمه صغيرة، ولكنَّ فيها طبيعة كطبيعة الديناميت لا يمسُّ شيئاً إلاَّ جعله يباباً، فإذا كانَ الكاتبُ يعني دينَ التوراة والإنجيل فلا تُنازعه، ولا يكونُ لنا أن تُنازعه، فصاحبُ الدار أدرى بما فيها، وإذا كانَ يعني القرآنَ كأنه إحدى هذه الروايات فهذا ما أسأله عنه. وقد كتَبَ توقيعه مُشيراً إلى أنَّه عضو جمعية الهداية الإسلامية بدمشق، وهو توقيعُ يكتبه الطنطاوي لأول مرّة، ليدلَّ على معنى يجب أن يفهمه المنقود؛ والحقيقة أنَّ الأستاذ الطنطاوي قد احتاطَ لدينه أمامَ القارئ المتعجِّل، أمّا القارئ الدقيق فيعلمُ أن روايات القرآن شيء، وروايات مشاهير الغرب شيء آخر.

وقد سارعَ الأستاذ كرم ملحَم كرم بالردِّ على سؤال الأستاذ الطنطاوي فذكر^(٢) أنه يقصدُ الروايات الصحيحة ثابتة الحقائق، وهكذا رواياتُ الكتب المقدسة، وقال ما نصه «أما أن نكون رَمِيناً إلى الحطِّ من منزلة الكتب المقدسة، فذلك ما لا نفكر فيه، ولا يحقُّ لنا أن نفكر فيه، فنحنُ نحترمُ هذه الكتب، وكيف لا نحترمها والملايين من البشر تدينُ بتعاليمها، وتؤمنُ كلَّ الإيمان بآياتها، وهي تطيعُ العقول على الخير، وتثقفُ النفوس، وتقودها إلى الطريق السويِّ، ولولا الدين لعمَّ الإنسانية البلاء، وتفاقت الشرور، وتعاضمت الوليات، وانغمسَ الناس في الرذيلة، وصاروا كالأنعام».

هذا التيقُّظُ الحذرُ قد كانَ ديدنَ الأستاذ الطنطاوي في جدل كثير ثارَ على صفحات الرسالة، وانتصر فيه الأستاذُ للوجهة التي يرتضيها، فقد دارت معركةٌ حول الفقه الروماني وصِلته بالفقه الإسلامي، تحدَّث فيها الأستاذة عبد القادر المغربي، وصالح بن علي السنغافوري، ومحمد محسن البرازي، وأمين الخولي، وعلي الطنطاوي، وأدلى كلُّ كاتب بوجهة نظره، وكانَ من رأي الطنطاوي أنه لا صلةٌ بعيدة

(١) الرسالة: العدد ٦٣.

(٢) الرسالة: العدد ٦٧.

أو قريبةً للفقهِ الإسلامي بالفقه الروماني على النحو الذي ينحو إليه مَنْ قال بوجود هذه الصلة، واندفع الأستاذ محمد محسن البرازي إلى لوم^(١) من يَنفُونَ هذه الصلة، ويصفهم بقلّة المعرفة، وقالَ عن الطنطاوي: إنّه لم يُنَحَّ له أن يدرس الحقوق الرومانية أكثرَ من غيره من الطلاب في معهد الحقوق بدمشق، ولم يَنَأَ له النظرُ في تاريخ الحقوق، ولم يُقَيِّضْ له بعدُ أن يعرف ما ظهرَ في العالم حول هذه البحوث، وختمَ حديثه بقوله: «أولَى بشابنا ألا يكونوا أسرى عواطفهم من تعصُّب للدين والقومية، وكرهٍ للثقافة الغربية ولأوروبا، لأنّ الحقيقة فوق الهوى». وقد قرأ الأستاذ الطنطاوي مقالَ الأستاذ البرازي، ورَدَّ عليه بمقالٍ تالٍ قال في خاتمته^(٢): «ونحن نكرّر وصيّة الأستاذ الشاب لشبابنا ألا يكونوا أسرى عواطفهم من تعصُّب للدين والقومية، ونزيد (أو تعصُّبٍ عليهما) وكرهٍ لأوروبا والثقافة الغربية، ونزيد (أو موتٍ في عشقهما) فيُسرفوا في القول حتى يجانبوا المنطق».

وكان الدكتور زكي مبارك ذا صيَالٍ واقتحامٍ في مجلة الرسالة، بحيث صارَ في حقبةٍ من الحقب فارسَ النقدِ الصاحب على صفحاتها، وقد اشتط في نقد الأستاذ أحمد أمين اشتطاً جاوزَ النقدَ إلى غيره مما ينكره المنصفون، وكانَ لا يمنعُ قلمه من الاستطراد إلى أمورٍ تحتاج إلى تدقيق وفحص، والأستاذ الطنطاوي لا يلتفتُ إلى نقده فيما جاءَ عن الأدب، لأنّ القول فيه يطولُ دُونَ جدوى، ولكنه أخذَ بمخنقه حينَ وجّه إليه هذا السؤال^(٣): «إنك يا دكتور تقولُ: «كلُّ ما تَقْرؤونه في الكتب التاريخية والدينية من وصفِ العرب في الجاهلية بالحمق والغفلة والطيش والخيال، كلُّ أولئك الصفات الذميمة وَضِعَتْ لغرض خاصٍّ هو تحقير الوثنية الجاهلية، لتقومَ على أنقاضها العقيدة الصحيحة، وكانَ من حقِّ رجال الدين أن يَضَعُوا في تشويه الوثنية الجاهلية ما يشاؤون، لأنهم كانوا يرونها زيغاً في زيغ».

وهذا كلامٌ خطير رَدَّ عليه الطنطاوي في نقاطٍ يمكن تلخيصها، في أنّ التاريخ عِلْمٌ يتحدّث عن أخبار الماضين، فإذا قالَ التاريخ ذلك، راوٍ عن راوٍ، وكتابٌ عن كتاب، فكيفَ نحكِّم عليه بالوضع دون دليل؟ ورَدَّ الدكتور للكتب الدينية، وهي

(١) الرسالة: العدد ١٠٨.

(٢) الرسالة: العدد ١١٠.

(٣) الرسالة: العدد ٣٢٣.

دواوين الحديث، ومجموعات التفسير، وتصنيفات الأئمة، وقد أصبحت حجةً للمسلمين فيما يأخذون منه شريعتهم؛ يحتاج إلى دليل علمي لم يأت به الدكتور، ولا يستطيع، فكيف يقول ذلك دون برهان!

وقد فات الأستاذ الطنطاوي أن يذكر أن القرآن الكريم نفسه قد وصف الجاهلية بالسفه وطيش الأحلام، فكيف يأتي الوضع من رجال التفسير والحديث وأئمة المسلمين؟

ثم سأل الأستاذ الطنطاوي بعد ذلك: ما الدليل على أن الرواة اختلقوا الأخبار لتحقير الوثنية؟ أو أنهم منعوا رواية أبنائها؟ وهل في الإسلام طبقة تُعرف برجال الدين؟ إن علماء الدين من المحدثين والمفسرين والفقهاء والأصوليين هم مؤلفو الكتب الإسلامية، فأئ أولئك قد قاموا بالوضع؟ وما معنى قول الدكتور: إن ما جاء في الكتب التاريخية والدينية يدل على أن الوضع بها لتحقير الوثنية؟ والمعروف الثابت أن الوثنية هُدمت أصنامها، وانتهت قبل وفاة رسول الله ﷺ؟ فلم يكون الوضع بعد انتهائها الأبدى؟

والدكتور زكي الذي كان يتصدى لكل معارضٍ، قد هرب من الإجابة هروباً مضحكاً، إذ^(١) زعم أن الأسئلة التي ساقها الأستاذ الطنطاوي قد تُعرض القراء لفتنة شديدة إن استباح الإجابة بلا توق ولا رعاية للمأثور من الأفكار الدينية! وهو تهوُّب مضحك، لأن الدكتور مولع بمخالفة الرأي العام، بل يعد ذلك مدعاة تحرر، فلم لم يصدع بالمنطق المحبّد لرأيه إن كان يملك الدليل؟.

ومن أظهر مواقف الأستاذ الطنطاوي النقدية موقفه من رسالة (القصص الفني في القرآن) التي أعدها الباحث محمد أحمد خلف الله بإشراف الأستاذ أمين الخولي، فقد رفض الفاحصان الكبيران الأستاذان أحمد أمين وأحمد الشايب الرسالة، وقال عنها أحمد أمين: إنها ذات جهل صريح. وقال أحمد الشايب: إنها ذات كفر صريح. وقال الطنطاوي: إنها ذات جهل وكفر معاً، لأن الكفر لا يأتي إلا من الجهل. وقد ترك الطنطاوي الطالب الناشئ، لآته مذفوع إلى تلمس الشهرة الزائفة كما اندفع أناس من قبله طعنوا في كتاب الله، فكان لهم بذلك ذكر طائر بين الناس،

(١) الرسالة: العدد ٣٢٥.

وأعجب العجب في بلاد الإسلام أن المخطيء في غيرها يخزى من فعله، ويُسارع إلى تصحيح الخطأ، أما المخطيء في بلادنا - المخطيء في أمور دينه - فيكون خطؤه مصدر مباحة وزهو، وكأنه بإلحاده جاء بالتصر المبين.

لقد ترك الطنطاوي الطالب المتسرع، واتجه إلى مناقشة الأستاذ المشرف، لأنه أعلن أنه متضامن مع صاحب الرسالة، وأنه على حق، وأنه لا ينبغي الوقوف أمام حرية الفكر، فقال الأستاذ الطنطاوي ما قال في نقد الأستاذ المشرف، وإخاله كان عاطفياً في رده الأول^(١)، لأنه لم يركز كلام الطالب لينقضه، بل حط بثقله على الأستاذ المشرف ليتهكم به، وقد كان الأستاذ الطنطاوي حينئذٍ مُشرفاً على تحرير مجلة الرسالة أثناء إقامته في مصر، في بعثة قضائية، لأن الأستاذ الزيات كان خارج القاهرة في دور الثقافة من مرض ألم به، ففتح الأستاذ الطنطاوي مجال النقاش العلمي على صفحات الرسالة، وقام الأستاذ عبد الفتاح بدوي الأستاذ بكلية اللغة العربية بكتابة ثلاث مقالات ذات نقد هادف، ولكنها لم تبرأ مما وقع فيه الأستاذ الطنطاوي، حين لجأ معاً إلى تحقير الطالب وتسفيهه، وهذا مما يُنقص مقام النقد، لأن القارئ الواعي يتطلب الحقائق مجردة عن التسفيه والازدراء، وقد قال الله عز وجل في مناقشة أهل الكتاب: ﴿وَجِدْ لَهُمْ يَأْتِيهِمْ أَحْسَنُ﴾.

ثم أعاد الأستاذ الطنطاوي الكرة مناقشاً الطالب وتاركاً أستاذه، فكتب مقالاً تحت عنوان^(٢) (إلى خلف الله العامري) تحدث فيه عن معنى القصة أدباً وعلماً، وعن موقف القرآن من أخبار الماضين، وعن التمهك في أقوال الأصوليين دون فهم لما عنوه وبحثوه، وعن التمهك بالأستاذ الإمام حيث فهم من كلامه ما لا يفهمه ذو الذهن البصير.

وكانت معركة على صفحات الرسالة، أدارها رئيس التحرير المؤقت الأستاذ علي الطنطاوي، وقد آتت هذه المعركة جدواها الصحيحة النافعة، لأن الباحث المتعجل حين طبع الرسالة في كتاب مستقل حذف كثيراً مما كان موضع الاعتراض، وعمل على ظهورها في وضع أقل اعتسافاً! وأقول: أقل اعتسافاً، لأنها حملت كثيراً من الأخطاء التي قام بتصحيحها نفر من الفضلاء على صفحات الرسالة وغيرها، فلم

(١) الرسالة: العدد ٧٤٢.

(٢) الرسالة: العدد ٧٤٤.

يعبأ بهذا التصحيح، وقد كَانَ فيما نشره الأساتذة أحمد أمين وأحمد الشايب، وعبد الفتاح بدوي ومحمد الخضر حسين، ومحمود شلتوت من تصحيح واضح لأخطاء الباحث ما يمنعه من مُعاودة الخطأ المنقود، لو كَانَ قد استمعَ إلى منطق العقل، ولكنه آثر العناد.

- ٢ -

كان الأستاذ مصطفى صادق الرافعي حاملَ راية الإسلام في مجلة الرسالة، كانت مقالاته الإسلامية تُصلِّصُ في قلوب القراء صلصلةً مدوِّيةً فلا ينقطعُ أثرها إلا حين تتلوها مقالةٌ أخرى على نمطها البياني الرائع، وتحليقها الإيماني الملهم، وكأنَّ الله قدَّر للرافعي المجاهد ألاَّ يطولَ عهده بالرسالة، فجعلَ له خليفةً يسيرُ على نهجه، ويترسَّم خطاه، لا أقولُ: إنَّه يسير على نهجه البياني، فقد كَانَ الرافعي في أسلوبه أمةً وحده لم يَبْزِه سابقٌ، ولم يلحقه لاحقٌ، ولكنَّ نهجه الروحي في الاعتصام بمبادئ الإسلام، والهيام بالتاريخ الممتدَّ لأبطاله الكرام، والوقوف على أسرارهِ الحكمة تشريعاً وتأصيلاً واستنباطاً، هذا النهج قد احتذاه نفرٌ من كتاب الرسالة، منهم عبد المنعم خلاف، ومحمود محمد شاكر، ومحمد سعيد العريان، ولكنَّ الذي فاقهم جميعاً علي الطنطاوي، إذ كانت مبادئ الرافعي الروحية، وتحليقهُ السماوي في أسْمَى معارج الفكر، وخياله المتحمَّس على المناوئين لاتجاهه، كَانَ ذلك كُلُّهُ مذهبَ علي الطنطاوي.

وقد اعترف الأستاذُ أَنَّهُ تأثَّرَ بأسلوب مصطفى لطفِي المنفلوطي، ثم بترجمات الأستاذ الزيات الروائية، فكانَ لهما أبلغُ الأثر في توجيهه، وكأنَّه نظرَ إلى سُهولة أسلوبه، ووضوح بيانه، فلمْ يشَأْ أَن يقولَ إنَّه تأثَّرَ بالرافعي صاحبِ الغوص البعيد على المعاني والصُّور البيانية، ذاتِ الخيال المجتَنح الذي يطربك من أفقٍ إلى أفقٍ، فيعزُّ عليك أَن تلاحقه في مراقبه الصاعدة، ولكنِّي أرى أثرَ الرافعي واضحاً في اتجاه الطنطاوي، وإلا فكل قصصه التاريخية التي أبدعَ فيها غاية الإبداع كانتْ نواتها من وحي الرافعي، لم يُغرب الطنطاوي إغرابَ الرافعي، ولم يَغصْ مغاصه، ولكنه وجَّهه إلى الاقتباس من نبع التاريخ الإسلاميِّ الفياض بما ضَرَبَ من مثال، وما اختارَ من أحداث، فقَصَصُ اليمامتين، وفلسفة مهر، وأمراء للبيع، والأسد، وزوجة إمام، وقُبْحُ جميل، وجميعُ ما ظهر في وحي القلم نقلاً عن الرسالة. . . كُلُّها كانتْ

ذاتَ صدىٍّ بعيدِ التجاوبِ في نفسِ الأستاذِ علي الطنطاوي .

وأذكرُ أنَّه كَتَبَ خطاباً للرافعي على صفحات الرسالة، بعد أن قرأ (قصة زواج) فملكث عليه مشاعره، وغلبه إحساسه الدافق، فكتب يقول للرافعي من مقال ممتاز^(١):

«أقسم لقد سمعتُ هذه القصة، وحفظتها، وحدثتُ بها، وانحدرت بين أذني ولساني ورأسي عشرين مرّة، ثم لكأني لم أسمعُ بها إلا الآن، وكأني كنتُ فيها في ليل مظلم، فطلعتُ عليّ مقالاتك شمساً ساطعة، عرفتُ معها كيف تكون حصيات الليل لآلئ التّهار، فما بالك بمن لم يسمع باسم سعيد، وما بالك بمن لا يعرف في الدّنيا أدباً، لقد عابك بعضهم بالغموض، ورموك بالإبهام، فلما ظهر أن في الغزب شاعراً فحلاً مذهبه الغموضُ يتّخذهُ ويدعو له، أصبح الغموض فناً من فنون الأدب، وعندي أن مئة قصّة من مثل هذه القصّة تُنشئ الأدب إنشاءً جديداً، وتُخرج من الشيخ الهمّ الفاني الذي ينتظر الموت شاباً قوياً مهيباً».

هذا الإعجابُ البليغُ البالغ قد دَفَعَ الطنطاوي إلى محاكاةِ الرافعي في بعض ما كَتَبَ، ولا أدري أين قرأتُ له، أنَّه احتذى الرافعي حين كتب قصة (عالم) وقد جَعَلَ إهداءها إلى روح الأستاذ الرافعي، وهي تدور حول تَرَفُّع عالم الشام الشيخ سعيد الحلبي أمام إبراهيم باشا الفاتح المتكبر، فهذه المقابلةُ اليسيرة بين الباشا والعالم جَعَلَت الطنطاوي يكتب فصلاً بديعاً نحا فيه نحو أستاذه، وجاءه فيضٌ من الخواطر الروحانية كبعض ما كان يتدفق على لسان الرافعي من شاهق السماوات!

وكأني بالطنطاوي وقد أحسَّ أن قراء الرافعي نمطٌ خاصٌّ من الناس، وأنَّ بيانه لا يبلغُ مكانَ التأثير في نفوس العامة، فأثّر أن يكون (منفلوطياً) في قصصه الأخرى، والذين في قلوبهم مرض يروُن في أسلوب المنفلوطي آيةً سذاجة تبليغ السطحية، وهُم كاذبون عن عمد، لأنَّ البيان المشرق لم يعرف له رائداً في هذا العصر مثلاً صاحب النظرات والعبرات، أجل، لقد أثر الطنطاوي أن يذهب في غير اتجاه الرافعي حين كَتَبَ قصصه التاريخية الرائعة، ولكنّه استلهم الفكرة في الاتجاه من صاحب وحي القلم، وكنتُ آخذُ على الطنطاوي أنَّه يكتبُ القصّة في خمس عشرة

(١) الرسالة: العدد ٦٩.

صفحة ممتازة حقاً بتصويرها وتعبيرها ومغزاها، ثم يقولُ في الهامش: «أصل هذه القصة سطران في كتاب كذا». فَلِمَ هذا التعليق؟ إِنَّه يصدم القارئ بعد أن يعيش في جو القصة الرحيب؛ والناقدُ الأدبيُّ يعرف سلفاً أن القصة مُستوحاة من سطرٍ أو سطرين، وله حكمه حينئذ، فلماذا نصدمُ القارئ العادي بهذا التعليق؟.

أما مظهر حبّ الطنطاوي للرافعي فقد ظهر في اشتراكه في الحومة المشتعلة التي أوقدها الأستاذ سيد قطب على أدب الرافعي، وقد كان الكاتب الشهيد رحمه الله في مُقْتَبَل شبابه حينئذ، وفي أسلوبه اندفاعٌ سريعٌ للمهاجمة والتطرف فيها، وقد قَسَا على الرافعي في مقالٍ جرّده فيه لا من الشاعرية، فأمرّها سهل، ولكن من الإنسانية، وعدّ قول الرافعي:

قلبي يحبّ وإنما أخلاقه فيه ودينه

نمطاً من الوعظ المنبري، وأنا أحبّ سيد قطب حبّاً لا مثيل له، ولكني لا أعذّره في هذا الشطط الجامح الذي يجعل الرافعي بعيداً عن الإنسانية، وما عُرِفَت الإنسانية في أبدع مجالها كما عُرِفَتْ في (رسائل الأحرار) و(أوراق الورد) و(المساكين) و(وحي القلم).

وهنا تجرّد الطنطاوي للدفاع عن أستاذه في عدة مقالاتٍ نارية أخذت مكانها جوار مقالات أنصار الرافعي، من أمثال محمود محمد شاكر، ومحمد أحمد الغمراوي، وإسماعيل مظهر، ومحمد سعيد العريان! وأذكرُ أنّ الأستاذ الطنطاوي وجّه للأستاذ الزيات خطاباً عاتباً يسأله: لماذا شغل القراء بمقالات سيد قطب؟ وباطلها صريح، فكان جواب الزيات قوله^(١): «الرسالة تجيب صديقها الأستاذ الطنطاوي بأن من مبادئها أن تكون صورة صادقة لأدب العصر، فلا تسجلُ مذهباً دون مذهب، ولا تتوخى أسلوباً دون أسلوب، ومعارك النقد ظاهرة مألوفة في عصور الأدب، عَفَتَ الرسالة عنها حيناً، ثم رأيت من الخير أن تُسجلَ هذه المعركة، لأن أدبي الرافعي والعقاد يمثلان وجهتي الثقافة في آفاق العروبة، فالقولُ فيهما إذن حسن، يعينُ المتأدّب على الوجهة التي يوليها، ويُنعشُ الأدب من الخمود الذي هو فيه، ومن حسن القول أن يتكلّم الناظر في الأدب بلسان الأدب، وأن يعتقد أنّ أدب الرجل شيء غير شخصه، فلا ينبغي أن يُدخل الناقد في حسابه الحياة والموت،

(١) الرسالة: العدد ٢٦٠.

ولا الصداقة والعداوة، أما رأي الرسالة في الكاتِبَيْن العظيمَيْن فقد سجّلتَه في افتتاحيّاتها، فهي لا تتحمّلُ من تبعات النشر غير ذلك الذي رأته.

هذا مثل يشير إلى نقد الطنطاوي الثائر، أمّا الطنطاوي الهادئ الرزين في نقاشه فقد تجلّى هُدُوهُ الحليم في مقالاتٍ كثيرة، توخّت اللّباب دُون سواه، ومن أظهرها مناقشتُه للأستاذ عبد المنعم محمد خلاف فيما كتبه في مؤلّفه الذائع (أومن بالإنسان) حيث ذهب كلا الصديقَيْن المتناظرَيْن مذهبَ المخالفة، والحقّ أن القضية من الصُّعوبة بحيث لا يظهر فيها حكم حاسم، لأنّ الإنسان من ناحية يعلو حتى يحلّق في الأوج، ومن ناحية أخرى يسفل حتّى ينام في الحضيض، والحكمُ إذن على المجموع العام من السمات الشخصية للإنسان، لا على النادر القليل.

ولا يمكن أن نحصر الفيض الهتون الذي تدفّق من يراع الأستاذ الطنطاوي على صفحاتِ الرسالة والثقافة في مدى عشرين عاماً، ولكنّ الطابع الأدبي كان يُجاور الطابع الإسلامي في اختيار موضوعاته، فحديثُه عن وادي العقيق والإبيوردي، ووظيفة النقد يُجاور حديثُه عن مُشكلات الشباب المسلم، وقضية الزواج في المجتمع الراهن، وداء الشباب المعاصر، ومن الملاحظ أنّ الطنطاوي أوّل من كتّب مسرحيةً إسلاميةً مقتبسةً من سيرة رسول الله قبل أن يكتّبَ توفيق الحكيم مسرحية محمد، فكأنّه وضع الخط الذي يجب أن يُتبع في كتابة مسرحية عن رسول الله، حيث التزم بكلّ وقائع السيرة في الفصل المسرحي الذي دمجته تحت عنوان (أبو جهل) التزم بكلّ وقائع السيرة دُون جموح إلى الخيال، وهذا ما التزمه الأستاذ توفيق الحكيم ونصّ عليه في مقدمة كتابه، وهو التزامٌ عسير لا يسير، لأنّ تَنميق الحوادث الواقعيّة في أسلوبٍ حوارِي مطّرد، دُون أن يتّسع المجال لخيالٍ يملأ الفجوات أو يرسم الملامح؛ ممّا يشقّ على غير الأديب الملتزم، ولا أدري لماذا لم يُواصل الأستاذ تأليفَ فصولٍ مسرحيّة مُماثلة، لعلّه نظّر فوجدَ توفيق الحكيم قد استلهم أحداثَ السيرة بما كان في نفسه، فانتقلَ إلى القصّة وغادرَ المسرحية لغير عودة.

أما الصّوتُ الذي جلجل في الأسماع حقّاً، فهو صوتُ الأستاذ الطنطاوي حين دَعَا إلى تأليفِ كتابٍ مُعاصر يشرح حقائق الإسلام، دعا إلى ذلك في أواخر الثلاثينيّات حين كانت المكتبةُ الإسلاميّة محتاجةً إلى كتابٍ مُعاصر يقرؤه الشابُّ المُنغمسُ في روايات الجنس، فيتطلّع إلى أفق أرغد وأسعد، كانت المكتبةُ

الإسلامية خاوية، لا تجد فيها الكتاب المعاصر ذا الأسلوب المبين المُمنع . وأذكرُ أن شاباً من طلاب الجامعة اتّجه إلى فضيلة وكيل الأزهر إذ ذاك، يسأله عن كتاب يقفُ به على حقائق الدين، فأشارَ عليه بقراءة شرح الإمام النووي لصحيح مسلم، ولم يستطع الطالبُ أن يجد إزبته في شرح الإمام النووي، لأنه كُتِبَ وبُوبَ لزمنٍ غير هذا الزمن، ولن يقرأه غير من تربّوا على كتب التراث من طلبة الأزهر وأشباههم .

هذه الحاجةُ الماسّة إلى تأليف كتابٍ عن الدين الإسلامي دعت الأستاذ الطنطاوي إلى تكرار الحديث عن هذه الضرورة الملزمة . . تحدث باقتضاب في مقالاتٍ متناثرة، دون أن يجد الصّدَى المتجاوب، ثم رأى أن يطرق الباب بعنفٍ خاص، فكتب أولاً توجيهاً رائعاً تحت عنوان (سؤال إلى المفكرين من علماء المسلمين) قال فيه ما فحواه: إننا نتفق على أن الإسلام صالحٌ لكل زمان ومكان، وأنه يجعل من المتمسّكين به قوةً بشرية ممتازة في العلم والمال والحضارة، فكيف يتفق هذا مع وجود أحكامٍ في الفقه لا تصلح لهذا الزمان؟! فالأُمم المتمدّنة اليوم لا تستطيع الاستغناء عن المصارف والبنوك والرّبا؟ ما هو النوع المحرّم الذي حرّمه الله وينطبق عليه الإثم؟ فأين هي البحوث التي تحدّد الرّبا، وتبيّن ما يتّصل به من المعاملات وما ينفصلُ عنه؟ إن الفقهاء يغرقون في بُحوث العبادات وحدها، ويغفلون عما يشغلُ البال من هذه البحوث ذات الأهمية القصوى في الحياة^(١). ثم قال في الختام هذا سؤالٌ أوجّهه إلى المفكرين، لا إلى المحافظين من علماء المسلمين .

وقد سارعَ للإجابة عالم الشام الكبير الأستاذ محمد بهجة البيطار، فكتبَ بحثاً ضافياً تحت عنوان (المعاملات في الإسلام)^(٢) أجابَ فيه عن الأسئلة التي وجّهها الأستاذ الطنطاوي، وقد بدأه بتأييد دعوته إلى النظر في أحكام التشريع التي يتطلّبها العصر الراهن، وبسط القول في مسائل الشّركات الاقتصادية المعاصرة، ومعاملات البنوك في المصارف المتنوّعة في شتّى البلاد الإسلامية، ثم اتّكأ على تفسير المنار لآيات الرّبا وعمل المصارف، فنقلَ أقوال السيد محمد رشيد رضا الخاصّة بهذا الصدد، وتحدّث عن المجلّة الشرعية التي كانت تصدرُ في دار الخلافة خاصّة

(١) الرسالة: العدد ٣١٦ .

(٢) الرسالة: العدد ٣٢٣ .

بالمسائل المستحدثة وغيرها، ثم وقفت عن السير بعد اتجاه تركيا إلى العلمانية!

والأستاذ بهجة البيطار مشكورٌ على إسراره بالإجابة، وقد كان ذلك منذ خمسة وخمسين عاماً! وفي هذا الأمر اتضحت هذه المسائل على وجهها المريح، وألفتِ المجامع العلمية للبحوث الفقهية في مصر والسعودية وغيرهما، فانجلت الحقائق أحسن جلاء، ورأينا اليوم ثمراتِ هذه الدعوة التي سبق إليها الطنطاوي دانية القطوف!.

هذا عن أحكام البيوع والمعاملات، أما خصائص الدين الإسلامي، وإيضاح تعاليمه السديدة في شؤون الدنيا الآخرة، وضرورة تأليف كتابٍ معاصرٍ يُلَمَّ بذلك كله، فقد جلجلت دعوة الأستاذ الطنطاوي إليه في مقالٍ نشره تحت عنوان (كتاب في الدين الإسلامي)^(١) قال فيه: إنه درّس للطلاب في شتى مدارس الدول العربية، فحدّثهم عن الإسلام ومحاسنه وتعاليمه، فكان الطلاب يسألونه عن كتابٍ يشرح هذه المحاسن والتعاليم، ليجدوا فيه خلاصةً وافيةً بأمور دينهم كما يجدون خلاصاتٍ دقيقةً لمسائل الهندسة والطبيعة، فلا يستطيع الأستاذ أن يدلّهم على هذا الكتاب، لأنّ كتب التراث لا تُقدّم الزاد الميسر لطالب اليوم، وقد صمّم الأستاذ أن يبدأ بكتابة فضلٍ من هذا الكتاب على صفحات الرسالة، داعياً فضلاء الكتاب إلى متابعة الحديث، بعد أن وضع لهم فهرساً يشمل ما يجب أن يحتويه الكتاب، ولولا خوف الإطالة لنقلتُ هذا الفهرس الممتاز حقاً، ثم أتبع القولَ العمل، فنشر عقب هذا النداء الفصلَ الأول من الكتاب تحت عنوان (مقدمةٌ لبحث الإيمان) تحدّث^(٢) فيه عن معنى الإيمان اللغوي وعن أنواع الإيمان، وعن الإيمان في الدين الإسلامي، والفرق بين الإيمان والإسلام، وضرورة الإيمان للإنسان، وأثره في سعادة الحياة، وعن الإيمان الكامل، وعدم جدوى الصالحات بلا إيمان، وأسلوبُ هذا الفصل واضحٌ بيّنٌ، يقرؤه الطالب والأستاذ معاً فيستفيدان.

وكعادة الأستاذ الطنطاوي طَلَبَ من شيخه وصديقه الأستاذ محمد بهجة البيطار أن يكتبَ الفصل الثاني من الكتاب، وينشره بالرسالة، فأسرّع الصديق للإجابة،

(٢) الرسالة: العدد ٣١٤.

(٣) الرسالة: العدد ٣١٨.

ونشرَ فضلاً تحت عنوان^(١) (كتاب في الدين الإسلامي) تحدّث فيه عما يُراد بعلم التوحيد مُبيناً ما يلحظه على كتب العقائد المتداولة؛ ما كُتب منها على طريقة السلف، وما كُتب على طريقة الخلف، ثم أشار إلى أنواع التوحيد الثلاثة بإفاضة وإشباع، وختمَ الفصل بحديثٍ عن التوسّل، راجياً من العلماء أن يبذلوا جهودهم في تقرّيب كُتب السابقين إلى الأذهان، إذ يتحدثون عن مضمونها بلغة العصر. . وإذن فقد كُتب من الكتاب فصلان، وبقي أن يستجيب العلماء!.

وقد كانَ لدعوة الأستاذ الطنطاوي صدّي واسعاً بين شباب الأزهر من الطلاب، لا بين شيوخه من الأساتذة، فأجمع الشباب على تأييد الأستاذ في اتجاهه، وعَجِبُوا كيف يغفل علماء الأزهر عن واجبِهم أحق الناس بالقيام به؛ وأذكرُ أن صديقي الشاعر الأستاذ عبد العليم عيسى - وكان طالباً بكلية اللغة العربية - كتب كلمة^(٢) حارة تحت عنوان (أين علماء الأزهر؟) قال فيها: «إن نفسي انطلقت لهذه الفكرة - فكرة الأستاذ الطنطاوي - وانتظرتُ ما يكون من علمائنا، ولكنّ ماذا كان؟ كان أن ذهبَت دعوةُ الأستاذ لديهم هباء، فلا حسَّ ولا حركةَ ولا حياة، إن أساتذتي في الأزهر لا يهتمّهم في الحياة إلا صَفَوْا أنفسهم وفَخَفَخَها، أين الرّجوي والجبالي واللبان وأبو العيون والأودن والجزيري وأبو دقيقة وأين غيرُهم من هؤلاء». وتعليقاً على قول الصديق عبد العليم عيسى أذكرُ أن نفرأ من هؤلاء الأفاضل كَتَبُوا كثيراً في المجلّات عن هذه المسائل، ولكنّ لم تُنخّ لهم وسائلُ النّشر كي يجمعوا ما كتبوه في كتب مستقلة، وقد انجلت هذه الغاشية، فظهرت كُتب كثيرة لأزهريين وغير أزهريين، تحدّث عن هذا الشأن الخطير، ومن أبرزها كتابُ الأستاذ علي الطنطاوي نفسه، الذي كتبه تحت عنوان (تعريفُ عام بدين الإسلام) وهو كتابٌ ممتاز في بابه ولا ينقصه غير فصل عن الأخلاق في الإسلام.

لقد كانت مقالات الأستاذ الطنطاوي بالرسالة ذات صدّي بعيد عند القراء، وبخاصّة في الدوائر الدينيّة، فازداد انتشار الرسالة، وعرف الأستاذُ أحمد أمين صاحب مجلة الثقافة منزلة الأستاذ عند القراء، فحاول أن يحثّه - راجياً - على الكتابة في الثقافة، وجاءت رسالة الدكتور أحمد أمين إلى الطنطاوي، وكان قد تركَ

(١) الرسالة: العدد ٣١٩.

(٢) الرسالة العدد ٣٢٠.

التدريس إلى القضاء، وعكفَ على عمله الجديد حتى يعرفَ أبعاده عن خبرة شخصية، فقلَّت كتاباته في الرسالة، ورأها الأستاذ أحمد أمين فرصةً اقتنصها، فأرسلَ إليه الأستاذ الطنطاوي مقالَهُ الأول للثقافة تحتَ عنوان^(١) (كتاب مفتوح إلى الأستاذ أحمد أمين) تحدّث فيه عن جانبٍ من حياته في دمشق والقاهرة، وألمّ بما يُعانيه من ضيق، إذ قال في صراحة:

«إن مصر إذا أردت الحق لا تحبّ إلا أبناءها ولا تبسمُ إلا لهم، فواحدُ الأديب المصري مئة، ومئةٌ غيره لا تُساوي عندها واحداً، لأنّ الكتابَ المصري يجد التقريظ والذبيوع، والكتاب الآخر يجدُ الإهمال من نقاد مصر». وكان الأستاذ أحمد أمين صادقاً حين قال في تعقيبه على خطابِ الأستاذ:

«أرسلتِ الثقافة إلى الأستاذ الأديب الدمشقي صاحب الإمضاء (ع) ترجوه الخروجَ عن صمته، والعودة إلى تلحينه، وقد عرفتُ منه كاتباً قديراً، وأديباً متفتناً، فبعث بهذا الكتاب، وأباحَ لنا نشره، ولعلّ هذا يكونُ باعثاً للأستاذ أن ينقّس عن نفسه، ويُمَتّع القراء بآثاره، والأستاذ يعبُتُ على الصحف والمجلات المصرية والثقافة أنّها تشيد بالتآفة من نتاج مصر، ولا تُشير إلى الجيّد من نتاج الأقطار العربية الأخرى كالشام والعراق، وقد سمعنا هذه الشكوى مراراً، وقد يكونُ فيها شيءٌ من الحق، ولكن أكبر الظنّ أنّه إهمالٌ غير مقصود، ولعلّ كتابَ الشام والعراق يحملونَ أيضاً كثيراً من التبعة، فالكتبُ الشامية والعراقيةُ تظهرُ بين أظهرهم، وهم أعلمُ الناس بها، فلو كتبوا عنها ونقدوها نقداً قيماً، وعزّفوا بها تعريفاً صحيحاً لما تأخّرتِ المجلات المصرية عن نشر مقالاتهم، والثقافة على الأقل تلتزمُ بهذا وتتعهّد به، وتعتقد أنّها تسدّ بذلك نقصاً واضحاً فيها!».

ولعلّ من الطريف أن أذكر أن الثقافة فتحت باباً للتعريف بكتب الشام، وقد كتبه الأستاذ (فواز) وهو اسم مستعار للأستاذ صلاح الدين المنجد، كما شارك في التعريف بكتب الشام كاتبٌ آخر، فنشرت له الثقافة ما كتّب، أما وجهُ الطرافة فهو أن الأستاذ الطنطاوي نفسه قد كتّب في مجلة الرسالة يحتجّ على تشجيع الأغرار الذين يتحدّثون عن كتب الشام بما لا يجيدون! وكانت نظرة خاصة به، لأن التعريف لا يستلزم الإحاطة والغوص، فهو إن تقدّم وإن تأخر تعريف! ثم توالى مقالات

(١) مجلة الثقافة: العدد ٢٣٠.

الأستاذ الطنطاوي في الثقافة فأسعدت القراء .

وبعد :

أتراني بلغتُ ما أريد من الحديث عن دور الأستاذ الطنطاوي في صحافة مصر؟
إذا بلغت ذلك فقد ارتحت ، وإلا فقد فعلت ما أطيق .

* * *

قدري حافظ طوقان داعية الحضارة الإسلامية

- ١ -

أعجب بالمفكر المخلص ذي الشخصية القوية، والروح الملتهبة، يعتنق فكرة من الأفكار الصحيحة، ويعمل على تحقيقها باذلاً كل جهوده في الدعوة إليها، وقد يضطرّ إلى تكرار ما يقول بتعدّد أماكن الإعلام، من ندوات وصحافة وتأليف، وقد يجدّ المعارضة المتهكّمة من قوم يسوؤهم أن يعمل الناس وهم راكدون، ولكنّه يواصل الدعوة المُخلصة، وقد يوفّقه الله فينجح، وقد تقوم الحوائل دون غايته الحميدة، فلا يحقق ما يأمل، وفي الحالتين يكون المكافح بطلاً في ميدانه الكبير .

لقد جاهد المصلح الكبير محمود العيون في مصر، لمحاربة البغاء الرسمي في مصر، على مدى رُبع قرن، لا يهدأ في دعوته: كتابةً في الصحف، ومحاضرةً في الندوات، وجمعاً لتوقيعات الكبار ممّن يميلون إلى فكرته؛ وقد لاقى من تهكّم بعض المغرضين ما لا طاقة له باحتماله من الأراجيف، إذ تعدّوا كلّ منطق، ليُلصقوا بالرجل ما لا يليق، ولكنه انتصر في النهاية، وتحقّقت دعوتُهُ، فمسحت مصرُ عن وجهها هذا العار الشنيع .

وقد جاهد الدكتور أحمد غلوش سبعين عاماً متّصلة في مُحاربة الخمر والمسكرات، وأصدرَ الكتب على نفقته، وسافر إلى المؤتمرات الأجنبية في أوروبا مما ادّخره من قوته، وأقام فروعاً لجمعية منع المسكرات في عدّة عواصم من المدن، ولقي من تهكّم الصور الكاريكاتورية، وتظّرف الخبثاء ممّن يولعون بالسّكر والإدمان ما لم يُثنه عن عزمه، وزاد الأمر إلى الافتراء الصارخ بأنّ الدكتور غلوش يشرب الخمر ليعرف أضرارها، ويتكلّم عن تجربته، وقد مات الرجل في سنّ

التسعين، ولم يصل إلى تحريم الخمر بقانون مصريّ، ولكنّه بذل جهده، قدر ما استطاع.

أسوقُ هذين المثلين، لأتقدّم بمثل ثالث هو المفكّر الكبير الأستاذ قدري حافظ طوقان، فقد قرأ تاريخاً مشوّهاً للثقافة الإسلامية، والنهضة العلمية عند العرب، قرأه بأقلام أجنبية، ثم قرأه مترجماً ومقرّظاً بأقلام عربيّة، فألّى على نفسه أن يبدل كلّ وقته في تصحيح أكبر خطأ يتعلّق بالحضارة الإسلامية والنهضة العربيّة، وامتنق القلم كاتباً، وعلا المنبر متحدّثاً، وملأ الصحف العلمية والأدبيّة باحثاً، ليثبت للناس جميعاً أن الحضارة العربية أضافت الكثير إلى التراث الإنساني، وأنها ساعدت على التقدّم الأوروبي حين انتقلت أسفارها إلى ربوع الغرب، وأنّ المنصفين من باحثي الغرب يعرفون ذلك ويقررونه في حيّدة وإنصاف، وإن كانوا قلةً، جوار كثرة من المتعصّبين.

فعل الأستاذ ذلك كله جاهدأً دائباً، حتى عُرف بهذا الاتجاه، فدعته الهيئات العلمية للمحاضرة والمناظرة، وسارَ له ذكرٌ طائر في معرفة خصائص الحضارة العربيّة، وأعلامها المرموقين في شتى نواحي المعارف المختلفة، ولا أنكرُ أن نفرأ من الفضلاء قد كتبوا في بعض ما عناه الأستاذ قدري حافظ طوقان، ولكن الصبر الجميل المتّصل على دراسة شتى العلوم المختلفة، دون الوقوف عند فرع واحد، هذا الصبر الدائب الجميل كان من حظ الأستاذ طوقان، وهو في بحوثه العلمية لا ينكر جهود من أشاروا إلى بعض مظاهر التفوق العلمي في فرع من فروع المعرفة، كالدكتور محمد خليل عبد الخالق، والدكتور مصطفى مشرفة، والدكتور مصطفى نظيف من أساتذة الجامعة المصريّة ذوي البحث الجاد، والنظر العلمي التّزيه، وقد جمّع آراء هؤلاء وأمثالهم لتكونَ سنداً قوياً لاتجاهه، ولكنه مع هذا بقيّ العَلَم الشامخ في هذا المجال.

يقولُ الدكتور العالم عبد الحلّيم منتصر عن الأستاذ طوقان^(١): «لقد وُلد عالمنا في مدينة نابلس بالأردن سنة ١٩١٠، وتخرّج في الجامعة الأمريكيّة ببيروت سنة ١٩٢٩، متخصصاً في العلوم الرياضيّة، ومثّل بلاده في أكثر من خمسة وعشرين مؤتمراً علمياً وثقافياً وإنسانياً في البلاد العربيّة والغربيّة، وفي سويسرا والهند

(١) مجلة مجمع اللغة العربيّة بالقاهرة: مارس سنة ١٩٧٢م.

وباكستان، وإيطاليا وأسبانيا، ومصر ولبنان والمغرب العربي، والكويت والعراق ودمشق، وهو عضوٌ في المجمع العلمي العربي بدمشق، والمجمع العلمي لدول البحر المتوسط بإيطاليا، ورئيس الجمعية الأردنية للعلوم، وعضو اللجنة القومية، وعضو مجلس الاتحاد العلمي العربي بالقاهرة، وعضو مجلس أمناء الجامعة الأردنية، وعضو مجمع اللغة العربية بالقاهرة، وانتُخب نائباً للرئيس في المؤتمرات العلمية العربية جميعاً، ومؤتمر المفكرين في لاهور، ومؤتمر التعريب في الرباط، وقد تولّى وزارة الخارجية الأردنية زمناً، وتركها لأعماله العلمية».

وبمراجعة ما ذكره الدكتور عبد الحليم منتصر في السطور السابقة، نجدُ أن المجامع العربية في الشرق والغرب قد عرفتَ فَضْلَ الرجل الكبير، وعملتْ على أن يكون عضواً عاملاً بها، وهذه التزكيات المتشعبة المتنوعة تدل على إجماع شرقي وغربي على مكانة قدري وما يتاحُ على يديه من العطاء، لأنَّ المجاملة الشخصية لو تحقّقت عند مجمع واحد تكونُ ظاهرةً الشذوذ، ويحذرُ الآخرون الوقوعَ في مثلها، فإذا حَدَثَ هذا الإجماع الباهر على الانتفاع العلمي من جهود البَحَّاثِ الكبير فقد «قطعت جهيضةً قول كل خطيب». هذا من ناحية.

أما الناحيةُ الثانية، وهي أهمّ من الأولى، فهي قيامُ الباحث بمحاضراته العلمية في المؤتمرات الغربية بسويسرا وأسبانيا وإيطاليا والهند، ففي هذه المؤتمرات يوجدُ علماءٌ ينكرون فَضْلَ العرب في كل شيء، ولهم بحوثٌ مستفيضةٌ يُحاولون تكرارها، وكلُّهم ينقلون ما قيل في هذا الصدد، ويزيدون عليه ما يروّنه دعامةً لهذا الإنكار، فحين يقومُ الأستاذ قدري بين هؤلاء ليعصِفَ بأفكارهم ذاتِ التأثّلِ الراسخ بالتكرار، فإنّه ليسَ عالماً فقط، ولكنّه عالمٌ بطلّ يجابه الإعصار الكاسح متحدياً، يُجابهه وهو يعرف سلفاً أنّه لم يحضرْ إلى هذه المؤتمرات الأجنبية ليسيّر في طريق ممهّد بالزهر والريحان - شأنه في ذلك شأن مؤتمرات الدّول العربية في دمشق والقاهرة والمغرب ولبنان والعراق - إنّما حضرَ هذه المؤتمرات ليصحّح أخطاء يُنادي بها ذو التعصّب، وأقول: ذو التعصّب، عن قصد، لأنّ الباحث الخالي من الغرض عليه ألاّ ينكّر الحقائق التاريخية إذا قُدِّمت إليه في سياقها العلمي الرصين، وإذا رأى بها بعض الأخطاء بادّرّ بالتعبير عن وجهة نظره ليجد الردّ المقابل، وهُنا يتّضح وجه الحق دون لججاج!

ولكن هؤلاء الجاحدين للحضارة العربية في أرقى عصور ازدهارها، يجعلون كلامهم عن أوروبا شاملاً لما كان في الدول العربية، فإذا اعترفوا بأن لديهم فترة يسمونها فترة العصور الوسطى بأوروبا، وهي الفترة التي حاربت فيها الكنيسة الأوروبية حقائق العلم بكل سلاح، وأصرت على إعدام الكتب والمؤلفين معاً، حين يخرجون عن مقررات الكنيسة. . فليعلموا أن هذه الفترة لا وجود لها في دول الإسلام، ففي العصور الوسطى الأوروبية التي وُسمت بالرجعية والجمود كان العالم الإسلامي يزدهر بثلاث حضارات رائعة، تُبدعها ثلاثة خلافت إسلامية في بغداد والقاهرة والأندلس، وفي هذا العصر المزهر سبق العلم الإسلامي بفكره المتقدم واستقلاله الحر إلى فتوحات علمية في شتى أنواع المعرفة الإنسانية، وظهر من أعلام الفكر الإسلامي من كانوا حَمَلَة النور في كل اتجاه، وبآثارهم الرائعة استطاعت أوروبا أن تتلمس الطريق.

وللقوم في تأكيد شبهاتهم مُحاولات تتشع بشتات الفكر، إذ يزعمون - كما نادى رينان - «بأن الجنس السامي الذي استطاع أن يطبع ما ابتدعه من الأديان بطابع القوة في أسمى درجاتها، لم يُثمر أدنى بحث فلسفي خاص، وما كانت الفلسفة قط عند الساميين إلا اقتباساً صرفاً تقليدياً جديداً للفلسفة اليونانية»، أو كما قال ألفريد جيوم في كتاب (تراث الإسلام)^(١): «إننا لنرى في الأدب الغربي بين الحين والحين إشارة إلى ما يطلقون عليه اسم الفلسفة العربية، كما نرى طائفة من كتاب الغرب تذهب إلى أن الفلسفة المسماة بهذا الاسم ليست إلا خليطاً من آراء القدماء لا تجانس بين موادّه المتنوّعة، قد ترك ليتفاعل وينضج، فهم منتهون إلى أن ليس هناك شيء اسمه الفلسفة العربيّة، وإلى أن الشعوب الناطقة بالضاد لم تفعل شيئاً أكثر من أنها استولت على الفلسفة اليونانية التي كانت شائعة بين المسيحيين من أهل سورية، والمثقفين من أهل حرّان الوثنيين، ثم أضافت إليها بعض عناصر استمدتها من فارس والهند».

هذا بعض ما يتردّد بشأن الفلسفة، أما العلوم التجريبية، فنصيب العرب من التكران والجحود في ميدانها الآهل لم يكن بأقلّ من نصيبهم في الفلسفة والإلهيات! وإذن فالبلاء ليس بواحد، وهذا ما أدركه الأستاذ قدرى طوقان حين جعل رسالته العلمية في الحياة هدم هذه الأباطيل بما تأكّد من حقائق التاريخ، وهو جهدٌ ينوء به

(١) تراث الإسلام: ترجمة الدكتور الطويل.

غير أولي العزم، ويزيدُ في فداحته أن الأستاذ طوقان يجدُ من كتاب المسلمين أنفسهم من يشايعون المستشرقين بلا هدى ولا كتاب منير، وقد عبّر بنا زمنٌ - لا رَدّه الله - كان التباهي باعتناق آراء هؤلاء الجَحْدَة مدعاةً لافتخارٍ متعالٍ، أذكرُ أن الأستاذ الكبير عباس محمود العقاد قد وضع كتاباً يُوَضِّح فيه أثر الشرق في الحضارة اليونانية، والعقادُ باحثٌ عميق الغور، ومجادلٌ تخشعُ له الأصوات، وقد جاء ذكرُ هذا الكتاب أمام واحدٍ من هؤلاء، فصاحَ: وهل قرأ العقاد اليونانية حتى يُنَمِّق هذه الأكاذيب؟. قلتُ في أدب - لأنّ المتكلم كان بمنزلة أستاذي - وهل قرأت أنت اليونانية حتى تُعرف أكانَ العقاد صائباً أم غير صائب؟. قال في انفعال: قرأتُ الترجمات المنقولة عنها؟ فقلتُ: وهل تفوتُ هذه الترجمات أكبر قارئ مثقف في الشرق العربي، وهي لم تُفَتِّك؟. فآثر السكوت!.

لقد تعدّدت جهاتُ النضال لدى الأستاذ قدري، وبقراءة أسماء كتبه الرائعة في هذا الحقل نفق على جهد حافل مشهود، فقد ألّف كتباً مجيدة تحت عناوين: تراث العرب العلمي - نواحي مجيدة من الثقافة الإسلامية - الكون العجيب - الأسلوب العلمي عند العرب - بين العلم والأدب - العيون في العلم - الخالدون العرب - بين البقاء والفناء (في القنبلة الذرية) - النزعة العلمية في التراث العربي - العلوم عند العرب - ابن حمزة والتمهيد إلى اللوغارتمات - مقام العقل عند العرب - النزعة الإنسانية في التراث العربي - أكوان في كون.

هذا في مجال الفكرة العامة التي سيطرت على اتجاهه، وهناك كتبٌ أخرى مثل: جمال الدين الأفغاني - وعي المستقبل - بعد النكبة - بحوثٌ عن مأساة فلسطين؛ ولا أستطيع أن أقفَ عندها جميعها، ولكنني سأختارُ ما يرسم الصورة العلمية لفكر الباحث الكبير مما أراه مسعفاً بما أريد.

كانَ بحثُ (الأثر العلمي للحضارة الإسلامية وأعظم علمائها) من أوائل ما كتبه الأستاذ قدري خاصاً باتجاهه العلمي، ويظهرُ أنّ مجلة المقتطف قد حدّدت له عدد الصفحات، لأنّه كانَ مركزاً تركيزاً يحتاج إلى بسط شاف، فقد ابتدأه مصرحاً: «بأنّ العلم ليسَ وقفاً على أمة من الأمم أو شعب من الشعوب، بل هو مشاع يُمكن لمن يجدُ ويجتهد أن يحصل عليه، وأن يزيد فيه إن كان من ذوي العقليات الخصبة، وقدماً اشتغل البابليّون والمصريّون والفينيقيّون وغيرهم ببعض العلوم فبرعوا فيها،

ووضعوا أساسها، ثم انتقلت العلوم إلى اليونان وكان فيهم عقليات جبارة استطاعت أن تُنتج وتبدع، فقد كان لهم باعٌ طويلة في كثير منها، وفي بعضها بلغوا الذروة، وجاء من بعدهم أممٌ أخرى أخذت ما أمكنها منهم، واشتغلت به، وقامت بدورها في المساهمة في بناء المدنية، وبينما كانت نجوم المدنيات القديمة آخذة في الأفول، ظهر العرب فدرسوا مآثر الأمم التي سبقتهم، واطلعوا على تراث السالفين، فكوّنوا من ذلك حضارة حافلة بالمآثر والمفاخر، قامت على قرائح خصبة عزّزتها العناية الكبيرة، والتشجيع العظيم، والرعاية الوافرة التي كانت تظهر من الخلفاء والأمراء وذوي النفوذ في حاضرة الخلافة، وحوّاضر الإمارات المستقلة، لقد كان للعرب تأثيرٌ فعال في مصر والشام والعراق، وجميع بلاد أفريقيا الشمالية، إذ عَرَّبوها ونقلوا إليها ديانتهم وعاداتهم، وأصبحت عربية قلباً وقالباً، أما في البلاد الأخرى فقد كان تأثيرهم الديني يختلف كثرةً وقلة، ففي أوروبا كان تأثيرهم الديني ضعيفاً، وكذلك كان تأثيرهم في اللغة، أما التأثير في العقول والحياة فكان عظيماً جداً».

هذا ما قاله الأستاذ في مطلع حديثه، وهو قولٌ منصف يحمده قارئه المحايد، إذ لم ينكر فضل الشعوب المتقدمة التي قطعت شوطاً حميداً في ركب الحضارة حتى انتهت إلى اليونان، فوجدت عقولاً فذة استطاعت أن تُنتج وتبدع، حتى بلغت الذروة في بعض العلوم، ثم انتقلت كتبهم إلى العرب فقرؤوها، وانتفعوا بها كما انتفع اليونان من سالفهم، وزادوا فيها ما أصبح أثره ملموساً للمشاهد! وهذا الأثر هو الذي مضت صفحات البحث في اجتلائه في كلّ فرع من فروع الدراسات.

وقد بدأ بالأثر العلمي للحضارة الإسلامية في التاريخ والجغرافية، فأشار إلى أنّ كتاب (كشف الظنون) قد تحدّث عن ١٣٠٠ كتاب خاص بالتاريخ وحده، ومنها ما هو مرتّب أحسن ترتيب باعتبار السنين كالطبري وابن الأثير وأبي الفداء، أو باعتبار الأمم كالمسعودي والفخري، وابن خلدون صاحب المقدمة التي قال عنها الأستاذ (مكدونالد): إنّها أساس فلسفة التاريخ وحجر الزاوية فيه، ولم ينسج أحد على منوالها حتى علماء اليونان والرومان وغيرهم، فهي فتحٌ يُعدّ من أعظم ثمرات التفكير البشري.

وفي حديث الباحث عن الجغرافيا ذكر أنّ العرب صحّحوا كثيراً من أغاليط

بطليموس، وقد عرفوا الصين وتوغلوا فيها وفي أفريقيا، ورسموا خرائط غربية في بابها، إذ أن العرب أول من وضعوا أصول الرسم على سطح الكرة، وأول من أوجد بطريقة علمية طول درجة من خط نصف النهار. . وأخذ يعدد أسماء الجغرافيين من أمثال ياقوت وأبي الفداء الذي ترجم كتابه إلى اللاتينية واحتذاه الكثيرون، حتى ظهر الإدريسي، فكان أثره أكبر وأخطر لأن كتابه (نزهة المشتاق) قد ألّفه لِرُوجر ملك صقلية، وربّته على الأقاليم السبعة، وعَمَلَ لِرُوجر خارطة على كرة مسطحة من الفضة، رسم عليها الأقاليم والأقطار التي كانت معروفة في زمانه، وقد رَسَم الأوروبيون خرائط مماثلة للخرائط العربية في عصر الإحياء، فكان ذلك شاهد تلمذة لا ينكر.

ووالى الأستاذ حديثه عن التقدّم الحضاري للعرب في مجالات الطب والكيمياء والصيدلة والنبات والطبيعة والعلوم الرياضية، وحديثٌ يشمل هذا الاتجاه يضيقُ به بحثٌ مركّز في مجلة المقتطف، لا يتجاوزُ سبعين صفحة، وقد استجاب لرغبة الإيجاز، على أن يتولّى بسطَ هذا الإيجاز فيما يلي من آثاره، وقد فعلَ حقاً، ولكنني لاحظتُ أنه معَ هذا التركيز قد اضطرّ إلى نوع من التكرار رآه مما لا بدّ منه، لأنّه تحدث في الفصول الأولى عن العلوم، وجاء حديثُ العلماء مندمجاً في تيار البحث العلمي، ثم أفرَدَ باباً لهؤلاء يتحدّث عن كلّ علَمٍ على انفراد، فبيّعتُ ما سبق أن ألمع إليه ببعض التفصيل، وكنتُ أؤثر ألاً يحدث هذا التكرار، بل نتحدّث عن العلَم من هؤلاء خلالَ نظرياته بنوع كثير من الإسهاب، ونُشير في الهامش إلى ما لا بدّ من مراجع تاريخيه، ويمضي البحث هكذا على وجهه، فلا يشعر القارئ أنّه في التراجم الأخيرة يلمّ بأشياء قد وعاها من قبل، وهذا منهج ارتضاه بعض مؤرّخي الأدب من قبل، فهم يتحدّثون مثلاً عن الشعر في عصرٍ من عصوره فيسهبون في اختيار الأمثلة الأدبية، ويلمّون بحيوات المبدعين مُشيرين إلى اتجاههم، ثم يفرّدون أبواباً خاصة لتراجمهم بعد ما أشاروا إليه من آثارهم وأعمالهم!

وقد بدأ الأستاذ قدرِي حديثه عن الطبّ والكيمياء بقول الدكتور (سارطون): «إن بعضَ الغربيّين الذين يُجربون أن يستخفّوا بما أسداهُ الشرق إلى العمران يُصرّحون بأن العرب والمسلمين نقلوا العلوم القديمة، ولم يضيفوا إليها شيئاً، وهذا الرأي خطأ، لأنه لو لم تُنقل إلينا كنُوز الحكمة اليونانية مع إضافات العرب الهامة لتوقف

سير المدنية بضعة قرون». وقد جدّت آراء كثيرة بعد (سارطون) تُؤكّد ما قاله بالدليل، فانتصر المنصفون من الأوروبيّين للحقيقة العلمية غير عابئين بجمود المنكرين.

- ٢ -

وقد يظنّ الذين يطالعون هذه البحوث بعد ستين عاماً من كتابتها أنّ الأستاذ قدرّي يتحدّث عن مسلّمات، لأنّ تاريخ النهضة العلمية للعرب قد وُجد نصيباً من التأليف والتدريس بالجامعات منذ ثلاثين عاماً، حتّى أصبحت حقائقه ذات اشتها، ولكنّ الراصد للحركة التأليفية في تواريخ العلوم العربية، يعلم أنّ الأستاذ قدرّي كان أحد رُواد هذه البحوث، وكان الحديث عنها جديداً كلّ الجدّة حين ظهرت مجلات المقتطف والسياسة والرسالة حافلةً ببحوثه الرائدة، بل إنّ الرجل كان يُكَمِّلُ النقص فيما كتب إذا بدا له الجديد، فقد كتب مقالاً في المقتطف عن البيروني، أحاط ببعض آثاره، ووجّه الأنظار إلى اعتراف الباحثين في جامعات أوروبا بجهوده العلمية التي كانت خطوة كبيرة في طريق الكشف العلمي، ثم كتّب بعد عامين بحثاً في الرسالة يقولُ إنه نسي أن يقول: إنّ للرجل مؤلفاتٍ لم يعثر عليها، وقد قرأ اليوم مخطوطاتٍ تُثبت نشاط الرجل في عدّة ميادين، ثم أعقب ذلك بمقالٍ ثالث بعد عامين يقولُ فيه، لقد ظهرت قائمةٌ بأسماء كتّاب من مؤلفات البيروني تُثبت عدم اقتصاره على البحوث العلميّة، بل تمتد إلى مسائل اللّغة والأدب والتاريخ، ونقّل أسماء الكتب الأدبيّة المعزّوة إلى البيروني.

وقد يجيء باحثٌ - كما حصل فعلاً - فيكتب مقالاً عن البيروني يجمع فيه ما نشره الأستاذ طوقان في مقالاته الثلاث بالمقتطف والرسالة في مدى سبع سنوات، يجمع ذلك في مقال واحد، متحدّثاً عن الجهات المتشعّبة لنشاط البيروني وإسهامه في الأدب والعلم معاً، ذاكرًا ما عُرف من مؤلفاته بهذا الصدد، ناسياً أن يذكر جهود الذين وضعوا اللبنة لبنةً حتى استوى الصرح على أساس مدعّم، وتلك إحدى غرائب التأليف في العالم العربي، بل تزدادُ هذه الغرابة حين نجدُ اللاحق يُحاول أن يُخفي آثار السابق، وقد يضطرّ إلى ذكره معقّباً بما يشبه الانتقاص، ولو ضربت الأمثلة على ما أقول لفاض الكيل.

تابع الأستاذ قدرّي حديثه عن الطبّ والكيمياء والصيدلة والنبات وأثر العرب في إنماء ما يتعلّق بها من بحوث، وقد أشار إلى بحثٍ كتبه عن ابن سينا بمجلة الرسالة العدد (٣٦) ذكر فيه ما عثر عليه من اكتشافاته البارزة في الطبّ والتشريح، وأتبع ذلك بقوله إنّ الأستاذ الدكتور محمد خليل عبد الخالق وكيل كلية الطب بالجامعة المصريّة حينئذٍ قد قرأ مقالاً، وعقّب عليه باكتشاف جديد لابن سينا، حيثُ أظهر أنّه أول من اكتشف الطفيلية الموجودة في الإنسان المسمّاة الآن (بالأنكلستوما) وكذلك المرض الناشئ عنها المسمّى بالرهقان، وبالرجوع إلى مقال الدكتور عبد الخالق رأيتُ أن الباحث الجليل قد أثبت النصّ الدالّ على ذلك من الفصل الخاص بالديدان المعويّة المسجّل في كتابه (القانون في الطب) وقد سمّى ابن سينا هذه الدودة الطفيلية باسم الدودة المستديرة، وهي التي اكتشفها العلامة دوييني في إيطاليا سنة ١٨٣٨م، أي بعد كشف ابن سينا عنها بتسعمئة سنة تقريباً، والشاهد من هذا كلّهُ، أن العلم حلقات متّصلة، وأنّ الأستاذ قدرّي قد سعد بإضافة الجديد إلى مقالهِ، حين عقّب عليه الدكتور محمد خليل عبد الخالق بما أثبت لابن سينا من الفضل الذي سبق به الباحثين في أوروبا بتسعة قرون، ولم يُنقص من فضل الأستاذ قدرّي أن أضافَ هذا الاكتشاف لصاحبه، بل زاده رُسوخاً وأصاله، فعلى الذين يبالغون الآن في إنكار الخطوات الأولى للرواد أن يعلموا أن الحقيقة لا بد أن تظهر مهما حيل بينها وبين الظهور.

أما حديثُ قدرّي عن جهود العرب في مجال (الفيزياء) فقد كان من التركيز بحيث لا يستنبطه إلا متخصص ممارس، إذ أشار في دقة إلى اهتمام اليونان بعلم الحيل، وقد ترجم العربُ ما أبدعوه فيه، واستنبطوا الجديد من قوانينه، وتابع ذكر المؤلفين العرب من أمثال أبناء موسى بن شاكر، مشيراً إلى تقسيمهم لهذا العلم بحثاً عن جرّ الأثقال بالقوّة اليسيرة وعن آلات الحركات، وصنعة الأواني، واستخراج ثقل الجسم المحمول، وعزّج الباحث على جهود البيروني فذكرها في تركيز لا يخفى المبتكر منها، وتتابع أسماء عبد القادر الطبري وسند بن علي والرازي وابن سينا والخيام، مسجّلاً اعترافَ (سارطون) بأن كتاب (ميزان الحكمة) لابن سينا هو أكثر الكتب استيفاءً لبحوث الميكانيكا، وهو الكتاب الوحيد الذي ظهر من نوعه في القرون الوسطى.

وهكذا توالى الحديث عن جهود البوزجاني والخورزمي والكوفي والفارابي وابن الهيثم وأضرابهم، حتى انتقل الكلام إلى البصريّات، فاتّسع الحديث عن عالمها المُعَلِّم ابن الهيثم مسجلاً اعتراف الغربيّين بجهوده الضخمة، ومحاولة تلخيص ما اهتدى إليه ابن الهيثم في هذا المجال مما يتعسّر، وقد أشار الأستاذ قدري إلى جهوده بإيجاز، ثم ظهرت كتب خاصة به نشرها الدكتور مصطفى نظيف ولفيفٌ من متخصصي الجامعيّين، كما ظهرت كتبٌ مماثلة عن الخوارزمي صاحب كتاب (الجبر والمقابلة) وهو كتابٌ لا يزال يحدث دويّه في جامعات الغرب، وقد خُصّصت قاعات علمية خاصة بالبحث التجريبي تحملُ اسم الخوارزمي وسواه من أساطين الفكر العربي، وكان الأولى بجامعاتنا في البلاد العربيّة أن تخلّد ذكرى الأجداد.

وعلى طريقة الأستاذ في تلخيص الجهود العربيّة في علوم الطبيعة، واصلَ الحديث عن هذه الجهود الخاصة بالرياضيات وعلم الفلك، وقد كان الأستاذ متفائلاً كل التفاؤل حين ختم حديثه الدقيق بقوله^(١):

«يسرُّنا أن نلمح في هذه الأيام حركةً جديدة من جانب الحكومات والمعاهد العربيّة من شأنها سدُّ النقص الذي لازم نهضتنا الثقافية مدّة طويلة، فقد بدأ القائمون بأمر هذه الحكومات والمعاهد يهتمّون بالكشف عن تراث الإسلام والعرب، كما بدؤوا يواجهون عنايتهم إلى إحياء بعض الكتب القديمة، والمخطوطات القيمة، على أنواعها وتعديدها... ولسنا بحاجة إلى القول بأنّ هذه الحركة لا تزال في أولى مراحلها لم يُقطع فيها شوط جدير بالاعتبار، وما نراه من الشروع في الاهتمام بالتراث العربي والإسلامي مما يؤكّد أن العرب قد أصبحوا يدركون أن في بعث ثقافتهم العلمية، وإحياء القديم، وربطه بالحاضر، غذاءً روحياً يسندُ دعائم المجد العربي».

ولم يقتصر الأستاذ قدري على البحوث العلميّة في المجلّات الرصينة وحدّها، بل رأى أن يعيش بعقله في أحداث عصره، فيسهم برأيه في كلّ ما يقال عن الحضارة العلمية شرقاً وغرباً، وحين أتت الحرب العالمية الثانية على المثل الإنسانية في الارتقاء الحضاري، كتَبَ بعض الباحثين يقول: إنّ الحضارة الأوروبيّة ذات عقل،

(١) مجلة المقتطف (عدد خاص) ص ١٠٠، سنة ١٩٣٨م.

وعلينا أن نسير مع العقل، وإن ظهرت السلبيات الكثيرة في نتائج مسيرته. وهو قولٌ فرغ منه الأستاذ قدرى، فألقى محاضرةً ببيروت تعصفُ بهذه الدعوى، ثم نشر مضمونها في مجلة الرسالة تحت عنوان (موقفنا من الحضارة) فعرض للجانب الحسن من جوانب الحضارة المعاصرة حين غزت جميع النواحي في الحياة، بحيث أصبحنا لا نعيشُ إلا في أجواء العلم ولا نسيرُ إلا في طريقه، ولكن ذلك كله قد عادَ على الإنسانية بالوبال، لأنَّ استغلال العلم بعيداً عن قوى الروح والقلب أنتجَ هذه الحربَ الطاحنة، ومن ورائها تلك الفوضى الخلقية، فاستأسدت الغرائز، وأسرفت المطاعم، فإذا آلهُ العلم تتجه نحو التدمير والخراب والفتك والقتل، بحيث أصبحت القوة الغاشمة مقياسَ تقدّم الأمة وعظمتها، ولو تدخّلت الروحُ ومن ورائها القلب لانقلب الوضعُ فاتجهتْ آلهُ العلم نحو البناء والإثمار والخير والكمال، والواقعُ المشاهد ينطقُ بأنَّ المدنية الحديثة قد زادت المشاكل تعقيداً والتواءً كما سلبتِ العالم راحة البال وطمأنينة النفس، وإذن فالعلمُ وحده لا يكفي لوضع حدٍّ لشرور العالم وآثامه، ولا يكفي للخلاص من الصّعاب التي سبّتها، فالواجبُ أن تقوم حضارة جديدة تُوفّق بين العلم والروح، كما تُلائم بين العقل والقلب، ودعّا المفكرين إلى الاهتمام بالجانب الروحي، وكانَ من المناسب أن يذكر رسالة الأديان في بحثِ القيم الإنسانية الداعية لهواتفِ الخير والحقّ والجمال، ولكنَّ الأستاذ قدرى ترك حديث الأديان بالمرّة، أترأه ظنَّ أن العقلَ الأوروبي لا يُصيغُ إليه إذا ارتدى بعباءة الدين؟ وهَبْه لم يُضغِ إليه، فعليه أن يجهر بما يعتقد، وقد قام كبير أساقفة إنجلترا ليؤكدَ المعنى الذي نسي الأستاذ أن يذكره، فما له إذن ينكل عن وجه الصواب؟.

والأستاذ قدرى مؤمن كلّ الإيمان بدينه، وله بحوث شافية تنوّه بإنسانية الإسلام، وهُدهد، فلا يظنّ به أنه أغفل توجيه الإسلام متجاهلاً، بل إنّه عرض في غير هذا المجال كثيراً من الحقائق الكونية في ضوء تعاليم الإسلام، فبلغ بذلك مبلغاً حميداً في الإقناع والتوجيه، لقد كتَبَ مقالين متكرّرين بمضمونهما الجوهرى في مجلتي الرسالة والثقافة متحدّثاً عن موقف محمد ﷺ حين كُسِفَت الشمس يوم وفاة ولده إبراهيم، إذ رأى المسلمون في ذلك كرامةً لوالده، فقالَ قائلهم: إن الشمس قد انكسفت لموته، ولكنَّ الرسول نفى ذلك مقرّراً أن الشمس والقمر آيتان من آيات الله وأنهما لا تنكسفان لموت أحد ولا لحياته، وهذا الموقف مجالٌ لعبارةٍ خلّقية باهرة

تتصل بأدقّ الشمائل النفسية للرسول، إذ لو كان زعيماً يطلب التأييد عن طريق الانتهاز الوصولي، لسكت عن القول، إن لم يسارع إلى تأييده، ولكنه معلّم مُرشد يهدي إلى الحق، وإلى طريق مستقيم، وهذا ما أعجب كلّ من ألمّ بهذا الموقف في السيرة المطهرة، وما جعل الأستاذ قدرِي طوقان يترك قلم العالم إلى لسان الخطيب، فيقول مخاطباً رسول الله ﷺ^(١):

«صلى الله عليك، ففي أخرج المواقف، في أدّقها، لم تنسَ رسالتك، ولم تغفل عن الحق الذي أتيت به، وأبئت إلا أن تكون مخلصاً لدعوتك، ولحقائق الوجود، وجئت بدُستور كونيّ وَضَع حدّاً لسخافات المنجّمين وأقوالهم، ولاعتقاد الناس في الظواهر الطبيعية والكونيّة، وبأنّ ما يجري في الكون لا يتقيّد بأحد، ولا يسير لإرضاء بشر، بل إنّ هناك قوانين تسيّر الطبيعة، وأنظمة تسيطر على حركتها، أوجدها الخالق منذ الأزل، لا تحيد عن الطريق الذي رسمها، وقد نزّهاها عن الشذوذ والتناقض، والذي لا ريب فيه أن الكون لم يُوجَد من تلقاء نفسه، إذ لو كان كذلك لما رأينا فيه هذا النظام وهذا التنسيق، لأن هناك قوة خارقة منظمة لا يُحيط بها عقلنا، بل تُحيط بنا وبهذا الوجود من جميع نواحيه، فلا تتحرّك هباءً في الأرض والسماء من جماد أو نبات أو حيوان أو فلك أو نجم إلّا والله هو محرّكها، والمسير لها في دائرة من النواميس تشهد بعظمته وتنطق بكماله».

والأستاذ على إمام بكتب التراث من فقه وتفسير وحديث، لأنّ العالم الأصيل يعرف أن بعض معميات الوجود، وأسرار الطبيعة قد وجدت حلولاً لها في كتاب الله وسنة رسوله، ومن ثم فقد كتّب بحوثاً عن كتاب الله وموقفه من العقل، وبحثاً شافياً عن الطريقة العلمية في تحريّ الأحاديث النبوية، ونحن معشر الدارسين لمصطلح الحديث نعرف أسباب هذا التحري فيما وُضع من أصول دقيقة تحدّد مركز الأثر النبوي صحة وضعفاً وانقطاعاً واتصالاً، أمّا الأستاذ قدرِي فقد قرأ كثيراً من كتّاب المصطلح، وقال عن بعضها مُشيراً إلى مؤلّف القاضي عياض ومثلياً عليه، وناقلاً ما ذكره الدكتور أسد رستم بشأنه حين قال: «وعلى الرغم من مرور سبعة قرون فإنّه ليس بإمكان رجال التاريخ في أوروبا وأمريكا أن يكتبوا أحسنّ منها - رسالة القاضي - وأنّ ما جاء فيها من مظاهر الدقة والاستنتاج تحت عنوان: تحريّ الرواية،

(١) مجلة الرسالة، ١٧/١/١٩٤٤م.

والمجيء باللفظ، يضاهي أدق ما وُضع في الموضوع نفسه في أهم كتب الإفرنج في ألمانيا وفرنسا وإنجلترا»^(١).

والدكتور أسد رستم باحثٌ مجتهد، وله كتابٌ عن مصطلح التاريخ أوفى فيه على الغاية، ونقلَ عنه الأستاذ قدرى هذه السطور، مضيفاً إليها قوله الرائع^(٢): «إنَّ المسلك الذي اتَّبعه العرب في تنقية الحديث، وتمييز صحيحه عن موضوعه، قد أثر إلى حدٍّ في أساليب العلماء، إذ أبان لهم أهمية الطرق التي تؤدي إلى الحق، كما أوضح لهم منهاجاً دقيقاً للسير بموجبه للوصول إلى الحقيقة، وإلى الصحيح من الوقائع والأخبار والأقوال، وكذلك كانَ للأساليب التي اتَّبعها علماء الحديث فضلٌ كبير على التاريخ، فأصبحت القواعد التي ساروا عليها في تحري الحقيقة هي المعوّل عليها لدى المؤرخين المعاصرين ومحلّ تقديرهم وإعجابهم».

وللأستاذ قدرى هيامٌ بتقرير الحقائق: تاريخية وعلمية، وقد يكون قوله المنطق الفصل فيما يتصدّر للحكم فيه من قضايا، فقد ذكر الأستاذ أحمد أمين في فجر الإسلام^(٣) ما فحواه أن اللغة العربية وفّت بمطلّبات العصر الجاهلي، إذ كانت في منتهى السعة والدقة فيما يستعمل من ضروريّات الحياة، فالإبلُ خير مأكّلهم ومشربهم ومركبهم وعمادُ حياتهم، لذلك لم يتركوا صغيرة ولا كبيرة تتعلّق بها إلا وَضَعُوا لها لفظاً أو ألفاظاً، فإذا انتقلت من الجمل إلى السفينة رأيت اللغة في غاية القصور فلم يوفوها حقّها كما وفّوا الجمل، ولم يُحصوا كل أجزاءها ولم يضعوا اسماً لكل نوع من أنواعها.

وهذا كلامٌ لا اعتراض عليه، لأن اللغة وليدة الحاجة، ولم تكن حاجة الجاهلي إلى السفينة تعدلُ حاجته إلى الناقة، ولكن الذين يثرون الغبار في كل مسألة، رمّوا أحمد أمين بالقصور تارةً وبالتعصّب على الجاهليين تارةً أخرى، وذهبوا يسجّلون الألفاظ الخاصة بالسفينة في كتب اللغة، وقد فاتهم أن جميع ما ذكروه لا يعدلُ شيئاً بالقياس إلى ما جاء عن الإبل من ألفاظ، وقد شاء الأستاذ قدرى أن يحسم النقاش

(١) مجلة الرسالة: العدد ٧٥٧، ١/٥/١٩٤٨.

(٢) مجلة الرسالة: العدد ٧٥٧، ١/٥/١٩٤٨.

(٣) فجر الإسلام، للأستاذ أحمد أمين، ص ٥٥.

فكتب مقالاً تحت عنوان^(١): (الملاحة عند العرب) دُونَ أن يعرض للأسماء الدائرة حولها النقاش، فأكد أن القول الصحيح عن الملاحة عند العرب لم يتّضح بعد، ولكنّ المسلّم به أن العرب في بدء فتوحاتهم كانوا يخافون البحر ويهابونه، وهم أهل صحراء منقطعون عنه، لم يتعودوا رؤيته فكيف يركوبه؟ وذكر موقفَ عمر بن الخطاب حين حذّر عرفة بن هزيمة لركوبه البحر في غزوة عمان، أمّا بعد الفتوح الإسلامية الأولى وتغيّر النظرة إلى هَوَل الموج، فقد اهتمّ العرب بالملاحة، وحذّوا حذو الرومان في إنشاء السفن، ومهروا مهارة تامة في صناعة الأساطيل، وتمّ لهم الاستيلاء على كثير من شواطئ البحر الأبيض المتوسط، وبعض شواطئ فرنسا، حتى وصلّ الأسطول الإسلامي في عصر عبد الرحمن الناصر إلى مئة مركب، وكذلك انتشرت أساطيل الموحّدين والمرابطين، وحصر ابن خلدون عددَ الأساطيل في القرن الخامس والقرن السادس، فوجدها تبلغ المئة.

وكتب الأستاذ في هذا المجال بحثاً مبتكراً لا يُغني تلخيصه عن قراءته، فذكرنا بما كتبه من قبل عن أحمد بن ماجد^(٢) أسد البحر الهائج، وكلامه عن ابن ماجد من أوائل ما كتُب في العربيّة عنه، وما كتُب بَعْدَه بصدده عيالٌ عليه، وقد قال: إنّ في الأمة العربيّة كثيرين من أمثال ابن ماجد أنقنوا الملاحة، ووضعوا عنها كتباً ظلت المصدر الأول للأوروبيين حيناً من الزمن، ولو أحصيتهم لطال بنا القول.

هذه فقرٌ مختارة تدلّ على نشاط هذا الداعية العلمي الغيور، وتتطلب من عشاق البحث العلمي أن يحرصوا على جمع مقالاته التي لم تُنشر في أجزاء متّصلة، فهي رائدةٌ في بابها، ولها مكانها الركين لدى الدارسين.

* * *

(١) الرسالة: عدد ٣٣٩، ١/١/١٩٤٠م.

(٢) الرسالة: عدد ٩٣، ١٥/٤/١٩٣٥.

مالك بن نبي المفكر الجزائري البصير

- ١ -

كُنّا في أواخر الخمسينيات وما بعدها نسمع عن مفكر جزائري ذي قدرة على التحليل العلمي، والنظر الموضوعي لكل ما يتصل بالحضارة الإسلامية والمجتمع العربي والثقافة الإسلامية، وأن الكثيرين من أعلام الفكر في مصر مثل الأستاذ محمود محمد شاكر والأستاذ عبد المنعم خلاف، والأستاذ محمد سعيد العريان يباركون إنتاجه، ويعملون على ترجمة آثاره إلى العربية من الفرنسية، ويساهمون في طبعها وتوزيعها، وأنا أعلم أن هؤلاء الذين ذكرت أسماءهم، لا ينخدعون في أحد، ولهم حمية دافقة نحو الإسلام وتعاليمه، والأستاذ محمود شاكر بالذات ذو وجهة عالية النظر، بعيدة المرمى، فإذا اختصّ المفكر الجزائري اللامع الأستاذ مالك بن نبي بتعظيمه، وإذا دعا وزير الأوقاف الأستاذ أحمد حسن الباقوري إلى شراء الآلاف من كتبه المطبوعة بالعربية وتوزيعها على مكاتب المساجد الخاضعة لوزارة الأوقاف، وإذا استجاب الأستاذ الباقوري لذلك في حماسة وإعجاب، فإنّ ذلك كلّ ممّا يزيّي الأستاذ مالك بن نبي أكبر تزكية!

هذا ما تأثرتُ به قبل أن أقرأ كتب الأستاذ، وقد تمنيتُ أن أسعدَ بقلائه في ندوة الأستاذ الكبير محمود محمد شاكر العامرة برجالها وبحوثها وأسمارها العلمية، ولكنني تهيّئتُ لقاء الأستاذ شاكر بعد أن هاجمني بمجلة الرسالة حين عارضت بعض آرائه هجوماً شعرتُ إزاءه أنّ الرجل الكبير يراني أهونَ من أن أعارضه في رأي، فطويْتُ هذه الرغبة الحارة.

ولكنّ الزمن لم يضمنْ عليّ برؤية الأستاذ بعد عدّة أعوام، حين جاء ممثلاً للجزائر

في مؤتمر مجمع البحوث العلمية بالأزهر الشريف، إذ حضر أكثر من مرة إلى القاهرة ولم يُلقَ بحوثاً علمية مع من قاموا بإعداد كلماتهم التوجيهية، ولكنه كان يعقّب على بعض الآراء بما يدلّ على سعة أفق، وعمق تفكير! لقد كانت أكثر بحوث المؤتمر المنعقد في سنة ١٩٧٠ متّجهة إلى مأساة فلسطين، وقيام البطش التعسّفي من إسرائيل، وكان الحديث في أكثره يدور حول فلسطين وحدها وارتكاب الفظائع اليهودية في مُدُنِها وقراها، وهذا مُشاهدٌ ملموس لم يكن في حاجةٍ إلى إطالة وإسهاب، فقام الأستاذ مالك بن نبي ليعلن أنّ اليهود في شتّى بقاع العالم يكيّدون للإسلام وللعرب، ولا يقتصر كيدهم على الفلسطينيين، بل إن الدول العربية نفسها تضمّ بعض من يُعاونون اليهود في كيدهم الغادر، فقد ضبّطت حكومة الجزائر العربية جماعةً من الشباب يعملون لحساب إسرائيل، ويُسمّون أنفسهم جماعة (يهوه)، وانتقل إلى مآسي العالم الإسلامي في هذا القرن الحزين، فقال في نبذة آسية بعد أن ألمّ ببعض هذه المآسي: «كان للإسلام ثلاثة مراكز إشعاعية قويّة، تتمثّل في الهند وفي تركيا وفي القاهرة، وقد ضاعَ على التوالي مركزان منها في تركيا والهند في مدى نصف قرن، وبقيت القاهرة، وأرى أنّ قوى العدوان تتربّص بمركزها الثالث، ولا تفتأ تحاربُه محاولة أن تهزّه بما تثير من العواصف». ثم غادر المنبر بعد هذه الإشارة المؤلمة، فترك في النفوس صدَى متّقد اللهب!!.

دوّى حديث الأستاذ بنفسي أكبر دويّ، فنذكرتُ حديثاً له شبيهاً به منذ عامين، حينَ جاء إلى مؤتمر مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر سنة ١٩٦٨، وكانت مأساة الهزيمة الفادحة في سنة ١٩٦٧ لا تزالُ ترين على النفوس بسوادها الحالِك، فاستمع الأستاذ إلى كلّ ما قيل، ثم جاء دور التعقيب فنهضَ ليقول: «ليست مشكلة فلسطين وحدها هي المأساة، إذ أنه في كلّ شبر من أرض الإسلام مكابدٌ تدبّر، ومؤامراتٌ تُحاك، ومشكلة فلسطين ليست سوى فضل من هذه المأساة، وهي على هولها الفادح يجبُ ألا تُنسبنا غيرها من المآسي، وذلك يحتم عقد مؤتمرات متوالية كهذا المؤتمر تبحثُ في مآسي الأقليات المسلمة في الشرق والغرب، ودراسة أوضاع المسلمين دراسة جامعة». وقد تقدّمتُ (ماليزيا) باقتراح خاص بإنشاء (اتحاد إسلامي) فأشاد الأستاذ مالك بالاقترح وقال: إنه يقضي على (القومية) التي تَحصرُ في نطاقها، والتي بعثتُ التخادّل بين أعضاء الجسد الواحد. هذا بعضُ ما عقّب به

الأستاذ، وهو واضحُ الدلالة على تفكيره الشامل المستنير .

هذا الفكرُ الساطع المتوهج، أوجده في نفس الأستاذ عواملٌ من طبيعته الذاتية، ومن نشأته التعليمية، فقد خُلِقَ ذا مزاج حادٍ ينفعلُ بأقلِ المؤثرات، ويخضعُ لسيطرة عقلٍ لا قِطَ متوَّبٌ يهيمُ بالدرس، ويرى الوجودَ الإنسانيَ لُغْزاً يجب أن يكون مفتاحه في يده .

أما نشأته الاجتماعية والتعليمية: فقد رأى الوجودَ حين وُلِدَ بقسنطينة سنة ١٩٠٥ بالجزائر، ثم أتبع له أن يلتحقَ بتيارين مختلفين في تعليمه الأول، إذ كانَ المعهودُ لدى التلاميذ الجزائريين حينئذ أن يلتحقَ الواحد منهم إمّا بالمدارس القرآنية أو بالتعليم المدني، ولكنَّ الناشئ التحقَ بالمدرستين معاً، التحقَ صباحاً بالمدرسة الفرنسية، فحذق لغة المستعمر، وألمَّ على صغره ببعض ما يراه ضاراً بوطنه ودينه ولغته، والتحقَ مساءً بالمدرسة القرآنية فدرس الإسلام في آثاره الأولى من قرآن وحديث وتاريخ إسلامي، ولم يتمكن من التضلُّع في اللغة العربية، إذ كان اتجاهه النظري إلى استيعاب المعاني أولاً صارفاً له عن إجادة الأسلوب البياني، وكانَ أستاذه بالمدرسة الفرنسية «مارتن» يراه ذا استعدادٍ، فاهتمَّ به ليكونَ في رأيه مخلصاً للتيار الاستعماري، ولم يصحَّ رأيه فيه، كما صحَّ رأي أستاذه بالمدرسة القرآنية الشيخ عبد المجيد، حيثُ غرسَ في نفسه حبَّ الوطن والدين وكرهه الاستعمار والمحتلين .

وقد رأى أفواج المتخرجين من المدرسة الفرنسية ينزحون إلى باريس وسائر المدن الفرنسية بتشجيع المحتل، ليهيموا شغفاً بالتملُّد الأوربي، وليرجعوا دعاةً للاستعمار، فنزَّح مالك بن نبي سنة ١٩٢٥ إلى مرسيليا وليون وباريس باحثاً عن عمل يرتزق به، ولكنَّ طبيعته الفكرية نأت عن الارتزاق اليدوي كآلة في مصنع، وعادَ ثانية بعد عامين ليعينَ مساعداً لكاتب في إحدى المكاتب، وهي وظيفة إن كانت ضئيلة الراتب والمنزلة، فقد كانت كبيرة التأثير حيثُ أتاحَت له أن يلتحم بطوائف المهوورين من أبناء وطنه، وأن يرى مكاييد الاستعمار في إصدار القوانين المتعسفة خاصة بالجزائريين وحدهم دون الفرنسيين .

وأكبر حظَّ ناله في هذه الحقبة هو اتصاله بجماعة العلماء الجزائريين الذين ألهبوا المشاعر الوطنية بغضاً للاحتلال، وتمسكاً بشريعة الإسلام ولغته، ودَعَوْا إلى حفظ

كتاب الله ليكون سداً منيعاً أمام التغريب الفرنسي، هذا الاتصال المباشر بالجماعة جعله يرتشف من ينابيع الثقافة الإسلامية، ويقول مؤرخوه: إنه لم يحاول التلمذة على رئيس الجماعة الشيخ عبد الحميد بن باديس، بل أثر الاتصال بتلاميذه وحوارييه.

ثم بدا له بعد أن تضلّع بالثقافة الإسلامية على وجهها الصحيح أن يزحل ثانية إلى فرنسا، ليلتحق بالمعهد الخاص بالدراسات الشرقية، ولكنّ القوم هناك كانوا لا يُلحقون طالباً جزائرياً بالمعهد إلّا بعد أن يستوثقوا من اتجاهه الفكري، وقد بحثوا عن مالك فوجدوه ذا ميول إسلامية، ثم هو أحد تلاميذ جماعة العلماء الجزائريين، بل صدر عنه من المقالات ما يُنبئ عن استقلاله الجاد عن كل فكر فرنسي، فرفضوا التحاقه بالمعهد، ولكنّ الباحث الجاد لم ير أن يُحرّم من الثقافة العملية، فالتحق بمدرسة اللاسلكي، وخرج منها مهندساً كهربائياً، وكانت إرادة الله في ذلك واضحة، حيث أَلَمَ بمعجزات العلم الحديث في الطبيعة والكيمياء، وعرف اتجاهات الثقافة الفرنسية التي تحرص على النبوغ العلمي في موادّه الأصيلة، كما تحرص على النبوغ الأدبي في فنونه المتشعبة.

وهذه اتجاهه الإسلامي إلى أن يتصل بأفذاذ المبعوثين من البلاد الإسلامية إلى باريس، ليجد عندهم من أنواع الثقافة الإسلامية ما يُرضيه، وفي طليعة هؤلاء الأستاذ الدكتور محمد عبد الله دراز عضو هيئة كبار العلماء بالأزهر فيما بعد، وصاحب الدراسات العلمية الرصينة الكاشفة لبوارق الزيف العلمي في مسائل علم الاجتماع والتربية، التي تبعد في كثير منها عن منهج القرآن، وقد تشرب الأستاذ مالك بن نبي روح الدكتور دراز، فعكف على كتب الإسلام دارساً في مُغتربه.

وهذه زميل جزائري هو الأستاذ محمد بن الساعي إلى فكر أبي حامد الغزالي فاستوعبه، وكان ذلك مدداً روحياً وعقلياً لمثله، فأخذ يفكر في المصدر الأساسي للإسلام وهو القرآن الكريم تفكيراً مستقلاً عن المنحى التقليدي الذي ينتحيه من كتبوا عن إعجازه البياني في كتب التراث، إذ كانت عقلية الهندسية ذات تحديد وتركيز، فهدف إلى الأصول الأولى في المنهج القرآني محاولاً أن يبحث عن سر إعجازه بحثاً معاصراً، لم يتجه إليه كاتب من قبل، وهنا فتح الله عليه بكتاب (الظاهرة القرآنية) كتبه باللغة الفرنسية، وأشرف الأستاذ الدكتور دراز على فصوله،

إشرافَ الصديق المسامر، لا إشرافَ الأستاذ الموجه، وكتبَ له بالفرنسية مقدّمةً ضافية تحدّث عنها الأستاذ مالك في كتابه (مذكرات شاهد قرن) بارتياح، ومالكُ بهذا الكتاب قد عرف رسالته الأصيله في الحياة، وعلمَ أن الأقدار قد هيّأته للدفاع عن مثل الإسلام وتعاليمه، دفاعاً مخلصاً يؤيده العقل البصير، لا الهياجُ العاطفي الذي يسترسل في الأدلة الخطابية ليسرّ قراء المسلمين فقط، لا ليرضي كل قارئ من أيّ دين، وقد توالث بعد كتاب (الظاهرة القرآنية) كتبُ مالك التوجيهية ذات الإشعاع الأخاذ، لأنّه صدر عن ينبوع ثوّ دافق لا يغيض معينه، ورأى نفسه كالبحر الزاخر يجيشُ بالموج، ويضمّ في أعماقه كنوز اللآلئ ونفائس الدرر، فكانت نفسه مصدراً أوّل لهذا النتاج الحفيل . .

وأعترفُ قبل الحديث عن هذا الكتاب القيم (الظاهرة القرآنية) أنّي عانيتُ بعضَ الصعوبات في تحصيله، والوقوف على دقائقه، لأنّ الكتاب شديد الإيجاز، ولو وُجد في عصر (المُتون) لرأى من سُراح الحواشي من كتب عليه عدّة شروح كما كتب عن متن (التلخيص) للقزويني! وقد قال في أسباب تأليفه: «إنّ الانقطاع عن الثقافة العربيّة أدّى إلى الالتحام بالغرب لتلمّس المصادر عن المستشرقين». وهذا كلامٌ مفهومٌ لدى من تتقّفوا بثقافة الغرب، ولم يقرؤوا التراث الإسلامي؛ أمّا أبناء الثقافة الإسلاميّة من تلاميذ الأزهر، والقرويين، والزيتونة، والنجف الأشرف، ومن حذا حذوهم من عشاق التراث الإسلامي فلمْ تنقطع ثقافتهم عن التراث، بل كانوا حفظته، ومنهم من واجه افتراءات الغرب بسلاح لا يفِل.

والأستاذ مالك صادقُ النظرة حين قرّر أن الاستشراق يقدّم محاولاتٍ غير بريئة، إذ ينكّرُ الشعر الجاهلي كما فعل (مرجليوث) وتابعه الدكتور (طه حسين) في وهمه، لأنّ إنكار الشعر الجاهلي يستدعي إنكار الإعجاز القرآني، لقيام المُوازنة بينه وبين أسلوب الجاهليّين، وإيضاح الفرق الشاسع بين اتجاه واتجاه، والمؤلفُ يرى أنّ عهد العكوف على خصائص البيان القرآني المتداولة في شُرَح وجوه الإعجاز كما ارتأها السابقون، وأظهرهم عبد القاهر الجرجاني في (دلائل الإعجاز)، يرى أن هذا النمط من التفكير قد انتهى وقته، وأنّ أن يحلّ محله تفكيرٌ آخر في مناحي الإعجاز، تفكيرٌ يتجه إلى انجذاب العقل المسلم المعاصر إليه مستثمراً علوم الزمن المستحدثة كعلوم الاجتماع والنفس، ومن هنا كان منهج التحليل النفسي والاجتماعي هو

المنهج الوحيد الكفيل بإيضاح الإعجاز للفكر المعاصر .

وأرى أن منهج التحليل النفسي والاجتماعي قويٌّ أكبر القوة في إيضاح دلائل الإعجاز، ولكنه لن يكونَ المنهج الوحيد، فمن الواجب أن يُضَمَّ إلى مناهج أخرى رآها الدارسون، ومن بينها ما اتجه إليه بعض المفسرين من شرح مناحي الإعجاز النفسي والاجتماعي قبل أن يؤلف الأستاذ كتابه، والفرقُ بينهم وبينه أنهم جعلوا هذا الإعجاز بعضَ الأدلة الهامة على أصالة القرآن وتنزُّله من لدن حكيم عليم .

أما الأستاذ مالك فقد جعلَ هذا المنحى وحدهَ دليلَ الإعجاز! وقد قالَ: إن هذا الاتجاه يقتضي أن نعدل عن منهج التفسير القرآني المتداول في كتب التراث، لأنها في أكثرها لا تخدمُ الوجهَ الذي ارتضاه، وقد ردَّ الأستاذ (محمود شاكر) في مقدمة الكتاب على هذا الاتجاه مؤكداً أن الإعجاز لا صلةَ له بكتب التفسير، لأنها ليست معجزة ولكنها شارحة فحسب، كما أنَّ هذه التفاسير لا تمانع في استخدام كلِّ جديد يشرح بعض القضايا القرآنية، كما اتجهتُ إلى التفسير العلمي المؤكَّد في إيضاح بعض الآيات الكونية، وهذا من المسلَّات .

أما الظاهرةُ القرآنية كما عناها الأستاذ، فتتَّجه أولاً: إلى تقرير المبدأ (الغيبِيّ) الذي يتضادَّ مع المذهب الماديّ، وهو اتجاهٌ دَعَّمه الأستاذ بأقوى الأسانيد، لأنَّ التيار الماديّ الذي ينكر عالم الغيب لم يقدِر على أساس علمي، ولكنه اعتمد على افتراضاتٍ تفتقر إلى الدليل التجريبي الملموس، أما المذهب الغيبِيّ فإنه يفترض مبدأً متميّزاً عن المادة يتمثّل في التسليم بوجود إلهٍ يكون سبباً أوّل، يصدر عنه كل موجود، وقد فشلَ المذهبُ الماديّ في بناء تفسيرٍ مقنع للظواهر المختلفة، على حين يُسَعِّفنا المذهب الغيبِيّ في بناء نسقٍ متكاملٍ ينظِّمُ الموجودات والظواهر في كيانٍ منطقي يمتدُّ بها إلى مُوجدها المتعالي، مركز الكمال المطلق^(١) .

وإذا آمَنَ الإنسان بالغيب فإنه مؤمنٌ بالتوحيد لا محالة؛ لأنَّ التوحيد يقتضي وجودَ إلهٍ واحد، ينظِّم الكون ويرعاه بعد أن برَّاه وسواه، هذا الإله قد أرسلَ الأنبياء وهم بشر منفصلون عن حقيقته كلّ الانفصال، ومعهم أدلة رسالتهم، والقرآن الكريم أقوى أدلة الرسالة المحمّدية، فهو متّصل بالله وحده، ومنفصلٌ عن الرسول ﷺ أتمَّ

(١) الظاهرة القرآنية: ص ٧٩ .

الانفصال، فليس لأحد من المستشرقين أن يقول: إنه حديثٌ مفترى، كما كان أعداءُ الدعوة في مطلعها الأول يقولون.

وللأستاذ مالك سبقٌ ظاهر في تأصيل هذه الحقيقة وتأكيدِها، فحياةُ الرسول قبل البعثة لا تدلّ على اطلاع وثقافة يُمهّدان لما في الكتاب الكريم من أحكام، بل إنّ الرسول شخصياً قد فُوجئ بأول آية نزلت من الكتاب حين سمع من جبريل قول الله: ﴿اقْرَأْ﴾، واعتراه ما اعتراه من الخوف والوجل حتى ذهب إلى زوجته، فحاولت أن تُطمئنه بما يزيل تخوفه. وعلو القرآن ينم عن نسبته السامية إلى من هو أرقى من البشر، ووظيفةُ رسول الله حينئذ هي وظيفةُ المتلقّي عن الوسيط، وفي ما تلقاه من آيات الكتاب ما ينبىء عن ذلك مثل قوله تعالى: ﴿إِنَّا سُلِّقِي عَلَيْكَ قَوْلًا تَقِيلًا﴾ [المزمل: ٥]، و﴿وَمَا كُنْتَ تَرْجُو أَن يُلْقَى إِلَيْكَ الْكِتَابُ إِلَّا رَحْمَةً مِن رَّبِّكَ﴾ [القصص: ٨٦]، و﴿وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰ إِلَيْكَ وَحْيُهُ﴾ [طه: ١١٤]، و﴿وَمَا كُنْتَ تَسْمَعُ مِن قَبْلِهِ مِن كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ﴾ [العنكبوت: ٤٨]، وهي نصوصٌ لا يُعقل أن ينطق بها محمد ﷺ.

وقد أغفل الأستاذ نصوصاً أخرى ذات أهمية في هذا المجال هي نصوص الاعتراض المهدّد، كقول الله عز وجل: ﴿وَلَوْلَا أَن تُبَنِّتَكَ لَقَدْ كُنْتَ تَرَكُنَ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا إِذَا لَذَقْنَكَ ضَعْفَ الْحَيَوةِ وَضَعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْهَا نَصِيرًا﴾ [الإسراء: ٧٤ - ٧٥]، ومثل ﴿وَأَمَّا مَنْ جَاءَكَ يَسْعَىٰ ۖ وَهُوَ يَخْشَىٰ ۖ فَأَنَّىٰ عَنْهُ نَظَىٰ ۖ كَلَّا ۖ إِنَّمَا تُذَكِّرُهُ﴾ [عبس: ٨ - ١١].

كما اتجه المؤلف إلى إيضاح الفرق الأسلوبية بين تعبير القرآن وتعبير الرسول ﷺ في أحاديثه، وهو ما ينقطعُ معه كل خلاف!

وإلى هنا يكون الأستاذ قد كسب القضية التي يتراعى فيها، ولكنه استرسل في بيان ما جاء به القرآن من معارف غريبة عن المجتمع الجاهلي، وما أتى به من صور لا يمكن أن تأتي على ذهن بشرٍ في عصر الجاهلية قبل أن تنكشف المعارف الحديثة، ومن هذه الصور قول الله عز وجل: ﴿أَوْ كَظُلُمْتِ فِي بَحْرٍ لُّجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ، مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ، سَحَابٌ ظُلُمْتُ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَهَا وَمَنْ لَمْ يُجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ﴾ [النور: ٤٠]، فتراكبُ الأمواج في المحيطات الزاخرة، والبحار الهادرة، ووجودُ الظلمات المتكاثفة في هذا التراكم مما لا يخطرُ على بال إنسانٍ نشأ

في مكة وأقام بالمدينة غير عارف ما يَكُنّه المحيط الزاخر من أهوال!

وقد بلغ الأستاذ مرتبة الإبداع حين قارن بين قصة يوسف عليه السلام في الكتاب المقدس، وقصته في القرآن الكريم منتهياً إلى أنّ القصة القرآنية منزلةً في رحاب ديني شامل، وشخصياتُها لا تتجه إلى الأغراض المادية قدر ما تتجه إلى المعاني الروحية التي أغفلها الكتاب المقدس، وقد أطلتُ بعض الشيء في الحديث عن كتاب (الظاهرة القرآنية) لأنّه كان أول كتاب لفت قراء العربية إلى آثار هذا المفكر الكبير، ثم تتابعت بعده سلسلة بحوثه الناضجات.

- ٢ -

أوتي مالك قوّة الملاحظة منذ طفولته، فقد رأى في موطنه نموذجين مختلفين لبني جنسه، فجماعةٌ يتزيّون بزي الفرنسيين، وينهجون نهجهم في الحياة، وجماعةٌ يحرصون على تقاليد الآباء والأجداد، وبين الجماعتين ما يُشبه القطيعة والنفور، وقد كانت أسرته تنضمّ إلى الجماعة المحافظة، وتحكي له جدّته قصص الرعب المفزعة التي حلّت بالجزائر عندما غزاها المستعمر الغاشم بالحديد والنار، إذ كان يحرق القرى بما فيها من المنازل والحيوانات والأناسي والزروع، ويتساءلُ الطفل عن قوّة هذا الغاشم الذي لا يقف في وجهه أحد؟ فيعلم أنّ السلاح العصري هو الذي سيطر على الموقف، ويفكر الطفل في هذا السلاح، فيعرف أنّه يصنع في ديار التقدّم الحضاري، والتوثّب الصناعي، ولا سبيل إلى الجزائر كي تصنعه، ويرين اليأس على قلبه، ولكنّ أنباء انتصارات البطل العربي (عبد الكريم الخطابي) على الأسبان والفرنسيّين تُبعد التشاؤم عن نفسه، وتُريه أنّ من استطاعة كلّ عربي أن يكون كعبد الكريم، ولكن كيف يكون؟.

لا بدّ من رحلة إلى باريس ليكون مهندساً صناعياً، وقد عرف في هذه الرحلة أنّ العربي المسلم في الفضل الدراسي لا يقلّ ذكاءً عن الفرنسي، وقد سبق بعض التلاميذ من العرب زملاءهم في الصفّ الواحد، وإذن فليس المستعمر نموذجاً خارقاً للذكاء، ولكنّ العربي المسلم لا يقلّ عنه وقد يفوقه.

ثم يقرأ ما يأفك به المبشرون من المستشرقين من أنّ الإسلام دين الجمود، وأنّه مصدر التأخر في العالم الإسلامي، فيقع في حيرة مما يقرأ، ويدركه الله برحمته فيقرأ

كتاب (رسالة التوحيد) للإمام محمد عبده، وكتاب (الفشل الأخلاقي للسياسة الغربية في الشرق) للكاتب التركي أحمد رضا، فينبهر بما يعلم من الحقائق الخاصة بالإسلام حين دَعَا إلى العمل والحرية والمساواة، وقَدَّر مكانة العقل وحارب الجمود والتقليد كما جاء في رسالة التوحيد، وكذلك الحقائق الخاصة بالانحطاط الخلقي لدى المستعمر حين يعلنُ حرب الإبادة على قوم عَزَل بينهم الأطفال والنساء والشيوخ والمرضى، وحين يَغْرِقُ في لذازات الخمر والتبُّج ويَتَقَنَّ أساليب الخِداة والإغراء، يقرأ ذلك في كتاب الأستاذ أحمد رضا، فيصيحُ صيحة الفرح، لَنَا دِينُنَا المنقذ، ولهم حضارتهم الزائفة، ولا بدّ من العمل! .

كان مالك يتمتّع بالنظر الشامل للقضية الفكرية كما تمتّع به من قبل مواطنه المغربي (ابن خلدون)، ومن طبعه أن يردّ الكليات إلى جزئيات يضعها تحت مجهره الذهني، ثم يركبها بعد أن يقف على أسرارها، ومن هنا واصل التفكير في علّة التأخر الإسلامي المشاهد في ربوعه المختلفة، فعلم أنّه لم يكن تأخر جهل بالجديد فحسب، بل تأخر سلوك بدائي لا يلائم الجو المتحضّر، فالمسألة في نظره ليست مسألة فقر وجهل ومرض وغير ذلك من هذه الأدواء الجزئية، ولكنها أدواء تندرج في إطار عام يُعطي معنى التخلف الحضاري، ومتى استطعنا القضاء على هذا التخلف جاء العلاج من أيسر سبيل .

لا بد أن نقدر عاملَ الوقت فلا ندعه ينساب هدرًا، فلكل إنسان وقته العملي الذي يتهيا فيه للإنتاج المثمر وفق ما يعلمه، فالمسلم الذي يأخذ الشهادة العالية من أرقى الجامعات الغربية يأتي إلى موطنه ليجلسَ على مقعدٍ مريح، وقد يُلقَى دروساً على الطلبة يستظهرها الطلاب ليكونوا مثله أوعيةً للعلم فحسب! وهذا إهدارٌ صريح لما كسبه من علم غربي قد تلقاه في أوروبا، إذ أنّ نظيره يخرجُ إلى العلم والعمل معاً! وبالعَمَل تتقدّم البلاد في ركب الحضارة، وإذن فأول أمراضنا أنّ العلماء منا لا يعملون! .

هذه ناحية، أما الناحية الثانية فإن المسلم يجهلُ قيمته الذاتية، إنّهُ خُلِق ليكون خليفة يستعمر الأرض، ويبحث عن خبراتها النافعة، وقد كان المسلم الأوّل على قَدَر يسيرٍ من المعرفة إذا قُورن بمسلم هذا العصر، ولكنه عرف قيمته الذاتية، فسعى

في مناكب الأرض، وَرَفَعَ لواء الدعوة إلى العزة والكرامة! وحازَ من سبق ما جعله حقيقةً من خير أمة أخرجت للناس!.

وأسطورةُ الجنس الآري والجنس السامي أكذوبةٌ رَوَّجها سُماسرة الاستعمار، والمثُلُ الناهض الذي يضربه مالك بن نبيّ هو اليابان، فهذا الشعب الشرقي المتمسكُ بتقاليده الصارمة قد وَاكَبَ الحضارة حين دَرَسَ مفهومها الصحيح، ولم تمنعه شوقيته أن يُنافسَ أكبر دول أوروبا، بل إنه إن حَاذاها في التقدم الصناعي فقد سَبَقها في التقدّم الأخلاقي، فأنت تشهد المسرح الأمريكي والسينما الفرنسية فتجدُ من مشاهد التحلل والارتكاس ما تعضّ عليه بنابك أسفاً، ولكن المسرح الياباني يقدم النماذج الرفيعة للأخلاق العالية، فالأُمُ تكدحُ في سبيل الأسرة داخلياً، والأب يقوم بمتطلباتها خارجياً، ومعاني الصدق والشرف والوفاء تلاحُ مجسّمة فيما نرى من المشاهد؟ فأين ذلك كله من مشاهد التبدّل والإغراء؟.

إن المسلم في حاجةٍ إلى تربيته كإنسانٍ ذي ميول رفيعة، ومُثُل قرآنية واضحة، وإلى أن يعمل بما علِم كيلا يضيعَ علمه هباءً دُون فائدة، وإلى أن يحترمَ وقته حتى يملأه بما يدفعه إلى التقدّم الحضاري في ركب المدنية، بل إلى قيادة الأمم التي تنحدر أخلاقاً، وتعلو ثراءً وأبهةً، كما أن للحضارة دوراتها المتعاقبة، إذ هي لا تستقرّ في مكان واحد بل تَنَتَقِلُ مشرّقة ومغربّة، فإذا أشرقتِ اليوم على الغرب، فسوف تُشرق على الشرق كما أشرقت من قبل!.

والشرقُ بمفهومه العام لدى مالك بن نبي لا يقفُ عند البلاد العربية وحدها، بل يمتدُّ إلى كل وطن شرقي، حيث يشملُ الهند والصين واليابان وأندونيسيا وغيرها، والتعاونُ واجبٌ بين هذه البلاد، ولمالكُ كتابٌ خاص بهذه الفكرة وضعه تحت عنوان (فكرة الآسيوية والأفريقية) وقد ألّفه بعد مؤتمر باندونج الشهير الذي عقد في منتصف الخمسينيّات، إذ دَرَسَ أعمالَ المؤتمر، وأرادَ توجيهه وجهةً رحيبة فعلية، لا تقتصر على القول البراق في منابر الاحتفالات، بل تمتد إلى الاقتراحات الصائبة، فالتنفيذ العملي السريع، وقد كَتَبَ مؤلّفه هذا بالفرنسية ثم عَمَلَ على نشره في عدّة لغات مختلفة ليبلغ صداه حيث يريد من المخاطبين بتوجيهه، وقد قامَت على الأثر اجتماعات مظهرية في لجانٍ سياسية كان نصيب القول منها هو الشيء البارز، دون العمل الحاسم، وهذا ما ينقده المؤلف ويدعو إلى تلافيه!.

هذه إيماضاتٌ مشرقة تسطعُ من فكر مالك بن نبي، وقد حاولتُ أن أبعد جفاف التعبير الكائن بالأصل، لأنفذ إلى عقل القارئ دون عثرات مانعة، لأنَّ مالكا كان يُكتفِ أفكاره، ويقننُها في حدودِ اصطلاحية تحتاج إلى وقفات تأملية، وجزى الله الأستاذ الدكتور عبد الصبور شاهين خيراً، فقد قدّم الرجل لقراء العربية بما ترجمه من كتبه ترجمةً كابدَ بها جهداً لا شك فيه، لأنّه لا يُنقل قصّة أدبيّة، بل يُنقلُ فكر فيلسوفٍ يعبر عن نفسه في تحديد منطقيّ صارم، فإذا استطاع المترجم أن يبعث في مثل هذه البحوث شعاعاً من الصفاء الأسلوبى المشرق، فقد بلغ ما أراد على وجهه التام.

وقد أعجب مفكرو العرب من كبار الباحثين بآثار المفكر الكبير، ونقل هنا قولين لكاتبين كبيرين لهما دورهما البارز في المجتمع الإسلامى المتطلّع إلى مشرق قريب؛ هما الأستاذ محمد المبارك والدكتور مصطفى السباعي وكلاهما من أعلام الفكر الإسلامى في ديار الشام، رحمهما الله.

يقول الدكتور مصطفى السباعي: «يتميّز مالك بن نبي في جميع مؤلفاته بعمق التفكير ومنطقيّته وواقعيّته وقوة أسلوبه في الدفاع عن الأفكار التي يتبنّاها، وقد استطاع بأسلوبه الذي تفرّد به، وثقافته الغربية الواسعة، مع ثقافته العربيّة الإسلامية أن يوجّه أنظارَ جيلٍ من شبابنا المثقف، الذي يتوق إلى الإصلاح مع احتفاظه بقوة العقيدة، وسلامة التفكير، وبدأ يرى في الأستاذ ابن نبي رائده الفكريّ البعيد النظر، القوي الإيمان، المناضل بقلمه في سبيل الله والإسلام»^(١).

ويقول الأستاذ الكبير محمد المبارك: «إنَّ مالكا لا يبدو في مجموع آثاره مفكراً كبيراً، وصاحبَ نظرية فلسفية في الحضارة فحسب، بل داعيةً مؤمناً يجمع بين نظرة الفيلسوفِ المفكّر ومنطقه، وحماسة الداعية المؤمن وقوة شعوره، وإنَّ آثاره في الحقيقة تحوي تلك الرفعة التي سيكون لها في بلاد العرب أولاً، وفي بلاد الإسلام ثانياً، أثرها المنتج، وقوتها الدافعة، ولَمّا استطاع كاتبُ مفكر أن يجمع كما جمع بين سعة الإطار والرفعة التي هي موضوع البحث، وعمق النظر، والبحث، وقوة

(١) مجلة المسلمون، العدد ١٠٤.

الإحساس والشعور، أنا لا أقول: إنه (ابن نبي) ولكني أقول: إنه ينهل من نفحات النبوة، وينابيعها الخالدة»^(١).

إن رسالة الإنسان هي المحور الذي تدورُ عليه مؤلفات الكاتب الكبير (والإنسان المسلم بنوع خاص) فهو في الفكرة الأساسية لمدار الأستاذ الفكريّ باعْثُ الحضارة الإنسانية، منذ بزغ فجر الإسلام، إذ كَانَ الإنسان المسلم هو المحور القويّ لهذه الحضارة، أعطاهَا مادتها الراقية من فكره وعمله وجهده، حتى صارت الإنسانية جميعها شيئاً عظيماً بهذا الإنسان المسلم، إنَّ هذه القضية على إيجازها الشامل في هذه السطور كانتْ مجال الحديث في جلٍّ ما أخرج مالك بن نبي من آثار، فتجدُ الحديثَ عن الإنسان المسلم فيما ألّفه الفيلسوف الجزائري الكبير في كتاب (مشكلات الحضارة) وفي كتاب (فكرة الأفريقية الآسيوية) لأنَّ هذه الفكرة في صميمها مواجهةٌ للإنسان الغربي الذي أهدر حقوق الإنسان الشرقي، وفي هذا الكتاب يقولُ المؤلّف: «مما لا جدال فيه أن الإسلام قد احتفظ بمضائه الذي صيغت فيه الحضارة الإسلامية كدرّة فريدة في التاريخ، ولكنَّ المسلم هو الذي فقدَ استخدامه الاجتماعي، ومع هذا قد احتفظ بجوهره، أي بهذا المضاء الروحي»^(٢).

ومتى احتفظ المسلم بمضائه الروحي رغم ما يحوطه من النكبات، فلا بدَّ أن ينتصر على الأحداث، قريباً كان هذا الانتصار أو بعيداً، لقد فقد المسلم مبررات وجوده حينَ وقف وحيداً محطّماً بعد أن نسي تعاليم دينه، وأسلمَ قيادته لغيره، وتخلّى عن حضارته العريقة لحضارة تعبدُ المادّة وحدها، وتجهلُ أشواقَ الروح وأمانيّ الارتقاء، وقد حطّمت نفسها حين شنت الحروب العالمية ليأكل القوي الضعيف، وإذا كان الدعاة من أمثال مالك بن نبي يعتنقون فكرة إصلاحية واضحة المنهج، فهم لا يزالون يكرّرونها بالمعنى في كلّ ما يكتبون، فلذلك اهتمَّ المؤلّف بهذه الأفكار فيما كتبه في كتاب (وجهة العالم الإسلامي) ولكنَّ أضافَ الجديد في المعالجة، والاستنباط، وإفراح جوانب الأمل.

كما حمَل حملةً شعواء على مَنْ يزعمون أنفسهم حماة الدين وأنصار تعاليمه، وهم يتلذّدون بشرب الخمر، ويجحدون حق الفقير العاري الجائع في الزكاة، ثم

(١) مقدمة كتاب (وجهة العالم الإسلامي) لمالك بن نبي.

(٢) مشكلات الحضارة: ص ٢٧.

يركبون السيارات الفارهة، ويتباهون بالاتصال بدوائر الاستعمار، ليكونوا أدواتها في تكريس الاحتلال! وهم بعد ذلك كله يتحدثون باسم الإسلام!! لقد فقد هؤلاء ضميرهم اللائم، ففقدوا عنصراً قوياً من عناصر الحضارة الإسلامية التي تؤكد منطق الضمير، وتعدّه قاضياً دقيق الحساب، وهذا القاضي لا وجود له إطلاقاً في الحضارة الغربية، وبفقدته صار الاستعمار لديها أمراً مشروعاً، بل صار الاعتداء على أبناء دينهم في الدول المجاورة مدعاة مباهاة وانتصار، وإذا كان فناء الحضارة الأوروبية سيأتي من الفصل بين الضمير والسياسة، فإن ارتقاء الحضارة الإسلامية سيأتي بوجود هذا الضمير الحساس.

هذا بعض ما ركّز عليه في كتاب (وجهة العالم الإسلامي) وقد أعقبه بكتاب (تأملات في المجتمع العربي) ليخص هذا المجتمع بنور من التوجيه الجاد، وإن كان الكتاب في روحه امتداداً عضوياً لما سبقه من الكتب الهادفة، تحدّث فيه المؤلف عن الحقوق والواجبات، وأكدّ الحديث عن الواجب لما لاحظ من إغفاله الشديد لدى قوم يودّون أن يُعطوا كلّ حق حقيقي أو مُتخيّل، دون أن يتَهَضّوا بما فُرض عليهم من الواجبات، وقد قارن المؤلف بين عهدين مختلفين عهد النبوة والخلافة الراشدة - حين كان الواجب فرضاً ينهض به المسلم في اشتياقٍ وعن سماح - وهذا العهد الحاضر وحين أصبح الواجب عبئاً ثقيلاً، يبذل الإنسان الكسولُ جهده للتخلّص منه منتحلاً شتى المعاذير.

وقد ألمّ المؤلف بحديث الديمقراطية التي تعبّر عن سلطة الشعب، فأعلن أنّ الإسلام قد رعى مضمونها الصريح، وسلم من معانيها التي تتلخّص في تسلّط حزب حاكم يسيّره زعيمٌ قائد، ويزعمُ أن الأمر شورى، وأنّ هؤلاء المسيّرين يعبّرون عن روح الشعب، وللاستاذ كتابٌ مستقل يتحدّث عن الديمقراطية بمفهومها السياسي المعاصر، مُوازنًا بمفهوم الشورى في الإسلام، والفكرة هي الفكرة، ولكن التفصيل والتحليل يجيء بالجديد.

وقد لا نجدُ بين المفكرين المعاصرين من حملة الأقلام الذائدة عن الإسلام، مَنْ خَبَرَ المستشرقين أكثر من خبرة الأستاذ مالك بن نبي، فقد عاشَهم وخالطَهم، وعرفهم في لحن القول وفي صراحته، وكتب عنهم ما يمثّل انطباعاته الصادقة عن ميولهم وأهوائهم، فقال: «إنّهم من حيث الاتجاه العام نحو الإسلام والمسلمين

طبقتان، فهناك المادحون للحضارة الإسلامية، وهناك المشوّهون لها، ومنهم من مسّ ثقافتنا بالتجريح، ولكنه لم يبلغ ما يريد، كما فعل (مرجليوث) حين افتزى على الشعر الجاهلي وتابعه (طه حسين)، فلقي الجزء الرّادع من حماة الحق أمثال الأستاذ (مصطفى صادق الرافعي) رحمه الله وأكرم مثواه.

إن أوروبا اكتشفت الفكر الإسلامي في مرحلتين من تاريخها، فكانت في مرحلة القرون الوسطى قبل (توماس الأكويني) وبعده تريد اكتشاف هذا الفكر وترجمته من أجل إثراء ثقافتها بالطريقة التي دفعتها للتقدّم الحضاري، أما المرحلة الثانية المعاصرة فإنها اكتشفت الفكر الإسلامي لا من أجل تعديل ثقافي، بل من أجل تعديل سياسي لوضع خططها الاستعمارية، مُطابقة لما تقتضيه الأوضاع في البلاد الإسلامية من ناحية، ولتسيير هذه الأوضاع طبق ما تقتضيه المصالح الاستعمارية لتسيطر على الشعوب الخاضعة لسلطانها.

وهذا اللقاء المعاصر وقّع في فترة الضعف للفكر الإسلامي، فأصبح المستشرقون يبحثون عن ذخائر الفكر الإسلامي، ينسبونه تارة إلى أصحابه، وتارة إلى أنفسهم، إذ أنّ هناك اكتشافات كبرى إسلامية نسبها هؤلاء لغير أصحابها، مثل دورة الدّم الصغرى التي نُسبت للإنجليزي (وليام هرفي)، بينما كان صاحبها الطبيب المسلم (ابن النفيس) يعيش قبله بأربعة قرون، وذلك تدجيلٌ أوحى بمركّب نقص لبعض المسلمين حين رأوا أنّهم عالّة على الغرب في كل شيء؛ وقد حان الوقت الذي تتمحّص فيه الحقائق على وجهها الصحيح، لولا قلّة من أذئاب الاستعمار لا تفتأ تذيع أراجيفهم، وكأنّهم بذلك يكسبون فخراً لأنفسهم، وهم يكسبون خزي الباطل وعداء الحق الصريح».

هذه لقطات تضمّ الجوهر الفكري لآراء ابن نبي بعيدة عن تحديدها المنطقي، واصطلاحها الفلسفي، وقد ذكرت أنّه قدم إلى مصر في منتصف الخمسينيات، ولمع نجمه في المحيط الإسلامي بما نشره بها من بحوث عربية وفرنسية، ثم رحل إلى الجزائر بعد استقلالها، وعيّن في مناصب تعليمية مرموقة، حيث صار مديراً للتعليم العالي بها، ثم استقال عام ١٩٦٧م ليتفرّغ إلى هُومومه الثقافية في نطاق الدعوة إلى التحرّر والاستعلاء، إلى أن لحق بربّه في آخر أكتوبر سنة ١٩٧٣م، فترك فراغاً قلّ أن يملأه سواه، ممّن جاهد جهاده الشاق.

ولنا أمل أن يعود الشباب المتطلّع إلى مجد العروبة والإسلام إلى دراسة كتبه
وما كتب عنه، ليستضيئوا بنوره المبين، وهو بعدُ مثل فريد لا يشبه غيره ممن
يعملون معه في حقل واحد، وهذا دليل تميّزه الأصيل.

* * *

محمد إسعاف النشاشيبي

العالم اللغوي الأديب

- ١ -

كتبْتُ عنه أكثر من مرّة، كتبْتُ عن علمه الغزير، وكتبْتُ عن حماسته للعروبة والإسلام، وكتبْتُ عن شغفه برسول الإسلام، ثم كتبْتُ عن إنكاره لذاته في أكثر ما يكتب، وهأنذا أكتب عنه فضلاً يجمع ما تفرّق، فإذا استعنت ببعض ما كتبت، فهذا أيسر وأسهل.

ولد إسعاف في بيت المقدس سنة ١٨٨٢م، في بيت ثراء وجاه، وكان والده من كبار التجّار، فعملَ على تثقيفه ببيروت في دار الحكمة، وفيها تعلّم العربية وهام بها، وتأثر بأستاذه اللّغوي الكبير عبد الله البستاني فطبعه بطابعه اللّغوي، وحبّبت إليه تراث العرب شعراً ونثراً، فنشأ إسعاف عاشقاً للغة العربيّة، حافظاً ما يروقه من روائعها، إذ رزقه الله حافظّةً قوية مع حماسةٍ ملتزمة لكلّ جيد من القول، عالٍ من المثل الرفيعة، ثم رَجَعَ إلى بيت المقدس، فشجّعه والده على العمل التجاري، وكتبَ باسمه قدراً كبيراً من أملاكه، ولكنّ الفتى الشاب قد هام بالأدب وشغف به، فلم يرق له أن يجري على سنن والده في الاستثمار العقاري، والفلاحة في الأرض، ونزلت به ضائقة مالية، فباع قطعة أرض ممّا ضمّها إليه والده، ولم يطق الوالد صبراً على صنيع ولده، إذ رأى الأرض ستضيعُ جزءاً جزءاً، فعجل بشكواه إلى ذوي الأمر، وحُبِس إسعاف بضعة أيام، ثم خرج بشفاعَةِ بعض الكبار!!.

ورأى الأديب المتطلّع أن يلتحق بوظائف الدولة بعد انقطاع مورده من أبيه، فانضمَّ أستاذاً للعربيّة في المدرسة الصلاحية التي أنشأها جمال باشا في بيت المقدس، ثمّ مديراً للمدرسة الرشيدية بالقدس، فمفتشاً للغة العربية في إدارة

المعارف العامة، وفي مهمته التفتيشية أصاب اللغة العربية خيرٌ كثيرٌ وعلى يده، إذ أصلح المناهج، واختار الكتب، وشرح للمدرسين طرائق التدريس الناجعة، ثم آلت إليه ثروة أبيه، فانتقل إلى عهد الرخاء، وودّع الوظائف الأميرية ليخلو للأدب واللغة والتاريخ! وما زال حُرّاً من قيد الوظيفة، مقيّداً ببحوثه الأدبية حتى لقي ربه الكريم في سنة ١٩٤٨ بالقاهرة، فاحتفل بتشييعه كبارُ المثقفين والسياسيين، وردّت الصحف اليومية منعاه أديباً عالمياً لغوياً ذا أثر حميد.. أما الصحف الأدبية فقد أفردت له فصلاً ضافية تتحدث عن أدبه المطبوع، وعلمه الفياض، ومن أجمل ما قيل عنه ما كتبه صديقه الأستاذ أحمد حسن الزيات بالرسالة، إذ جاء فيما قال صادقاً^(١):

« لقد وقف نفسه ووقته وجهده على دراسة الإسلام الصحيح في مصادره الأولى، وتحصيل اللغة العربية وآدابها من منابعها الصافية، فكان آية من آيات الله في سعة الاطلاع، وكثرة الحفظ، وتقصي الأطراف، وتمحيص الحقائق، ولم يكتُب للشهرة والمجد، إنما كتب للعصبيّة والعقيدة، أخلصَ الله فأخلصَ لقرآنه، وأولعَ بمحمد فأولعَ بلسانه، فإذا جلس للناس في القدس أو دمشق أو القاهرة، كان مجلسه ندوة علم وفكاهة وأدب، لا تُذكر مسألة إلا كان له عنها جواب، ولا تُثار مُشكلة إلا أشرق له فيها رأي، ولا تُزوى حادثة إلا ردّ عليها بمثل، ولا يحضرُ ندوته أديبٌ مطلع إلا جلس فيها جلسة المستفيد، لا تستطيعُ أن تذكر له كتاباً من كتب العربية لم يقرأه، ولا بيتاً من شعر الفحول لم يحفظه، ولا خبراً في تاريخ العرب والإسلام لم يروه، ولا شيئاً من نوادر التركيب وقواعد اللغة، وطرائف الأمثال لم يعلمه، فهو من طراز أبي عبيدة والمبرد، لذلك كان أكثر ما يكتُب تحقيقاً واختياراً وأمالِي، كان خاتمةً طبقة من الأدباء اللغويين والمحققين، لا يستطيع الزمنُ الحاضر بثقافته وطبيعته أن يجودَ بمثله ».

وسأقفُ طويلاً عند قول الزيات: إنه كان يكتُب للعصبيّة والعقيدة لا للشهرة والمجد، أقفُ عند ذلك طويلاً لأضرب المثل الحيّ في إنكار الذات، والرغبة الخالصة في تمحيص الحقائق لذات الحقائق، لا لكسب الشهرة، ودويّ الصيت، فإننا نرى الآن من يَسرقون الكتب من أصحابها، وينسبونها لأنفسهم دون حياة،

(١) وحي الرسالة: ١١٣/٣.

وَمَنْ يدفعون النقود المجزية لنفر من الصحافيين كي يشيدوا بفضائل مَزْعومة لا حقيقة لها، ومن يكتبون المقالات بأسماء مجهولة تنويهاً بأسمائهم، وإطراءً لكتبهم حيث لم يجدوا مُشيداً بأثارهم التي لا تستحق الإشادة، إن هؤلاء جميعاً في حاجة إلى مثل حي لا يرتقون إلى سماءه، مثل يذكّرهم بأن العلم يُطلب لذات العلم وأن ثقة العالم بنفسه أكبر من أن تسعى إلى اشتهارٍ أو جاهٍ أو نباهة، فحسبه أن يعرف أنه هو هو، وإن جهله الكثيرون.

لقد كانت جريدتا البلاغ وكوكب الشرق اليوميّتان، ومجلة الرسالة الأسبوعية تُطالعُ القراء ببحوثٍ أدبية مسهبة ذاتِ نظر وجدل وتحقيق، دون أن تحمل توقيعاً لباحثٍ، إذ كان كاتبها الكبير يكتفي تارةً بحرف (ن) وتارةً بكلمة (قارئ)، وتارةً بكلمتين هما (أزهري المنصورة) ثم أخيراً بكلمة (السهمي) والفاحصون من القراء، يطالعون هذه البحوث المجهولة المتعددة التوقيع، فيجدونها تحملُ طابعاً خاصاً يُنبئ عن مصدر واحد، لا عدة مصادر، فيذهبون في ظُنُونهم كلّ مذهب، وقد أعانهم النشاشيبي على التّيه والحيرة ببعض ما اختارَ من التوقيعات، فإن توقيع (أزهري المنصورة) يُبعد كلّ ظنٍ يحومُ حول النشاشيبي، لأنّ إسعافاً لم يكن أزهرياً بتعليمه ولا منصورياً بميلاده، وهو لم ير المنصورة، وليس له بها عهد يسمح لقارئ أن يحوم بظنه عليه، وكانت بحوثُ الأستاذ من الدسامة والدقة والعمق بحيث جعلت البحث عن صاحبها الكبير ضرورةً محتومة، وهو بهذه التعمية يضلّ الباحث ولا يهدي، كما أنّ النشاشيبي أخذَ على رؤساء التحرير عهداً ألا يُخبروا أحداً عن اسمه، وهو يرجع أحياناً إلى مصادرٍ مخطوطة قد لا توجد إلا في مكتبته، وعُشاق المعرفة في حاجة ماسة إلى إلمامة شافية بهذه المخطوطات، ومن عجائب هذه البحوث أنّها تجمع بين الأدب واللغة والنحو والصرف والفقه وعلم الكلام والتاريخ في نسقٍ رائع يُدهش قارئه لكثرة ما يرى من المصادر، ووعي من الحقائق، وروى من الشعر، وجنّى من التحقيق.

وقد استمرت هذه البحوث ذاتُ التوقيع المقنّع سنوات عدة لم يُسفر صاحبها عن وجهه، وحَدَّثَ أنه أفتى دينياً في موضوع خطير، تحدّث عنه العلماء من وجهتي نظرٍ مختلفتين، إذ فشا زواجُ المبعوثين من الطلاب إلى أوروبا بالفرنسيات والإنجليزيات والألمانيات وغيرهنّ، وعادوا مع أزواجهنّ مع عاداتٍ تُنافر العادات الإسلامية،

وبدأت أسرٌ جديدةٌ تغزو المجتمع الإسلامي على نحوٍ لا يؤمن معه دينُ الأطفال ولا تربيتهم على النحو المنشود! وزواجُ الكتابيات مُباح لا مرية فيه، فمن قال بذلك فقد آوى إلى نصٍّ صريح، أما تحريمُ هذا الزواج فيحتاجُ إلى غير النصِّ من أدلة القياس أو غيره، وهنا أدلى النشاشيبي برأيه في مقالٍ نشره بالرسالة تحت عنوان (التزوج بالغربيات) ^(١) قال فيه بعد أن ذكر الآية الكريمة: ﴿الْيَوْمَ أَجِلْ لَكُمْ الطَّيِّبَاتُ وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَهُمْ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَفِّحِينَ وَلَا مُتَّخِذِي أَخْدَانٍ﴾ [المائدة: ٥]. قال الباحث: إن لنزول الآيات أسباباً يُوردها المفسرون، وقد يكون في آية غير ما يلوح في آية أخرى، والصحابة والتابعون هم أدري بكتاب الله ومراميه من تابعي التابعين، ومن مجتهدين مولدين محدثين، فقد جاء في مفاتيح الغيب:

«كان ابن عمر رضي الله عنهما لا يرى التزوج بالذميمة، ويحتج بقوله تعالى: ﴿وَلَا تَنْكِحُوا الْمُشْرِكَةَ حَتَّى تُؤْمِنَ﴾ [البقرة: ٢٢١]. ويقول: لا أعلم شركاً أعظم من قولها: (إن ربها عيسى) ومن قال بهذا القول أجاب عن التمسك بقوله تعالى: ﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾ بوجه: (الأول) إن المراد الذين آمنوا منهم، فإنه كان يُحتمل أن يخطر ببال بعضهم أن اليهودية إذا آمنت فهل يجوز للمسلم أن يتزوج بها أم لا، فبين الله تعالى في الآية جواز ذلك. (الثاني) روي عن عطاء أنه قال: إنما رخص الله تعالى في التزوج بالكتابية في هذا الوقت، لأنه كان في المسلمات قلة. وأما الآن ففيهن الكثرة العظيمة، فزالت الحاجة، فلا جرم زالت الرخصة. (الثالث) الآيات الدالة على وجوب المباحة عن الكفار كقوله تعالى: ﴿لَا تَنْخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ﴾ [الممتحنة: ١] وقوله: ﴿لَا تَنْخِذُوا بِطَانَةً مِنْ دُونِكُمْ﴾ لأنه عند حصول الزوجية ربما قويت المحبة، ويكون ذلك سبب ميل الزوج إلى دينها، وعند حدوث الولد فربما مال الولد إلى دينها، وكلُّ ذلك إلقاء للنفس في الضرر من غير حاجة، (الرابع) قوله تعالى في آخر الآيات: ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَسِرِينَ﴾ [المائدة: ٥]. فهو من أعظم المنفرات عن التزوج بالكافرة».

ثم ساق الأستاذ أدلةً ونقولاً أخرى عن ابن جرير الطبري لا أطيل بذكرها، وعقب على ذلك بقوله: «إن هذا الشر - شرّ نكاح الغربيات - قد اشتد واستفحل

(١) مجلة الرسالة: العدد ٢٣٣، ٢٠/١٢/١٩٣٧.

واستأسد، فإذا لم يدرك الناس في مصر رجال الدين والدنيا، وشيخ الإسلام ومفتيه، وهيئة كبار العلماء بالدواء الناجع، والفتوى المحرّمة، والقانون المانع، فاقرأ الفاتحة على الأسرة، وقُل: السلام على الأمة». واستطرد الكاتب إلى ذكر ما سنّه موسوليني الإيطالي وهتلر الألماني من تحريم التزوُّج ببعض الطوائف رعاية للأسرة، وكانَ لكلامه رجْعٌ بعيد، ولكنه لم يُؤخذ به، لأنَّ الرأي المخالف أقوى أدلّة، وأوضَح برهاناً! وأذكرُ أن الشيخ عبد العزيز جاويز قد سبق النشاشيبي بالدعوة إلى تحريم هذا الزواج، ورَجَعَ إلى نصوص تُشبه النصوص التي رجع إليها الأستاذ، ولكنَّ الجمهورَ متمسكٌ بالنصِّ الصّريح.

أما الفتوى الرائعة التي لاقت شبه إجماع نادر، فهي ما كتبه عن الزكاة، إذ قام من الكتاب الحُمر مَنْ ينتقصُ الشريعة في اكتفائها بقدرٍ يسير لا يحقق معنى التكافل الاجتماعي. والشريعة مظلومة، مظلومة لدى من لا يدري من أمرها شيئاً ثم يتحدث عنها، وله ولمثله أبواقٌ تُردّد ما يقول، وصحفٌ يوميةٌ ذائعة تنقل آراءه الباطلة، وكأنّه عبقرئٌ مجدّد، فإذا ما أنبرى لتزييف هوائه عالمٌ مجتهد، سكنتِ الصحف فلم تنشر، وإذا نُشرت فجزء يسير لا يُمثّل الحق، مع تعليقاتٍ منافقة خادعة! في هذا الجوّ الصاخب قام الأستاذ النشاشيبي بنشر مقال تحت عنوان (أقوالٌ في الزكاة مهمة، لأئمة)^(١) قال في مطلعهِ: إنها آراءٌ عن (إعلام الموقعين) لابن القيم، و(مفاتيح الغيب للرازي) و(المحلّي) لابن حزم، وهي أقوالٌ لا تسأل راويها تفسيراً ولا تفصيلاً، إنها تشرّح نفسها، وتُعلن أمرها، وتذكر وتُنذر، وأكتفي هنا بما نقل عن (المحلّي) لابن حزم، فهو أوضح وأجلى.

قال الإمام ابن حزم: «فرض على الأغنياء من أهل كل بلد أن يقوموا بفقرائهم، ويجبرهم السلطان على ذلك، إن لم تقم الزكوات ولا فيء سائر الأموال بهم، فيُقام لهم بما يأكلون من القوت الذي لا بدّ منه، ومن اللباس للشتاء والصيف بمثل ذلك، وبمسكن يكتهم من المطر والشمس وعيون المارة، قال عمر بن الخطاب: لو استقبلتُ من أمري ما استدبرت لأخذتُ فضولَ أموال الأغنياء، فقسمتها على فقراء المهاجرين. وقال ابن عمر: في مالك حقّ سوى الزكاة. وصحّ ذلك عن الشعبي ومجاهد وطاوس، ويقولون: مَنْ عطش فخاف الموت فُرض عليه أن يأخذ الماء

(١) مجلة الرسالة: العدد ٦١٤، بتاريخ ١٩٤٥/٤/٩.

حيثُ وجده، وأن يُقاتل عليه، وأيُّ فزق بين ما أباحوا له من القتال على ما يدفع به عن نفسه الموت من العطش، وبين ما منعه من القتال عن نفسه، فيما يدفعُ به عنها الموت من الجوع والعري، وهذا خلافتُ للإجماع وللقرآن ولللسن والقياس، ولا يحلّ لمسلم اضطرَّ أن يأكلَ ميتةً أو لحم خنزير وهو يجدُ طعاماً فيه فضلٌ عن صاحبه لمسلم أو ذمي، لأن فرضاً على صاحب الطعام إطعامُ الجائع، فإن كان كذلك فليس بمضطرٍّ إلى أكل الميتة ولحم الخنزير، وله أن يقاتلَ عن ذلك، فإذا قُتل فعلى قاتله القود، وإن قُتل المانع فإلى لعنة الله، لأنه منع حقاً، وهو طائفةٌ باغية، قال تعالى: ﴿فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَىٰ فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّىٰ تَفِيءَ إِلَىٰ أَمْرِ اللَّهِ﴾ [الحجرات: ٩]. ومانعُ الحق باغٍ على أخيه الذي له الحق، وبهذا قاتل أبو بكر مانعي الزكاة».

وإذا كان الفقه أقلّ أدوات النشاشيبي، وقد غاصَ فيه هذا الغوص، وأتى بما يخفى على الكثيرين من المتخصصين، فما ظنك باللغة والأدب والنحو، وهو منقطعُ النظر في دراسة هذه العلوم، حتى لقد قُرِنَ بالمبرّد في القديم وبالمرصفي في الحديث، وأُطلق عليه وصفُ (إمام العربية) وهو وصفٌ لم يأت عفواً، ولم يلق القبول من الباحثين مُجاملة، بل وراءه أصالةٌ نادرة، وزكاةٌ قادرة، لقد جاء النشاشيبي في هذا الصّدّد بما يُشبه الفتح، وأضرَبُ المثل بما حكاه عن (أخوات الفوارس) وهو جمعُ المذكر العاقل على فواعل، حيثُ منعه الجمهورُ لعدم ورود شيء منه في اللغة غير (فوارس وهالك) فحسب، فقَام النشاشيبي بإحصاءِ تسعة عشر جمعاً للمذكر على صيغة (فواعل) وما زال يتتبع النصوص حتى بلغَ بها إلى خمسة وعشرين، فإذا شاءَ القارئ أن يرجعَ إلى ذلك فلديه مجلةُ الرسالة الصادرة بتاريخ (١٧/٧/١٩٣٩) حيثُ خطَّ استقصاءه العجيب النادر تحت عنوان (إخوان الفوارس) وعلى من يريد تتبّع ما قال النشاشيبي بعد ذلك أن يراجعَ أعداد الرسالة فيما بعد هذا التاريخ، لأنّه جعلَ يُضيف ما يعثر عليه في قراءاته بعد المقال السابق.

وثانيةٌ تشبه هذه، فقد ذَهَبَ جمهرة الدارسين إلى تخطئة من يقول (قد لا) بدخول (قد) على حرف النفي، ولهم في ذلك تأكيدٌ مسهب، مع أن (قد لا يكون) استعمالٌ منطقي مقرر، ولكنّ المانعين يعارضون استعمال المنطقة، ولا يعبؤون به، فكتبَ النشاشيبي مقالاً رائعاً بمجلة الرسالة تحت عنوان (قد لا يكون) بالعدد

الصادر بتاريخ (٨/١/١٩٤٠) تتبّع فيه أقوال أئمة أجازوا هذا التعبير، وكتبوه في مؤلفاتهم العلميّة، فكان موضع تأمل عميق.

وقد قامت خصومة لغوية حادّة بين فريقٍ من اللغويّين حول استعمال (فعلاء) وصفاً للجمع، فحرّموا أن يقول القائل (النجوم البيضاء) وأوجبوا أن تكون العبارة (النجوم البيض) وقد خاض المناقشون خوفاً متصل الضجيج في مجلّات كثيرة بمصر والعراق والشام، وتزعّم المعركة الأب أنستاس ماري الكرملّي، وخاض حلبتها مصطفى صادق الرافعي وزكي مبارك، ومصطفى جواد وأحمد العوامري، وفريق آخر من تلاميذ هؤلاء، وسكت النشاشيبي يستقرىء ويتتبّع، ويُراجع ويدقق حتى طلع على القراء بمقاله (فعلاء)^(١) فأصاب شاكلة الصواب، وانقطع اللجاج في هذه المعركة الساخنة، حتى ليجوز لنا أن نتمثل هنا بقول القائل:

إذا جاء موسى وألقى العصا فقد بطل السحر والساحر

- ٢ -

كان الأستاذ النشاشيبي يُدعى للخطابة الأدبيّة في المحافل الكبرى لأعيان الفكر، فتكون كلمته من أبرز ما يقال، لأنّه يملؤها بعباراتٍ جزلة تُشبه أساليب المتقدّمين في عهود الفصاحة، ويُلقيها بنبرٍ جيد معبّر، ينقلُ انفعالات الخطيب إلى نفوس سامعيه، إذ يجدون لديه نمطاً من البيان الرفيع يقرؤون مثله في الماضي، وقلّ أن يجدوه في الحاضر، كذلك كانت خطبة الرثانة في مهرجانات المتنبي وأبي العلاء وشوقي وإبراهيم هنانو، وصلاح الدين الأيوبي، وقد طبعت كلها في كتب مصقولة، ولكل كتاب شرح هامشي مُستفيض، يتعلّق بشؤون جليّة من مسائل اللّغة والأدب والتاريخ، وقد قالت مجلة الأزهر عن خطبة (مقام إبراهيم) الخاصة بالزعيم إبراهيم هنانو: «وقد زأدها حلّى بتحقيقات لغوية وتاريخية وعلميّة تُربي على الأصل ثلاثة أضعاف»^(٢). وما قالتها مجلة الأزهر عن (مقام إبراهيم) يَنطبق على الكلمات الأخرى، وأذكرُ أن بعض الأدباء قال عن كلمة النشاشيبي في صلاح الدين: إنها رَفعت الشر إلى مستوى الشّعَر إعجاباً وتفنّناً. وهذا ليس مبالغة، فنحنُ نقرأ ما نُشر

(١) الرسالة: العدد ٧٤٥، ١٣/١٠/١٩٤٧.

(٢) مجلة الأزهر: ٨/١٤٣.

من هذه الكلمات فلا ندري أيّ سحر يأخذُ بالبابنا، فإذا كانَ القارىءُ ممّن جالسَ
النشاشيبي وعرفه معرفةً العيان محدثاً مؤثراً، وعريباً ذا حميّة ينتفضُ انتفاضاً حين
يتكلّم عن أحزان العروبة الحاضرة، وأمجادها السّالفة، إذا كانَ القارىءُ ممن جالس
الرجل الكبير، وعرف مشربه ومنحاه، فإنّه إذا قرأ خطبته المنشورة تمثّله بجسمه
وروحه رَعْدًا يزأر في موقف الحماسة، ونسيماً يترقرق في موقف العاطفة، ولكي
أضّم إلى رأيي رأي أديب كبير سمع إحدى خطب النشاشيبي في كلية صلاح الدين
ببيت المقدس، فإني أنقل للقارىء ما كتبه الأستاذ الصحفي العربي الكبير أحمد
شاكر الكرمي في صحيفة (الميزان) عن كلمة النشاشيبي التي تحدّد مسار العلم شرقاً
وغرباً؛ حيث قال^(١):

«وصلتني كلمتك الموجزة، فكنتُ أتمثّلك وأنا أنلو سطورها، مِذرّها من فحول
الجاهلية، فَهَر تصاريف الأيام، وحَظي بنعمة الخلود، وقامَ يقرعُ سمع الدهر بآيات
العلم والعرفان في عصر العلم والنور، إني مدينٌ لك بنشوة السّرور التي خامرتُ
قلبي في زمن لا يبعث كلّ ما فيه إلا على الحزن والأسى، فقد أطربني حقّاً وجودُ
أديب بين ظُهرانيّنا يجلو أسرارَ العلم الحديث ومُعجزاته في هذه الحلة العربية الثمينة
في زمن استعجم فيه أبناء الضّاد، وكادوا يضيّعون آخر الذخائر، وأثمن النفائس التي
ورّثهم إياها أسلافهم الأبرار، وإني لأرجو أن تدفعك غيرتُك الشديدة على هذه اللّغة
المجيدة التي قلّ أنصارها إلى الإكثار من هذه الآثار التي تعتزّ بها دولة الأدب، وتهتزّ
لها أعطاف البلاغة.

والسلامُ عليك من أخٍ مخلص، يجلّ منزلتك، ويكبر أدبك وبيانك». وقد أُلقيت
خطبة النشاشيبي هذه سنة ١٩٢٢، وهو لا يزال في طور الشباب ناهضاً متطلّعاً،
وأُتيح للقارىء أن يطالع فقرأ منها، إذ تحدّث الخطيب عن نشأة العلم مصرّياً
فإغريقياً فرومانياً ثم انتهى إلى الدور العربي فقال^(٢):

«ثم أتى على العالم - من بعد ما اجتلى من الحكمة الإغريقية والعلم الإغريقي -
حينٌ من الدهر، كرّبت تضمحلٌّ فيه آثار هذه الحكمة، وتنطفئ من سمائها أنوارُ
طالما هدت السارين، وأرشدت الضالّين (وبينما العسر إذ دارت مياسير) بينما العالمُ

(١) مجلة الرسالة: العدد ٦٧٧، ٢٤/٦/١٩٤٦.

(٢) المصدر السابق، حيث نشرت بعض أجزاء الخطبة.

يرتقب هاديه، وقد تناول ليله؛ صَاتَ صَائِتٍ فِي فَلَاةٍ لَمْ يَعْتَدِ النَّاسُ أَنْ تَسْمَعَ فِيهَا لِلْخَيْرِ دَعَاءَ، فَأَرْهَفَ لاسْتِمَاعَ مَا يَقُولُ الصَّوْتُ أَذْنَهُ، فَإِذَا هُوَ يَوْقُظُ الْهَاجِدَ فِي عَمَاهُ، وَيُنَبِّهُ الْغَافِلَ مِنْ كَرَاهٍ، وَيُنَادِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَى صِرَاطِ مُسْتَقِيمٍ، ذَلِكَ الصَّائِتُ هُوَ سَيِّدُنَا وَزَعِيمُنَا وَمُصْلِحُنَا، وَمَهْوَى أَفْئِدَتِنَا، شَرَفُ الْعَرَبِ، بَلِ الْمَشَارِقَةِ، بَلِ قُطْبِ الْأَرْضِ قَاطِبَةِ، مُوَحِّدِ أَهْوَاءِ أَهْلِ الْجَزِيرَةِ الْمَشْتَتَةِ، وَالْمُؤَلِّفِ بَيْنَ قُلُوبِهِمُ الْمُتَفَرِّقَةِ، وَنَازِعُ مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غُلٍّ، وَالْكَادِحُ الْمُجَاهِدُ فِي إِعْزَازِ مَكَانَتِهِمْ، وَإِعْلَاءِ كَلِمَتِهِمْ، وَتَمْلِيكِهِمُ الدُّنْيَا، مَهْدَمِ عُرُوشِ الطُّغَاةِ وَالْجَبَابِرَةِ، مِنْ الْأَكَاسِرَةِ وَالْقِيَاصِرَةِ، مُحَرِّرِ الشَّرْقِ مِنَ الْغَرْبِ، مُخْرِجِ هِرْقَلٍ مِنْ سُورِيَةِ، وَطَارِدِ كُلِّ طَارِئٍ أَوْرُوبِيٍّ مِنْ كُلِّ قَطْرٍ أَسْيَوِيٍّ أَوْ أَفْرِيْقِيٍّ، شَائِدُ الْوَحْدَةِ الْعَرَبِيَّةِ، وَصَفْوَةُ النُّوعِ الْإِنْسَانِيِّ، وَأَكْبَرُ مَعَانِي الْكُونِ، فَتَبَدَّلَتِ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ، وَارْتَدَّتْ مِنَ الْخَيْرِ بِجَلْبَابٍ كَانَتْ قَدْ نَفَضَتْهُ، وَرَحَّبَتْ وَأَهْلَتْ بِمَا قَلَّتْهُ مِنَ الْحِكْمَةِ وَاجْتَوَتْهُ، وَغَدَا أَبَاؤُنَا إِلَى ظُلْلِ الْعِلْمِ الدَّارِسِ، وَالْمَدِينَةِ الطَّامِسَةِ، فَشَادُوا فِي مَكَانِهِ صِرْحًا لِهَمَّا مَمْرَدًا» .

وقد استخسنت أن أنقل هذه الشذور، لأنها الفكرة التي دارت عليها أكثرُ أحاديث النشاشيبي، فاعتزازه بالإسلام، والعروبة، ونبى الإسلام، وأثر الإسلام في تقدّم الحضارة الإنسانية، وبنائها على وجه علمي أصيل بعد أن زالت وامتحت آثارها في الغرب؛ هذه المعاني لم يسأم الداعية العربيّ الأصيل من تكرارها، فكان بذلك عاملاً من عوامل البعث الإسلاميّ الأصيل، ومما أكّد أصالته ما كان يعقده من موازنات متعدّدة بين مفكرى أوروبا ومفكرى الإسلام، وشعراء العربية وشعراء الفرنجة، وتاريخ التسامح والإخاء لدى المسلمين مُقَارَنًا بِمَا سُجِّلَ عَنْ مُحَاكِمِ التفتيش وسلطان الكنيسة، وإزهاق حرية الفكر، وهذه أفكار أصبحت مسلمة لدينا الآن، ولكنها في الربع الأول من القرن العشرين كانت مجالاً لجُحُودٍ واستنكارٍ، إذ أخذ المَغْرُورُونَ بِحَضَارَةِ الْغَرْبِ يَقْذِفُونَ التَّهْمَ عَلَى دِينِ الْعَرَبِ وَمَدِينَةِ الْإِسْلَامِ، فَتَوَالَى لَيْلٌ حَالِكٌ، أَعْقَبَهُ صَبَاحٌ مَشْرِقٌ بِجِهَادِ أَعْلَامِ النُّهْضَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ، وَكُلُّهُمْ خِيَارٌ مِنْ خِيَارٍ .

ونعودُ إِلَى بَحُوثِ الْأُسْتَاذِ النُّشَاشِيْبِيِّ الْمُسْتَتَرَةِ، الَّتِي امْتَلَأَتْ بِهَا الصُّحُفُ غِذَاءً دَسْمًا وَفِكْرًا مُسْتَتِيرًا، دُونَ أَنْ يَكْشِفَ كَاتِبُهَا النُّقَابَ عَنْ وَجْهِهِ، فَقَدْ تَوَالَتْ هَذِهِ الْبَحُوثُ الشَّائِقَةُ، وَكُلُّهَا ذَاتُ دَلَالَةٍ سَافِرَةٍ عَلَى فِكْرٍ مُسْتَوْعِبٍ نَقَادٍ، وَالْقَرَاءُ فِي

عجب عجب، كيف رَضِيَ صاحبها أن يتقنَ بلثام، حتى ظهر الجزء الأول من كتاب العقد الفريد بتحقيق الأساتذة أحمد أمين وأحمد الزين وإبراهيم الأبياري، وقد بذلوا جهداً علمياً مشكوراً في صحّة الضبط، وسلامة النصّ، وشرح الغامض، فقام الأستاذ النشاشيبي بقراءة هذا الجزء الأول، وبَدَثَ له نقداً صائبة في اللّغة والرواية والنحو والتاريخ، مما فات الأساتذة المحققين فلم يدوّنوه، ومما دَوّنوه وبدا بعيداً عن الصواب، فكتبَ عدة مقالات متتابعة كانت موضع التقدير الجَم من القراء، بل من جلة العلماء وصفوة المحققين، حتى أن العلامة اللغوي الكبير الأستاذ أحمد العوامري عضو مجمع اللّغة العربية وكبير مفتشي وزارة المعارف لهده، لم يملك إلا أن يوجّه إلى الباحث المقتنع هذا الخطاب العلني على صفحات الرسالة بالعدد (٤٠٤) سنة ١٩٤١م، تحت عنوان (إعجاب وتقدير) وقد قال فيه :

«أيها الأستاذ الجليل، إني ليطربني يا سيدي أن أقرأ لكم هذه المقالات القديرة الرّآخرة بالفائدة في نقد الطبعة الأخيرة من (العقد الفريد) وليست تلك المقالات وحدها هي التي سبّنتي من علمك الغزير، وإطلاعك المنقطع النظير، وإحاطتك بما تكنّه ضمائر أسفار السابقين الأوّلين من أئمة اللّغة وحفاظها، بل قد تَبَعْتُ في الرسالة الغراء كل ما دبجته براعتك منذ أوّل عهدك بها، لم تَقْنُني منه فائدة، بل لقد اتخذت منه دروساً أتوفّر عليها، وأعكفُ على الإفادة منها، والتضلّع من معينها الفياض، وإني لأعجب يا سيدي كلّ العجب، في هذا العصر الذي يُباهى فيه بالقشور، وسُخف القول: كيف تَسْتَرّ وتحتجب، وتقفُ في تواريك هذا، وفي عُزْلَتك مُرْشداً وهادياً لا تَبْتغي غير خدمة وطنك وأمتك، وإن أسفْتُ على هذا التستر والاحتجاب، فإنما أسفي على أن أمثالي من طالبي المعرفة يودّون لو أُتيحت لهم فرصة لقاءك ليستزيدوا منك، وليتحلّوا بما يشهدون فيك من كمال الخلق، ولكنك زهدت في نباهة الذكر، وعِفْتَ الإعلان، وآثرت العمل في جوّ خلوي من الصخب والضوضاء، فضربت يا سيدي المثل في التواضع، وإنكار الذات، وضربته في طُهرِ قلمك من لوثة الزهو والعجب والمباهاة، فليتعلّم من هذا المثل الصالح مَنْ يتناولون على صفحات الجرائد والمجلات، فيدعون ما يتناولون من أجله، ويخرجون إلى ميادين العيب والتجريح، ليتعلم هؤلاء منك ومن أمثالك الأعفاء أن يقصروا أقلامهم على ما يدافعون عنه من عقيدة، الحجّة بالحجّة، والبرهان بالبرهان، ولينسوا أنفسهم وأهواءهم في سبيل الحق، وليدعُوا شهوة الانتقام

والتشقي، فإن أوقات القراء لأنفس من أن تُبعثر في مثل هذا اللغو والزور من القول،
مزيداً مزيداً أيها الباحث الجليل، فإننا إلى علمك وفضلك وخلقك عَطَّاشِي» أ.ع.

ويرى القارئ أن خطاب العوامري بك قد وُقِع بحرفي (ا.ع) وكذلك كانت
تعقيباته السديدة التي أخذت تتوالى بمجلة الرسالة، فكأن الرجل قد أثر الرمز اقتداءً
بالنقاشيبي، ولأترك الأستاذ العوامري إلى نفسي، فقد كنتُ طالباً بمعهد الزقازيق
الثانوي، وقد سباني ما سبى الأستاذ العوامري من بُحوث الأستاذ وما بها من دقة
التحرّي، وبُعْد الغوص، وسلامة الاستنتاج، فوق ما يحمله اختفاء التوقيع من دَهِشٍ
محير، فعنّ لي أن أبحث عن صاحب هذه الروائع، فوجدتُ أن مقالاتٍ أخرى
تكتب بتوقيع (محمد إسعاف النشاشيبي) هي في رُوحها وطريقتها وكثرة حواشيها
متفقة منهجاً وطريقة وأسلوباً بما يُكتب دون توقيع، فتملّكني شعورٌ قوي أن الكاتب
المقنّع، هو الكاتب السّافر، وكنتُ فتى أنظمُ الشعر، فكتبْتُ قصيدةً بعثت بها إلى
الرسالة موجّهةً إلى الباحثة الكبير، وفيها أقول:

دع اللثام فقد واليت تعذيبي	يا طالماً ضلّ في واديك تنقيبي
حجبت نفسك في شماء شاهقة	لكنّ سبيك عنا غير محجوب
فكنت مثل النسيم الطلق ينعشنا	ولا نراه بتحديق وتقليب
فيم استأرك والأبصار طامحة	والعين ما بين تشريق وتغريب
ونحن في زمن كلّ يتيه بما	يُزجيه للناس من سخف الأكاذيب
هو التواضع في أسمى مظاهره	لقد قبضت عليه بالتلايب
أسلوبك المشتهى نلقاه منفرداً	بطابع واضح بين الأساليب
ما إن أراه على القرطاس مرتسماً	حتى أسوق إليه كل ترحيب
كأنه إذ يوافيني بطلعته . .	(قميص يوسف في أجفان يعقوب)

إلى أن قلت:

أستاذي الفدّ، قل لي غير منتظر	من أنت؟ واكشف قناع الشك والريب
قلبي يحدثني في كل آونة	أن اسمك الحق إسعاف النشاشيبي

ولكنّ الزيات بعثَ بالقصيدة إلى الأستاذ النشاشيبي دون أن ينشرها، وقد سألتُه
بعد أن قويت صلتني به، فقال: إني صرّحتُ باسم الكاتب، وهو لا يُريدُ، فماذا

أفعل، ثم أذن الله فقابلت الأستاذ النشاشيبي، ووجدته لحظي السعيد يحفظ بعض أبيات القصيدة! وكان لقاء!! .

هذا وقد ذاعت نواذر النشاشيبي الأدبية التي كان يكتبها مسلسلته تحت عنوان (نقل الأديب) بمجلة الرسالة لعدة سنوات متتابعة، حيث جمعت طرائف ما وقع عليه الباحث الكبير في التراث العربي بشتى فروعه، فدلّت على ذوق رائع في الاختيار، وإيجاز دقيق في العرض، مع اهتمام قويّ بخفايا العلوم المتشعبة، إذ يقدم أحياناً الطرف العلمية ذات وجوه متشعبة في المغزى، أو الإعراب أو البلاغة، فيعقب عليها في هوامش (النقل) بما يضيء جوانب خفية من أسرار التعبير البياني، ومراجعته في هذه الهوامش لا تكاد تُحصر، ومنها المخطوط الذي نسمع عنه فحسب، وقد رأيت أستاذنا الشيخ محمد الطنطاوي - رحمه الله - أستاذ النحو بكلية اللغة العربية، يخصّ عدّة كراسات بنقول علمية من هوامش (نقل الأديب) ويقول: إنها مرجع منقطع النظير.

وكان السبب في كتابة هذه النقول أن الأستاذ النشاشيبي أهدى مئة نُقْلَة مما قرأ إلى صديقه الشاعر الأديب خليل مردم بك، ليستمتع بها ساعة من زمن، فكتب إليه الأستاذ مردم يقول^(١): «كنت أحسب أن هدية الأستاذ (نقل) كاسمها، فإذا هي سحرٌ وخمر ونقل، ذلك أن عنوانها يستدرج القارئ، ويؤهمه أنه نُقْل فكّه ليس غير، وهذا لعمري أوّل أبواب السحر، فإذا جازَ هذا الباب وجد نفسه في روضة فردوسية بين أقداح ونقل، فالنقْلَةُ تُغري بالقدح، والقدحُ يستدعي النقلة، وهكذا دواليك حتى تستخفه نشوة الطرب وتلاعب بنفسه ولغته.

سقوني وقالوا: لا تغنّ، ولو سقوا جبال حين ما سقوني لغنت

فيا ليت شعري كيف يستسيغُ مَنْ حرّم على نفسه الصهباء أن يغوي الناس بالخمير ويفتنهم بالسحر!». فكان خطاب الأستاذ مردم دافعاً للأستاذ النشاشيبي كي يمدّ في أمد هذه النقّلات حتى بلغت كتاباً حافلاً، لم أقرأه مجموعاً، ولكني قرأته مفرداً على صفحات الرسالة^(٢)، وسمعتُ من أخبرني بأنه جُمع، وأن الأيدي تتناقله في شوق وإعجاب! .

(١) الرسالة: العدد ١٩٧، ١٢/٤/١٩٣٧م.

(٢) الرسالة: العدد ١١٧، ٣٠/٩/١٩٣٥.

وأهم أثر تركه الأستاذ هو كتابه (الإسلام الصحيح) إذ دَعَا المؤلف فيه إلى الأخذ بالقرآن بعيداً عن التعصّب المذهبي، وبعيداً عن التأويل الذي يخنج بالنص عن طريقه إلى أمورٍ ملتوية يراها من يخنج بالنص إلى ما يخدم منحاها، وخاض المؤلف في حديثٍ مستفيض عن الزيدية والإمامية، و(المودة في القربى) كما أشار إليها القرآن، وعن رواية الحديث، ونشأة نقابة الأشراف، وعن (نهج البلاغة) ومدى صحة نسبته إلى علي بن أبي طالب كرم الله وجهه، وكلّ هذه نظراتٌ تحتاج إلى غوص وتأنّ، وليس من السهل أن يُحيط الإنسان بها دون سعة اطلاع وبعد نظر، وقد قال الأستاذ محمد كرد علي عن هذا الكتاب: «إنّه وُضع على أسلوب طريفٍ في الوضع، استكثر له المؤلف من المادّة، راجعاً في استقائها إلى الأمهات المعتبرة في الأكثر، مستخدماً الخطابات للتأثير في ذهن السامع وقلبه، ولكنّ خطاياه مدعومة بالنصّ المقبول والشاهد والمثل، وتخلّلها أنواعٌ من البلاغات، وفُصح وشوارد من اللّغة يحاولُ الأديب إحياءها، إذ يعرضها في كلامه، شارحاً لها في أسفل الصفحة». ولم يتجاوز الناقد صدق الرأي فيما قال.

وقد لا يعلم دارسُ النشاشيبي أنه نشأ شاعراً، وأنه نشر كثيراً من شعره في عهد الشباب بمجلة المرحوم خليل بيدس التي كانت تصدر في القدس، ولا أدري لماذا لم يَختفل بجمع ما قال في شبابه! وقد يكونُ غير راضٍ عنه حين تقدّمت به السنّ، ورأى في الشعر الأصيل مذهباً نقدياً يشيل معه ما نظمه من قبل إذا وُزن بميزانه، على أنّه رثى شوقي رثاءً شعرياً، لم ينهج فيه النهج العموديّ، بل جعله شطراتٍ تتوالى بأوزان لا تتحد في مجموعها، وقد عدّه بعض الباحثين بهذا الرثاء في طليعة المجتدين في الشعر، ولكنّ يخيّل إليّ أنّ الأستاذ لم يرض تمام الرضا عما قال في الرثاء، إذ لو نَزَلَ لديه منزلة القبول لحاولَ السير في طريقه، ولكنّه اكتفى بقصيدة مرسلة مفردة، رمى بها في سمع الزمن ليحكم عليها كل قارئ بما يشاء.

لقد صدق من وصف النشاشيبي بأنه أديب العربية، وأنه جدّد عهد المبرد، ووصل ما انقطع من عصور السلف، وبحثنا هذا يرمي إلى تأكيد هذا الوصف، ولعلّي بلغت به بعض ما أريد.

محمد بخيت المطيعي علمُ الإفتاء في عصره

- ١ -

انتهت إلى العلامة الكبير الأستاذ الشيخ محمد بخيت المطيعي - رحمه الله - أمانة الإفتاء في مدى ثلاثين عاماً من أوائل هذا القرن، بعد رحيل الأستاذ الإمام محمد عبده سنة ١٩٠٩، وإذا كان لم يتولَّ منصب الإفتاء الرسمي إلا بعد تسعة أعوام من وفاة الإمام، فقد كان صاحب إفتاء أهليّ - إن جاز هذا التعبير - بين الناس منذ نال شهادة العالمية من الأزهر، ونشر فتاواه الدينية في الجرائد تارة، وفي كتيّبات صغيرة تارة أخرى.

وحين أطلع تاريخ الفقيه الكبير أجِدُّ أنه تعرَّض لهجوم حادّ من كتاب الصّحف، لم ينقطع دَوِيّه، ففي حياة الأستاذ الإمام كان الرجلُ زميلاً له، ولكنه كان يعارضه في اتجاهاته الفكرية، ويضمّ حوله نفراً ممن يطيبُ لَهُمْ أن يُنازعوا المصلح العالم المجدّد، وللأستاذ الإمام شيعته التي تهتف برأيه، وتتناول معارضيه بالنقد، وفي طليعتهم الشيخ محمد بخيت، ثم مضى عهد الإمام، وغلب الاحتلالُ بطائفةٍ ممّن تعلّموا في بلاده، ورجعوا يذعون إلى ما يُخالف الشريعة سِيراً فيما يزعمونه من ركاب التحرّر، وقد وقفَ الشيخ لهؤلاء بآرائه الصادعة، ولهُ جِهارةٌ ومكانةٌ، وسلطةٌ منصب، فاثألوا عليه ناقدين.

وفي الفترة التي تلتَ الحربَ العالمية الأولى كثرَ التهجم على حقائق الإسلام وتاريخه انبهاراً ببريق أوروبا الخادع، وتتبّع المفتي الأكبر ما يقول هؤلاء تزييفاً ونقداً، فشدّوا في الحملة عليه شداً عنيفاً، تركوا مكمن الحوار الفكري، وتعرّضوا لما تخيلوه من مواقف يرونها غيرَ جديرة به، إذ لم يكن نصيراً لحزبهم السياسي، وهكذا اتّصل العداءُ والنقاشُ حول الرجل، ولكن ذلك لم يُزعزع من مكانته، لأنَّ

آراءه تُؤيِّد بالدليل، ولأنَّ العالم الإسلامي جميعه في شتَّى ربوعه من عَرَبِيَّه وأعجمِيَّه يرجعُ إليه فيما يجد من أمور تتصل بالدين، فسيْلُ الخطابات المُنهلة من الشرق والغرب لا يَنْقَطِعُ عن بريده، والرجلُ مجاهدٌ دؤوبٌ يعلمُ أنَّ النكوص عن الإفتاء لَدَى من يملكُ فقهه تقصيرٌ في دين الله، وقد أعدَّ نفرًا من شبَّان العلماء لِيُسَاعِدوه في تسطير الفتوى، حين تكلُّ يده عن التسطير، بل إنَّه وظَّفَ ثلاثة من هؤلاء لهذا الغرض بذاته، لهم أجْرُهُم المقتطع من معاشه.

ومن أَسْفٍ أنَّ الشيخ كان يُرسل الفتوى لطالِبها دُونَ أن يحتفظ بأصلِ لها وقد تَبْلُغُ الفتوى ستَّ صفحات، كما قرأنا بعضَ ذلك عند من نَشروا فتاوى الشيخ المُرسلة إليهم خاصَّةً بالبريد، وأسأل نفسي، لمَ لمَ يحرص الشيخ على تسجيل هذه الفتاوى، وقد بَدَل فيها جهدَ الباحث، وصَبَرَ المنقِب، وضلّاعة المستدلّ، فتكون مرجعاً فقهياً كبيراً يُضاف إلى مجموعة من الفتاوى الخاصّة بكبار الفقهاء في القديم والحديث؟ أسألُ نفسي هذا السؤال، فلا أجِدُ الجواب، غيرَ ما يُوحى به التواضعُ العلمي لدى فقيهٍ مَتَرَنٍ يُقدَّرُ في فتواه الخطأ والصواب معاً، وله أجره عند الله في الحالين، ولعلَّه بذلك يُعطي درساً لنفَرٍ نشاهدُهم الآن يتجرّؤون على الإفتاء دُونَ استعداد، ثم يَطْبَعون ما يذهب صوابه في لجج خطئه، فإذا نَقَدَهُم ناقدٌ تعاووا عليه ناهشين آكلين!.

لقد أحسن الأستاذ أحمد حسن الزيات حين نَعَى الشيخ محمد بخيت المطيعي في عبارة موجزة كدأبه الدائم، فقال في تركيز دقيق:

«في اليوم الثامن من هذا الشهر (أكتوبر سنة ١٩٣٥) استأثرتُ رحمةُ الله بالفقيه العلامة الشيخ محمد بخيت المطيعي مفتي الديار المصريّة السابق، وهو خاتمةُ طبقةٍ من العلماء المحققين، الذين تميّزوا في حياة الأزهر بالتبسُّط في العقائد، والتعمُّق في الفقه، فانتَهتْ إليه الأمانةُ فيهما حيناً من الدهر، كانَ - غفر الله له - من أشدَّ المعارضين لحركة الإصلاح التي قام بها الإمام محمد عبده، ودفعه إلى ذلك شهوةُ المنافسة من ناحية، وتحريضُ أولي السلطان من جهة أخرى، وكان في الشيخ ركانةٌ شاهدةٌ، ودعابةٌ لطيفة، وطموحٌ إلى مساماة الإمام في منصبه ونفوذه وشهرته حرَّكَ فيه الأخذُ بنصيبٍ من الأدب والثقافة العامة، ولعلَّه كانَ أعلمَ أهل جيله بدقائق الفقه

الحنفي، وأبسطهم لساناً في وجوه الخلاف بين أصحاب الشافعي وأصحاب أبي حنيفة».

ولي وقفة يسيرة عند قول أستاذنا الزيات: إن الشيخ قد اندفع إلى معارضة الإمام، وراء شهوة المنافسة، وبتحريض أولي السلطان، فقد يكون هذا مما يُظنّ لدى النظرة العاجلة، ولكنّ المسألة ترجع في صميمها إلى اتجاهين علميين يتنازعان مدى الأحقاب، اتجاه التجديد الوائب، واتجاه المحافظة المتثدّة، فمُلابساتُ الإمام ورحلاته وثقافته المتّسعة دعتُه إلى التجديد عن اعتقادٍ، وقد سدّ بذلك مسدّاً لا يقوم به سواه، وعكوفُ الشيخ بخيت على الكُتب الأزهرية وحدها، وهي على عهده كُتب المتون والحواشي والتقارير قد دَفَعَهُ إلى الانحياز إلى ما قرأ في هذه الكتب، دُونَ أن يمتدّ به النظر إلى غيرها، وكانَ ذلك على عهد الإمام، ولكنّ الشيخ بعد رحيل الإمام أخذَ يتصل بالثقافة المعاصرة قَدْرَ طاقته، وهو ما عناه الزيات في قوله أَنَّهُ حَصَلَ على نصيبٍ من الأدب والثقافة، وقد ارتفعت منزلةُ الإمام لديه بعد وفاته، وكتبَ عنه ما يُنبئ عن تقديره الجَمِّ، كما رأسَ الحفلة الكبرى التي أُقيمت لتأبينه سنة ١٩٢٢ فوقاه حَقَّهُ الصحيح من التقدير، وحينَ أَلَفَ كتابَه (حقيقة الإسلام وأصول الحكم) ورأى الأستاذ علي عبد الرازق يُنْقَلُ عن كتاب (رسالة التوحيد) كلاماً يفسّره على غير وجهه الذي عناه الأستاذ الإمام قال في قوة^(١):

«وكلّ ما نقله من رسالة التوحيد للمغفور له الأستاذ الشيخ محمد عبده رحمه الله قد ساقَه للتَمويه والمغالطة على غير الغرض الذي ساقَ له المغفور له الأستاذ الجليل، وحوَّلَهُ إلى غرضه ليُوهم الناس أنّ له سلفاً صالحاً فيما يقوله، أَلَا وَهُوَ الشيخُ الجليل والأستاذُ الكامل الحجّةُ الشيخ محمد عبده، وما لهؤلاء وللشيخ محمد عبده! وهم ما عاصروه ولا خالطوه تمامَ المخالطة، ولا اجتمعوا معه في درس، ولا أخذوا عنه شيئاً من العلم، وإنما هؤلاء يتشبّهون بكل من اشتهر بالفضل والعلم، وهو بريءٌ منهم براءة الذئب من دم ابن يعقوب». فهذه الشهادة العلمية الصريحة للإمام الحجة تُغني عن كلّ تدليل ..

أما مجلّة الأزهر فقد نعتَ الفقيه الأكبر إلى العالم الإسلامي في كلمةٍ مُعبّرة أَلَمّت بطرفٍ من حياته العلمية الشخصية، وقد قال كاتبها الأستاذ محمد فريد وجدي

(١) حقيقة الإسلام وأصول الحكم (ص ٣٦٦) للعلامة الشيخ بخيت المطيعي، ط السلفية.

عن الشيخ الكبير^(١): «كانت داره ماثبةً للمستفتين والمستفيدين، وكان لا يَنخل على أحدٍ بالفتيا، حتى إذا كان بعيداً عنه تكلفَ له كتابةُ الفتوى وأرسلها إليه بالبريد، وكانت شهرته قد تجاوزت مصر إلى العالم الإسلامي كله، فكانت تردُّ إليه الاستفتاءاتُ تترى في مختلف المسائل، ومنها مشاكل تحتاجُ إلى مراجعاتٍ كثيرةٍ مُضنية، فلا يضنُّ بنفسه عن القيام بها، فيحرّرها ويرسلها للمستفتين، ومما انفردَ به أنه استخدم كتاباً بنقل فتاواه وتولّى إرسالها إلى طلابها في مختلف الأقطار متحملاً مكافأتهم شهرياً، وأجرَ ما يُرسلُ بالبريد من الكتب والرسائل، وقد عُرفَ رحمه الله بالزعامة في علم الأصول، فكان يرجع إليه جلةُ العلماء فيما يشكلُ من مسائله، ويصادفون لديه لكلِّ مشكلةٍ حلاً، كأنها مرّت به من قبل فعالجها، وانتهى إلى ما يَحسُن السكوت عليه من أمرها».

والإشارةُ العابرةُ إلى ما يتكبّد الرجل مالياً من توظيف الكتاب له بأجرٍ شهري، تذكرنا بموقفٍ رائعٍ له، قلَّ أن نجد نظيره اليوم، فقد كان قاضياً كبيراً في محكمة شرعية تختصّ بنزاع على وقفٍ كبير، فأصدرَ الحكم بما اقتنعَ به من رأي، وفرحَ المحكوم له بما نال، فذهب - وهو أميرٌ كبير - إلى الشيخ يحملُ صكاً بمبلغٍ خطيرٍ للشيخ لموقفه القضائي، ولكنَّ الشيخ رمى المظروفَ في وجهه، وصاحَ به: نحنُ نحكمُ بشرع الله، ولا يخطرُ أمثالك لدينا ونحنُ نحكم! . وخرجَ الأميرُ صاغراً؛ هذا موقفٌ ديني باهر يقابله موقفٌ سياسيٌّ للشيخ الأكبر، حين قامتِ الثورة المصرية، واحتدمَ اللهبُ في الأزهر منتقلاً إلى شتى ميادين القاهرة، فأوفدتِ الحكومة الإنجليزية اللورد ملنر للتفاوض معَ الوطنيين، دُونَ الزعماء المعتقلين، فأصدرَ الشيخُ فتواةً بتحريم الاتصال بلجنة ملنر، وذاعتِ الفتوى في الناس، فخابَ سعي اللورد ومعاونوه، واهتزَّ سعد زغلول في معتقله فرحاً، وأبرقَ للشيخ يقول: هذه الفتوى جديرةٌ بأكبر مُفتٍ للإسلام! وللشيخ عبد الوهاب النجار كلمةٌ ضافية مشبعة عن الرجل أشارَ فيها إلى أمثال هذه المواقف، نشرها في مجلة الشبان المسلمين، وليست تحت يدي الآن، فلتقرأ الشبيبةُ أمثالَ هذه المواقف ليجدُوا القدوةَ الحسنة لدى سلفهم الكريم ..

وُلد الشيخ في بلدة (المطبعة) بمحافظة أسيوط سنة ١٨٥٦، فنشأ نشأةً دينيةً

(١) مجلة الأزهر: ٦ / ٥٨٣ سنة ١٩٣٥ م.

حَبَّبَتْ إِلَيْهِ حَفْظَ الْقُرْآنِ وَتَجْوِيدَهُ وَتَعَلَّمَ الْقِرَاءَةَ وَالْكِتَابَةَ، ثُمَّ انْتَقَلَ إِلَى الْقَاهِرَةِ طَالِباً بِالْأَزْهَرِ بَعْدَ أَرْبَعَةِ عَشَرَ عَاماً مِنْ مَوْلَدِهِ، فَطَلَبَ الْعِلْمَ عَلَى أَسَاتِذَتِهِ الْكِبَارِ أَمْثَالِ الدَّمْهَوْرِيِّ وَالْمَهْدِيِّ وَالشَّرِيبِيِّ وَالْمُلَوَانِيِّ، كَمَا ذَكَرَ صَاحِبُ (كَنْزِ الْجَوْهَرِ فِي تَارِيخِ الْأَزْهَرِ)^(١)، وَمِنْ أَسَاتِذَتِهِ الشَّيْخُ حَسَنُ الطَّوِيلِ، وَجَمَالُ الدِّينِ الْأَفْغَانِي، وَأَنَا أَرَى أَنَّ أَثْرَهُمَا قَلِيلٌ فِي نَشْأَتِهِ الْعِلْمِيَّةِ، لِأَنَّ طَرِيقَتَهُ التَّأْلِيفِيَّةَ تَنْحُو مَنْحَى لَا يَتَّفِقُ مَعَ مَشْرَبِهِمَا.

وَقَدْ نَالَ الدَّرَجَةَ الْأُولَى حِينَ تَقَدَّمَ لَامْتِحَانِ الْعَالَمِيَّةِ، وَعُيِّنَ مَدْرَساً بِالْأَزْهَرِ، ثُمَّ انْتَقَلَ إِلَى الْقَضَاءِ بِمَدِيرِيَّاتِ الْقَلْبُوبِيَّةِ وَالْمِيْنَا وَبُورْسَعِيدِ السُّوَيْسِ وَأَسْوَطِ عَلَى مَدَى ثَلَاثِ عَشْرَةِ سَنَةٍ انْتَقَلَ بَعْدَهَا إِلَى تَفْتِيشِ الْمَحَاكِمِ، وَمَا زَالَ يَرْقَى حَتَّى صَارَ رَئِيساً لِلْمَحْكَمَةِ فِي عِدَّةِ بِلَادٍ، وَخُتِمَ هَذَا الْعِلْمُ الْقَضَائِيُّ بِتَعْيِينِهِ مُفْتِياً لِلدِّيَارِ الْمِصْرِيَّةِ سَنَةَ ١٩١٤، وَقَدْ اخْتَارَهُ السُّلْطَانُ حُسَيْنُ كَامِلٍ مِنْ بَيْنِ عِدَّةِ مَرشَحِينَ لَهُمْ كِفَاءُ تُهُمِ الْعِلْمِيَّةِ، وَدَعَاهُ إِلَى مُقَابَلَتِهِ عَقِبَ تَعْيِينِهِ، فَقَالَ لَهُ^(٢): «اعْلَمُوا أَنْكُمْ تُخَاطَبُونَ بِفَتْوَاكُمِ الْعَامَةِ، فَالْتَزِمُوا فِيهَا الصَّرَاحَةَ حَتَّى لَا تَكُونَ مُحْتَمَلَةً لِلتَّأْوِيلِ، وَلِتَكُنْ لَكُمْ أَسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي الْمَرْحُومِ الشَّيْخِ الْمَهْدِيِّ الَّذِي لَبَثَ يَخْدُمُ دِينَهُ أَرْبَعِينَ عَاماً يَفْتِي النَّاسَ فِي أُمُورِ دِينِهِمْ، وَقَدْ تَرَكَ أَثْراً صَالِحاً وَمِثَالاً جَلِيلاً مِنَ الْفَتَاوَى، لَا يَزَالُ رِجَالُ الدِّينِ إِلَى الْيَوْمِ يَرْجِعُونَ إِلَيْهِ فِي الْوُقُوفِ عَلَى الْمَعْضَلَاتِ الشَّرْعِيَّةِ».

وَهَذَا التَّوْجِيهُ مِنْ سُلْطَانِ الْبِلَادِ يَدُلُّ عَلَى اهْتِمَامِهِ بِمَنْصِبِ الْإِفْتَاءِ، وَمَعْرِفَتِهِ السَّابِقَةَ فِي حُلَّةِ الْفَتَوَى مِنَ الْعُلَمَاءِ، وَقَارِئُ الْفَتَاوَى الْمَهْدِيَّةِ مُقَارَنَةً بِفَتَاوَى الشَّيْخِ بَخِيْتِ يَلْمَسُ الشَّبَهَ الْقَرِيبَ بَيْنَ الْإِتْجَاهَيْنِ، لِأَنَّ الشَّيْخَيْنِ الْكَبِيرَيْنِ يَهْتِمَانُ بِالنُّصُوصِ الْمَدُونَةِ لِأَثْمَةِ التَّشْرِيعِ، وَلَا تَكَادُ تَرَى غَيْرَ النَّصُوصِ أَمَامَكَ مُتَابَعَةً، حَتَّى يَجِيءَ التَّعْقِيبُ النَّهَائِي فِي آخِرِ الْفَتَوَى، مَرْجَّحاً رَأْيَا عَلَى رَأْيٍ، هَذَا طَائِعُ الْإِفْتَاءِ الْمُتَقَارِبِ لَدَى الشَّيْخَيْنِ، فَهَلْ يَكُونُ تَوْجِيهُ السُّلْطَانِ لِلشَّيْخِ ذَا أَثَرٍ فِي هَذَا الْإِتْجَاهِ؟.

إِنَّ قِرَاءَةَ مَا كَتَبَهُ الشَّيْخُ بَخِيْتِ قَبْلَ أَنْ يُعَيَّنَ مُفْتِياً لِلدِّيَارِ الْمِصْرِيَّةِ بِأَكْثَرِ مِنْ عَشْرِ سَنَوَاتٍ تَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ يَلْتَزِمُ هَذَا النَّهْجَ مِنْ قَدِيمٍ، فَقَدْ قَرَأْتُ كُتُباً لَطِيفَ الْحُجْمِ تَحْتَ عُنْوَانِ (أَحْسَنُ الْكَلَامِ فِيمَا يَتَعَلَّقُ بِالسَّنَةِ وَالْبَدْعَةِ مِنَ الْأَحْكَامِ) وَقَدْ طُبِعَ بِمَطْبَعَةِ

(١) كَنْزُ الْجَوْهَرِ، لِلشَّيْخِ سَلِيمَانَ الْحَنْفِيِّ: ص ١٧٣.

(٢) الْكَتْرُ الثَّمِينُ: ص ٥١.

الشعب سنة ١٩٠٣، وكان الأستاذ عضواً بالمحكمة الشرعية العليا إذ ذاك، قرأت هذا الكتيب فوجدتُ المنهج في الماضي لا يختلفُ عن المنهج فيما بعده، حيث أجاب الأستاذ عن أسئلة وصلته من الشام خاصةً بمعنى البدعة، وهل تكونُ منها قراءة سورة الكهف، ورفعُ الصوت بالأذان يوم الجمعة، ورفعُ الصوت في الجنازة، فأجاب الأستاذ بما شفى الصدر حقاً، فارقاً بين البدعة اللغوية والبدعة الشرعية، ومستنداً إلى نصوصِ الأثبات من العلماء، وإن كانت اللُّغة بين الضيق والكراسة بحيثُ كانَ الموقف يحتاجُ إلى بسط، ولأصحابِ هذه الطريقة عذرُهم إذ يعلمون أنهم في الفتوى يفتنون قانوناً، لكلِّ جملة فيه معنى، ولكل لفظٍ حدًّا لا يخرج عن مدلوله! فالإيجازُ - في منطقهم - أولى وأسدّ، ولكن أكثر كتبِ السابقين - قبل عهود الحواشي - ذاتُ بسط وإشباع، وما راجَ كتاب الإحياء للإمام أبي حامد الغزالي هذا الرواجَ إلّا لتدققه في بسط الأحكام، وإقناعِ القارىء بما يشفي غلته من البيان المستطاب.

أعلمُ أن احتجازَ الكاتب وراء النصوص المتتالية قد يدلّ على اختفاء الشخصية، وذلك واقعٌ في البحوث الأدبية، أمّا البحوث العلمية فلها وضعٌ آخر، لأن هذه النصوص لم تأتِ عفواً، ولكنها جاءت وراء تتبع واستقصاء، إذ قامَ الباحث بقراءة نصوصٍ غيرها، ثم اختارَ ما اطمأنَّ إليه من قوة الدليل، وهذا الاختيارُ المنتخبُ من عشرات النصوص يدل على جهدٍ مستتر لا يدركه غيرُ من كابدَ التأليف العلمي في جوانب كثيرة من فروعه.

يقول الأستاذ عباس العقاد بصدد حديثه عن مؤلفات الأستاذ مصطفى عبد الرازق^(١): «ومن خَبَرِ الكتابة التاريخية وعَرَفَ انتقاءَ الشواهد والأمثلة، فهو خليقٌ أن يعرفَ أن الانتقاءَ من الشواهد الكثيرة، لا يأتي بغير ميزان مستقل يعتمد عليه المؤلف في اختياره وترتيبه، فكتابٌ مثل (التمهيد لتاريخ الفلسفة الإسلامية) كان يمكن أن يتضمّن عشرةً أضعافِ الشواهد التي اشتملَ عليها، ولا يحسُّ القارىء بها أثراً للترتيب والدلالة المفيدة، ولكنه تضمّن هذه الشواهد دون غيرها، لأنّها أقربُ إلى مقياس المؤلف وميزانه، وأدلّ على وجهته وحكمه، وأنفع لمن يريد

(١) مجلة الكتاب (ابريل سنة ١٩٤٧).

المراجعة والاستناد، ومن هنا كان القارىء لا يحس شخصية المؤلف مُقحمة بين السطور».

قد أكون أطلت في هذه الفكرة بعض الشيء، وذلك شيءٌ تعمّده لأنّ بعض ناقدَي آثار الشيخ بخيت المطيعي قد خاضَ فيها خوْضاً دُونَ تأمُّل، ومن هؤلاء الأستاذ محمد كرد علي، حينَ قال في مقال تحت عنوان (القول في تأليفنا)^(١):

«يتذوّق أكثر المتعلّمين اليومَ البلاغة، ولذلك لا يرضيهم من المؤلف أن يكتب موضوعه كما اتفق، بل يرغبون أن يصوغه في قالب مقبول، ويعرضَ عليهم زبدة مما مَحَصَّ وحقق، مثال ذلك كُتِبَ الشيخ محمد بخيت، وكُتِبَ الشيخ أحمد إبراهيم في الفقه، فالأولُ على جلالته قدره في هذا الفنّ لم يكتب لمصنفاته القبول كما كُتِبَ لمصنفات الشيخ الثاني، وذلك لأن الشيخ بخيت لم يُرزق من نعمة البيان ما يؤهّل كتبه للاستحسان عند العارفين، ونالت مصنفات الآخر موقعاً من النفوس لما كُتِبَ به من طراز جميل».

واستطرّد الأستاذ كرد علي فيما يُشبه هذا القول، وأنا لا أنتقصُ كُتِبَ العلامة الكبير الشيخ أحمد إبراهيم رحمه الله، فإنّها في الذروة، ولكنّي أقول: إن الرجل الكبير كان يكتب محاضراتٍ لطلبة كلية الحقوق، وطلبة الدراسات العليا بها، فاضطرّ إلى نظامٍ خاصٍّ يلائم المنهج الجامعي، أما الأستاذ الشيخ بخيت المطيعي فيكتبُ للخاصّة والعامة معاً، ولا يلتزم نهجاً جامعياً، وإذا كانت النصوصُ الفقهية تتوالى في آثاره على نحو ما أشار الأستاذ العقاد متحدّثاً عن آثار الأستاذ مصطفى عبد الرازق فإنّ هذه النصوص في صميم الصميم من الموضوع، وأذكرُ أن الأستاذ محمد كرد علي قد ملأ كتابه عن (الحضارة العربية) بجزأيه الكبيرين بنصوص كثيرة من المحدثين والقدماء شرقاً وغرباً، بحيث لو جرّدت الكتاب من هذه النصوص لم يكذّ يبقَى منه شيء، وما قال قائل: إن النصوص المتوالية قد أضعفت الكتاب، هذا وهو يكتبُ في موضوع اجتماعي حضاري، لا في مسائل فقهية ذات دقّة وتركيز، الحقُّ أن الرجل الكبير قد ظلم الشيخ حين نقده، وفي صفحاتٍ أخرى من كتابه (أقوالنا وأفعالنا) أشارَ إليه تعريضاً على وجه الانتقاص^(٢)، وهاجَم غيره من

(١) أقوالنا وأفعالنا، للأستاذ محمد كرد علي: ص ٣٩٣.

(٢) أقوالنا وأفعالنا: ص ٥٩.

الفضلاء، وهو مما يجعلنا نبحث عن سبب في ذلك! إلا أن السياق العام للموضوع لا يقتضي هذا الشرود.

هذا وللشيخ بخيت محاضرات عامة ألقاها في الجمعيات الإسلامية، لم تكن تعتمد على كثرة النصوص، لأن لكل مقام مقالاً، والذي يحاضر في موضوع عام يطرد فيه القول أطراداً دون كثرة استشهاد، لا يُعوزُه أن يجعل تأليفه كمحاضرته لو أراد، ولكنه في المحاضرة أقرب إلى الخطيب، فهو يزعم مواقف التأثير، ونواحي الإمتاع، كما يزعم مواقف التدليل ونواحي الإقناع، كما أنه في البحث يُحاول أن يستند إلى نصوص يظنها ملزمة، كيلا يقوم متسرع فيرميه بالشطط، ومع هذا الاحتياط الكبير، فقد رُمي بالشطط حين ألقى محاضرة (عن نظرية داروين) فقال ناقدوه: ما للشيخ وداروين؟ ونسوا أنه يتعرض للذود عن الإسلام في أصل من أصوله، لأن أشياغ هذه النظرية ظلّوها هذماً للاديان جميعاً ومن بينها الإسلام! أفيست مفتي الإسلام عن إبداء رأيه فيها؟.

ألف الأستاذ الشيخ محمد بخيت المطيعي كتباً كثيرة منها (إرشاد الأمة إلى أحكام أهل الذمة) وهو كتاب ينصف الإسلام ممن أشاعوا عنه التعصب والعداء لغيره ظلماً وبهتاناً، وكتباً شتى تتحدث عن الإساء والمعرّاج، والوقف والطلاق مما اهتم به معاصروه، وأثاروا حوله نوعاً من النقاش، فحاول الشيخ أن يبدي رأيه على طريقتة الخاصة، في جمع الأسانيد والاستشهاد بالنصوص، أما أثره الأهم الأبقى فهو ما سجّله من فتاوى فقهية، جمعت وزارة الأوقاف بعضها في المجلّدات الأولى من سلسلة الفتاوى الإسلامية، ونشرت المجلّات الإسلامية بعضاً منها، وتفرّق بعض ثالث لدى من أرسلت إليهم الفتوى في رسائل خاصّة!.

وحين أعرض لما قرأته من هذه الفتاوى أقف عند بعض الجديد ممّا كان نادراً في بابهِ، لأنّه يدلّ على سعة النظر، وصواب الرأي، وفي طليعة ما أشير إليه فتواه الخالدة، حين سأله وزارة المالية بتاريخ ٢٥/٢/١٩٢٠ عن عريضة مرفوعة من امرأة فقيرة لا تملك شيئاً وليس لها قريب ما يستطيع أن يعولها مع تقدّم السنّ، وضعف البنية، وهي تطلب من الدولة نفقة شهرية باعتبارها مواطنة مصرية؛ فدّرس الشيخ الكبير الموضوع من جوانبه الفقهية، وقوّاه بالسند القانوني، حين ذكر أن بيت المال (وزارة المالية) تُجبي الأموال من مرافق مختلفة حدّها بالاسم، ومنها

التركات التي لا وارث لها أصلاً، أو لها وارث ويبقى شيء من التركة، وهذا النوع على المشهور من المذاهب يُصرف للفقراء الذين لا أولياء لهم، ومصرفه لكل عاجز عن الكسب، ومتى كانت المرأة فقيرة محتاجة وليس لها عائل كان الحق لها أن تأخذ من مصارف الخراج الخاص بالأراضي الزراعية، ومن ضرائب الجمارك، ومن التركات التي لا وارث لها، فيجب على الحكومة أن تُعطيها الكفاية من مرفقي الضرائب أو التركات»^(١).

ولم تكن الحكومة متوقعةً هذا الرد الحاسم، فأبطأت في التنفيذ، ولكن ما أثاره الشيخ الأكبر قد أحدث صداه لدى بعض القضاة بالمحاكم الشرعية، يقول المحامي الكبير الأستاذ عزيز خانكي مشيراً إلى قضية مماثلة رَفَعَتْها سيدة مريضة متقدمة في السن تطالب الحكومة بالنفقة عليها بعد أن عجز عائلها وتقطعت عنها أسباب الرزق، يقول الأستاذ خانكي^(٢): «والواقع أن القضية رُفِعت سنة ١٩٢٠ أمام محكمة نجع حمادي الشرعية، فحكمت المحكمة بتاريخ ١٢/٤/١٩٢٠م برياسة فضيلة الأستاذ الشيخ محمد فرج السنهوري (وزير الأوقاف وعضو مجمع البحوث فيما بعد) بإلزام وزير المالية باعتباره والي بيت المسلمين بأداء النفقة التي فرضتها المحكمة، على أن يكون المفروض إلى المدعية ديناً على زوجها يرجع به وزير المالية إليه». هذا ما قرره الأستاذ السنهوري متأثراً بفتوى المرحوم الأستاذ الشيخ بخيت، وقد أراد بالرجوع إلى الزوج احتمالاً لغناه فيما بعد، لأنه فقير عاجز لا يملك شيئاً، وذلك تخفيفاً لوقع الحكم على المسؤولين، ومع ذلك فقد عارض التفتيش القضائي الشرعي حكم الأستاذ، وأرسل مذكرة إلى المحاكم الشرعية بعدم سماع مثل هذه الدعاوى لأنها غير ملزمة! وكلمة غير ملزمة مما يحار أمامها العقل، فالمدعية فقيرة مريضة، وللدولة عليها حق الرعاية، وباب النفقة حدده الشيخ بخيت، وحصره في ضرائب الأرض والجمارك، والتركات التي لا وارث لها! والمحكمة شرعية لا أهلية، فكيف يحدث هذا؟.

وبعد أكثر من عشرين عاماً، وفي أثناء الحرب العالمية الثانية، ظهر ما يسمى بمشروع (بيفردج) الخاص بالتأمين الاجتماعي في بريطانيا، وبه نص يُقر حق

(١) تراجع الفتوى بالمجلد الأول من مجموعة الفتاوى الإسلامية (ص ٣٠١ وما بعدها).

(٢) مجلة الثقافة: العدد ٢٢٥، ٢٠/٤/١٩٤٣م.

الفقراء والعجزة والضعفاء في مال الدولة، إذ لا بدّ من رعاية حقّ كل مواطن، وقامّ الكاتبون في مصر يتحدّثون عن إنسانية المشروع، وأنّه سبق ظافر لمدينة الغرب، فهل علّم هؤلاء، فتوى الشيخ محمد بخيت، وحُكّم الشيخ محمد فرج السنهوري! قبل أن يشيدوا بحضارة غربيّة، لم تصلّ إلى ما وصلنا إليه منذ ظهر الإسلام في الوجود!.

وحين قامت الشيوعية رسمياً بنجاح الثورة الروسية سنة ١٩١٧، وُجِدَت كُتُبٌ خاصّة تشيد بمبادئها، وتُعلن أنّها الحلّ النهائي لمشكلات العالم أجمع، ورأى مفتي الديار المصرية الشيخ محمد بخيت أن يُعلن رأيه استجابةً لأسئلة المصريين، فكتب فتواه مصدّرةً ببحث تاريخي^(١) عن شبيه هذه الدعوات في فارس حين نادى المجوسيّة لفترةٍ ما، بإباحة الأموال والأعراض للجميع، فعجلت بانتشار الفوضى في ربوع فارس لأمدٍ غير قصير، حتّى جاء الإسلام، فنظّم العلاقات الاجتماعية، وشرّع العقود الناقلة للملك من هبة وبيع ووصيّة، وبيّن الموارث وحدّد لكلّ وارث نصيبه المعلوم، وبيّن أنّ الله هو الذي ييسط الرزق لمن يشاء ويقدر، وجاءت خطبة حجة الوداع دُستوراً إنسانياً يحمي الحرمات ويحفظ الحقوق، وبعد أن أفاضَ الشيخ في تقرير هذه الحقائق بأدلة حاسمة يقرؤها المسلمون في كتابهم، ويرون تطبيقها في سير الصحابة ومن تبعهم بإحسان. بعد ذلك كله قرّر أنّ الفلسفة تهدم الشرائع السماوية، وتجعلُ الناس فوضى في معاملاتهم، فهم يهدفون إلى هدم الكيان الاجتماعي، ويحرّضون الطبقات الفقيرة، لتثير حرباً عواناً على كل نظام اجتماعي يستند إلى قواعد الفضيلة والأدب، وإذا كان هؤلاء لا يعتقدون في شريعة من الشرائع الإلهية، ولا يعتقدون ديناً سماوياً، فهم كافرون.

وحين نشر الأستاذ فتواه الصريحة، صاحَ الصائحون: ما للشيخ بخيت والحكم على المذاهب الأوروبيّة، ولماذا لا يحصر نفسه في نطاق الإسلام؟ كما صاحوا بالرجل من بعد حين هاجم الأسطورة الدّاروينيّة، وعدّوه يتكلّم فيما لا يعرف! وقد نسي هؤلاء أنّ الرجل هو المفتي الرسمي للبلاد، وأنه سُئل عن رأي الإسلام في أمورٍ قد انتقلت عداوها من الغرب إلى الشرق! وإذا كان المستشرقون يحكمون على الإسلام زوراً وبهتاناً في كثير مما يكتبون، ولا يقول لهم أحد: إنكم تتكلّمون عن

(١) الفتاوى الإسلامية: ١٣٦٧/٤ وما بعدها.

الشرق، وأنتم غرباء عنه، بل تُقابل كتاباتهم عند ذبولهم بمنتهى الإجلال والتوقير، وكأنّها حق لا مرية فيه! إذا كان المستشرقون يفعلون ذلك، ولا يجدون مَنْ يقول لهم: إنكم تتجاوزون الحق في أكثر ما تكتبون، أفئلام عالم الإسلام حين يرى من يُحاول أن يهدم أسس دينه القويم، ويُعدّ فضولياً لأنّه دفع المنكر بما يستطيع!!.

وقد كان الشيخ متشددّاً في فتواه في أمورٍ قد لا تقتضي هذا التشددّ، فقد سُئل عن حكم تشريح الميت بعد وفاته، فكتب عدّة صفحات تتضمّن نقولاً عن ابن قدامة وشارحه، وعن المذهب لأبي إسحاق الشيرازي، وعن شارحه الإمام النووي في المجموع، وعن ابن حجر والطبيي، وعن ابن الهمام وابن الملك منتهياً إلى ما قرّره في قوله:

«من هذا يُعلم أنّ الميت في وجوب احترامه، وعدم إهانته كالحَيّ سواءً بسواء، فإذا مات لا تجوز إهانته بعد موته، كما لا تجوز إهانته في حياته، وإن اختلف العلماء في الشقّ وعدمه في مواضع، لكنّ الذي يُؤخذ منهم جميعاً هو وجوب احترام الإنسان حيّاً وميتاً، وبناءً عليه فلا يجوز شقّ بطن أي ميت كان، إلّا في المواضع المتقدّمة، وأن التشريح الذي من لوازمه شقّ البطن بلا سبب سوى بحث الأعضاء ومعرفة وظائفها وما بها من الأمراض، فهذا لا يسوغ ولا يُجيز فتح بطن الإنسان بعد موته، ويمكن الوقوف على وظائف الأعضاء بواسطة فتح بطن حيوان آخر غير الإنسان، ولأنّ كل الحيوانات متساوية في وظائف الأعضاء الحيوانية»^(١).

وهذه الفتوى فريدة بين فتاوى أخرى لأعلام من المعاصرين، تُجيز ما حرّمه الشيخ بخيت من تشريح الميت لمعرفة وظيفة العضو، وسبب مرضه وصحته، ومنهم الأستاذ يوسف الدجوي، وقد أشرتُ إلى قوله فيما كتبتُه عن ترجمته من قبل، ومما قاله بهذا الصدد: «ومن نظر إلى أنّ التشريح قد يكون ضرورياً في بعض الظروف، كما إذا اتُّهم شخصٌ بالجناية على آخر، وقد يبرأ من التهمة عندما يُظهر التشريح أنّ ذلك الآخر غير متهم، وقد يُجنّى على رجل ثم يُلقى بعد الجناية عليه في بئرٍ بقصد إخفاء الجريمة، وضياع الجناية، إلى غير ذلك مما هو معروف، فضلاً عما في التشريح من تقدّم العلم الذي تنتفع به الإنسانية كلها، وينقذ كثيراً ممن أشفى على الهلكة، أو أحاطتْ به الآلام من كل ناحية، فيأتيه الموت من كل مكان، وما هو

(١) مجلة الأزهر: المجلد السادس، سنة ١٩٣٥ ص ٦٣١.

بميت، ممّا لا داعي إلى الإطالة فيه، مَنْ نظَرَ إلى ذلك الإجمال، وما يتبعه من التفصيل لم يسغه إلا أن يُفتيَ بالجواز تقديماً للمصلحة الراجحة على المفسدة المرجوحة^(١).

وقد هبّت فتنة بين بعض المنتسبين للعلم وليسوا من أصلائه، حول تفضيل صاحب مذهب فقهي على إمام مماثل، وبادر بعضهم بطبع كتاب يُسمّى (مغيث الخلق في ترجيح القول الأحق) يُنسب إلى الإمام أبي المعالي الجويني، وفيه سبٌّ صريحٌ وافتيات منكر على الإمام أبي حنيفة، وكان الشيخ بخيت حينئذٍ في مرضه الأخير، حيثُ لقي ربه بعدَ أمد قريب، منذُ تصدّر لقمع هذه الفتنة الباغية، فقد أرسلَ إليه من يظنّ أن الرجل الكبير سيكيل بالصاع صاعين لمن شاقّ أبا حنيفة، بل لصاحب المذهب الذي ينتسب إليه الجويني، وهو الإمام الشافعي، وخاصةً ما جاء بالكتاب من أنّ أبا حنيفة قليل البضاعة في علم الحديث، ولكنّ الرجل الكبير والإمام الحجّة البصير، ألقى درساً كبيراً في صفحات متتالية في وجوب احترام الأئمة جميعاً، وقال في خاتمة حديثه:

«إذا تقرّر هذا فمذهبُ أبي حنيفة ومذهب غيره من الأئمة سواء، ولا يمكن لأحد من المجتهدين أن يعتقدَ أن مذهب غيره خطأ لا يحتمل الصواب، وأن مذهبه صواب لا يحتمل الخطأ، وإلاّ لكانَ مذهبُ هذا المجتهد بمنزلة كلام المعصوم الذي لا يخطئ، وليسَ هذا في وسع بشر سوى الرسل عليهم السلام، فلا وجه إذن لتخصيص مذهبٍ وتفضيله على مذهب آخر، وعلى هذا إما أن يكون ما ذكر في الكتاب (مغيث الخلق) مدسوساً على الإمام الجويني إمام الحرمين، والرجل بريء منه، وهو أكبر الظن عندنا، وإما أن يكون صحيحاً، وهو يناقض آراءه ونُقوله التي ذكرها في البرهان وغيره، ولو أردنا تقصّي كل ما جاء في سؤال السائل مما دُكر في الكتاب لوجدنا له ردّاً، وأقمنا له من الحقّ ضدّاً، ولكننا نكون بذلك قد خضنا متعصّبين لمذهبنا، مفضّلين إمامنا، فنقع فيما وقع فيه إمام الحرمين، وما أريد بهذه العجالة إلا أن ألفت نظر السائل الباحث، وجميع المسلمين، إلى وجوب الاعتقاد بأن الأئمة الأربعة كالحلقة المفرغة، لا يُدرى أين طرفاها، وأنهم من الكمال وعناية

(١) مجلة الأزهر: المجلد السادس، سنة ١٩٣٥ : ص ٤٧٣.

الله بهم بحيث لا يقاس عليهم غيرهم»^(١).

فهذا الموقف من إمام كان لا يوقع مقالاته بغير (محمد بخيت المطيعي الحنفي) يدل على نصفه تامة، ويصور خُلُقاً نبيلاً يجب احتذاؤه، وقد لاحظت أنه لا يجزم بعدم نسبة الكتاب (مغيث الخلق) إلى الإمام أبي المعالي الجويني بل يرجّح ذلك، أما أنا فأجزم بعدم النسبة لأمر واحد، أخذته من كلام الشيخ بخيت نفسه، وهو أن الآراء الفقهية المدونة في (مغيث الخلق) تخالف آراء أبي المعالي التي ذكرها في كتبه المختلفة ومنها كتاب (البرهان)، أليس هذا دليلاً على أن مُغرضاً من ذوي التعصب كتب الكتاب، ثم نسبهُ إلى كبير من أئمة فقهاء الشافعية ليلقى الرواج! والكتب المنحولة أكثر من أن تُدرج تحت حصر في شتى فروع المعرفة، ومثل الجويني لا يجهل قدر إمام كبير كأبي حنيفة النعمان.

ولا أترك هذا المقال دون أن أشير إلى كتاب (حقيقة الإسلام وأصول الحكم) الذي ردّ به الشيخ بخيت على كتاب (الإسلام وأصول الحكم) للأستاذ علي عبد الرازق، فقد أبان هذا الكتاب عن ثقافة متشعبة الفروع لدى الفقيه الكبير، وإذا كان تفضّله الوثيق في علمي الفقه والأصول ممّا يشهد كل قارئ لمؤلفاته وتحقيقاته، وبخاصة فيما كتبه تعليقاً على شرح منهاج الأصول للعلامة الأسنوي بمجلداته الثلاثة الكبار، فإن كتاب (حقيقة الإسلام وأصول الحكم) قد جمع بين علوم الفقه والأصول والتاريخ والسياسة والاجتماع بما أصبح به فريداً في مؤلفات الأستاذ الكبير.

وقد اطّرد به الحديث في فصول عدّة أطراداً يدل على تدقّق الخاطر، وسلاسة اليراع، ففي الباب الأوّل مبحث شافٍ يُثبت أن المسلمين كانوا أوّل من جهر بأنّ الأمة مصدر السلطات، وهي عبارة حرص الشيخ على تسجيلها بدستور سنة ١٩٢٣ المصري، وقد كان من أبرز الأعضاء الذين قاموا بتدوينه، كما كان أوّل من سجّل بهذا الدستور أنّ الإسلام هو الدين الرسمي للدولة، فأذعن له الأعضاء عن طواعية وترحيب، وفي الباب الثاني ردّ على من أنكر وجوب الخلافة، ناقضاً ما تورط فيه الأستاذ عبد الرازق من شبه يحسبها أدلة، وهي فقاعات تتطاير في الهواء، ثم مضى الحديث العلمي القويم متتابعاً في فصول الكتاب، وقد بلغ أكثر من أربعمئة

(١) مجلة الإسلام: السنة الرابعة سنة ١٩٣٥ م.

وخمسين من الصفحات، ليعرضَ المقرّر المعلوم في كتب الأصول عن الإجماع، وحال القضاء في زمن الرسالة، والوظائف والعمالات، وما يُضاف إلى الإمامة العامة من مُلحقات كالوزارة والحجابه، ومَغزى رسائل الرسول ﷺ إلى الملوك، وبَعَثاته المتكرّرة إلى القبائل دعوةً للإسلام وتحجيباً في الصلح وإعطاء الأمان، فإذا وفّى حديث الرسالة في عهد الرسول حقّه، تكلمَ بإفاضة وإشباع عن عهد أبي بكر والتزامه بما بدأ به الرسول باسطاً مجالَ القول في الجهاد وضرورته، ومبيّناً عثراتِ التناقض فيما بدا في كلام الشيخ علي عبد الرازق.

ومنْ أنفسي فصول الكتاب ما دَحَضَ به الرأي القائل بأنّ شريعة الإسلام مقصورةٌ على الأمور الدينية، وهي دعوى كاذبةٌ يردّها العلمانيون بغياً دون حق، لأنّهم ما قرؤوا القرآن وعرفوا ما به من آيات السياسة والجهاد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر امتثالاً لحكم الله! وإذا ارتكز المؤلف المنقود على زعمه أنّ الشريعة الإسلامية روحيةٌ محضة لا علاقة لها بالحكم والتنفيذ، فقد عَصَفَ الشيخ بكل ما قاله في وضوح ساطع لا يقبل المراء، وكذلك ما قرّره في دحض ادعائه بأنّ الخلافة ليست من الخطط الدينية وأنها نظامٌ عتيق يجبُ أن يهدم!.

هذا الكتاب الجليل مضافاً إلى كتابي الأستاذين محمد الخضر حسين، ومحمد الطاهر ابن عاشور - وقد برّزاً فيما كتباه خيرَ تبريز - معاوُلٌ هدم لكلّ افتراء على حقيقة الحكم في الإسلام، ولو كانتِ النفوسُ تميلُ إلى الحقّ لوجه الحق حين ترى الدليل الساطع كالقمر المتألّق في السماء ما كان لهذا الهراء الذي بدأ به الأستاذ علي عبد الرازق وامتدّ إلى الآن كيانه ينهض به، ولكن الغرضَ يُعْمِي ويصمّ، لدى قوم يخافون من شريعة الإسلام أنّ تأخذهم بما يُخطئون، وذاك هو السبب الأصيل.

هذا بعضُ ما يُقال عن الشيخ الكبير، أكثبه مستمطراً عليه سحائب الرحمة، ولا أزالُ أذكر ما قاله شاعر السودان الأستاذ عبد الله عبد الرحمن في قصيدة عامرة نشرها بالرسالة غِبَ وفاته:

وأودى المُطيعي حُجّةَ الله في الورى فغابَ به كنزٌ من العلم قيّم
مضى يملأ الدنيا علوماً وحكمة فويلي على ركن الهدى يتهدّم

وقد صدق فيما قال.

كُتِبَتْ مقالاً ضافياً عن الأستاذ الكبير محمد بخيت المطيعي بمجلة الأزهر عددي شعبان ورمضان من سنة ١٤١٦ هـ، تحدّث فيه عن جهوده العلمية، ونشاطه الوطني الصادق، ولكنّ الذين لا يُحبّون أن يُحمد لأعلام الإسلام فضلٌ في مقاومة الباطل، وإظهار الحق أو عزّوا لمن يكتُب في صحفهم الحمراء أن ما قلّته عن جهاد الشيخ السياسي مُلقَق لا أصل له، ولم يُشر إليه من كتبوا تاريخ الثورة المصرية، وكلمة «مُلقَق» هذه تحملُ معاني لا يعرفها صاحبُ هذا القلم الجادّ، فما كان الحديث عن أسماء لامعة وأحداث شهيرة، ووقائع مدوية ممّا يجوزُ فيه التلفيق، ولكّتهم كتاباتهم المُغرّضة قد عرّفوا هذا التلفيق فيما اخترعوه من بطولات زائفة، وأساطير موهومة، فظنّوا أن من يكتب التاريخ على وجهه الصحيح يخترعُ كما يخترعون، ويلفّق كما يلفّقون.

وإذا كان بعض من كتبوا تاريخ الثورة المصرية قد تَجاهلوا هذه المواقف الرائعة، فلا تُهمّهم اهتموا بمواقف الزعماء من رجال الأحزاب التي ينتمون إليها، أما الحقُّ لوجه الحق وحده فلا يُسطّره غيرُ الفضلاء الأماثل، ممن يعلمون أن كتابة التاريخ شهادة أمام الله، يُحاسِب عليها الكاتب يوم يقوم الناس لرب العالمين، ومن هؤلاء فضيلة الأستاذ الكبير الشيخ عبد الوهاب النجار، أستاذ التاريخ الإسلامي بالجامعة المصرية والأزهر الشريف، إذ كان يكتُب تاريخ الثورة المصرية يومياً على صفحات البلاغ تحت عنوان (الأيام الحمراء) فهو مؤرخ معاصر للأحداث يتحدّث عن مشاهدة وعيان، ويصف عن يقين لا يتطرّق إليه الكذب، ما شاهدته وسمع به، وكان يكتب اليوميات معزّدة عن التحليل السياسي، ليضع المادة السياسية في أيدي المحلّلين، وذلك أولُ طريق التدوين الصحيح.

وقد قلت: إن الرجل أستاذ التاريخ الإسلامي، ومعناه في المنطق الإسلامي الواضح أن اختصاصه يمتد إلى هذا العصر، لأننا بحمد الله نعيش في عصر الإسلام، والفرقة الاستعمارية التبشيرية في تجزئة التاريخ الإسلامي إلى عهدين، عهد ينتهي بدخول الحملة الفرنسية، وعهد يبتدئ بوجودها إلى الآن، ويسمّى تاريخ العصر الحديث، هذه الفرقة باطلة باطلة، فكلُّ ما يقع الآن، وما وقّع من لدن ما يسمّى

بتاريخ العصر الحديث هو تاريخُ الإسلام فعلاً، وقيامُ الثورات في وجه الاستعمار ببلاد العرب وآسيا وأفريقيا، هو في صميمه من تاريخ الإسلام، إذ قامَ به مسلمون مخلصون، وحربُ فلسطين صفحةٌ من صفحات التاريخ الإسلامي، فالذين يحاولون أن يفصلوا التاريخَ المعاصر عن التاريخ العام للإسلام ماكرون خادعون، والله من ورائهم محيط .

أتقدمُ بهذه التوطئة، لأنقلَ ما كتبه الأستاذ الكبير عبد الوهاب النجار بمجلة الشبان المسلمين في العددَين: الأول والثاني (محرم وصفر سنة ١٣٥٥م)، الموافقين (إبريل ومايو سنة ١٩٣٦م) حيثُ نشرت المجلة خطبته الضافية التي ألقاها في حفلة تأبين المرحوم الأستاذ الشيخ محمد بخيت رحمه الله، فتحدث عن جهوده الضافية في حقلي السياسة والدين، وقد أشرتُ إلى هذه الخطبة في مقالي السابق، ولم يُح لي أن أرجعَ إليها حين دَوَّنتُ ما كتبت من قبل، فلما جُوبهت باعتراض الكاتب اضطررتُ إلى البحث عن الأصل الذي وَعَيْت بعضه بذاكرتي دون أن أقرأه مُجدداً، ووفقني الله، فرأيتُ الخطبة مدونة بالعددَين المشار إليهما، وقد حَوَتْ ما لم أشر إليه، فكان الله عز وجل شاء لتاريخ الشيخ أن يكتبَ بكامله، فأوجد مَنْ يعترضُ، ليدفعني إلى استكمال ما فات! وقد صدق الله عز وجل حين قال: ﴿ إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهُدُ ﴾ [غافر: ٥١] .

حين انتهت الحرب العالمية الأولى بعد أن ضحَّت مصرُ في ظلِّ الأحكام العسكرية بأبنائها وأقواتها، ومواقعها الاستراتيجية في سبيل نُصرة الحلفاء رجاءً أن تُمنَح استقلالها بعد الحرب، وقد بدتْ بارقةُ الأمل في تصريح الرئيس ولسن رئيس الولايات المتحدة الأمريكية، حين أعلنَ أنَّ لكل دولة الحق في تقرير مصيرها . حينَ ذلك بدأ سعد زغلول حركته السياسية مطالباً بانتهاء الحماية على مصر، وقد خُطب في محفلٍ زاهر بالوطنيين يُعلن بطلان الحماية، لأنَّها من طرف واحد لم تُستشر فيه مصر، وأوجدَ إجماعاً تاماً على المناداة بالاستقلال، وتألَّف الوفد المصري برئاسة، فعارضتْ بريطانيا الحركة الوطنية بقوتها المسلَّحة في مصر، ووقفتْ سداً أمام تظاهر الوطنيين تحت زعامة سعد، وفي أثناء ذلك، عُقد اجتماعٌ بالأزهر، يؤيد موقف سعد، ويُطالب رئيسَ الوزراء بالاستقالة، إذا لم تُجب المطالبُ الوطنية جميعها، وذهبَ الأستاذ الشيخ محمد بخيت على رأس جماعةٍ من

الوطنيين لمُقاابلة حسين رشدي باشا، ليلبغه بقرار المجتمعين في الأزهر، فَوَجَدَ منه كلَّ قبول وارتياح، ورأى الشيخ بخيت أن يُقابِلَ جميع السَّفراء في مصر ليلبَّغهم قرار الوطنيين، وقد طَبَعَ منه عدَّة صور، لتكون الدَّولُ جميعها عارفةً بما تنويه مصر من الجهاد في سبيل الاستقلال، فكان وُجود الشيخ بخيت على رأس الدَّاعين إلى الجهاد سبباً في احترام المسؤولين بالمفوضيات لصدقِ هذه الحركة، وتمتَّعها بالتأييد الشعبي، بتوجيه مفتي البلاد.

ثم تطوَّرت الأحداثُ، وسقط الشهداء في كلِّ مكان تحت رصاص الإنجليز، واعتُقل سعد ورفاقه في منفاهم البعيد، ولكنَّ الثورة تزدادُ لهيباً، ورأت إنجلترا أن تُوقِعَ الشَّقاق بين عُنصري الأمة، فأخفقتُ، لأن منبرَ الأزهر كان مذباعاً يخطب فيه الشيوخ والقُسسُ معاً تحت لواء واحد، هو لواءُ الاستقلال، ورأت إنجلترا أن تُرسل (اللورد ملنز) ليحاولَ تفريقَ الشمل المجتمع، فأصدرَ الشيخ بخيت فتواه بمقاطعة اللورد الوافد مُعلنًا أن المفاوضات لن تكونَ إلا مع سعد زعيم الأمة، وهذا ما أشرتُ إليه في مقالي، ولكنني أضيفُ له اليوم نصَّ ما قاله الأستاذ النجار حَزْناً، حين تحدَّثَ عن مقابلة ملنز لمفتي الديار المصرية الأستاذ محمد بخيت، محاولاً أن يستميله إلى حلٍّ وسط، وقد ظنَّ أنَّ عودته الخالصة ستُحدث تأثيرها، فيستطيع أن يطوي الشيخ بدبلوماسيته الماكرة، وإذا أُنْفَع الشيخ وهو صاحبُ الرِّعامة الدينيَّة بمنصبه الكبير، وصوته الجهير، فسيكونُ ذلك نجاحاً يُقدَّر له في وزارة الخارجية البريطانية، وقد بدأ اللورد فذكر أنَّ الإنجليز قد ساعدوا المصريين على الرقي، وبجهودهم تقدَّمت البلاد، والحمايةُ لا تُضَرُّ المصريين في شيء.

قال النجار - مسجلاً ردَّ المفتي الأكبر -: «لقد استمع الشيخ إلى حديث اللورد حتى إذا انتهى منه قال له في صراحة:

يا جناب اللورد، إنَّ المصريين يعرفون ما يضرهم وما ينفعهم، ومطالبُهم بالاستقلال سبيلُ الخير لهم ولبلادهم، فلو كانت إنجلترا حريصةً على مصالحهم لما مانعتُ فيه!.

فحاولَ اللورد أن يتعلَّلَ بأنَّ الحماية الإنجليزية تمنعُ الدول الأوروبية من الاعتداء على مصر؛ فقال له الشيخ صريحاً:

إذا كانت إنجلترا تريد حماية مصر من العدوان الخارجي، فلها أن تفعل ذلك مع مَنْ تراه يتأهب للعدوان، ولكنّ احتلالها هي للبلاد هو في نفسه عدوان، أي عدوان.

سكت اللورد . . . فانتَهز الشيخُ فرصة سكوته، وسأله قائلاً:

ماذا تفعلُ إنجلترا لو أرادت فرنسا أن تُعلن الحماية عليها؟ أتوافق على ذلك أم تعارض في عنف؟.

ففرغ اللورد مستنكراً، وقال: إنجلترا طول عمرها مستقلة، بعكس مصر!.

قال الشيخ: مصر عريقة في المجد، وأرادَ أن يذكر تاريخ مصر الذي ليس لإنجلترا مثله في القديم، فقطع عليه اللورد حديثه بقوله الخادع: يحسن أن نتقابل في منتصف الطريق.

فقال الشيخ لفوره: أنا موافق على هذا، وعلى إنجلترا حينئذ أن تسير هي إلى التّصف، فتبدي خططها السياسية التي تتفق مع رغبات مصرية، والمصريون طيّبو القلب، ولكنّ إرادتهم قوية قوية.

وانتهى اللقاء، ونُشر ملخصه في الصحف، وقرأه سعد زغلول في باريس، فأرسل إلى حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الكبير الشيخ محمد بخيت المطيعي هذه البرقية:

باريس في ٢٦ يناير سنة ١٩٢٠ م.

حضرة صاحب الفضيلة مفتي الديار المصرية:

أكتبُ إلى فضيلتكم عن ابتهاجنا العظيم بالأجوبة التي أجبتُم بها اللورد ملنز في داركم العامرة، فقد أيدت الحق بالحجج الناهضة، ودحضت الباطل بالإشارات الواضحة، وكانت أحسن وقعاً، وأبلغ أثراً من المقاطعة، ولا غرو، فهي أجوبة أكبر مُفَتٍ في الإسلام، رضي الله عنكم، وأرضاكم، وسدّد خطانا وخطاكم، آمين.
(سعد زغلول)

وإذا كان المال والمنصب هُما من زينة الحياة الدنيا لدى من يؤثرون التمتع

بالعرض الزائل، متجاهلين ما قد يكون من وسائل هذا التمتع من حيدة عن الطريق القويم، إذا كان هذا فإن الشيخ محمد بخيت قد كان فوق الإغراء بالمنصب والمال.

فقد أبطأت وزارة الحقانية في تنفيذ حكم صدر عن المحكمة الشرعية التي يرأسها، فكتب الشيخ إلى بطرس غالي باشا ناظر الحقانية إذ ذاك يعلمه أن السلطة التنفيذية إذا لم تقم بتنفيذ الحكم فإنه لن يُصدر حكماً ما فيما سيعرض عليه من القضايا، وسيدعو زملاءه إلى التوقف حتى يتم التنفيذ الفوري، ورأى ناظر الحقانية أن الموقف جدّ، فبادر بالتنفيذ، وقد كان الأمر متعلقاً بمحاسبة نظار الأوقاف وبعضهم يمت إلى ذوي الأمر بأوثق الصلات، ورأوا إصراره، فأخرجوه حتى قدم استقالته سنة ١٩٠٤، وظلّ خارج الوظيفة مع كفاءته، حتى علم اللورد كرومر أنه ذو إصرار على ما يعتقد أنه العدل، فبادر بإعادته!

ومن طرائفه التي ذكرها الأستاذ النجار أنه رفض رجاء الخديوي عباس في تنفيذ ما يراه في صالح عمه الأمير حسين كامل، فأصدر حكمه بما يخالف وجهة القصر، ثم عُيّن الأمير حسين كامل سلطاناً على مصر، فظنّ الشيخ أنه سينتقم لموقفه السابق، ولكنّ السلطان دعاه وأثنى عليه وأمر بتعيينه مفتياً للديار المصرية قائلاً: إن القاضي الذي يرفض رجاء حاكم مصر إذا خالف ما يعتقد جدير بأن يتبوأ أكبر منصب علمي في البلاد! . وهذه كما تُحسب في ميزان الشيخ تُحسب أيضاً في ميزان السلطان حسين، وقد كانت المحاكم المختلفة تطلب رأيه في بعض القضايا فيصدر الحكم الشرعي، وبيحيته أجر الفتوى كما هو متبع في الاستشارات القانونية، ولكن الشيخ يرفض، لأنّ مكانته في الإفتاء توجب عليه إصدار الفتوى دون أجر فوق مرتبة المعتاد» . .

هذا بعض ما نعرف عن الشيخ مما لم يُذكر من قبل، وهو مدوّن في مجلّة ذائعة، وقد قيل في خطبة علنية بدار الشبان المسلمين، ونشرته الصحف في حينها فما اعترض أحداً! فأئن هو التلفيق فيما كتبت في المقال السابق، وما أكتبه في هذا المقال؟ .

أعرف أن جرائد الأمس كانت تضيق بآراء الشيخ المتحفظة، فتبالغ في نقده، وقد كتبت له رسوماً كاريكاتورية يرجع وزرها على من تجنّى على الشيخ برسمها، ولكنّ ذلك لن يبخس من قدره مثقال ذرة، وهذه الرسوم في عهد الشيخ قد شملت

رُعماء البلاد ووزراءها وذوي المكانة فيها، فهل أنزلتهم من مكانتهم المرموقة، أو
حالت دون أن يذكرهم أبناء اليوم بالإعجاب والتقدير؟ كذلك تحمّل المفتي تسلّط
الساخطين وكيد الكائدين، ثم لقي الله راضياً، وذكر المخلصون فضله، وإن جحد
الجاحدون.

* * *

من أعلام الأزهر

الدكتور محمد البهيّ مفكراً ومُصلحاً

- ١ -

من يعرف الدكتور محمد البهي معرفة خلاط ومدارسة لا يمكن أن ينساه، لأنه نمط نادر من أنماط الرجولة الأصيلة، فقد جمع بين بسالة العلم وبسالة العمل جمعاً متوازناً لا يتيسر للكثيرين، بل للقلّة الممتازة، فهو في مجال الدرس والتحصيل والتعمق النظري قدوةً لزملائه ومناظره، وفي مجال الإدارة الحازمة التي تُقدّر المصلحة العامة، دُونَ اعتبارٍ لخصوصيات تُفرض نفسها على العدالة المحايدة، كي تميلَ بالميزان عَن وجهه المستقيم؛ يكادُ يكونُ فريداً في بابهِ، وقد لاقى في تحقيق مبدئه عنتاً كارياً من الأصدقاء الأذنين، فضلاً عن الغُرباء الذين لا يعرفون غير قضاءِ المآرب، وإرضاء الشهوات.

وقد اشتدّ اللغظ حوله حين كانَ وزيراً فمديراً للجامعة، لا لشيءٍ إلّا لأنَّ لهُ منهجاً فكرياً يسعى إلى تحقيقه، هذا المنهجُ لا يشجّع الخامل، ولا يأخذُ بيد المتطفل، بل يُلزم كلَّ إنسانٍ بأداء واجبه عالماً ومتعلماً، أستاذاً وطالباً، والواجبُ العلمي في نظر الدكتور البهي ليسَ اجتراراً للألفاظ ونقلًا للمقررات المتعالمية، ولكنه ابتكارٌ وإبداع، فإذا لم يتحقق هذان، فإخلاصٌ دائبٌ، وسعيٌ إلى بلوغ الكمال قدر المستطاع، والرجلُ نفسه مثلُ رائِع بما قدّم في ميدان الثقافة الإسلامية الواعية، وكانَ في طليعة من جَمَعوا بين ثقافة الشرق والغرب من مبعوثي الأزهر الشريف، جمعاً مستنيراً ينفي الدخل وينشدُ اللُباب، وله عَيْنُ الصّقر حين يُطالع

الافتراءات الاستشراقية في نتاج أساتذة تشعّح بالبحث لتضلّ عن سبيل الإسلام،
فيهجّم بمنطقه الفاصل على أراجيف هؤلاء هُجوم المتسلّح بالفكر والعقيدة
والذكاء، وقد كتّب الله لمؤلّفاتهِ الذبوع، فسدتْ مسدّاً شَفَى صدور المؤمنين،
وألهب حقد المرجفين، وسنلّم ببعض ما أثمر في هذا المجال، لنقدم الشاهد
الصريح .

لقد التحق الطالب الصغير بالأزهر في سنّ التاسعة، وعُرف بالسّبق الظافر في كلّ
سنواته التعليمية، إذ كانت الأوّلية من نصيبه عن جدارة، وكان من أساتذة المعهد
الإسكندري من يَسْهرون اللّيل في التحصيل ترقّباً لأسئلة الطّالب العالم في حلقة
الدرس، وشاء له نبوغه أن يختصر القسم العالي في عام واحد بدل أربعة أعوام، إذ
سمح القانون لمثله أن يتقدّم لامتحان النهائي وهو في السنّة الأولى، فكان مُجَلِّياً
سابقاً وأحد أربعة من أربعمئة كتّب لهم النجاح! وإذا دلّت هذه النتيجة على وفرة
التحصيل، وقوة الذكاء، فقد دلّت على بُعد الهمة، وسعة الأمل؛ هذه الهمة التي
جعلته فيما بعد قائد مسيرة، ورجل إصلاح وتوجيه .

لقد ظفر الطالب بالعالمية النظامية بعد أن دَرَسَ في معهدي دُسوق والإسكندرية،
ثمّ التحق بقسم التخصص، ليدرس البلاغة والأدب في سنوات ثلاث، وانتهى من
مرحلة الطلب جميعها وهو في الخامسة والعشرين من عمره، ليكون عضواً في البعثة
الأزهرية التي رصدها مديرية البحيرة تخليداً لذكرى الإمام محمد عبده، فاتجه في
سبتمبر سنة ١٩٣١ لدراسة الفلسفة في ألمانيا، ورجع عام ١٩٣٦ وقد حَصَلَ على
الدكتوراه في الفلسفة وعلم النفس بدرجة ممتاز، فاستقبلته كليات الأزهر مدرّساً
للفلسفة وعلم النفس، والثقافة الإسلامية، ليقدّم النموذج الرائع لأستاذ يملك
موضوعه العلمي مِلْكَ الثريّ المفضال الذي يُنفق عن سعة وإغداق، عالماً أنّ
ذخيرته لن تنفد مهما كثر البذل، وتنوّع العطاء .

لقد كانت روح الفارس الصوّال تصحب المبعوث الناهض، في قاعات الدرس
بألمانيا، فلم يطق الصبر على استماع مفتريات تلصق بالإسلام عن مكيدة، وقائلو
هذه المفتريات هم أساتذته الذين سيتولّون امتحانه وتقدير كفايته العلمية، ومحاولة
الهجوم على آرائهم خَطَرٌ لا يعبأ به من أخلص قلبه لدينه، وقد استمع البهي إلى آراء
أستاذه «نوك» في محاضراته عن فلسفة التاريخ لهيجل، فوجد من الأقوال الخاصة

بالإسلام ما يحتاج إلى تصويب، وكذلك صُدم بآراء أستاذه شتروتمان التي تنظر إلى الإسلام كما تنظر إلى معتقدات البدائيين!!

وهنا أصرَّ البهيّ على أن يُؤلف باللغة الألمانية كتاباً تحت عنوان (رسالة الإسلام بين هيجل ومحمد عبده) وقد اختار الأستاذ الإمام بالذات، لأن ما كتبه في الإسلام والنصرانية، يصلح رداً شافياً على أخطاء الفيلسوف الألماني الكبير، التي عزاها إلى الإسلام، وكان الدكتور البهي ليقاً حين أعلن أن المسيحية لا تؤاخذ بأخطاء المسيحيين، وذكر من هذه الأخطاء ما يُعدُّ تحدياً للإنجيل؛ ذكر ذلك في إسهاب، ليقول: إن أخطاء بعض المسلمين كذلك لا تُحسب على الإسلام، وقد ناقش الفيلسوف في عدة مسائل؛ أهمها ما توهمه من أن الفردية في الإسلام هي العمل للآخرة وحدها مع الانقطاع عن الحياة، فساق البهيّ من النصوص الدينية ومن أعمال الرسول وصحابته ما يدحض ذلك، وإذا كان هيجل قد قرّر اعتماد الإسلام في انتشاره على السيف دون الرأي، فإن المؤلف قد عصّف بما قرّره مستنداً إلى أقوال المنصفين من أساتذة أوروبا أنفسهم، كما أطال الحديث عن دغوى التعصّب التي ألصقها الفيلسوف الألماني بالإسلام، فعرض صفحة ناصعة من التاريخ الإسلامي في أزهى عصوره تكذب بالشاهد الملموس ما يُقال عن التعصّب، أما تفهقر المسلمين في العصور الأخيرة فقد جاء نتيجةً للابتعاد عن تعاليم الإسلام، ولم يجرى بسبب تعاليم الإسلام كما شاء هيجل أن يقول . .

وبعد أن كشف الباحث عن حقيقة ما قاله هيجل، امتدّ به الحديث إلى كتاب (الإسلام والنصرانية) للأستاذ الإمام، ليقف في وضع مقارن بما قاله الفيلسوف، وليصحح فكرة هيجل حين قرّر أن قوة الإسلام قد اختفت كعامل في قيادة العالم، وهذا البحث المنهجي لا علاقة له برسالة الدكتور الجامعية، ولكنّه اقتطع من وقته ما يراه ضرورياً لتصحيح المفاهيم الخاطئة المخطئة عن الإسلام، وقد رأينا من أبناء المسلمين من وفّدا إلى أوروبا لينالوا الدرجات العلمية، فسمعوا عن الإسلام أكثر مما سمع البهي، ولكنهم لاذوا بالصمت، وفيهم من عَشيت عينه عن الهدى، فاعتنق كلّ فكر مارق، لينال حظوة أساتذته، ولو أردت تسجيل الأسماء لأزعجتُ جسوماً في لحودها تعب الرقاد.

وحين زاول البهي التدريس في الكلية، لم يجعل عمله الرسمي وحده ميدان

تفكيره، بل امتد إلى المحيط الثقافي العام في المجلات الأدبية المستنيرة، يكتب المقالات الاجتماعية والفلسفية آنأً، ويُناقش الفكر المخالف لكبار الكتاب مناقشةً فاحصةً آنأً آخر، وله في هذا المجال سبقٌ ظافر، إذ تصدَّى لكثير من الآراء المنحرفة تصدِّي من يملك الإقناع المُلزم عن كفاءة ذاتِ علمٍ وإتقان، ومَن يطالع مجلات الثقافة والرسالة والأزهر وجريدة الأهرام يرى بعض ما نغنيه مما أتجه إليه الباحث في إخلاصٍ، يمدّه البصر الصائب والشمول المتّسع لشتّى الأنظار، وأذكرُ في هذا الموضوع مناقشته للأستاذين الكبيرين أحمد أمين، وتوفيق الحكيم، إذ كتب الأول مقالاً بمجلة الثقافة عمَّا سمَّاه «الدين الصناعي» فذكر عنه أنّه «كصناعة الحياة والتجارة، وأنه يُلوى الدين ليعدَم مصلحة السلطان، ومظهره عمامةٌ كبيرة وقباء يلمع، وفرجية واسعة الأكمام، وهو نحوٌ وصرف وإعراب وتأويلٌ، وهو تحسينُ علاقة صاحبه بالإنسان، لاستدراهِ الرزق أو كسب الجاه». إلى آخر ما ينحو هذا المنحى، وقد رأى البهي في هذا النمط غلوّاً يميل إلى الاستهزاء، ولا يبحث عن الحقيقة، فكتب ردّاً يقول فيه :

«ما ذكره الأستاذ على أنّه مظهر الدين الصناعي ليسَ صفةً عامة في كلّ بلد يدين بالإسلام، فالعمامة الكبيرة، والقباء اللامع، والفرجية المتّسعة الأكمام، ليست من مظاهر التدين الحقيقي أو الصناعي بين مسلمي الهند أو مسلمي شرق أوروبا، ولم أعرف أن النحو والصرف وإعراب الكلام والتأويل رمزُ العمل الذي يتناوله محترف الدين، أو صاحبُ الدين الصناعي في أيّ بلد إسلامي في مصر، أو في غيرها من البلدان الأخرى، كما لم أعرف أنّ الشهادة عنده هي إعرابُ جملة وتخريجُ متن، وتفسير شرح». ومضى الناقد في ردّه الحاسم لينتهي إلى قوله: «لم أتبيّن الظاهرة الاجتماعية التي أراد الأستاذ أن يعالجها في الدين الصناعي وحده، كما لم أنجح في تكوين طابع علمي لمقاله هذا»^(١).

أما الأستاذ توفيق الحكيم فقد كتب مقالاً ينعي فيه على شيخ الأزهر اعتراضه على تقرير رواية إنجليزية بكلية الآداب تحملُ طعنًا في نبي الإسلام، ورأى ذلك امتداداً لسلطان الكنيسة في أوروبا حين حاربت حرية الفكر، وقد وجد الحكيم من يُعاضده في اتجاهه، لأنّ الهجومَ على الإسلام في منطق هؤلاء آيةٌ من آيات التحرر

(١) مجلة الثقافة: العدد ٢٥، ١٩٣٩/٦/٢٠.

الفكريّ، وقد نسوا أنّ أوروبا التي يقدّونها في كل شيء تافه لا توجد فيها جامعة واحدة - في غير البلاد الشيوعيّة - تطعن في الدين، ومن المحال أن تُقرّر رواية ملحدة في جامعات فرنسا وانجلترا وأمريكا، نسوا ذلك واتجهوا إلى معارضة شيخ الأزهر حين يحاول أن يعصم الشباب الجامعيّ من نزق يضّر ولا ينفع، وكان الدكتور البهي أحد الذين جابهوا الحكيم بمقال عاصف قال فيه :

«مَن الذي يقارنُ مهمّة الأزهر في حياته المجيدة، التي كلّها فخر للشرق بسلطان الكنيسة في القرون الوسطى؟ ومَن الذي حدّثنا أن جامعة كمبردج أو أكسفورد تضعُ أمام طلابها للنقاش وأمام بحثها العلمي كتاباً أو كتباً تطعنُ في المسيح، من مؤلّف شرقي أو غربي، إنّ الأزهر لا يطلبُ سلطانَ الكنيسة في القرون الوسطى، ولم يطلبه يوماً ما، وإنما يُؤدي مهمته الروحية فوقَ مهمته العلمية، وهي المحافظةُ على الأمة وعلى شبابها المثقفين، وليس في منع التهجّم على الدين فقط، بل في ضمانِ التدين به، وشيخُ الأزهر الإمامُ المراغي لا يحدّث من حرية البحث الجامعي إذا ما حاول أن ينزعَ الأمة - وبالأخص شبابها - من تحكّم فئة تدّعي لنفسها من الألقاب الثقافية ما تشاء مستغلّة جهل الشعب وعدم سموّ المستوى العلمي فيه»^(١).

وقد اتسعتُ مجلةُ الأزهر لمناقشاتٍ ممتدة بين الأستاذ محمد فريد وجدي والدكتور محمد البهي حولَ الفلسفة وصلتها بالحكمة، إذ كتبَ الدكتورُ بحثاً عن فلسفة الإغريق جعلها تمهيداً لدراسة الفكر الإنساني في تطوّره التاريخي، ورأى الأستاذ وجدي أن يُشفّع كلّ قول يوناني بما يردّ عليه من الفكر الإسلامي المعارض لكثير من الاتجاهات الوثنية، والمناقشةُ في هذا المجال خضبة مفيدة، لأنّ كلّ مناظرٍ يرعى حقوقَ مناظره، ويُخيّلُ إليّ أن هذه المقالات لو بُسّطت في كتابٍ ممتدّ لجاءَ دورُ الفكر الإسلامي فيما بعدُ مُصحّحاً ما سبقه من المفاهيم، ولم يقصّر الدكتور البهي في هذا المنحى إذ كتّب مؤلفاً كبيراً في جُزئين تحت عنوان (الجانب الإلهي في التفكير الإسلامي) فاستقبله الأستاذ محمد فريد وجدي استقبالاً رائعاً حيثُ بسط عنه حديثاً شافياً، قال في مقدمته^(٢): «هذا كتابٌ جليل قدره، عظيمةُ

(١) مجلة الأزهر: عدد ربيع الأول سنة ١٣٥٨هـ، وقد أشرت إليها في مقدمة كتاب (مناقشات وردود).

(٢) مجلة الأزهر، عدد محرم، سنة ١٣٦٧هـ.

فائدته، طريفٌ موضوعه، قامَ بتأليفه حضرةُ الأستاذ الألمعي الدكتور محمد البهي، مدرس الفلسفة بكلية أصول الدين، واسمُهُ يدلُّ على المجهود المُضني الذي يَقْتَضِيهِ إبرازُ مثل هذا العمل الفذِّ في اللُّغة العربيّة، ومجردُ استكمالِ المراجع العربيّة التي اعتمد عليها، ونقلَ ملاحظاتٍ قيمة منها يدلُّ وحدَه على مبلغ ما عاناَهُ الأستاذ المؤلِّف من الجهد الجاهد، في سبيل إقامة هذا الصرح الفلْسَفي في أدقِّ المواضيع، وأحوجها للعناية والتدقيق، إذ يغرض موقفَ فلاسفة المسلمين في الشرق من التراث العقلي الإغريقي فيما وراء الطبيعة، ولأجل الوصول إلى هذه الغاية جعلَ يذكر آراء المدارس الفلسفية، ويوضح أنَّ رأيهم في تصوّرهم الوجودَ، وتصوّرهم له يتمثّل في التوفيق بين الدين والفلسفة، أكثر من أن يُعبّر عن بناء جديد في التفكير الفلسفي فيما وراء الطبيعة، ثم قال الأستاذ محمد فريد وجدي في نهاية مقاله :

«هذا خِصْمٌ متلاطم الأمواج من البحوث؛ استطاع ممثّل النبوغ الأزهري في الفلسفة الحديثة أن يحصره في ٢٩٣ صفحة حافلة بالنظرات القيّمة، والتعليقات الثمينة، فتشني على مؤلّفه النابغة أطيب الثناء، أكثر الله من أمثاله في النبغاء»^(١).

وكلمة (ممثّل النبوغ الأزهري) صادفتُ موضعها حين وصفَ بها الأستاذ وجدي صاحبَ الكتاب، ومن باب العظة النافعة في دُنيا الأخلاق الرفيعة أن نذكر أنَّ الدكتور البهي هاجم آراء الأستاذ وجدي مهاجمة عنيفةً على صفحات مجلة الرسالة مِنْ قبل، ولم يمنع ذلك مُقرّظه الكبير أن يقول فيه ما يعتقد من الثناء الجاد، وهو مثل يُحتذى! فأين من يستمع؟.

وإذا كان الأزهر يدرّس الفلسفة الإغريقيّة، وأثرها في فلاسفة الإسلام، أمثال ابن سينا والفارابي وابن رشد، فإنَّ ذلك لم يمنع نقد هذه الفلسفة، بل لم يمنع نقد كثيرٍ من الآراء التي اتّجه إليها فلاسفة الإسلام حين تشبّعوا بهذه الفلسفة دون أن يقفوا منها موقفَ الناقد البصير، وقد ظنَّ كثيرون ممن لم يدرسوا مناهج الأزهر أن ما يقال في كليّاته ترديدٌ تقليديٌّ لأقوال السابقين، وقد عبّر عن هذا المنحى الشهيد سيد قطب حين قال بصدد هذه الفلسفة الإغريقية في خطابٍ نقديٍّ وجهه إلى الأستاذ توفيق الحكيم^(٢):

(١) مجلة الأزهر، عدد محرم، سنة ١٣٦٧هـ.

(٢) مجلة الرسالة ١٦/٥/١٩٤٩م.

«إن فكرة الإسلام الصميمة الكلية عن الكون والحياة والإنسان هي شيء آخر لم تصوّره تلك الفلسفة، ولم يتمثله الأوروبيون، وتبعاً لذلك لم يتمثله المحدثون من المسلمين الذين يتلقون ثقافتهم عن الأوروبيين، ومالي ألومكم أنتم، والأزهر ذاته لا يدرّس في كليّاته إلا تلك الفلسفة الإسلامية باعتبارها فلسفة الإسلام».

ولم يفث الدكتور البهي أن يعقب على هذا القول بما ينقضه، فقد نشر بالرسالة خطاباً للأستاذ سيد قطب قال فيه^(١): «أودّ أن أطمئن الأستاذ على أن الأزهر في تاريخه لم يدرّس الفلسفة الإسلامية على اعتبار أنها تمثل فلسفة الإسلام، أو تحكي مبدأ من مبادئه أو هدفاً من أهدافه، ففي ماضيه كان يحترّم دراسة النوع الإلهي من الفلسفة الإسلامية، لأنّه كان يرى في هذا النوع انحرافاً واضحاً عن الإسلام... وفي العصر الحديث يدرّس الأزهر في كليّاته الفلسفة الإسلامية، كما يدرّس أنواع الفلسفات الأخرى من الإغريقية إلى الدينية في القرون الوسطى، إلى المذاهب الاجتماعية والاقتصادية المعاصرة على أنّها اتجاهات للفكر الإنساني في أزمنة متعاقبة، وفي بيئات مختلفة، وقد يكون بعضها ترديداً لبعض، ويسعدني أن أقدم له كتابي (الجانب الإلهي من التفكير الإسلامي) وسيلة يعرف بها هذه الروح في الأزهر».

هذا، وأساتذة الفلسفة في الأزهر أمثال الدكتور محمد غلاب والدكتور محمد يوسف موسى والدكتور سليمان دنيا، والدكتور محمود حب الله وغيرهم من الفضلاء ينحون هذا المنحى الحميد، فلا ملام.

- ٢ -

ترك الدكتور محمد البهي أكثر من سبعين مؤلفاً في شتى نواحي الثقافة الإسلامية، أحلته مكاناً رفيعاً بين أعلام الثقافة الإسلامية المعاصرة، إذ انفرد بإبداع منهجي في التفكير والتعبير معاً، فهو دقيق العبارة واضحها، ولا يفارقه هذا الوضوح وهو يتحدث عن أدق مسائل الفلسفة ذات الغوص البعيد، إذ أنّ مرانه التعليمي في قاعات الدرس الجامعي أورثه دراية واعية بمخاطبة الأفهام على اختلاف حظوظها في التلقّي الفلسفيّ الدقيق، فإذا خاطب القارئ في سفر عام فقد

(١) مجلة الرسالة ٢٣/٥/١٩٤٩م.

اكتسب مذهباً محدداً في التفهيم والتوجيه .

وإذا كانت مؤلفاته قد جاوزت السبعين فإنّ واحداً منها قد نالَ من الخطوة لدى الدارسين ما جعله مصدراً أولياً في موضوعه وما أتاحَ له الانتشارَ في شتّى ربوع الإسلام عن طريق الترجمات المختلفة، هذا الكتابُ الذائع ذو الشهرة المستفيضة هو (الفكر الإسلامي الحديث وصلته بالاستعمار الغربي) وقد تحدّث عنه البهيّ في مقدمة الطبعة الثالثة حيث قال^(١):

«فبالرغم من أنّ لي كتباً وكتابات غير كتاب (الفكر الإسلامي الحديث وصلته بالاستعمار الغربي) فقد كنتُ أعزّف به في رحلاتي المختلفة في المشرق والمغرب التي قمتُ بها منذ عام ١٩٦٠ إلى آخر عام ١٩٦١ سواء في الباكستان أو الملايو أو أندونيسيا أو الفلبين، أو في شمال أفريقيا في ليبيا والمغرب، أو في غرب أفريقيا في نيجيريا، فما ذُكرتُ في مرّةٍ من المرات أثناء هذه الرحلات، وما عُرِفَت عند إلقاء محاضرة أو حديث إلّا بأنّي مؤلف (الفكر الإسلامي الحديث وصلته بالاستعمار الغربي)».

فإذا أراد القارئ أن يعرف الدافع الذي بعثَ المؤلف إلى تسطير كتابه، فإنّه سيقف على حقائق مؤلمة حين يعلمُ أنّ الدراسات الإسلامية في جامعات أوروبا وأمريكا تتخذُ وسيلةً للطعن في الإسلام تحت ستارِ البحث العلمي، وقد كان الدكتور البهيّ أستاذاً: بمونتريال الأمريكية، فشهدَ من غرائب الاحتيال العلمي والتدليس التبشيري ما أشارَ الدكتورُ إليه في قوله^(٢) - ببعض التصرف اليسير -:

«لقد أشفقتُ على نفسي في هذا العالم أن أموتَ حُزناً على ما ينشره المستشرقون ضدّ الإسلام في الغرب والشرق على السواء، فما يُسمّى معهد الدراسات الإسلامية بمونتريال عبارةً عن مسرح تمثّل عليه (خرافة) الإسلام، وتناقضات المبادئ في القرآن! واللاإنسانية واللاحضارة في المجتمع الإسلامي! ويُجلب إليه الطلبة من البلاد الإسلامية، ويُختارون من أصحاب النفوذ في المستقبل، كما يُدعى المدرّسون والأساتذة، وهم ثلاثة أنواع، نوعٌ من الإنجليز والأمريكان ممن يُثيرون الشبهة ضد الإسلام، ونوعٌ من المسلمين ضعاف الشخصية

(١) مقدمة الطبعة الثالثة (ص ١).

(٢) حياتي في رحاب الأزهر، للدكتور البهي، ص ١٢٧.

تستهويهم الإقامة في الحياة الأمريكية، وهي حياة مملوءة بالإغراءات المادية، ونوع آخر من المسلمين عُرف بشخصيته القوية، ويُراد له عن طريق مثل هذه الدعاوات أن يتعاطف يوماً مع ما يكتبه المستشرقون، وكان هناك تركي مسلم اسماً، يدرس علم الاجتماع الإسلامي في كتاب ألفه يهودي نمساوي، ينكر فيه أن يكون الإسلام صاحب اتجاه حضاري في تكوين الأمة والمجتمع، وهناك باكستاني يقوم بتدريس التناقض في آيات القرآن، وقد تنصّر هو وزوجته، فكتب له عقد طويل الأمد، وفي قاعات البحث تُطرح الشكوك من قبل الطلاب والطالبات الأمريكيات كطرفٍ مُواجه للمسلمين، ويقوم بالرد مثل هذا التركي وذلك الباكستاني!

في هذا المجتمع الحاقد بدأ الدكتور البهي يخط كتابه عن الفكر الإسلامي وصلته بالاستعمار الغربي ليدحض كل ما يتردّد في هذه الدوائر التبشيرية من افتراءات، وليبين أنّ للإسلام حضارته واستقلاله وإنسانيته، وكلّها تفوق بالدليل المادي ما يزعم الغرب لنفسه من دعاوى الحرية والإخاء والمساواة، وقد ابتدأ بفاتحة موجزة تتحدث عن تسلّل الاستعمار الغربيّ إلى العالم الإسلامي، ووسائله المُرّية في تحطيم الكيان الإسلامي، ثم يلي ذلك حديثٌ مركز عن دواهي الاستشراق وما يثبته من سموم ذات أثر قاتل حين يؤكد على تمجيد القيم الغربية وتوهين التعاليم الإسلامية مُفترياً ومضللاً، وإذا كان جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده قد قاوما الاستعمار مقاومة واعية يسندها الدليل الملزم فقد بسط الدكتور البهي جهودهما في هذا النطاق، فارقاً بينهما وبين جماعة من المسلمين عُرفوا بالإصلاح الديني على مذهب الغرب، فتخلّوا عن تعاليم أصيلة في مبادئ الإسلام زعماً بأنها لا تصلح للبقاء، فكسبوا الشهرة والمال وخسروا الشرف والكرامة.

وحين انتهى المؤلف من ذلك بسط الحديث الشافي عن اتجاه الفكر الإسلامي منذ القرن العشرين، وأثر الحملة الصليبية في تشويه الإسلام ومبادئه، وعن المجتدين في مصر، وقد فضّح أساليب التجديد المنحرف حين أفاض في تحليل ما كتبه المستشرق (جب) عن بشرية القرآن وما تورّط فيه الدكتور طه حسين من أغاليط في كتاب الشعر الجاهلي، لها أصولها الواضحة في كتب الاستشراق، واطّرد البحث فشمّل كتاب (الإسلام وأصول الحكم) وما دار حوله، وما أعقبه من تأثير ضار! أما ما كتبه البهي في تفنيد الشيوعية فقد كان شجى في حلق دُيولها في مصر، فعملوا على مطاردة الكتاب، وحاربوا إعادة طبعه في الدار القومية للنشر بعد أن

تعاقدت على نشره، ثم خُتم الكتابُ ببحث واف عن الدكتور محمد إقبال ومنحاه
التجديدي موازناً بفلاسفة الغرب .

ولعلّي بعد هذا العرض الموجز أكونُ قد دفعت مَنْ لم يقرأ هذا الكتاب إلى
ضرورة مطالعته واتّخاذه درعاً واقية من الأراجيف، ولا أكتُم الحقيقة حين أقولُ: إن
كثيراً أعقبوا الدكتور البهي في الخوض في هذه المسائل قد اقتفوه، وانتفعوا بما
قدّم، أشاروا إليه أم سكتوا عنه، وليسَ أَقرّ لِعَيْنِ الكاتبِ مِنْ أن يرى أفكاره تمتدّ
وتستفيض، وأن يلمسَ تلاميذاً من الناشئة في غير جامعته يعتنقونها، ثم تصبحُ
مصدراً من مصادرهم العلمية حين يتجهون إلى التأليف بعد حين . .

ومن بين ما أُنتَجَ الدكتور البهي سلسلته القرآنيّة التي سماها (من التفسير
الموضوعي) حيث شملتُ ثنتين وعشرين سورةً من كتاب الله، غير جزء عم المتمم
لها، وقد كنْتُ أفهمُ أن يكونَ التفسير الموضوعي عاماً لا يختص بسورة واحدة، أما
أن يكونَ التفسير الموضوعي خاصاً بسورة معينة فهذا ما لم تتّضح لي وجهته السيدة
إلى الآن، وأذكرُ أنّي بسطت هذا الرأي في كتابي (التفسير القرآني) حيث قلت^(١):

«لقد أصدرَ الدكتور محمد البهي أكثرَ من عشرين جزءاً لطيفاً، يضم كلّ جزء
تفسيرَ سورة خاصة من كتاب الله، وكلّها تحت عنوان «التفسير الموضوعي للقرآن
الكریم»، ومن هذه الأجزاء ما يشتمل سور الأنعام ويونس ويوسف والرعد والنحل
والكهف، وطه والمؤمنون والشعراء والقصص، والصفات والأعراف وهود
وإبراهيم والحجر، والإسراء ومريم والأنبياء والفرقان، والنمل والعنكبوت والجن؛
حيث مضى في التفسير آية آية وفق السرد المعهود في المصحف الشريف، وزادَ عليه
أن بدأ كل سورة بملخص لعناصرها العامة التي تدور حولها الجزئيات، إذ أنّ
أصحابَ هذا الاتجاه يرون أن كلّ سورة قرآنية ذات وحدة موضوعية، يتلمسُون لها
الأسباب بذكر العناصر التي يَهْتَدُونَ إليها، لتكون بمثابة دوائر تجتمع فيها جزئياتُ
تنتهي إليها.

وأرى أنّ معنى التفسير الموضوعي في هذا الاتجاه يَسْقُطُ سقوطاً تاماً عند
الوقوف لدى عناصر السورة الواحدة، لأنّ كلّ سورة من سور الكتاب لا تستقلّ

(١) التفسير القرآني، للدكتور محمد رجب البيومي، ص ٧٧ وما بعدها.

بموضوع خاص لا تشمله السور الأخرى، فإذا أردنا - مثلاً - أن نفسر سورة النور وجعلناها من أمثلة التفسير الموضوعي، فإننا نترك ما يدور حول أغراضها مما جاء في سور النساء والطلاق والأحزاب، لأن جميع هذه السور تتحدث عن المرأة في القرآن، فكيف تكون السورة الواحدة من هذه السور المشار إليها مما يندرج تحت التفسير الموضوعي، وهي لا تشمل الموضوع بأكمله؟ نحن لا نمنع أن تُفرد السورة الواحدة بتفسير خاص، ولكننا نمنع أن يكون هذا الأفراد من قبيل التفسير الموضوعي، وهو منه بعيد».

نعم قد يكون من قبيل التفسير الموضوعي ما أخرجه الدكتور البهي تحت عنوان (المجتمع الحضاري وتحدياته من توجيه القرآن الكريم) حيث عقد فصلين هامتين يتحدث أولهما عن مظهر الوحدة في القرآن، إذ يشير إلى وحدة المعبود، وإلى الوحدة في ذات الإنسان، وإلى الوحدة في اتجاه المجتمع، وإلى الوحدة باعتبارها قال فيه :

«وكما أنّ مبدأ قداسة بعض المواد دون بعض يسود التعليم في الأزهر، كذلك مبدأ الكتابة، إذ أن مدرّس الموضوع، لم يُخلَقْ بعدُ في الأزهر، وإن كان في طريق الخلق والتكوين، فالحقائق العلمية في مادة من المواد مصدرها كتابٌ معيّن بالذات، والتمكين في الخلافات العلمية، ومشاكل البحث لم يزل إلى كتاب مخصوص».

فإذا تركنا التعليم الجامعي إلى المعاهد الأزهرية من إعدادية وثانوية، فإننا نجد ما أضيف من المواد الحديثة كان ردّاً على صيحات متكررة قام بها من يُنادون بوحدة التعليم الابتدائي والثانوي في مصر، دون تفريق بين التعليم المدني والتعليم الديني، وهي دعوة نادى بها الأستاذ إسماعيل القباني قبل أن يفكر فيها الدكتور طه حسين بعدة سنوات، ثم تلقّفها الدكتور ليسجلها في كتابه (مستقبل الثقافة في مصر) ولمّا لم يجد صدقاً لدعوته، ارتقب عدة سنوات حتى حانت له الفرصة، فصاح بما سمّاه (الخطوة الثانية) فإذا أضيفت هذه العلوم إلى الدراسة الأزهرية فقد قطعت السنة الناقدين، ولا أنكر أن المنهج قد أصبح متخماً إتخاماً يتطلّب التعديل الجزئي، وهذا ما ندعو إليه مخلصين، على أن تراعى الفروق بين طلاب القسم العلمي وطلاب القسم الأدبي مراعاة جوهرية تنفذ إلى الصميم .

وقد ولي الدكتور البهي وزارة الأوقاف ليقدّم النموذج الممتاز للوزير المسؤول، فقد شاء أن يرعى إدارات الأوقاف ومساجد الدولة بنفسه، فكان يذهب إلى المسجد منفرداً^(١) في أقاصي الجمهورية ليرى الوضع في مشهده الطبيعي، وقد شاهد من مظاهر الإهمال ما دفعه إلى المؤاخذه الجادة، وأذكر أنه في بعض جولاته الميدانية شاهد أزملة فقيرة تطلب المعاش المتأخر منذ شهور، فلم تجد غير الطرد والغضب المفزع، فساءه أن يشهد هذا الخزي المنكر، وقد ذهب متنكراً ليرى ما يسوء، فعاقب المهمل المستخف، وثارث عليه الثوائر في الأوقاف، لأنه يسلك مسلك الجد الصارم، فأثار عليه نفر من أساتذة الجامعة، لأنه ألزمهم بكتابة بحوث للترقية، بعد أن ألفوا مجيء الترقية بالأقدمية المطلقة، أو بغير الأقدمية لمن يُجيد الاتصال بذوي الأمر، هذا النهج العمري الحازم صار مدعاة لغط لا مبرر له، وقد مضى الزمن فانكشفت الحقائق على وجهها الصريح، وأنا الآن أؤرخ لعالم مصلح مجتهد، ونابعة بحاث مبتكر، فما عليّ غير أن أسجل ما أعتقد، مؤكداً أنني لم أحظ ببلقائه، وإخاله لم يسمع بي، وإنما أدرس وأسجل، لأعلن ما أعتقد أنه الصواب، وهذا حسبي.



(١) في مذكرات الدكتور البهي التي نشرتها مكتبة وهبة بعد وفاته ما يشير إلى وقائع مشابهة، فليرجع إليها القارئ إذا أراد، وقد جاءت تحت عنوان (حياتي في رحاب الأزهر، طالباً وأستاذاً ووزيراً).

السيد محمد توفيق البكري وتحليل رأيه في مستقبل الإسلام

ترجم السيد محمد توفيق البكري لنفسه في فصل من كتابه (بيت الصديق) فذكر أنه ولد في فجر الجمعة ٢٧ من جمادى الثانية سنة ١٢٨٧هـ، الموافق لسنة ١٨٧٥ بمنزل والده المطلّ على النيل إزاء جزيرة الروضة، وأنه قرأ القرآن الكريم ومبادئ العربية في بيته، ثم دخل المدرسة العلية التي أنشأها الخديوي توفيق لأنجاله، وألحق بها أبناء الكبار من رجال الأمة، فقرأ التلميز بها طائفة من العلوم العقلية والنقلية، وكان ترتيبه الأول، وفي سنة ١٨٨٥ أوصدت المدرسة أبوابها، وسافر أولاد الخديوي لأوروبا للتعلّم في معاهدها، فعكف السيد بمنزله على إتمام ما بدأ به من العلوم على مهرة الأساتذة، وفي سنة ١٨٨٩ تقدم لامتحان البكالوريا بنظارة المعارف فكان ترتيبه الأول، ثم تقدّم لشيخ الأزهر العلامة الإنابى ليختبره بنفسه فيما يقرأ من العلوم، فامتحنه وأجازه، وفي سنة ١٨٩٢ توفي أخوه السيد عبد الباقي البكري، فولّي وظائفه جميعها، وهي المشيخة البكرية، ومشيخة الطرق الصوفية ونقابة الأشراف.

هذا ما ذكره السيد عن نفسه، وأزيد عليه أنه باشر أعمال السياسة في عصره، فعادت عليه بأسوأ العواقب، كما كان كاتباً كبيراً من كبار أدباء عصره، وله شعر ماثور، وقد اختلط عقله فقضى وقتاً كبيراً بإحدى المستشفيات، ثم لقي ربّه سنة ١٩٣٢م، وإذا كانت أكثر آثاره الأدبية مشتهرة من شعرية ونثرية، فلن أنعرّض لها هنا، إذ أن لي كتاباً خاصاً به، ولكنّي أعرض لتحليل رأيه في مستقبل الإسلام، حيث وضع رسالة خاصة بهذا الموضوع الهام، وقد أثارت جدلاً علمياً بين أخذ وردّ، ممّا يبيّن طبيعة المسائل العلمية الدائرة في عصره، وتفيدنا في رسم الطريق لبعض خطوات النهضة الإسلامية المعاصرة، إذا ضمت إلى غيرها مما كتبه الفضلاء في

اكتناه هذا المستقبل، بعد أن كتب الأوروبيون كثيراً من الرسائل المثبّطة، وواجهت دفوعاً حارّة من ذوي العزم، وأراد السيد البكري في وسط هذه المعمة أن يدلي برأيه في هذا الكتاب، وقد نشر أولاً في مجلة المنار حيث احتلّ أكثر صفحاتها، ومهد له صاحبها السيد محمد رشيد رضا بتقديم قال فيه^(١):

«من قراء المنار في الأقطار النائية من لا يعرف البكري، وهو من بيوتات الحسب والمجد، وقد انفرد بتلقي العلوم من مدارس أوروبا العالية (كذا) وبنيل رتبة قاضي عسكر من الدولة العلية، وهو في العربية خزانة الأدب ولسان العرب، يشهد له بذلك شعر فحل ونثر جزل».

ثم ختم العدد بقوله: «شغلنا معظم هذا الجزء بهذه الرسالة الجليلة، ليحيط القراء بفوائدها مرة واحدة، وإذا كان هذا رأي شيخ عامة المسلمين في القطر، وهم الصوفية، وما تقدم من مقالات في الإسلام والنصرانية هو رأي شيخ خواصهم من العلماء والكتّاب (يشير بذلك إلى ما نشره المنار في الأعداد السابقة عن مقالات الأستاذ الشيخ محمد عبده عن النصرانية والإسلام) وقد اتفقنا وبرهنا على أن المستقبل للإسلام والعاقبة للمتقين، فلم يبق عذر للمسلمين في تقدير القول قدره، والعمل في تحقيق حسن العاقبة!».

وبعد هذا الاحتفاء في البدء والختام من صاحب المنار، تنتقل إلى فحوى المقال، وقد أفرد السيد البكري فيما بعد بكتاب خاص طبع أكثر من مرة - فنشير أولاً إلى أن السيد الكاتب كان متفائلاً هادئاً في تفكيره، فقد جرت عادة بعض زملائه من المتحدثين عن الإسلام في معترك الدعوة إلى اليقظة والاجتهاد، أن يكونوا ثائرين منفعلين، إذ يرون نوم الأمة الإسلامية وتكالب أعدائها عليها من طغاة المستعمرين، فينحون بالغضب والملامة على هؤلاء الراقيدين، ويخيّل لبعضهم من شدة انفعاله، وعظيم غيرته، وحرصه على كرامة دينه وقومه ووطنه - كقاسم أمين - في ردّه على الدوق مثلاً، أنه يحمل عصاً لا قلماً، وكأنه صائح ينادي في تألم: أيها النوم ويحكم، هبوا، أما السيد البكري فقد ترك الانفعال الثائر، متأثراً فيما أرى بأسلوب جمال الدين حين ردّ على مناظره رينان، فاندفع في هدوء المصلح المتفائل يبشّر بمستقبل الإسلام، ويعلن أن مستقبل الأمم يتوقف في الحقيقة على أمرين

(١) مجلة المنار: شعبان سنة ١٣٢٠هـ، نوفمبر سنة ١٩٠٢م.

طبيين، هما كثرة السكان وخصب المكان، وينقل أقوال (مونتورو) و(تين) عن عظمة مستقبل الصين لاتساع مساحتها وكثرة سكانها، ثم يستعرض مساحة العالم الإسلامي وموقعه الجغرافي، ويحصي تعداد أفرادها في القارات المختلفة، ليخرج من ذلك بالاطمئنان على مستقبله الواعد وغده المرموق! .

وقد بالغ في الاعتماد على هذه القاعدة حتى قال في (ص ٦٠١) من مجلة المنار: «إذا استوفت الأمة حظها من هذين - يريد كثرة السكان وخصب المكان - عظم مستقبلها بقدر ذلك مهما حرمت في الحال من الأسباب الأخرى الكسبية كالعلم والأخلاق والقوانين والحكومة وغير ذلك، فإن هذه جميعها يأتي بها دور الزمان، وإن أخرتها آونة طوارق الحدثان» .

وواضح أن هذا الكلام لا يخلو من نظر، فإن العلم والحضارة مع الأمة المحدودة الرقعة، المتوسطة العدد أعظم غناء في أسباب رفعتها وعظيم مستقبلها من خصب المكان دون أخذ بأسباب العلم ووسائل العمران، وكان على الكاتب أن ينظر إلى الدول الأوروبية من حوله، ويقارن مساحتها وتعدادها بأمم الشرق، ليرى إلى أي غلو ذهب حين قال في عبارته السابقة: «مهما حرمت في الحال من الأسباب الأخرى الكسبية كالعلم والأخلاق والقوانين والحكومة وغير ذلك». وكأنني به قد رجع عن قوله هذا في منتصف بحثه حين تحدّث عن العلم، فجعله العماد الأول في التقدّم والعمران، وجعل الجهل علة العلل في التأخر والانحدار، وفي ذلك ما يوحى بالتناقض بين القضية الأولى (ص ٦٠١) وبين قوله (ص ٦٢١): «ويعلم مما تقدم أن الذين يعددون الأسباب الكثيرة في انحطاط الأمم وارتفاعها إنما يذكرون أسباباً ثانوية لعلّة أولى هي علة العلل وهي الجهل، أو العلم، فمن جعل السبب محصوراً في الحكومة مثلاً قلنا له: إن الحكومة لا تكون إلا على نية استعداد الأمة، وما شذ عن ذلك لا حكم له بل لا فائدة فيه» .

وانتقل السيد في بحثه إلى الرد على الافتراء الذائع إذ ذاك من قول بعض المستعمرين ودعاتهم من محترفي الاستشراق والتبشير من أن طبيعة أرض الشرق مفسدة للهمم مقعدة للأمم «فلا تكون هذه الأرضون من النعم بل من النقم» وهم يقصدون بذلك توهين العزائم، وإغلاق أبواب الأمل في وجوه المصلحين، حيث أصبح الفاسد الشرقي نتيجة محتومة لمناخ ثابت لا يتغير، ومع سهولة الردّ على هذا

الوهم فقد آثر الكاتب أن ينقل رأي فولتير في دحضه، إذ أصاب الكاتب الفرنسي مقطع الصواب حين سأل - من يذهب إلى أنّ طبيعة الأجواء تتوقف عليها حالة الأمة -: لماذا كان أهل باريس في عهد الإمبراطور جوليان أمتن أخلاقاً وأكثر صلابة وأسكن هدوءاً، وهم الآن في زمن فولتير أخف أخلاقاً وأوفر طيشاً، أطفالاً في زي رجال، وصغار في صور كبار، مع أنّ الجواهر الجواهر في القديم والحديث؟ ولماذا كان المصريون في عهد الفراعنة أقوياء العزائم ذوي فتوح وانتصارات، وهم الآن طعمة لكل آكل، ولماذا لا يوجد الآن في أثينا الآن أمثال أناتربون وأرسطاطاليس وزوقيس! ولا يوجد في روما أمثال شيشرون وقاطون وتتليف، مع أن مناخهما الطبيعي لم يتغير! .

ومع سداد السيد البكري في الاستشهاد، فقد تطرق منه إلى قضية أخرى لا تخلو من نظر، فقد ذكر أن بلاد المسلمين ستظل في أيديهم أبد الحياة، إذ جعلها الله موقوفة عليهم دون سواهم، لأن وسطها الطبيعي لا يصلح إطلاقاً لأن تعيش فيه الأمم المتغلّبة، وأيد ذلك بما قاله (لوبون) في كتابه الفسيولوجي من أنّ التاريخ قد أثبت مراراً من أنّ أهل الشام لا يمكنهم العيش في أرض الجنوب، فالبرابرة الذين فتحوا أرض الرومان لم يمض عليهم قرن واحد، حتى أفناهم الموت، كذلك عجز الرومان أن يستوطنوا أفريقية مع أنهم استوطنوا آسيا، وقال لوبون:

«ولا ريب أننا سنلاقي في الجزائر ما لاقاه الرومان في سابق الزمان، فتُهلك هذه الأرض ذراري فاتحيها». وإذا كان الأمر كذلك فإن من أسباب تفاؤل السيد البكري في مستقبل الإسلام، أن يكون مناخ الأمم الإسلامية مهلكة لأعدائها الغزاة، وهذا الكلام لا يقال على إطلاقه، لأنّ سكان المناطق الثلجية إذا عجزوا عن استيطان مناطق الحرارة في خط الاستواء، فذلك للاختلاف الهائل بين برودة متجمّد وحرارة ملتهبة، ولكن الدول المعتدلة نسبياً تستطيع أن تتأقلم في مكان آخر، ويؤكد ذلك تاريخ الهجرات المختلفة بين الشرق والغرب أفراداً وجماعات على مدّ العصور، مما جعل الأمر فوق الالتباس!

أما عجز الدول الفاتحة عن البقاء في الدول المغلوبة بقاء دائماً، فذلك يرجع إلى تيقّظ الدول النائمة واندفاعها لمقاتلة أعدائها دون هوادة، مع انغماس هؤلاء في الترف والملأ على توالي السنين، فتخور عزائمهم وتبدّد قواهم إذ تشتعل الحفائظ

والسخائم في نفوس الوطنيين، فتدور الحرب بين صاحب حق ماثب متقشّف جلد وصاحب باطل مترف واهن، وإذ ذاك ينسحب الفارّون أو ما بقي منهم مدحورين، وإذا كان (لوبون) قد قال في تأييد نظريته: إننا سنلاقي في الجزائر ما لاقاه الرومان في سابق الزمان، فتُهلك هذه الأرض ذراري فاتحيها. وقد حققت السنوات الأخيرة صواب رأيه في هزيمة الفرنسيين، وجلائهم عن البلاد، فإنّ ذلك النصر المؤزر لم يتحقق لاختلاف المناخ الطبيعي بين فرنسا وشمال أفريقية، ولكنه تحقق باشتعال الوطنية الغاضبة في الصدور، وقيام ثورة هائلة ذهب ضحيتها مليون شهيد من الأحرار، ولو لم تقم هذه الثورة، لاستطاب الفرنسيون إقامتهم في الجزائر، ولما كان المناخ الطبيعي باعث قلق أو ارتحال...».

ولو نظر السيد البكري إلى مناطق السياسة الاستعمارية في عصره وامتدادها المتشعب في شتى الأصقاع المترامية، ما اعتمد في تفاؤله بالاسم على قضية المناخ! وقد طاف السيد في مقاله بأمور هامة، فتحدّث عن تحديد النسل، وضرر تزايد إذا لم تتسع موارد الأرض والصناعة لمقابلة المدد المتكاثر، مستشهداً كعادته بآراء المشاهير من رجال الاجتماع، ثم انتقل إلى الحديث عن الجامعة الإسلامية الكبرى، و«أنّها الوطن الحقيقي للمسلم، فوطن المسلمين هو مجموع الأمم الإسلامية في الدين، وليس المراد به حبّ التربة والمسكن والأهل والعشيرة، ولولا ذلك لما كانت الهجرة في الإسلام، ولما نطق الكتاب بالحث عليها، فمن قال من المسلمين في أي بقعة من الأرض: وطني فقد قال: ديني، والتعريف بالوطن على هذا النحو هو غاية ما ترمي إليه الأمم، ويسيرُ مع سنّة العمران، ونحن نرى الأمم تضربُ نحو تلك الغاية النهائية بتأليف الأجناس، إلى جنس أعمّ كسعي الجرمان والسكسون والسيلاف واللاتين في ذلك الآن، فإذا تبيّن ذلك، كانت الجامعة الإسلامية التي أضعفت جامعات الأجناس، ونقلتها إلى جامعة عظمى: خطوة كبرى في السير نحو الجامعة التي ستضم أفراد الإنسان»^(١).

وفهمُ الوطنية على هذا النحو أثر من آثار جمال الدين الأفغاني، وقد أصبح فلسفة قائمة بأفكارها وحدودها لدى شاعر الإسلام محمد إقبال! وهدفاً مرموقاً يتجه إليه شاعر الإسلام التركي محمد عاكف! كما دعا إليه صاحب المنار في مصر بعنف

(١) مقتبس من مجلة المنار (من ص ٦٠٧ إلى ص ٦٠٩).

وقوة، إذ وقع في جدال عنيف مع قليل من كتّاب الحزب الوطني باللّواء، ممن يقصرون الوطنية على مصر وحدها، مع صلتهم الطيبة بتركيا، وكان صاحب المنار يسميهم (أحداث السياسة) تبعاً للأستاذ الإمام، وكثيرٌ من كتّاب حزب الأمة ممن يتخذون شعارهم ما سبق أن قاله كلٌّ من شريف وعرابي والتنديم (مصر للمصريين)!!.

وقد رأينا من حملة الأقلام في هذه الأيام من يعدّها من مبتكرات الأستاذ أحمد لطفي السيد، وهي تضرب بجذورها إلى أواسط عهد إسماعيل! وليس هنا مجال التسلسل التاريخي لهذا الشعار، ولكننا نشير إلى أنّ اشتداد الخلاف بين مؤيدي الوحدة الإسلامية، ومناصري القضية القومية يرجع إلى ما فهم حينئذ من التعارض الصارخ بين الوجهتين، ونحن إذا دققنا النظر بعد أن زالت السيطرة العثمانية، نجد أنّ اتجاه القومية لا يتعارض مع اتجاه الوحدة الإسلامية تعارضاً لا يقبل اللقاء والتعارف، إذ أنّ لكل بلد إسلامي أن يستقلّ بأموره الداخلية على ما يتفق ورغباته الذاتية، على أن يكون هناك حلفٌ عام بين الدول المحمّدية يرسمُ السياسة العريضة للاتجاه الإسلامي في شتى الأصقاع! وأزيدُ فأقول: إن الوحدة العربية خطوة أولى للوحدة الإسلامية، وإذا ظهر ذلك الآن قريباً من المحال في اعتقاد الكثيرين فإنّ الوحدة العربية نفسها كانت منذ عشرين عاماً شيئاً قريباً من المحال في آراء هؤلاء الكثيرين أيضاً، ولكنها الآن قد برزت إلى حيّز الوجود، وسارت بضع خطوات مباركة، وكل آت قريب!.

هذا وقد وقف السيد البكري، وقفة متأملّة عند أسباب انتشار الإسلام، وعوامل ازدياده في كل صقع؛ من أحشاء أفريقية، إلى ربوع الصين، إلى جزر المحيط، فنقل اعترافات صائبة لمفكّري الغرب ودارسيه المتفرّغين لهذا البحث، من أمثال دي كاستري، وماراشي، ولوشاتلييه، ورونان، وكونتانسون، ومارتان، ومعانوتو، تؤكد منحاه؛ ومن هذه الاعترافات الدائع المشتهر، ومنها الطريف الذي التقطه السيد من قراءاته الخاصة وجلاه أحسن جلاء! ومن أسباب الازدياد سلامة العقيدة وسهولتها وبساطتها الشريعة ويسرها وموافقتها للفطرة الإنسانية، وابتنائوها على الحكمة العقلية، هذا إلى ما أودع في الإسلام من إعلاء للنفس البشرية بتصور الذات الإلهية على صفات فوق صفات البشر، تذكّرها خمس صلوات في كل يوم، وبما

اشتمل عليه من الترفق بطبيعة البشر، حيث أباح للناس كثيراً مما يشتهون.

وكلّ ذلك من الأسباب واضحٌ مسلمٌ لا يحتمل النقاش، أما ما يستحق أن نخصه بالتعليق بين هذه البواعث فهو ما ذكره السيد من حذق الصوفية في نشر تعاليم الإسلام في كل مكان، فتراهم في أفريقيا وفي الصين وأواسط آسيا، وجزائر المحيط، وما دخل الفرنسيون قريةً في الكونغو إلا وجدوا الصوفية قد سبقوهم إليها، وزرعوا بعض الناس لهم فيها، حتى اضطّرّ والي الجزائر الفرنسي أن يؤلف جمعية خاصة بنشاطهم والبحث في عوامل نجاحهم، فبذلت جهدها في ذلك ثم أصدرت مؤلفاً ضخماً يتحدث عن الطرق الصوفية وطوائفها في كل بلد من بلاد الإسلام، مما جعل الداهية الفرنسي الخطير هانتوتو يقول في غيظ متقد:

«إن الدين الإسلامي هو الدين الوحيد الذي تفوق شدة الميل إلى التدين به كلّ ميل إلى اعتناق دينٍ سواه، ففي البقاع الأفريقية ترى المرابطين وقد أفرغوا على أبدانهم الحلل البيضاء يحملون إلى الوثنيين من العبيد العارية أجسامهم من كل شعار قواعد الحياة، ومبادئ السلوك في هذه الدنيا، كما أن أمثالهم في القارة الآسيوية ينشرون بين الشعوب الصّفر الألوان، قواعد الدين الإسلامي.. ترى في قرانا وبلداننا درويشاً فقيراً شاحب اللون متدنّراً بأرديته البيضاء المعلمة بخطوط سود يلهج لسانه بذكر الله والصلاة على نبيه لا يلوّيه عن ذلك شيء، هذا الدرويش الذي ينتقل من خيمة إلى خيمة، ومن قرية إلى قرية، راوياً حوادث الأولياء والأقطاب من مشايخ الإسلام، إنما يبذر في القلوب حيثما حلّ وأينما توجه بذور الحقد والضغينة علينا، إنّ العالم الإسلامي منقسمٌ إلى طوائف وطرائق لا عداد لها، ينخرط في سلكها الألوف من رعايانا المسلمين يخترقون بلا انقطاع ولا توائٍ مستعمراتنا الأفريقية، فيستقبلهم أهلها بالترحاب، ويحسنون وفادتهم ويكرمون مثواهم... إلخ».

والتعقيب الذي نحبّ أن نعلّق به على ذلك أنّ الدعاة من رجال الطرق الصوفية في أفريقيا قد انطلقوا من زوايا المتصوّفين من السنوسيين والعلويين وأتباع الحاج عمر بن قده، وروّاد الجلابة من السودان، وجميعهم لم يجدوا مدداً من متصوّفة مشيخة الطرق في مصر التي ظلت عائلة السيد البكري تقوم عليها أمداً غير قصير، بل كانت رسالة مشيخة الطرق في بلادنا لا تفهم لها واجباً دينياً في نشر الدعوة

الإسلامية، ولم نَرَ للسيد محمد توفيق، وقد لمس هذه الحالة وتحدث عنها، ما يشير إلى ضرورة اتجاه رجاله هذا المَتَجِه الرشيد، وهو بعدُ أكبر مشايخ الطرق ثقافة في عهده وأطلاعاً على أساليب التبشير المسيحي والدعوة الإسلامية! هذا إلى أن دعاة المتصوّفة في قلب أفريقيا لم يكونوا جميعاً ذوي المثل الرائعة، فقد اختلط بهم جهلة أقرب إلى المشعوذين، لم يفهموا شيئاً من تعاليم القرآن، وقد أطلقوا لحاهم ليُشبهوا السحرة، فيقوموا بأدوارهم الشائنة في استحضار الجن وإطلاق البخور، والتبرّك ببعض الحيات والحشرات، والتكهّن عن طريق ضرب الرمل، ومُداواة المرضى بالأحجبة والتمائم ووضع الريق على مكان الداء لدى المريض ليصحّ، وكل ذلك مما يُستغل لدى قساوسة التبشير استغلالاً مغرضاً، فيكون أداة للتنفير من دين يقوم رؤساؤه بهذه الأوهام، وهي بذلك في رأيهم من صميم الإسلام، إن لم تكن من لبّه اللباب.

هذا وقد صدّق السيد البكري ما يقوله أساتذة التبشير كدي كاستري ورونان من أن تعدّد الزوجات كان من الأسباب الداعية لانتشار الإسلام هناك، ناسياً أنهم لا يريدون بذلك إلحاق مزية للإسلام، قدر ما يريدون النيل منه، إذ أن أكثرهم يردّد أسطورة واهمة تتلخّص في أن الوثنيّ يريد أن يُشبع رغائبه الجسدية عن طريق التعدّد، وهو ما لا يجده في المسيحية حيثُ التصوّف والقناعة والحدّ من الإسراف في النزوات، وقد انبرى للرد على هذه الفرية في عصرنا الراهن، فقيّد البيان العربي الأستاذ عباس محمود العقاد، حيث يقول في كتابه الإسلام في القرن العشرين (ص ٢٠):

«فليس تعدّد الزوجات من اليُسْر، بحيثُ يقدر عليه كلّ من أَراده بين أولئك الأفريقيين، ومن كان منهم قادراً على تعديد زوجاته وسراريه فهو يعدّدهنّ حتى الساعة كائناً ما كان اعتقاده بين الأديان الكتابية، وسائر القوم من غير ذوي القدرة على الجمع بين الزوجات الكثيرات قلّما يعنيه السّماحُ له بزوجة أو أكثر من زوجة، وقلّما يُوجد في بيئته سجلٌّ يحصي عليه عقود الزواج والطلاق، وقد أجمع الرّحالون على صعوبة الاستعداد للزواج وتدبير المهر المطلوب بين قبائل أفريقيا الوسطى، فلا يتأهّل الشابّ للبناء بالزوجة الواحدة إلا أن يكون ذا مال يُحسب بما عنده من رؤوس الماشية والأنعام، ومن المستغرب حقّاً أن يتخيل المرء أفريقيّاً يدخل في الدين، ثم

يخرج منه لأنه حال بينه وبين البناء بزوجة جديدة غير التي ارتبط بها بعقد من العقود على أيدي رجال الدين، وأغرب من ذلك أن تتخيل الأفريقي الأعزب منتظراً متسائلاً لا يدخل في الدين حتى يتبين له ما يُبيحه له أو يحرمه عليه من روابط الزواج».

ولعل القارئ المنصف قد اعتقد بعد ذلك بحقيقة التمويه المقصود من عدد التعدد من أسباب انتشار الإسلام، بين وثنيي الأفريقيين، وإن كنا نرى كتاباً من دعاة الإسلام، أمثال السيد البكري لا يزالون يجعلونه ميزة هامة تجذب الناس.

وقد انتهى السيد بذلك من الفصل الأول ليعقد الفصل الثاني في سبب الانحطاط المشاهد بين بني الإسلام، وقد حصره في الجهل المطبق على الشعوب الإسلامية، فأفاض إفاضة دسمة في صلة العلم بالعرمان، وأخذ بالتقسيم القديم بين فروع المعرفة حين تحدّث عن العلم الطبيعي والرياضي والإلهي، وعن الحكمة العملية بأقسامها الخلقية والسياسية والاقتصادية! ولعلّ الحديث عن ذلك مما يعد الآن تحصيل حاصل، ولكنه كان في مفتح هذا القرن أمراً يتطلب التذليل والإقناع، غير أنّ أهم ما دعا إليه السيد في هذا المجال دراسة الفلسفة وأهميتها القصوى في بناء العقل الإسلامي المستنير ذاكراً ردّ جمال الدين الأفغاني على رينان حين سأله عن عقم المدارس في الشرق سواء القديم منها والحديث، فأجاب السيد الأفغاني بأن سبب ذلك العقم فقد الفلسفة منها، إذ هي للعلوم كالسلك للعقد أو القاعدة للمسائل، فإن فقد السلك تبدّد العقد، وإن عُدّت القاعدة تناثرت المسائل.

ثم انتقل السيد إلى وسائل الارتفاع، فأفاض في كيفية نشر العلم، وتحدّث عن طريقة نقله عن الأمم المتمدنة، وعن تقسيمه إلى ابتدائي وثنائي وعالي، ثم حدد رأيه في الدراسة الجامعية بالكليات، وقد كان هذا الحادث مما يهم قارئ المنار سنة ١٩٠٢، حين كانت المدارس الثانوية بأنحاء البلاد لا تتجاوز أصابع اليد الواحدة، وحين كانت الجامعة حلماً يترأى من بعيد، على أنّ الباحث التاريخي لا يسعه إلا أن يقدر هذه الخطوات، التي قدر لها أن تهيب الأذهان لحاضرنا العلمي المزدهر.

والطريف حقاً فيما جاء به السيد البكري بصدد تدبير المال اللازم لهذه المدارس والكليات، فقد ذكر أن المال المطلوب لا يتجاوز ريالاً واحداً عن كل شخص من الأمة، وهو ثلث ما تنفقه أمة كالأمة المصرية على الخمر والدخان في كل سنة،

والحصولُ على هذا المال يكون إما من طريق الحكومة بالطلب منها والإلحاح عليها والاستماتة في ذلك، أو من طريق الأمة بالاكتتاب العام الدائم والحث عليه بالخطب على المنابر وفي الجرائد وغيرها، وقد كان للسيد جمال الدين الأفغاني رأي في ذلك، هو أن ينشأ صندوق يستمى صندوق المسلمين، يُوضع في كل قرية وعلى كل طريق ومسجد، ويُجمع فيه المال الصالح لذلك، ولا بأس من جعله تحت إدارة مراقبة رسمية لتزداد ثقة الناس به، كما جعلوا صندوق التوفير تحت إدارة مصلحة البريد.

وكانت خاتمة مقترحات البكري دعوة حارة إلى أن يؤلف العقلاء في كل قطر جمعية يسمونها جمعية مستقبل الإسلام، وأن يؤلفوا جمعية أخرى عامة تضم هذه الجمعيات تسمى المؤتمر الإسلامي، ينعقد في مكة أو في أي مكان يُتفق عليه كل سنتين مرة، ويكون أعضاؤه جميعاً من الأقطار المختلفة، ووجهته إصلاح أحوال المسلمين، ونشر التعليم الذي هو وسيلة لذلك! والاقتراحُ دون شك صدقٌ قوي لدعوة عبد الرحمن الكواكبي في مقالات (أم القرى) وقد نُشرت متفرقة إذ ذاك سنة ١٩٠٢ في المنار وغيره دون توقيع، وإن كاتبها المقنع في غير حاجة إلى تعريف! ثم ختم البكري اقتراحه الحماسي بقوله:

«أيّ دولة قامت أو راية نصبت أو أمة خلصت أو وحدة تألفت إلّا بالجمعيات، فالجمعية عامل لا يموت، وأمة في واحد، هل اجتمعت الأمة الإيطالية أو تهيأت الجامعة السلافية والجنسية السكسونية إلا بالجمعيات السرية أو الجهرية، هذه الأمة الأرمنية، والطائفة المقدونية، والفئة الكريتية على صغرها في الوجود وكونها لا تكاد تذكر بين كل موجود تعمل أعمال الجبابة في الخلاص من حضيض الأسر إلى أوج النسر، والأمة الإسلامية التي ملأت المشرقين والمغربين تنتفض انتفاض الطائر في شباك الصائد، ولا تعمل للنجاة عملاً، وكيف ترجو الوصول إلى الغاية وهي لا تنقل إليها قدماً، ولا تحرك شفة ولا قلماً، ومن طلب شيئاً وجده، ومن تركه فقد»^(١).

وقد كان لهذا البحث دوي كبير في المحافل الفكرية، وعلى صفحات المجلات العلمية، وأبرز من تعرّض للتعقيب عليه تعقيباً مفصلاً من الكتاب الأستاذ الكبير

(١) مجلة المنار ص ٦٣٢.

محمد فريد وجدي حيث ظهر العدد التالي من المنار (رمضان سنة ١٣٢٠ ديسمبر سنة ١٩٠٢) يحتل بقلمه إحدى عشرة صفحة خاصة بالتعليق عليه، وقد ذكر الأستاذ وجدي أن مقال السيد البكري يتفق مع آرائه في الغاية، ويلاقي تفكيره في النهاية، إذ كلا الرجلين يعتقد أن المستقبل للإسلام لا محالة، ولكن طريقة ازدهار هذا المستقبل عند الأستاذ وجدي ليست هي الطريقة التي رسمها السيد البكري في بحثه؛ لأن تعليق حياة الإسلام على مؤشرات الوسط وعوامل المكان لا تناسب مجده وعلو شأنه، وأهميته أكبر من أن تدفع الكاتب إلى تحزّي أفكار الأفراد لتسكين الخواطر على نجاة بلدانه.

ومستقبل الإسلام في رأي الأستاذ فريد يزدهر حين تجيء دولة الروح، ويخرج الإنسان من قهر المادة العمياء، الإسلام في رأي الأستاذ فريد «يزدهر حين تجيء دولة الروح، ويخرج الإنسان من قهر المادة العمياء، وسلطان الطين الأصم، وينقلب من حال مادي إلى حال روحاني كما انقلب من حال فطري إلى حال فكري عقلي، فتشرق الروح في عالمها، وتزعج الإنسان إلى أداء مطالبها، وتصبح به لأن يعرج بها إلى محتدها، ويصعد معها إلى أوجها، كما كانت تزعجه المادة إلى القيام برغائبها وتميل به إلى عالمها»^(١).

وقد أفاض الأستاذ وجدي في هذا المجال إفاضة شاعرية لا واقعية، وعهدي به في دراساته العلمية واقعي التفكير، واضح الهدف مأمون العثار، ولكنه في هذا التعقيب المطيل بالذات لا ينهج منهجه المتعارف، ويكفي للرد على سبحاته الشاعرية، أن الروح حين ترتقي في الحياة الدنيوية لابد أن ترتقي معها المادة أيضاً، فلا سبيل إلى الخلاص من الجسم ورغائبه ومطالبه ما دمنا نتمتع بالحياة، وقد جاء الإسلام ليوائم بين رغبات الجسم وأشواق الروح، فهو كما قرر الأستاذ وجدي في أكثر من مؤلف، لم يَجِ ليُعقّي على آثار الرغبات الجسمية، ويدعو إلى الرهينة والحرمان، ولكنه جاء ليضع لكل شيء ما يناسبه، فللجسم أن يتمتع بملاذه المشروعة، فياكل الإنسان من الطيبات، ويتحدث بنعمة الله عليه في المسكن والملبس، ويبني أسرته على سنن طاهر شريف، وللزوح أن تأخذ أكبر حظ من الفضيلة، فتجنح إلى التسامح والسمو والعلو عن الدنيا والبعد عن الموبقات!!

(١) مجلة المنار: ٦٠٣/٥.

أما أن يكون للروح مستقبل منفصل عن الجسد في الحياة فما أظنّ ذلك ممكناً، ولا أظنّ الأستاذ وجدي يقول به في مجال الدّارس الواقعي لا الشاعر الحالم، وقد عاش الأستاذ جلّ حياته يؤمن بالتنويم المغناطيسي، واستحضار الأرواح ويتخذ منهما دليلاً ينقض به المذهب المادي! والالتجاء إلى تأييد الإسلام بأمور لم تأخذ بعد صبغتها العلمية الدقيقة لا يفيد كثيراً في إعلاء قضيتّه، ومنطق الواقع هو المحترم المطاع!.

ثم قال الأستاذ وجدي^(١)، بعد أن فرغ من الحديث عن دولة الروح، ليري السيد أن أنجع الوسائل فتح المدارس وترتيبها، وترجمة الكتب العلمية ونشرها، ومشاطرة الأجانب لغاتهم والتعمق فيها، ويرجو لذلك أن تعقد جمعيات، وتشكّل هيئات، وتنضم أصوات، وتتحد جهات... إلخ، ولكنه لم يَسِرْ سير العالم ولا الفيلسوف العمراني فيما قال، أما ما يسوقه الأستاذ وجدي من دفع هذه الاقتراحات فهو أنّها من قبيل الوعظ المكرر والحماسة العاطفية، في عصر تكثر فيه شكوك الإلحاديّين من مادّيّين لا يؤمنون بواجب الوجود، وقائلين بارتقاء الإنسان من حيوان إلى بشر، وهاتفين بأن الفضيلة ليست دعوة دينية سماوية ولكنها ضرورة اجتماعية دينوية! وكلّ هذه الشبه المتعاصية قد نشأت في وسط العالم الأوروبي، ونبع سمّها من ذرات هذه المدنية العجيبة، فالتأثّر بأكثر العقول أقدارها، وتسمّمت الفطر بسمومها، وقد سرت هذه السموم إلى شبيبتنا الإسلامية التي نهلت من العلوم الأجنبية، وذهب بها مذهباً لا يجعلها مع هؤلاء ولا هؤلاء^(٢).

وعلاج ذلك في رأي الأستاذ أن نتعهد رابطتنا الأصلية وهي الدين، فنجليه إلى أذهان الشيبية في شكل يذهب شكوكهم وشبههم، ويُرجع إلى تلك الفطر الإسلامية نُورها الصافي حتّى تدور على نفس القطب الذي كانت تدور عليه تلك الأرواح الطاهرة والنفوس الكريمة، روح سيد ولد آدم وأصحابه الذين كانوا حجة الحق الدافعة^(٣).

ومن المعلوم بداهة أن تجلية الشكوك الإلحادية وطردها عن أذهان الشيبية

(١) مجلة المنار: ٦٥٨/٥.

(٢) مجلة المنار: ٦٦٤/٥.

(٣) مجلة المنار: ٦٦٦/٥.

الإسلامية لا يكون بادیء ذي بدء إلا بنشر العلم وافتتاح المدارس، وتأليف الكتب وإقامة الجمعيات الخاصة بذلك، وإذا توانت الحكومات فكيف نصل إلى تبديد الشبهة الإلحادية دون مدارس وكتب ومؤلفات!!! فدعوة السيد البكري إلى ذلك قد أتت الشيء من بابہ دون نزاع، وما يُريده الأستاذ محمد فريد وجدي من العلاج الناجع لا يتحقق إلا عن طريقها.

أما صاحب المنار السيد محمد رشيد رضا فقد ذیل مقالة الأستاذ وجدي بتعقيب فاصل، أعلن في نهايته ألا تنافي بين الكاتبتين، ولا تناقض في الحقيقة، وكلّ منهما قد أحس في الوجه الذي كتب فيه، وأن التنويم المغناطيسي واستحضار الأرواح لم يزل أمرهما مبهماً، ومستقبل أثرهما مجهولاً، وتعليقُ الإسلام عليهما لا يحث المسلمين على عمل، ولا يُحيي في نفوسهم ميت الأمل، أما ما ذكره الأستاذ وجدي من شبهات أوروبا على الدين فهو لا يمسّ الإسلام، لأنّ عقائده مؤيدة بالعقل، وسيرة المسلمين أظهر سير البشر عندما كانوا يتمسّكون بالإسلام الصحيح الخالي من الشوائب والخرافات.

وراصدُ التطورات الفكرية فيما كان يدور حول الإسلام من بحوث تتعلق بمستقبله وحاضره وماضيه، يرى أن مقالات مستقبل الإسلام بالذات، وقد بدأها السيد جمال الدين الأفغاني، ثم أفاض فيها الأستاذ محمد عبده إفاضة شافية في سلسلة مقالاته عن الإسلام والنصرانية، وقد نشرت تباعاً بمجلة المنار قبل أن تجمع في كتاب خاص، كما جاءت مقالاتنا السيد البكري والأستاذ وجدي تبحثان الموضوع نفسه! هذه المقالات قد تكوّن منها عرض مستنير يكشف نور الإسلام، ويواجه أعداءه مواجهة صريحة، وقد حرص المستشرقون على دراسة هذه البحوث دراسة جدية، فاضطّروا أن يغيّروا من وجهة نظرهم إلى الإسلام تغييراً يوجب المنطق الصريح، وهكذا كان حديث البكري عن مستقبل هذا الدين ينبىء عن معدنه كذي ثقافة إسلامية تؤهله لقيادة الفكرة الإصلاحية، وحبذا لو كان قد تفرغ إلى تجلية الحقائق الخالصة، والرد على الشبهات الوافدة، ولكنّ اشتغاله بالأدب الفني نثراً وشعراً - في حدود مفهومه الخاص لرسالة هذا الأدب - قد عاقه عن الجولان في هذا النطاق، فأى كاتب دقيق النظر حُرمناه في ميدان النضال!!

* * *

المؤرّخ الملتزم محمد صادق عرجون

- ١ -

لا تصدق عبارة (الأسلوب الرجل) كما تصدق على العالم الأديب المؤرخ الأستاذ محمد صادق إبراهيم عرجون، ففي أسلوبه ما في شخصيته من فحولة وشجاعة وقوة، وأنت إذا كنت تعرفه وألممت بصفاته، ثم قرأت أثراً من آثاره وجدت الرجل مُصَوِّراً فيما كتب.. لقد كان الأستاذ ذا حميّة مخلصّة، وغيره ملتَهبة تلمسها في حديثه، كما تراها في بريق عينه، وتوهّج ملامحه، فإذا قرأت له موضوعاً جدليّاً مما خاض فيه مع من يخالفهم الرأي تمثّلت لك هذه الملامح فيما تقرأ، فتجزم بأن الأسلوب الرجل.

لقد درس الأستاذ بالأزهر ونال درجة العالمية سنة ١٩٢٩ ثم درجة تخصّص القديم سنة ١٩٣٥ وعيّن مدرّساً بالأزهر، فأستاذاً بالكليات، فشيخاً لعدة معاهد، فمديراً للتعليم الأزهري، فعميداً لكلية أصول الدين، وهو في أدوار حياته طالباً ومدرّساً ورئيساً شخصية مرموقة؛ لأنه عشق الأدب صغيراً. وعيّن مصحّحاً بالأهرام طالباً، حتّى إذا درج في مرحلة التعليم العالي عرفه القراء كاتباً شاعراً في الصحف اليومية والمجلات الأسبوعية، وعرفته دار جمعية الهداية الإسلامية محاضراً بين الكبار من أئمة التوجيه الديني في عصره، ورئيس الجماعة حينئذ أستاذنا الكبير الشيخ محمد الخضر حسين، وقد اعترف الأستاذ عرجون بأستاذيته المثمرة حين خصّه بالودّ والنصيحة العلمية، والتوجيه الأدبي، كما اعترف بأستاذية العالم الكبير الشيخ إبراهيم الجبالي الذي تشبّع بأسلوبه العلمي كاتباً ومفسّراً ومحدثاً.

وإذا تعدّدت نواحي الثقافة العلمية لدى الأستاذ، فإنّ منبعها الرائق في كتب التراث، ومحاضرات الأساتذة بالأزهر، ومشكلات العصر الاجتماعية والسياسية

التي دفعت الطالب الناهض إلى المشاركة بالرأي فيما يقرأ ويسمع . . كل ذلك قد فرض عليه اتجاهًا قياديًا في التفكير كاتبًا، وفي السلوك إنسانًا، وهو اتجاه المسلم المتحمّس الغيور، الذي يستطيعُ المجادلة في حومة الرأي، ويلجُ أدقّ المعضلات الشائكة غير هيّاب، وإذا كانت هذه السمات الفكرية قد اتّضحت على نحوٍ ما في مؤلفاته الكثيرة، فقد ظهرت في أكمل معارضها، وأدقّ مناحيها فيما كتبه في موسوعته الرائعة عن رسول الله ﷺ ذات المجلدات الأربعة الحافلة! حيثُ كانت معرضاً للصيلال الذهني المتوثّب، كما سنشير إليه عن قريب . .

تخرّج الأستاذ صادق في قسم التخصص الخاص بدراسة البلاغة والأدب، فاتجهتْ همته حينئذٍ إلى الدراسات الأدبية وحدها، وكانت مجلة الأزهر منبره الذي أذاعَ منه آراءه الأدبية في مسائل هامة كانت هي الشاغل الأكبر لكثير من أدباء هذا العهد، لأنّ كتاب الأدب الجاهلي للدكتور طه حسين قد أثار خواطر كثيرة حول اللغة العربية في العصر الجاهلي، وقد عارضها الكثيرون ممّن نقدوا آراء الدكتور طه حسين في كتب ذائعة، ولكنّ صادق عرجون رأى أن يتحدث عن بعض هذه النقاط في مقالات مركزة بحيث لا تقتصر على ما أثاره صاحب الأدب الجاهلي، بل تتعداه إلى ما يتسع له المجال من الموازنة والنقد والتقدير، وقد توالى مقالات الأستاذ تتحدثُ عن البيئة وأثرها في الشعر الجاهلي وعن أدب الحضارة وأدب البداوة، فوفق كثيراً فيما علّل به قلة الأدب الحضاري في بلاط المناذرة بالعراق، ومحافل الغساسنة بالشام، وقارن بين قصائد العصر العباسيّ المتحضر وقصائد العصر الجاهلي المتبدّي مقارنةً تعتمد على النصوص الشعرية المتعارفة، ولعمري إنّ هذا المجال مما تضيقُ به عدة مقالات سريعة، وكان الأولى أن يتّسع مداه في كتاب حافل .

ولم تمرّ مقالات الأستاذ مروراً عابراً، ولكنها وجدت من يتعقبها بالرد والمناقشة، وأذكر أن الأستاذ تحدث عن الحياة الأدبية عند العرب في مقالٍ ضاف، ينتهي إلى ما يؤكّد قوة التفكير لدى العربي الجاهلي، ووجود أدب راقٍ في هذه الحقبة، إذ ليس من المعقول أن توجد حضارةٌ في اليمن والعراق والشام ثم لا ينبعث عنها أدب حيّ، أمّا هذا الأدب فقد ضاع وفُقد، كما ضاعت آلاف القصائد .

وقد علّق الأستاذ الكبير محمد فريد وجدي على مقال (الحياة الأدبية عند

العرب) بما يخالفه، ذاهباً إلى أن القول بأن الارتقاء الفكري عند الجاهليين يُنافي ما ثبت من الأمية الضاربة بين ظهرائهم، ومؤكداً أن هذه الفكرة في أصلها منبعثة من صحف الاستشراق ولأصحابها كيد خفي، إذ أنهم بتقريرهم هذا الارتقاء المزعوم، يحاولون أن يُضائلوا من بريق الإسلام باعتباره منبثقاً عن هذا الارتقاء، بمعنى أن تعاليمه الراقية كانت صدىً لهذا الفكر المتوثب، وأن صاحب الرسالة وجد النفوس مهياًً للدعوة الجديدة بفضل هذا الارتقاء، فأقبلت على الإسلام هاتفةً مرحبةً، وهذا ما يخالف الواقع المتعالم، إذ لو صدق هذا الزعم ما وجد الرسول ﷺ هذه المعارضة الحادة لدينه، ولما تعرّض أتباعه للتعذيب الرهيب والمقاطعة الصارمة، حتّى كان قتله مبيّناً لدى أعدائه من المشركين، فأين هو الارتقاء الفكري الذي بعث على تقبّل الإسلام في سهولة ويسر! ولماذا كانت الحروب الدامية في بدر وأحد والخندق وحنين والطائف وتبوك إذا كانت نفوس العرب قد تهيّأت لنور الإسلام؟.

هذا لبابُ ما قاله الأستاذ محمد فريد وجدي، وقد كتب الأستاذ عرجون ردّاً ضافياً يشرح وجهة نظره ويؤيّد دعواه، ولكن الأستاذ وجدي وهو رئيس التحرير قد طوى الرد مكتفياً بتعليق موجز قال فيه: إن كلا الرأيين قد وضح للقارئ فيما كتب الناقد والمنقود! ولم يرض الأستاذ عرجون بهذا الاكتفاء، فأفرد كتاباً مستقلاً يتضمّن النقاش بدءاً وخاتمة، وتلك شجاعة نعهدها فيه، لأنّه لا يسكت عن تقرير منحى يؤكّده ويرفضه.

ثم والى كتاباته الأدبية بمجلة الأزهر دائرةً حول الأدب العربي ومناهجه ومقرراته في الأزهر والجامعة، وما ينشدّه من وسائل الإصلاح لترقية اللغة العربية وأدبها في العاجل القريب، وكان المظنون لدى من قرأ هذه الفصول الجيدة في عالم الأدب العربي أن الأستاذ سيمتدّ في بحوثه الأدبية إلى مدى يشغله حيناً من الدهر، ولكن الأستاذ ترك البحوث الأدبية الخالصة إلى ميدانٍ آخر هو ميدان التاريخ الإسلامي، فكيف تهيّأ ذلك له، ولم تكن المقدمات الأولى دالةً عليه؟ إن نبوغ الأستاذ فيما دوّنه عن رجالات العهد الأول في الإسلام، وذيوع آثاره في هذا النطاق على نحوٍ ممتد جعله علماً مرموقاً بين مؤرخي هذا العصر الكريم، هذا النبوغ البارز يدفعنا إلى تعليل هذا الاتجاه بدءاً، ثم محاولة الإمام ببعض ما امتاز به من السبق الميمون.

كان الأستاذ يدُرِّسُ لنا التفسير بكلية اللغة العربية، وكنتُ أحادثُه كثيراً في نتاجه العلميّ، فعرفتُ منه سرّاً اتجاهه إلى تحليل الشخصيات اللامعة في صدر الإسلام، إذ حدّثني أنه قرأ كتاب قادة الفكر للدكتور طه حسين، فوجده يُزجّع التقدم الفكريّ إلى الثقافة اليونانية، ويتجاهلُ ما عداها من الثقافات السابقة، وفي طليعتها الثقافة المصرية التي أثبتت نصوصُها المدوّنة تأثر (هومير) بأقاصيصها، وقد نُوقش الدكتور في رأيه مناقشةً جادّة، ولكنّه لم يبالِ بالرد على معارضيه! يقولُ الأستاذ صادق عرجون:

«لقد وجدت النقاش يدور بعيداً عن الدائرة الإسلامية، فلم يُشر أحدٌ إلى تتابع الدورة الثقافية شرقاً وغرباً، وإلى أنّ هذه الدورة قد انتهت إلى الفكر الإسلامي، فأحدثت أثرها القوي في تاريخ الفكر الإنساني، فقلتُ في نفسي: إنّ الضرورة ملزمةٌ بالحديث عن قادة الإسلام وأثرهم في تحرّر الفكر الإنساني، وإذا كان عظماء الصدر الأول من رجال الإسلام قد جمعوا بين السياسة والفكر، أي أنهم أخضعوا الفكر النظري إلى الميدان العملي، فصدروا في أحكامهم واتجاهاتهم عن شريعة ذات هدف إنساني! فإن زعماء هذا العهد قادةُ فكرٍ بهذا المعنى!

وإذا كان الدكتور طه حسين في كتاب (قادة الفكر) قد اعتبر الحاكم الروماني الشهير (يوليوس قيصر) أحد قادة الفكر الإنساني، مقروناً بسقراط وأفلاطون وأرسطو، فلماذا لم يكنْ مثل عمر بن الخطاب من أعظم قادة الفكر الإنساني، وقد مارس تطبيق الشريعة الخالدة ممارسة المفكر المجتهد الحصيف، وأبدى من الآراء في قيادة الدول وصلاحيّة المجتمع وتحقيق مبادئ الإخاء والحرية والمساواة ما ارتفع به عن مستوى فلاسفة الإغريق؟.. لأنّ هؤلاء قد قالوا كلاماً وقَرّروا قواعد ثم انتهى دورهم الفكري حيث رقد في بطون المجلّدات، أما عمر فقد التزم بأصول الشريعة التزام المفكر المجتهد العالم في سياسته العامة والخاصّة، وله زملاء من الصحابة شاركوه الرأي والتنفيذ، وهؤلاء جميعاً نماذجٌ ممتازة لقادة الفكر الإنساني قبل أن يكونوا نماذج ممتازة لقادة الفكر الإسلامي الذين تخرّجوا من مدرسة محمد ﷺ! بهذه النظرة انتقلت إلى دراسة رجال الصدر الأول من تاريخ الإسلام. وكتبْتُ المقالات المتتابعة تحت عنوان (قادة الفكر في تاريخ الإسلام) مبتدئاً بالفاروق عمر بن الخطاب».

هذه خلاصة لحديثٍ متشعب سمعته منذ أربعين عاماً، فشاقتني أن أرجع إلى هذه الفصول القيّمة التي أشار إليها الأستاذ، وقد بدأها في سنة ١٣٥٨ هـ، الموافقة لسنة ١٩٣٩م بمجلة الأزهر، فافتتحها بمقدمة حافلة تتحدث عن سابقة الفكر الإنساني في عهد اليونان والرومان والإسكندرية، فأوجز ما اتسعت له المؤلفات الكبيرة إيجاز الملمّ المركز، حتى انتقل إلى فجر الإسلام فقال عن عهده الزاهر:

«كان الفكر قبل الإسلام فلسفياً في كنف الفلسفة، وتشريعياً في كنف الفقه والتشريع، وسياسياً في بيئة السياسة، واجتماعياً في ظل الاجتماع، فلما جاء الإسلام احتضنه، وأعظم شأنه، وجعله المهيمن على منافذ الحياة كلها، والإسلام دين فلسفة وتشريع واجتماع وأخلاق، يسمو بالفرد والجماعة من طريق تكميل خصائصهما الطبيعية، فكان مجال الفكر فيه أرحب ساحة، وأوسع مدى، وأقرب غرضاً، وأجمع لمناحي الوجود؛ فهو في ظل الإسلام سياسيٌّ تشريعيٌّ، واجتماعيٌّ خلقي، وفلسفيٌّ علميٌّ، غير أنّ حيوية الإسلام القاهرة جعلت من روحه قوةً مهيمنة على الفكر تُسدده في سيره، فأخذته بالتربية المندرجة بعد أن أحاطته علماً بسمو حقيقته».

إلى أن قال: «وسأحاول أن أصوّر مراحل الإسلام في أشخاص قادته في تاريخ الإسلام غير متقيد بتاريخ زمني»^(١).

وفي هذا النطاق كتب الأستاذ فصولاً متسلسلة عن عمر بن الخطاب وعلي بن أبي طالب، وعبد الله بن عباس وعبد الله بن عمر وعبد الله بن الزبير وعبد الله بن عمرو بن العاص، وأبي بكر الصديق وعبد الله بن مسعود - رضي الله عنه -.

وللكاتب بيان أسرّ، واطراد متدفق لا تلمح به فجوة، أو تشينه مبالغة، وقد يكون مكتفياً بالخطوط البارزة عن غيرها من المسائل التي تشعب وتمتد، وعذره أنّه كاتب مقالات! لا صاحب بحثٍ مستقل في هذه الفصول، أما البحث المستقل المستوعب حقاً فقد تجلّى في كتابيّه الرائعين عن (عثمان بن عفان) و(خالد بن الوليد) - رضي الله عنهما - وقد قوبلا بترحيبٍ حارٍّ من كبار الناقدين.

لقد جاء كتاب عثمان على فترة من عهدٍ كثرت فيه الكتابة عن صدر الإسلام،

(١) مجلة الأزهر: السنة العاشرة سنة ١٣٥٨ هـ (ص ٦٣).

فخاض الكتّابون في بحرٍ لَحِي لم تَطْمئنْ سَفْنُهُ إلى مرفأٍ مريحٍ، ومنهم من أراد الوصف بالاستقلال المتحرّر، فأنحى باللوم القارص على الخليفة الراشد لأُمُورٍ لم تتأكد، بل تنوّلت دون تمحيص! فكان من شأن الأستاذ عرجون أن يقف موقف المحامي الذائد عن رجل ظَلِمَ حيّاً وميتاً، وهو أحدُ المبشرين برضوان الله.

والذين كتبوا عن مؤلّف الأستاذ يلحظون أنّه أخذ جانب الدفاع المطلق عن الخليفة الشهيد، ولا يعدُّ ذلك تحييزاً متعصباً، لأنّ المتحيّز هو الذي يُدافع عن خطأٍ بأنّ له وجهه، وأراد أن يطمسه بأدلةٍ مفتعلة! أما الذي يُدافع عن رجل رُمي بالباطل في كثيرٍ مما قيل فيه، فاتّضح له وجه البطلان في هذا الكثير، وقَدّم من الأدلة ما يعصف به فلا يكون حينئذ متحيّزاً؛ بل يكون ناصراً للحق، داحضاً للباطل.

وقد اهتدى المؤلّف إلى ميزانٍ صائب، قال عنه: «وعندي أنّ أعدل ميزان لوزن الرجال وتقدير أعمالهم، ومعرفة الصحيح من الزائف مما ينسب إليهم، وكتابة سيرهم كتابةً تقرّبها من الحق والإنصاف؛ إنما هو دراسةُ أخلاقهم الشخصية، وتعرّف أحوالهم من حياتهم، حتى يمكن الباحث أن يتخذ من هذه الدراسة (صنجةً) يزن بها كل ما يصادفه في طريق البحث من رأي أو مذهب أو رواية»^(١).

وهذا الميزانُ الذي اتخذهُ الأستاذ صادق عرجون، قد سبق الأستاذ العقاد إلى تقريره واصطناعه في كلّ ما كتب عن أعلام الصدر الأوّل، وآفةُ هذا الميزان أنّه في بعض الأحيان يُغفلُ ما ركّب في الإنسان - أي إنسان - من ضعفٍ إنساني يعترّيه في فترةٍ خاصة، فيعدل عن الصواب إلى الخطأ، وهو يعلم أنّه في هذا المسلك مخطيء غير مصيب؛ إنّنا نعرف ذلك من أنفسنا تمام المعرفة، كما نعلم أنّ العصمة لن تكون لغير نبي! فإذا كان علّم من الأعلام قد عرف من خصاله المتكررة الصدق أو الشجاعة أو الحلم، فليس معنى ذلك أنّ هذه الصفة أصبحت مبدأً مقررّاً لا سبيل إلى الحيدة عنه في لحظة من لحظات الضعف الإنساني! وهنا تكون المؤاخذه التي لا يسلم منها بشر غير معصوم!

ولا أعني بذلك أنّي أعارض المنحى الذي اتجه إليه كل من الأستاذين العقاد وعرجون، ولكنني أؤيده وأضيف إليه من التحفّظات ما يجعله راجحاً لا مؤكّداً. . .

(١) عثمان بن عفان: ص ١٦٤.

وأشهد أنّ هذا الميزان الراجح قد سلم في يد المؤلف في أكثر ما عالج من مسائل مشتبكة دقيقة، وقد ظلت المكتبة العربية خاليةً من كتاب ينصف الخليفة الثالث إنصافاً يعتمد على الثابت الراسخ، مما لم تجوّفه الأحداث حتى جاء الأستاذ عرجون فألف كتابه البديع .

وقد كنتُ أقرأ صفحات الكتاب وأنا معجب كل الإعجاب بحميّة المؤلف وصدق دفاعه، وكم وقفت أثناء القراءة لأستعيد عبارات قوية كان لها أبلغ الأثر في نفسي، وأشهد لقد هزّتني كلمات منه رسبتُ إلى أعماق الأعماق من وجداني، فجعلتني أشعر بكل نبضةٍ من نبضات الحسّ المؤمن التي شعر بها المؤلف وهو يجمع خواطره المحتدّة في مواقف دقيقة يجيشُ فيها الشعور المؤمن بما لا يُستطاع كتمانها بحال، ومن هذه المواقف ما شعر به المؤلف حين تطرّق لموقف عثمان من علي، وموقف علي من عثمان في هذه الفتنة الغاشية، حيث بدأ حديثه الرائع بقوله في الفصل التاسع تحت عنوان (بين عثمان وعلي)^(١).

«هذا الفصلُ لم يكن القلم فيه بليل الريق، طيّع المقادة، ولكنه كان وقافاً كثير التلّؤ، كثير الحذر، وأنا أشهد الحقّ أنّي عذرتُ قلبي وعذرتُ نفسي، فإن عذرتني الناس فنعمًا هي، وإن أبوا فما أحب أن أرضيهم بسخط الله تعالى، وسخط البحث، وإنّ من حق البحث على الباحث أن يترقّق في المضايق، وأن يتّدد معه في الخطو عند المزالق، وأن يتشبّت عند اشتجار الآراء، واختلاف المذاهب، وتضارب الروايات».

لا أشك في أن هذا الشعور الذي تلبّس الأستاذ في حديثه عن الخليفَتين الشهيدَين هو شعور كل مسلم صادق الإيمان، وإنّك لتعرف هذا الشعور لدى من يهيّمون حبّاً بالمثل الإنسانية الرفيعة، كما تعرف نقيضه لدى من يكتبون بروح مريضة، تعرف الحق وتناهى عنه لغرض مريب .

- ٢ -

ألف الأستاذ صادق كتابه عن خالد بن الوليد عقب تأليفه كتاب عثمان، وقد

(١) عثمان بن عفان: ص ١٦٤ .

جمعت بين الرجلين الكبيرين مَشَابِهٌ دعت إلى الحديث عنهما، إذ أنّ ما قيل عن عثمان من شُبهِ يماثل في بعض مناحيه ما قيل عن خالد، وليست هذه المماثلة تعني المشابهة في الاتهام، بل تعني أن كليهما قد أُرْجِفَ به، وحملت بعض أعماله على خير وجهها الصحيح، وإذن فروح الدفاع التي تجلّت في كتاب عثمان هي نفسها روح الدفاع التي تجلّت في كتاب خالد.

يقول المؤلف في مقدمة كتابه: «والصورة التي يراها القارئ في هذا البحث لبطل الإسلام خالد بن الوليد هي صورة من صنع الإسلام للنماذج الإنسانية في ميادين الجهاد، وقد سلطنا في عرض الملامح المقوّمة لشخصية خالد طريقتنا في تتبع الروايات التاريخية، ونقدناها على ضوء الخطوط الأولى للشخصية المصوّرة، وناقشنا حوادث وأحداثاً اضطربت فيها الروايات، وانحرف بها التاريخ، فكانت مزلفةً لبعض كبار الباحثين ممّن جانبهم التوفيق في دراستها، وأتينّا بها إلى مكانها من الحق في سجلّ التاريخ على قدر ما وسعته الطاقة، واتسع له مجال البحث».

وقد وُفّي المؤلف بما قال عن حميّة وغيره نعهدهما في قلمه الصوال، فتحدّث عن خالد قبل الإسلام، وعن خالد في طريقه إلى الإسلام، وعن جهاد سيف الله أيام الرسول ﷺ، وخصّ جهاده في فتح مكة بفصل خاص، ثم عن بلائه في حروب الردة، وفي البعوث المختلفة، وكان مصيباً كل الإصابة في وصف معارك اليمامة، ثم في معارك فارس والروم، ووقف وقفاتٍ قضائية ذات حيثيات موضوعية في مسألة عزل خالد عن القيادة بأمر الفاروق، منتقلاً إلى تفنيد ما رآه الدكتور محمد حسين هيكل في دواعي هذا العزل وملابساته، موضحاً وجهة نظر مخالفة، وهذا من حقّه حين بدا له ما يخالف رأي الدكتور هيكل في تحليل هذا الموقف، ولكنّ الذي ليس من حقّه أن يتناول على الدكتور هيكل، وأن يُسرف في هذا التناول إسرافاً مبالغاً حين يقول:

«الحق أن قارئ كتاب الفاروق يخرج من قراءته بصورة لعمر بن الخطاب جديدة كل الجدة على معارف المسلمين، وتنكرها عقولهم وتنفر منها قلوبهم»^(١).
وحين يقول: «إن الدكتور هيكل وأضرابه لا يفهمون الإسلام بروح الإسلام، وإنما يكتبون عن الإسلام بأقلام غريبة عن الإسلام، أو على الأقل يكتبون بروح تتعبّد

(١) خالد بن الوليد: ص ٣٠٣.

بتقليد أساتذتهم المستشرقين»^(١). أو يقول: «هذا التحليل، وذلك التحقيق سداه ولحمته هدم ما بناه الإسلام من شخصيات فارعة العظمة، وتشكيك الناس في حقائق التاريخ التي تصوّر عظماء الإسلام في حقيقتهم العليا»^(٢).

وهذا كلّه تجنّب لا مبرر له، فقارئ مؤلفات هيكل الإسلامية يخرج بانطباع صادق يوحي بغيرة الكاتب الكبير وإخلاصه، وما قاله عن خالد وعمر قاله من قبله كتاب التاريخ من لدن الطبري إلى يومنا هذا، وإن اختلفوا في التعليل والاستنتاج اختلافاً لا يجعلنا نلج إلى السرائر، فنحكم عليها بما لا نعلم، ولم يكن الدكتور هيكل في كتبه الإسلامية تلميذ الاستشراق، بل كان المهاجم الألدّ لما افترّوه، وكتبه (حياة محمد) و(في منزل الوحي) و(الفاروق عمر) ناطقةً بذلك في غير خفاء! وقد أثنى الإمام المراغي على كتاب (حياة محمد) ثناءً مستطاباً في مقدمته المنصفة، كما لم يشكّ الإمام المراغي لحظة في صدق يقينه، وقوة إخلاصه، إذ عبّر عن ذلك بقوله في تقرير كتاب (في منزل الوحي)^(٣):

«وفي الكتاب تنويهٌ بسمو المعاني الروحية، وتوجيهُ النظر إلى عظمة ذات الله، والاستحضار لجلالها في موقف الحج، والأسف على ما أصاب المسلمين في حياتهم الدينية التي أصبحت أشبه بنظام آليّ فارغ من الروح، ولتملّك هذا الشعور على نفس المؤلف جعل خاتمة كتابه فصلاً مسهباً عقده لبيان جلال الإيمان بالله، والتنبيه على ما لتوحيد ذاته من الآثار العظيمة الخطر في الحياة والاجتماع، يصدرُ فيه بقلمه عن إلهام صادق يرتفعُ به في هذه المقامات إلى صفوف المتصوّفة، وذكر صبوة الحياة الروحية إلى الوحدة».

لقد كفانا الإمام المراغي - وهو من هو - مؤونة الدفاع عن كاتبٍ أصيل، جاء بما لا يرضي الأستاذ صادق من التحليل لبعض المواقف، فتسرّع باتهامه في صدقه الديني، وإخلاصه الفكري، وهذا كلّه بعيد كل البعد عن جوهر النقاش من ناحية، وعن أدب الجدل من ناحية ثانية، وأنا أؤكد هذه الحقيقة لأواجه قوماً نعرفهم الآن

(١) خالد بن الوليد: ص ٣٠١.

(٢) خالد بن الوليد: ص ٢٩٨.

(٣) مجلة الإسلام ١٩٣٨/٣/٤ تحت عنوان (من فضيلة الأستاذ الأكبر الشيخ المراغي إلى معالي الدكتور محمد حسين هيكل).

بسيماهم، ينكرون مواقف التبريز على كبار الكتاب دون دليل ثم يلجون الضمائر المستترة ليتحدثوا عن البواعث والنيات! وبعضهم - وحاشا الأستاذ عرجون - يريد أن يصرف القراء عن آثارهم الرائعة لحاجة في نفس يعقوب!.

وجاءت قمة أعمال الأستاذ عرجون التاريخية ممثلةً في هذا المجهود الضخم الذي كتبه في أربعة مجلدات تحوي أكثر من ألفين وسبعمئة صفحة عن سيرة رسول الله ﷺ منهجاً وتحقيقاً ورسالة وتبليغاً، إذ عكف عشر سنوات متوالية على دراسة كل ما أمكنه دراسته مما كتب عن رسول الله في القديم والحديث، ليبيد رأيه فيما يراه من رواياتٍ تتفق تارة وتتعارض أخرى، ولم تكن كتبُ السيرة النبوية وحدها مجال التمحيص والتحقيق بل أضيفت إليها كتبُ التفسير القرآني وشروح الحديث النبوي، وصحف التاريخ الإسلامي لدى الكثرة من كاتبه، ويا لهُ خضماً زاخراً خاض الأستاذ عبابه عن مقدرة وإحكام، وله رأيه الصوال ذو الحجة البالغة التي تمتد وتتصل حتى لتبلغ خمسين صفحة أحياناً في المسألة الواحدة، يقول الأستاذ متحدثاً عن صنيعة^(١): «بدأت من جديد أقرأ ما كتُب عن محمد رسول الله في مؤلفات القدامى والمحدثين، وأحكّم فيه القرآن بما جاء فيه عن محمد رسول الله، فصادفتني فجوات ومهاوٍ في روايات أصحاب السير لا تنسجم مع هداية القرآن، وألحّ علي الشك في هذه المؤلفات، وتوجّهتُ إلى كتب الحديث أقرأ فيها عن محمد رسول الله، وإذا بي كلّما أمعنتُ في القراءة ازدادت عليّ مضايق الفكر، من كثرة الاختلاف بين الروايات، وكثرة الأغاليط في الحقائق والمعاني».

إلى أن يقول^(٢): «ورجعتُ أقرأ ما جمعتُ وما سجّلت، وأنقيّه من غلس الأساطير، ليرز منه منهج الرسالة في معالمها الواقعية في التطبيق السلوكي الشامل لعناصرها في الكليات والجزئيات.. وفي هذا الفصل تتجلى قوة الصراع بين الحق والباطل، وبين الإيمان والعواطف، إذ قلّما صادفتني رواية في معناها وموضوعها لم تعارضها رواية أو روايات أخرى، وهنا تظهرُ عثرات الأكابر من ذوي الهالات المشهورة في تاريخ التراث الإسلامي، ولا سيّما في رصد روايات السيرة النبوية وأحاديثها وأحداثها، وتتغلّبُ العواطف على العقل، ويقف العقل كالمتهّم البريء

(١) محمد رسول الله ﷺ - منهج ورسالة، بحث وتحقيق: ٧/١ (المقدمة).

(٢) محمد رسول الله: ٨/١.

الذي لا يجدُ ناطقاً بحجّته، وأخوضُ هذه اللجة حذراً من المزالق، وجلاً ممّن أناقش، لأنّه اقتعد ذروة الشّهرة والاستسلام لما يقول، وحسبه عند المتعالّمين أنّه (فلان) ومن الذي يرد على فلان روايته أو قوله!».

وقول الأستاذ: إنه كان وجلاً ممّن يناقش، لأنّه اقتعد ذروة الشّهرة والاستسلام لما يقول لا يطابق ما نراه في تحقيقاته إذ كان جسوراً جريئاً غير هيّاب مع أعلام كبار من أمثال الطبري وابن حجر والإسماعيلي والواقدي، وابن تيمية وأبي حيان وابن اسحاق وابن كثير والزرقاني والسهيلي وابن القيم وأبي عبيد بن سلام وغيرهم، كما اختص الأستاذ الإمام محمد عبده بمناقشات كثيرة اتّسع فيها إلى غير ما حدّ، ولم يكن وجلاً في موقف ما من مواقفه الجهيّرة، وقد قرّر - فيما قرّر - أنّه يرفضُ التلفيقات المفتعلة والاحتمالات الواهية في كتابة السيرة المطهّرة، حيث يقول^(١): «وليس بمثل هذا التلفيق وفرض الاحتمالات الواهية، والتأويلات المتعسّفة تُحلّ إشكالات الروايات، وتُجمع الأقوال، وكان يجبُ في شرعة البحث الممحصّ الوقوف عند روايات الصحيح، فإذا وقع فيها التعارض، فلا يجوزُ أن يُقحم عليها غيرها، مما ليس في قوتها سنداً، بل يجب الترجيح بأسباب تقتضي الترجيح، ورَدّ ما عسى أن يكون فيه عرضة للوهم».

هذا ما قاله الأستاذ، وقد التزمه في كثير مما أيّد، وبدّد، ولكنّي أخذتُ عليه في مقالٍ كتبتُه تحت عنوان (من أخطاء كتاب السيرة)^(٢) أنّه لم يلتزم هذه الخطّة فيما كتبه في عرضه لبعض الروايات المدخولة عن لقاء الراهب النّصراني برسول الله في نفرٍ من أشياخ قریش، وكان معه فيما تقولُ بعض الروايات أبو بكر وبلال، ورأى الجماعة غمامةً تظللُ الرسول في مسيره، والشجر يمدّ ظله عليه في مقيله».

أقولُ مردداً ما قلته من قبل: هذه الروايةُ ظاهرةُ الخطأ لذكر أبي بكر وبلال بها، إذ أنّ أبا بكر رضي الله عنه لم يصحب رسول الله في رحلةٍ ما قبل الهجرة، وبلالاً لم يكن في حوزة أبي بكر قبل الإسلام، فقد استخلصه من العذاب بعد أن آمن بالرسالة، فكيف يكون مع أبي بكر في رحلةٍ قام بها رسول الله وهو غلام صغير؟!

(١) محمد رسول الله: ٤٢٤/٣.

(٢) مجلة المنتدى: شعبان سنة ١٤١٤هـ.

وهذا النقد الواضح قال به كثير من المحققين، وضعف الحافظ الذهبي ما لفقته الرواية، وقال ما نصه: «قوله: وبعث معه أبو بكر بلالاً. ضعيف لأن أبا بكر إذ ذاك لم يكن قد اشترى بلالاً». وأزيد عليه: ولم يكن في رحلة أبي طالب... ولكن الأستاذ صادق الذي يكره التلفيق وينأى عن الاحتيال في محاولة التوفيق بين الروايات المتضاربة، يقول^(١): «ما الذي يُبعد أن يكون أبو بكر قد خرج في هذه السفرة وهو غلام على نحو ما خرج عليه رسول الله ﷺ مع عمه أبي طالب، أو أن يكون أبو بكر قد آجر نفسه لبعض تجار قريش يكون معه حارساً أو مناولاً، أو رسولاً كالذي نراه في متعارف الناس؟.. وأما بلالٌ فالاحتمال في وجوده في هذه السفرة أرجح، إذ ما المانع أن يكون قد خرج في هذه السفرة على صغره ليعمل بعض ساداته، إذا كان قد استرق منذ الطفولة، أو أن يكون أجيراً مع بعض أهله أو غيرهم، ولما عرض حديث الراهب مع رسول الله، رغب أبو بكر إلى بلال رغبة رفيق إلى رفيق».

كم احتال الأستاذ في تصحيح رواية لا تقف على قدمين! وكيف وقع فيما حذر منه! ولعلّه بهذا التلفيق يعذر من ينقدهم، إذ هم بشرٌ مثله! أقولُ ذلك لا لأضائل من جهد الأستاذ الفخم في تحقيق أحداث النبوة، ولكن لأقرّر أن كل كاتب يخطيء ويصيب!

ونترك مجال التاريخ إلى مجال آخر وإلى الأستاذ جهوده العلمية في محيطه، وهو الحديث عن يُسر الإسلام، وسماحته في معاملة غير المسلمين، وكانت الإدارة العامة للثقافة الإسلامية بالأزهر الشريف قد طلبت منه بحثاً صغيراً يُوجز الحديث عن سماحة الإسلام مع من لا يعتنقونه، وحددت موعداً قريباً، فنهض الأستاذ بكتابة بحث مركز، ولكنه في مرحلة الإعداد وجد من الأحكام والأحداث والوقائع ما يمتدّ بالبحث الموجز إلى كتاب كبير، فأخذ على عاتقه أن يستقلّ بدراسة هذا المنحى دراسةً شاملةً محيطية ترضي ضميره العلمي بعد أن وقف على ذخائر مطوية في ثنايا الكتب، تحتاج إلى جلاء كاشف، فأخذ يوالي البحث عاماً بعد عام وهو في كلّ قراءة مستوعبة يضيف الجديد إلى ما يعلم، حتى استوت له بعد اثنتي عشرة سنة

(١) محمد رسول الله: ١٦٩/١.

موسوعة حافلة في جُزئين كبيرين بادرث دار سجلّ العرب بطبعهما تحت عنوان (الموسوعة في سماحة الإسلام).

ولك أن تقدّر حرص الباحث الكبير على الاستيفاء المستوعب دون تفريط، هذا الاستيفاء الذي تقاضاه اثني عشر عاماً لا يكلُّ ولا يهدأ عن قراءة تجلب نفعاً، وقارئ التراث القديم يدرك صعوبة البحث في مطاوي الكتب الفقهية ذات التعبير الدقيق، ويزيد الأمر خطورة أن تكون بعض هذه الكتب مخطوطة متآكلة متخرّمة، فلا تُلقَى ثمرها إلا بعد عناء كارب يطول ولا يقصر، لقد كانت أهمية هذا الموضوع حافزة للأستاذ على الدأب حين تتكأده المصاعب الثقيلة، إذ رأى الأمر واجباً إسلامياً مفروضاً على من يستطيعه، في وقت ظهرت فيه بعض البحوث الحمراء تفترى على الإسلام من التعصّب ما هو منه براء، وكل أدلتها المملولة مقتطفات من أحداثٍ شاذة وقعت في عصور الاضطراب والفوضى وقام بها من ينتسبون للإسلام اسماً دون أن يدركوا سماحته الحانية، وعدله الرحيم، وأكثرهم أعاجم ربّوا تربيةً عسكرية لا صلة لها بالروح الإسلامي، وتنكروا لأولياء نعمتهم، ممّن تربّوا في أحضانهم، فدبّروا لهم مكاييد القتل أو النفي الأبدي!! أفياخذ هؤلاء على ما ارتكبوه مضافاً إلى شخصياتهم البغيضة، أم يؤاخذ الإسلام وهو منهم براء؟.

هذا وللأستاذ في حقل التفسير القرآني جهد لا ينكر، فقد قام بتفسير سور الأنعام والروم والسجدة والتوبة ولقمان، في حلقات تليفزيونية خارج مصر، ولم تجمع بعدُ في كتب خاصة، والذين يعرفون اهتمام عرجون بكل ما يقوله يدركون ما يضمّ هذا التفسير من أفكار مضيئة، لا سيّما إذا كان للأستاذ منهج خاص في تفسير كتاب الله دعا إليه ملخصاً مكرّراً في كتابه المبسوط (القرآن الكريم هدايته وإعجازه في أقوال المفسّرين) وفي كتابه الموجز (نحو منهج لتفسير القرآن) وكلاهما متداول مطبوع، وتدور فكرتهما بدءاً على ضرورة الاهتمام بكتاب الله باعتباره مصدراً للهداية الإنسانية، ومنقذاً للبشرية النათئة في أودية البغي والفساد! قبل أن يكون مجالاً لمناقشات علمية تتعلّق بالنحو والصرف ومباحث علم الكلام وضروب اللجاج بين الطوائف المتنازعة، إذ تحاول كلّ طائفة أن تصطاد من آيات الكتاب ما تحسبه ناصراً لها في ميدان الجدل السياسي أو العقدي، حتى اختفى الوجه المشرق لمعاني القرآن في ضباب كثيف يصدّ القارئ عن صراط الله المستقيم! وهذه الدعوة النبيلة قد

ارتفعت في هذا العصر على لسان الأستاذ الإمام محمد عبده رحمه الله، وقد طبّقها تطبيقاً جيداً فيما أثر عنه من تفسيرٍ لكتاب الله حواه تفسير المنار معزّوّاً إليه، كما استقلّ به تفسير جزء عم، إذ هو على إيجازه الدقيق مثلُ شاخص لما يرجوه أصحابُ هذا المنحى الجليل.

وقد تعرّض الأستاذ صادق إلى مؤاخذه الإمام المراغي والإمام محمد عبده فيما اتّجهوا إليه من تفسير بعض الآيات الكونية في ضوء ما تمخّض عنه العلم الحديث، والأستاذ صادق نفسه قد حبّذ هذا الاتجاه بشروط دقيقة لم تكن من ابتكاره الخاص، بل كانت مما أشار إليه الأستاذ الإمام محمد عبده مؤجّزاً، ووضّحه الإمام المراغي تفصيلاً في المقدمة العلمية التي كتبها في صدر (الإسلام والطب الحديث) وهو كتاب جيّد نُشر تبعاً بمجلة الأزهر، ثم جمعه مؤلفه الدكتور عبد العزيز إسماعيل باشا، وصدّره الإمام المراغي بكلمته الواعية، إذ دعا إلى أن تكون الحقائق العلمية ثابتة لا تقبل النقض، وأن تكون موضع الإجماع من العلماء، بحيث لا يأتي الزمن بما ينقضها فنضطرّ إلى تعسّف التأويل، كما دعا المراغي إلى أن يكون النصّ صريحاً كاشفاً لا يحتاج إلى تأويل يتفق به مع المقررات الحديثة!! فإذا كان الإمامان الكبيران قد احتاطا كلّ الاحتياط، فقد أوضحا الطريق، وأرى أن الأستاذ صادق في مجال التطبيق قد وافقهما حين تحدث في كتاب (نحو منهج لتفسير القرآن) عن بعض الآيات الكونية مهتدياً بحقائق العلم الحديث.

هذه إشاراتٌ موجزة إلى جهود الأستاذ صادق عرجون في ميادين مختلفة من نواحي الثقافة الإسلامية، ونحن نلفت إليها النظر، لنُدفع قارئ اليوم إلى استشراف هذه الجهود في مظانها المتداولة، ليقف على ما تضمّن من ثمرات دانية القطوف، وارفة الظلال.

* * *

محمد علّال الفاسي الزعيم السياسي والمفكر المغربي

- ١ -

كان عجباً أي عجب أن يكتب كاتب مقالاً عن الزعيم المغربي الأستاذ علّال الفاسي رئيس حزب الاستقلال المغربي، فيزعم أن قراءاته لتاريخ الثورة الفرنسية، ولما كتبه أمثال فولتير وروسو كانت السبب المباشر لاعتناقه مذهب الحرية، ويتمادى الكاتب فيقول: وكأنّ فرنسا التي احتلت المغرب بأساطيلها وجيوشها؛ قد حرّرت المغرب بمفكرها وتاريخها الثوري!!.

هذا فحوى ما كتبه الكاتب في مقاله، وليس بغريب أن يتجه هذا الاتجاه في تحليله الجريء، لأنّي أعرف نقرأ من الكتاب - ومن أبناء العرب أنفسهم - لا يحبّون أن يذكروا للإسلام فضلاً على أبنائه، فالثورة الجزائرية مثلاً نشأت في حضن (جماعة العلماء الجزائريين) وابن باديس الزعيم الإسلامي الكبير هو الذي نبّه النفوس إلى التمسك بالإسلام دين الحرية والإخاء والمساواة، ومعه كوكبة من العلماء في طليعتهم شيخنا الأستاذ الشيخ محمد البشير الإبراهيمي الذي حمل الراية من بعده، ولكنّ نقرأ من كتاب التاريخ الحديث يهملون دور جماعة العلماء الجزائريين، ويحاولون أن يبعدوا كل أثر للإسلام في إحياء النفوس، ومحاربة الذلّ والهوان، والدعوة إلى التحرّر والاستقلال، ولا أدري السرّ في هذا الاتجاه العدائي لمبادئ دين يعتنقونه أمام الناس، وتهتفّ شهادتُ ميلادهم بأنهم مسلمون.

لقد كان من المقبول بعض الشيء أن تضاف قراءاتُ الأستاذ علّال الفاسي الأوروبية إلى عناصر تكوينه الثقافي، فيقال: إنّ جمع بين ثقافة الشرق والغرب، وأن قراءاته لأساطين المفكرين في فرنسا قد أضافت بعض الزاد إلى فكره السياسي،

أما أن ينكر كل أثر للإسلام في اتجاهه الاستقلالي، فهو بهتان سافر لا يحتاج إلى دحض ما، لأن تاريخ الرجل ينكره، ومؤلفاته التي تربو على ثلاثين مؤلفاً، كلها ناطقة باتجاهه القوي نحو تعاليم الحرية والعزة النابعة من مبادئ الإسلام، وسير أبطاله في القديم والحديث؛ أذكر أن مجلة (الفصل) قد كتبت ما سمته (ملفاً) عن علاء الفاسي، واختارت نماذج من أقواله السائرة، كعهدها فيمن تخصّهم بالحديث المستوعب، فجاءت كل الأقوال المختارة من مئات تشابهها موضحة فكرته الإسلامية البارزة دون لبس.

ومن هذه المختارات ما ذكرته المجلة نقلاً عن كتاب (الحركات الاستقلالية في المغرب) للأستاذ علاء الفاسي^(١): «لئن كانت السلفية ترمي إلى تطهير الدين من البدع والخرافات التي التصقت به، والعودة إلى روح السنة المطهرة، فإننا لا نقصد من وراء ذلك كلّ إلا تربية الشخصية الإسلامية على المبادئ التي جاء بها الإسلام بصفته المتكفل بصلاح الأمة، وإعدادها لتكون لها الخلافة في هذه الأرض التي حَكَمَ الله أن يرثها من عباده الصالحون، وبذلك فهي حركة تتناول نواحي المجهود الفردي لصالح المجتمع، وتتطلب فتح الذهن البشري لقبول ما يُلقى إليه من جديد، فالسلفية إذن هي عودة إلى النبع الصافي، ومحاولة لتحقيق الدولة الإسلامية الأولى (المثال) كنموذج للتوحد من ناموس الطبيعة».

ومما ذكرته المجلة من أقوال الزعيم (علاء الفاسي):

«تستطيع القوة أن تنال من جسم المسلم، وتستطيع أن تسلبه ماله وحياته، وأن تخرجه من أرضه وعشيرته، ولكنها لا تستطيع أن تسلبه الإيمان أو تزيل عنه اعتزازه بنفسه، واعتداده بعقيدته.

ما أحوج المسلمين اليوم إلى الرجوع للدين كما أنزل غضاً طرياً، وما أحوجهم للتحرّر من عقدة النقص التي ركبها المستعمر الأجنبي في بلادهم، حتى أصبحوا لا يفهمون ولا يقدّرون إلا بمقاييس المستعمرين».

هذا بعض ما يدحض أراجيف المزيّفين لعناصر المقاومة الإسلامية لهجمات الاستعمار في كل بلد إسلامي، لا في المغرب وحدها، وقد أشار الأستاذ علاء

(١) مجلة الفصل: عدد (ذو الحجة سنة ١٤١٢هـ).

الفاسي إلى أثر السلفية القوي في إحياء النفوس الإسلامية، والسلفية هذه قد كانت شجى في حلق المستعمرين وأذئابهم من دعاة الاحتلال، وبدل أن يهتفوا باسمها لائمين، فقد استبدلوا بكلمة (الرجعية) لتوحي معنى التخلف والانحدار، وليرجعوا أسباب تأخر المسلمين إليها، وكم شنت الحملات المستعمرة على الرجعية هذه، واقرانها بمبادئ الدين الداعية إلى التقهقر والجمود في مذهبهم، وقد جعلوا ما يُسمى (بالتقدمية) نقيضاً لها، لأنّ التقدمية هي داعية الحرية والاستقلال، وعلى مدى ثلاثين عاماً أو أكثر تصدعت الرؤوس في الشرق الإسلامي بهجاء الرجعية واعتبارها الحجر الراسخ في وجه التحرر الفكري، وبالثناء على التقدمية التي جراً بعض المتحدثين على أن يجعلها دين المستقبل.

ومضت الأيام فإذا التقدمية الماركسية تهوي، وإذا دُعائها في الشرق يتفرقون حائرين في كل اتجاه لا يدرون أين يتجهون! أما الرجعية فلم تكن غير السلفية التي أنقذت العالم في مبدأ الإسلام قديماً، والتي أنقذت الدول الإسلامية من مخالب الاستعمار حديثاً، والسلفية في صميمها نسبةً إلى السلف الصالح، الذي أمرَ بالمعروف ونهى عن المنكر، وأسقط الكسروية الباغية، والقيصرية الطاغية، فماذا كان أثر السلفية في نشأة علال الفاسي، وكيف توجه إليها منذ عرف معنى الحياة؟.

لقد ألقى الأستاذ علال الفاسي محاضرة هامة في قاعة الإمام محمد عبده بجامعة الأزهر الشريف تحدّث عن الحركة السلفية في المغرب، فكانت اعترافاً صادقاً بأثر التوجيه الإسلامي فيه، كانت هذه المحاضرة تحت عنوان (الحركة السلفية في المغرب)^(١) وفيها أعلن أن التطورات التي حرّكت العالم الإسلامي في هذا القرن في جوانب العلم والسياسة والفنون والاقتصاد لم تكن في الواقع إلا من حركة أولئك الذين دعوا للتجديد الإسلامي الصحيح، وقاوموا كلّ أنواع الجمود الذي غطى العقول، ومنعها من الفهم والعلم، ولهذه الحركة التجديدية أصول في العصور المختلفة، تمتد من جهود رجال كالإمام أحمد بن حنبل وشيخ الإسلام ابن تيمية والإمام الشاطبي، وفضل هذه الحركة في قبولها للتطور والتوسع، لذلك كانت

(١) نشرت هذه المحاضرة بكتاب (حديث المغرب في الشرق) للأستاذ الفاسي، ونقلتها مجلة (الفيصل) في الملف الخاص بالأستاذ.

السلفية الأخيرة جزءاً من حركة اليقظة والتحرر اللذين تقوم بهما الأمة العربية في هذا الجيل .

ثم أخذ المحاضر يعرضُ الحركة السلفية المعاصرة، ذات التأثير السياسي والاجتماعي والديني في النهضة المعاصرة، فبدأ بحركة الإمام محمد بن عبد الوهاب في نجد، حيث حطمت ما تراكم من البدع والخرافات واستغلال بعض العلماء الوصوليين في إخضاع الأمة لحكم استبداديّ جائر، ورجعت بالتجديد إلى عقيدة التوحيد الخالصة من شوائب البدع والضلالات، وقد كان لحركة الإمام محمد بن عبد الوهاب دورها في العالم الإسلامي بأجمعه، ففهمها علماء المغرب حقّ الفهم، وتلقّوها بمزيد التقدير، وكان ملك المغرب مولاي سليمان العلوي أول مرحّب باتجاهها، لأنها ساعدته في القضاء على البدع والخرافات، ثم اتّصل السلطان سليمان بزعيم الدعوة في نجد، وتبادلت رسائلهما في وجوب الإصلاح .

وحين تقدّم الجيش المغربي للمشاركة في إنقاذ الجزائر من براثن الاستعمار الفرنسي، لم يكتب له النجاح أولاً، وأخذ المفكرون يتأملون أسباب الهزيمة فوجدوها منحصرة في التخلّف الحضاري، والجمود الفكري الذي حاربتة الدعوة السلفية، فشبّ المخلصون لبعث نهضة إسلامية اقتصادية أدبية، تُطفئ ضلال القائمين على ترويج الخرافات، يقول الأستاذ الفاسي ما نصّه :

«والحقيقة أنّ حركة الأفكار هذه اشتملت على كلّ عروق النهضة الجديدة التي نحسب اليوم أنّها جاءت من أوروبا وبواسطتها، مع أنّ كل ما فعلته أوروبا بنا هو محاولة إقناعنا بضرورة الأخذ بما نريد من أسباب التقدّم والتطور في دائرة خارجة عن الدين» .

وهذا القول الحاسم يردّ أبلغ ردّ على من حاول أن يرجع بأفكار الأستاذ الفاسي التحرّرية إلى مفكّري فرنسا، فالرجل يتحدّث عن الواقع حين يعلن أن فرنسا لم تُرد تقدّماً للبلاد! إلّا بالتفرّس الخالص، ومحاربة كلّ ما يتصل بالإسلام، ومُناهضة اللغة العربية بالدعوة إلى انتشار اللغة البربرية! ثم تابع الأستاذ حديثه عن نموّ الحركة السلفية، فأشار إلى سفر الشيخ عبد الله السنوسي من علماء المغرب واتّصاله بأقطاب الدعوة السلفية في الحجاز ومصر، وإمامه بكل ما جدّ من نهوض فكري أساسه الرجوع إلى الكتاب والسنة، حتى عاد إلى جامعة القرويين ناشراً آراءه بين الطلاب

بحماسة لا تعرف الهدوء، ثم ختم الأستاذ الفاسي محاضرتة بقوله :

«ثم بزغ في الشرق موقفه الكبير جمال الدين الأفغاني فأخذت السلفية على يده صبغةً جديدة تتسم بطابع الشمول لكل جوانب الفكر والروح والعمل، فأصبحت تهتمّ بالبناء إلى جانب اهتمامها بالهدم، وتبلورت في دعوة قوامها التجديد المطلق لكل مظاهر الحياة الإسلامية للعقل والدين والعلم، وطريقة المعاش والحكم، وغير ذلك من المعاني، وقد تخرّج على يد جمال الدين علماء أفذاذ ومصلحون عظماء، انبثوا في كل الأنحاء من الهند إلى مصر، ظهر من بينهم في العالم العربي محمد عبده، الذي أصبحت المدرسة السلفية تحمل اسمه، وكأنه المستحق لها من بين الوارثين.

وقد وصلت مجلة العروة الوثقى، وكتب جمال الدين ومحمد عبده وآثار المصلحين السلفيين إلى الهند ومراكش، وللأوساط الجامعية منها بصفة خاصة، وأصبحت موضع التعليق والقبول والرد من مختلف الجماعات والأفراد، ولكنّ الكل أصبح يشعر بهبة جديدة تردّ من المشرق وتتفاعل مع حاجاته التي يحيا بها، ومع الدعوات المدنية التي تنبثق أيضاً في عاصمة الدولة العثمانية، وحركات التحرر التي تؤيدها أوروبا تارةً، وتعارضها أخرى حسب مصالحها».

لسنا بحاجة بعد هذا التفصيل الشافي إلى أن نجهل أسباب التطور الفكري في المغرب، وإلى أن نعرف أنه بزغ من نور الإسلام ممثلاً فيمن شرحوا تعاليم الإسلام من كبار المجتهدين والمصلحين.

وإذا أردنا أن نعرف أثر السلفية المؤمنة في تكوين الأستاذ علاء الفاسي، فإنّ الرجوع إلى تاريخ حياته يقدم الدليل على هذا الأثر دون التباس، فقد ولد الأستاذ علاء في سنة ١٩١٠م، وكان والده من كبار العلماء، زاول مهمة التدريس في جامعة القرويين الدينية، ثم احتلّ مركزاً مرموقاً في القضاء، وفي حضنه تربى ولده، قابساً من روحه سائراً على نهجه، وكان يشترك في المظاهرات السياسية طالباً ومدرّساً بتشجيع منه، ويرى فيه امتداداً علمياً لجهاده العلمي، إذ أقعده تقدّم السنّ عن هذا الجهاد الشاق، وقد نفى الطالب واعتقل مرات في حياة والده، ولكنه كان يفخر بجهاده، ويتحدّث عنه كضرب من ضروب البطولة النبيلة.

ثم انتقل الوالد إلى جوار ربه، وولده علاء في منفاه السّحيق بالجابون، فكان

أشدّ ما أثر في نفس التجلّ الوفي أنّه فقد المشجّع المثابر بوفاة والده، وكان يطمئنه نفسياً اعتقاده أنّ الروح المؤمنة ترى في عليائها السماوية من تركتهم في الحياة، هي تلمس جهادهم مُباركة داعية، هذا ما كان يطمئن النجل الباسل بعد رحيل أبيه .

وقد درس القرآن الكريم في نشأته الأولى وأتمّه حفظاً وتجويداً، ثم انتقل إلى الخطوات التالية في انتجاع الثقافة الإسلامية حتى نال شهادة (العالمية) سنة ١٩٣٢ من جامعة القرويين، وسنّه إحدى وعشرين سنة! نالها لا ليستريح ناعماً بمنصب موفور الأجر كأكثر زملائه، ولكن ليرسم خطة الجهاد العملي في محاربة الاحتلال، إذ بدأ هذا الجهاد وهو طالب، ودفعته همته إلى تأليف جمعية أسماها (جمعية القرويين لمقاومة المحتلّين) ألفها وهو طالب، وجمع إليها من زملائه من هداهم إلى طريق الكفاح!

وقد حانت ساعته حين أرادت فرنسا أن تُوقع بين العرب والبربر، فأنشأت ما يُعرف بـ (الظهير البربري) وهو محاولةٌ صارخة لفصل الأمة إلى فريقين، ولجعل البربر غير خاضعين للقانون الإسلامي في نظام الأسرة والميراث والإدارة، تمهيداً للانفصال الكلّي عن سائر النظم، وأهمها نظام التعليم، إذ قرّر (الظهير البربري) مُحاربة اللّغة العربية في مدارس البربر التي تُنشأ خاصة بهم، فتكون البربرية والفرنسية وحدها أداة التعليم! وهي خدعةٌ لاقت قبولاً من ذوي النفوس المريضة في البربر، ولكنّ الكثرة الكاثرة منهم قد فطنوا إلى مغزاها السياسي والديني، وانضمّوا إلى المتظاهرين الثائرين .

ولم يكن الحاكم الفرنسي متوقفاً لهذا الهياج المحتدم، فقابل المظاهرات بعنف ظالم، ويبحث عن زعماء الثورة الغاضبة، فوجد علاّلاً الفاسي في طليعة القائمين بالهياج والاحتجاج، فبادر باعتقاله، ونفيه إلى قرية بالأطلس المتوسط، اعتقله مرتين متتابعتين، وكانت في هذا الاعتقال فرصةٌ للتفكير الهادئ في مقاومة الاحتلال، حيث صمّم الشّاب الأسيرُ على تأليف حزبٍ يناهز بالاستقلال التام، ويأبى ضروب الإصلاح المظهرية التي يقوم بها المحتلون، ويُعدّونها خطواتٍ ثابتة في طريق التقدّم الحضاري، ليشغلوا أنصار الاستقلال عن هدفهم الأصيل في التحرّر من ربة الاستعمار، واهتدى إلى تكوين وعي إسلاميٍّ في شتّى نواحي

البلاد، غير مقتصر على المدن الكبيرة، لتكون الأمة جميعها بناءً راسخاً في وجه الغاصبين.

اهتدى علاء في منفاه إلى ضرورة التوعية السياسية والدينية في شتى القرى، وجعل يختار مساعديه من بين من يعرف فيهم شدة الحمية، والتهاب الغيرة، وما انطلق من سجنه عائداً إلى فاس من منفاه، حتى شرع في تنفيذ هذه التوعية، فأعلن عن دروس دينية تُلقى في المساجد العامة، لتكون الوسيلة الحية في إيقاظ الوعي، لأن المستعمر يمنع كل صحيفة تناوى الاحتلال وتذكّر بمجد المسلمين في عصورهم الزاهرة، أجل، ألف الأستاذ علاء نخبة من الزملاء، وأوفدهم إلى شتى القرى، وقام هو بنفسه بإلقاء الدروس في المدن الكبيرة، دروس الحمية والعزة والاستقلال، وكان التاريخ الإسلامي مدده الذي لا ينقطع، إذ أخذ من سير أعلامه في شتى ضروب الإصلاح أمثلة حية في الشجاعة والحرية والعلم والإصلاح، فهذه الشخصيات البارزة هي المعادل الموضوعي لما يريد أن يبثه من مقاومة الاحتلال.

وقد كان العالم الشاب من التصلع الثقافي، والتعمق الديني، والاطلاع الشمولي بحيث أصبح حجة في مسائل اللغة والفقه والتاريخ، وقد كان أمير البيان شكيب أرسلان يعرف فيه هذا التعمق الباهر، ويكتب إليه مستفسراً عن شؤون غامضة في تاريخ المغرب، فيجد عنده ما يزيل الغموض، بالنص الصريح، والتعليل المريح.

وحين أراد الأمير أن ينشر كتاب (محاسن المساعي في مناقب الإمام الأوزاعي) لم يهتد إلى مؤلفه، لأنه وجد النسخة المخطوطة لا تحمل اسم المؤلف، فلم يشأ أن ينتظر حتى يعثر على صاحب الكتاب، ولكنه بادر بالنشر، قائلاً: إن النسخة المخطوطة وجدت بخط الشيخ (زين الدين الخطيب) دون أن يذكر المؤلف مع الناسخ!! وكأنه وضع الأمر أمام الدارسين ليهتدوا إلى المؤلف وفق أطلاعاتهم المتعددة في كتب التراث.

ولم يلبث أن جاء الرد الشافي من الأستاذ علاء الفاسي، ذاكر^(١) أن نسخة من الكتاب وجدت في فهرس دار الكتب المصرية تعزو التأليف إلى العلامة الشهير الحافظ ابن حجر، ولكنه - علاء الفاسي - يستبعد نسبة الكتاب إلى الحافظ ابن حجر، لأن الكتاب من الوجهة الحديثية ليس في مقام الحافظ، والذين ترجموا

(١) أمير البيان شكيب أرسلان، للدكتور الشرباصي: ٥٢٧/٢.

لابن حجر لم يذكروا هذا الكتاب بين تأليفه، فانتفى أن تكون النسبة صحيحة! وكان الأمير قد تلقى كتباً تعزو النسخة إلى ابن حجر، وهم بالتصديق لولا اعتراض الأستاذ الفاسي، ثم انكشف الأمر بعد سنوات، حين تحقق الدارسون أن المؤلف هو أحمد بن زيد الموصلي، كما جاء في (الضوء اللامع)، ومن هذا كله ندرك أصالة الباحث الشاب (علاّل) ونرى أن جهاده السياسي لم يشغله عن غوصه العلمي الدقيق.

- ٢ -

كان أكثر المحللين السياسيين لاستعمار فرنسا في المغرب والشمال الأفريقي بعامه، يرجعونه إلى تنازع الدول الأوروبية لاستغلال الثروات في البلاد المستعمرة، فهو دافع اقتصادي يرمي إلى استنزاف الثروات، وامتصاص دماء الأفارقة والآسيويين، فهم يقولون: إن فرنسا تعاهدت مع إيطاليا أن تغمض عينها عن احتلال الأخيرة لليبيا كيلا تنازعها في احتلال المغرب وما يليه، كما تعاهدت مع إنجلترا ألا تنازعها في احتلال مصر، كي تفسح لها مدى الحرية في احتلال الشمال الأفريقي، ثم اتفقت فرنسا مع أسبانيا أن تتخلى لها عن حصّة في الساحل الشمالي للمغرب وتكتفي بها، فلا يكون بعدها مجال لتنازع سياسي بين أسبانيا وفرنسا، أمّا إمبراطور ألمانيا فقد رأى بلاده خالية من الاستعمار، فسافر إلى طنجة ليؤكد صداقته لسلطان مراكش، وقد أفرغت هذه الزيارة فرنسا، فعملت على استرضاء ألمانيا بوعود لم تتحقق، كلُّ هذا يقال في تعليل المطامع الاستعمارية في بلاد الإسلام، التي جلبت الاحتلال الفرنسي والإنجليزي والأسباني في هذه البلاد، فهو في رأيهم احتلالٌ سياسي يرمي إلى السيطرة الاقتصادية واستغلال الثروات والمعادن في البلاد المحتلة، ولا شيء وراء ذلك.

ولكن الأستاذ علاّل الفاسي يتجاوز ذلك إلى تحليل بعيد النظر، حين تحدّث عن مأساة الاحتلال المغربي، فذكر في مقال^(١) واضح الدلالة على مرماء البعيد، أن الذي يتتبع تاريخ العلاقات بين مراكش وبين أسبانيا والبرتغال من جهة، وبين بقية الدول اللاتينية والسكسونية من جهة أخرى؛ لا يشك في أن هجوم هؤلاء وأولئك

(١) مجلة المسلمون: السنة الأولى، ربيع الأول، سنة ١٣٧١هـ (ص ٩٩).

على مراكش، وتقسيمها إلى عدّة مناطق، لكل واحد منهم منطقة مخصوصة، لم يكن يراعي التوسع الاستعماري فقط، ولا بباعث الرأسمالية والاستغلال فحسب، لكنّه امتداد للحروب الصليبيّة، التي طالما تألّبت فيها النصرانية اللاتينية على مراكش المسلمة العربيّة، فقد أوصت الملكة (إيزابلا الكاثوليكية) بعد أن طردت المسلمين من الأندلس بوجود طردهم من شمال أفريقيا، ووصيتها محفوظة لدى الإسبان يتدارسونها بينهم تدارس الدّول الحرة لميثاق حقوق الإنسان، وقد صرّح غير واحد من ساستهم بأن هذه الوصيّة يجب أن تنفّذ، وأن يعمل كل أسباني على تحقيقها.

وإذا كان التنافس الاستعماري قد جعل فرنسا تقف دون أسبانيا، ودون فتح الشمال الأفريقي برمته، فإنّ فرنسا لا تقلّ تعصّباً دينياً عن شقيقتها اللاتينية، ولم تُصدر في فتحها لتونس والجزائر ومراكش إلا عن نفس الروح التي تملئها الوصية الأسبانية، وقد كان للكاردينال (دولي فيجوري) دورٌ مهم في تنظيم حملات الاستعمار والتبشير في أفريقيا الشماليّة، وهو الذي سجّل في رسالة كتبها لوزير الخارجية الفرنسي، ضرورة فتح مراكش، لئلا يبقى الطائر الجزائري بجناح واحد وهو تونس، مذكراً بما يفرضه الدين المسيحيّ، من ضرورة العمل على تنصير المسلمين وفتح المجال الحيوي للكتلة.

هذا المفهومُ الصادق كان الشغل الشاغل لعلال الفاسي في تعبئة مواطنيه نحو الاستعمار الفرنسي، فهو يربط الحروب الصليبيّة ربطاً وثيقاً بالاستعمار الفرنسي، مؤكداً دور لويس التاسع في محاولة احتلال تونس بعد أن أخفق في حملته على مصر، وبقي أسيراً في دار لقمان بالمنصورة أمداً غير قصير، ومن هذا المنطلق ألف علال كتلة العمل الوطني، وجعل يعقد مؤتمرات شعبية توضح أهداف الكتلة في ضرورة التحرير المطلق.

وقد حاولت الإدارة الفرنسية استرضاءه بأن عرضت عليه أن يكون وزيراً للعدل في مراكش، ليقف مع الحكومة في خطها الاستعماري، ولكنّه رفض أن يعمل تحت حكم استعماري دخيل، وقام بتقديم مطالب الكتلة الوطنية للإدارة الفرنسية، وهي مطالب الاستقلال التام، وانسحاب الاستعمار الفرنسي وفق جدول زمنيّ يُتفق عليه، وقد أثار هذا المطلب ثائرة الحاكم الفرنسي فأمر باعتقال علال، وذهبت الجنود الاستعمارية لاعتقاله وهو يلقي خطاباً شعبياً غاضباً في التدار البيضاء،

فوقعت مظاهراتٌ صاخبة أدّت إلى اعتقال كثير من أعضاء الكتلة التي يرأسها الفاسي.

وصدر قرار بحلّ الكتلة، ولكنّ صاحب الرأي الحرّ لا يخضع لقرار، فقرّر إنشاء الحزب الوطني بدلها، واجتمع الأنصار حول الحزب بما جعله قوةً حقيقية مناهضة، ولو ملكت السلاح لعصفت بالاحتلال دون رجوع! وهنا أمرت السلطات الغاشمة بنفي الرئيس المجاهد إلى الجابون في أقصى مستعمرات فرنسا بأفريقيا الاستوائية، ودام هذا النفي الظّالم تسع سنوات، وعن هذا النفي المجحف يقول الأستاذ عبد الكريم غلاب:

«عاش في منفاه السحيق تسع سنوات تعلّم فيها أكبر درس إنسانيّ يمكن أن يتعلّمه إنسان، فقد كان يشهد يومياً مظاهر من العنصرية البغيضة تمارسها الجالية الفرنسية البيضاء على سُكّان الجابون السّود، ولو استطاع أن يُناضل في سبيل إنسانية الإنسان الأفريقي لفعل، ولكنّه في سجنه قد فقد حرية العمل والتصرف والممارسة، فلم يكن يسمح له إلا بدقائق معدودات يخرج فيها من غرفته ليرى النور ويتنفس الهواء، ويرى مع ذلك هذه المناظر المؤذية للاستعمار العنصري البغيض ضد المواطنين الأفريقيّين.

وكان القائمون على حراسته يعرفون قدره في وطنه، وهم ذبُولٌ للفرنسيّين يكرهون كلّ وطني حرّ، فبالغوا في اضطهاده، وأذاقوه الويل في سفره من الدار البيضاء إلى منفاه السحيق، وهو صابرٌ يبتسم، ثم بعد مضيّ عام ونصف وجد من يتعظّف عليه، فيسمح له بالحصول على مصحفٍ يقرأ فيه آيات الكتاب مع بعض الدّواوين الشعرية التي وُجدت في الجابون بقدرةٍ قادرة، إذ ليس في هذه البلاد قارئٌ عربي مستنير، ومذكراتٌ علّال عن منفاه تحتاج إلى تحليلٍ يصوّر بشاعة الاستعمار الفرنسي، ويكفر بكلّ ما يقال عن الثورة التي بعثت الحرية وحرّرت الشعوب، لأن أثر هذه الحرية بالنسبة لفرنسا كان وفقاً على وطنها الأوروبي فحسب! فهي ثورةٌ عنصرية إذا نظرنا إلى الوقائع المخزية الحزينة في كلّ مكان ابتلاه الله بالاستعمار فرنسياً أو غير فرنسي، فالاستعمار مذهب واحد، ديدنه الكبت الباطش من ناحية، والاستغلال المادي للثروات من ناحية ثانية، ولا شيء سوى ذلك.

كان علال غريباً في منفاه عن بلاده، ولكنه كان الغريب القريب، لأنّ مواطنيه جميعاً كانوا يذكرون مواقفه فيزيدون حميَّة واستبسالاً، وكان زملاؤه في حزبه لا يُثَوِّنَ عن بثِّ روح الحماسة في الشعب المتطلِّع إلى الحرية، ثم قامت الحرب العالمية الثانية، ونزلت جيوش الحلفاء في شمال أفريقيا عام ١٩٤٢ فعلق المغاربة على الأمريكيين آمالاً كبيرة، وقد عُقد اجتماع مع تشرشل وروزفلت وديجول وجيرو في الدار البيضاء بالمغرب، فأعلن روزفلت الرئيس الأمريكي أنّ هذه البلاد وديعةٌ في أيدي الحلفاء وأنّها ستستردّ حريتها حين تنتهي الحرب بالانتصار، وستقوم فرنسا بمشروع عاجل ينتقل بالبلاد إلى دولة حديثة، هذا ما تردّد في الصحف حينئذ، ولكنه كان زيفاً خادعاً لم ينظر على أشدّ المراكشين تفاؤلاً، وانتهت الحرب لتتبخّر هذه الوعود، ولكنّ الوطنيين صمّموا على الكفاح المستبسل، وقد عاد علال الفاسي من منفاه سنة ١٩٤٦ ليواصل أداء دوره الناهض، وكانت البلاد تحت رعاية سلطانٍ وطني غيور هو السلطان محمد الخامس، الذي شاء أن يجابه الاحتلال معلناً استقلال البلاد، فبدأ بزيارة (طنجة) واسقبله المواطنون بالهتاف، والمواطنات بالزغاريد، واختنقت الصدور بالحماس المشتعل، وكانت الجامعة العربية قد بدأت خُطواتها الأولى مبشرة بعهد جديد يلتئم فيه الشمل العربي في جميع أقطاره، وفي الجمع الحاشد بطنجة ألقى السلطان محمد بن يوسف الخامس خطبة رائعة قال فيها:

«لقد وفق الله الأمة العربية المسلمة إلى التعاضد والتكاتف والتّساند، حتى وُضعت الأسس لتلك الجامعة الرشيدة، التي متّنت العلاقات بين العرب أينما كانوا، ومكّنت رؤساءهم وملوكهم في الشرق والغرب من توحيد خطتهم... وإنّ حق الأمة المغربية لن يضيع، فنحن بعون الله وبفضله على حفظ كيان البلاد ساهرون، وذلك ما عاهدنا الله عليه، وننتظر أن يقع في القريب العاجل ذلك الاجتماع الذي سيعقد للنظر في شؤون طنجة، راجين أن يُسمع فيه صوتُ المغرب ليتوصّل إلى ما يؤمله من حقوق».

وقد كان المقيم العام الفرنسي حين سمع بهذه الزيارة الملكية طلب من السلطان قبل أن يذيع كلمته أن يضيف إليها هذه الجملة (فسيروا في الطريق الذي عبده رجال الحضارة الجديدة مستعينين بالعلماء والفنيين من أبناء الأمم الصديقة، ولا سيّما

فرنسا التي ناضلت عن مبادئ الحرية التي تسمو بها البلاد وتزدهر) ولكنّ السلطان لم يستجب إلى ما طلب المقيم العام، وتوترّ الموقف بعد الخطاب أشدّ التوتر، وشنت الصحف الفرنسية حملاتٍ على السلطان وعلى المقيم العام، لأنّه أذن لهذا الاجتماع أن يلتئم على هذا الوجه الوطني ذي المدلول الخطير، فأسرعت الحكومة بإقالة المسيو (لابون) وعيّنت مكانه (الجنرال جوان) مقيماً عاماً يأخذ بالشدة جميع العناصر المتطلّعة للحرية.

ولكنّ الموج الوطنيّ قد تزايد في مدّه، فرأى المسؤولون في باريس أن يصدروا ما سمّوه (الاتحاد الفرنسي) الذي يتكون من الجمهورية الفرنسية والمقاطعات والأراضي التي تحتلها فرنسا فيما وراء البحار، ومن بينها المغرب، وهنا كثر الشر عن نابه الصريح، وبدأ للعيان أن وعود (روزفلت) في الحرب العالمية الثابتة كوعود (ولسن) في الحرب العالمية الأولى لم تكن إلا رماداً تذروه الريح، فانتشرت المظاهرات في عواصم المغرب، وقام حزب الاستقلال بزعامه علاّك الفاسيّ بالدعوة إلى الانضمام إلى جامعة الدول العربية لا إلى الاتحاد الفرنسي.

وتخوّفت فرنسا من الدعوة إلى الانضمام لهذه الجامعة، لا لأنها تخشى الشعب المغربي بملايينه التسعة، وهو أعزل لا يملك ما يدفع به من الذخيرة المستحدثة، ولا لأنها تخشى الجامعة العربيّة، فليس لديها من القوة ما تنازل به جيوش فرنسا التي عادت للكبرياء بعد أن رضعت الدّل تحت أقدام الألمان، وذاقت من الهوان ما لم تذقه أمة محتلة من قبل، بل لأن للجامعة العربية خمسة أصواتٍ في هيئة الأمم المتحدة، وبعض الدول الكبرى لن تستريح لسيطرة فرنسا في هذه البلاد، فلا ينضمّون إليها، وتلك زعزعة لا تعرف الاستقرار.

وقد رأى علاّك أن يترك بلاده للدعاية السياسية شرقاً وغرباً، فسافر إلى فرنسا وكتب بالجرائد هناك عن وجهة نظر حزبه المطالبة بالاستقلال التام، ثم انتقل إلى عواصم الدول العربيّة، وإلى مقر الجامعة العربية بالذات، ليقدم ما قد تطلّبه الجامعة من الوثائق الصريحة، وكانت المعركة قد تأزمت بين الحكومة الفرنسية وبين السلطان سيدي محمد بن يوسف الخامس، فبادرت فرنسا بعزله واعتقلته، فاتخذ علاّك من إذاعة القاهرة مجالاً للدعوة إلى النضال المسلّح ضد الإدارة الفرنسية

بالمغرب، وقام بجولةٍ دعائيةٍ في دول آسيا وأفريقيا والولايات المتحدة وأمريكا اللاتينية، يشرحُ وجهة النظر المغربية ويدين الاستعمار الفرنسي مُشهرّاً بجرائمه ذات الخطر المهلول.

وقد دعت الحكومة الفرنسية بعض السياسيين بالمغرب إلى التفاوض، وهو سلاحٌ يرمي إلى إضاعة الوقت، وإطفاء الثورة المشتعلة، هذا ما لحظه الأستاذ علاّ حين أنكر هذه الدعوة معلناً ألاّ مفاوضة إلا بعد الاستقلال، وقد أيدّه في ذلك زعيم حزب الإصلاح في المنطقة الخلفيّة وهو الأستاذ عبد الخالق الطريس، ولكنّ نفرّاً آخر ممن لانشك في خلوص نياتهم رأوا أن يستجيبوا لدعوة التفاوض هذه، ومنهم الأستاذ محمد بن الحسن الوزاني، وقد كان زميلاً لعلاّ الفاسي في حزب الاستقلال، وحدث خلافٌ بين الرجلين باعد بينهما، فأثر الوزاني اتجاهاً آخر، وأنشأ حزباً سمّاه حزب الشورى.

وهي خلافاتٌ تتكرّر دائماً باختلاف وجهات النظر، ولكنّ من عرف الدهاء الفرنسي يؤكّد أن المسألة لا تخرج عن إطفاء حريقٍ يراه المحتل عاصفاً مدمراً، فيحاول أن يقضي عليه ببعض المسكّنات! وليس هذا في المغرب وحده، بل في كل بلد نكب بالاستعمار، إذ يحاول المستعمر فرنسيّاً أو إنجليزياً أو هولنديّاً أو بلجيكيّاً - وكلهم على مذهب واحد - أن يُبدد الشمل المتماسك أخذاً بمبدأ (فرّق تسد) ولم يقنع الشعبُ العربي بهذه الدعوة، لأنّ فرنسا لو أرادت الخير للبلاد مخلصّةً لأعلنت الاستقلال مبدئياً، ووضعت شروطاً يتفق عليها الطرفان بعد الاستقلال، ولكنها أخذت تراوغ وتماطل لتجد من يستجيب!

وكان ما أبهج النّفس، فقد اضطرتّ فرنسا إلى إعلان الاستقلال، ورجع الملك محمد الخامس ظافراً إلى عرشه، وعاد علاّ إلى المغرب رئيساً لحزب الاستقلال كما كان، ثم زاول أعمالاً قيادية هامة في الدولة المستقلة، إذ كان رئيساً للمجلس التأسيسي الذي أشرف على وضع الدستور، فوزيراً للدولة، وقد انتُخب عضواً لمجلس النواب، وجدّد انتخابه لرئاسة حزب الاستقلال مراتٍ عدة، وتهادّته المجامع العلمية بالشرق، فصار من أبرز أعضائها، وما زال مرموق المكانة حتى لقي ربه في ١٣/٥/١٩٧٤.

أما نتاجه الأدبي، وبحثه العلمي فقد دلّا على موهبةٍ باهرة، فمع اشتغاله المنهك

بالأعباء السياسية أخرج للقارئ العربي أكثر من ثلاثين كتاباً، منها ما أُلّف في السياسة ومنها ما أُلّف في الشريعة، ومنها ما أُلّف في التاريخ، ومنها ما أُلّف في التربية، ولا أدري كيف اتسع وقته لهذه المؤلفات التي يندر أن يكتبها أستاذٌ متفرّغ هادئ البال، كما كان علاّك شاعراً، شاعراً من الطراز الوسط، إذ لم يُحلّق في الأجواء العالية، كما لم يهبط إلى المهاوي السحيقة، وكان يرى للشعر رسالةً في إشعال الحماسة، واستجاشة الشعور بالنسبة للكبار، كما يرى للشعر وظيفةً في تربية الأطفال خُلُقياً واجتماعياً، فأصدر ديواناً خاصاً بشعر الطفل، ومراجعة آثاره القلمية - شعراً ونثراً - تحتاج إلى فضاء فسيح.

قلتُ: إنني لا أدري كيف اتسع وقته لهذه المؤلفات التي يندر أن يكتبها أستاذٌ متفرّغ هادئ البال، لأن الذين عرفوه قالوا عنه: إنه كان زعيم شعب لا يترك الاختلاط بأبنائه متى استطاع، يقول الأستاذ عبد الكريم غلاب^(١) عن علاّك: «كان يحسّ بأن دوره ليس في التفكير منفرداً، ولكنّه في التفكير مع الناس بالناس، كان يتّصل بالفلاحين القادمين من كل أنحاء المغرب، وبالصحراويّين الذين يقطعون الفيافي والقفار، من أجل أن يجلسوا معه ويناقشوه في مشكلاتهم، وكان يتّصل بالعمال ليدرس معهم ما يتعلّق بهم كاحتفالٍ بافتتاح، أو إضراب في معمل، أو طرد زميل، أو نقص أجر، وكان يتّصل بالصنّاع ليدرس معهم مشكلات الصناعة في ورشة النجارة، أو دار المديغ، أو معمل النحاس، وكان يتّصل بالعلماء والمثقفين والصحفيّين من كل اتجاه، ليناقشهم في الأمور التي تتطلّب التفكير، كما يتّصل بالمناضلين في الحزب ليدرس معهم أدق المشكلات التي تعترضهم ولو كانت قضايا محلية يمكن حلها بجهد».

كان الرجل هذا كلّّه، فكيف أبدع هذا الإبداع العلمي في أعاصير السياسة الهوج؟!.

* * *

(١) مجلة الفيصل (ذو الحجة سنة ١٤١٢هـ).

محمد الغزالي مدرّة الإسلام في هذا العصر

انتقل إلى رحمة الله أستاذنا الكبير محمد الغزالي، ومثل الغزالي لا يغيب عن الحياة إلا بجسمه، فمؤلفاته الرائعة، ومواقفه الجهرية، وسلوكه المثالي قد كتب له في سجلّ الخلود صفحات تقرؤها الأجيال، فتردّد ذكره العاطر باللسنة الثناء والتقدير.

كان الغزالي مَدِينَةً حافلة ذات ميادين شتى، متسعة الأرجاء، فهو مؤلف بارع، ومجاهد صادق، وخطيب مؤثر، وعالم بأدواء المجتمع الإسلامي في شتى ربوعه، ومثلّ هذا المقال المتواضع لا يكفي في إيضاح جانب واحد من جوانبه، كما لا يكفي أن تصف شارعاً واحداً من مدينة أهلة لتقول: إنك قد وصفت المدينة، بل الحق أن تقول: إنك تُسَطِّر ما يفدُّ على خاطرك في ساعة من الزمان.

كلّنا يعرف نشأة الأستاذ الغزالي العلمية، فقد تربّى في بيئة مؤمنة بإحدى قرى مديرية البحيرة، وحفظ القرآن، وقرأ الحديث في منزل والده قبل أن يلتحق بالأزهر، ومضت حياته العلمية في هذا المعهد الخالد حتى نال درجة التخصّص في الوعظ والإرشاد، وعيّن واعظاً فور تخرّجه، ولعلّ من توفيق الله أن يلتحق بكلية العقيدة والفلسفة؛ لأن ميوله الأدبية، وتمتّعه بالبيان العربي المشرق في زمن الطلب، وإطلاعه على أمهات الكتب في عهد الدراسة الثانوية مما كان يرشّحه لكلية اللغة العربية، ولكن الله يعلم أنه سيكون مناضلاً باسلاً في ميدان الدعوة الإسلامية، وسيصيرُ زعيماً إسلامياً تلتف حوله القلوب، فهيأ له أن يلتحق بكلية أصول الدين، وأن يخرج منها مجاهداً بقلمه ولسانه معاً؛ بلسانه في الندوات وفوق المنابر، وبقلمه في حقل التآليف العلمي، وهو حقلٌ مديد.

لقد كان الغزالي من أكبر دعاة الإسلام في عصره، إذ يملك من روعة البيان وقوة

الإيمان وصلابة العقيدة أسلوباً حازماً يوهج حمية، ويلتهب غيرة، أسلوباً يملك مشاعر المستمع حين يكون الغزالي خطيباً، ويأسر عواطفه حين يكون الغزالي كاتباً، وقد كان من الإمام الشهيد حسن البناء بمنزلة محمد عبده من جمال الدين الأفغاني، إذ تكفلت كتبه الكثيرة بشرح الفكرة الإسلامية الصحيحة في عصر الإلحاد والانبهار بمغريات الغرب، فكوّنت مكتبةً إسلامية تقف في وجه الطوفان الزاحف من بلاد الافتراء الصارخ على الإسلام، فاكتمحت الأراجيف، وتركت ذوي الريبة حفاة عراة.

إن الدارس لفكر الأستاذ الغزالي يجدُ مشابةً كثيرةً بين كفاح الإمام محمد عبده، والأستاذ محمد الغزالي، فقد واجه الأستاذ الإمام منذ قرابة قرنٍ وربعٍ حقد الأوروبيين، في وقتٍ كانت لهم السيطرة على أكثر بلاد الإسلام، وقد مكنت لهم قوتهم السياسية من الإرجاف بالإسلام على أوسع نطاق فادّعوا عليه كثيراً من المثالب المفتراة، ورأوا أن لا صلاح للمسلمين إلا بهجر مبادئه التي تُصادم العقل، وتعرقل أسباب الحضارة، وتصدّ عن العلم والثقافة، فانبرى الأستاذ الإمام لنسف هذه الأراجيف بحجج نارية تحرقُ المفترين، حتى استطاعَ بمنطقه المفحّم أن يوضح قيادة الإسلام الرشيدة للإنسانية في سبيلها الحضاري، فكوّن رأياً عاماً إسلامياً يقف أمام هذه المفتريات فإذا هي هباء.

ومضى الإمامُ إلى ربّه، واستكبر الغرب بقوته الماديّة، وجبروته الحربي، فازداد بغياً وتطاولاً، وله ذبولٌ ينهجونَ نهجه، ويتبعون سبيله، فجذّدوا الهجومَ الآفك على الإسلام بأسلحةٍ جديدة غير التي شرعوها في عهد الإمام، فهياً الله الأستاذ الغزالي ليكون في طليعة من حملوا الراية في ميدان الجهاد العلمي المناضل، وقد ترك من المؤلفات ما يملأ مكتبة مستقلة يُمكن أن تسمّى مكتبة الغزالي، وليست المسألة مسألة كمٍّ فقط ولكنها مسألة كيفٍ أصيل ممتاز في كلّ ورقة خطها الكاتب الغيور، فكلّ مؤلّف من مؤلفاته يُؤدّي رسالة ضرورية كان أداؤها فرضَ عين يلزم القادر عليه، وكانت المعركة حامية الأوار، ولكنها انجلت عن ظهور الحق واكتساح الضلال.

وقد اضْطُهد الداعية الكبير، فعرفَ مرارة السجون مراتٍ متعدّدة لا مرةً واحدة، وحُورِب في وظيفته، فانتقل إلى بلاد الله الفسيحة، وكانت الثَّقلَةُ خيراً وبركةً على

البلاد التي أمَّها أستاذًا بالجامعات، لأنَّ الطلاب في الدول الشقيقة رأوا في دُرُوسه ما لم يروه عند الكثرة، بل عند نفرٍ اصطفاهم الله ليكونوا مصابيحَ تضيء الظلام، والدرسُ الواحد من هؤلاء الأجلاء يُغني عن عشراتٍ من الدروس التقليدية، لأنَّاسٍ يَحْمِلون الشهادات فحسب! كان الغزالي ومن شابهه من هذه الصَّفوة المختارة يُحَادِثون الطلاب بقلوبهم قَبْل أن ينطقوا بألسنتهم، وإنَّ في وجوههم الكريمة لساناً آخر ينطقُ بأفصح بيان، لساناً يقول للطلاب: إنَّه لقولُ فصل، وما هو بالهزل، لذلك يُنشئون من التلاميذ من يهيمون بهم، ويعكفون على آثارهم، وهؤلاء هم الذين عناهم شوقي حين قال:

أعلمتَ أشرف أو أجلّ من الذي يبنّي وينشئ أنفساً وعقلاً!

كان الغزالي أوّل من ألّف في محاربة المذاهب الاقتصادية التي يتشدّق بها المأجورون، حاربها بالدليل القاطع الذي يُبَيِّن أنَّ للإسلام من الفكر الاقتصادي ما يدفعُ إلى الثروة والنماء، والتكافل الاجتماعيّ التام! لقد صدر كتابه (الإسلام والأوضاع الاقتصادية) ليقولَ في طبعته الأولى سنة ١٩٤٧م كلمة الحق عن الطبقات المترفة والطبقات البائسة، ورأي الإسلام فيهما. وقد اقتحم القول في إيضاح الأسباب الاقتصادية للزّذائل المنتشرة في المجتمع الإسلامي ومردّها إلى الفقر الكاسح، والجهل الطاغى، والمرض الموغل، متحدّثاً عن أوباء السَّرقة والزنا والبطالة، ومنتقلاً إلى ما تُسبِّبه المعيشة الكريمة من ترفع وإباء، معيشة الكفاح المُثمر لا معيشة الترف العاطل المبيد، وكان حديث المؤلف صريحاً عن الاستعمار الداخلي المنكفئ على لذاته وأنايته حين كان السبب في الاستعمار الخارجي، ولم يلبث أن صار أدواته في البطش والقهر، أما العلاجُ الصحيح فهو ما اتجه إليه المؤلف مستقيماً أدلته من نصوص التشريع الحاسمة، إذ وَضَح حق الناس في المال، وبيّن مكان الزكاة من الاقتصاد الإسلامي، وفرض الضرائب للمصالح العام، ثم ختم الكلام بما سمّاه (الحقائق المؤسفة) وهي حقائقُ مؤسفة ومخجلة لمن يتدبّر عن قلب ذكي، وفكر رحيم.

وما كان كتاب (الإسلام والأوضاع الاقتصادية) يشغلُ أذهان الناس وينتهي بهم إلى ضرورة حل إسلامي مريح، حتّى أصدر الغزالي كتابه (الإسلام والمناهج الاشتراكية) مكملًا للحلقة الأولى في ميدان الإصلاح الاقتصادي، فشرح ما يُراد

بالتأمين الاجتماعي، وتوزيع الملكيات على السنن الصحيح، وموضع الفرد من الأمة، ومسؤولية الأمة عن الفرد، وكان صريحاً حين تحدّث عن الملكيات الزراعية في مصر، وعما يجزّ الوبال مما يجري بعيداً عن حكم الإسلام في مؤسسات الربا والاحتكار والاستغلال، وشركات التأمين، وحقوق العمال، وقد فاجأ الأستاذ قزّاه بذلك كلّهُ، لأنّ حديث الاقتصاد الإسلامي لم يكن يجري على ألسنة الوعاظ والمرشدين قبل أن ينهض الكاتب الواعظ برسالته، إذ كان همّهم الأكبر متّجهاً إلى مُحاربة البدع والمنكرات، من أمثال التبرّج والتّدور لغير الله وشرب المسكرات، أمّا الطرّق الملحّ على الإصلاح الاقتصادي في ضوء الإسلام، فقد بدأه الغزالي في قومه وسار وراءه معجبون متّبعون!.

لم يتحدّث الغزالي عن مشكلات الاقتصاد والعدالة الاجتماعية في كتبه فحسب، بل كان منبرُ الجمعة كل أسبوع مذياعاً خطيراً يبشّر به الغزالي مستمعيه بآرائه الجريئة، فأعاد للخطبة الدينية يوم الجمعة اعتبارها المفقود، وأخذت الجموع تُهرع إلى المسجد قبل الميعاد لتجد المكان المطمئن، فإذا ضاقت رحاب المسجد تكتل الناس في الطرقات من حوله وقد بسطوا السجّاد ليؤدوا الفريضة مستمعين إلى النقد الجريء الحرّ بلسان عربيّ صادق لا يعرف الميّن والخداع، وحين كان الأستاذ خطيباً للجامع الأزهر حقبةً من الدهر، أصبحت خطبةُ النقدية حديث الناس جميعاً، وسجّلتها الأشرطة لتتناقل في الربوع النائية، فيعيد لها خطباء المساجد في الأقاليم مرّة ثانية.

وقد اجتمع أحد وزراء الداخلية مع نفرٍ من الصحفيين ليقول لهم إنهم فقدوا التأثير الشعبي، لأنهم يكتبون في مناصرة الحكومة ولا يستمعُ إليهم أحد، ومحمد الغزالي يُلقي خطبةً في مسجد مصطفى محمود يوم العيد فيردّها الخطباء في عشرات الآلاف من المساجد في القرى والمدن، ولا يستطيع أحد أن يمنع خطيب الجمعة إذا استند إلى القرآن والحديث، ونقل كلام الغزالي في قدرته على الإبداع والإقناع، وإذا كان الجامع الأزهر في قلب العاصمة، والذهابُ إليه يسيراً غير عسير، فقد رأى المغرضون أن ينقلوا الخطيب إلى مسجد عمرو بن العاص بأقصى المدينة في مصر القديمة ظناً منهم أنّ الطريق إليه وعراً، ولن يُهرع الجموع إلى سماعه بمكانه

القاصي، ولكن الناس هم الناس فقد تقاطروا على مسجد عمرو بن العاص تقاطرهم على الجامع الأزهر من قبل .

وتعرض الخطيب فيما تعرض له ذات جمعة إلى قانونٍ مشبوه بشأن الأسرة حاولت بعض الجهات تمريره، فأحدث كلامه دويّاً في الناس، وتناقلت الإذاعات الأجنبية - وأقول: «الأجنبية» عن عمد - كلّ ما هاجم به الخطيب هذا المشروع الجائر، وضاق رئيس الدولة بما كان، وهذد الخطيب بأنّ منعه من استمراره في مهمته، وضاقّت مصرٌ على الرجل، فأثر الهجرة إلى السعودية أستاذاً بالدراسات العليا بجامعة أم القرى حتى جاء نصر الله، وذهب عهد وجاء عهد، فرجع الشيخ ليصدع بحكم الله كما يراه، دون تهيب أو انتظار! أليس في ذلك ما يُعيد أمجاد خطباء الإسلام من قبل، كالمنذر بن سعيد الأندلسي، والعزّ بن عبد السلام، وابن تيمية حين واجهوا الباطل في المسجد الجامع، وما وهنوا لما أصابهم في سبيل الله وما ضعفوا وما استكانوا . . .

هذه لفظةٌ حانية أعودُ بعدها إلى جولتي السريعة في فكر الأستاذ الغزالي، فأعلن أنّه بعد كتابيه السابقين ألّف كتابه المزعج (الإسلام المفترى عليه بين الشيوعيين والرأسماليين) وأقول: المزعج عن خبرةٍ واعيةٍ بأثره البعيد، لأنّه أزعج طائفتين مُتعارضتين، كلتاهما تتمسّح بالإسلام وهو منها بريء، طائفةُ الرأسمالية التي تُعلن أنّ الإسلام يؤيّد اكتناز الذهب والفضة والعقار عملاً بمبدأ الحرية في الامتلاك، وهي واهمةٌ مخطئة، وطائفةُ الشيوعية التي تتمسّحُ بنصوصٍ قرآنية تُفسّر على غير وجهها، فجاء الكتابُ الفذّ ليعلن أنّ الإسلام ذوُ منهجٍ عادِلٍ في تحقيق التكافل الاجتماعي، ولم يبتغِ إرضاء المذاهب المُغرضة، وهذا الكلامُ يحتاجُ إلى بسطٍ، شرحه المؤلّف في كتابه، فتحدّث عن آثار الرأسمالية البارزة في الاستغلال المادّي الصارخ، فإليها يرجعُ ما يفشو في الشرق الإسلامي من تأخّرٍ وانحطاط، وقد سبّبت الشلل العقليّ لكثيرٍ من البُسطاء السذج، فأصبحوا يدورون حول ساداتهم كآلةٍ في المصنع، لا يناقشونهم الرأي أو يقاسمونهم الربح، كما يهبطُ بنفوسهم إلى مستوى العبيد، وفي مبادئ الإسلام علاجٌ لهذا الانحطاط، تهتفُ به أقوالُ القرآن ونصوصُ السنة ومواقفُ الصحابة والخلفاء، إذ كانت أعمالُ محمد ﷺ وعليّ وأبي بكر وعمرو عماداً يرتكز عليه الإصلاحُ المنشود، هذا إلى القواعد الأصولية المقررة في الفقه

الإسلامي، كسد الذرائع، ورفع الضرر، ومنع الحرج، وتضييق المباحات.

وقد دار في ذهن المؤلف ما سيستغله الشيوعيون من هذه النصوص استغلالاً يرضي وجهتهم الخاصة، فتحدث عن الشيوعية المُلحدة الكافرة، وأظهر أن دعوى العدالة الاجتماعية لديهم لا تجد تطبيقها العادل، فكبار الشيوعيين يعيشون عيشة كبار الرأسماليين في منازلهم، ويقولون غير ما يفعلون، كما أنها تهدم الأصول المقررة في الإيمان بالله، واليوم الآخر، وتجعل العالم قطيعاً يقترف المنكرات دون خوف من حساب ربّاني، إذ كثيراً ما يفلت المجرم من قانون الأرض، ولكن اعتقاده في عدالة السماء يؤرّقه ويُضنيه، فإذا زال هذا الاعتقاد تحوّل المجتمع إلى وحوش كواسر، يقول الأستاذ الغزالي:

«ولو كانت الشيوعية هذماً للأدب والأعراض فقط لتقبلها من يصدّون عن سبيل الله، بل لوجدوا فيها متنفسهم العميق، أما وهي لدى الرأسماليين هدمٌ لما يملك ويقتني، فيجب أن تُحارب باسم الدين، ولكن الدين يسأل هؤلاء: كيف ملكتم أموالكم؟ وأين حقّ الله وحقّ الناس فيما أخذتم؟ وهم يضيّقون بهذا السؤال!».

لقد جاء كتاب (الإسلام المفترى عليه بين الشيوعيين والرأسماليين) ليكشف عوار الفريقين، ويعلن أن الإسلام ذو منهج عادلٍ منفرد، وما بالرأسمالية من مظالم يُحاربها الإسلام، كما يُحارب تهجّم الشيوعية على الدين، وتحريمها الملكية الفردية العادلة! ولم يُرسل المؤلف حديثه إرسالاً، بل كان لكل حكم دعامة من القرآن والحديث وسير السلف الصالح من الصحابة والتابعين، مع الإفاضة في آراء أعلام الشريعة الأثبات، من أمثال ابن حزم وأبي حامد الغزالي، ومحبي الدين النووي، وابن تيمية وغيرهم، ولا يظنّ أحدٌ أن الكتاب قد أدّى مهمته بسقوط الشيوعية، وانحدار الرأسمالية المستغلة في أكثر شعوب أوروبا، فإنّ للتاريخ دورته، وسيبقى هذا الأثر شاهداً عدل حين تختلط الأرواق، وتختل الموازين، وقد تُرجم الكتاب إلى لغاتٍ شرقية وغربية، وقابل موافقه ومعارضه، شأنه في ذلك شأن كلّ أثر فكري جريء!.

وأنا أعرف أن كل كتب الغزالي ذات ردود مفحمة، ونقاش لا ينقطع، لأنّه يعمد دائماً إلى إزالة الأراجيف المختلفة في كلّ موضوع يتناوله بالتحليل، ولو كان لدينا احترامٌ علميٌّ في تاريخ حركة النقد المعاصر، لما قصرناه على ما يخصّ الفنون

الأدبية وحدها، بل لامتدّ بنا النظر إلى كلّ صياليّ فكري يتجاوزُ الفنون الأدبية إلى الفلسفة والدين والتاريخ وسائر فروع المعرفة في الدراسات الإنسانية، والغزاليّ ناقدٌ بهذا الاعتبار، لأنه كشف أوهاماً كثيرةً لأناسٍ كبار أو صغار، وسلط مجهره النقدي على كتب وقضايا في دُنيا الدّين والتاريخ والاجتماع، تنطقُ بذلك آثاره التي جاوزت الخمسين، وسأشير هنا إلى ثلاثة كتب خلصت للنقد من آثار الأستاذ، هي كتاب (العقيدة والشرعية) الذي نقد به كتاب المستشرق جولدتسيهر في الموضوع نفسه، وكتاب (التعصّب والتسامح بين المسيحية والإسلام)، الذي نقض به كتاب (جاك تاجر) المعروف، وكتاب (من هنا نعلم) الذي نقد به كتاب (من هنا نبدأ) للأستاذ خالد محمد خالد.

وكتابُ (العقيدة والشرعية) لجولدتسيهر خادعٌ مغرّر، إذ قام بترجمته لفيّ من علماء الأزهر لم يقوموا بحقّ التعقيب عليه في كلّ صفحة من صفحاته كما تُحتّم ذلك رسالتهم العلمية، وكأنّهم تركوا القارئ ليقومَ بالنقد من تلقاء ذاته، وقد اعترفوا في المقدمة أنّ بالكتاب آراء لا يُوافقون عليها، وكان عليهم أن يُمحصّوا هذه الآراء، قبل أن تنشر السموم في عقول القراء، وكان من رحمة الله أن قام الأستاذ الغزالي بهذا العبء الثقيل وحده، وأقولُ: «الثقيل» عن عمد، لأن المستشرق الداهية يصطنعُ الحَيَدة ظاهريّاً، ولكنه ينقلُ النصوصَ مبتورةً منقطعةً عن مبدئها ومنتهاها، فيُعطي القارئ انطباعاً مخطئاً حول القضية التي يتحدث عنها، كما أنّه مع النقل المبتور ينحرفُ بالتعليل والتفسير إلى غير وجهه، وهو ما يجعلُ الكتاب تبشيراً لا علماً.

لقد لاحظ ذلك الأستاذ الغزالي فتفرّغ لنقد الكتاب مؤكداً أنه حرص في الرد على هذا المستشرق أن يستوفي الحقائق العلمية التي توضح ما عمّاهُ أو غاب عنه، وقد اعترف الناقد أنّه كان قاسي اللّهجة في نقده، وهو أمرٌ لا حيلة للغزالي في تلافيه، لأنّه يكتب ويخطب بكل مشاعره، ولا يدعُ عاطفته سجيّةً في حجرة معترلة ليقفَ عقله وحده في حلبة النقاش، ومثلُ الغزالي لا بدّ أن يضيق صدره حين يرى إفكاً يُفترى، وتبذل الحيل في تأكيده وتثبيته، لأن المسألة لو كانت مسألة خطأً فقط دون تمويه، لاكتفى الناقد بإفصاح الخطأ، في جوّ حيادي لا يعمد إلى القذائف الصائبة، ولكنّ المسألة مسألة تدليس متعمّد، تدليس من يقطع النصوص، ليسير بها في

الوجه الذي يرتضيه، وقد تساءل الأستاذ الغزالي في مقدمة كتابه قائلاً:

«هل يلومنا أحد إذا وطّدنا العزم على استخراج هؤلاء المستشرقين من مكانهم ومزقنا الأغشية التي يلقونها على وجوههم، ونازلناهم في ميدان الجدل وجهاً لوجه، إنهم يُريدون الإتيانَ على الإسلام، فكيف نتحرّج نحن أن نأتي على بُنيانهم من القواعد؟ وهم يُريدون الاستمتاع بحقّ الباحث المحايد، أو بحقّ العالم المجاهد في أن يخطيء ويصيب، ولو أنهم عشاقُ معرفةٍ مجرّدةٍ، يبحثون عنها في حرارة وإخلاص لعذرنا المخطيء منهم وأقلنا عثرته، وساعدناه على الوقوف واستئناف البحث والاجتهاد، أما وهم محاربون خبثاء يصطنعون الطيبة للتوغل والاستمكان فهيئات أن نُعاملهم إلّا بذاتِ أسلحتهم».

وهكذا مضى الغزالي يتتبّع عثرات المستشرق المجري خطوةً خطوة، فوقف وقفةً ناقدة عند قولِ الباحث: «إن الإسلام ليسَ من صُنع محمد، ولكنه من صُنع الأجيال بعده، وأنّ رسول الله جاء بتعاليم استقاها من اليهودية والمسيحية حين اتّصل بهما». أما كيف اتّصل بهما على الوجه المثبت لانتفاعه بتعاليمهما، فهذا مما يعجز المؤلّف عن إثباته.

ثم يجول المؤلّف في إيضاح فروق بين التشريع المدني والمكي، لا لينتهي إلى ما قرّره الفقهاء ومؤرّخو التشريع بشأن هذه الفروق، بل ليقول بتأثير اليهود في شريعة محمد واتجاهه؟ ولا أطيل في تسجيل هذه العورات، فقد كشف عنها الغزالي بما جعلها رماداً تذرّوه الريح.

وهكذا - مرة أخرى - مضى الغزالي يشرح في خلال نقوده الحاسمة رسالة الإسلام الخاتمة، ويدفعُ الهجوم الظالم على السّنة المطهرة، ومحاولة توهين مصادرها ذات الأصل الراسخ متحدّثاً عن رأي الإسلام في مسائل القضاء والقدر والجبر والاختيار، ومجال العقل ومجال الوحي، وموقف جولدستهير من علم الكلام، وتتبعه أقوال المبتدعة والمنحرفين، ليلصقها بالإسلام لصقاً مكرهاً كلّ احتيالٍ وتعمّل، حتى انتهى الناقد إلى إيضاح مرونة الفكر الإسلامي، ومسلك الحكّام، والوحدة الإسلامية، ولا بدّ لقارئ كتاب (العقيدة والشريعة) الذي ألفه المنقود الجريء أن يتابع نقدَ الغزالي في كتابه ليقذف الله بالحق على الباطل فيمحوه.

أما كتاب (التعصّب والتسامح بين المسيحية والإسلام) فقد كتبه الأستاذ الغزالي على مضض، لأنّه لا يريد إثارة الثوائر بين عُنصري الأمة المصرية، فالغزاليّ في كل اتجاهاته داعيةٌ وفاق لا شقاق، ولكنّه وجد كاتباً يثير الشقاق إلى درجة الالتهاب، ويقذفُ بالاتّهامات الظالمة في وجوه المسلمين من المصريين، منذ دخل عمرو بن العاص الكنانة فاتحاً حتّى عهد المؤلّف المتعصّب، ولم يدعُ سطرأً من السطور في أسفار التاريخ البعيدة والقريبة يُشَمُّ منها تنابُذٌ بين العنصرين إلّا جسّده وغلّظه، ونادى به من فوق مرتفع شاهق ليسمعه جميع الناس، وقد غفل غفلةً مقصودةً عن مظاهر الالتحام بين العنصرين، كما سجّلتها كتب التاريخ التي بحث فيها عن الهنات ليلتقطها متعسّفاً، وليبالغ في تحليلها مبالغاً تدعو القارئ المحايد إلى التفور والانقباض، وما هكذا سبيلُ البحث التاريخي النزيه! وقد قال الأستاذ الغزالي في مقدّمته:

«أذكرُ أنّ الأستاذ المرشد العام حسن الهضيبي قد طلب إليّ أن التزم حُسن العرض، وأنّ أكتفي بتنحية القذى عن طريق الإسلام دون غضب أو تحدّ، وقد بذلتُ الجهد في إجابة نصحه، وإن كنتُ أشعرُ أحياناً بِـبُورَات الغيظ تملكني وتجرفُني، إذ أجد حقّاً يُعْطِي الهوى وَجْهَهُ المبين، وعَسْفاً يُرَادُ فرضُهُ على الطريق المستقيم، وما كانَ الإسلام ينتظر ممّن أحسنَ لهم في أرضه أن يترتّبوا به، ويُعينوا عليه، أو يتلمّسوا لأهله الأبرياء العيوب».

وفصولُ الكتاب قويّة منصفة، فقد تحدّثت عن الإسلام بين العصبية والتعصّب، وعن المسلمين وأهل الذمة، وعن مسلك عمر الفاروق في معاملة أهل الكتاب، وعن الفتح الإسلامي في العصر الأول، وعن أسلوب التوسّع والمعاملة في تاريخ الديانتين، ووقف وقفاتٍ متأنيةً في الحديث عن دُخول المسيحية في مصر، وكيف دخلها الإسلام، مسجّلاً موقف الصليبيين من نصارى الشرق، وموقف الأقباط من الاحتلال الفرنسي، وفي هذه العناصر ما يُعْطِي فكرةً كافيةً عن الكتاب السديد.

أما كتاب (من هنا نعلم) الخاص بنقد كتاب (من هنا نبدأ) فيسرّنا أن نُعلن أن الكاتب الكبير الأستاذ خالد محمد خالد مؤلّف الكتاب قد رَجَعَ عن كلّ سطر قاله فيه، وألّف كتاباً آخر تحت عنوان (دين ودولة) يمضي مع كتاب الأستاذ الغزالي في كل حقائقه، وقد رجع الكاتبُ إلى الحق بعد بحثٍ شاف متّصل، فأعطى مثلاً صادقاً

لمن يكتبون الخطأ ثم يبادرون إلى تصحيحه، وأعجبُ العجب أن ذيول الشيوعيين في مصر كانوا يصفقون للأستاذ خالد محمد خالد، وينعتونه بالكاتب الكبير، وينقلون ما جاء به في كتابه مختلفين منوّهين، حتّى إذا ألّف الأستاذ كتابه الجديد همدت حماسهم تلقاءه، وضاع وصفُ «الكاتب الكبير» الذي كانوا يصفونه به، ولم يدعوا الكتابَ بعد أن نقده مؤلّفه، بل حرصوا على إذاعة ما دُوّن فيه، ولذلك سيظلّ كتاب (من هنا نعلم) يؤدّي رسالته في تسفيه من يعتنقون الضلال عن عمد راسخ.

لقد كان من خطأ الأستاذ خالد في كتابه أنّه اعتقد أن الإسلام كالمسيحية، لا صلة له بأمور الدنيا، وهو خطأ جوهري عرفه الأستاذ فيما بعد، فتجافى عنه، كما جعل في الإسلام رؤساء من رجال الدين يُحلّلون ويحرّمون، كما يفعل البابوات في كنائس أوروبا، والإسلام بريء من سيطرة إنسانٍ يحلّل ويحرّم دون اعتماد على نصّ من الكتاب والسنة وما أجمّع عليه الفقهاء، وإذا جدّد حدثٌ لم يأت من قبل، فلدينا القياس وهو من أوسع أبواب الاجتهاد في الفقه الإسلامي، كلّ ذلك مقرّر مدروس، وقد أجاد الغزالي في تأييده، بحيث أدّى رسالة ضرورية كان من المحتم أدائها.

وأذكرُ أن الكاتب الكبير الأستاذ محمد فريد وجدي رحمه الله قد نقدَ كتاب الأستاذ خالد نقداً واعياً على صفحات مجلة الأزهر، في حلقاتٍ متتابعة لم تُجمع في كتاب مستقل، وقد قرأت ما كتبه الأستاذ وجدي وهو من الغزالي بمنزلة الأستاذ، لسبقه المحمود في حلبة الجهاد العلمي النزيه، فوجدتُ توافقاً كبيراً في الحقائق العلمية التي اهتدى إليها الرجلان الفاضلان، لا لأن أحدهما قد نقل عن الآخر، فمنطقُ البحثين لا يُوحى باطلاع أحدهما على ما قال صاحبه، ولكنّ حقائق الإسلام وحدها كانت من الرسوخ لديهما بحيث استطاعا أن يتحدّثا عنها حديث الرجل الواحد، وهذا ما يؤيد أن الحق أبلج لا مرية فيه، وأنّ النفوس إذا خلت من الغرض اتّضح لها وجه الحقيقة بعد البحث الجاد دون لبس أو تدليس.

وقد كان في ما كتبه الباحثان الكبيران مَفْنَعٌ لمن يعرف الحق، أو يسعى إلى معرفته، ولكننا في الأيام الرديئة التي نعيشُ ظلماتها الآن، نرى كتباً ضالّة تظهرُ متحدّية الحقائق الصريحة، لتعلن انفصال الدين عن السياسة، وتجذّ هذه الكتب من وسائل الإعلام والتنويه في الصحف والإذاعات المختلفة ما تضيق به الصدور، ولكنّ العجيب حقاً أن هذه الدعاية الواسعة على هذا النحو الممتدّ الفسيح، لم تحظَ

بقبول الجماهير القارئة، فهم يميزون بين الطيب والخبيث عن نظر بصير.

هذا بعضُ ما اتَّجه إليه الأستاذ الغزالي في تنفيذ أباطيل خدعت الناس، ورائث على عقولهم، فتطلَّبوا الاهتداء إلى الحق، ووَجَدُوا لدى الأستاذ ما يُريح، وهو كدَّابه يتحسَّس أماكن الحاجة إلى التثقيف الضروري للمسلم، فينهض إلى ساحاتها غير وإن! لقد لمس قُصوراً شنيعاً في توضيح عقيدة المسلم، حيث اقتصرَتْ معرفة هذه العقيدة على ما جاء في كُتب علم الكلام، المسمَّى بعلم التوحيد، وهذه الكُتب في تراثها الماضي لم تُعدْ تُؤدِّي رسالتها في إحياء العقيدة، وإذكائها في نفس المسلم على وضع يجعلها تترقق دماً في عروقه، لأنَّ هذه الكتب تعرَّضت لآفات كثيرة، أهمُّها أنَّها سلكت سبيل الفلاسفة في تقرير حقائقها الإيمانية، فجعلت المنطق الأرسطي سبيل التدليل وآية الإقناع.

والمنطق الجدلي كما نشهد في أمور كثيرة يُثبتُ الشيء ونقيضه، لأنَّه يفترض صحة المقدمات، ولا يهتم إلا بالنتائج، إذ ذاك تجيء النتيجة باطلةً وفق المقدمة إذا كانت باطلة، كما أنه نوعٌ من البحث يؤدي إلى الجفاف الفكري، وغايته أن يكون تمريناً عقلياً، لا اهتداءً قلوبياً، لذلك يشك الشاكُّون عن وسوسة الشيطان، ثم يقدِّمون إلى هذه الكتب آمليين أن يجدوا بها برد اليقين، فتزيدهم غليلاً، ومن أراد التعمق في المطوَّلات الكبيرة بدل المختصرات الموجزة فماذا يجد؟ يجدُ حرباً ضروساً بين طوائف مختلفة، عفى عليها الزمن ولم يعد لها وجود بيننا الآن، هذه الطوائف تتنازع في أمور عقلية أو سياسية لم تُعدْ مجال التنازع اليوم، وقد حرص مؤلِّفو علم الكلام على تتبُّع أقوالها، وترداد أدلتها.

والقاريُّ المعاصر تحوَّطه الشُّبهة من كلِّ اتجاه؛ شبه الكفرة من الماديِّين والملاحدة والعلمانيين، ولا يجد في كتب التوحيد ما يشفي الغلة، لذلك شاء الأستاذ الغزالي أن يضع ما يُعرَف بعلم التوحيد وَضْعاً جديداً، يقنع العقل، ويرضي العاطفة معاً، وضِعاً يأخذ أدلَّته من كتاب الله وسنة رسوله، ثم من المشاهد المحسوس في ملكوت السماوات والأرض، فبدأ كتاب (عقيدة المسلم) بحديث مقنع عن أدلة وجود الله عز وجل، بدأه بقوله: «وجودُ الله من البدايات التي يدركها الإنسان بفطرته، ويهتدي إليها بطبيعته، وليس من مسائل العلوم المعقَّدة ولا من حقائق التفكير العويصة، ولولا أنَّ شدة الظهور قد تلدَّ الخفاء، واقترب المسافة

جدّاً قد يعطل الرؤية، ما يختلف على ذلك مؤمن أو ملحد».

ثم قال: «وقد اقترنت حضارة الغرب - التي تسود العالم اليوم - بنزوع حادّ إلى المُمارة في وجود الله، والنظر إلى الأديان جملةً نظرةً تنقّص، أو قبولها كمسكّنات اجتماعية لأنصارها والعاطفين عليها، ولا شك أن المحنة التي يُعانيها العالم الآن أزمةٌ روحية منشؤها كفره بالمثل العليا، فلا نجاة له مما يرتكس فيها إلا بالعودة إلى هذه المثل، يهتدي إليها بفطرته كما يهتدي سبيله الجنين في ولادته، والفرخ في بيضته».

بهذا الأسلوب النير سار الأستاذ في فصول الكتب، حين تحدّث عن العالم وهل خلُق صدفة؟ وعن صفات الخالق جلّ علاه، وعن الوحدة المطلقة، وعن القضاء والقدر، والجبر والاختيار، وقيمة العمل ومزله من الإيمان، وعن الخطيئة والتمتاب، وعن النبوة والوحي والعصمة والمعجزة، وعن الحياة الأخرى فيما وراء الحياة الدنيا، وعن البعث والجزاء؛ ولا يكفي القارئ أن يعلم رؤوس هذه الموضوعات، بل من واجبه أن يسارع إلى قراءتها ليجد العقيدة الإسلامية قد برزت في ثوب قشيب.

ولم ينس الأستاذ أن يكتب عن السلوك في الحياة كتاباً رائعاً تحت عنوان (خلق المسلم) كما كتب مؤلفه عن (عقيدة المسلم) وهو بهذا يهيئ الاطمئنان النفسي للمسلم، رُوحياً وعملياً، فاقتناعه بما جاء في كتاب العقيدة سبيلٌ إلى الاطمئنان الروحي واقتناعه بما كتب في (خلق المسلم) سبيلٌ إلى الاهتداء العملي في دروب الحياة.

لقد درس الأستاذ الغزالي كتب الأخلاق في مظانها المختلفة، وألمّ بما ذكره الفلاسفة والعلماء عن الخير والشر من لدن أفلاطون، ولا بدّ لمن يكتب كتاباً في الأخلاق أن يدرس هذه الدراسة المستوعبة، غير أنّ المؤلف لا يُفاجئك بآراء الأخلاقيين، ولا يصدمك بالمصطلحات العلمية، وكلّها منطقيّ جاف، ولا يحشد لك النقول الصاخبة، لأن مطالعات الغزالي قد تفاعلت واختمرت، حتى أصبحت فكراً هادئةً ترتبط بالتوجيه الإسلامي للأخلاق، فهو في تحليله الهادئ يُبرز ثمار معارفه، وقد تمثّلت في نفسه، فكادت تكون مادةً أخرى بعد أن صُهرت في بوتقته الذاتية، دون أن يفقد القارئ الحصيف بُذور آرائه، ومقدماته الأصلية.

وقد يقول قائل: إنه يكتب الأخلاق من زاوية الإسلام، فلا صلة له بآراء

الفلاسفة وعلماء الأخلاق، ولكننا نعلم أن الأخلاق الإسلامية نهضت قمة عالية تضمّ في لبناتها المترابطة أجزاء من الفكرة الإنسانية العامة التي تهدف إلى الحق وإلى الخير وإلى الجمال، فهي في نسقها القرآني مجالاً للدراسة والموازنة والتحليل.

وكتاب (خلق المسلم) يؤدّي رسالةً دائمة لا تتقيد بزمان أو مكان، فهو دستور المسلم أنّى وجد، وحيث كان، وهو بهذا الوضع لا يُغفل حاجات عصره، وأخطاء زمنه، بل يتخذ منها أمثلة يكشف بها القناع عما يريد، فهو حين يتحدث عن الصدق يوضح ما تجرّه الصحافة الكاذبة من نكبات، إذ يتسع ضررها ويمتدّ حتى تشمل الكذبة الواحدة آلاف القراء، ثم يتكلّم عن الانتخاب البرلماني فيرى في تزكية غير الكفاء كذباً وزوراً أي زور، وحين يتحدث عن الأمانة يرى من الخيانة إسناد المناصب في الدولة إلى غير أربابها، كما يشوي الوساطات والشفاعات والمحسوبية بسياطٍ ملهبة، ثم حين يتكلّم عن الوفاء بالعهد يعلن أن الشروط المكتوبة لا حرمة لها إذا تعارضت مع الدين، وحين يتحدث عن القصد والعفاف ينعى على الشباب ما فتن به من الأناقة والطراوة والولوع بالمظهر واللباس، حتّى صار الواحد منهم معرضاً للأزياء، وهكذا يطارد الكاتب أوبئة العصر في علاج شامل لما يتعاقب من الأجيال، لأن الداء ممتدّ يستطيل.

وإذا جاز أن تكون هناك كتب للقراءة ذات الموضوع الواحد لطلاب المدارس الثانوية فمن الخير لهؤلاء الطلاب أن يكون كتاب خلق المسلم أحد هذه الكتب التي تقدّم لهم، لأنه جمع الأسلوب الجيد والنصوص الأدبية المتقاة من كتاب الله تعالى وسنة الرسول ﷺ، وله بعد ذلك صحة الهدف، ونبل الغاية وشرفها، إذ يرسم الطريق إلى حياة صحيحة، وسلوك سليم، مع وضوح التعبير، بل مع إشراقه الوضيء.

لقد سئل الأستاذ الغزالي عن أحبّ كتبه إلى نفسه فلم يذكر كتاباً من الكتب التي تعرضت لها في هذه العجالة ببعض التحليل، ولكنّه ذكر كتاب (فقه السيرة) وهو كتاب خاص بتدوين سيرة رسول الله مشفوعة بما نفحه إيمان الكاتب من التحليل الشارح، والتعليل الموجه، وأشهد أن كتاب فقه السيرة يمسّ شغاف قارئه مسّاً قوياً، لأن حبّ الكاتب لرسوله قد تجسّد في كل كلمة خطها، وليس هذا مأخذاً،

لأنَّ الحبَّ يكون مأخذاً منحازاً إذا كان حُبّاً أعمى لا يعتمد على دليل صادق، أو برهان كاشف، أما إذا كان الحبُّ وليد اعتقادٍ قوي، راسخ الأركان، وطيد الهناء، فإنَّه يدفع قلم الكاتب دَفْعاً إلى تسطير عواطفه المؤمنة دون تلبّث، إذ يجدُّ من فيضها الزاخر ما يتبيحُ له أن يُسوّد عشر صفحات في مجلسٍ واحد، فالينبوع دافقٌ، والمعاني واضحة لامعة، والإعجابُ دافع سائق.

وأذكرُ أني قرأت عشرات الكتب عن السيرة المطهّرة، وما زِلْتُ أقرأ كلَّ ما يقع في يدي من حديث هذه السيرة مما يكتبه الفضلاء ذوو العطاء السخي المشبع، ولكنتي وقفتُ فيما قرأت عند كتابيّين، قد احتلّا مكانتهما الكبيرة في نفسي، إذ وَجَدْتُ فيهما ما لا أجد في سواهما، فكتابُ عبقرية محمد للأستاذ العقاد على صغر حجمه يُعطيكَ من المعاني المبتكرة النادرة ما لا تكاد تجده في سواه، لأنَّ مَلَكَةَ التحليل العقليّ التي اشتهر بها الكاتب قد بدت في تألّقها الزاهر وضيئةً فيما كُتِبَ عن رسول الله تحليلاً وتدليلاً واستكناهاً، ومأخذهُ الأُوحد إنَّ عُدَّ هذا مأخذاً هو الصّرامة الجافّة في الإيجاز، لأنَّ بعض البسط كان يشفي الغلّة قطعاً، أما الكتابُ الثاني فهو فقهُ السيرة للأستاذ الغزالي حيثُ أتمَّ رسالة العقاد من ناحية ثانية، لأنَّ العقاد قد اهتمَّ بالنظر العقلي، والصيال الفكري دونَ أن يلتفت إلى سبحات الروح وخلجات النفس، وهذا ما التفتَ إليه الأستاذ الغزالي، فجاء كتابهُ جامعاً بين منطق العقاد وروحانية الغزاليّ الداعية المتصوّف، وأقول: «المتصوّف» عن عمد، لأنَّ تصوّف الغزالي تصوّف عمليّ مكافح، يدفعُ إلى التأمل، ويدعو إلى البناء، في ظلّ من حبّ الله، وخشيّة من عقابه، ولم يكن الغزالي بعيداً عن رسول الله حين كتب مؤلّفاته الأخرى، فالرسول ﷺ ماثِلٌ بروحه في كلّ خطٍ كتبه الغزالي توجيهاً وطاعة وامتنالاً، ولكنّ كتابة سيرته المطهرة بقلم الغزالي قد ساعدت على إكمالِ الصورة الجميلة التي يراها الأستاذ لنبّيهِ الكريم.

قلت: إنّ الغزالي أديبٌ مطبوع، لو تُرك له المجال للعكوف على الأدب وحده لكان أديباً من طراز حجة الأدب ونابهة الإسلام الأستاذ مصطفى صادق الرافعي رحمه الله، ولكنّ مشيئة الله قد وجهته إلى الدعوة والنضال في حومة الأفكار المتصارعة، فكان أديب دعوة، وأديبُ الدعوة الإسلامية أشملُ وأعمّ وأوفى من أديب آية دعوة أخرى، لأنَّ دعوة الإسلام هي دعوة الحياة.

وبعد؛ فهل تراني - في هذه المحاضرة السريعة - قد بلغتُ بعض ما أريد من جولتي الخاطفة في بعض كتب الغزالي، أشهدُ أنّي قصّرت، لأنّ الحديث الطائر عن بعض الكتب الغزالية لا يُغني عن التحليل الدقيق لكلّ كتاب على حدة، وأذكر أنّي كتبتُ منذُ زمن بعيد تحليلاً وافياً لكتاب (كفاح دين) للأستاذ الغزالي، ووجدتُ من الأوفق أن الحقّه بهذه المحاضرة ليعطي نموذجاً متواضعاً للحديث عن مؤلفات الغزالي، كما أراه على قدر ما في طاقتي من توضيح!

نظرة في كتاب «كفاح دين» للأستاذ الغزالي

تحسّن بتوهّج متّقد يلفح أعصابك، ويلهب دماءك إذ تطالع هذا الكتاب الصريح، فقد كنت أقطع قراءتي في حزن آسف لأصعد زفرة حارّة، أو أرسل عبرة ساخنة، أو أضغط بيدي على رأسي لأنقذها من صدام ثقيل . . . لأن هذا الكتاب العجيب يشرح في صدق وإخلاص مأساة الإسلام بين خصومه وأصدقائه! ويصور قصته الدامية تصويراً محسوساً، لم يعرف الخيال الكاذب سبيله إليه، وفي كل فصل من فصول القصة حقائق مخزية! ووقائع دامية . . .

والغريب أن القارئ المثقف يعترف بها دون أدنى ريب! ولكننا جميعاً كنا نغمض العين، ونوقر السمع، ونطمس شعاع العقل، حتى جاء الكاتب الجريء مؤلّف الكتاب، فوضع النقط على الحروف، وجأ بالصراخ الرنان! ولم يكن صراخ العاطفي المهتاج الذي تذهله الكارثة عن تفهّم الأسباب واستخلاص النتائج، ولكنه صراخ العاقل المفكر الذي شاهد الفجوة تتسع وتتسع، والطوفان يكتسح ويكتسح، فأشار إلى الفجوة في ثقة، وتقدّم نحوها في جرأة، ثم صاح بمن يأنس فيهم القوة على الدفع والقدرة على الجلال: الغوث، الغوث، فهاهو ذا الطوفان . . .

قلت: إن الكاتب جريء مقدم . . . وأنا أعرف فيه هذه الجرأة النادرة منذ خطّ أول مقالة بقلمه، فهو الكاتب الأوحّد الذي قال في الذكرى المئوية لمحمد علي: «إنه أميّ جاهل لم يرزق حظاً من القدرة والسادات»، قال ذلك وجميع الجرائد والمجلات تصدر الأعداد الممتازة في تحية (ساكن الجنان) وتباهي به عظماء الدنيا تزلفاً لفاروق الحفيد!! وقد تجلّت هذه الجرأة العجيبة في كل سطر من سطور هذا الكتاب!! فليقرأه الناس .

قلت : إن الكتاب قصة دامية . . . فأنت تجد فيه روح القصة مهما كان بحثاً علمياً يستند إلى الوقائع والشواهد، وكل كاتب ذي رسالة لابد أن يثير انفعالك واهتمامك ما تثيره القصة الفنية من نفسك، لأنه يكتب بدمه وأعصابه وروحه، فكل حرف يتوهج ببريق، وكل سطر يتقد بجمر! وكل فصل يهتز بإعصار! ولن تجد ذلك عند كاتب منمق، يجمع المعلومات وينضد الألفاظ - كأكثر من يدافعون عن الإسلام اليوم - ووراء ذلك سكون جامد تدرك فيه صمت القبور، وخراب موحد تلمس فيه ظلام الليل وجذب الصحراء . . .

وإذا كان القصّاص الناجح يبلغ ذروة براعته، حين يطالعك على غرائب المتناقضات، وعجائب المفارقات فيما يسرد من أحداث ويرسم من صور، دون أن يصطنع المنهج التقريري للإثبات والنفي، بل يتركك تلمس المتناقضات لمساً هائلاً تتخيله بحواسك، وتشربه بتفكيرك ثم تفسح له مجال التأثير العميق من نفسك، وإذا ذاك يبلغ ذروة براعته عن اقتدار وإتقان . . . إذا كان القصّاص الفنان يفعل ذلك، فإن صاحب قصة كفاح دين قد عرض علينا كثيراً من المفارقات المذهلة، ورسم لنا صوراً متناقضة غريبة نراها من دنيا الناس عن اختبار وعيان، حتى أخذ القارئ يضرب كفّاً بكفّ لما يشاهد!! ثم يتساءل في حسرة: أنحن عقلاء أم أغبياء؟! .

فمن المفارقات المذهلة في هذا الكتاب أن تدعو دول الغرب إلى فكرة التعاون المسيحي - الإسلامي، فتقيم المؤتمرات وتوزّع النشرات، ثم تصبّ سياطها الظالمة على المسلمين في كل صقع من الأصقاع، فإذا قيل: إن التعاون المسيحي لا يثمر إلا إذا كفّ الضارب عن المضروب، ورفع الظالم يده عن الجسم المنهوك، قيل: كلا! إن هذا يدخل في السياسة! ونحن نريد تعاوناً إسلامياً - مسيحياً لا يتحدث عن سياسة الطغيان!! أليست هذه ملهاة!! .

ومن المفارقات أن يقوم رئيس المؤتمر، فيعلن أن الغرب قد نجح، لأنه فصل الدولة عن المسيحية، وإن ارتباط أوروبا بالكنيسة قد دفعها إلى شرور موبقات!! فإذا قلت له: إن الإسلام لا يتجر بصكوك الغفران، ولا يقر الوسيلة والتوسّل، ولا يقرّ قداسة المفتي فيما يفتي به، مما كانت تفعله الكنيسة، وإن أكبر رجل في الإسلام يقف مع أصغر رجل في مستوى واحد أمام الشريعة! فالإسلام شيء، والمسيحية شيء! قال لك في صراحة: إن الإسلام دين، والمسيحية دين! وقد

انفصلت المسيحية عن الدولة! فلينفصل الإسلام!! .

وإذا قلت له: إن المسيحية انفصلت عن الدولة اسماً لا فعلاً، فالمعتقد المسيحي في الغرب موضع عناية كبيرة، وأثره متغلغل في توجيه السياسة الأوروبية، وشاراته في المدارس والجامعات بارزة، والانبعاث عنه في وجوه النشاط أمر غير منكور، وإن النازية والفاشية كليهما استظهرتا بالكنيسة في سياستهما ورسمتا الصليب على أعلامهما، وإن الدول الديمقراطية قد سمّت أكثر أحزابها السياسية بأسماء مسيحية صحيحة!! ونهضت ترسل البعثات التبشيرية في كل مكان، والإرسالات الكهنوتية في كل بلدة، وأقامت الكنائس الشاهقة في كل مجتمع، وأمّدت رجال التبشير المسيحي بالذخيرة والمال الوفير ليكون الوسيلة في هدم الإسلام وتخلّي أتباعه عن دينهم الحنيف؛ إذا كان ذلك قد حدث من الدول الأوروبية المسيحية، فلماذا تفرضون على الحياة العامة في بلاد الإسلام أن تتخلّى عن الصلة بالدين، إذا قلت ذلك قال هؤلاء في استخفاف: لقد انفصلت الدولة عن الدين، ولا عليها أن تفعل ما تشاء في تثبيت الدين! أليست هذه مخزاة؟! .

هذه نماذج مضحكة من المفارقات التي شرحها الكتاب شرحاً توازره بلاغة الردّ وفصاحة الدليل وقوة الحق... أما المفارقات الداخلية التي سردها الكتاب في مرارة أليمة، وحسرة كظيمة فهي من أغرب ما يقال...

لدينا أناس سمّاهم المؤلف الإنجليز السمرة!! وهم جماعة من المسلمين تشربوا سياسة الاستعمار وتعاليمه، فانقلبوا حرباً على أمتهم ودينهم، وأورثهم مركّب النقص نوعاً من الاستعلاء الحقيق، وهم كالأنعام لهم عقول لا يفقهون بها، وعيون لا يبصرون بها، وآذان لا يسمعون بها، وحسب الواحد منهم أن يفتخر بشهادة أجنبية زيّفت عقله وألغت ضميره، واجتثت دينه، وأنّ مفارقتهم الشائنة في هذا الكتاب الصريح لتضحك الثكلى! فلهم من الغرائب المتناقضة ما يجعلك تصبّ الماء على رأسك لتطفئ حرارة الغيظ في نفسك وأنت تقرأ عنهم هذه المناكير!! فهم يتفانون في تأييد كل اتجاه يرمي إلى تغليب الطابع الأجنبي، أو تهوين الروح الديني، أو إضعاف الأدب العربي، أو تسويق الانحلال الخلقي، أو تشويه التاريخ

الإسلامي!! ويدعون لأنفسهم حرية البحث من أصالة الثقافة وبراءة النزعة ما يكذبه تاريخهم الشائه وفعلهم المقيت!

فالواحد من هؤلاء - كما يقول المؤلف - يجب أن يراه الناس خارجاً من حانة، ولا يجب أن يروه خارجاً من المسجد، ومن السهل عليه أن يوصف بأنه زنى بعشرة نسوة، ولكنه يسودّ خجلاً وخزياً إذا قيل إنه تزوج بامرأتين! .

الواحد من هؤلاء يهجر المسجد لأنه أثر رجعي متخلف لا يستسيغه من تثقف في بلاد الغرب، وهو يقرأ في الصحف أن واعظ (إيزنهاور) قد حضر إلى القاهرة في رسالة تبشير، وأن رئيس جمهورية الولايات المتحدة لا تفوته صلاة بالكنيسة! فإذا جابهته بذلك قال: إن الكنيسة شيء والمسجد شيء آخر. . أليست هذه مأساة! .

الواحد منهم يتحدث في الإذاعة وعلى صفحات الجرائد وفي سطور مؤلفاته عن مغامراته الغرامية وعبثه المجوني، فإذا قلت له: إنك في سن متقدمة لا تسمح بهذا العبث المقيت، قال لك في وقاحة سافرة: أنت رجعي متأخر!! .

الواحد منهم يشنّ الحرب على الإسلام، ويقود المظاهرات النسائية للمناداة بإلغاء تعدد الزوجات، ثم يرحّب تمام الترحيب بما يقول به القانون الوضعي، من أن الزنا لا يعد جريمة ما دام الطرفان قد أديا العملية الجنسية بالرضى المتبادل والحرية التامة دون ضغط أو إكراه. . فإذا قلت له: أيهما أجدى بالاحتجاج والمظاهرات: الفسق العلني الحرام، أم تعدد الزوجات المباح؟ قال لك في وقاحة: تعدد الزوجات. . أليست هذه مخزاة.

هؤلاء حتى في البحث التاريخي المجرد يتفانون كل التفاني في تأييد كل فرية يسوقها مغرض أوروبي، حتى فيما اعترف بصحته أفذاذ الغربيين أنفسهم!! فهم يجزمون بأن المدنية الأوروبية الحديثة أنقذت الشرق الآن! وفي الوقت نفسه يجزمون بأن أوروبا لم تستفد من حضارة العرب، فإذا وضعت أمامهم نصوصاً لأساتذتهم الغربيين تثبت نقیض ما يدعون!! قالوا في عبث يثير الغيظ: هؤلاء مغرضون!! . أليست هذه فضائح!! .

لقد ناقش المؤلف الكبير كثيراً من أباطيل هؤلاء، مما نسج على غرار زائف

يصطنع الحرية في البحث والنزاهة عن العرض، وهو محجوز بين جدران ضيقة من الغباء الصفيق، والشعور بالضعة!!.

وإنك لتعجب لبراعة الكاتب أشد العجب حين يأتي بفصل الخطاب في سطور محدودة، لا يميل فيها إلى الإسهاب، وكأنها القذائف الصائبة تنطلق سريعة لتؤدي غرضها الحثيث دون تَوَانٍ، وفي أقرب وقت يستطيع!!.

ولنقتبس بعض قذائفه الموجزة الصائبة في الدفاع، لتكون نموذجاً صادقاً لمنهج الكتاب!!.

يقول الكاتب الأمين: «لقد ظَلَّتْ أوروبا سبعة قرون قبل ظهور الإسلام وثمانية قرون بعد ظهوره وهي لا تعرف شيئاً طائلاً عن فلسفات العالم القديم، ثم تحركت أوروبا وبدأ عصر النهضة يهزّها من سباتها فما الذي جدّ عليها؟ وما الذي بدّل حياتها من جهل إلى علم ومن ظلام إلى نور؟!.

يقول أصحاب الغرض: إنه تراث يونان وأثر أثينا وروما!!.

عجباً! فقد كان ذلك أجمع ركاماً مندثراً في أعماق الماضي ظللتم بإزائه دهرأ طويلاً! فماذا حبسكم عنه! وماذا منعه منكم؟.

يقولون: لقد جاء به إلى الغرب علماء دولة الروم الشرقية بعد أن سقطت عاصمتها في يد الترك، ومنذ هاجروا بدء عصر الإحياء.

عجباً! لقد ظَلَّتْ دولة الروم الشرقية ومعها هذا التراث ألفاً من السنين، فماذا صنعت به؟ ولماذا لم يرفع مستواها الأدبي في قليل أو كثير؟.

أسطر قليلة محدودة! تجهز على فرية كاذبة فما تستطيع البقاء!! أليست هذه قذيفة صائبة سريعة تتألف من حروف وكلمات! فتكون لها طبيعة الديناميت المتفجّر من الهدم والتقويض في عدة ثوان! هذه واحدة.

أما الثانية فقذيفة أخرى وازن بها الكاتب الغيور بين دخول الحضارة العربية إلى أوروبا في القرون الوسطى، ودخول الحضارة الغربية إلينا في العصر الأخير! فقال: «إن الفارق بين الحالتين أن الإسلام لم يَضَنَّ على الأوروبيين بنور يمشون به، فازدهروا ونهضوا، أما الغربيون فهم يسخّرون اليوم تفوقهم في إذلال الآخرين واستغلالهم، فهووا بهم إلى الحضيض!!». أليس هذا حقاً واقعاً نحسه ونراه! ثم

أليست هذه الحروف المحدودة قذائف صائبات!! .

هذه الآراء الصائبة تتكاثر في فصول الكتاب تكاثراً يدعو إلى التقدير والثناء . .
وإذا قلنا عنه: إنه قصة حقيقية لدين مكافح مستبسل، فإن مسرح هذه القصة الدامية ينتقل بالقارئ من مكان إلى مكان! وإذا حفل كل موطن بمآسيه ودواهيته، فلن تجد أشجى للقلب، ولا أدمع للعين، ولا أضيق للصدر، ولا أقبض للنفس مما مثل على مسرح الحبشة من أهوال! وعلم الله كم كنت أقطع القراءة قطعاً، لأجد فرجة بسيطة للهدوء النفسي، ثم أتجه إلى القراءة، فألمس من لاذعات الغيظ ولاعجات الغضب ما يجعلني أعضّ على شفتي وأصيح في سخط كظيم: واحرّ قلباه!! .

ما هذا! ألسنا في القرن العشرين! لماذا إذن نطالع في مأساة الإسلام بالحبشة، وهذه الشنائع الفاحشات، لقد خرج من سجن هرر وحده أكثر من سبعة آلاف شخص، ظل بعضهم مقيّد الرجلين واليدين على شكل قوس لمدة أكثر من عشرة أو خمسة عشر عاماً، فلما أفرج عنهم لم يعودوا إلى حالتهم الطبيعية، إذ تشكل عمودهم الفقري بهذا الشكل القوّس! .

وبعد أن دخل رجال الثورة - من المسلمين - الغابات للمقاومة، جمعت الحكومة الشيوخ والأطفال والنساء في أكواخ، كل عشرين أو ثلاثين منهم في كوخ، وهو يبنى عادة من الحشيش أو القصب وسكبت عليها صفائح البززين، فأحرقت جميعاً بمن فيها . . .

واحرّ قلباه مرة ثانية: أليست هذه الفاجعة الفظيعة من كبريات الفظائع عبر التاريخ جميعه! إنني لا أعرف في العربية كتاباً جريئاً سجل هذه المخازي الشائنة غير هذا الكتاب، ولها فيه نظائر وأمثال .

على أن البراعة الفائقة تتجلى في الحكم البصير على الناس من زعماء ورعاع، وإنّ مجهر الأستاذ الغزالي لدقيق يلتقط كل صورة، ويكشف كل خلجة مستترة، ويفضح كل نازعة مقنعة، فتجد الزعيم الذي أكبرته الأقلام وسارت بروائعه الركبان ينكشف انكشافاً واضحاً في سطور محدودة، تكشف عنه كل زيف، وتكتم أفواه أنصاره فما يستطيعون أن يقولوا شيئاً في هذه القذائف، وقد انصبّت في قوة مخلصة، فبددت كل زيف، ومحقت كل رياء، وبدا الجسم شائهاً بمخازيه، عارياً بمآسيه .

فماذا عسى أن تقول في مصطفى كمال التركي بعد أن تقرأ هذه السطور؟ إن أوروبا المتعصبة تحارب بالسيف والمال والعلم والقلم كل زعيم شرقي تشم في قيادته رائحة يقظة إسلامية، والغازي مصطفى كمال لم تكن لديه الطاقة النفسية ولا العقلية لتحمل هذا العداء، ولذلك أثر الجبان أن يحارب أمته بدلاً من أن يحارب دول أوروبا، وأن يقضي على دينها ليظفر بالبقاء، ولا أدري لماذا يُحترم رجل أبعد الإسلام عن الدولة، ورسم سياسة جعل بها أمته ذليلاً للغرب وصديقاً لإسرائيل ومتسولاً يمدّ يده طلباً للعون، وظهيراً ضد قضايا التحرُّر والشرف في الشرق الأوسط!!.

أليست هذه حقائق فاضحات... وماذا يبقى للزعيم المتأله بعد هذه الموبقات.

إن الكتاب محدّد الغرض واضح المعالم، فجميع أبوابه الحارة تدور حول فكرة واضحة رسمها المؤلف حين أعلن أنه كتّب مؤلّفه لينقي الجو العربي من سموم الأذنان والأوشاب، ولينصف ديناً تلحّ الليالي على النّيل من قداسته، وليلقي أضواء على الأمشاج الهائلة التي تطفح بها دنيانا بعد ما بلونا فنوناً لا تحصى من الغزو الثقافي، الجلي والخفي، وفي سبيل هذه الغاية الشّماء كتب أبوابه الحارة، فتحدث عن إضعاف الوازع الديني في الصحافة والإذاعة وتحقير الإسلام في بلاده، وإصلاح قوانين الأحوال وكليات الأزهر ومعاهده وبيوت العبادة. والكتاب بين أدب التربية ومناهج الانحلال، ولن أحاول أن ألخّص فصول الكتاب في هذه الفصول، إذ أعطي فكرة سريعة عنه! بقدر ما يسمح المجال.

على أن أسلوب الكاتب من النّصاعة والإشراق بحيث يجذب إليه كل قارئ منصف يبعد عن الغرض في أحكامه، وقد قلت: إنه بشخصياته وأحداثه يصلح أن يكون قصة دامية يشرح كارثة فاجعة، بل إنه في بعض ابتداءاته ينقلك إلى جو القصة فعلاً، كأنه يقول في وصف مكان مهمل من أمكنة العبادة والتدريس: «برج الساعة خال لا ساعة فيه، والقاعة مقفرة لا أنيس بها ولا صوت، وزجاج النوافذ محطّم قد وضعت في فراغه أوراق الكرتون، والأطلال القديمة تسفي الغبار، والأبنية الجديدة يبول عليها الرعاع، وجبل المقطّم يلقي ظلال الخيبة على المكان الهامد، لقد كان من ثلاثين سنة مقابر للموتى، وهو الآن مقابر لنفر من الشيوخ النائمين، والشباب الهائمين».

أليست هذه مقدمة لقصة يكتبها فنان كبير، وإذا كان الأسلوب حاراً متقدماً، له دقة الوصف، ودسامة الفكرة، وسلامة الاستنتاج، وحرارة الإخلاص، ورغبة الإصلاح، فماذا عسى أن تأخذ عليه! بل لماذا لا ندعو الأيمن من كتبة الجرائد المعاصرة إلى أن يحتذوه مستفيدين؟! .

* * *

محمد محمد المدني الكاتب الفقيه المصلح

- ١ -

ظهرت أمارات النبوغ الفائق على الطالب محمد محمد المدني وهو في معهد الإسكندرية الثانوي بالسنة الأولى، إذ أجاز القانون إذ ذاك لجميع الطلاب أن يتقدموا لامتحان الشهادة الثانوية، ما داموا يحملون الشهادة الابتدائية فقط، دون نظر لانقضاء عدد من السنوات، وهنا دَفَعَت الهمة طالب السنة الأولى أن يتقدم لامتحان الشهادة الثانوية، وأن يفوز بأعلى الدرجات، ثم يلتحق بالقسم العالي، وكانت هذه نادرة عجيبة تلتها نادرة أخرى هي أن القانون أباح لحامل الثانوية أن يتقدم لامتحان العالمية دون نظر لانقضاء عدد من السنوات، فتقدم طالب السنة الأولى ليظفر بالدرجة ووفقه الله فنال الشهادة في سنّ العشرين، وهي سنّ لم تنهياً من قبل لعالم أزهرى، ثم التحق بقسم التخصص في فرع البلاغة والأدب، فخرج مُبرزاً وعيّن مدرّساً بالمعهد الإسكندري ! .

هذه دلائل واضحة على نبوغ الطالب منذ صغره، والذي يعرف صعوبة الامتحان الشفوي للسنة النهائية بالقسم العالي، ومكث الطالب أكثر من خمس ساعات في نقاش علمي جاد، يتناول علوم الشريعة واللّسان والعقيدة كما قرّرت في كتب مشهورة بالتدقيق، إن لم يكن بالتعقيد، والممتحنون من هيئة كبار العلماء ومن الذين دوى لهم صيت رنان في شرح هذه الكتب والتعليق عليها، الذي يعرف ذلك كله، ويعلم معه أن سنة واحدة بالقسم العالي قد هيأته للنجاح في هذا الامتحان نجاحاً عالي الدرجة، يُدرك ما يتمتع به الطالب النَّابه منذ نشأته من حدة الذهن،

وسعة الثقافة، وبُعد الهمة، إدراكاً لا شُبْهة فيه، لأنّ واقعه التعليمي يقدّم الشهادة الصادقة على هذا النبوغ الممتاز.

تخرج الطالب، وعيّن مدرساً بمعهد الإسكندرية الذي كان طالباً فيه، ولو مضت الأمور السياسية رخاء في هذا المعهد، لاستقام له الأمر على وجه مريح، ولكنّ أعاصير السياسة قد قذفت بالأزهر إلى متاهات مظلمة، فوقعت الاضطرابات بين الأساتذة والطلاب، إذ فصل شيخ الأزهر سبعين عالماً، منهم الأستاذ المدني، وحمل الأستاذ قلمه، كما أطلق لسانه خطيباً في التنديد بهذا الأمر الظّالم، وسافر إلى مقارّ المعاهد الأزهرية في أسبوط وطنطا ودسوق ودمياط والقاهرة، ليشجّع على الإضراب العام، وكانت غاشية مظلمة أوثر ألاً أبسط الحديث عنها، لأنّ وزارة صدقي باشا هي التي اضطرت فضيلة شيخ الأزهر حينئذ إلى هذا الموقف الصعب.

ثم انجلت الغاشية، بذهاب عهد وإشراق عهد، حيث رجع الأستاذ الأكبر محمد مصطفى المراغي إلى عرينه كما كان، فأصدر أمره بإعادة المفصولين، ولم يعد الأستاذ المدني إلى معهد الإسكندرية غير أمدٍ يسير، حيث اختاره الأستاذ محمود شلتوت وكيل كلية الشريعة مدرّساً بها، والشيخ شلتوت رحمه الله رجلٌ دقيق النظر، خبير بأبناء الأزهر، وقد عرف المدني معرفة المُلابسة والنقاش والبحث، فعلم أنّ تخصصه الأدبي في علمي البلاغة والأدب لم يُنْس الأستاذ تضلّعه في علوم الشريعة من فقه وأصول، وقد أراد أن يبرز للطلاب صدق نظرتهم، فأصدر أمره بإسناد مادة الأصول إلى الأستاذ المدني، وهي أعمق مواد الكلية غوصاً، وأدقها موضوعاً، وفي الشيوخ الكبار من أساتذة الكلية من يتنصل منها منتجعاً لدروس الفقه أو التفسير أو الحديث، فكلّها سهلة هينة بالقياس إلى مادة الأصول، وكان الأزهري الشاب عند ظنّ أستاذه الشيخ شلتوت، فقد أبدى من التمكن والرسوخ ما تحدّث به الطلاب مغتربين.

كان الأستاذ المدني في دعوته الحارة لإعادة الإمام المراغي إلى مشيخة الأزهر متشبعاً بآرائه التي أعلنها في مذكرته الإصلاحية، ويرى من أسباب الضيق بشيخ الأزهر الأستاذ الظواهري نُكوصه عن تنفيذ ما جاء بهذه المذكرة، من حيث الجوهر العلمي النافع للطلاب، إذ نُقذت المظاهر العامة من إنشاء الكليات واختيار المدرسين، ووضع بعض المناهج الجديدة في الدراسة، واختيار بعض الأساتذة من

خارج الدائرة الأزهرية لقيامهم بتدريس مواد جديدة لم تُدرس من قبل، وعاد الشيخ سنة ١٩٣٥م، ومضت خمس سنوات، دون أن يقوم الإمام المراغي بتنفيذ ما جاء بالمذكرة من ناحية الإصلاح العلمي، إذ دعت المذكرة المراغية إلى أن تُهذب فصول العقائد والعبادات ويُفنى عنها كل ما لحق بها من البدع، بحيث تتفق وقواعد الإسلام الصحيحة، وأن يدرس الفقه الإسلامي دراسة حرة خالية من التعصب لمذهب معين، وأن تُدرس قواعده مرتبطة بأصولها من الأدلة، وأن تكون الغاية من هذه الدراسة عدم المساس بالأحكام المنصوص عليها في الكتاب والسنة، والأحكام المجمع عليها، مع النظر في المسائل الاجتهادية لجعلها ملائمة للعصور والأمكنة والأعراف، كما تجب دراسة الأديان ليقابل ما فيها من عقائد وعبادات وأحكام بما هو موجود في الدين الإسلامي، فيظهر للناس يُسرُّه وقداسته وامتيازُه عن غيره، كما يجب أن تُدرس أصول المذاهب في العالم قديمها وحديثها، وكل المسائل العلمية التي يتوقف عليها فهم كتاب الله، ولا بد من تأليف كتب جديدة قيمة بجانب كتب التراث على الطريقة العلمية الحديثة مع المحافظة على الأسلوب الجيد الذي امتاز به المؤلفون فيما قبل عصر المماليك، ومع الالتزام كل الالتزام بما يحافظ على جوهر الدين، وكل ما هو قطعي من نصوصه.

هذا لباب ما جاء في المذكرة، وقد كانت موضع الاهتمام من شبيبة الأزهر المتطلعة إلى السبق الحضاري على منهج الإسلام، والأستاذ المدني في طليعة هذه الشبيبة يؤازره نفرٌ من شيوخه الأجلاء في مقدمتهم المفتي الأكبر إذ ذاك فضيلة الأستاذ الشيخ عبد المجيد سليم، والأستاذ الكبير محمود شلتوت عضو جماعة كبار العلماء، ولكن ظروفًا خاصة بالإمام المراغي دعتُه إلى التباطؤ في تنفيذ ما دعا إليه من قبل، فامتشق الأستاذ المدني قلمه ليكتب المقالات الضافية بمجلة الرسالة وجريدة البلاغ مذكرًا للأستاذ الأكبر بلباب دعوته، ومؤكدًا أنَّ الأزهر ما ثار على الأستاذ الظواهري هذه الثورة العارمة إلاَّ أملًا في تنفيذ الإصلاح الأزهري على وجهه الصحيح، وقد مضت خمسة أعوام دون أن يبدأ الإمام المراغي في التنفيذ، وكان مما قاله المدني في مقال تحت عنوان (عهد وعهد)^(١):

«عاد الأستاذ الأكبر المراغي إلى منصبه بعد الثورة الأزهرية المعروفة، وترقّب

(١) مجلة الرسالة: العدد، ٤١٥، ١٦/٦/١٩٤١م.

الناس جميعاً أن يتمّ من آيات الإصلاح ما بدأ، وأن تعود للأزهر الروح المِراغية القويّة التي كانوا يعهدونها من قبل، ولكنّ هذه الحركة الفكرية في الأزهر قد سكنت ريحها، وما زال الأزهر عاكفاً على كتبه يدور بها حول نفسه ويفني فيها زهرة شبابه، وينقطعُ بها عن الناس، فليس له اشتراكٌ ذو قيمةٍ في التشريع العملي للبلاد، وليس له صلةٌ بأوساط العلم والثقافة، وليس له نشاطٌ في إخراج كتبٍ علميةٍ أو أدبيةٍ كما يُخرج الناس، وليس لمجلته أي أثرٌ في توجيه العقول، وإن كان لها أثر كبيرٌ في تشجيع الخرافات والأوهام، وهذه الحركة الدراسية في الأزهر تشكو من تهاون الرؤساء، وطغيان الطلاب، وعدم إتمام المقررات، وضعف المستوى العلمي ضعفاً يشغل البال، ويبلبل الأفكار».

وبعد إفاضة شافية في هذه العناصر، ذكر الكاتب متألماً - وكان في غاية الصراحة - أنّ الإمام المراغي رأى من سياسته في العودة الثانية أن يُرضي العناصر المختلفة في الأزهر، وفي هذه العناصر من ألفت القديم ولم يرض به بديلاً، والمصلح لا بدّ أن يكون جريئاً في تنفيذ خطته، إذ أنّ الاستعانة بمن يصدفون عن كل إصلاح حميد تعويقٌ وتثبيط، وأكثر هؤلاء بحكم السن فقط يتبوؤون المناصب الكبرى في الأزهر، وهم يكلّون عن حمل الأعباء!

هذا مثلٌ واحد لما كتبه المدني في الدعوة إلى الإصلاح الحقيقي في ضوء المذكرة المِراغية التي ألمعت إليها من قبل، وقد امتدّ النقاش حول ما كتبه المدني في الصحف المختلفة، وقام كثيرٌ من الكتاب بمناهضته كلّ المناهضة، ووصفه بالغرور والخفة وحماسة الشباب، كما قام بمناصرتة فريقٌ آخر، حتّى أصبحت مقالات الأستاذ محوراً لتجاذب الآراء، وطبيعي أن يصل الصّدّي إلى الأستاذ الأكبر ولكنه عرف إخلاص نيّته، وربما كان الإمام معذوراً في سيره المتّدد لأن ظروفه الأولى في مشيخته السابقة قد علّمت أن يهادن من عارضوه من قبل، وأن يستجيب لهم عن طوعٍ إذ ذاك.

والحقيقة أن الأستاذ المدني كان مع ثورته هذه ينتهز كلّ بادرة إصلاح تصدر من الإمام المراغي فيشيدُ بها كل الإشادة، فقد رأس الإمامُ المراغي إحدى مناقشات الرّسائل العلمية المقدمة لمنح درجة الأستاذية (الدكتوراه) في الشريعة الإسلامية، فنّبّه الطالب - والحضور أيضاً وهم من جلة العلماء - إلى أنّ الدين في كتاب الله غير

الفقه، وأنّ من الإسراف في التعبير أن يقال عن الأحكام التي استنبطها الفقهاء واختلفوا فيها، وتمسّكوا بها حيناً، ورجعوا عنها حيناً آخر: إنها أحكام الدين. لأنّ الدّين هو الشريعة التي أوصى الله بها الأنبياء جميعاً، وتلك لا خلاف عليها، أما القوانين المنظّمة للتعامل والمحققة للعدل، والدافعة للحرج، فهي آراء الفقهاء مستمدة من أصولها الشرعية، تختلف باختلاف العصور، ولو جاز أن يكون الدين هو الفقه مع ما نرى من اختلاف الفقهاء، بعضهم مع بعض، لحقّت علينا كلمة الله ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ١٥٩]. وفي مجلة الرسالة^(١) خلاصة وافية لما أبداه الأستاذ الأكبر بهذا المجلس العلمي مدوّنة بقلم الأستاذ المدني، في مقال جيد كثير التأييد والإطراء.

وفي جلسة أخرى للإمام المراغي تصدر فيها لمناقشة رسالة علمية تالية، وجه الأستاذ الأكبر الأنظار إلى حقائق علمية جديدة بسطها الأستاذ المدني في مقالٍ تالٍ محبّذاً^(٢) ومؤيداً، إذ كانت الرسالة الفقهية تدور (حول النسخ في القرآن) وقد انتقد الباحث أبا مسلم الأصفهاني انتقاداً لم يسلم من التجريح، فقال الإمام المراغي - فيما نقله الأستاذ المدني -: «لقد كنت قاسياً على أبي مسلم الأصفهاني في غير ذنب جناه ولا شطط صار إليه، لأنّ الذين قالوا بالنسخ في القرآن مثّلوا له بآيات بلغت عشرين آية، فجاء الفخر الرازي وناقشهم في تسع منها، وظهر أنها لا تُعدّ من النسخ، ونقض بقية العشرين بالدليل والبرهان، فكيف تُحرّمون على أبي مسلم الأصفهاني ما تبيحون للفخر الرازي وكلاهما علّم في بابه؟».

كما أشاد الأستاذ المدني بمناقشة الإمام المراغي في اعتبار (البنكوت) من باب الحوالات في الدّين، فسأل الطالب: هل تحققت في هذه الأوراق شروطُ الحوالة بالدّين من رضا المحال والمحال عليه حتى تكون حوالةً صحيحة؟ ثم أفاض في شرح اقتصادي تاريخي لنظام التعامل بالورق قديماً وحديثاً جلّى به المسألة للسّامعين، وضرب الأمثلة للدراسة الفقهية على وجهها السليم.

وكذلك أفاض الأستاذ الكبير في تحقيق مسائل خاصة بالطلاق ووقوعه بالثلاث طلقة واحدة في لفظ واحد، وكلّ هذا أيده الأستاذ المدني مثنياً مادحاً، فدلّ على أنّ

(١) الرسالة: ٣٩٦، ٣/٢/١٩٤١.

(٢) الرسالة: ٣٩٨، ١٧/٢/١٩٤١.

غيرته الشديدة على التيقّظ العلمي للأزهر كانت دافعة إلى استبطاء بدء الإصلاح في عهد رجل الإصلاح، وهذا ما شعر به كثير من تلاميذ المراغي، ولكنهم لم يُعلنوه كما أعلنه الكاتب الغيور. . وقد مرّ عامان على مقالات المدني ولم يسر الإصلاح كما ابتغاه من يسمّون بجماعة «الشيخ عبد المجيد سليم»، فرأى الأستاذ الكبير محمود شلتوت أن يجدّد الدعوة إلى الإصلاح، وكانَ وكيلًا لكلية الشريعة حينئذ، فألقى محاضرةً تحت عنوان (السياسة التوجيهية في الأزهر) لم تخرج في لبابها عن الدعوة إلى تحقيق ما سطره الإمام المراغي في مذكرته الإصلاحية، وقد صادفت محاضرة الأستاذ شلتوت ارتياحاً كبيراً من جمهرة السامعين، وهم عدد كبير من الأزهريين ضاق بهم المكان، فملؤوا رحبة الكلية خارج المحاضرة، ليصلهم صوت الميكروفون، وبلغ من تأثر السامعين أن حملوا المحاضر على الأعناق حين همّ بالخروج، وقد بسط الأستاذ المدني مقالاً شافياً عن هذه المحاضرة باعتبارها تأييداً لما يكتب في طريق الإصلاح، ومن خُلِق الإمام المراغي التزيه أنه لم يضق بما قيل، بل دعا المحاضر وجماعته إلى لقائه، وقَدّم لهم ما عمل وما سيعمل، وخرجوا مرتاحين.

ظلّ الأستاذ المدني يجاهد في سبيل الإصلاح الأزهري سنين عدداً حتى تهيأ للأزهر أن يرأسه صديقه وأستاذه الإمام محمود شلتوت، فأتاح له أن يتولّى عمادة كلية الشريعة، وهي الكلية التي ترعى شؤون التشريع الإسلامي، والتي جاهد الأستاذ المدني في سبيل تطويرها، وكانت له آمالٌ في إصلاح المناهج تحدّث عنها كاتباً ومحاضراً، وجمع من خلفه طائفة من نبهاء التلاميذ يرون رأيه، ويذهبون مذهبه في وجوب الإصلاح السريع.

ولما كانت خطة الإصلاح واضحة المعالم في ذهنه، فإنّه لم يلبث أن وَضَعَ المناهج المقرّرة وفق هذه الخطة، وأهمّها أن تُدرس المذاهب الإسلامية المقرّرة من مالكية وحنفية وشافعية وحنبلية دراسةً مقارنة يُترك فيها التعصّب المذهبي جانباً، فالباحثُ الفقيه يقرّر المسألة الفقهية غير متأثر بمذهب خاص، وليس أمامه إلا قوة الدليل، تميلُ به إلى اختيار الحكم الصائب في رأيه، هذه الدراسةُ المقارنة بين المذاهب الأربعة كانت تُدرس في كلية الشريعة على نحو موجز إذ وضع فيها الأستاذان الكبيران محمود شلتوت ومحمد علي السائس كتاباً محدود الصفحات،

يتضمن شذوراً من قضايا فقهية اختلفت فيها الأنظار، ولكنّ الوضع الجديد الذي اختاره الأستاذ المدني يُحتم أن تكون جميع مسائل الفقه خاضعة لهذا الاتجاه المقارن، فيختارُ الرأي الرَّاجح من المذاهب متى صحّ دليله دون تقيّد بإمام خاص، وفي ذلك يقولُ الأستاذ المدني^(١):

«إن الفقيه المنصف الذي لا هدف له إلا البحث عن الحق، لا يسعه أن يغضّ الطرف عن قول مجتهد ما في المسألة التي يبحثها، ما دام لا يصادم نصّاً قطعياً من كتاب أو سنة، ولا يسعه أن يُعرض عن دليله، فقد يكونُ هذا الدليلُ سليماً، ولو أنّ فقيهاً باحثاً ارتضى لنفسه أن يغضّ النظر عن قول غيره لكان ممن قال الله فيهم ﴿أَلَا إِنَّهُمْ يَنْتُونُ صُدُورَهُمْ لِیَسْتَخْفُوا مِنْهُ أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ﴾ ومنهجه حينئذٍ منهجٌ فاسدٌ غير معتد به من العلماء».

هذا من ناحية الفقه المقارن، أما الأمران الثانيان فهما دراسة مذهبيّ الزيدية وجعفر الصادق من أعلام الشيعة المعتدلين، ودراسة القانون الوضعي المعاصر، وقد قوبل هذا الاتجاه بعاصفة حادة ممّن يكتفون بالنظرة العجلى دون امتداد إلى الفضاء الفسيح، ودراسة المذهب الشيعي المختار تندرجُ في درس (الفقه المقارن) فإذا عُرِضت مسألة فقهية تشعبت فيها الآراء في المذاهب السنيّة فمن الأجدر أن ننظر إلى هذه المسألة فيما جاء في الفقه الزيدي أو الفقه الجعفري، لأنّ أئمة هذين الفقهيّين يرجعون إلى كتاب الله والثابت من سنة رسول الله كما نرجع، فأبى مانع من أن نعتبر أبا حنيفة ومالكاً والشافعي وابن حنبل وزيد بن علي وجعفر الصادق أئمة من طراز واحدٍ ينهج نهج الإسلام دون حيف؟

وقد نصّ الأستاذ المدني على أن دراسة الفقه المقارن تقومُ على أساسٍ ضروري، هو أن يدخل الباحثون في المسألة الفقهية إلى تكوين الحكم فيها غير متأثرين بحكم سابق ضدّ هذا المذهب أو ذاك، ولذلك يجب أن يخلع الباحثُ ثوبه المذهبي قبل أن يدخل قاعة الدرس، وإلاّ كان البحث المقارن غير صحيح، وكان ادّعاؤه حينئذٍ أشبه بالمظاهر التمثيلية.

وفي تقرير هذا المنحى نقل الكاتب نصوصاً قويّة لأئمة الإسلام تحارب الاتجاه المتعصّب لمذهبٍ معين ومنها قول شيخ الإسلام العز بن عبد السلام رضي الله عنه:

(١) مجلة الازهر: جمادى الآخرة، سنة ١٣٧٩هـ.

«ومن العجيب العاجب أنّ الفقهاء المقلّدين يقف أحدهم على ضعف مأخذ إمامه، بحيث لا يجد لضعفه مدفعاً، وهو مع ذلك يقلّده فيه، ويترك من شهد الكتاب والسنة له، ويتأوّلهما بالتأويلات البعيدة الباطلة نضالاً عن مقلده».

أما تدريس القانون الوضعي فأمرٌ ضروري، لأنّ الدولة جاريةٌ عليه، وتراه وحده أرقى قانونٍ معاصر يتمشّي مع دستور الاجتماع المعاصر، فإذا أردنا أن نُثبت كفاءة الفقه الإسلامي، وسموّه على القانون الوضعي، فلا بدّ أن ندرس هذا القانون، لنبيّن ما لدينا من الرأْي المخالف، محفوفاً بأدلّته المدعّمة، فإذا طالبنا بعد ذلك بتنفيذ الشريعة الإسلامية نكون قد أثبتنا رجحانها في ساحة البحث العلمي بأدلةٍ لا تُدفع، فتسكت ألسنة المعارضين، كما أنّ الدراسات القانونية ستكون سلاحاً لطلبة الأزهر في ميدان الحياة، حيثُ يستطيعون بها أن يتقدموا إلى مناصب القضاء ومراكز التوجيه القانوني في الدولة، وحينئذٍ لا يقال للأزهريين: إنكم لستم أهلاً لهذه المناصب المتطوّرة إذ لم تدرسوا قوانينها.

فدراسة القانون الوضعي إذن ذاتُ نفع مزدوج، نفع لإظهار صلاحية التشريع الإسلامي مقارناً بها، ونفع لاتساع مجال العمل القانوني أمام طلبة كلية الشريعة، وهم أولى بهذا العمل، لأنهم هضموا القانون شرعياً ووضعيّاً! وإذا وفق الله وانتصرت فكرة الحكم الإسلامي بشرع الله، فلن يكون ذلك بغير جهاد الفقهاء ممن درسوا شريعة الله ولمسوا ارتفاعها عن شرائع الناس، فأقنعوا الناس كل الإقناع بما يعلمون.

- ٢ -

نعرفُ كثيراً من الدعاة إلى الإصلاح الديني والتجديد التشريعي يملؤون الصّحف في الدعوة إلى الإصلاح، ويكتفون بهذه الصيحات التي تردد في المناسبات العامة، ثم يقفون عند هذا الهاتف المتصل بضرورة تطبيق الشريعة الإسلامية، وتجديد تراثها المتشعّب في كتُب المتقدمين، ولكنّ الأستاذ المدني لم يكن من هذا الطراز المتحمس الواقف عند الأقوال دون الأعمال، حيثُ شارك في التّأليف الفقهي مشاركةً جادة مستنيرة، فوضع كتباً خاصة بدعائم الاستقرار في التشريع الإسلامي، وبتعدّد الزوجات في الإسلام، وبالسلطة التشريعية في الإسلام، وبمناهج التفكير في

الشريعة الإسلامية، وبالزواج والطلاق في الإسلام، وبفقه عمر بن الخطاب! وضع هذه الكتب لتؤلف شرائح متعددة، كلُّ شريحة تستقلُّ بموضوع خاص، فإذا انضمت بعضها إلى بعض سَدَّت مسدّاً كبيراً في مسائل الفقه الإسلامي، وهذا أهدى طريق للتأليف الفقهي.

لأنّ الذين يجمعون أبواب الفقه في كتاب خاص يتبدى بالعبادات فالمعاملات فالحدود فما يُعرف بالأحوال الشخصية، لا يزدون عن كونهم نقلة، إذ يجمعون ما تعورف في كتب الفقه، فينقلون الأبواب ببعض الترتيب من الورق الأصفر إلى الورق الأبيض، ويحسبون أنهم على شيء! ولكن اختصاص كلِّ باب بكتاب خاص يُتيح للكتاب أن يبسط الموضوع بسطاً شافياً، متّبعا عناصره في كتب التراث ومُضيفاً إليه ما جدّت به الأحداث، من أعرافٍ وعادات ومسائل تتطلب الحلَّ السريع، وبحمد الله أصبحت هذه الطريقة هي المتبعة الآن في التأليف الفقهيّ جامعياً ومستقلاً، والفضل لمن اختطّوا هذا النهج الحميد من كبار أساتذة الشريعة في الأزهر وكليات الحقوق، وفي مقدمتهم الأستاذ محمد محمد المدني.

على أن المتتبع لصيحات المدني الداعية إلى تنفيذ أحكام الشريعة يجدها قد لَزمت سَنَة التدرّج الطبيعي في المطالبة بهذا التنفيذ، فهو يعلم أنّ الصلابة في وجوه قوم أكثرهم ممن يعارض هذا الاتجاه لا تُجدي غير تمسّكهم بالشُّبه التي يعتلون بها، لذلك نجده يُحاضر في جمعية الشبان المسلمين في مسألة التطبيق، فيقول للقوم ما ملّخصه:

أنّ الرسالة المحمّدية في مُبتدئها بمكّة قد مكثت عشرين عاماً تحتفلُ بأمر العقيدة وحدها، ولا تهتمّ إلا بالقليل الضئيل من مسائل التشريع، لأنّ بناء العقيدة على أساس صحيح هو الهدفُ الأول من أهداف الرسالة، وإذا سلمت العقيدة فإنّ ما يتبع ذلك من فرائض الشرع الحنيف سريعُ التنفيذ، فالمسلم متى اعتقد في إسلامه بادر بإطاعة أوامره واجتناب نواهيه، ثمّ لمّا هاجر الرسول من مكّة إلى المدينة، بدأ التشريع يتّجه وجهة المجتمع في معاملاته وحدوده وموارثه، وفي تنظيم الأسرة وتحديد وظيفة الحاكم في الإسلام، وآداب الجهاد، حتّى وضحت هذه الأمور وضوحاً تاماً في مدى عشر سنوات عاشها الرسول ﷺ بالمدينة، يقول المدني ما ملّخصه:

«فإذا جاز لرسول الله أن يترك التشريع التجاري والجنائي والأسري بمكة عشرين عاماً حتى سيطر على الموقف، فاتجه إليه، فإننا يجوز لنا أمام المعارضين اليوم على تنفيذ الحدود في الشريعة الإسلامية، ويجعلونها العقبة الأولى في سبيل نفاذ هذا التشريع الحكيم، يجوز لنا أن نقول لهم: لترك مسألة الحدود حتى يتضح جدواها في أذهانكم بعد حين، ثم نعمل بتنفيذ أحكام الشريعة في الأحوال التجارية والمدنية، بحيث يكون القانون المدني مأخوذاً من كتاب الله على نهجه القويم، وهنا نكون قد قطعنا نصف الطريق، مقتدين برسول الله حين أرجأ هذه القوانين بمكة إلى ميعادها المدّخر في المدينة».

وقد قبلت محاضرة الأستاذ بتعليقات تتقارب وتتباعد، ولكنها فتحت طريقاً للبحث، وقطعت الحجة على من يتمحلون بتطبيق مسائل الحدود، وكأنها خطرٌ فادح، ولا يظنُّ ظانُّ أنَّ المدني كان يمانع في تنفيذ هذه الحدود الصريحة العادلة القاطعة للجريمة، كما جاءت في كتاب الله وسنة رسوله الكريم، ولكنه يقطع الطريق على قوم يهرفون بما لا يعرفون، بل ربما عرفوا الحق وأنكروه، لأن تطبيق الحدود سيغلّهم عن الشهوات الآثمة، وهم آثمون ﴿بَلْ يُرِيدُ الْإِنْسَانُ لِيَفْجَرُ أَعْمَهُ﴾.

كذلك وقف الأستاذ المدني وقفاً حاسمة أمام من يدّعون أن باب الاجتهاد قد أقفل، فكتب بحثاً^(١) شافياً يسأل فيه من حرّموا الاجتهاد الحق في هذا الزمن المعاصر؛ ووضعوا شروطاً للاجتهاد متعسرة التحقيق، يسألهم: (أكان المجتهدون في العصر الذهبي من أمثال الأئمة الأربعة والأوزاعي وابن حزم والشاطبي من طرازٍ خاص من البشر في عقولهم، بحيث يكون اجتهادهم وحده هو المتبع، ثم لا يفتح الله لأحدٍ من كبار المعاصرين بمثل ما فتح عليهم من التفكير؟ وهم علماء مثلهم، ذوو غيرة على شرع الله وكتابه، بحيث نقول لكل عالم يُحاول أن يأتي بحكمٍ معاصر في مسألة معاصرة معتمداً على القياس الأصولي: لست أهلاً للاجتهاد!!).

ثم ما هي شروط الاجتهاد التي قرّروها، إنَّ القارئ يتلوها بادئ ذي بدء فيتعاضده أمرها، فإذا رجع إلى ما كتبت حولها من الشروح والتقارير وجد الأمر أيسر مما يتوهم، فقد قالوا: إنَّ أول شروط الاجتهاد أن يكون المرء عالماً بكتاب الله وسنة رسوله، ثم جعلوا يضحّمون هذا المطلب، فقال بعضهم: يحفظ من السنة مئة

(١) الرسالة: العدد ٤٤٩، ١٩٤٢/٢/٩.

ألف حديث، وزادها بعضهم إلى ثلاثمئة ألف! هكذا يضحّمون الأمر، فإذا رجعت إلى ما كتبه الإمام أبو حامد الغزالي في هذه المسألة وجدته يقول في المستصفى^(١): «لا يُشترطُ معرفة جميع ما في الكتاب، بل ما يتعلّق بالأحكام، ولا يشترطُ حفظها عن ظهر قلب، بل أن يكون المجتهد عالماً بمواضعها، بحيث يطلب منها الآية المرادة، ولا يلزمُ حفظُ السنة، بل يكونُ عنده أصلٌ مصحّح لجميع الأحاديث المتعلقة بالأحكام!».

وقد قالوا بادية ذي بدء أيضاً: لابدّ أن يكون المجتهد قادراً على التمييز بين الصحاح والحسان والضعاف من الأحاديث، بحيثُ يعرفُ رجال الإسناد معرفةً يتمكن بها من الحكم على الحديث بأحد هذه الأوصاف، وجاء^(٢) الشوكاني فسَهّل الأمر قائلاً: «ليس من شرط ذلك أن يكون حافظاً لحال الرجال عن ظهر قلب، بل المُعتبر أن يتمكن بالبحث في كتب الجرح والتعديل من معرفة أحوال الرجال».

وقد قالوا: لا بدّ أن يكون عالماً بمسائل الإجماع، وبالناسخ والمنسوخ، فقال الغزالي^(٣) تعقيباً على ذلك: «ليس يلزمه أن يحفظ جميع مواقع الإجماع والخلاف، بل يعلم ذلك في كلّ مسألة يفتي فيها، إذ ينبغي أن يعرف أن الفتوى ليست مخالفة للإجماع، إمّا بأن يعلم أنه موافقٌ مذهباً من مذاهب العلماء أيّهم كان، أو يعلم أن هذه واقعةٌ متولّدة في العصر، ولم يكن لأهل الإجماع فيها خوض».

أشرتُ إلى مؤلفات الأستاذ المدني في الحقل التشريعي، لأنّه البابُ الأوّل من نتاجه الحفيل، أمّا دراساته لبعض السور القرآنية التي جاءت في كتبه مثل (سورة الأنعام والأهداف الأولى للقرآن) و(القصص الهادف للقرآن الكريم كما نراه في سورة الكهف) و(المجتمع الإسلامي كما تنظمه سورة النساء) و(محاضرات في التعريف بالقرآن) فهذه الدراسات تتصل بالحقل التشريعي، وليستُ بمنأى عنه، لأنّ دُرُوس التفسير القرآنية في منهجها الجديد الذي اختاره الأستاذ المدني قد اتجهت إلى آياتِ التشريع لتجلو مراميها في السور الكريمة، مع استثناء كتاب (القصص

(١) المستصفى للغزالي: ٣٥١/٢.

(٢) إرشاد الفحول، للشوكاني: ص ٢٤٣.

(٣) المستصفى للغزالي: ٣٥١/٢.

الهادف كما نراه في سورة الكهف) لأنه في مضمونه الخلقي الكبير يُعتبر ردّاً على شبه ظالمة أثارها حول القصص القرآني مَنْ جَرّوا وراء الخيالات الموهومة، ودُون تعمقٍ في البحث، ولهم شيعتهم التي تتبع كل ناعق.

وقد قرأتُ ما تيسرْتُ لي قراءته من كُتُب الدراسات القرآنية فاهتديتُ إلى خير كثير، إذ رأيتُ المؤلفَ البَحّاثَ من الذين يذهبون إلى الحكم بالوحدة المتناسقة بين أجزاء السورة القرآنية، وحديثه عن سورة النساء يكشفُ ما يُغنى بالوحدة المتناسقة فقد قال المؤلف^(١): «إن لكل سورة روحاً يسري في آياتها ويسيطر على مبادئها». ومضى يعرض عناصر السورة في ضوء ما ارتآه من هذه الوحدة، وهي في سورة النساء تلتفتُ حول عناصر متقاربة مثل حقوق النساء واليتامى والسفهاء وأحكام الموارث، وأحكام الزوجية وما يتصل بها، والصلةُ بين هذه العناصر واضحة لا مرأى فيها، ولكنّ العناصر الأخرى مثل أساسِ الحكومة الإسلامية، والتّضامن الاجتماعي في ظلّ التوحيد، والتحذير من أهل النفاق والكفر، وإرسالِ الرسل، وإقامة الحجّة على من يزعمون التّثليث، وعموم الرسالة المحمدية، هذه العناصرُ التي حدّدها الأستاذ المدني كانت في حاجةٍ إلى إيضاحٍ شافٍ للربط المتماسك الدالّ على هذه الوحدة! وأحسن ما يُقال في هذا الاتجاه:

إنّ للقرآن روحاً أسلوبياً خاصاً به، تلمحه في كل ما نزل من كتاب الله، وهذا الروحُ الإلهي بقوّته التأثيرية، وشفافيّته الروحية، وتماسكه التعبيري هو عنوان الوحدة التي تشمل المعاني متقاربة ومتباعدة، ولعلّ البَحّاثَ الأستاذ محمد فريد وجدي - رحمه الله - قد كتب في دائرة المعارف التي أصدرها في عشرة أجزاء كبار، ما يؤكد هذا المعنى تماماً، وقد فصلتُ هذه المسألة في كتابي (البيان القرآني)^(٢) بما يوضّحها تمام التوضيح.

وهناك جهدٌ علمي بارز للأستاذ المدني، قد أغفل الحديث عنه، ولم يشأ أن يجمعه في كتابٍ خاص بعد أن نشره شافياً مستفيضاً في المجلدين الحادي عشر والثاني عشر من مجلة الأزهر في سنتي (١٣٥٩هـ، ١٣٦٠هـ) وهو ما كتبه في قوة وإبداع تحت عنوان (الفقه الإسلامي في مصر) ابتداءً من العدد الثالث سنة ١٣٥٩هـ

(١) المجتمع الإسلامي كما تنظمه سورة النساء: ص ٥.

(٢) البيان القرآني، للدكتور محمد رجب البيومي: ص ٢٤٨ وما بعدها.

إلى العدد الثالث سنة ١٣٦٠هـ، وإذا كانت هذه البحوث النفيسة لم تُنشر في كتاب مستقل، وقد بعد عهدُ القراء بها، فإني أذكر بعض ما جذبني إليه منها، حيث أعلن الأستاذ - صادقاً - أن نصيب مصر من المذاهب الفقهية، ومدى تأثرها في الصدر الأول بفقه الحجاز والعراق لم يتضح بعد في الكتب التي ألفت في تاريخ التشريع الإسلامي، بل تناولت هذه الكتب شذوراً متفرقة عن الفقه في مصر، وعلمائها السابقين.

وكان من الممكن أن تشغل حيزاً كبيراً في كتاب مستقل، وهو بسبيل إيضاح هذه الفكرة فيما يتناول من الأبواب، ثم جاء المقال التالي، مع ما تبعه من البحوث لتحدث عن: كيف دخل الفقه الإسلامي مصر، ومن من الصحابة قاموا بالفتيا والتشريع، والأثر الكبير لعقبة بن عامر الجهني، ولعبد الله بن عمرو بن العاص، والحق أن عبد الله بن عمرو جديرٌ بكتاب خاص، لأن أثره في الفترة الأولى من السعة والشمول بحيث لا يُقاسُ به أثر صحابي آخر.

وقد وفق المؤلف حين أعلن أن الفقه في هذا العهد لم يكن منتشرًا كعلم خاص له أبوابه، ولكنه اندرج في ما يروي الصحابة من الحديث، وأقول: لم يكن هذا الشأن في مصر وحدها على هذا العهد، بل كان في كل البلاد الإسلامية، باستثناء المدينة، لوجود مجتهدين كبار من أمثال عمر بن الخطاب، وعلي بن أبي طالب، وهما من هما في تعرّف سبل الأحكام، وإذا كان القضاء ملتزماً بأحكام الشريعة، فإن القاضي فقيه ملتزم، لذلك تحدث الأستاذ المدني عن القضاء في هذه الحقبة وخصه بفصل خاص، أعقبه بحديث تالٍ عن فقهاء المدرسة التي تلت عبد الله بن عمرو، والتي كان من أساتذتها يزيد بن حبيب، وابن لهيعة، وابن وهب، والليث بن سعد! ومثل الليث بن سعد لا يندرج في فصل عام، لأنه باجتهاده وروايته وتأثيره في البيئة الفقهية بمصر - وفي غير مصر - كان علماً من أعلام التشريع، وقد دارت بينه وبين الإمام مالك فقيه المدينة وعالمها مناظرة علمية ومساجلة فقهية، أحسن الأستاذ المدني عرضها، وحدد مناط الخلاف - كما يقول الأزهريون -.

وتتابع الحديث عن ابن القاسم وأشهب وابن وهب، وجميعهم من تلاميذ مالك، حتى انتهى القول إلى وصول الشافعي رضي الله عنه إلى الفسطاط وانتشار البحث الفقهي المستوعب على يده، وقد أجاد الأستاذ في حديثه عن الإمام

الشافعي، ولكنه أطال الجدل في مسألة تأثر الشافعي بالبيئة المصرية محاولاً أن ينفي هذا التأثير، ومعارضاً ما اتجه إليه الأستاذ أحمد أمين في ضحي الإسلام، إذ كشف عن هذا التأثير بما لم يستطع الأستاذ المدني دحضه على وجه يفيد القارىء المحايد، ولكنه فتح باباً للنقاش يستطيع أحد الدارسين أن يلجّه، فيوازن بين الرأيين مقررّاً ما ينتهي إليه بدليل مبين.

لقد أطلتُ في عرض مسائل هذا البحث، لأنّ مؤلفه لم يجمعه في كتاب خاص، ولأنني لم أرَ أحداً أشار إليه ممّن كتبوا في هذه الناحية، إذ توالت كتبُ شتى تبحث عن الفقه الإسلامي في مصر في عهد الفتح وما بعده، ولم تُشر إلى بحوث الأستاذ الضافية، وهي ذات صيد ثمين، وقد سبقت هؤلاء.

وأخيراً ليس لي أن أغفل الحديث عن جهاد الأستاذ المدني في جماعة التقريب الإسلامية، حيثُ رأسَ تحرير مجلتها التي صدرت في أعدادٍ علمية ممتازة جاوزت الخمسين، وكلّها بأقلام الصفوة الممتازة من الباحثين. إن كلّ مسلم غيورٌ على لمّ الشمل ورأب الصدع، وقد أفلح المستعمرون في إذكاء نار البغضاء بين طائفتي الأمة الإسلامية من سُنّةٍ وشيعيّة، وإذا جاز أن يحدث هذا الخلاف في عصور سابقة لأسباب سياسية تتخذُ من نصوص الشريعة ستاراً للتأييد والتفنيد، فإنّ هذا العصر الذي تكالب فيه الأعداء الأقوياء على توهين شوكة الإسلام في جميع أقطاره في حاجةٍ إلى أن يقف المسلمون جميعاً في صف واحد.

ولهذا الهدف السامي قامت جماعة التقريب برعاية إمام جليل لا يتطرّق الشكّ في صلابة يقينه، وصفاء سريره، ووضوح نظره، هو الإمام الأكبر الشيخ عبد المجيد سليم رحمه الله ومن حوله شيعته وحواريّوه من أمثال الإمام الأكبر الأستاذ محمود شلتوت، وتلاميذهما الأزهريين وفي طليعتهم الأستاذ محمد المدني.

ولمّا يُعلمُ عن الأستاذ المدني من قوة التعبير، وسعة الاطلاع ونصوع الحجة، فقد عهدت الجماعةُ إليه بالقيام على رئاسة تحرير المجلة، وهي مهمةٌ ليست من السهولة بحيث يتصورها القارىء مجلةً علمية تنشر بحوثاً بأقلام طائفة من العلماء، لأنّ رئيس التحرير يُواجهُ بسيل من الخطابات التي تعترضُ على وجوه شتى من وجوه التفكير، وهو مضطّرٌّ إلى نشر الاعتراضات، لأنّها بأقلام شيوخ كبار، ثم إلى

التعقيب على كلِّ اعتراض بما يُوضَّح وجه الحق فيه، والحقيقة أنَّ هذا الموقف يتطلبُ نضالاً تضيقُ به الصدور، فقد كتب - مثلاً - شيخُ فاضلٍ يُعلن أنَّ^(١) التقريب الإسلامي مستحيلٌ بين المسلمين، لأنَّ «طائفةً تذهب إلى كون الله تعالى ليس جسمًا، وطائفةً أخرى تقول بالتجسيم، وطائفة مسلمة تعتقد أنَّ صفات الله الكمالية عينُ ذاته، وطائفة تفصل الصفات عن الذات، وطائفة تقولُ بصُدور الظلم عن الله، وطائفة تنفي ذلك عليه».

ولعلَّ القارئ قد ضاق صدره بهذه الاعتراضات المُتصِّدة من كُتُبِ كلامية تشغلُ بالنظريات الجدلية أكثر مما تشغلُ بنصوص القرآن، ولكنَّ الأستاذ المدني قد بسط مجال الردِّ عليها في عددٍ من متواليين مؤيِّدين بالأدلة الناصعة التي لا تقبل اللجاج، وقد قال في مقدمة بحثه^(٢) هذه العبارات الرائعة:

«إنَّ العالم قد تغيَّر، وقد أصبحت تُسيطر عليه مبادئُ أخرى غيرُ مبادئ الخلاف الذي لا طائل تحته في ألوان المعارف والنظريات الكلامية، ولا ينبغي أن يظلَّ المسلمون وحدهم في معزل عن الناس، يشتغلون بالآراء التي ليست لها فوائد عملية، وليست تثمرُ إلا المتاعب وكدَّ الأذهان، وتوسيع شقَّة الخلاف، وتعميق هَوْتِه، وحسبُهم أن يكونوا كأصحاب رسول الله في عقيدتهم الدينية، وأن يتجنَّبوا ما كانوا يتجنبون من الخوض في الشؤون الغيبية، والمسائل الخلافية، ذلك هو منهج التقريب وصراطه المستقيم».

هذا بعضُ ما عاناه الرجل في قيامه على رئاسة تحرير مجلة رسالة الإسلام، وإذا كنت قد اهتممتُ بفكره العلمي أكثر من اهتمامي بتاريخ حياته كعاداتي في هذه الفصول، فإنِّي أعلن أن الرجل وقد ولد في سنة ١٩٠٧ بمحافظة البحيرة، وتنقل في التعليم على النحو الذي أشرتُ إليه حتى صار عميداً لكلية الشريعة سنة ١٩٥٩، فبذل جهده في تطويرها ثم انتقل إلى جامعة القاهرة أستاذاً للشريعة بدار العلوم.

وفي الفترة الأخيرة من حياته سافر إلى الكويت، ليكون أحد بناء جامعتها الحديثة، أستاذاً بكلية الحقوق، ولكنَّ القدر عاجله بعد ثلاثة أشهر من بعثته، فلقى وجه ربه في مايو سنة ١٩٦٨، ورجع جسداً محمولاً على الأعناق، تاركاً صفحة

(١) رسالة الإسلام: رمضان، سنة ١٣٦٨هـ، ص ٣٢١.

(٢) رسالة الإسلام: رمضان، سنة ١٣٦٨هـ، ص ٣١٩.

جهاده ناصعة، تُقدّم المثل الرائع للكاتب الفقيه المصلح، وقد أجمع من قاموا برثائه في حفلة تأبينية بجمعية الشبان المسلمين على أنّه كان مثلاً يُحتذى بين العلماء، وأن بحوثه الباقية جديرة بالانتشار والذيع.

* * *

الدكتور محمد يوسف موسى بين دروس الفلسفة والتشريع الإسلامي

قام الدكتور محمد يوسف موسى بتدريس الفلسفة في كلية أصول الدين بالقاهرة قرابة عشرين عاماً، ثم انتقل إلى تدريس الفقه الإسلامي بكلية الحقوق بالقاهرة قرابة خمسة عشر عاماً، فكانت مؤلفاته في الفلسفة والتشريع على مستوى واحد من القوة والإبداع، وهي مسألة تدعونا إلى السؤال المؤلم عن جماعة من أساتذة الجامعات اليوم، لا يكادون يعرفون شيئاً في غير تخصصهم الدقيق، أو في غير فرع من فروع هذا التخصص الذي كتبوا فيه رسائلهم الجامعية، وقد يعتذر الأستاذ الأدب عن تدريس الأدب الأندلسي، لأنه كتب رسائله في شأن من شؤون الأدب العباسي، هذه الظاهرة الملحوظة تحتاج إلى علاج حاسم، وإذا جاز التخصص الدقيق في العلوم التجريبية، فلن يجوز في كليات الثقافة الإسلامية، إذ يجب أن يكون الأستاذ ملماً بناوحي هذه الثقافة على وجه عام، يُتيح له أن يشارك في مسائلها! وهذا ما نفتقده كل الافتقاد.

لقد تخرج الأستاذ محمد يوسف موسى في الأزهر، قبل أن ينشأ نظام الكليات، فدرس علوم اللسان كما درس علوم الشريعة وعلوم العقيدة، وكانت هذه الدراسة من أسباب تميزه في أستاذه ذات الشعب المتفرعة، وقد أوتي مع سعة الاطلاع طموحاً نادراً، دفعه إلى السفر إلى أوروبا، لينال أعلى الدرجات العلمية من السوربون، لم يسافر في بعثة حكومية ترعاها الدولة! ولكنه سعى إلى ذلك فلم يوفق، فرأى أن يسافر على حسابه الخاص، ففضى السنوات ذات العدد ذاهباً آيماً من الشرق إلى الغرب، ولم يقنع بالدكتوراه التي يحملها الدكتور طه حسين، والدكتور منصور فهمي والدكتور زكي مبارك وأمثالهم، بل طمع إلى دكتوراه الدولة، وهي أعلى الدرجات العلمية في فرنسا، ولم ينلها غير قلة قليلة من دكاترة مصر، نالها الدكتور محمد يوسف موسى في حفل مشهود، تحدث عنه الأستاذ الدكتور أحمد

الشرباصي في مجلة الرسالة فقال^(١) تحت عنوان (أزهري في السوربون):

«في قاعة ريشيلو الكبرى بالسوربون نُوقش فضيلة الأستاذ الشيخ محمد يوسف موسى أستاذ الفلسفة في الأزهر الشريف، لنيل درجة دكتوراه الدولة في الفلسفة، وقد تقدّم إلى تلك المناقشة برسالتين، الأولى موضوعها (الدين والفلسفة في رأي ابن رشد وفلاسفة العصر الوسيط) وموضوع الثانية (التوجيه الفلسفي أو ما بعد الطبيعة في القرآن) وكانت لجنة المناقشة مكوّنة من خمسة من أساتذة السوربون، والكوليج دي فرنس كما هو المتّبع دائماً في دكتوراه الدولة، وقد رأس لجنة المناقشة البرفسور ليفي بروفنسال، وشهد الامتحان الدكتور طه حسين كما شهدته أكثر من متي طالب مصري، كان الأستاذ موسى موفقاً كلّ التوفيق في عرضه لنظريات رسالتيه، ودفاعه عن آرائه فيهما، واستمرت المناقشة خمس ساعات كاملة، ثم أعلنت اللجنة أنّ الأستاذ موسى قد نال درجة دكتوراه الدولة في الفلسفة بدرجة مشرف جداً... وقد دعت السوربون الدكتور موسى لإلقاء محاضراتٍ عن فلسفة التشريع الإسلامي في القرآن باللغة العربية».

لقد كتب الأستاذ رسالتيه الجامعتين، وهو يقوم بأعباء التدريس في كليته الأزهرية، وكانت المواد التي يدرّسها تخصّ شعبة الأخلاق، فهي بعيدة عن موضوع الرسالة، ولكنه كان يستعدّ للموقفين، موقف التدريس، وموقف تحرير الرسالة، فهو في الموقف الأوّل يُصدر الكتب الجامعية لطلّابه، كتاباً بعد كتاب، ويكتب في الصّحف الأدبية عن موضوعاتٍ تمسّ ما يقوم بتدريسه، وأذكر أنّه كتب سلسلة مقالاتٍ عن تطوّر المفهوم الأخلاقي ونشأته في النفس الأولى، كان بعضها مثار حوارٍ شديد بين الباحثين، لأنّ الأستاذ جعل الدين عاملاً أصيلاً في نشأة الخلق، وتكوين الضمير الإنساني.

ولم يقتنع بذلك بعض من ألقوا أن يقرؤوا كتب الاجتماع الفرنسية، وفيها ما يدلّ على أنّ الخلق الإنساني قد تكوّن بالتدرّج منذ غادر الإنسان الأوّل كهوفه السحيقة، ليكون مجموعة بشرية، فقد اضطر بهذا الاجتماع إلى أن يرعى قوانين مجتمعه ويرى الاعتداء عليها مصدر خطرٍ يهدّده، ومن هنا أخذت الأخلاق تتكوّن تدرّجياً بحسب تطوّر النشأة البشرية! فقامت مناقشاتٌ متعدّدة بين الأستاذ ومعارضيه، ولكنها كانت

(١) مجلة الرسالة: العدد ٧٨٨، ١٩٤٨/٨/٩.

ذات مستوى خلقي نادر يبعد عن الإسفاف ومحاولة التهجم، فهي مناقشةٌ خلقيةٌ في الصميم، أما موقفه من تحرير الرسالة الجامعية بعيداً عن الأستاذ المشرف بباريس طيلة العام الدراسي فقد جعل يُراسل أساتذته ما استطاع، ليسأل فيجواب، وقد حالت الحرب العالمية الثانية دون انتظام الرسائل، فأثر أن يتلمذ على الأستاذ الأكبر الشيخ مصطفى عبد الرازق في جلسات أسبوعية حددها له الأستاذ الأكبر مشكوراً.

ومن طرائف ما يذكره الأستاذ موسى بصدد هذه الدروس الراقية، أن بعض أساتذة الفلسفة بالجامعة المصرية كانوا يزورون الشيخ الأكبر، فأوا مجلسه مع تلميذه، فقال الزائر متعظماً: إنك لن تُجيد غير الفرنسية، ويستحيل عليك أن تأخذ درجة علمية من السوربون، إذا لم تدرس اليونانية والإنجليزية، لتفهم الفلسفة على وجهها الأصيل، ورأى الشيخ الأكبر قسوة الزائر، فقال في ابتسام: أنا يا أخي أستاذ الفلسفة الإسلامية بالجامعة المصرية لمدة خمسة عشر عاماً، وما احتجتُ إلى هذه اللغات! فسكت الزائر خجلاً! وكانت هذه الجلسة مصدر قوة دافعة للأستاذ، إذ صمم على أن ينال أعلى الدرجات في الفلسفة، تلك التي لم ينلها الزائر المتعطرس، وممن؟ من أساتذة السوربون.

وفي مجال العظة والاعتبار أذكر أن الأستاذ محمد يوسف موسى قد شكّا في بعض مقالاته بالرسالة، أنه وهو في فرنسا كان يطلبُ زيارة الأساتذة الكبار في هيئة التدريس الجامعي بمنازلتهم الخاصة، فيرحّبون بزيارته، ويُعطونه ما يريد أن يستعيره من الكتب والمراجع، وقد كان الدكتور طه حسين في إحدى زيارته لباريس، ويستطيع أن يمهد له الاتصال ببعض المكتبات الباريسية ذات التخصص الفلسفي، فجعل يطلبُ مقابلته ملحاً، ولا يجد غير الإعراض التام، وهي كما يقولُ الأستاذ موسى: موازنة أليمة ترجحُ بها كفة أساتذة الغرب على أساتذة مصر! وفي ذلك كله ما يصور جهاد الرجل الشاق في إعداد رسالته الجامعية، لأن الطريق لم يكن مفروشاً بالورود والأزاهير، بل يحتاج إلى قوة أولي العزم ممن لا تتعاطمهم الصعاب!.

قلت: إن الرجل ألف عدة كتب في تاريخ الأخلاق وتطورها، وصلة المفكرين العرب بالفلسفة اليونانية، وقد اضطرّه المنهج الجامعي إلى أن يختصر بعض الأبواب، وهذا ما أخذه عليه - في أدبٍ جمّ - أستاذنا الكبير العلامة محمد فريد

وجدني حين تحدّث عن بعض مؤلفاته، فقال عن كتاب (تاريخ الأخلاق)^(١):

«تتبع المؤلف تاريخ الأخلاق عند الأمم الشرقية القديمة، وعند اليونانيين في أدوارهم الثلاثة وفي القرون الوسطى، وفي هذا الدور تحدّث عن فلاسفة المسلمين، ثم أتى على تاريخ الأخلاق في العصر الحديث، وعند الفلاسفة الذين يؤسسونها على علم الحياة، أو على علم الاجتماع، فجاء الكتابُ على هذا النحو حافلاً بالمذاهب المختلفة للأخلاق، بقلم عالمٍ أزهري يعرف اللغة الفرنسية ويتكلّم بها، ويستمدّ الآراء المتباينة من ينابيعها، وهو في نظرنا كتابٌ قيّم يجب أن يعتمد عليه الذين يشتغلون بتهديب الأخلاق، ومما أعجبنا من مؤلفه أنه لم يدع لناقه سبيلاً حين قال في مقدمته: «وقد أعلمُ قبل أن أخطّ كلمةً في هذه المحاولة، أن تاريخ الأخلاق ليس جمعاً لأقوال أساتذة الأخلاق في هذا الموضوع أو ذاك، بل هو ما يُعين القارئ على تتبّع التطوّر لمسائل العلم المختلفة، أعلمُ هذا كله، ولكنّ إلحاح الأيام والحاجة إلى شقّ الطريق جعلاني لا أفي بكلّ ما نويت وقدّرت، والكمال لا يكون إلا بتعاون الجهود».

يقول الأستاذ وجدي تعقيماً على ذلك: «لولا هذا لقلْتُ كلمة في نقد هذا الكتاب، وهو إغفاله أكبر تطوّر حدث في علم النفس وغيره».

إنني أسجل هذه العبارات لأبيّن للقارئ كيف تكونُ شجاعةُ المؤلف حين يعترفُ أنّه لم يبلغ كلّ ما يريد، لأن إلحاح الأيام شديد، لم يستطع معه أن يفي بما نواه! كما يُبيّن أدب الناقد حين يقول: إن هذا الاعتراف قد منعه أن يستطرد إلى ذكر ما يراه ضرورياً في تأليف مثل هذا الكتاب! وشجاعةُ المؤلف وأدب الناقد مما يفرضُ علينا أن ننوّه بهما في مجال الأسوة والاحتذاء.

وليست هذه فريدةً في مناقشات الأستاذ وجدي للدكتور محمد يوسف موسى، إذ كان يخصّه رئيسُ تحرير مجلة الأزهر بتعقيباتٍ يراها ضرورية في إيضاح وجهتي النظر المختلفتين، فقد نشر الدكتور بحثاً تحت عنوان (بين رجال الدين والفلسفة) ذهب فيه إلى محاربة رجال الدين للفلسفة اليونانية بلا هوادة، وكان المنطق يقضي تقبّل هذه الفلسفة، ولكنهم رفضوها، جملةً وتفصيلاً، ورأوا في رحابها وأشياعها

(١) مجلة الأزهر: ربيع الأول، سنة ١٣٦٣هـ، ص ١٧٣.

أعداء للدين يجب الحذر منهم، والتنكيل بهم ما وجدوا إلى ذلك سبيلاً^(١).

وقد تعقبه الأستاذ وجدي^(٢) مقررًا أن المسلمين لم يُجافوا الفلسفة اليونانية سذاجةً وبلاهةً منهم، ولكن لأن لديهم فلسفةً جاء بها القرآن تسمو على كل فلسفة في الأرض، وتجعلها مما لا يُقام له وزن، فالفلسفة الإسلامية هي الحكمة القرآنية وهي تتبدى من قواعد الآداب العادية، وموجباتها الحيوية، إلى الحالات العالية للنفس الإنسانية، وبواعثها من العوامل الروحية، ومن أوليات الأصول الاجتماعية، إلى نهايات الوحدة الإنسانية، بل العالمية، ومن بسائط الأسس الإدارية، إلى أعلى المبادئ الحكومية والدستورية.

وأفاض الأستاذ وجدي في التّديل على ذلك بنصوص من كتاب الله، وقد تلا الردّ ردًّا وتعقيبًا، ولكن الذي نأخذه من ذلك كله هو حيوية النقاش واتجاهه إلى الأمور الفكرية بعيداً عن منازع الاستعلاء والتّهجم، ونحن مع الأستاذ وجدي في أنّ للإسلام فلسفةً مستقلة لا سبيل إلى إنكارها، ويجب ألا تُطلق الفلسفة الإسلامية إلا على الحكمة المدوّنة في كتاب الله وسنة رسوله، ولكن الدكتور موسى جاري المصطلح التاريخي المعروف، الذي يجعل من كلام الكندي والفارابي وابن سينا ومن لف لفهم محوراً للفلسفة الإسلامية، ومن السّهل على ناقد أن يقول: إن هؤلاء قد نقلوا كلامهم عن أرسطو وإفلاطون وفلاسفة اليونان، وقصارى أمرهم أن يكونوا شراحاً أو مُعقّبين، وإذن فلا فلسفة في الإسلام بهذا الاعتبار! وقد كتبت بحوثٌ حديثة توضح مزايا الفلسفة الإسلامية مستقلةً عن آراء اليونان، وناهضةً على النصوص الدينية ذات الطابع الصريح، وبذلك انحسم الخلاف.

ولم يقصر الأستاذ في هذه الفترة نشاطه على البحث العلمي أستاذاً بكلية أصول الدين، وطالباً بالدراسات العليا بالسوربون، بل جعل همّه الإدلاء برأيه في كل مشكلة إصلاحية تتنازع فيها الآراء، فقد تحدّث كثيراً في مقالات بالرسالة والأهرام ومجلة الأزهر عن الإصلاح الأزهري، وضرورة الأخذ بالنظام الجامعي، في كليات الأزهر، إذ لا معنى لأن يُرسل الأزهر بعثاتٍ علمية للخارج، يُكتب لأصحابها

(١) مجلة الأزهر: جمادى الآخرة، سنة ١٣٦٠هـ.

(٢) مجلة الأزهر: جمادى الآخرة، سنة ١٣٦٠هـ.

النجاح والتوفيق، ثم يعودوا إلى جامعتهم الرؤوم فلا يستطيعون أن يفيدوا مما تعلموه، لأن المناهج تقف أمامهم!

لقد كانت الكتب المقررة في أكثر الكليات من كُتب التراث وحده، ووظيفة الأستاذ أن يقرأ النص ويشرّحه للطلاب، وقد يعترضُ على النص بما جاء في حاشية تعقيبه من قبل، وهذا يهدمُ الروح الجامعي الذي يجعلُ الموضوع هو أساس الدرس، ويحتّم أن تكون له عدّة مراجع لا مرجعٌ واحد، كما لا يمنع أن يؤلّف الأستاذ الجامعي كتاباً يضمنُ أحدث ما انتهى إليه العلم في مادته! لأنّ الكتاب المقرر حينئذ يقف عائقاً دون ذلك!

هذا ما انتقده الأستاذ محمد يوسف موسى مكرّراً ومُبدئاً ومعيداً، وقد كنّا نقرأ كلماته ونحن طلابٌ بالأزهر، فنؤيدها تمام التأييد، ثم كبرنا وصرنا أساتذة في جامعة الأزهر بعد تطويرها، فماذا وجدنا؟ وجدنا أنفسنا نترحمُ على عهد التراث، لأنّ المدرسين - في أكثرهم - قد اكتفوا بطبع مذكراتٍ مبتسرة، وليس لدى الكثير منهم كفاءة تجعله مؤلفاً ممتازاً، فاكتمى بالنقل عن سواه، ورصد همّه في توزيع الكتاب، وهو على علاته لا يُقدم شيئاً ذا بال، مما جعلنا نضرب كفّاً بكف، ونتذكر قول القائل:

ربّ يوم بكيت منه فلمّا صرْتُ في غيره بكيت عليه!

وأعود فأكرّر أنني أتحدّث عن الطابع العام، ولا أنكر امتياز فريقٍ جاد بالإتقان المبتكر والتحليل الدقيق..

وإذا كان علمُ الكلام مما يتصلُ بأساليب المنطق الأرسطي بسبب واضح في معالجة قضاياها، فإنّ الدكتور محمد يوسف موسى كان أحد الأصوات الجهرية التي انتقدتُ تدريس هذا العلم، بوضعه المنتقل عبر العصور البعيدة، فقد قال - صريحاً -^(١): «إن كتب (علم الكلام) التي يشقى بدراستها طلاب الأزهر، والذين ينفقون في فكّ غامضها قدراً كبيراً من طاقاتهم العقلية، إنما تتعرّضُ لمن أصبحنا لا نُحسّ لهم وجوداً من أرباب المقالات المخالفة للدين الحق، وعقائده الصحيحة، ومن العجب أن نعكف على مناقشة قوم لا نكاد نحسّ لهم ركزاً، وأن

(١) مجلة الأزهر: المجلد الحادي والعشرين، ص ١٣١.

نترك أمثال القاديانية والبهاية - وأزيد فأقول الوجودية والماركسية والمادية والعلمانية - ولهم من النشاط الديني والدعاية لمذاهبهم ما هو معروف في العالم جميعه، إنّ على علماء الكلام أو التوحيد أن يطبّوا لداء الإلحاد الذي استشرى بين جانب من المثقفين ثقافة علمية عالية، ممن يروّون أن تفسير الوجود ممكنٌ دون اللجوء إلى فرض وجود الله، وإذا سألتهم عن الشبهات التي تحول بينهم وبين الوصول إلى اليقين بوجود الله مستعيناً بكل ما عرفت من كُتب علم الكلام لم تصل معهم إلى ما تريد، ثم نقل الأستاذ محمد موسى قول العلامة الشيخ حسين والي في كتابه (التوحيد):

«إنّ هذا العلم نشأ في زمن كانت الحاجة فيه ماسةً إلى الرّد على خصوم الإسلام من الدهريّين والزنادقة والملاحدة، أما الآن، وقد ذهب هؤلاء الخصوم وجاء خصومٌ آخرون، فلا يليقُ فرض الذّاهب حاضراً، وترك الحاضر الذي لا يردّه إلا كتاب الله إذا بيّنه الرّادّ على وجهه، وليس من الحزم أن يضيع الإنسان عمره في الاشتغال بخصومٍ موهومين، وترك الخصم الذي ضيّق عليه المسالك».

وكثيرٌ من الكتب التي نشرها المستشرقون في هذا القرن تتجه إلى إحياء هذه الخصومات بنشر أقوال أهل الطوائف المتنازعة من الذين يُحسنون الاعتراض ولا يحسنون الجواب، بل بنشر كتب المجاهرين بكفرهم الصريح كابن الراوندي ومن على شاكلته، وهم يُريدون إحياء هذه الشبهات القديمة لتضاف إلى ما جدّ من شبهاتٍ في هذا العصر الحديث! هؤلاء هم أعداء الإسلام، ممن يتشحون برداء العلم، فما بالنا لا نلتفتُ إلى ما يريدون إذاعته من ترّهات! فنساعد نحن على إحيائها لتشغل الطلاب، وتصدّهم عن الصراط القويم!.

وقد دعا اتحاد طلاب معهد التربية العالي بالإسكندرية، وقد كنتُ حينئذٍ أحد هؤلاء الطلاب، الأستاذ الدكتور محمد يوسف موسى أستاذ الفلسفة بجامعة الأزهر لإلقاء محاضرة علمية من محاضرات الموسم الثقافي للمعهد (١٩٥٠م)، فلبّي الدعوة مرتاحاً، وألقى علينا محاضرة رنانة تحت عنوان (لنكن قوّةً تفعل لا مادةً تنفعل)^(١) بدأها معترفاً بأنّ التأثير بالقويّ نافع مفيد، إذا حسن استغلاله، ولكنّا اليوم نتأثر بمبهورين بكلّ وافد، والتأثر المفرط يضيّع استقلال الفرد والجماعة،

(١) نشرت المحاضرة بمجلة الرسالة: العددان (٨٨٠، ٨٨١) سنة ١٩٥٠م.

ويذهبُ باستقلال الفكر، وأصالة الرأي، ذلك بأن من يتطلع دائماً إلى غيره يسأله ماذا يرى وماذا يعمل؟ يجعلُ من نفسه مادةً يصورها ذلك الآخر وفق ما يريد، ويجعل نفسه بمرتبة البهيمة يقودها الحدث حيث شاء، والذين يفعلون ذلك يجعلون من أجسامهم مقابر لنفوسهم التي أماتها التربية السيئة، بدل أن تكون هياكل لنفوس إنسانية لها حريتها واستقلالها، والجنانية في هذا واضحة! ثم ختم المحاضرة بقوله:

« إن عامة الغربيين يرون فينا معشر الشرقيين جماعاتٍ لم يعد لها كيانٌ مستقل، ولا شخصيةٌ خاصة، ما دمنا نرى في الغرب مثلنا الأعلى، هؤلاء هم العامة، أما الخاصة فيرون أن اتباع الشرق للغرب اتباعٌ ظاهري، لأن للشرق روحه الخاصة، التي لا تلبث أن تظهر من جديد ناصعةً قويةً يفيد منها الشرق والغرب معاً، بعد أن صار الغرب - وقد أنهكت قواه الحضارة المادية - بحاجةً إلى بعث جدٍّ يقوم على رُوح جديدة، يلتمسها لدى الشرق والإسلام».

وهكذا كان الدكتور محمد موسى في المعهد العالي للتربية مربياً ممتازاً، فقد بين العلة الموجهة التي جعلت الشرق يستسلم مبهوراً للغرب، ولم يشأ أن يترك السامعين في يأس من واقعهم الأليم، فختم محاضراته بتفاؤل كبير حول مستقبل الشرق، إذ أكد أن الخاصة من مفكري أوروبا أخذوا بعد الحرب المهلكة ينقدون حضارتهم الزائفة التي قذفت بهم إلى هذه الأهوال، وجعلوا يتطلعون إلى الشرق من جديد، وهو مشرق الديانات الصحيحة، وحامل رسالات السماء!.

حين انتقل الدكتور موسى إلى دراسة الفقه الإسلامي بكلية الحقوق تاركاً ما ألفه من دراسة الفلسفة بكلية أصول الدين، لم ينتقل إلى شيء غريب عنه، بل كأنه انتقل إلى بلدةٍ كبيرة يعرف شوارعها ومنازلها وميادينها من قبل، وله فيها مسكنه المطمئن، ومكانه المريح، فبدأ نشاطه العلمي بدءاً حميداً، وأظهر من المؤلفات الممتازة في حقله الجديد ما جعله زميلاً كفوّاً لأمثال الأساتذة الكبار عبد الوهاب خلاف ومحمد أبي زهرة وعلي الخفيف، ممن قضوا في دراسة الفقه الإسلامي بكلية الحقوق عمراً طويلاً، وصارت مؤلفات الأستاذ الدكتور محمد يوسف موسى ذات ابتكار حديث إذا قُورنت بمؤلفاتٍ سواه، لأنه حرص على التجديد المتّزن العاقل، الذي ينفخُ به البصر الثاقب السديد، ولعلَّ الأستاذ أحمد حسن الزيات قد عنى ذلك حين أشار إلى انتقاله من الأزهر إلى كلية الحقوق، فقال تحت عنوان (ثروة علمية

من ثروات الأزهر تنتقل إلى جامعة فؤاد^(١):

«قرر مجلس جامعة فؤاد الأول بجلسة ٣٠ يونيو سنة ١٩٥١ تعيين الأستاذ الدكتور محمد يوسف موسى أحد علماء الأزهر، وخريج جامعة باريس أستاذاً مساعداً للشرعة الإسلامية بكلية الحقوق، وكان الأزهر أولى بهذه الثمرات الناضجة، التي تفتحت في جوه، وعاشت بروحه، وتعمقت في ثقافته، ثم أخذت بنصيبٍ موفور من العلم الحديث بلغته وفي موطنه، فاكتملت لها الأداة لتجديد البالي، وإصلاح الفاسد، ولكن الأزهر لأمرٍ يعلمه الله، لا يريد أن يغير ما بنفسه، ولا يحب أن يعترف بالفضل لأهله، والكفاءة إذا لم يجدوا الإنصاف في بيئتهم وعشيرتهم تحولوا إلى النظام المنصف، والعلماء إذا لم يجدوا الحقل مهياً للغرس تركوه إلى المكان الطيب.

إذا ترحلت عن قوم وقد قدروا إلا تفارقهم فالراحلون هم

وقد بدأت طلائع هذه الثروة فيما كتبه الدكتور عن الفقه الإسلامي من بحوث ذات أصالة، في مؤلفات مستقلة ذات هدف سديد، ومن أشهرها كتاباه: (الفقه الإسلامي - مدخلٌ لدراسته ونظام المعاملات فيه) و(الأموال ونظرية العقد في الفقه الإسلامي) وهذا غير بُحوثه الأكاديمية في المجلات المتخصصة في الشريعة والقانون، وسألم ببعضها في هذا المجال.

على أن الذي يقرأ مقدمات هذه البحوث يلمس ما يشبه الثورة على أوضاع يراها المؤلف في حاجة إلى تصحيح، والغريب أنك في مجلس المؤلف تراه عذب الحديث، هادئ النفس، تستمع منه الرأي المعارض في كل تودة وأناة، وتظن أن هذا مسلكه في مؤلفاته، ولكنك تقرأ دعوته للنهوض الفقهي، فترى هذا السكون قد تبدد، ولا حيلة له في هذا، لأن متحدث المجلس يعلم أنه يُسامر ويتجاذب أطراف الحديث، ولا يقدر لتوجيهه من الذیوع والانتشار ما يدعوه إلى الشدة، ولكن المؤلف يخاطب آلاف القراء، وقد يرجو النفع من مئات يُعديهم تحمسه الشديد إلى الحق الذي يعنيه، فيواصل الطُرق الملح، وقد تستولي عليه فكرة، فيظل يرددّها أكثر من مرة، وما ذلك من خواء عقلي، أو جذب فكري، ولكنه التأكيد القوي لأمر

(١) الرسالة: العدد ٩٤١، ١٦/٧/١٩٥١م.

يراها صحيحة لا شك في نفعها، ويرى الآخرين بمنأى عنها، ويحسبون أنهم قد أوتوا حظاً من اليقظة والانتباه.

لك أن تقرأ ما كتبه الباحث الغيور عن (طريق الإفادة من الفقه الإسلامي) فإنك تجده مبدئياً يجهر بقوله :

«يجب أن نكف عن ترداد صلاحية الشريعة الإسلامية لكل زمان ومكان؛ من غير أن نتقدم بأي عمل يُثبت فعلاً هذه الصلاحية، ويُجلّيها للناس، علينا أن نكف عن هذا الكلام، ونبدأ في الخطوات اللازمة إلى تحقيقه، ولن يكون ذلك - أولاً - إلا بنشر المؤلفات الفقهية العميقة التي كتبها الأئمة قبل أن يُقفل باب الاجتهاد، وأن يكون العمل شاملاً لجميع المذاهب الفقهية المعتمدة، عند ذوي الإنصاف، فإن دراسة هذه المذاهب الأصيلة في كتبها الأولى ذات نفع محتم، ثم علينا - ثانياً - أن نغيّر منهج الدراسة في كليات الشريعة، لأنها دراسة تعتمد على كتاب واحد في مذهب واحد، ونحن نريد دراسة مقارنة، دراسة تُقارن فيها المذاهب الفقهية الإسلامية بعضها مع بعض، ثم تُقارن كلها باعتبارها وحدة مع القانون الحديث، وفضل هذه الدراسة المقارنة لا يُنكر، لأنها تميز صحيحنا الصريح من سواه، وعلينا - ثالثاً - أن نختار بعض الأساتذة بكليات الشريعة ليتخصصوا في دراسة المعاملات المالية في الأسواق والبنوك والمتاجر، وتطبيق ما يرون من حسابات هذه المرافق على ما سنته الشريعة، كما أن دراسة علم (الاقتصاد السياسي) واجبة في هذا النطاق على عالم الشريعة، إذ يرى مدى انطباق أسواق الحبوب والمتاجر والمحاصيل على ما هو مقرّر في الفقه، ثم يكتب ما يعنّ له مؤيداً بالدليل.

إذا قمنا بذلك كله فإننا نجد السبيل ممهداً لجعل الشريعة الإسلامية قانون الناس لدى جميع المسلمين، دون أن نغفل عن تقنين موادّ الفقه حسب الاصطلاح المعاصر، حتى لا يضلّ الباحث في آراءٍ تتضارب وتتناقض ونخرج بذلك بالفقه الإسلامي إلى وضوح النهار».

وهذا الكلام الذي سجّله الدكتور لم يُرسله عبثاً في الهواء، فقد بدأ بتحقيقه حين ألّف كتابه الرائع (الأموال ونظرية العقد في الفقه الإسلامي) في ٥٢٤ صفحة، وقد قال في مقدمته: «إذا كان لكلّ قانونٍ سماويّ أو وضعيّ طبيعته وسماته وخصائصه التي يميّز بها عن غيره من القوانين، فإنّ للفقه الإسلامي من هذا كله ما يجعله بحقّ

ضرباً فريداً في التشريعات والقوانين التي عرفها العالم الآن، سواءً من ناحية الأسس التي قام عليها أو المقاصد والغايات التي استهدفها، والأحكام والحلول التي جاء بها على مرّ العصور».

والكتابُ في ثلاثة أقسام؛ أولها مدخلٌ لدراسة الفقه وفلسفته، وثانيها في الأموال، تعريفاً وتقسيماً مع إيضاح حقوق المنفعة والارتفاق والأسباب الناقلة للملكية، وثالثها في نظرية العقد وتكوينه وشروطه، وقد لاقى الكتاب تقييماً كثيراً من المنصفين ذوي الاختصاص، وأذكر أن أستاذنا العلامة الشيخ محمد علي النجّار خصّه بنقدٍ جوهري في مقالين متتابعين بمجلة الأزهر، بدأهما بالثناء الجَمِّ على صنيع الأستاذ المؤلف، حين قال^(١) «هذا كتابٌ في الفقه وُضع على نمط جديد، وهو تذليل سُبُل الفقه، وجمع أطرافه ومباحثه، وتقريبه من لغة القانون (وهذا ما دعا إليه المؤلف من قبل في كتاباته التوجيهية) وقد استتبع ذلك ذكر آراء الفقهاء، ووجهة أنظارهم، واختيار أدناها إلى مصالح الناس، مع ذكر رأي القانون بجانب الفقه، فكان في هذا دراسة ممتعة مفيدة، وكان هذا منهجاً مفيداً لما يسمونه الفقه المقارن».

ثم تعرّض الأستاذ إلى مناقشة أحكام رواها الأستاذ المؤلف عن الصحابة من أمثال أبي بكر وعمر وعلي، واستنبط منها ما رآه الأستاذ مجالاً للنظر، وهذا هو النقد الحقيقي، الذي بيّن وجهات نظر مختلفة، ومأتاه من اختلاف النظرة المحافظة عن النظرة المجدّدة، ولكلّ وجهة هو موليتها، ولا بدّ أن تحتدم الآراء وتضطكّ حتّى ينجلي النقاش عن حكم يقين، ولم يضق المؤلف ذرعاً بناقده، بل أوسع شكراً وتقديراً، وقال في الرد عليه^(٢):

«إنّ نقده يدلّ على ما عُرف به السيد الأستاذ من قراءة واعية عميقة، وعلم أصيل، وخلق كريم وثبّت ودراية بما يقول، كما يدلّ ذلك على نزعة المحافظة، هذه النزعة التي قد تذهب أحياناً إلى تقديس كل ما أثر عن الماضين، والزّراية والتعصب على من يُوصفون بالمجددين».

ثم انتقل المنقود إلى تفرقة صريحة بين الدارس للفقه، والفقيه الحق، فالدارسُ

(١) مجلة الأزهر: شوال، سنة ١٣٧٢هـ، ص ١٢٥٢.

(٢) مجلة الأزهر: صفر، سنة ١٣٧٣هـ، ص ١٥٥.

للفقه هو من قرأ الكتب وعلم ما بها، أما الفقيه الحق فهو ذو رسالة تقتضيه فهماً عميقاً للكتاب والسنة المقدَّسَيْن، وإحاطةً بأدلة الأحكام الشرعية كما قرَّرها علماء أصول الفقه، ومعرفةً بعِلل هذه الأحكام ومسالكتها، وقدرته على الموازنة والترجيح عند تعارض الأدلة، ووقوفاً على الأعراف في البلاد الإسلامية المختلفة... إلى غير ذلك».

والكتابُ جديد في منحاها حقاً، لأنَّه تطبيقٌ لدعوةٍ حارّةٍ كثرها الأستاذ كثيراً، هذه الدعوة هي الخروجُ عن النظام المألوف في تدريس الفقه بالكلِّيات الإسلامية، إذ يكونُ مقررُ السنة الواحدة مشتملاً على عدّة أبوابٍ لا تجدُ الإشباع العلمي الدقيق، نظراً لقصر العام الدراسي، فيخرجُ طلاب الكليات بمحصول أشبه بمحصول تلاميذ المعاهد الدينية الثانوية، والأولى في رأي الأستاذ محمد يوسف موسى أن تختار الكلية موضوعاً واحداً للسنة الدراسية يُشبعه الأستاذ تحليلاً وتشريحاً واستدلالاً لطلبته، ويؤلّف فيه كتاباً قائماً برأسه، وفي العام الثاني يُختارُ موضوع آخر سائرٌ على منهج التحليل والتشريح والاستدلال، وهكذا حتى تكتمل دراسة الفقه ممتدةً في حيزٍ علمي يُتيح النقاش والاستدلال والإقناع، وتتكوّن من مجموعة هذه الدروس موسوعةٌ فقهية تشمل جميع الأبواب، وقد قامت على تأليفها هيئة علمية لا أستاذ واحد! وتكونُ ترقيةُ المدرّسين والأساتذة المساعدين وفق ما يتّضح من جهودهم في هذا النطاق.

وقد جاء كتابُ (الأموال ونظرية العقد) تطبيقاً نموذجياً لما رآه الأستاذ، ولو امتدّ الأجل به إلى الآن لرأى أن كتباً فقهية سلكَتْ نهجه المختار، فظهرت مؤلّفات مستقلة في أبواب مثل الشفعة والربا والحدود والإجارة والرهن والوصية والمزارعة... وغيرها، وبمجموعها يكون التّأليف الفقهي قد انتقل من حال إلى حال، وليس المهم في رأي طريقة التّأليف، بل أهم منها أن يكون المؤلف من طراز راقٍ، يعتمد على سعة الأفق، والبحث المقارن السديد.

ومع دعوة الأستاذ إلى الوثوب السريع في مجال التجديد الفقهي، فقد حذّر كلّ التحذير من نفرٍ من الشباب المتعجل لم يدرسوا الفقه في مظانه الأصيلّة، ولم يتسلّحوا للتّأليف بالاطّلاع والفهم والاستنباط، ودراسة علم الأصول وعلم الخلاف، في كتب التراث، ثم هم يتأثرون بقراءاتٍ صحفيةٍ ترمي علماء اليوم

بالجمود على ما قال الأقدمون، فيقدمون على التأليف خطفاً خطفاً، وفيهم من يقرأ النصّ دون أن يدرك سياقه ومناسبته، وما يحمل من مطاوي دفيئة، فيفهم الفهم الطائش، ويضمّ الفهم إلى الفهم، ويُخرج كتاباً ليس من العلم في شيء، وقد يتورّط في تحييد آراء منكّرة تجدّ صداها المستحسن لدى قوم لا يُحبّون أن تسود شريعة الله، فينتعونه بالمجدّد المصلح!! ويعتقد تبعاً لذلك أنه صار كما يزعمون!!

حدّر الأستاذ من هذا النفر المتسرّع، وكتب يقول لأمثال هؤلاء: «لا يمكن أن نقول بأنّ الأحكام الشرعية كلها قابلة للتغيير تبعاً للمصلحة، فهناك العدد الأكبر الذي لا يتغير بحال مثل حرمة الربا، وشرب الخمر، والزنا إلى مثل ذلك من الأحكام، وإنّما الكلام في طائفة من الأحكام الفقهية ذهب الفقهاء إليها في أزمان تناسبها، ثم لا تكون محقّقة للمصلحة التي يصحّ اعتبارها شرعاً في أزمان أخرى، وذلك ككثير من المعاملات التي أجازها الفقهاء استحساناً في عصور مختلفة»^(١). والمهمّ أن يفهم هؤلاء أن الرجل الكبير يتحدث عن رأي الفقهاء، لا عن نصّ قرآني أو حديث نبوي أو عمل صحابي! عن رأي الفقهاء في بابي المصالح المرسلة والاستحسان، وأقول ذلك وضعاً للنقاط على الحروف.

هذا وقد رأس الدكتور محمد يوسف موسى (جماعة الأزهر للنشر والتأليف) وهي جماعة علميّة من صفوة علماء الأزهر، قدّر لها أن تخرج كتباً قيّمة ممتازة في موضوعها وفي أسلوبها، ومن بينها كتاب (عثمان بن عفان) للأستاذ محمد صادق عرجون، وكتاب (الموالي والعرب) للدكتور محمد الطيب النجار، وكتاب (ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين) للعلامة الكبير أبي الحسن الندوي، وقد لاقى رئيس اللجنة صعوبات معترضة حين أراد اللجنة على أن تنشر كتاب (تفسير مجمع البيان لأبي علي الفضل بن الحسن الطبرسي) وهو كتاب قال عنه الدكتور محمد يوسف موسى^(٢):

«والقارئ لهذا الكتاب، والباحث الذي يلجأ إليه فيما يُعاني من تفسير كتاب الله العظيم ومعضلاته، والمتتبّع لتطوّر علم التفسير، وما كتُب فيه على مرّ القرون، يتبيّن كيف وُفق المؤلف رضوان الله عليه للوفاء بكلّ ما قال في المقدّمة عن علوم

(١) مجلة الأزهر: شوال سنة ١٩٧٣، تحت عنوان (كفانا تقليداً في الفقه) ص ١١٩٢.

(٢) رسالة الإسلام: ربيع الأول، سنة ١٣٧٠هـ، ص ٦٨.

القرآن المتعدّدة، وإلى أيّ مدى عالٍ مرموق بلغ من ذلك كله، وبأيّ أسلوب بليغ عالي المنزلة عالّج النواحي التي عالجها، وبأيّ أمانة وصدر رحب نقل ما نقل من آراء مخالفيه في الرأي والمذهب، على ندرة هذه الخطة الأخيرة بين غير قليل من العلماء الذين يتصدّون للتأليف في العلوم التي يكثر فيها الخلاف ويشتد، كما نرى بوضوح في كثير من المؤلفات في علمي الكلام والفقه».

ووجهة نظر الدكتور في الاهتمام بنشر هذا التفسير القيم، أنه التفسير الشيعي الذي التزم الحيطة في القول، وحفظ للأئمة من المفسرين من مذهبه وغير مذهبه أقدارهم واستند إليها، وأثنى عليها، فنشره مدعاةً للتقريب الصحيح بين أهل العلم في الإسلام. ووجهة نظر غيره أنّ الاكتفاء بكتب أهل السنة أولى، ولعلّ تبادل الكتب المعتدلة هنا وهناك ممّا يقرب مسافة الخلاف في أمة واحدة، كتابها واحد، ونبئها واحد، وهدفها واحد، إذا سلمت السرائر عن كلّ دخيل معلول.

كما كتب الأستاذ ترجمتين علميتين لابن رشد وابن تيمية، وقد أخذ بعض النقاد على ترجمة ابن رشد أنها جاءت مختصرة مكنتزة، وقد نسي أن سلسلة (أعلام الإسلام) التي أصدرت هذه الترجمة ذات حجم عددي لا تتعداه، وأنّ الدكتور قد خضع لهذا الطابع الشكلي، وليس به أن يقصّر في شأن ابن رشد، وقد كتب عنه بحثاً ضافياً كان أحد شقي الرسالة السربونية التي ظفر بها بالدكتوراه، فلا يعجزه أن يبسط القول في كتاب عن ابن رشد ألف لقراء العربية.

أما ترجمة ابن تيمية فمستفيضة شافية، تحدثت عن جهاده السياسي، واجتهاده العلمي حديثاً حالفه التوفيق من كل نواحيه، وكان باعته على التأليف عن هذا الإمام الجليل أنّ بعض من نقدوا كتابه الفقهي عن الأموال (وقد سبقت الإشارة إليه) أخذوا عليه الاعتماد على آراء هذا العلامة الكبير، فكأنّه أراد أن يطلعهم على حقيقة الرجل المجتهد علمياً وإصلاحياً، وحسناً فعل، وبهذه المناسبة أذكر أن الكتاب تعدّدت طبعاته، ولاقى في الرواج ما يستحق، كما أذكر أنّ للدكتور مؤلفاً رائعاً جديراً بالترجمة إلى عدّة لغات هو كتاب (الإسلام وحاجة الناس إليه) والموضوع موضوع الساعة، وقد جاء الأستاذ بفصل الخطاب فيما انتحاه من الحديث، لأنّه عثر على نصوص فقهية لكبار العلماء أبرزت سماحة الإسلام على وجهها الصحيح، وهي

نصوصٌ لم تشتهر من قبل، ولولا خوفُ الإطالة لاقتبست منها ما يشبع القارئ ويمتعه .

هذه صفحةٌ من جهاد هذا المفكر المتزن المجدّد، وقارئها في حاجة إلى أن يرجع إلى مؤلفاته التي أشرت إلى بعضها، لأنّها ذات معدن نفيس، وقد يُغني كتابُ نفيس في موضوع نفيس عن عشرات كتُب في الموضوع ذاته اكتفت بالنقول، وفاخرت بالمقدمات الطويلة، دون الوصول إلى ما يُرضي من النتائج المقنعة، والمؤلفون كثيرون كثيرون، ولكن الأمر كما قال القائل :

خَلِيلِي قُطَاعُ الْفِيَا فِي إِلَى الْحَمَى كَثِيرٌ، وَإِنْ الْوَاصِلِينَ قَلِيلٌ ..

* * *

محمود خطاب السبكي

«مؤسس الجمعية الشرعية وداعية الإسلام بِمِصْر»

- ١ -

حدثني عالم فاضل من كبار علماء الأزهر، وأحد أساتذة النحو بكلية اللغة العربية في الثلاثينيات قال: كنتُ في مسجد الرفاعي بالقاهرة، أنتظر صعود الخطيب إلى منبر الجمعة يعظ الناس كعادته، فلم أجده، وتطلّع الناس إلى خطيب بين جموع الحاضرين يقوم بدور الخطيب الغائب، فتوجهت الأنظار إليّ، وأنا معروفٌ لدى الجميع بأنّي من العلماء، ولكنني اعتذرتُ أسفاً، لأنّي لم أعتد الارتجال في مثل هذا المقام، واشتدّ الحرج بنفسي، حتى أنقذ الموقف رجلٌ من رجال الجمعية الشرعية يشتغل تاجراً في محلّ للبقالة، ولكنه يلوّثُ عمامةً على رأسه، فصعد إلى المنبر وألقى خطبة ممتازة لا تقلّ عن خطب الواعظ الغائب، بل ربّما أربت عليه، والرجلُ بعدُ لم يتربّ في معهد أزهرى، ولم يجلس إلى مدرّس رسمي، ولكنه حفظ القرآن الكريم كبيراً على يد الإمام محمود خطاب السبكي مع نفر مثله يبلغون المئات، ثمّ حضر دروسه في المسجد أمداً من الدهر، ومروا لسانه على القول، فأدّى دور الواعظ بإتقان.

والذي يجبُ ملاحظته في هذا المجال أنّ القرآن مصدر ثقافة للمسلم، فالإنسان إذا حفظ كتاب الله في لغته البليغة تطلّع تلقائياً إلى معرفة معانيه، وألّم بأغراض كثيرة من أفانين التشريع والتاريخ والأخلاق وشؤون العقيدة، وعالم الغيب في اليوم الآخر وما به من مشاهد الحساب والبعث والصراط والجنة والنار، فإذا ضمّ إلى ذلك قراءة الحديث من نفسه - ولو لم يسمعه من شيخه - فإنّ إضافاتٍ جديدة تُثير عقله، وترفع من مستواه، ومثلُ هذا الرجل المتطلّع لا يستطيع أن يُهمّل رغبته في قراءة ما يستطيع فهمه من كتب التفسير والحديث والفقه، وهو بهذا الزاد جدير أن يعظ الناس.

لعلَّ الإمام محمود خطاب السبكي، قد عرف ذلك كلّ حقّ المعرفة حين صمّم على إنشاء قسم للوعظ من أبناء الجمعية الشرعية التي أنشأها بنضاله المتّصل، فقد عرف أن الوطن - عند إنشاء هذا القسم الأهلي - لم يعيّن وعظاً يطوفون بالقرى والمدن داعين إلى الله، ولمس الحاجة إلى هذا الضرب من الوعظ، كي يهدي الحائر، ويرشد الضال.

ثم رأى أن أكثر طلاب الأزهر لعهد يقرؤون المتون والحواشي والتقارير، ويهتمون بعلوم اللسان دون أن تكون أدوات الخطابة المنبرية مما يدرسون، فأنشأ بالجمعية قسماً للوعظ، لم يقصر أصحابه على سنّ معينة، ولكنه دعا الراغبين في العلم إلى استماع دروسه، ودروس زملائه من أعضاء الجمعية، وألف من الكتب ما يهديهم إلى تحقيق رسالتهم من كافة الوجوه، ألف كتاب (الدين الخالص) في تسعة أجزاء كبار تشمل العبادات والمعاملات وتحارب البدع والمنكرات، حتى أصبح (الدين الخالص) لدى أتباع الشيخ بمنزلة كتاب (الإحياء) لأبي حامد الغزالي، وشرح سنن أبي داود في أجزاء عدّة تبلغ ثلاثة عشر مجلداً، كتب ذلك كله وشرح ذلك كله بأسلوب واضح يقرؤه القارئ فيجد المعنى الواضح، والدليل المقنع، والإنارة البصيرة، ومن ذاق هذا الضرب من الكلام سيقراً ما تقع عليه يده من كتب التراث.

وبذلك أصبح هؤلاء المتطوّعون من التجار والصنّاع والعمّال رُسل هداية، لا يبتغون عليها أجراً ولا شكوراً، فهم وعظا متطوّعون، ولهم زملاء في الجمعية الشرعية اصطفاهم الأستاذ من نجباء الفتيان حين توسّم منهم المعرفة، فأعدّهم إعداداً أكثر تنظيماً، ليكون دُعاة رسميين في مساجد الجمعية، يطوفون البلاد مذكّرين هادين، ولهم سمّتهم الخاص، ومنهجهم في محاربة البدع، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وهذه الحركة التنويرية أدّت دورها على نحوٍ ناجح لم يكن يتوقّعه الشيخ حين بدأ التجربة، ولكّنه غرس البذر وتعهّده، ثم رأى الزرع الناضر والثمر البهيج.

كان الوعظ ضرورةً ماسّة حين أنشأ الشيخ السبكي دروس الوعظ سنة ١٩١٤م، ومن قبل هذا التاريخ بعامين أنشأ ذوو الغيرة من المسلمين داراً للوعظ والإرشاد على نحوٍ أوسع، إذ لم يكن الغرض منها إرشاد المصريين في الداخل فحسب، بل

المراد الأكبر تخريجُ دعاة للعالم الإسلامي كله وبمختلف لغاته، إذ أنّ المسلمين يفتقرون إلى ضربٍ من التوجيه الصادق يقاوم التبشير الزّاحف بماله وإغرائه على مواطن كثيرة من مواطن الإسلام.

فرأس الأستاذ محمود سالم بك جمعيةً إسلاميةً لنشر الدعوة، وقام الأستاذ محمد رشيد رضا بإدارة مدرسة الدّعوة، بحيثُ تُدرس فيها جميع العلوم والفنون التي تُدرس في الكليات العالية مع اهتمام زائد بالتربية الدّينية، وكانت المدرسة - كما تقول المنار - تقبلُ في عداد طلبتها شباب المسلمين الذين تتراوح أعمارهم بين العشرين والخامسة والعشرين، على أن يكونوا قد حصلوا من العلوم ما يسمح لهم بتلقّي هذه الدروس العالية المستوى، وكانت تُفضّل من الطلاب من يجيئون من الخارج كأبناء الهند والملايو والصين وأندونيسيا وغيرها، ثم يُعطى الطالب في آخر السنة الثالثة شهادة مرشدٍ تؤهّله للدعوة بين المسلمين، ولكنّ المدرسة لم تستمرّ على ما كان يُرجى لها من ذبوع، لأنّ الحرب العالمية الثانية قد أوقفت سيرها بأمرٍ إنجليزي، كما أوقفت هذه الحرب دُروس الشيخ محمود خطاب في مساجد الجمعية الشرعية! والفرق بين الجمعيتين أن جمعية الشيخ رشيد قد أُغلقت إلى غير عودة، أما مدارس الشيخ السبكي فقد عادت إلى طريقها منذ زال الخطر بانتهاء الحرب.

ولن أقول: إن الشيخ السبكي قد تأثر بمدرسة الدعوة والإرشاد، فحاول أن يحذو حذوها، بل أقول: إنّه لمس حالة الجهالة الدّينية في الشعب المصري، فحاول إنقاذه على يد دُعاة يعرفون كيف يخاطبونه بالتي هي أحسن، ولم يمتدّ بصره إلى العالم الإسلامي الفسيح، لأنّه يقدر إمكانياته المتواضعة، ويرسمُ الخطط باتّناد هادىء، وقد رأى في احتياج الأمة داخلياً ما شغله عن الاهتمام بالخارج، إذ لا يجوز لعامل أن يُصلح بيوت الجيران، قبل أن يصلح بيته، ولعلّه كان ينوي ويأمل أن يمتدّ إلى أكثر ما اتّجه إليه، ولكن الأمل شيء، والحقيقة شيء آخر.

لقد قفزتُ إلى الحديث عن مدارس الوعظ، ومساجد الدعوة، دون أن أقول شيئاً عن حياة الشيخ، ولعلّي أكون قد شوّقت القارئ إلى معرفة تاريخه بما أسلفتُ من حديث الدعوة، فالرجلُ لا يزالُ في حاجة إلى كتاب مستقل يتحدّث عن مآثره الكثيرة، وقد تجاهله أكثر من كتبوا عن أئمة الإصلاح الدّيني في هذا العصر،

وما كان لهم أن يتجاهلوا مثله، لأن آثاره لا تزال باقية، وجمعيته الشرعية تملأ ربوع الجمهورية بمساجدها، ومبَرّاتها الخيرية، ومصحاتها الطبية، على نحو ما سأشير إليه الآن!

ولد الشيخ محمود خطاب في سنة ١٨٥٨م في قرية سبك الأحد بالمنوفية، وكان والده عُمدة القرية يملك أرضاً زراعية، ويجمع حوله أبناء البلدة، فشبّ ولده في بيئة ذات ثراء مناسب، وجعل منذ صغره يباشر أعمال الزراعة ويغرس نبات الحديقة المحيطة بالمنزل، ويخالط أهل الخبرة في مسائل الغرس والحصد، بل في كل ما يمتّ إلى العمالة القروية من نجارة وحدادة وتجارة وغيرها، وتلك النشأة أفادته في حياته العلمية والإرشادية، إذ جعلته ابن قرية يفهم مشكلات الفلاحين، ويقفُ على أعباء الفعلة من العمال والكادحين، ولم تشغله مسائل الزراعة والحرف اليدوية عن التعلّم على يد مدرّس خاص.

ولكنّ أمد إقامته بالريف قد طال حتى بلغ التاسعة عشرة من عمره، فسافر إلى القاهرة للالتحاق بالأزهر الشريف، وكان الالتحاق حينئذ بالجامع الأزهر لا يتقيد بسنّ معينة، ولكنّ علوّ سنّه بالنسبة للطلاب الناشئ قد أفاده قدرة على التحصيل المستوعب، فاستطاع في أمد يسير أن يلحق بمن سبقوه، وكانت حياته الزيفية شغله الشاغل، إذ لمس من البدع والمنكرات في قريته وفي الريف بعامة ما لا يتفق مع قواعد الشرع الحنيف، وأخذ يوازن بين ما يقرأ في كتب الأزهر وما يرى من بدع تتعلّق بحفلات الذكر وجمع النذور وزيارة الموتى على سبيل التوسّل، ووجود طبقة تدّعي التصوّف وهي جاهلةٌ بحقيقته الأصلية، مريضةٌ بداء التواكل لا ترتزق بعمل، ولكن تعيشُ على صدقات الناس ظانّةً أن هذا الكسل الخامل عبادةٌ مشروعة.

قرأ الطالب كتب الشريعة في منابعها الصافية، وأدرك فداحة ما يقع فيه الريفيون من أخطاءٍ، فما حانت فرصة الإجازة السنوية، حتى ذهب إلى قريته منكرًا كلّ ما يرى من المشاهد المخالفة لمنهج الإسلام، ورأى مقاومةً عنيفةً ممن وصفوه بالإلحاد والزندقة، وكان الطالب عملياً في سلوكه حيث صبر وصابر وجاهد بالتي هي أحسن، ثم انتظر حتّى عاد إلى الأزهر، فوجّه أسئلةً دينيةً مكتوبةً إلى كبار الأساتذة خاصّةً بما يرى من البدع والمنكرات، لتكون الإجابة سلاحاً في يده، ولم يتوانَ شيوخه عن الإجابة والتوقيع على ما يؤيّد منهجه، فحمل هذه الإجابة الموقّعة

إلى قريته، وخطب الناس مستنداً إلى ما في يده، وتمّ له النصر على قضاء هذه البدع في قريته، ففرح فرحاً شديداً.

وأصرّ على أن تكون القرى المصرية مُبرّأة من هذه المثالب، ومن هنا نشأت في نفسه ضرورة تأليف الجمعية الشرعية ليقوم أبنائها بإرشاد القوم في القرى والمدن إلى حقيقة الدين.

وكان الرجلُ عملياً في موقفٍ خاص به، فقد مات والده وهو كبير القوم في ملئه، والشائع المتبع أن يُقام له سرادق فخم يستمرّ ثلاث ليال، وأن يُشيع جثمانه بمشهد حافل تظللّه البيارق والزّيات، وأن ينشد المنشدون قصيدة البردة في مدح الرسول منغمة طول الطريق حتى تصل الجنازة إلى مستقرها من القبر، وأن يفد كبارُ القراء المشاهير ليحيوا الليالي الثلاث، كما يتوافد الأجانب من القرى طيلة هذه الأيام الثلاثة يأكلون ويشربون وينامون، وأهلُ الراحل من غير طبقة الشيخ السبكي يقعون في حيرة حين يموتُ منهم أحد، إذ هم مضطّرون إلى هذه المراسيم حتى لا يكونوا موضع المؤاخذه من الناس!

مات والد الشيخ في هذه البيئة ذات التقليد المتبع، ولكنّ المعزّين جاؤوا للتغزية فلم يجدوا السّرادق ولا القراء، وجاء أصحابُ الرايات والأعلام فصدّهم الشيخ وأمرهم بالرجوع، ثم سارت الجنازة في خشوع، ورجع الناس إلى المنزل الكبير ليعظّمهم الشيخ، وليخبرهم أنّ ما صنعه في تشييع والده هو ما جاء به الشرع الشريف، وأن خراب المنازل في إقامة الحفلات الباهظة مما لا يرضاه الله؛ ومن ثم صار هذا التّهج متبعاً في قرية الشيخ، وإن قوبل بمعارضة في غيرها، ولكنه فعل ما استراح إليه، وجتّب من وافقه كثيراً من الأعباء.

لم ينته الطالب الذّكي عند هذا الموقف العملي، بل رأى أن يصدر كتاباً يجمع البدع المنكرة، ويردّها بلسان القرآن والحديث وأقوال الصحابة والتابعين، ثم أخذ موافقةً على ما كتب من كبار شيوخه، وكانت دعوة الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده إلى محاربة المنكرات قد بدأت تذيع في الناس، حيث قامت مجلة المنار بنشر آرائه على وجهٍ متّسع، وقام تلاميذه بالكتابة في الصّحف والخطابة على المنابر في تهجين كل ما لا يتّصل بالدين من بدع.

ولا أدري لماذا لم يُشر الشيخ محمود خطاب إلى آراء الإمام، ولم يأخذ توقيعه

فيمَن أخذ توقيعهم من الشيوخ، والرجل العظيم كبير العلماء، ومفتي الديار المصرية الرسمي! لعلَّه لمس كراهية الوصُوليين لمنحى الإمام، وقيام نفرٍ من جهلة المشايخ بالحملة على آرائه الصائبة، فرأى أن يكون عنه بمنأى، على أن الشيخ قد ناصره وأيده حين شاعت آراء الطالب النَّابه في قرى الريف.

واشتكى المغرضون منها إلى رجال الحكم بالعواصم المختلفة، فكتب المسؤولون إلى الشيخ الإمام يطلبون فتواه فيما أذاع الشيخ السبكي، إذ أحدث آراؤه شغباً في الناس، وكادت تؤدي إلى فتنة في المساجد والمجامع العامة، جاء كتابُ المسؤولين إلى المفتي الأكبر، فأقرَّ كلَّ ما قاله الشيخ محمود خطاب السبكي، وأعلن أنَّ النهجَ المتَّبِع عند من يستمعون القول فيتبعون صوابه، وكسب الشيخ السبكي بذلك معاونة رجال الإدارة من مأموري المراكز، وضباط النقط في القرى والبلاد، وهذا نصرٌ آخر كُتِب له، بعد أن وفق إلى جعل قرية (سبك الأحد) نموذجاً للاحتذاء.

رأى الشيخ محمود أن يتقدَّم لامتحان الشهادة العالمية بالأزهر، ليكون عالماً رسمياً في نظر العامة والخاصة، لأنَّ خصومه قد أشاعوا عنه قلة بضاعته من العلم، وأنه يلجأ إلى الوعظ الجمهوري الذي لا يكلفه غير شرح آية أو تفسير حديث، أما التعمُّق في أصول الشريعة وعلوم اللغة والنحو فهو بعيد عنه، ولا يجوز لمثله أن يتصدَّر للوعظ والإرشاد.

تقدَّم الشيخ لامتحان العالمية في سنِّ التاسعة والثلاثين، وهي سنُّ كبيرة بالنسبة لمن يحرزون الشهادة قبل الثلاثين، ولكنَّ ذلك لا يمنع قانونياً من اجتياز الامتحان، وكان الامتحان لعهد شفوياً فقط يدور حول إحدى عشرة مادة علمية لكلِّ مادة يومها الخاص بها، والممتحنون من كبار العلماء بالأزهر، يمتحنون المادة لجميع المتقدمين في يوم واحد من الصَّباح إلى الغروب، وكان هؤلاء لا يزيدون عن سبعة أو ثمانية كل عام، لأنَّ رهبة الامتحان، وطول مدته النسبية، ونقاش الكبار من الفحول كانت تصدُّ الكثيرين عن الاقتحام في لجة عاتية لا تؤمن عقباها.

وكان من الممتحنين الكبار بعضٌ من لا يرضون عن حركة الشيخ الإصلاحية، ويعدّونها حُبّاً للتظاهر، ورغبةً في ذبوع الاسم ونباهة الصيت، ولكنَّ الحق لا بد أن يفوز، فقد وفق الشيخ في إجاباته المختلفة على كل ما قدَّم إليه من أسئلة، ورأت

اللجنة أن يفوز بالدرجة العلمية عن جدارة، ومن ثمَّ جاز له أن يُصبح مدرساً رسمياً بالأزهر، فأخذ يختار من نبهاء الطلاب من يتطلَّعون إلى إصلاح ديني، تركز مبادئه على القرآن والحديث.

وكابد عناءً في إفهام تلاميذه أنَّ المذاهب الفقهية متقاربة، وأن انتساب الطالب الأزهري إلى مذهب معيَّن لا يجوز أن يعوقه عن الاطلاع على المذاهب الأخرى، فإذا رجع لديه دليلٌ في مذهب آخر كان أولى باتباعه، وضرب المثل لهم بمفتي الديار المصرية الأستاذ الإمام محمد عبده، حيث أنَّه شيخ الحنفية الرسمي، ولكنَّه في فتاويه لا يتقيَّد بالمذهب الحنفي إذا رأى الدليل القوي في مذهب سواه، بل إنَّه يترك المذاهب الأربعة إلى آراء أخرى يجدها في كتب الأعلام تنسب إلى كبار الصحابة والتابعين، وتكون معتمدةً لدى من تلاهم من أئمة الفقهاء مثل الأوزاعي وسفيان الثوري وابن المبارك وابن حزم وطاوس.

وحين شرع الشيخ محمود خطاب في كتابة تأليفه المتَّسع (الدين الخالص) كان هذا الاتجاه واضحاً لديه، ولم تمضِ سنوات يسيرة حتى رأى الرجل أنَّ لديه من نوايغ الطُّلاب وأفاضل المدرِّسين من يؤيدون طريقه الإصلاحية، ففكَّر في إنشاء جمعية تدعو إلى الله، بعيدة عن الأزهر الرسمي، لأنَّه باستقلاله في هذه الجمعية يستطيع أن يكون أكثر حركة، ويستطيع أن يبعث مؤيديه من تلاميذ الجمعية إلى المدن والقرى المصرية، ليرشدوا الناس دون أن يجدوا معارضةً من جهاتٍ مسؤولة.

وهكذا أصبح تأليف الجمعية شغله الشاغل حتى وفَّقه الله إليه، فصارت الجمعية واقعاً ملموساً، وقامت برسالتها على نحو ما نشاهده الآن في مصر جميعها، وذلك بتأييد الله ورضاه!.

- ٢ -

يقول الأستاذ الزعيم أحمد حسين، رئيس حزب مصر الفتاة بمصر عن الأستاذ السبكي^(١):

(١) مجلة المختار الإسلامي رمضان سنة ١٤٠٨، نقلا عن مقال للأستاذ أحمد حسين، نشر بمجلة الاعتصام، ذي الحجة سنة ١٣٩٥ هـ.

«إنني أتصور أن حركة «السبكية» كما كانت تُسمَّى نسبةً إلى مؤسسها المغفور له الشيخ محمود خطاب السبكي هي أحد ردود فعل مصر الإسلامية ضدَّ الاحتلال الإنجليزي، لقد كان الاحتلالُ الإنجليزي لمصر صدمةً مُدوّخةً، إذ لأول مرة وجد مسلمو مصر أنهم محكومون بقوة غير إسلامية، فأخرج هذا الشعبُ من صفوفه من راح يحاول وضع يده على سبب هذه النكبة، فذهب بعضهم إلى أن السرَّ فيها يرجع إلى قلّة التعليم، فاندفعوا يبيّشون بوجوب نشر التعليم وفتح المدارس، وقال آخرون: إنّما هو انعدامُ الوعي السياسي، فراحوا يُنشئون الأحزاب، ويُصدرون الصحف، وقال ضمير الشعب الممّعن في الإيمان: إنّ السرَّ هو في انحراف المسلمين عن دينهم، وعليهم أن يتمسّكوا بما كان عليه السلف الصالح تصديقاً لقول نبيهم: «تركْتُ فيكم ما إن تمسّكتم به لن تضلّوا بعدي أبداً، كتاب الله وسنتي».

وهكذا كان الشيخ محمود خطاب السبكي تُرجماناً لمشاعر الشعب، وتعبيراً عن إرادته في النهوض والإصلاح والتحرير عن طريق العودة إلى الإسلام عند منابه الأولى، إنّ الذي أتصوره في عمل الشيخ محمود أنّه أنشأ مزرعةً روحية لإعادة مجد الإسلام عن طريق اتباع الكتاب والسنة كما طبّقها السلف الصالح، وسُرّعان ما ازدهرت هذه المزرعة وبدأت تُؤتي أكلها، فراحت تقدّم للمصريّ أروع النماذج والمثل في شتّى أنواع الأنشطة، فعندما قامت ثورة سنة ١٩١٩، هذا الحدثُ العجيب الذي حطّم كبرياء الإنجليزي وجبروتهم، مما استرعى الانتباه إلى الدور العظيم الذي قامت به ورشُ العنابر التابعة للسكة الحديدية، وقد كشفت الأيّام أن قائد هذا العمل من أعظم من عرفت مصر، كان هو الشيخ أحمد جاد الله، وقد قدّم للمحاكمة في مقتل السير لي ستاك الإنجليزي وعشرات الإنجليز من قبله، ولم يكن الشيخ أحمد جاد إلّا عضواً من أصدق أعضاء الجمعية الشرعية».

هذا قليلٌ من كثيرٍ قاله الزعيم أحمد حسين، وقد أثرتُ الاستشهاد به، لأنّ بعض القراء لا يصدّقون روعةَ هذه الأعمال الباهرة التي بلغت حدَّ الاستشهاد في سبيل الله إلّا إذا هتف بها كاتبٌ كبير، وها هو ذا الأستاذ أحمد حسين ينطق بأثر الإسلام في تربية النفوس، ورفع مستواها إلى منزلة الاستشهاد، ولكن كيف ألّفت هذه الجمعية الشرعية التي آتت هذا الثمر العجيب؟.

في المحرم من سنة (١٣٣١هـ - ١٩١٢م) أسس الإمام محمود الجمعية، ووضع لها نظاماً خاصاً لتكون على أسس ثابتة يؤكدّها القانون المدوّن، باتفاق جميع الأعضاء على تنفيذ نصوصه، وكان الوعظ الديني، والإرشاد القرآني هو الأساس الأوّل الذي تركز عليه الجمعية لتلفت المسلمين إلى واجبهما الحضاري، فاهتمّ الإمام باختيار طائفة من زملائه وتلاميذه، وحدّد لكلّ أستاذ مكان عمله، وبرنامج وعظه، وجعل اجتماع الجمعية محدّداً لبيلة الخميس من كل أسبوع، إلّا إذا طرأ عاجلٌ يستدعي جلسة سريعة، وكانت محاضر الجلسات تدوّن في سجلّ خاص يوقع عليه الجميع، ثم طبع قانون الجمعية، وتقدّم به إلى الجهات المسؤولة فوافقت عليه.

وأبرز ما قام به الأستاذ منذ تألّفت الجمعية الشروع في بناء عدّة مساجد خاصّة بالجمعية، وقد عدّ بعضُ الناقدين هذا العمل اعتزلاً عن كافة الناس، وهو نظر قاصر، لأنّ مساجد الجمعية تفتح أبوابها لكلّ وافد، ولكنّ المساجد العامة التابعة لوزارة الأوقاف لا تُمكن من المنبر والوعظ غير الخطيب الرسمي المعيّن من الوزارة، فكيف يقوم خطيبُ الجماعة بإيضاح أغراضها الإسلامية وهو ممنوعٌ من مزاوله جهاده على نحوٍ متّصل، ولم يكن دور المساجد مقصوراً على الصلاة والخطبة الأسبوعية، بل كان لكلّ مسجد برنامج التعليمي، وقد ألحقت به مدارس لتعليم القرآن وتحفيظه، ومدارس لدراسة قواعد الدين واللغة، فكانت بمثابة معاهد دينية تؤازر الأزهر في أداء رسالته.

وكانت نشأة الإمام في الريف، ومزاولة العمل في الزراعة والصناعة ناهضةً به إلى التفكير في إنشاء دورات مهنية لتعليم الفتيات ما يحتجن إليه من أمور الحياكة والتطريز وتدبير المنازل، حتّى يستطعن التكبّس العملي من هذه المهن، ولا يكنّ عالّةً على التبرعات التي يجود بها الناس على فترات متقطعة لا تتصل، مع تقديم دروس دينية لهنّ يعرّفن بها كيف تنشأ الفتاة المسلمة في ظلّ التربية الدينية.

أمّا الأمر الباهر حقّاً فهو ما وُجد لأوّل مرة بالمساجد الدينيّة، وهو إحداثُ مستوصفاتٍ للعلاج في كلّ حيّ يقوم به المسجد، بأجور رمزية مع تيسير أدوات الفحص الطبي، ونحن نرى الآن مئات المستشفيات الملحقة بمساجد الدولة، ولكنّ الذي أنشأ هذا المرفق وبدأ بتنفيذه لأوّل مرّة هو الشيخ محمود خطاب السبكي،

ومن سنّ سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها إلى يوم الدين .

وما نقوله عن المستشفيات الملحقة بالمساجد نقوله عن فُصول التّقوية التعليمية التي كانت إحدى مهامّ المسجد، فقد شاء الأستاذ أن يكون المسجدُ صورة مصغّرة للأزهر، فدعا التلاميذ إلى الاستماع إلى دروسٍ تتصل بمقرّرات المدرسة، يكون التعليم بها مجاناً دون مقابل، ويُضاف إليها درسُ التربية الدّينية، إذ كان هذا الدرسُ مهملاً أو كالمهمّل في مدارس الدولة حينئذ.

ويذكرنا هذا بإنشائه معاهد عالية، تلحق بالمساجد لتخريج الدعاة، إذ أن خطيب المسجد المعيّن من الجمعية لا يبلغُ هذا المبلغ إلاّ بعد دُرّة وامتحان، وعليه أن يختار من أبناء الحي من يراه مناسباً لأن يكون واعظاً فيما بعد، فيشجّعه على الالتحاق بمعاهد الجمعية التي كانت تسمّى (معاهد الإمامة) ولها لائحةٌ تعليميّة ذات موادّ أصيلة في التربية الثقافية، إذ تتضمّن الفقه والحديث والتفسير والتاريخ الإسلامي والتربية الخلقيّة، ومدة الدراسة عامان يصلُ فيهما الطالب إلى مبتغى الجماعة من إنشاء هذا التعليم، ويُعقد له امتحانٌ يُقدّر مدى كفاءته العلمية!! كلّ ذلك قامت به الجمعية على نسق رتيب.

وبعضُ الناس يحاولون انتقاص هذه المدارس بمقارنتها بمدارس الجمعية الخيرية الإسلامية التي أنشأها الأستاذ الإمام محمد عبده، ولعمري هذا هو الخطأ بعينه، فقد كان للأستاذ الإمام منزلته الكبيرة لدى أغنياء الدولة وكبار الباشوات والأعيان ممن أيقظ فيهم حاسة التدبّر، ودفعهم إلى التبرع السنوي للجمعية، بل دفعهم إلى تحديد أوقاف كبيرة ذات ربح سنويّ تحفظ به الجمعية مستواها الماليّ، وطاف الأستاذ الإمام بنفسه على منازل الكبار من الأثرياء فاستجابوا إلى رجائه، وأنشئ مجلسُ الإدارة برئاسته ضاماً كبار الوجهاء من المصلحين ذوي المناصب المرموقة! وقد قامت الجمعية بواجبها المشكور، فأسست المدارس وأقامت المبرّات الخيريّة، ووزّعت أجوراً شهريّة على المعوزين والمحتاجين، وذلك فضل باهر لا ينكر.

ولكن لا يجبُ أن يكون هذا الفضلُ مدعاةً لإنكار فضلٍ آخر قام به إمامٌ مخلص لم يتيسّر له أن يعتمد على الكبار من أصحاب الجاه والنفوذ، فاعتمد على من يراهم أهل الخير من إخوانه وزملائه، وممن يعرفون إخلاصه وحرصه على النفع العام،

وشاء الله لعمله أن يُثمر في حياته وفيما بعد وفاته، حتى أصبح الآن عملاً ضخماً يحتل أرقى الأحياء، وبه الأجهزة الكاملة على أحدث طراز، وقد فترت الجمعية الخيرية على غير ما نودّ، ونهضت الجمعية الشرعية لتؤدي رسالتها بنجاح.

وقد نسيْتُ أن أتحدث عن مجهود اقتصادي باهر أشار إليه الأستاذ محمد أحمد بدوي عضو إدارة مجلس الجمعية في مقال علمي نشره بمجلة المسلم المعاصر^(١) حيث قال:

«كانت نظرة الشيخ - محمود خطاب السبكي - مترامية الأطراف، فلم يُهمل في تجربته النواحي الاقتصادية والسياسية والاجتماعية، لأنّ مشكلات التخلف يأخذ بعضها بركاب بعض، وعلاجها يتداعى فيه جزءٌ إلى جزء، فقد بدأ الاتجاه الاقتصادي بتصنيع أقمشة لدى الغير بتصميمات يضعها الشيخ بنفسه، ويختار لها الألوان، والمواد الخام، واعتمدت الجمعية وكلاء للتوزيع، ثم أنشأت مصنعاً يدوياً خاصاً بها، بدلاً من تشغيل الآلات المؤقتة التي ابتكرها الشيخ - خارج الجمعية - وأعدت معرضاً للمنتجات في مقرّها، مع بقاء الوكلاء في الأقاليم، وزادت شهرة المنسوجات وجودتها، حتى صارت تُصدّر إلى السعودية وإلى فلسطين».

هذا بعضُ الجهد الاقتصادي الذي أشار إليه الكاتب الفاضل، وفيما ذكرناه إشارةً إلى بعض نواحي الجهد الاجتماعي، أمّا الجهد السياسي، فلا تخفى معالمه، لأن الإسلام دين ودولة، فالسياسة لا يمكن فصلها عنه، ومن يظنون الإسلام علاقة بين العبد وربّه فقط ينكرون ذلك في أعماقهم - إن كانوا مسلمين - ولكنهم يجهرون بغير ما يعتقدون رغبةً في نفع عاجل، أو خضوعاً لرؤساء يرون فيهم النفع الخاص لهم، وهم في كلّ ذلك أذنان لا رؤوس.

وقد ارتاب الاحتلال الإنجليزي بدروس الشيخ منذ بدأ يلقيها بالجمعية الشرعية، وقام الدّخلاء بمراقبة هذه الدروس، ثم بادروا بالقبض عليه توهماً لمراسلات بينه وبين تركيا عاصمة الخلافة الإسلامية، وتمّ تفتيش منزله بحثاً عن هذه المراسلات، وأودع السجن بغيّاً وعدواناً، فظلّ مُضرباً عن تناول الطعام، حتى علمت أسرته،

(١) مجلة المسلم المعاصر: العدد ٤٩، سنة ١٤٠٨هـ، ص ١٣٧.

فكانت تنفذُ إليه ما يقوته بمجاهداتٍ شاقة في هذا السبيل، وظلّ معتقلاً ثلاثة أشهر، دون تحقيق، لأنّ الأدلة اليقينية مفقودة.

ولما قامت الحرب العالمية الأولى أصدر الحاكم العسكري قراراً يمنع الشيخ عن مزاوله عمله بالجمعية والمسجد، وأوقفت تبعاً لذلك محاضر جلسات الجمعية، وكلّ ذلك لم يمنع الشيخ من المناداة بضرورة الاحتكام إلى كتاب الله، ومنع القوانين الأجنبية، كان يهتف بذلك في جميع دروسه، ثم سجّل رأيه الصريح في الجزء الخامس من (الدين الخالص) حيث قال^(١):

«إنّ المسلمين الآن تحت سيطرة غيرهم، لأنهم لم يقيموا الدين كما أمروا، بل أفرطوا في تقليد الأجنبي في الضارّ دون النافع، فقلّدوه في أكل الربا وشرب الخمر، وإباحة الزنا والتبرُّج، وخروج النساء واستحمامهنّ في البحار، بل قلّدوهم في الحكم بالقانون الوضعي، ونبد الحكم بالقانون السماوي، ولم يرتدعوا بقول الله عز وجل: ﴿وَمَنْ لَّمْ يَخُضْ بِمَا أُنْزِلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾ [المائدة: ٤٤]، وتركوا ما أمرهم مولاهم به في قوله: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهَبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾ [الأنفال: ٦٠]، فخذلهم الله وسلّط عليهم من لا يرحمهم، والانتصار على الأجنبي خاصٌّ بمن نصر دين الله وتمسّك به، وسلك طريق النبي ﷺ، فقد قال الله تعالى: ﴿إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ [محمد: ٧٠]، وقال ﴿إِنَّا لَنْنَصُرَنَّ الَّذِينَ وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهُدُ﴾ [المؤمن: ٥١] فنصر الدين من الإيمان».

وقد أشار الأستاذ أحمد حسين في كلمته السابقة إلى جهاد بعض أعضاء الجمعية الشرعية - الشيخ أحمد جاد - وليس وحده الذي قدم رُوحه فداء لوطنه، فقد تحدث الدكتور محمد مورد بمجلة المختار^(٢) عن جهودٍ مماثلة لنفر من الأعضاء منهم المجاهد إبراهيم موسى الذي كان بين عمّال العنابر الذين أوقفوا حركة المرور بالسكة الحديدية، وكان أميناً للصندوق المالي للعمال، وآتهم في حادث قتل السردار الإنجليزي، وحُكم عليه بالإعدام، ولم يجزع وقابل الشهادة باستبشارٍ.

(١) الدين الخالص: ٢١٧/٥ وما بعدها.

(٢) مجلة المختار الإسلامي: رمضان، سنة ١٤٠٨هـ.

وحديث إضراب العمال بقيادته وقيادة زميله أحمد جاد مشتهر، أشار إليه الزّافعي في كتابه عن ثورة سنة ١٩١٩، وكان أقوى تأثيراً من المظاهرات التي اندفعت تلقائياً في القاهرة وشتّى عواصم البلاد، لأنّه جعل الإنجليز يعجزون عجزاً تاماً عن استتباب الأمن، وبأمثاله رجعوا عن تكريس الاحتلال.

كما أشار الدكتور محمد مُورد إلى أثرين بارزين في الاتجاه السياسي للجمعية، إذ أزعجها أن يتدخل المستعمرون الإنجليز بفلسطين ضدّ العرب فينحازوا جهازاً إلى الصهيونية المحتلّة، وقد داهموا المنازل وتركوا أهلها في العراء فقامت الجمعية الشرعيّة بإرسال كمّيّة من المنسوجات إلى بيت المقدس لتوزيعها على المنكوبين في فلسطين، وأرسلت الطّروود العاجلة بطريق سكة حديد (مصر - فلسطين) وتلقّى مجلس إدارة الجمعية رسالة محرّرة في ١٧ من رجب سنة ١٣٤٩، الموافقة ١٤ من ديسمبر سنة ١٩٣٠ موقّعة عليها من رئيس المجلس الأعلى الإسلامي السيد محمد أمين الحسيني يشكّر الجمعية على ما قامت به. وفي الأربعينيات فتحت الجمعية مجال التبرعات للشعب الفلسطيني، وقامت بجهدا قدر المستطاع في هذا المجال، هذا هو الأثر الأول.

أما الأثر الثاني فما قامت به الجمعية من إعلان المقاطعة الاقتصادية التامة لكلّ ما يُصنع في إنجلترا، ويُرَد إلى مصر من الأدوات والملابس، وقام الوعاظ التابعون للجمعية بنشر الدعوة إلى المقاطعة، واستجاب لها فريق كبير من أبناء الشعب، كما شنت الجمعية حرباً على الترف الزائد في استعمال أدوات التجميل وأزياء التبرّج الوافدة من الغرب، وأظهرت أنّ المتاجر العربيّة ستعرّض للبوار إذا اندفع الناس في شراء هذه الكماليات، وتركوا ما بالمتاجر العربيّة من ملابس الاحتشام والفضيلة مع رخص الثمن، بالإضافة إلى غلائه في الأدوات الوافدة، وهي مما يهونُ تركه دون احتياج.

ولا أثقلَ لديّ من المقارنة الظالمة بين مصلح ومصلح، لأنّ زعماء الإصلاح جنودٌ في ركب الزحف الإسلامي إلى الإمام، وكلّ زعيم يبذل جهده قدر المستطاع، فإذا وُفق زعيم لأكثر مما وُفق إليه سواه، فلا يجوزُ لنا أن نحاول الغصّ من مقامه ليكون الجميع في مستوى واحد، والأعمال بالنيات، وربّ عملٍ صغير يكون أجره عند الله أوفى من عمل يكبره، فمراعاةُ الحق المنصف أولى وأجدر بمن يكتبون عن

جهاد المصلحين، فقد تعرّض الأستاذ محمد أحمد بدوي في مقاله (تجربة الجمعية الشرعية بالقاهرة) المنشور بمجلة المسلم المعاصر^(١) إلى موازنة بين أثر الإمام محمد عبده وأثر الإمام محمود خطاب السبكي، فقال فيما قال:

«أما الأفغاني ومحمد عبده فإن دعوتهما لم تصل إلى الشعب، كان عمل الشيخ محمد عبده كصرخة في واد أو كمثل رخّات من المطر أصابت صحراء واسعة امتصّت الماء فلم تُثمر شيئاً، ولكنّ عمل الشيخ محمود خطاب قد روى بمائه الذي كان قليلاً قطعة أرضٍ صغيرة، فظهر أثره فيها، فأنبتت وآتت أكلها، وساعد ما نتج منها على استصلاح قطعةٍ أخرى وساعدت الاثنان على استصلاح ثالثة، وهكذا تولدت قوةٌ ذاتيةٌ للدعوة إلى الإصلاح».

وكانَ الكاتب رأى في انتشار الجمعيات الشرعية بالمدن والقرى سبقاً لم يصل إليه الإمام محمد عبده، وقد نسي أن انتشار فضائل الإسلام في جميع الصحف والمجلّات الإسلامية لآلاف القراء كان بفضل محمد عبده، الذي هاجم أعداء الإسلام حين رموه بالتأخّر والجمود ومحاربة العقل وأنه سبّب التقهقر في بلاد الإسلام، وكاد كثيرٌ من المخدوعين أن يُصدّقوا هذا الإفك، لولا أن حمل الأستاذ الإمام لواء الدفاع عن الإسلام، وأيقظ العقول من نومها حين فتح العيون على مجدٍ فكريٍّ وحضاريٍّ للإسلام لم يعرفوه، فما جاء من بعده مدافعٌ عن الإسلام إلّا رشف من مورده، وأكل من ثمره، ومنهم الإمام محمود خطاب، وإذا وُجد لدينا نفرٌ من كتّاب العقيدة الإسلامية كرشيد رضا وجاويش، وشكيب أرسلان ومحبّ الدين الخطيب، ومحمد مصطفى المراغي ومحمد الخضري، وعبد الوهاب النجار ومن لا أستطيع أن أحصيهم فكلّهم قد خرجوا من عباءة الإمام، أمّا إصلاح الأزهر وخروجه إلى النور من الظلمات فلم يتمّ بغير السير على منهج الإمام الذي رسمه، وحالت الأغراض دون تنفيذه، حتّى جاء الإمام المراغي فاقتفاه ونقله إلى الوجود الحيّ، واعترفَ بذلك في حفلة التكريم التي أقيمت له بعد عودته الثانية إلى مشيخة الأزهر الشريف، أفيقالُ بعد ذلك كله: إنه ماء نزل في صحراء!!!.

* * *

(١) المسلم المعاصر: محرم، سنة ١٤٠٨هـ.

مصطفى حسني السباعي المحدث المكافح البطل . . .

- ١ -

حين بدأت مقالاتي عن أعلام النهضة الإسلامية تظهر في المجلات الدينية والأدبية، طلب مني نفرٌ من أفاضل القراء أن أتحدث عن الدكتور المجاهد الفقيه مصطفى حسني السباعي، وأنا على صلة قوية بمؤلفاته القيمة، وأقدر جهاده المتصل في سبيل الله والإسلام حتى لقي ربه الكريم، ولكن ظروف حياته العملية والعلمية لم تكن من الوضوح لديّ بحيث أتحدث عنه في ثقة، وقد أخبرني بعض الزملاء أن مجلة حضارة الإسلام بدمشق قد أصدرت عدداً حافلاً بتاريخه وجهاده، قام الأستاذ الدكتور محمد أديب الصالح على نشره محتفلاً محتشداً، فبذل جهداً كبيراً، فحاولتُ العثور عليه دون جدوى .

وتوالى الطلب المُلح بكتابة الترجمة فأنقذني الله بكتاب (علماء ومفكرون عرفتهم) للأستاذ الأديب الشاعر المعروف محمد المجذوب، وبه ترجمةٌ للدكتور السباعي ترسمُ خطوط نشأته، وفرحتُ بما كتب الأستاذ المجذوب، واتخذتُ منه تكاةً لهذا البحث المتواضع حيث أمدّني بموجزٍ دقيق عن حياة الفقيه العزيز .

لقد وُلد مصطفى في بيت علم وفضل بحمص سنة ١٣٣٣هـ، وكان أبوه خطيب الجامع الكبير، وله مجالس علمية يعقدها بالمسجد وبمنزله، وله تلاميذٌ من الشبيبة المثقفة يأخذون العلم الديني على يده، وليس أبوه وحده رجل العلم في أسرته، بل إن أعمامه وأخواله من ذوي الفضل والفضيلة، وقد تفتحت عينا الابن الناشئ ليرى مكانة والده في العلم، وليسمع عنه أنّه من مجاهدي الميدان في حرب الفرنسيين حين ناوؤوا البلاد وداهموها بغطرستهم المنكرة! وقد أوقعوا الرعب في قلوب

الأعداء، وهم قلة أمام كثرة مسلحة بالقذائف والدبابات .

ويا لها بطولة فذة يسمع عنها الناشئ معجباً، فيطمح إلى مساماة والده علماً وجهاداً، لقد حفظ القرآن قبل أن يلتحق بمدارس الدولة المدنية، فاكسب وقاية واقية من الانحراف، وجرى البيان على لسانه غلاماً فصعد إلى المنبر يخطب الناس كما يخطب أبوه، وكان يستعد للموقف أطيب استعداد، فبشرت مبادئه بما سيكون في مستقبله، وقرّ الوالد عيناً حين رأى امتداده العلمي يتصل بنجمله الطامح .

وواصل الدراسة بالمدرسة مع دراسة أخرى تهيئها له مكتبة أبيه، فشب كما شب أديب الشام الكبير الأستاذ علي الطنطاوي مژوداً بثقافتين، ومحارباً في جهتين، ودعاه الظمأ العلمي إلى الالتحاق بكلية الشريعة بالأزهر الشريف، وقد التحق بالكلية عالماً بذخيرته التي اكتسبها من مكتبة أبيه، قبل أن يكون طالباً يقرأ الدروس مع زملاء قد سبقهم تحصيلاً واستيعاباً، ولا أقول ذلك رجماً بالغيب، ولكن آثار الشاب في هذه الفترة تؤكد ما أقول، لقد كان طالب الأزهر يكتب المقالات الحارة ذات الوهج المشتعل في مجلة (الفتح) التي يقوم على تحريرها الأستاذ المجاهد محب الدين الخطيب .

ولصاحب الفتح فراسة في الناس كباراً وصغاراً، وقد كوّن حوله طائفة من الشباب المتحمّس لدينه ليكونوا كتيبة مجاهدة في ميدان الدعوة الإسلامية، إذ لم تكن (الفتح) مجلة علمية تظهر حافلة بدروس التفسير والحديث، وتراجم مشاهير الصحابة، كما نرى في مجلات كثيرة، لا تكاد تفرق بين موضوعاتها، وموضوعات كتاب علمي يؤلفه باحث مطلع، ويدعه للمشتري إن شاء قرأه وإن شاء طواه، بل كانت مجلة (الفتح) كهيئة توجيهية ينتسب إليها ذوو الغيرة من حماة الإسلام، وعميدها الكبير أستاذ يؤجّه ويُلهم، لا إداري ينظر في مرافق الكسب والذبوع .

كانت مجلة الفتح لسان العالم الإسلامي في شتى ربوعه، تكشف مساوئ الاستعمارين الفرنسي والإنجليزي في بلاد الإسلام، وكثأثها يسيرون خلف مديرها يحاكونه فيما يكتب، وقد دفعهم إلى الإلمام بالمحيط الإسلامي العام في الجزائر وتونس ومراكش وليبيا ومصر والشام والعراق والهند وأندونيسيا، حتى لكأن هذه البلاد دولة واحدة لا عدة دول تتفرق وتتباعد في أرض الله ذات الطول والعرض !

لقد فسحت مجلة الفتح صفحاتها لمصطفى السباعي، فكتب المقالات الضافية عن فلسطين، وعن مآسي الاستعمار في سورية ولبنان والعراق، ومن هنا تيقظت روحه الإسلامية لتنتقل في مداها الفسيح.

هذه الغيرة السياسية جاورتها لدى طالب كلية الشريعة غير علمية شديدة الحماسة أيضاً، فقد كان يرقب المؤلفات الدينية لينقدها إذا انحرفت عن الصواب، وقد بدا من تعمقه الدقيق فيما يناقش من مسائل الحديث والتشريع ما كان موضع الابتهاج والفرحة حقاً، وأضرب المثل بنقده العلمية على صفحات الرسالة للباحث الكبير الأستاذ أحمد أمين، حيث قرأ الطالب المجتهد ما كتبه الباحث الذائع الصيت في ضحى الإسلام وفي فجر الإسلام، ورأى من الأقوال المندفعة ما يدعو إلى التصويب، والدكتور أحمد أمين باحث نزيه الغرض، وكنت مع الذين يحاولون أن يلجؤا الضمائر ليقولوا عن ميوله ما هو بريء منه، إن كل مؤلف كبيراً كان أو صغيراً معرّض للخطأ، وطريق التصحيح هو النقد الهادف النزيه، وهو ما انتحاه طالب كلية الشريعة مع عميد كلية الآداب حينئذ على صفحات الرسالة، وأظن القارئ قد تشوّق إلى استجلاء بعض ما قام به مصطفى السباعي في مناقشة الأستاذ أحمد أمين.

١ - لقد تحدّث صاحب فجر الإسلام عن الوضّاعين في الحديث فقال: «وبعضهم كان سليم النية يجمع كل ما أناه، على أنّه صحيح، وهو في ذاته صادق، فيحدّث بكل ما سمع فيأخذُه الناس عنه مخدوعين بصدقه، كالذي قيل في عبد الله بن المبارك، إنه ثقةٌ صدوق اللسان، ولكنه يأخذ عمّن أقبل وأدبر».

وقد ردّ السباعي فبيّن خطأين في هذه العبارة، الخطأ الأول، أن الوضّاع في الحديث من ينسب إلى رسول الله ﷺ قولاً لم يقله، أما سليم النية فليس من الوضّاع، حتّى يتحدث عنه المؤلف بهذه الصفة، والخطأ الثاني أنه جعل ابن المبارك من المحدثين ذوي الغفلة الذين لا يفرقون بين الغث والسمين، وابن المبارك ليس كذلك، فهو من الأوائل الذين عنوا بنقد الرجال، ولم يرو إلا عن الثقات من الشيوخ، وفي كتب الحديث التي سردها الأستاذ السباعي ما ينطق بذلك!

أما كيف وقع الأستاذ أحمد أمين في هذا الخطأ فقد أوضح الناقد أنه - أي الأستاذ أحمد أمين - قرأ في صحيح مسلم هذا النص: «حدثني قهزار قال: سمعتُ

وهباً يقول عن سفيان عن ابن المبارك قال: (بقية) صدوق اللسان، ولكنه يأخذُ عنمن أقبل وأدبر». فابن المبارك يتحدث عن محدث اسمه بقية بن الوليد الحمصي، ولكن الأستاذ أحمد قد نسي كلمة (بقية) وظنَّ الحكم راجعاً إلى ابن المبارك، فأسند إليه ما هو بريء منه، لأن ابن المبارك من أئمة المحدثين الثقات^(١).

٢ - جاء في فجر الإسلام ص ٢٦٧، أن البخاري على جليل قدره، ودقيق بحثه، أثبت أحاديث دلت الحوادثُ الزمنية على أنها غير صحيحة، واستشهد لذلك بحديث «لا يبقى على ظهر الأرض بعد مئة سنة نفس منفوسة».

وقد أورد الأستاذ السباعي النص الذي رجع إليه أحمد أمين وهو هذا؛ صَلَّى النبي ﷺ صلاة العشاء في آخر حياته فلما سَلِمَ، قال: «أرايتكم ليلتكم هذه، فإن رأس مئة لا يبقى ممن هو اليوم على ظهر الأرض أحد» كما رواه مسلم، ولكن البخاري قد اختصر، فأسقط كلمة (اليوم) يريدُ الرسولُ أن يقول: إذا مرّت مئة عام فلن يبقى أحد ممّن على ظهر الأرض الآن! وهو كلام صحيح، وقد قال الإمام النووي بصده: «إن هذا الحديث من أعلام النبوة إذ أخبر فيه الرسولُ بأن كل نفس كانت تلك الليلة على الأرض لا تعيش بعدها أكثر من مئة سنة، وكان الأمر كذلك». ثم نقل الناقد رواياتٍ أخرى تؤكد رواية مسلم، ودلّل فأحسن التدليل في بسط شافٍ مستوعب^(٢).

٣ - قال الأستاذ أحمد أمين في فجر الإسلام عن أبي هريرة رضي الله عنه: «والحنفية يتركون حديثه أحياناً إذا عارض القياس كما فعلوا في حديث المصراة».

وقد ردّ الأستاذ السباعي بأن القول بأن الحنفية جميعهم يقدّمون القياس على حديث أبي هريرة إذا عارضه لا يخلو من نظر لأن أبا حنيفة وصاحبيه وجمهور الحنفية على أن الخبر مقدّم على القياس مطلقاً، سواء كان الراوي فقيهاً أو غير فقيه، ولكن من ذهب إلى ذلك فخر الإسلام وبعضُ تابعيه، ومن هذا يتبين أن جمهور الحنفية على غير هذا الرأي.

وكعاداته وضح الناقد مأتى الخطأ في قول الأستاذ أحمد أمين، حيث اعتمد على

(١) مجلة الرسالة: العدد: ٣٦٧، ١٥/٧/١٩٤٠.

(٢) مجلة الرسالة: العدد ٣٦٨، ٢٢/٧/١٩٤٠.

كتاب (مسلم الثبوت وشرحه) وفهم منه ما يدلّ على أن القول راجعٌ إلى الحنفية مع أن النصّ يُوحى بأنه راجع إلى فخر الإسلام^(١)، وقد حاولتُ أن ألخص هذه النقاط، لأنّ الإتيان بكلّ ما قال الطالب المجتهد سيخرجُ بالبحث عن نطاقه، وهذا الاهتمامُ بالحديث في دور النشأة كان إرهاباً قوياً يدلّ على ما سيّجه إليه الدكتور السباعي من التبخر في علوم السنة فيما بعد، حيثُ ستكونُ مجالَ تخصصه العلمي، وقد كتب رسالة الدكتوراه عن السنة النبوية وتدوينها، فبلغ في هذا المجال مبلغاً كان السابق المجليّ فيه، حيثُ تبعه كثير من الباحثين حين لمسوا سلامة المنهج، وقوة الاستنتاج، ووضوح الدليل، وهذا نجاحٌ لا يتحقق إلا بتوفيق كبير من الله، فهو الملهم إلى الصراط القويم.

ولكي يطرد الكلام في مجراه المتّصل دون انفصال، فسأعجل بالحديث عن (السنة ومكانتها في التشريع الإسلامي) وهي التي نال بها درجة الدكتوراه، والتأليف في السنة قديماً وحديثاً لا يقف عند حد، ولكنّ الدكتور السباعي لم يأت بالمكرّر المعاد، وإنما وقف عند قضايا غامضة ليجلوها أصقل الجلاء، هذه الوقفات هي التي تضيف الجديد للبحث العلمي حيث تُفصل مجملات، أو تُبين غامضاً، أو تنقّض باطلاً شائعاً لا يعرف الدارسون مدى بطلانه، وإذا كان المستشرقون قد وجّهوا سهامهم إلى السنة، وتبعهم من المسلمين من طمس الله على بصائرهم، فإن رسالة السباعي قد فضحت الذين اتّبَعوا والذين اتّبَعوا معاً، وبيّنت النوازع الحاقدة التي دفعت المتبوعين إلى الافتراء الصارخ، حين تلمّسوا الشبهات تلمّساً، وأرجفوا بكبار الصحابة واهمين، كما شرحت دوافع التابعين ممن يروّقهم أن يردّدوا أسماء أوروبية تباهياً بالمعرفة، وخضوعاً إلى مركّب النقص الذي يُضائلهم أمام نفوسهم، كما ضاء لهم أمام الحُصفااء من القارئين.

ومن أطرف الأبواب التي قرأتها في الرسالة ما كتبه الدّارس تحت عنوان (هل حبس عمر أحداً من الصحابة لإكثاره الحديث) إذ الشائع في كثير من الكتب التّراثية أنّ الفاروق رضي الله عنه قد حبس ابن مسعود وأبا الدرداء وأبا ذر حين رَووا أحاديث رسول الله! وكنتُ أقرأ ذلك فأزدادُ حيرةً، لأنّ الثلاثة الكرام من أفاضل الصحابة، ولهم برسول الله وثيقة متينة تدعوهم للرواية عنه، فكيف يفعلُ الفاروق

(١) مجلة الرسالة: العدد ٣٧١، ١٢/٨/١٩٤٠

ذلك، وقد كان أدرى الناس بصحابة رسول الله؟ لقد تتبّع السباعي القضية الشائكة تتبّعاً ذكياً مستنيراً، وكان مفتاح بابها ما رواه ابن حزم من الشكّ في الرواية، وأنها منقطعة غير متصلة، ولأنّها لا تخلو من اتهام الصحابة، وهذا غير معقول! وفي حومة الجدل تعرّض السباعي إلى ما قيل من أن بعض الصحابة كان يردّ رواية الصحابي الواحد، فنفي ذلك بأدلة من النصوص الصريحة لا تقبل الدفع، وأطال في ذلك إطالة حميدة يُحسبُ له ثوابها عند الله، إذ كانت فتحاً جديداً في تاريخ الحديث، وانتهى من ذلك كله إلى قوله: «إنّ الثابت الصحيح من عمل أبي بكر وعليّ أخذهم بخبر الواحد فقط، أمّا الحالات التي تطلّبت الرجوع إلى صحابيّ آخر أو استحلافه فلا تستلزم أن تكون مذهباً عاماً وخطة مقررّة، وعلى ذلك التقى عمر بأبي بكر وعليّ، ولنّ يجحد مكانتهم في الإسلام إلّا كفور».

ومن إنصاف السباعي حديثه عن موقف الخوارج من الحديث، حيث أشار بعض المتسرّعين إلى أنّهم كانوا يضعون الأحاديث منسوبةً إلى رسول الله ﷺ ترويحاً لمذهبهم، وقد يفعل ذلك غير الخوارج كما ثبت حقّاً عند بعض الطوائف، ولكنّ المؤلف يرى أن الخوارج لم يكونوا يستحلّون الكذب على الناس، ويعتدّون الكاذب كافراً، فكيف يكذبون أنفسهم، وعلى من؟ على رسول الله! وقد كانوا مع تهوّرهم القتالي، واندفاعهم السياسي على جانب عظيم من التقوى والورع، وقد انتهى المؤلّف في هذه القضية بعد أن أشبعها تحليلاً إلى قوله: «لقد كنتُ أتمنّى أن أعثر على دليل علميّ واحد، يؤيد نسبة الوضع إلى الخوارج، ولكنّي رأيت الأدلة العلمية على العكس تنفي عنهم هذه الشبهة، فقد كان الخوارج يكفّرون مرتكب الكبيرة، أو مرتكب الذنوب مطلقاً، والكذب كبيرة فكيف يقعون فيها مع رسول الله نفسه! وكانوا في جمهرتهم عرباً أقحاحاً، لا يقبلون الدسائس، صرحاء يواجهون الخصم بما تعتقدون، وكلّ ذلك يدل على أنّهم من الكذب بمكان بعيد».

أمّا انتقاد المؤلف لأمراء المؤمنين في العصر العباسي الذين استحلّوا رواية الأحاديث الموضوعية ترويحاً لسياستهم وتثبيتاً لمكانتهم، فمما انتقده الدارس انتقاداً حاسماً، وقال في صراحة: «إنّ هذه المواقف مما يُحاسبُ الله عليها هؤلاء الخلفاء لأنّهم اشتدوا في تعقّب الزنادقة والخارجين على حكمهم، تعقبوهم قتلاً وتشريداً وإغراقاً وخنقاً، ليحتفظوا بالملك لأنفسهم، ولم يفعلوا عشر ذلك مع الكذابين

والوَضَّاعِينَ الَّذِينَ اسْتَحَلُّوا الْكَذِبَ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ إِرْضَاءً لَأَهْوَائِهِمْ!».

هذه فقراتٌ تدل على تحقيق السَّباعي العلمي، وقد بسط جزءاً من رسالته لتفنيد آراء شيخ مُعاصر، أصدر كتاباً سماه (أضواء على السنة المحمدية) وصاحبُ هذا الكتاب في رأيي لا يستحقُّ الالتفات إليه فليس بذي أصالةٍ في العلم، ولكنه يقرأ روايات لا يعرفُ مبلغها من الكذب أو الصحة، فيفرحُ بكلِّ رواية تدلُّ على توهين السنة، ويخفي كلَّ أثر يُثبت أصالة ما رُوي عن رسول الله، وقد غشه قومٌ يدعون التحزُّر الفكري، وهم لا يعرفون شيئاً عن كتب الحديث ولا عن المحدثين، فتباهى بتشجيعهم، مع أنَّ شهادتهم مرفوضة لجهلهم ما يتحدثون عنه، ومن آياتِ تدليسه أنَّه سعى إلى الدكتور طه حسين ليتحدَّث عن كتابه في مقالٍ يضمن له السيورة، وليس الدكتور طه بذي قدم في علم الحديث، ولكنه استجاب وكتب عن مؤلِّفه مقالاً بالجمهورية، نصَّفه ثناءً، ونصفه تجريحاً.

أَوْ يَذْري القارىء ما صنع المؤلِّف الغاشِّ بكلام طه حسين؟! لقد جعل من حديث المدح مقدمةً للطبعة الثانية من كتابه، وأغفل حديث التجريح إغفالاً تاماً! كدأبه حين يُظهر أحاديث ضعيفة ويخفي أحاديث قويّة! ولو كان الرجل ذا حصافة لعلم أنَّ مقال الدكتور قد نُشر في صحيفةٍ يوميةٍ سيّارة، وأنَّ القراء قد وقفوا على كلِّ شيء فيه! وكان عليه أن ينشره جميعه ثم يُعقِّب عليه بما يوضِّح وجهة نظره على الأقل، ولكنه خادع الناس فلم يخذعوا، أقول: لو كنْتُ مكان الأستاذ السباعي لما بسطْتُ هذه الصفحات الممتدة في الردِّ على إنسان لا يعرف ماذا يقول! وكأنَّه رأى بعض الأقلام الشهيرة قد انخدعت به فأثر نقده، ولم ينقد فقط، بل دكَّ الكتاب دكاً حتى سواه بالتراب.

وبمناسبة حديث السنة، أقول: إنَّ للدكتور السباعي مؤلِّفاً موجزاً عن السيرة النبوية الكريمة، وقد قرأتُ نقداً له، خلاصته أنَّه ردَّد الذائع المعروف، ولم يأت بجديد، وأحبُّ أن أقول للناقد الفاضل: إنَّ السباعي رحمه الله لم يردِّ أن يكتب سيرة رسول الله، ولكنه شاء أن يعرض أحداث السيرة موجزةً ليعقِّب على كلِّ حدثٍ بما يؤخذ منه، وبما يُستنبط من مدلوله تشريعياً وتربوياً، فهو كتابٌ تهذيب وتربية، وليس كتاب سيرة مستقلة! ولن يُعجز المؤلِّف أن يكتب مئات الصفحات عن رسول الله ﷺ، ولكنه رأى أن يتَّخذ من أشهر مواقفه الكريمة ما يصلح قدوةً للقارىء

ذلك، وقد كان أدرى الناس بصحابة رسول الله؟ لقد تتبّع السباعي القضية الشائكة تتبّعاً ذكياً مستنيراً، وكان مفتاح بابه ما رواه ابن حزم من الشكّ في الرواية، وأنها منقطعة غير متصلة، ولأنّها لا تخلو من اتهام الصحابة، وهذا غير معقول! وفي حومة الجدل تعرّض السباعي إلى ما قيل من أن بعض الصحابة كان يردّ رواية الصحابي الواحد، فنفي ذلك بأدلة من النصوص الصريحة لا تقبل الدفع، وأطال في ذلك إطالة حميدة يُحسبُ له ثوابها عند الله، إذ كانت فتحاً جديداً في تاريخ الحديث، وانتهى من ذلك كله إلى قوله: «إنّ الثابت الصحيح من عمل أبي بكر وعليّ أخذهم بخبر الواحد فقط، أمّا الحالات التي تطلّبت الرجوع إلى صحابيّ آخر أو استحلافه فلا تستلزم أن تكونَ مذهباً عاماً وخطة مقررّة، وعلى ذلك التقى عمر بأبي بكر وعليّ، ولنّ يجحد مكانتهم في الإسلام إلّا كفور».

ومن إنصاف السباعي حديثه عن موقف الخوارج من الحديث، حيث أشار بعضُ المتسرّعين إلى أنّهم كانوا يضعون الأحاديث منسوبةً إلى رسول الله ﷺ ترويحاً لمذهبهم، وقد يفعلُ ذلك غير الخوارج كما ثبت حقّاً عند بعض الطوائف، ولكنّ المؤلف يرى أن الخوارج لم يكونوا يستحلّون الكذب على الناس، ويعتدّون الكاذب كافراً، فكيف يكذبون أنفسهم، وعلى من؟ على رسول الله! وقد كانوا مع تهوّرهم القتالي، واندفاعهم السياسي على جانبٍ عظيم من التقوى والورع، وقد انتهى المؤلف في هذه القضية بعد أن أشبعها تحليلاً إلى قوله: «لقد كنتُ أتمنّى أن أعثر على دليلٍ علميّ واحد، يؤيّد نسبة الوضع إلى الخوارج، ولكنّي رأيت الأدلة العلمية على العكس تنفي عنهم هذه الشبهة، فقد كان الخوارج يكفّرون مرتكب الكبيرة، أو مرتكب الذنوب مطلقاً، والكذبُ كبيرةٌ فكيف يقعون فيها مع رسول الله نفسه! وكانوا في جمهرتهم عرباً أقحاحاً، لا يقبلون الدّسائس، صرحاء يواجهون الخصم بما تعتقدون، وكلّ ذلك يدل على أنّهم من الكذب بمكانٍ بعيد».

أمّا انتقادُ المؤلف لأمراء المؤمنين في العصر العباسي الذين استحلّوا رواية الأحاديث الموضوعية ترويحاً لسياستهم وتثبيتاً لمكانتهم، ممّا انتقده الدارس انتقاداً حاسماً، وقال في صراحة: «إنّ هذه المواقف مما يُحاسبُ الله عليها هؤلاء الخلفاء لأنّهم اشتدوا في تعقّب الزنادقة والخارجين على حكمهم، تعقّبهم قتلاً وتشريداً وإغراقاً وخنقاً، ليحتفظوا بالملك لأنفسهم، ولم يفعلوا عشر ذلك مع الكذابين

والوَضّاعين الذين استحلّوا الكذب على رسول الله إرضاء لأهوائهم!».

هذه فقراتٌ تدل على تحقيق السّباعي العلمي، وقد بسط جزءاً من رسالته لتفنيد آراء شيخ مُعاصر، أصدر كتاباً سماه (أضواء على السنة المحمدية) وصاحبُ هذا الكتاب في رأيي لا يستحقُّ الالتفات إليه فليس بذي أصالة في العلم، ولكنه يقرأ روايات لا يعرفُ مبلغها من الكذب أو الصحة، فيفرحُ بكلِّ رواية تدلُّ على توهين السنّة، ويخفي كلّ أثر يُثبت أصالة ما رُوي عن رسول الله، وقد غشّه قومٌ يدعون التحزّر الفكريّ، وهم لا يعرفون شيئاً عن كتب الحديث ولا عن المحدثين، فتباهى بتشجيعهم، مع أنّ شهادتهم مرفوضة لجهلهم ما يتحدثون عنه، ومن آياتِ تدليسه أنّه سعى إلى الدكتور طه حسين ليتحدّث عن كتابه في مقالٍ يضمن له السيورة، وليس الدكتور طه بذي قدم في علم الحديث، ولكنه استجاب وكتب عن مؤلّفه مقالاً بالجمهورية، نصّفه ثناءً، ونصفه تجريحاً.

أو يذري القارئ ما صنع المؤلّف الغاشّ بكلام طه حسين؟! لقد جعل من حديث المدح مقدّمةً للطبعة الثانية من كتابه، وأغفل حديث التجريح إغفالاً تاماً! كدأبه حين يُظهر أحاديث ضعيفة ويخفي أحاديث قويّة! ولو كان الرجل ذا حصافة لعلم أنّ مقال الدكتور قد نُشر في صحيفةٍ يوميةٍ سيّارة، وأنّ القراء قد وقفوا على كل شيء فيه! وكان عليه أن ينشره جميعه ثم يُعقّب عليه بما يوضّح وجهة نظره على الأقل، ولكنه خادع الناس فلم يندعوا، أقول: لو كنتُ مكان الأستاذ السباعي لما بسطتُ هذه الصفحات الممتدّة في الردّ على إنسان لا يعرف ماذا يقول! وكأنّه رأى بعض الأقلام الشهيرة قد انخدعت به فأثر نقده، ولم ينقد فقط، بل دكّ الكتاب دكاً حتى سواه بالتراب.

وبمناسبة حديث السنّة، أقول: إن للدكتور السباعي مؤلّفاً موجزاً عن السيرة النبوية الكريمة، وقد قرأتُ نقداً له، خلاصته أنّه ردّد الذائع المعروف، ولم يأت بجديد، وأحبّ أن أقول للناقد الفاضل: إنّ السباعي رحمه الله لم يرذ أن يكتب سيرة رسول الله، ولكنه شاء أن يعرض أحداث السيرة موجزةً ليعقّب على كلّ حدثٍ بما يؤخذ منه، وبما يُستنبط من مدلوله تشريعياً وتربوياً، فهو كتابٌ تهذيب وتربية، وليس كتاب سيرة مستقلة! ولن يُعجز المؤلّف أن يكتب مئات الصفحات عن رسول الله ﷺ، ولكنه رأى أن يتخذ من أشهر مواقفه الكريمة ما يصلح قدوةً للقارئ

بوجه عام، وللشباب المتطلّع بوجه خاصّ، وقد وُفّق فيما اختاره، وأصبح كتابه ثابت المكانة في مجال التربية والتّهذيب!.

- ٢ -

شغلنا حديثُ السنة النبوية في إنتاج السباعي عن الحديث الشائق عن جهاده العظيم في حقلي التربية والدعوة الإسلامية، ففي حقل التربية بدأ حياته التعليمية مُدرّساً بإحدى مدارس حمص الثانوية، وللشباب الملتزم رسالةً عربية إسلامية لا بدّ أن يقوم بها بين طلابه، ولكن مجاله محدّد بالمنهج الدراسي، المنهج الذي لا يخصّ الشريعة الإسلامية واللغة العربية والتاريخ الإسلامي بما ينشئ شباباً عرباً مسلمين، يخطّون طريق العزّة على الوجه الصحيح، إن هذه الموادّ الأصيلّة تعيشُ على هامش المناهج، ولا تدخلُ في صميمها، لأنّ القائمين على رسم المناهج في بلاد العرب بالأقطار المحتلّة، لا تهتمّهم هذه الموادّ الأصيلّة، ولولا الحياء لانتزعوها انتزاعاً، لذلك عمل المدرّس الطامح على إنشاء المعهد العربي بدمشق، ليقدم الغذاء الجيّد للطلبة في هذه المرحلة الدقيقة من حياتهم، وبالفعل ساعد المعهد الناشئ ببرامجه التّهديبيّة، وبروحه الإسلامي الخالص على تكوين أفواج من الشباب شعارهم هذا البيت الحماسي :

نحن الذين بايعوا محمداً على الجهاد ما بقينا أبداً

ثم أتاحَتْ للأستاذ درجة الدكتوراه أن ينتقل إلى التدريس بكلية الحقوق، فكان من حظّه أن يرى كثيراً من طلاب المعهد العربي قد التحقوا بالكلية، ومعهم روح المعهد التي بثّها السباعي فيهم، فنشأت بينهم وبين أساتذهم صلةً قويّة كانت مضرب المثل في التفاف الشبيبة الجامعية حول أساتذهم الرائد، وتضاعفت الآمال في صدر الرجل، فعمل جاهداً على إنشاء كلية الشريعة بدمشق، لتكون خالصةً للثقافة الإسلامية، كما عمل من قبل على إنشاء المعهد العربي الإسلامي، وكانت قاعة البحث بالكلية الناشئة التي صار السباعي عميداً لها محور جذب شديد للطلاب، وجذوةً مشتعلة تدفعهم دفعاً إلى بحوث الشريعة في شتى اتجاهاتها من عقيدة وعبادات ومعاملات، وحدود جنائية وأحوال شخصية، وسياسية داخلية ودولية!.

هذا في حقل التربية والتعليم، أما حقل السياسة فيالله ما أروع وما أبدع! لقد قرأ

الشاب الأستاذ حيوات الرجال العظام من أمثال عبد الله بن المبارك، وأسد بن الفرات والعز بن عبد السلام وابن تيمية، من رجال العلم والجهاد، فآلى أن يقتدي بهم فقيهاً مجاهداً، كان عضواً بمجلس النواب بعد زوال الكابوس الفرنسي، إذ اختاره الشعب المسلم نائباً عن دمشق، فقاوم مُعارضِي الإسلام، وهم طوائفُ شتى، حتى أحمَدُ رُوح العلمانية، واستبعد طابعها المدمر عن الدستور الذي حاولوا أن ينحرفوا به عن مقدّسات العقيدة.

ورأى الصحافة ذات تأثير نفّاذ، فأخذ يُعلن فكرته الإسلامية على صفحاتها، غير مكثفٍ بندواته الكثيرة خارج الجامعة وداخلها، وأنشأ جريدة (المنار) يومية لتكون لسان الحركة الإسلامية التي يقومُ بها زعيماً للإخوان المسلمين في سورية.

ومثلُ هذا الداعية الدؤوب لا تُغفله محابسُ المعتقلات الظالمة منذ دعا إلى الله، فقد زار هذه الدياجير المظلمة مراتٍ عديدة في مناسباتٍ تتوالى وتتابع، بسبب مقاومته للاحتلال بفروعه الثلاثة إنجليزياً وفرنسياً وصهيونياً، وكان يُعتقلُ لا لجهاده في موطنه فحسب، بل لنشاطه في مهاجمة أعداء الإسلام بالعراق ومصر وفلسطين!! فلسطينُ التي جعل يُشئء عنها مئات المقالات، ويُلقَى في إيضاح مأساتها مئات الخطب، ويقوّدُ في سبيلها عشرات المظاهرات، حتّى رأى من واجبه أن يكون بطلاً من أبطالها في ساحة القتال، وفي أحزّ ميادين القتال بالقدس، فقاد الكتائب من تلاميذه وأصدقائه الزّاحفة من سورية إلى القدس، ثم رأى الأمر فوق طاقته حين انسحبت الجيوش العربيّة من الميدان، فعاد إلى دمشق ليكشف أسرار المؤامرات الخادعة التي أدت إلى هذا الانسحاب.

وقد أوغر صدور الكثيرين ممن نقدهم النقد اللاذع، فهذّوه وتوعّدوه، ولكن البطل الذي فتح صدره للرصاص بالقدس، لم يعبأ بما سمع من تهديد، بل قال في إحدى خطبه النارية: أنا الذي أهدّدكم، لأنّ معي الحق.

وإذا كانت جريدة المنار اليومية لم تستطع الاستمرار لما لاقت من عقبات وضعها خصومها في طريقها الشاق فإنّ السباعي قد أصدر مجلة (المسلمون) بعد احتجائها القهري في مصر، كما أصدر مجلة (حضارة الإسلام) لتكمل مسيرتها، والمسلمون وحضارة الإسلام كلتاهما امتداد للخط الإسلامي الذي بدأ به السيد

محمد رشيد رضا بالمنار في مصر، ومحَبّ الدين الخطيب بالفتح، وحسن البنا بالشهاب.

ومؤرُخ الصحافة الإسلامية لابدّ أن يقف طويلاً عند هذه المجلّات الواعية، ليكتب تاريخها على الوجه الصحيح، لأنّ الذين يتحدثون عن الصحافة اليوم في الرسائل الجامعية، يتجاهلون التيار الإسلامي الذي بعث اليقظة في الشعوب، ومثّله هذه المجلّات وأخواتُ لها في العالم الإسلامي، يتجاهلونه عن عمد، على حين يخصّون مجلّات الراقصات والممثّلات والمطربات بفيض من الكتب، باعتبارها مرايا (الفنّ).

ومن لم يتجاهل هذه المجلّات الرائدة ذات الصوت الرنّان من هؤلاء يصبّ عليها جام غضبه، ويكتب عنها كتابة حاقدٍ متأزّم، ولا يجد حرجاً من وصفها بالرجعية، تلك الكلمة التي كانت من أسلحة الشيوعيين في العالم العربي يرّدونها كلّ يوم ولا يسأمون، وفي مقابل ذلك يسمّون أنفسهم (بالتقدميين)، ثم جاء الطوفان فسقطت التقدّمية المزعومة، بعد أن كتُب عنها ما كشف عوارها، وهتكَ أسرارها، وبرئت الرجعية (وهي السلفية الأصلية) من تُرّهات المبطلين، وليس هذا استطراداً مني في هذا المجال، ولكنه كشفٌ للحقائق، وتذكيرٌ بها لمن ألقى السمع.

إنّ زملاء السباعي في حومة الجهاد لا يزالون أحياء، وواجبه عليهم يُحتّم أن يكتبوا صفحات جهاده بالتفصيل، وأن يخرجوا الكتب الخاصّة بالفكرة الإسلامية في كلّ قطر إسلامي، وأنا أعرفُ أن أنصار الفكرة الإسلامية في سورية بالذات قد لا قوا عناء فكرياً ضاغِطاً حين نادوا بالفكرة الإسلامية، لأنّ دعاة العروبة - والعروبة وحدها - قد ارتفع صوئُهم في سورية على نحو أدّى إلى الخذلان، وهم يتجهّمون للإسلام، ويتخذون الدعوة للعروبة ستاراً لمعاداته، مع أنّ أصحاب الفكرة الإسلامية يرحّبون بالعروبة الصحيحة لأنها أسّ الإسلام، وقد نشأ الإسلام عربياً، فمحاولة اصطناع الفرقة بين العروبة والإسلام كيد لئيم.

وفي ميدان الجهاد العالميّ قام الدكتور السباعي برحلات إلى أماكن كثيرة في الشرق والغرب، ليُلقّي كلمة الإسلام في مؤتمرات عالمية، وكان من الصراحة والوضوح بحيثُ هابه مخالفوه، ممن يُظهرون التعاون المظهري في كلماتهم المعسولة ويُخفون ما يمثلون به من الضغائن، ومما يُذكر له في هذا المجال موقفه

عند انعقاد المؤتمر المسيحي الإسلامي في لبنان، إذ كان الغرض من انعقاده محاربة الشيوعية وحدها، كما دبر الأمريكيون برنامج المؤتمر، وقد حلا لهم أن يقولوا: إن الإسلام والمسيحية صفتٌ واحد أمام المدّ الماركسي، ليكسبوا طوائف من المسلمين، إلى جبهة أمريكا.

وقد رأى الدكتور مصطفى أن يُصارع المجتمعين بأنّ عدااء الإسلام للشيوعية لا يجعلنا نسكتُ على مؤازرة أمريكا للصهيونية، وعملها على سلب حقوق المسلمين في فلسطين، فإذا كانت أمريكا تسعى إلى الخير الذي جاءت به المسيحية، فمن واجبها أن تنتصر للحقّ لذات الحق، أما أن تنضمّ جهاراً إلى الصهيونية وتدعو المسلمين إلى تأييدها في اتجاهاتها فهذا موضع الاعتبار! وقد فوجيء الذين عقدوا المؤتمر بأنّ الغرض المستتر في نفوسهم من انعقاده قد تبدّد بعد كلمة الدكتور السباعي، فسكتوا على كمد.

وهذا يذكرنا بموقف الدكتور عبد الحليم محمود شيخ الأزهر الأسبق، حيث دُعي إلى مؤتمر في أمريكا يوطّد العلاقات بين المسيحية والإسلام، وظنّ المجتمعون أنّ الشيخ سيسارع إلى تأييد المؤتمر مرحّباً، ولكنه ألقى قنبلة ساحقة، حين ذكر أنّ الإسلام يعترف بالمسيح، والمسيحيّون لا يعترفون بنبّي الإسلام، ولن يتمّ التعاون إلّا إذا كان الاعتراف متبادلاً، ثمّ إن توطيد العلاقات بين المسيحية والإسلام الذي ينشده المؤتمر، لا يتفق مع البعثات التبشيرية التي ترسلها أمريكا وأوروبا لتنصير المسلمين في شتّى أماكن الأقليات بآسيا وفي أكثر دول أفريقيا، ولو كان التبشير بين الوثنيين، ما اعترض المسلمون، ولكنّ مبشري المسيحية يجعلون هدفهم محاربة الإسلام في أوطانه! فكيف يتمّ التعاون مع هذه الجرائر الفادحة! وهكذا تكون صراحة الدعاة الأحرار!

ومع تفاني الدكتور في الدعوة إلى الكرامة والحرية، فقد اتّهمه بعض خصومه بالغرض والهوى، اتهموه علناً وأرجفوا بأكاذيب لا مبرّر لها، وحين عُوتبوا في ذلك زعموا أنهم ناصحون، وأنّ الإسلام أوجب النصيحة لله ورسوله وللمؤمنين، وقد ردّ عليهم الدكتور بمقالٍ هادف كتبه تحت عنوان (بين النصيحة والتشهير) بدأه بقوله: «إنّ الإنسان معرّض للخطأ والانحراف عن سنن الحق، استجابة لما رُكب فيه من الغرائز وما توارثه من الطباع، ولذلك كان من حقّ المسلم على أخيه أن يقوم

بنصيحته وأن يبصره بعبه، دعا إلى ذلك كتابُ الله، ودعت إليه سُنَّةُ رسوله، وقام به الأخيار من سلفِ هذه الأمة».

وأفاض الكاتب في هذه المعاني، بتدقيقٍ وانسياب، حتى وصل إلى حديث التشهير فقال: «إن من الواجب أن تكون النصيحة سرّاً بين الناصح ومن ينصحه، لا أن تكون على رؤوس الأشهاد، لأنّ النفس الإنسانية لا تقبلُ أن يطلع أحدٌ على عيوبها، والنصيحة العلنية تنم عن الحقد والضغينة، وتدعو المنصوح إلى العناد، وتقلّبه عدوّاً بعد أن كان صديقاً». وأخذ الدكتور يستشهد بكثيرٍ من الوقائع التاريخية التي كانت فيها النصيحة العلنية مصدر فتن وباعث مشكلات، على أن تكون النصيحة مانعة شرّاً، فإذا أدّت إلى وقوع شرٍّ أكبر ممّا هو كائن، فالامتناع عنها واجب، حين تعقبُ تفريق الجماعة وفتنة الناس.

ولا يتسع المجال للحديث عن مؤلفات الكاتب بالتفصيل، ويكفي أن أشير إلى كتابه عن المرأة في ظلّ الإسلام، حيث أظهر رعاية الإسلام لحقوق المرأة بما لم يتأتّ لقانونٍ أوروبيّ نفتخر بتقدمه، ثم وازن بين المرأة في الشرق والغرب محدّداً معاني الحرية بالنسبة للرجل، وبالنسبة للمرأة، وقد كان في ذلك مُلتزماً بالنصوص الصريحة والمواقف المؤكدة.

ويلي كتاب المرأة في المنزلة كتابه الموجز الدقيق عن نظام الحرب والسلام في الإسلام، وهو في أصله محاضرةٌ قويّة تتحدّث عن طريقة المسيحية في معالجة شؤون الحرب، مُوازنةً بمنهج الإسلام في هذا المضمار، ويلي ذلك عرضٌ للدعائم التي يقوم عليها نظامُ السلم الداخلي في الأمة، ومتى تكون الحرب ضروريةً لتأمين السّلم الداخلي، وكان من المناسب أن يُفيض في حديث الأسرى والجزية بما يُظهر عدالة الإسلام، ففعل، ولم يكتفِ الأستاذ بكتبِ الشريعة قرآناً وسنّة، بل رجع إلى المصادر التاريخية المعتمدة مثل: فتوح البلدان للبلاذري، والطبري، وابن الأثير، كما نقل عن كتاب الخراج لأبي يوسف، وكتاب السياسة الشرعية لابن تيمية وغيرهما ما كان موضع تأييد لوجهة نظره، التي تُعبّر عن روح الشريعة الغراء.

بقي أن نتحدّث عن كتابه الرّئان (اشتراكية الإسلام) وأقول: «الرّئان» صادقاً، لأنّ هذا الكتاب قُوبل بحملة ظالمة مغرضة، إذ جعله بعضُ الأدياء بمثابة دعاية إعلامية للماركسية، وهذا ما يبرأ منه الباحث، يبرأ منه بتاريخه الناصع، في محاربة

الشيوعية حرباً لا تعرف الهوادة، وبما ساق في الكتاب نفسه من نصوص إسلامية استقاها من أوثق المصادر، وأتمها صحةً وسداداً، ولكن الغرض يُعْمِي.

ومعروفٌ بادیء ذي بدء أن الاشتراكية في مفهومها السياسي غير الشيوعية، فالاشتراكية تُبَيِّح الملكية الخاصة، وتحميها مما يتهدّدُها من الثورة والانتقاض، وتمنع إقامة الصراع بين الأغنياء والفقراء، والإسلام يتضمّن ذلك ويزيدُ عليه فرض الزكاة للسائل والمحتاج، وإقامة التكافل الاجتماعي على وجه لا يُتَبَحُّ لمسلم أن يجوع، ولا لمسلم أن يعلم حاجة أخيه إلى الطعام وينكل عن إسعافه بالزاد وهو طوع يده! والأستاذ السباعي غير غافل عن استقلال الإسلام بضرب ممتاز من التكافل الاجتماعي اصطلاح هو على تسميته بالاشتراكية الإسلامية، وقد قال في مقدمة الكتاب:

«أنا أعلم أن بعض الغيورين على الإسلام يكرهون هذه التسمية، لأن الاشتراكية في رأيهم موضوعة العصر، ولأنه قد يأتي زمن تبطلُ فيه هذه الموضوعة، ويسود الاعتقاد بمذهبٍ اقتصادي آخر، فنضطرّ إلى العدول عن الاشتراكية الإسلامية».

ثم قال بعد ذلك: «لقد اخترتُ القول بالاشتراكية في الإسلام، مع العلم بكلّ ما يقول هؤلاء، لأنّي لا أعتقد أن الاشتراكية - في مفهومها الإسلامي - ستزول، بل هي نزعة إنسانية تتجلّى في تعاليم الأنبياء ومحاولات الصالحين منذ أقدم العصور، وهدفُ الاشتراكية على اختلاف مذاهبها هو منع الفرد من الاستغلال لرأس المال على حساب الجماهير، وإشرافُ الدولة على فعالية الفرد الاقتصادية، وتحقيق التكافل الاجتماعي بين المواطنين، بحيث تَمَحّي مظاهر الفاقة والحرمان وتفاوت الثروات تفاوتاً فاحشاً يقرنُ فيه الجوع والفقر والمهانة بجانب الترف والرفاهية والقسوة والانحلال الخُلقي».

وإذا كانت الاشتراكية في الإسلام في منطق الأستاذ السباعي تدور حول هذا المفهوم، فهي بعيدة عن الشيوعية الروسية، وبعيدة عن الاشتراكية الغربية في الدول التي تفتقها، وهي تنحصر في تعاليم الإسلام الخالصة، ولو أن الأستاذ السباعي جعل اسم كتابه (التكافل الاجتماعي في الإسلام) ما اعترض أحد عليه، ويسلم كتابه من الضجيج المثار دون التفاتٍ إلى ما تضمّنه الكتاب من حقائق إسلامية لا يمكن المماراة فيها، ولم يستطع أقوى معارض للأستاذ السباعي أن يأتي بحكم شرعي

خالف فيه الأستاذ نصّاً أصيلاً من نصوص الكتاب والسنة! ففيم الاحتجاج؟! .

لقد أحسنت مجلة الأزهر إذ قابلت الكتاب مقابلةً منصفة، وقالت في تأييده^(١): «إنّ الدكتور مصطفى السباعي في كتابه (اشتراكية الإسلام) يُفيضُ الكلام حول المنهاج الإسلامي المتضمّن لأعدلِ اشتراكية عرفها التاريخ». وبعد أن عرضت فصول الكتاب في إيجاز قالت: «إنّه ليسرّنا أن تمتلئ المكتبة العربية، بل الإسلامية بهذا اللون من الكتابة التي يحتاج إليها العصر، والتي يفتقر إلى التزوّد منها أبناء الإسلام». وقد بدأت المجلة حديثها المُنصف بقولها عن الكتاب: «إنه يُعدُّ في طليعة البحوث الفنية الخاصة بما احتواه الإسلام من تعاليم في هذا المضمار، ويمتاز بانتظام مقدماته ونتائجه، وأطراد الفكرة فيه على نسق متكامل، يلمح القارئ فيه دقّة الروح التشريعية، ووفرة الثروة الفقهية، والبعد عن المجازفات والفضول».

ولا أدري أحتاجُ الباحث المجتهد المجاهد، إلى دفاع عن منحاه الإسلامي، حتّى نستمع إلى أقوال خصومه، ومنهم من لا يُحبّ أن يذكر الإسلام بخير ما، أم أنّ جهاده الحافل منذ عرف طريقه إلى أن لقي ربه الكريم سنة ١٩٦٤م في سبيل الله ونبّه وشريعة دينه، وأوطان قومه قد نُسي نسياناً تاماً لدى هؤلاء، فحاولوا أن يطمسوا نوره إطفاءً لنواغر دامية تأكل صدورهم فيتصايحون! .

* * *

(١) مجلة الأزهر: ربيع الأول، سنة ١٣٧٩هـ، ص ٣٧٢.

من أعلام المعاصرين شيخ الإسلام مصطفى صبري

- ١ -

حين كتبتُ بحثي المتواضع عن الشيخ محمد زاهد الكوثري، وكيل المشيخة الإسلامية بتركيا؛ كتب إليّ بعض الفضلاء من المخلصين، يرجون كتابة بحثٍ تالٍ عن الشيخ مصطفى صبري، شيخ الإسلام في دولة آل عثمان، ويعلم الله أنّ الرجل الكبير لم يكن غائباً عن ذهني، ولكنني أشفقتُ من الحديث عنه لتشعب ميادينه، واستعصاء ساحاتها الرحبية على أنّ أحيط بها خبراً، على أنّ في الاجتزاء بالخطوط الواضحة ما يشفع في إغفال الملامح الدقيقة، والغضون الناحلة التي تلوح وتخفي في الجبين العريض.

إني ما ذكرتُ الشيخ الكبير إلّا توافد على ذهني هذا الوصفُ العربي القديم لصاحب الصيحة المججلة في المأزق الضائق وهو (النذير العريان) إذ كان من عادة الأسلاف حين تلوحُ بوادر الخطر ويتنبّه لها ذو بصر سديد أن يخلع ثيابه، ويقف صائحاً فوق مرتفع من الأرض، ويقول مشيراً إلى ثوبه المخلوع، وقد جعل يحركه عن يمين وشمال: لقد حانت الكارثة، أنا النذيرُ العريان. فيعلم السامعون أنّ الأمر جدّ، ويسرعون للتأهب للعاجل دون انتظار.

لقد انتصر مصطفى كمال في موقعة أزمير، فضجّ العالم الإسلامي بالفرحة، ولم يذر أنّ الرجل بتاريخه الماضي المريب سينقلب على تعاليم الإسلام انقلاب الكاره الجحود، فرئت القصائد مادحةً للمنتصر، وتوالت المقالات مقرّظة مهتة، وعرف مصطفى صبري وحده ما ستأتي به الأيام من كوارث ماحقة، فوقف موقف النذير العريان يعلن ما يتوقّعه من الخطر الماحق، ويحدّد أبعاد الكارثة المنتظرة، فكان

النذير العريان حقاً، مع فارق فاجع، هو أنّ النذير القديم كان يجدُّ المستمع المؤيّد، والمستجيب المتحمّس، أما شيخُ الإسلام فلم يجدُّ غير التراب يُلقى في وجهه، إذ وقف المخدوعون يحصبونه في غير هوادة، ويلجئون إلى الضمائر فيتهمونه بالغرض اللئيم والحقْد المتأجّج، ويكيلون الأمداح للذئب الأغبر المتربّص في أنقرة، وفيهم من يجعلُ الشيخ باكياً على مجده الغابر، وحزيناً على مشيخة الإسلام التي فارقتها باختياره.

كانت الحرب ضروراً زبوناً لا تعرفُ الهوادة، ولا وقود لها غير كرامة الرجل وسمعته وماضيه، فلم يثن عن عزمه، وواجه الجموع المترابطة في عدة جرائد يومية، مواجهة المؤمن بحقه، الواثق برأيه، ولا تسل عن انحذارات الأقلام في صحائف استعمارية لا تكن للإسلام قدراً ضئيلاً من الإنصاف! فقد هبّت جميعها تلعن من قالت عنه (الشيخ الهارب) ووجدت من القراء من وافق وأيد، لأنّ مصطفى كمال قد خدع الألباء حيناً من الدهر، فكيف بالدهماء؟ خدع شعراء الصف الأول من أمثال أحمد شوقي وأحمد محرم وأحمد الكاشف، وخدع شيوخاً لم يعرفوا تاريخ الذئب الأغبر، وصدّقوا الإعلام التركي السفیه، حتّى إذا وقعت الكارثة، وسقطت الخلافة، وحوربت الشريعة، وامتهنت الحدود الإسلامية، رجع التائهون إلى عقولهم الغائبة وعصّوا بنان التدم على ما أسلفوه، وكان شوقي أبرع من صوّر هذه الرجعة الحميدة حين قال عن الزعيم الخادع في غضب واستنكار:

أدّوا إلى الغازي النصيحة ينتصخ	إنّ الجواد يشوب بعد جماح
إنّ الغرور سقى الرئيس براحه	كيف احتيالك في صريع الراح؟
تركته كالشبح المؤلّه أمة	لم تسئل بعدُ عبادة الأشباح
هم أطلقوا يده كقنصر فيهم	حتّى تناول كلّ غير مباح
غرّته طاعاتُ الجموع ودولة	وجد السواد لها هوى المرتاح
مالي أطوّقه الملام وطالما	قلّدته المأثور من أمداحي
الحقّ أولى من وليك حرمة	وأحقّ منك بنصرة وكفاح

وُلد شيخ الإسلام في (توقاد) من بلاد الأناضول سنة ١٨٦٩م، ونشأ نشأة علمية في كنف والدٍ حريص على أن يكون ابنه من كبار الفقهاء في المذهب الحنفي، فأبدى نبوغاً مبكراً اجتاز به دور الطلب سريعاً، حيث صار مدرّساً بجامع السلطان

محمد الفاتح في سنّ الثانية والعشرين من عمره، وقد كان متيقظاً لأحداث عصره السياسية، مُشاركاً بقلمه في إيضاح الرأي الإسلامي، ومكافحاً ما يراه من دلائل الظلم والنفاق والمروق، وقد بدأ عمله السياسي بعد إعلان الدستور العثماني الثاني سنة ١٩٠٨ حيثُ انتخب نائباً عن بلده (توقاد).

وكانت لمقدرته الخطابيّة آثارٌ هامة في اجتذاب فريق من النواب إلى رأيه المعارض في مجلس النواب، لأنّ القائمين على سياسة الدولة حينئذ من الاتحاديين قد عملوا على مُحاربة من دُون التُّرك من تابعي الدولة، وأذكوا نار العصبيّة للطورانية وحدها، وهو ما ينكره علماء الإسلام، وظهرت مؤلفاتٌ تُهاجم العرب والأروام والكرد والألبان من المسلمين، وتعدّهم في الدرجة الثانية التي لا تلحق بالطورانيين، هذا إلى السيطرة البالغة على أدوات الإعلام من صحافة وكتبٌ وأندية تُلقى بها المحاضرات.

وقد خُذع المسلمون في العالم الإسلامي بما يتشدّق به الاتحاديون عن مبادئ الحرية والاستقلال، تشدّقاً ينتسب إلى القول وحده، دون الواقع المرير، حتى رأينا مؤلفاته مستقلة تتحدث عن شوكتٌ ونيازي وأنور من زعماء الاتحاديين، وكأنّهم معجزة الإنقاذ للكون كله، لا لتركيا والعالم الإسلامي، وظهر من كتاب الأتراك فلاسفةٌ يؤصّلون النزعة الطورانيّة، ويحتفلون بذكرى جنكيزخان وتيمورلنك وهولاكو، ناسين خلفاء الدولة العظام، الذين سيطروا على نصف أوروبا حيناً من الدهر، والسبب في ذلك أنّهم خلفاء يعتزّون بالإسلام، وفي صحف مصر - حينئذ - قصائدٌ رنانة خُذع أصحابها بالاتحاديين، فكانوا يمجدونهم في كل مناسبة على نحو ما قال حافظ إبراهيم - كمثليّ مما قيل -:

إذا شوكتُ الفاروق قامَ منادياً	إلى الحق لبّاه نيازي وصاحبهُ
ثلاثةُ آسادٍ يُجانبها الردى	وإنّ هي لاقاها الرّدى لا تُجانبه
رجالٌ من الإيمان ملأى نفوسهم	وجيشٌ من الأتراك ظمأى قواضيه

وإذا كان مصطفى صبري قد كشف نيات هؤلاء العُنصريّين، ووقفَ على ما يُدبّرون لمن عداهم من المسلمين، فقد بات مهدّداً بالاغتيال، ففرّ إلى مصر سنة ١٩١٣م، وكتبَ في الصّحف ما يكشفُ سوءات هؤلاء، ولكنّ بعض الغافلين قد ناقضوه وأقلقوا مقامه، فسافر إلى أوروبا دُون أن يترك صيحاته المحذّرة، وجاء

إعدام الشهداء في سورية على يد جمال السفاح مؤكداً لما قاله شيخ الإسلام .

ثم اندلعت الحرب العالمية الأولى فتسرع الاتحاديون إلى الانضمام إلى ألمانيا عن نزقٍ عجول، لم يزن الواقع السياسي بميزان الاتئاد المطمئن، لأن إعلان الحرب ليس ملهأة يقوم بها ثلاثة أو أربعة ممن يلون الزمام انخداعاً بأوهام يلققها سفيرٌ محنك ليضم البلهاء إلى صفه! وكانت الكارثة محققة حين هُزمت تركيا، وفرَّ زعماء الاتحاديين من البلاد مكللين بالعار .

ومن مضحكات الزّمن أن يكتب علمانيّ جهولٌ عن الخلافة العثمانية فيدعي أنها جرّت الهزيمة على تركيا! مع أنّ الذي أعلن الحرب هم الاتحاديون ذوو الأمر والنهي، إذ نزعوا السلطة من الخليفة، وأصبح معزولاً لا يقوم بغير صلاة الجمعة كلّ أسبوع!!

وهكذا صدقت فراسة مصطفى صبري في هؤلاء الأغرار، ورأى ببصيرته الجوّ صالحاً لعودته بعد فرار الاتحاديّين، فرجع سريعاً ليزاول نشاطه السياسي في الأستانة، وسارث له إذ ذاك سمعةٌ ممتازة بين عارفي فضله، ومقدّري كفاحه، فعُيّن عضواً في مجلس الشيوخ، ثم اختير شيخاً للإسلام والمسلمين وناب عن (الصدر الأعظم) في رئاسة الوزارة حين سافر إلى المفاوضات!

وتصدّره في هذه المجالات الساطعة المرموقة لم يأت من فراغ، فبين علماء الإسلام في تركيا من كانوا في مرتبة أساتذته، ولكنهم عكفوا دائبين على دروسهم العلمية في المساجد، فأنحصرت جدواهم في الدائرة العلمية وحدها، أما السياسة فلها من نوابغ العلماء من عايشوا العصر معايشة الخبير الدارس، وقد يكتوون بنار السياسة، ولكنهم فرحون بما يلقون كلّ آن من عناء، لأنهم - حقيقةً - ورثة الأنبياء .

تواري الاتحاديون، وجاء الكماليّون، وشيخ الإسلام يعرف جيّداً تاريخ مصطفى كمال، ويعلم أنه مغامر متتهز، وقد أَرْضى بريطانيا وفرنسا بما بذله من وعود تحقّق آمال أوروبا كلها في إسقاط الخلافة! حيث لم ير الأوروبيون أن يكتفوا بعزل الخليفة - دون قرار رسمي - عن شؤون الدولة، واختصاره على المظاهر الدينية وحدها، بل آثروا البتر النهائي للخلافة!! تلك التي تجمع كلمة المسلمين في المشرق والمغرب، ولئن ضعفت الآن فقد تأتي الأيام بما يُعيد لها القوة والنفوذ، فتكون شجى في الحلق، ووقراً في الآذان، ولم يطل الوقت، حيث خطا مصطفى

كمال الخطوة الأولى، إذ أعلن رسمياً فصل السلطة عن الخلافة، مدّعياً أن مجلس الأمة هو الذي سيدير دفة الحكم، فلا تصيرُ بذلك في يد واحدة، وهنا عرف مصطفى صبري أنه لا يستطيع المعارضة في أنقرة، فأتجه إلى مصر ليواصل جهاده الطويل.

هاجر شيخ الإسلام مصطفى صبري إلى مصر لا ليجد الراحة بعد العناء، بل ليرى الإرهاق المتواصل، والكّد المتشعب، فقد كان عام ١٩٢٣ الذي سبق إلغاء الخلافة، ومهد للأذهان بقبول هذا الإفك الصارخ، أشقّ الأعوام بأساً في حياته التضالية، لأنه أتى إلى مصر ليفضح سائر الترمويه التي أسدلها الكماليون على ضغائنهم المستترة، فرأى الجوّ مسّماً بالتهريج السطحي الهاتف بأعمال كمال أتاتورك، فالملاحدة من ذيول الغرب يرون فيه المثل الأعلى للإنقاذ العاجل من سنوات التقهقر والانحدار، كما يرون مُعارضيه أمثلةً متخلّفة للرجعية والجمود ومناوأة للتقدّم، ولهم جرائمهم الذائعة، وجاههم الممتد في المناصب والمحافل والندوات، وإذا كتب المهاجر المخلص ردوده على مزاعم هؤلاء لم تُنشر على وجهها الصحيح، وإذا نُشر بعضها دون بعض تلقفها الشّتامون المتخَرّصون لينتقلوا من الموضوعية إلى الذاتية، فيقول قائلهم: إن شيخ الإسلام التركي يبكي سلطانه الجائر حين كان أداة الطغيان في أيدي الظلمة من السلاطين، وهو يحنّ إلى عهود السيطرة الغاشمة ليكون صاحب الكلمة المسموعة ونائب الصّدر الأعظم!.

وقد رأى الشيخ المهاجر أن يترك الردّ الصحفي حيث لا يتأخّر له أن يقول كل ما لديه، إلى تأليف كتاب مستقل تحت عنوان (النكير على منكري النعمة، من الدين والخلافة والأمة) وإذا استنكر ذوو الغرض صدور هذه الصيحة الجريئة بين نهيق الهتافين، وصراخ الوصوليين، فإنّ ذوي الغيرة من أنصار الحق قد احتضنوا الكتاب الرائع على قلتهم القليلة! ولعلنا نذكر بالخير الأستاذ الدكتور محمد محمد حسين - رحمه الله - حين أفرد فصلاً هاماً عن هذا الكتاب ليتّم في الجزء الثاني من كتابه^(١) (الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر) كما نذكرُ بالإعجاب الدكتور مصطفى حلمي حين خصّ هذا الكتاب بتحليل كاشف في مؤلّف مستقل تحت عنوان

(١) الاتجاهات الوطنية، للدكتور محمد محمد حسين ط ٢ (ص ٦٩ إلى ص ٨٠).

(الأسرار الخفية وراء إلغاء الخلافة الإسلامية)^(١) ثم أتبع تحليله الذكي بنصّ تام للكتاب مُحاطاً بمزيد من الشروح والتعليقات وضّحت كثيراً من الغوامض الخافية، وقد أحسن الدكتور محمد حسين حين حدّد أغراض الكتاب في مسائل أربع هي:

- (١) الكلام على فساد الدين لدى الكماليين .
 - (٢) الكلام على عصبيتهم للجنس التركي ومحاربتهم للعصية الإسلامية .
 - (٣) إيضاح أن الكماليين والاتحاديين اسمان مختلفان لشيء واحد .
 - (٤) صلة اليهود بالكماليين من ناحية، وتواطؤهم مع الإنجليز من ناحية ثانية .
- وجميع هذه النقاط قد أوضحها شيخ الإسلام إيضاحاً كاشفاً في جرأة بالغة لا تعرف الإغضاء، فقد أكّد شيخ الإسلام أنّ الذين نصحوه بالإغضاء عن مثالب مصطفى كمال لتعلّق العامة به مخطئون، لأنّ من وظيفة العلماء إيضاح الحق، وكشف المثالب، وليس من وظيفتهم مُحابة العامة، ومجاراة الدهماء! والمسألة هنا ليست مسألة الدهماء فقط، فإنّ أبواق أتاتورك في مصر كانوا من صفوة المرموقين في الصحافة والمجتمع والمناصب، ولهم أسماءهم الرنّانة ذات البريق الأخاذ، كما أفاض المؤلف في إيضاح الاحتذاء السافر لدى الكماليين للغرب في التخلص من السلطان الديني لأنّه في رأيهم عامل التقهقر والجمود، حيث جعلوا لرجال الإسلام وعلمائه سلطة حياديّة كسلطة الكنيسة التي كانت ماثلة في أوروبا، والإسلام بريء من تسلّط العلماء، واستبداد الخلفاء، وإذا وقع ذلك في عهد ما، فهو مخالفٌ لمنطق الإسلام، ولا يمكن أن يؤاخذ به .

أمّا تحريم ما أحل الله من تعدد الزوجات، مع إباحة الاختلاط السافر بين الرجال والنساء في أحقر مشاهد التبرج والابتذال، فليس الغرب هو المثل المحتذى في ذلك حتى ينقل عنه الكماليون كلّ انحدار، وقد قال مصطفى كمال: إنّ الخلافة الإسلامية سبب لشقاء الأتراك، وإنّ نبيّ الإسلام أمر تلاميذه أن يدعوا الأمم إلى الإسلام، ولم يأمرهم أن يتولوا حكومتهم . وقد أفسد الشيخ هذا المنطق بأدلّته، وقال: «إن التعبير عن صحابة رسول الله بالتلاميذ يدلّ على أن الرجل يعدّ سيد الخلق مُدرّساً في مدرسة، وليس صاحب دعوة لإنقاذ البرية من الضلال إلى الهداية» .

(١) الأسرار الخفية، للدكتور مصطفى حلمي، دار الدعوة للطبع والنشر، سنة ١٩٨٥ م .

وما كتبه الشيخ عن عداوة الكماليين للإسلام باعتباره ديناً عربياً حقاً لا مزية فيه، حيث انطلقت أبواقهم لتحبي العقائد الوثنية التركية القديمة، وكأنها وحدها بديلٌ يمحو تاريخ الإسلام! وأغربُ شيء في هذا المضمار أن أتاتورك قد ألف مجعلاً لتنقية اللغة التركية من مختلف الألفاظ العربية والفارسية!! والاستعانة بالألفاظ الإنجليزية والفرنسية!! فلو كانت الدعوة إلى التخلص من العربية والفارسية تأصيلاً للغة التركية وحدها! فكيف استساغ أن تملأ الألفاظ الإنجليزية والفرنسية اللغة الجديدة التي ارتضاها أتاتورك! بحيث أصبح هناك فارقٌ بين اللغة التركية العثمانية، واللغة التركية الكمالية! فالأولى تشمل ألفاظاً من العربية والفارسية، والثانية تشمل ألفاظاً أوروبية، وليست المسألة في ذلك مسألة مصطلحات علمية حتى يقال: إنه يضم ألفاظ الحضارة المزدهرة في هذه الآونة، فالأسماء العلمية لا خلاف عليها، ولكنها المحاولة الجريئة للتتكّر الصارخ لكل ما هو إسلامي.

ومما أوضحه المؤلف تقريره الجازم بصلّة الكماليين ومن قبلهم الاتحاديون باليهود، حيث عمل مصطفى كمال على مصادقة اليهود وحدهم دون الأجناس التي كانت تدرج تحت راية الخلافة الإسلامية، وقد رجع فيما أكد إلى ما كتبه أنصار أتاتورك، لا إلى ما كتبه خصومه، وفي مقدمة هؤلاء الأنصار (أرمسترونج) في كتابه (الذئب الأغبر) الذي يتضمن سيرة الزعيم بإطراء لا يقف عند حدّ، فقد أكد هذا المؤلف أن جماعة الاتحاد والترقي كانت تعقد اجتماعاتها في بيوت اليهود المنتمين للجنسية الإيطالية، وقد كان وزير ماليتهم (يافيد) يهودياً، أما وزيرة المعارف في عهد الكماليين فهي من أصل يهودي، ولها اهتمامات ثقافية في مؤلفاتها المنتشرة بالفكر اليهودي، ويقول الشيخ بعد ما قدّم:

«ولم يسلم من اعتدائهم - يريد الكماليين - في تركيا ما بين ألبانها وعربها وكردها وأرمنها وأروامها وشراكستها وأتراكها إلا اليهود» فما مدلول هذا الواقع المشاهد؟!!

أمّا فصلُ الدين عن الدولة فقد كان المجال الفقهي الرائع الذي دحضه الشيخ مصطفى صبري بأدلة نافذة، وإذا كانت هذه المسألة الآن من الوضوح السافر بحيث لا تتحمّل النقاش، بعد أن صدر كتاب (الإسلام وأصول الحكم) في مصر، وأوضح الناقدون خطأه الجريء، فإن الحديث عن هذا الفصل قبل سقوط الخلافة كان جديداً

مفيداً، وكان الشيخ أول من أبطل ادّعاءات ذوي الإصلاح الموهوم، وله في ذلك سبقه المشكور، وجهادُه المذخر ثوابه عند ربّه، فهو لا يضيع أجر المحسنين .

- ٢ -

صرّح الشرع عن وجهه بعد عام واحد من إقامة شيخ الإسلام في مصر، حيث أعلن الكماليّون إلغاء الخلافة الإسلاميّة، وحلّ الجماعات الدينيّة، وإلغاء المحاكم الشرعيّة، وفرض القبّة والملابس المدنيّة، وإلغاء النصّ الدستوري القائل بأن الإسلام دين الدولة، وإباحة زواج النصراني بالمرأة المسلمة، ثم تحريم الأذان بالمساجد وتلاوة القرآن بالعربيّة! وهنا حقّ لمصطفى صبري أن يخطب خصومه بقول القائل :

أمرتهم أمري بمنعرج اللوى فلم يستبينوا الرشد إلّا ضحى الغد

لقد كان مناوئوه يعتقدون أنّ تقييد الخليفة في دائرة ضيقة من المراسيم الدينيّة، لا يُخفي نيّة شرّ لتعاليم الإسلام، وقوانين الشريعة، وهبّوا يصيحون في وجه شيخ الإسلام بأنّه ذو غرض خاص، فهو متورّ لانتزاع المشيخة منه، حتّى قال قائلهم في جريدة المقطم مخاطباً شيخ الإسلام^(١):

«لقد جرّدت من حكومة الكماليين شخصاً موهوماً حكمت عليه بالردة، مع أنّهم الذين نصبوا أنفسهم للدفاع عن بيضة الإسلام، وهل معنى الخلافة أنّه لا يُنفذ الأحكام إلا الخليفة وحكومته، وحكومته وراثية لم تنزل على إرادة المسلمين، إذ يستبدّ الخليفة معهم بأمر الناس على رغمهم، والله تعالى يقول: ﴿وَأْمُرْهُمْ شُرُوعِي﴾ [الشورى: ٣٨] ويقول ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾ [آل عمران: ١٥٩]. اللهم إنّ الكماليين قد اتّبعا الصراط المستقيم، والدين القويم، فلم يتركوك مع مولاك المخلوع تسترشدون وتأتّمرون بإشارات الأجانب، وتحنون ظهور المسلمين لصعاليك اليونان، وإن الكماليين قد رجعوا إلى قواعد الشرع الحنيفة، فجعلوا اختيار أمير المؤمنين بآراء المسلمين، لا بالوراثية، ولم يجعلوا الخليفة يتبع هواه فيوحي بإحلال ما حرّم الله وتحريم ما أحل».

(١) نقلا عن كتاب (الأسرار الخفية) للدكتور مصطفى حلمي ص ١٣٢.

هكذا كان المخدوعون من الكتّاب في مصر يتوهمون أن الكماليتين يدافعون عن بيضة الإسلام، وأنهم اتبعوا الصراط المستقيم والدين القويم، وتقيّدوا بالشورى التي فرضها الإسلام، أما الخليفة فمستبدّ يحلّ ما حرم الله ويحرم ما أحلّ، وأما شيخ الإسلام فأداته في التحليل والتحريم، والإذعان لإشارات الأجانب! وقد رجع الكماليون إلى قواعد الشرع حين اختاروا أمير المؤمنين بآراء المسلمين ومشورتهم!!!

هكذا تطمس الحقائق، لأنّ المجلس النيابي الذي اختار أمير المؤمنين الجديد كان لا يملك لنفسه شيئاً، بل ياتمر بأمر شخص واحد، يشير بالرأي فيسارع الأعضاء إلى الإذعان دون اعتراض، ولا نحتاجُ إلى إيضاح هذه الحقيقة بل رأيناها عملياً تتمثل في مصر على مدى أربعين عاماً، منذ صنع الثائرون أصناماً تجلس على أرائك خشبية، فتكون مثلها مسلوبة الإرادة، منقادة العنان إلى حيث يسحبها بنانٌ يشير، وإنّ لم يتلفظ!! وكَمْ كانت الصدمة أليمة حين أفاقَ النائمون من كراههم المديد، فوجدوا الأحلام قد تبدّدت، ورأوا الحاكم العادل طاغية جباراً من أكبر الطواغيت! ولا ننكر أن فريقاً من علماء الإسلام في مصر قد آزرُوا شيخ الإسلام، ووقفوا في اتجاهه أمام المخدوعين من كتّاب جرائد المقطّم والسياسة والأهرام، ولكنّ الصوت الغالب كان مع المخدوعين!.

على أنّ بشاعة الإلحاد والمروق عند أتاتورك، قد دفعت من كانوا يؤازرونه من غير العلماء إلى مخاصمته وفضح سرائره، وأضرَبُ المثل بالمؤرّخ الكبير الأستاذ محمد عبد الله عنان، حيث كان من أوائل المتحمّسين للحركة التركيّة الملحدة، وظلّ بعد سقوط الخلافة، يلتمسُ لها الأعذار، ويخلقُ من التبريرات الموهومة ما يعتصر به الأفكار اعتصاراً شاذّاً لتثبت حروفها في عيون القراء، دون اعتراض، فلما طفح الكيل، وبدا الشيطان الآثم بوجهه الكالح المقيت، كرّ بالملامة على الكماليين منذداً، وأعاد بعد عشرة أعوام ما سبق أن كرّره شيخ الإسلام مصطفى صبري في كتابه (النكير على منكري النعمة من الدين والخلافة والأمة) بل زاد فكشف الدور الرّوسيّ في محنة الإسلام بتركيا، وكيف احتذى أتاتورك حذو الثورة الماركسية في عداء الدين إلى درجة التلذّد والغليان، وسأنقل بعض ما قاله الأستاذ عنان، لأنّه سلّط الضوء على ناحية خافية تجاهلها الكاتبون، إذ أغفلوا الدور الرّوسيّ، وجعلوا

التأثير خالصاً لفرنسا وإنجلترا وعملاء الصهيونية، يقول الكاتب من مقالٍ حارّ نشره تحت عنوان (حربٌ منظمة يشهرها الكماليتون على الإسلام)^(١):

«إنّ تركيا الجمهورية تحذو في تلك الحرب اللادينية حذو روسيا البلشفية، وهي الدولة الغربية الوحيدة التي تُشهّر الحرب على النصرانية، وتطارّد كلّ مظاهرها، ولم يقع الشّبه عرضاً بين الدولتين اللادينيتين، ولكنّه يقوم على نفس المبادئ والروح اللادينية المشتركة، وقد كانت روسيا البلشفية أكبر عضد للكماليين في حرب التحرير التركية، ولم يبذل البلاشفة هذا العون للكماليين حبّاً لتركيا، ولكنّه كان قطعةً من برنامجهم في محاربة الاستعمار البريطاني... وروسيا تشدّ أزر تركيا في كلّ مظاهرة دولية، وتركيا تعرف أنّها مدينةٌ بحياتها لروسيا، وحكومة أنقرة ما زالت حكومة ثورية على مثل حكومة موسكو، وهي تحذو حذوها في تطبيق مبادئ الهدم والإباحة إلى أبعد الحدود، وكما أنّ النزعة الإلحادية تسود الثورة البلشفية، فكذلك الثورة الكمالية تسودها هذه النزعة، وإذن فإنّ هذا الإلحاد الذي يطبع كلّ تصرّفات الكماليين، وهذه الإباحة التي يغرقون فيها، وهذه الحرب اللادينية المستعرة التي يشهرونها ترجع في كثير من وجوها إلى غريس أسانذتهم ومُدريّهم سادة موسكو، على أنّ الفكرة الثورية والإلحادية ليست كل شيء في سياسة الكماليين، فهناك بواعث أخرى تحفزهم إلى هذه البغضاء المتأججة نحو الإسلام، ذلك أنّ الكماليين يرون أنّ الإسلام كان سبباً في كل ما أصاب تركيا القديمة من المحن التي أودت بقوتها، وأنّ صفتها الإسلامية هي التي أثارت الدول الغربية ضدها خلال العصور المختلفة».

ثم قال الأستاذ عنان في تفنيد هذا الزعم: «لقد كان الإسلام حقّاً من العوامل التي أثارت أوروبا النصرانية وجمعت كلمتها ضد الدولة العثمانية، ولكنه لم يكن بهذا الاعتبار مسؤولاً عما أصاب الدولة العثمانية من المحن وضروب الانحلال، بقدر ما تُسأل عنه السياسة الغاشمة والأساليب الهمجية المخزّبة التي سارت عليها هذه الدولة، وعجز الترك المطبق عن أن يكونوا عاملاً من عوامل الإنشاء في صرح الحضارة الحديثة».

وإذا كان على المرء أن يسعى إلى الخير، وليس عليه أن تتمّ المطالب، فقد سعى

(١) مجلة الرسالة: العدد ٨٠، ١٤/١/١٩٣٥.

شيخ الإسلام إلى خير الأمة الإسلامية ما استطاع، ولم يضع جهاده الدائب، وحسبه أن أثبت الأيام سداد رأيه، وسلامة منحاہ.

نتنقل الآن إلى جهاده العلمی بعد أن ألمحنا إلى جهاده السیاسی، والحق أن الرجل فی مهجره بمصر - وقد یش من صلاح الحال بترکیا، بعد أن بذل کلّ جهد فی كشف العوار - لم یرکن إلى الدعة، بل جعل یرقب التيارات الفکرية المعاصرة لیواجهها بما یعتقد، ولا ننکر علیه حقّه فی أن یقول ما یعتقد، وأن یعارض الأعلام الأئمة من رجال الفکر فی عصره، فهو لا یقلّ عنهم فی میدان البحث والتنقیب، ولکنی أنکر علیه المجادلة بغير التي هي أحسن، فقد غلا غلوّاً شديداً فی التهجم دون مبرّر، حتی رمى بالكفر الصریح أئمة من أئمة المسلمين المعاصرين حين خالف اتجاههم العلمی فی الشرح والتأویل، ومثله فی مكانته العلمیة لا یجهل أن النقاش غیر السباب، وأن الولوج إلى الضمائر المستترة، ومحاولة استنطاقها بغير ما تکرّ مما یجب أن یتعد عنه کلّ مسلم ناشئ؛ فضلاً عن شیخ الإسلام فی دولة الخلافة.

وقد كان مصطفى صبري مدرّساً ناشئاً بجامعة السلطان محمد الفاتح، والإمام محمد عبده علّم الأعلام فی العصر، فهو بمثابة أستاذ كبير له، وقد یخالف التلميذ أستاذه، ویفتح الله علیه بما یصحّح به بعض أخطائه، فتلك سنّة العلم منذ عرف الناس حیوات العلماء، فكان علیه إذا خالف اتجاهه الفکری ألا یرميه بالكفر وممالة الغرب، مع أن الشیخ الإمام ما نُفي من بلده إلا لوقوفه فی وجه الاستعمار، وما وُجّهه المستشرقون فی افتراءاتهم الظالمة بسیف أقوى مقطّعا، وأحدّ إثنائاً من مقالات الإمام، تلك التي فتحت الطريق لتلاميذه فعرفوا کیف یتبصّرون للإسلام بسلاح لا یفلّ! وسأحاول أن أمرّ سريعا على مؤلفات الشیخ فی هذا المعترك العلمی معقباً بما أراه.

لقد ألّف كتابه الثاني بعد كتاب النکیر على منکري النعمة فی الدين والخلافة والأمة - وقد تحدّث عنه من قبل - خاصّاً بترجمة معاني القرآن، حيث اعترّم الإمام المراغي أن یقوم على إعداد ترجمة أمينة لهذه المعاني تكون بديلاً لترجمات ذوي الاستشراق، فعارضه ملاً كثير، ومنهم الشیخ مصطفى صبري، الذي أصدر حكمه المحرّم المستفظع لهذه الترجمة، وقد مرّت الأيام فعلم المخلصون صدق اتجاه

المراغي، وقاموا بترجمة المعاني إلى اللغات الحيّة في الغرب، مع أنّ رئيس المحكمة العليا الشرعية حينئذٍ قد شنّ مع نفرٍ من زملائه القضية ناراً حامية في الصحف، وجمع ما قاله في كتاب تحت عنوان (حدث الأحداث في الإسلام) وكأنّ الأمر من الخطورة الفادحة يبلغ مبلغ حدث الأحداث!! فماذا نقول إذن عن سقوط الأندلس وهزيمة يونيو، ومأساة البوسنة والهرسك! في هذا الاتجاه سار الشيخ، وزاد في غلوائه منكرأ قادحاً هاجياً، وهذا موضع المؤاخذه، وقد بَحّ صوت الداعين إلى الترجمة مؤكدين أنها ترجمة معانٍ فحسب، أما النص المعجز فلا يترجم. فلم يستمع أحد لهم.

ثم أصدر الشيخ كتابه (موقف البشر تحت سلطان القدر) ليردّ على ما زعمه المغرضون من أنّ فهم المسلمين للقدرية بمعناها الجبريّ كان مدعاة هبوطهم وانحطاطهم، وليت الشيخ سار في اتجاهه الصائب دون أن يلمز أو ينز، فقد تعرّض لما قال الشيخ محمد عبده في هذا المجال، ورآه منحرفاً عن الصواب كي يُرضي النّاقِدَ الغربي والمتفرنّج الشرقي. وهذا خطأ لا صحّة فيه، لأنّ الإمام قد أتى بالمنطق المعقول حين أكّد أن أقوال النبي ﷺ وسلوكه وتصرفاته تشهد كلها بما كان له من إيمان لا يتزعزع بحرية الأفعال، فهل نُقل عنه أنه اتكأ يوماً على وسادته، واكتفى بالاستسلام للقدر في تمام دعوته قائلاً: لقد كفّل الله لي النصر فلا حاجة إلى التعب. كلاً بل لم تكن تزيده الوعود الصادقة إلا نشاطاً، ولا تجد العصمة الإلهية من نفسه إلّا حزماً واحتياطاً، بهذا الأسلوب الكاشف كتب الإمام صفحات تأتلق بالضياء! فأين إرضاء الغربيين فيما قال!.

وقد ألّف الشيخ بعد ذلك كتابه الموجز تحت عنوان (قولي في المرأة مقارناً بأقوال مقلّدة الغرب) وهو كتابٌ جيّد في بابهِ، ومعارضته لخصومه سديدة موفّقة، كما أنّ خبرته الشخصية بما انحرف إليه المجتمع الإسلامي من تهتّك في التبرج والابتذال في شواطئ البحر، والاختلاط الداعر مما يؤكد أنّه كان قلقاً على هذا التطوّر المتهاك على الابتذال والنزق، وتلا هذا الكتاب مؤلفه عن (الذين يؤمنون بالغيب والذين لا يؤمنون) وهو كتاب في حاجة إلى تنقيح، لأنّه جعل ممن لا يؤمنون بالغيب فضلاء المتحدّثين عن الإسلام، وهو خطأ سافر، ويزيد من خطورته أنّه اتهم أكبر مدافع عن عالم الغيب بإنكار عالم الغيب، فقد ألّف الأستاذ

فريد وجدي كتاب (على أطلال المذهب المادي) في عدّة أجزاء لينصر عالم الغيب، ويهتك كفر المادّيين، فكيف تُسلّط عليه أقسى العبارات الظالمة، وهو بريء!!

كما أن عظماء الكتاب الذين كتبوا سيرة رسول الله ﷺ من أمثال هيكل ووجدي لا ينكرون المعجزة كما ألح مصطفى صبري في ذلك، ولكنهم لا يجعلونها وحدها دليل نبوته ﷺ، فكيف يؤاخذهم الرجل بما لم يقولوه، كيف يُرمى الأستاذ فريد وجدي بإنكار المعجزة، وقد قال ما نصّه، بعد أن أثبت قيام الإسلام على منطق العقل^(١):

«ليس مؤدّى هذا الكلام أن النبي ﷺ لم تصدر منه معجزات كسائر إخوانه الأنبياء، ولكن مؤداه، أنه لم يجعل المعجزات أساساً لدعوته، أما معجزاته ﷺ فكثيرة شهدها عدد من الناس لا يدع للشك مجالاً». أنقول: إن الشيخ نقد دون أن يقرأ!! وكيف؟.

ويجيء الحديث عن كتاب الشيخ (موقف العقل والعلم والدين من رب العالمين) ويقع في أربعة أجزاء كبار، ليشمل خلاصة تجارب الشيخ عملاً وعلماً، وليؤكد ما يلح عليه من الانصراف عن تقليد الغرب من ناحية، وترك التقليد في المسائل الدينيّة من ناحية أخرى، وعيبُ الكتاب هو الهجوم الصارخ على مخالفيه من الأعلام، ورميهم بالكفر الصريح! وهو عيبٌ يحتاج إلى اعتذار، قد نراه فيما أصيب به الرجل من يأسي قاتل من استقامة الأمر على ما يريد من إصلاح، وإلى ما كابده من خصومه في السياسة الذين أزعجوه عن مستقرّه، ورموه بالتأخّر والرجعيّة، وابتزاز أموال حملها من تركيا، وهو من كل هذا بريء بريء!.

قال الشيخ إنّ دافعه إلى تأليف هذا الكتاب ما رآه بتركيا من قبل من انصراف المتعلّمين عن الدين، وما يراه كذلك الآن في مصر من هذا الانصراف، وهو دافعٌ حميد يشكر عليه، غير أنه أكّد أنّ التقليد الغربيّ في مصر الذي يمارسه بعض الكتاب هو الذي يضعه في بؤرة النقد الجريء.

ولو اقتصر المؤلف الكبير على المقلّدين من ذوي الانتماء الفكري إلى الثقافة

(١) من معالم الإسلام، للأستاذ فريد وجدي (ص ٢٦٣) جمعه وحققه الدكتور محمد رجب البيومي.

الغربية لشارك إخوانه المجاهدين في محاربة هذا التيار، ولكنّه جعل أئمة الفضل والعلم والإيمان من أمثال محمد عبده ومحمد مصطفى المراغي ومحمد رشيد رضا، ومحمد فريد وجدي ومحمود شلتوت من الخصوم الألداء الذين أسهموا في التقليد الغربي!! وكان المنتظر أن يقف الرجل في جبهة واحدة مع هؤلاء الأفاضل، لأنهم شركاؤه في الحميّة الإسلامية والغيرة الدينيّة وآلام الحاضر، وآمال المستقبل، وإذا اختلف معهم في الرأي فلن يكون اختلاف المخاصم اللدود الذي يرمي بالكفر والضلال، بل اختلاف الأسرة الواحدة في مسألة تتنوّع فيها وجوه الرأي، وكلّ عضو حريصٌ على أن ينتهي الخلاف إلى العناق والاحتضان، لا إلى المنازعة والعدوان.

وقد أكّد أنّ علم الكلام بمنطقه الصارم هو بابُ الدفاع عن العقيدة، ونسي أنّ الإمام محمد عبده هو الذي قدّم في هذا العصر علم الكلام في معرض مستنير حين كتب رسالة التوحيد، فلخصّ المصطفى المختار من كتب السالفين في هذا المجال، وأضاف إليه من الأبواب الجديدة ما أمده بالحيوية والنماء حين تحدث عن نظرية النبوة، والإرادة الإنسانية وانفساح مجال الحرية في أفعال الإنسان، ووظيفة الرسل في المجتمع، والعوامل الهامة في انتشار الإسلام.

ولا أستطيع أن أنقد الرجل الكبير لحدة شططه، فأنا أقدر جهاده، وأعلمُ خلوص سريرته، ولكنّي أنقل سطوراً قليلةً قالها الأستاذ الدكتور أحمد فؤاد الأهواني في نقد الكتاب أراها تعبّر عن رأيي، فقد قال^(١) بعد أن عرض أسماء محمد حسين هيكل وفريد وجدي ورشيد رضا ومحمد عبده: «ولم يسلم أيّ واحد من هؤلاء من مطاعن المؤلف، بل الذهاب إلى تكفيره بحجّة إنكار الوحي والنبوة والمعجزة، فهو يقول (ص ٢٩): «وكان الأستاذ فريد وجدي بك من غلاة منكري المعجزات، بدعوى أنها مخالفة للعقل وسنة الكون، كما ادّعى هيكل باشا، حتى إن الأستاذ وجدي ينكر البعث بعد الموت وينكر إعجاز القرآن!! وغير ذلك من الاتهامات المتناثرة في صفحات الكتاب بأجزائه الأربعة، وهي تخرج بهيكل ووجدي من الإيمان إلى الكفر».

ثم يقول الدكتور الأهواني: «وقد قرأنا (محمد) لهيكل، ومقالات فريد وجدي، فلم نجد فيها ما يستوجب الكفر، بل هي على العكس دفاع مجيد عن العقيدة».

(١) مجلة الكتاب (يناير سنة ١٩٥٢م) ص ٨٦.

ولعلّ القارىء يعجب حين يعلم أن الشيخ الكبير رمانى بالكفر فى الجزء الثانى
من كتابه ، لأننى استشهدت بأبيات لمعروف الرصافى وكنتُ طالباً صغيراً بكلية اللغة
العربية ، وأشهدُ لقد فرحت بالفتات الشيخ من أوجه إلى السفح الذى آوى إليه ،
وكان خاطري يردّد قول ابن الدمينه :

لئن ساءنى أن نلتنى بمساءة لقد سرّنى أنى خطرت ببالك
رحمه الله وأكرم مثواه .

* * *

الفهرس

الصفحة

الموضوع

٢٥٤.....	عجاج نويهض	٥	مقدمة الجزء الثالث
٢٦٨.....	علي الطنطاوي	٧	إبراهيم الجبالي
٢٨٥.....	قدري حافظ طوقان	٢٠	أبو الحسن الندوي
٢٩٩.....	مالك بن نبي	٤٠	أبو الكلام آزاد
٣١٤.....	محمد إسعاف النشاشيبي	٥٤	أحمد زكي باشا
٣٢٧.....	محمد بخيت المطيعي	٦٨ ..	جاد الحق علي جاد الحق
٣٤٧.....	محمد البهيّ	٨٩ ..	حسن حسني عبد الوهاب
٣٥٩.....	محمد توفيق البكري	١٠٢	حفني ناصف
٣٧٢.....	محمد صادق عرجون	١١٦	حمد الجاسر
٣٨٦.....	محمد علّال الفاسي	١٣٢	خير الدين الزركلي
٤٠٠.....	محمد الغزالي	١٤٦	سيّد قطب
٤٢٢.....	محمد محمد المدني	١٦٩	سعيد النورسي
٤٣٨.....	محمد يوسف موسى	١٨٤	طاهر الجزائري
٤٥٣.....	محمود خطاب السبكي	١٩٦	عبد الرزاق السنهوري
٤٦٧.....	مصطفى حسني السباعي	٢١١	عبد الرحمن تاج
٤٨١.....	مصطفى صبري	٢٣٠	عبد الرحمن عزام
٤٩٦.....	الفهرس	٢٤٠	عبد الله بن كُثُون